

مختار من مقالات المؤتمر العالمي الحادي عشر للوحدة الإسلامية

مجموعة من المقالات المختارة
للمؤتمر العالمي الحادي عشر للوحدة الإسلامية
ربيع الأول ١٤١٩ هـ . ق

الجزء الثاني



مكتبة
مؤمن قريش

www.muhammadquraysh.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خصائص الإسلام العامة

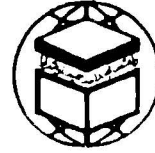
(الجزء الثاني)

مجموعة من المقالات المختارة
للمؤتمر العالمي الحادي عشر للوحدة الإسلامية

١٣٧٧هـ ش

١٤١٩هـ ق

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية



المعهد القرشي للدراسات والبحوث الإسلامية

اسم الكتاب: خصائص الإسلام العامة
الناشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية
الإشراف: سيد جلال الدين ميرآقائي
تنضيد الحروف والخراج الفني: علي الكتبي
تقويم النص والمراجعة: سيد علي الهاشمي
باهتمام: عبدالحميد الطالبي
الطباعة و الشؤون الفنية: دار الهدى للتوزيع و النشر الدولي
تاريخ الطبع: ١٤٢٠ هـ ق - ١٣٧٨ هـ ش - الطبعة الأولى
عدد المطبوع: ١٠٠٠ نسخة
الجزء: الثاني
ISBN: 964 - 472 - 170 - 5

حقوق الطبع محفوظة

التوزيع: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية - طهران - ص. ب. ١١٣٦ - ١٣١٨٥

رقم الهاتف: ٠٠٩٨ ٨٨٤٨٩٧٥ - ٨١٥٣٢٦٣ رقم الفاكس: ٠٠٩٨ ٨٨٤٨٩٧٤

الفهرست

٧ المقدمة
	سيد جلال الدين ميرآقائي
٩ فصل (٤) العالمية والخاتمية والخلود
١١ ١ - العالمية والخاتمية والخلود
	آيت الله السيد محمد باقر الحكيم - ايران
٣٣ ٢ - عالمية الإسلام والآراء التي تتعارض معها
	الدكتور توفيق محمد الشاوي - مصر
٥٩ ٣ - دار الإسلام بين الواقعية والمثالية
	الاستاذ العميد الزنجاني - ايران
٩٣ ٤ - العالمية والخاتمية والخلود
	الدكتور وهبة الزحيلي - سورية
١٢٩ ٥ - وحدة الامة والدولة في الإسلام
	الدكتور عبدالعزيز الخياط - الاردن
١٥٣ ٦ - جوانب من الأبعاد العالمية في الشريعة الإسلامية
	عبد الكريم آل نجف - ايران
١٩١ ٧ - التوازن في الانتماء والولاء في القرآن والسنة
	ماجد الخالدي - ايران
٢١٧ ٨ - العالمية والخاتمية والخلود في الفكر الإسلامي
	المهندس بيان جبر - العراق
٢٤٧ ٩ - أبعاد العالمية في الإسلام
	السيد مجيب جواد الرفيعي - ايران

- فصل (٥) الشمولية ٢٦٩
- ١٠ - الترابط والانسجام بين النظام السياسي وسائر الأنظمة الإسلامية ٢٧١
ولاء الحسيني - إيران
- ١١ - التعددية الدينية إشكاليات ومعالجات ٣١٧
العبد مرتضى التونسي - إيران
- ١٢ - خصائص الإسلام العامة (الشمولية) ٣٦١
محمد فريجه - إيران
- ١٣ - النظام الإسلامي، شمولية وهدف واحد ٤٤١
الاستاذ عبدالله مرتضى - إيران
- ١٤ - النص الثابت والواقع المتغير (مقاربات في شمولية النظام ...) ٤٦٩
فارس عبد المجيد - إيران
- ١٥ - الإسلام لايفصل بين الدين والدنيا والدولة ٤٨٩
بعقوب إسمي - الفيليبين
- ١٦ - الرد على شبهة فصل الدين عن السياسة ٥٠٧
أحمد محمد أبو ظاهر
- ١٧ - العلمانية والاستعمار والفكر القومي دراسة تحليلية ٥٢٧
هادي الموسوي - إيران
- ١٨ - العلمانية بين الأصالة والتعبئة ٦٠٥
وسام الخطاوي - إيران
- ١٩ - العلمانية رؤية نقدية ٦٣٩
عبدالرزاق هادي الصالحي - إيران

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد(ص) وآله الطيبين الطاهرين واصحابه المنتجبين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين.

الوحدة الإسلامية هي مفهوم قرآني ومبدأ إلهي تنشأ عن صميم الوحي والعقيدة الإسلامية وهي أمنية كل إنسان يؤمن بالله ورسله وكتبه. قال تعالى: إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون وقال واعتصموا بجلل الله جميعا ولا تفرقوا. والوحدة هذه تتحقق على صعيدين: صعيد الفكر والعقيدة، وصعيد العمل الاجتماعي والحياة السياسية. ولا يتم الثاني إلا بعد الوصول إلى الاجماع والاتفاق في المعالم والاصول الأساسية في المبادئ الفكرية والعقيدية.

والأمة الإسلامية تمر في يومنا هذا في حالة من الاختلاف والتفتت في كلا الصعيدين ربما يكون الأسوأ في تاريخها منذ قرون. فالمسلمون وهم أكثر من ٢٠٪ من سكان الكرة الأرضية بما لديهم من الطاقات والثروات الهائلة والمناطق الاستراتيجية، لايزالون يعانون من الأمية والفقر وعدم التنمية والتخلف والأزمات المختلفة نتيجة لاختلافاتهم الفكرية والسياسية وضعفهم في المجالات الاقتصادية والعلمية والتقنية.

وقد حاول كثير من العلماء والمفكرين والمصلحين منذ أكثر من قرن لمعالجة هذه الحالة السيئة بأفكارهم وآراءهم وأعمالهم ورفعوا شعاراتهم وهتافاتهم لإيقاظ الأمة واتحاد صفوفها تحت راية القرآن ولأجل إقامة مجتمع إسلامي يزدهر فيه العز والكرامة.

والصحووة الإسلامية المباركة التي نشاهدها اليوم في الساحة العالمية هي نتيجة لتلك الشعارات والأفكار الزاخرة بالخير والمجد والعطاء، ومن أبرز معطيات هذه الحركة المباركة انتصار الثورة الإسلامية في إيران وقيام الجمهورية الإسلامية بقيادة أحد رجال الدين المصلحين وهو الإمام روح الله الموسوي الخميني العظيم «رضي الله عنه».

ولقد استطاعت هذه الثورة المباركة أن تخلق آمنيات عطرة في قلوب الشعوب الإسلامية لأجل التغلب على مشاكل الأمة في العصر الحاضر وعرض الفكر الإسلامي كبديل إلهي للأفكار المادية والإلحادية المدعية نجاة الإنسان وسعادته.

والمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية الذي أسسه قائد الثورة الإسلامية الإمام السيد علي الخامنئي حفظه الله، قد ساهم في إثراء هذه الحركة الثورية والتيار الفكري المبارك بإقامة مؤتمراته السنوية للوحدة الإسلامية بما فيها من الأبحاث والكتب والمنشورات الثرية القيمة.

وقد شارك في تلك المؤتمرات العلمية والثقافية مئات من رجال الفكر والسياسة والثقافة من شتى أقطار العالم ومن مختلف المذاهب الإسلامية حيث أبدوا آرائهم وأفكارهم حول المسائل الفكرية المعاصرة والتي تهتم القضايا المصرية للأمة الإسلامية. وساهموا في عرض المبادئ الإسلامية في المجالات الفقهية والاعتقادية والفكرية بما يناسب متطلبات العصر وتطورات الزمان. والكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم هو المجلد الثاني لكتاب «خصائص الإسلام العامة» والذي يجمع بين دفتيه مقالات وبحوث مختارة من إنجازات المؤتمر الحادي عشر للوحدة الإسلامية المنعقد بظهران في أسبوع الوحدة الإسلامية (١٧-١٢ ربيع الأول ١٤١٩) احتفاءً بميلاد سيد البشرية ورسول الإنسانية سيدنا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم وقد شمل الجزء الأول، ثلاثة محاور من موضوع المؤتمر وهي «الالهية» و«الواقعية» و«الإنسانية» والجزء الثاني يشمل محورين أساسيين وهما «الخاتمية والخلود» و«الشمولية» والمقالات الواردة سردت في الكتاب حسب المحاور دون أي ملاحظة أخرى.

وهانحن نقدم هذه المجموعة إلى أصحاب الفكر والثقافة والسائرين في طريق الوحدة والتقريب وأبناء الصحوة الإسلامية المباركة، راجين المولى القدير أن يمن علينا بالقبول.

وختاماً نوجه الشكر والامتنان لكل المساهمين في إنجاز الكتاب من الباحثين والمفكرين والعاملين وعلي رأسهم أعضاء الهيئة العلمية للمؤتمر والأمين العام للمجمع سماحة العلامة آية الله الأستاذ محمد واعظ زاده الخراساني حفظه الله، الرجل الوحيد الذي فكّر وعمل وعاش منذ شبابه في توحيد صفوف المسلمين وتقريب مذاهبهم، فجزاه الله عن الإسلام خير جزاءه ويوفقه لما يحب ويرضاه.

سيد جلال الدين ميرآقائي

أمين الهيئة العلمية

للمؤتمر الدولي العادي عشر للوحدة الإسلامية

خصائص الإسلام العامة

٤ - العالمية والخاتمية والخلود

- ١ - العالمية والخاتمية والخلود آية الله السيد محمد باقر الحكيم
- ٢ - عالمية الإسلام والآراء التي تتعارض معها الدكتور توفيق محمد الشاوي
- ٣ - دار الإسلام بين الواقعية والمثالية آية الله عباس علي عميد الزنجاني
- ٤ - العالمية والخاتمية والخلود الدكتور وهبة الزحيلي
- ٥ - وحدة الأمة والدولة في الإسلام الدكتور عبدالعزيز الخياط
- ٦ - جوانب من الأبعاد العالمية في الشريعة الإسلامية عبدالكريم آل نجف
- ٧ - التوازن في الإنتماء والولاء في القرآن والسنة ماجد الخالدي
- ٨ - العالمية والخاتمية والخلود في الفكر الإسلامي المهندس بيان جبر
- ٩ - أبعاد العالمية في الإسلام السيد مجيب جواد الرفيعي

العالمية والخاتمية والخلود

آيت الله السيد محمد باقر الحكيم
رئيس المجلس الاعلى لمجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين وأصحابه المنتجبين.

أبارك للأخوة الاعزاء والسادة الافاضل هذه الايام الشريفة، ايام ذكرى ولادة
سيد الكائنات خاتم الانبياء سيدنا ومولانا ابي القاسم محمد بن عبد الله، وأيام
ولادة حفيده الامام جعفر بن محمد الصادق وايام الهجرة النبوية المباركة.

قال تعالى: (قال يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك
السموات والارض لا اله الا هو يحي ويميت فأمنوا بالله ورسوله النبي
الامي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) - الاعراف / ١٥٨.

وقال تعالى: (ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم
النبيين وكان الله بكل شيء عليماً) - الاحزاب / ٤٠.

وقال تعالى: (هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين
كله ولو كره المشركون) - الصف / ٩.

العالمية و الخاتمية والخلود، صفات ثلاث تعتبر من ابرز خصائص ومواصفات الرسالة الاسلامية التي تتميز بها على سائر الرسالات الالهية، وهي صفات وإن كانت مترابطة ومتداخلة في مضمونها ومحتواها، ولكنها في الوقت نفسه متميزة فيما بينها، وتستحق الوقوف عندها، ولا سيما في عصرنا الحاضر. وسوف احاول في هذا الوقت القصير، ان اتناول هذه الصفات، لافي جانب اثبات هذه الميزات للرسالة الاسلامية، فأن ذلك يكاد ان يكون من بديهيات العقيدة الاسلامية، ويكفيها في الدلالة عليها الايات الكريمة التي تلوها عليكم. بل احاول ان اتناول - بصورة مختصرة - مضمون ومحتوى هذه الميزات من ناحية، وبعض المشكلات الحقيقية التي واجهتها ومعالجة الاسلام لها من ناحية اخرى، لنستفيد من ذلك، الدروس والعبر في النهضة الاسلامية المعاصرة، ونفي بالحاجات التي يفرضها تطّلع البشرية الى الاسلام كمنقذ لها من محتتها وآلامها.

العالمية

يبدو ولأول وهلة ان العالمية الاسلامية، تعني من الناحية الواقعية: ان تكون الرسالة في مضمونها العقائدي والاجتماعي والسياسي، مضموناً لا يخص جماعة من الناس دون اخرى، ولا منطقة من الارض دون غيرها، وهذا ما تكفّلت به العقيدة الالهية والشريعة الاسلامية، التي جاء بها القرآن الكريم، والنبي العظيم صلى الله عليه و آله وسلم، ولكن هل يختص ذلك بالرسالة الاسلامية، وهل يمكن ان نقول بأن ما جاء به نوح وابراهيم وموسى وعيسى

عليهم السلام، كان مختصاً بجماعة دون أخرى!!؟

مع ان الاسلام يمثل الامتداد الطبيعي للرسالات الالهية، المصدق لها، والمهيمن لها، وان من العقائد الاساسية في الاسلام، هو (الايمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، لانفرك بين احد من رسله) «**آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرك بين احد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير**» - البقرة/٢٨٥، والشواهد على هذه الحقيقة والاشترك كثيرة.

ولذا فلا بد ان ننظر الى العالمية في الاسلام من زاوية وبعده آخر، مضافاً الى هذا المحتوى والمضمون الصحيح.

وهذا البعد هو ان تصبح العالمية تعبيراً عن مرحلة تكاملية خارجية في مسير الرسالة الالهية، كانت تمثل الهدف الأسمى لمسيرة الرسالات الالهية، فهي كالتوحيد لله تعالى، الذي كان ولا زال يمثل الحقيقة الثابتة لمضمون وهدف الرسالات الالهية، ولكنه في مسيرة الانسان التكاملية، كان التوحيد يواجه في كل مرحلة انتكاسة الانسان نحو عبادة الاوثان بمختلف اشكالها، كما شاهدنا ذلك بعد نوح، وابراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، ونشاهده الآن في عبادة الهوى، والشهوات، والقوة... في هذا العصر والزمان.

فالعالمية في مضمونها الإسلامي الخاص، تعبير عن مرحلة خارجية جديدة وصلت فيها مسيرة الرسالات الالهية الى تجسيد العالمية، وقد واكب هذا التطور في المسيرة منهاج عملي، ومضمون تشريعي، يلبي متطلبات هذه المرحلة، ويفي بحاجاتها، وتحقيق اهدافها.

فمثلا رسالة موسى عليه السلام، وان كانت عالمية بمضمونها وخطابها،

وليست خاصة ببني اسرائيل، ولكنها من الناحية الخارجية بقيت محصورة ببني اسرائيل، بحيث تحولت خارجيا الى رسالة قومية، وتحول بنو اسرائيل الى شعب مختار، يفتش عن الامتيازات ويؤمن بها، فهم اولياء الله واحباؤه ولهم الدار الاخرة عند الله خالصة من دون الناس، وليس عليهم في الاميين سبيل وانهم على شيء، وغيرهم ليس على شيء... الخ الى آخر هذه الادعاءات.

وهنا نرى أماننا التطور في العالمية الذي تحقق في الرسالة الاسلامية، وهو تحول الشعب المختار الى الامة الانسانية المختارة (كنتم خيرا مة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله...) آل عمران / ١١٠، والمقياس في هذا الاختيار الواقعي هو الايمان بالله، والدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقوى الله حق تقاته، وليس الشعب والانتماء الى العرق او العشيرة او البلد، بل الانتماء الى الله والمبادئ (ان اكرمكم عند الله اتقاكم).

ولذا اكد القرآن الكريم ذلك في المسيرة العملية والجهادية، هذه الحقيقة والسنة التاريخية فخاطب العرب الذين هم جماعة المؤمنين في عصر نزول القرآن بقوله تعالى:

(يا ايها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) المائدة/ ٥٤، (وان تولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا امثالكم) محمد/ ٣٨.

فالخروج والتحول من الشعب المختار الى الامة المختارة، هو العالمية. والمسيحية وان كانت عالمية في دعوتها ومضمونها، ولكن عيسى عليه

السلام رفعه الله تعالى من هذه الدنيا ولم يُخَلَف وراءه إلاّ الحواريين الذين تحملوا اعباء الرسالة، وبذلك تحولت رسالته تدريجيا الى رسالة النخبة المختارة التي تتمتع بالامتيازات والحقوق والقدسية المهنية الخاصة (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاّ ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فأتينا الذين آمنوا منهم آجرهم وكثير منهم فاسقون) الحديد / ٢٧، (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما امروا الا ليعبدوا إلهها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون) التوبة / ٣١، حيث ورد في تفسير هذه الآية - كما يؤكده القرآن الكريم ايضا - ان اتخاذهم الاحبار والرهبان اربابا، كان هو السمع والطاعة لهم من دون الله وإعطاءهم هذه الامتيازات والاموال.

إن عالمية الاسلام في محتواها الخاص الذي يتميز به الاسلام انما هي:

اولا: الانتقال بالرسالة من مرحلة النظرية العالمية والتمهيد، الى مرحلة التطبيق

والتجسيد وخلق النموذج الحضاري العالمي في الحياة الانسانية.

وثانيا: في المنهج والبرنامج العلمي الذي وضعه الاسلام لمواكبة وجود هذا

النموذج الحضاري، وتثبيته وايجاد الضمانات العملية لبقائه واستمراره.

وهنا نجد امامنا معالم في البرنامج الاسلامي العالمي آفاقاً واسعة من البحث

والإستلهام، لايسعها هذا المقال القصير - والوقت المحدود - تتمثل في اختيار

مكان البعثة والرسالة الالهية، والقاعدة التي انطلقت منها الرسالة الالهية، وهي امة

العرب، وضرورة تفسير الخطاب الثقافي الاسلامي، الذي تحدث بلغة هذه الامة

ومعها اكثر من اي جماعة اخرى، وتناول اوضاعها الاجتماعية، والسياسية،

والثقافية، والتاريخية بصورة رئيسية دون غيرها من الناس، حتى ظن بعض

الجاهلين، وحاول بعض المنحرفين ان ذلك امتياز الجماعة من الناس، او يفسروا

ذلك تفسيراً قومياً، أو جغرافياً، أو مدنياً... الخ.

وهكذا يفتح امامنا بحث المنهاج الاسلامي في العالمية من خلال الدولة والقانون والعبادات، التي جاءت صياغاتها تكريساً عملياً لهذه العالمية من ناحية، وضمائناً لها امتاز به الاسلام على غيره من الرسالات الالهية من ناحية اخرى.

فمثلاً الحج الذي أذن به ابراهيم عليه السلام في الناس - بنص القرآن - وهو شيخ الانبياء، وجدّ الاسرائيليين، بقي محصوراً في أبناء إسماعيل، تمكن الاسلام خارجياً ان يرتقي به الى عبادة عالمية، ومن خلال صيغة واقعية تجسّد هذه العالمية خارجياً، بل تحولت الى ضمان واقعي لهذه العالمية، كما نشاهده في كل التأريخ.

لقد استطاع الاسلام من خلال برنامجه القانوني، ومنهاجه العبادي، أن يحطم كل الحواجز الاجتماعية والنفسية، بين القوميات، والطبقات، والاسياد، والعبيد، ليخلق امة اسلامية واحدة عالمية، تتمتع بمواصفات الامة الواحدة، في الهموم والمشاعر والاهداف والعلاقات الانسانية والممارسات العبادية.

وهذا ما لانجده حتى في الحضارة الغربية، التي حاولت ان تتحرر من هذه القيود، تحت شعار حقوق الانسان ووحدة الاهداف الانسانية في الحياة والمصالح المشتركة، وسيطرة العلم التجريبي (العلمانية) ولذات الدنيا.

فهي لازالت تعاني من الانقسامات العرقية والجغرافية والغنى والفقر والشمال والجنوب، ولازال الرجل الابيض كحالة عامة انسانية ينظر فيها الكثير من التعالي والشعور بالامتياز والحقوق، ولازال الولايات المتحدة الاميركية - وهي سيد العالم الغربي - واوروبيا الغربية تتعامل مع بقية الشعوب في هذا العالم من موقع هذا الاحساس..

بل لازال الشعب في الولايات المتحدة الاميركية - بالرغم من القوانين الإسمية والدعاوى العالمية الانسانية - يشكو من هذا الانقسام العرقي والهيمنة الطبقية لاصحاب رؤوس الاموال.

ومثل آخر، في الدولة التي كانت في أصلها ظاهرة نبوية، كما يؤكد ذلك القرآن الكريم، وان بعثة الانبياء انما كانت من اجل الحكم بالحق، وتنظيم حياة الناس وحلّ الاختلاف بينهم، ولكن تاريخ الرسالة الالهية لم يشهد من الناحية الواقعية والخارجية قيام الدولة في ظل الرسالة، بل بقي الانبياء يجاهدون من أجل اقامة المجتمع الصالح والدولة الالهية، ولم يتحقق ذلك لالنوح ولا لابراهيم ولا لموسى ولا لعيسى عليهم السلام، واذا كان بعض الانبياء قد آتاه الله الملك كداود وسليمان عليهما السلام، فأن ذلك كان ضمن البرنامج العام الانساني لقيام الدولة وهو الغلبة والقوة.

واما الدولة الاسلامية فأن وجودها الخارجي كان ضمن البرنامج الرسالي للدولة وتطور الرسالة الالهية، ولذا كانت الدولة الاسلامية والامامة جزءاً مكملًا للرسالة - ليس على المستوى النظري فحسب - بل على المستوى التطبيقي والخارجي.

وهذا هو الذي يُفسر لنا قيام الدولة الاسلامية في مثل هذه الايام (ربيع الاول)، في السنة الاولى للهجرة، ثم استمرارها لمدة ثلاثة عشر قرن وبقاءها كهدف، ولم تتنازل عنه الامة - حتى بعد سقوط الكيان السياسي عسكرياً بيد الاستكبار الغربي - وسوف لن تتنازل عنه الامة حتى قيام دولة الحق المطلق، التي وعد الله بها عباده الصالحين بظهور الامام المهدي (عليه السلام) (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف

الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم انما يعبدونني لايشركون بي شيئاً... (النور/٥٥) (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون) الانبياء/١٠٥.

فالدولة الاسلامية امتازت:

اولاً: بأنها كانت امتداد خارجي تطبيقي للرسالة، عاصر وجود الرسالة وارتبط بتطبيقاتها.

ثانياً: أنها جسدت العالمية في حركتها، حيث كانت حركة الدولة باتجاه العالمية في زمن الرسول، من خلال دعوة القوى السياسية العالمية للدخول في الاسلام، في رسائل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومعارك مؤته وتبوك، وبعثة اسامة بن زيد، ثم الإمتداد في التوسع والانتشار الاسلامي في عصر الخلفاء الراشدين.

ثالثاً: ان الدولة الاسلامية كان لها الدور الاساس فيما نراه من وحدة الامة الاسلامية في مقوماتها الاساسية، وذلك بالرغم من تعرض الدولة الاسلامية الى مشكلات التجزئة والإنقسام، والاختلاف في تاريخها.

رابعاً: ان العالمية في الدولة الاسلامية ليست مجرد هدف تسعى اليه الرسالة، بل هو حقيقة قائمة في تاريخها، وفي حركتها وتكاملها المستقبلي، اذ لا بد لهذه الوحدة من أن تتحقق في نهاية المطاف وتكون كاملة افقياً وعمودياً وجغرافياً، وفي المضمون والمحتوى.

وهنا لا بد ان أشير الى ان دور الدولة والامامة في منظار أهل البيت عليهم السلام وموقفهم الخاص منها، وفي النظرية الاسلامية بصورة عامة، يمنح هذا

المعلم من المنهج في تحقيق عالمية الاسلام عمقاً وبعداً آخر جديداً لا أجد مجالاً للخوض فيه الآن، ولكن اهل البيت عليهم السلام وموقعهم الخاص الذي يلتزم به جميع المسلمين، وكذلك عملهم ودورهم في الحياة الاسلامية، كان ولا زال يمثل احد الضمانات الواقعية المهمة للمحافظة على بعد العالمية في الرسالة الاسلامية.

ولاسيما امام المشكلات التي واجهتها هذه العالمية.

المشكلات

وقد واجهت عالمية الرسالة الاسلامية منذ الصدر الأول للاسلام مجموعة مهمة من المشكلات الاساسية، ولا زالت هذه المشكلات بأنواعها وطبيعتها تواجه هذه العالمية، وفي مقدمة هذه المشكلات، كانت المشكلة القومية، والتجزئة في الكيان السياسي الاسلامي والطبقية السياسية والدينية، ومشكلة التجزئة في الامة الاسلامية وشعائرها:

١ - فمنذ البداية عندما انفتح الاسلام على الاقوام الجدد من خلال الفتح الاسلامي، ترددت افكار في الاوساط الاسلامية بصورة عامة، والسياسية بصورة خاصة، تذهب الى التمييز بين المهاجرين والانصار، او العرب وغيرهم، او بين العرب انفسهم، او بينهم والموالي، وقدمت مبررات عديدة واجتهادات، تحت شعار المصلحة الإسلامية لهذا التمييز.

وقد تبنت الدولة الأموية في بعض سياساتها بعض هذه الافكار والظروحات.

٢ - كما برزت مشكلة التجزئة في الكيان السياسي الاسلامي، منذ البداية عند

نشوب الصراعات السياسية، وكان أبرزها الانشقاق الذي شهدته الخلافة الإسلامية في عهد الامام علي عليه السلام، وتطورت هذه الصراعات حتى أصبح الكيان الإسلامي في بعض عهوده يتكون من عدة دول، كما في عصر الدولة العباسية في بغداد، والفاطمية في مصر، والاموية في الاندلس، وما استتبع ذلك من مآسي وآلام.

كما برز الى جانب ذلك خطر تحوّل الكيان السياسي الإسلامي الى الحكم الكسروي والقيصري، ومن ثم تحوّل الرسالة من العالمية الى الفردية، او الاستبداد والظغيان.

٣ - وبدأت اخطار الطبقة السياسية في صورة العوائل والاسر، التي حكمت العالم الإسلامي وحلفائها، وكذلك الطبقة الدينية في بعض المؤشرات الخطيرة في إيجاد هالة من القدسية والامتيازات والحقوق المادية للسابقة المعنوية، او الإنتماء القبلي.

ولاسيما بعد التحولات الاقتصادية الواسعة، والانفتاح على ثروات الدولة الكسروية والقيصرية، والشعوب الجديدة التي دخلت الاسلام، ومواجهة فكرة إعتبار الاراضي المفتوحة جزءا من الغنيمة التي توزع بين المسلمين، او يجوز للحاكم ان يقطعها للأفراد.

٤ - ثم كانت تجزئة الامة في انتماءاتها السياسية والفكرية والعقائدية والاجتماعية، وتحول هذه الانتماءات الى إطار وقاعدة تقوم عليها الجماعة في معزل عن الجماعات الاخرى.

لقد كانت هذه المشاكل شبيهة بالمشاكل التي واجهتها الرسالات الالهية السابقة، كما هي سنّة الله في الحياة والتاريخ، ولم تتمكن من التغلب عليها.

وهنا نجد الإمتياز الخاص للرسالة الاسلامية، التي تمكّنت ان تواجه هذه المشكلات في مداها الخطير، الذي يهدد الرسالة والوجود الاسلامي، كما حدث للرسالات السابقة، وان بقيت الرسالة الاسلامية تعاني من آلام ومحن، هذه المشكلات وآثارها السلبية في جسم الامة وكيانها الاسلامي.

وهذا الموضوع بأبعاده المتعددة، يحتاج الى بحث واسع ومستوعب يتناول العناصر الاساسية، التي تضمنتها الرسالة الاسلامية ومنهجها في مواجهة هذه المشكلات، ورؤيتها الواقعية الصحيحة لها، وهذا ما لا يتسع له مجال البحث هنا، ولذا نكتفي هنا بتأكيد الدور العظيم والجهود الكبيرة التي بذلها رجال الاسلام المخلصون، وفي مقدمتهم الرعيل الأول من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتابعين لهم باحسان من اجل الاحتفاظ بالحد الأدنى الذي يحفظ للرسالة الاسلامية هذا البعد العالمي لها، ويمكن ان نتبين نتائج هذه الجهود في ما نلمسه الآن من معالم العالمية الحقيقية في الرسالة الاسلامية، بالرغم من الجراحات والشروخ التي يعاني منها العالم الاسلامي والامة الاسلامية.

وبهذا الصدد لا بد - ايضا - من تأكيد الدور المتميز الذي قام به اهل البيت عليهم السلام في هذا المجال، ولا سيما بالنسبة الى المشكلات الأربع التي اشرت اليها، فأن وجودهم ونشاطهم كان يشكل ضمانة رئيسية في تجسيد هذه العالمية خارجيا.

فعلى مستوى مشكلة التعدد القومي اهتم اهل البيت بالمحافظة على الموازنة الصحيحة بين بُعدي:

النظرة الانسانية للناس الذي يلغي الامتيازات في التعامل السياسي والاجتماعي العام بين المسلمين، واعتبارهم امة واحدة من ناحية، بقاعدة

(سلمان متأهل البيت).

والقبول واحترام التعددية الشعبوية في الشؤون الفردية والاجتماعية الخاصة بالافراد والجماعات من ناحية اخرى.

وعلى مستوى مشكلة التجزئة في الكيان السياسي الاسلامي، التزم اهل البيت منذ البداية بسياسة عدم الدخول في الصراعات السياسية الحادة (القتال والتمرد)، تحت قاعدة «... لاسلمن ما سلمت امور المسلمين، ولم يكن فيها جور الا على خاصة...»^(١)، والمحافظة في الوقت نفسه بالموازنة الصحيحة بين اولوية الحفاظ على وحدة الكيان الاسلامي وأصالته من ناحية، ومقاومة الانحراف والظلم والجور وخطر التحول الى الكسروية والقيصرية من ناحية اخرى، وعدم التسليم المطلق للانحراف لمجرد القهر والغلبة والاستيلاء، التزاماً بما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً عهده (لعهد الله) مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله ان يدخله مدخله...»^(٢)).

وكذلك في تأكيد وحدة الامامة، وعدم جواز تعددها.

وقد تحمل اهل البيت عليهم السلام أشد الآلام والمحن في هذا السبيل عملياً وواقعياً، لأن هذه القضية كانت تعنيهم بالذات بصورة خاصة.

وعلى مستوى مشكلة الطبقة السياسية والدينية، فإن أهل البيت عليهم السلام وان كانوا يمتازون بنظر المسلمين جميعاً، بوجوب حبههم ومودتهم، وفي

(١) الامام علي عليه السلام نهج البلاغة: الخطبة / ٤٧.

(٢) الامام الحسين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الطبري: ٤/ ٣٠٤، ط مكتبة ارومية، وابن الاثير: ٤/ ٤٨٨، ط دار صادر.

نظر اتباع اهل البيت بأنهم أئمة الهدى المعصومون من الزلل والخطأ، وانهم ثاني الثقلين والمرجع في الدين بعد القرآن الكريم، ولكنهم من الناحية العملية لم تكن هذه الامتيازات قد منحهم اي تمييز طبقي مادي في المجتمع الاسلامي، بل كانت سبباً للمزيد من المحن والبلاء والأذى في سبيل الله، وقد كان لهذا السلوك الاجتماعي اثره الكبير والعميق على اوساط العلماء واهل المعرفة والدين، بحيث اصبح اهل البيت القدوة لهم في ذلك.

وعلى مستوى مشكلة تجزئة الامة في علاقاتها وشعائرها، فقد حافظ اهل البيت في منهجهم على الموازنة الصحيحة بين احتفاظ جماعتهم واتباعهم بخصوصياتهم والتزاماتهم وواجباتهم، وبقاء هذه الجماعة جزءاً فاعلاً ومسؤولاً في وسط الامة الاسلامية محافظاً على وحدتها وتماسكها ومتصدياً للمسؤوليات الكبرى ومضحياً من اجل اهدافها وقضاياها.

وقد كان مبدأ التقية هو احد المبادئ الرئيسية في هذه الموازنة، اذا عرفنا التقية بكل ابعادها السياسية والاجتماعية والامنية.^(١)

وفي هذا العصر لا بد ان نستلهم عالمية الاسلام ومنهجه العملي فيها، في معالجة المشكلات المعاصرة التي يعيشها العالم الاسلامي في هذه المجالات وغيرها، كما لا بد ان تتركز ابحاثنا حولها على هذا الجانب العملي.

(١) لقد عالجت هذا الموضوع بشيء من التفصيل في كتاب الوحدة الاسلامية من منظور الثقلين، وكتاب دور اهل البيت في بناء الجماعة الصالحة فصلّي النظام الامني، ونظام العلاقات.

الخاتمية

وبهذا الفهم (للعالمية) يمكننا ان نفهم (الخاتمية) ايضا، فأن الخاتمية لاتمثل مجرد انقطاع الوحي ونهاية النبوات الالهية، وانما تعبر في الوقت نفسه عن تطور في الحياة الانسانية من ناحية، وتطور في المضمون الرسالي اقتضى هذا الانقطاع وهذه النهاية.

لأن السؤال المطروح في موضوع (الخاتمية) - بعد التسليم بهالنص القرآن الكريم والسنة النبوية عليها - ان تعدد الرسالات الالهية، أما كان تجسيدا لسنة الهية في تطور الحياة والتاريخ الانساني، فهي متطورة ومتكاملة، وكما هي مواكبة لحركة التأريخ الانساني.

وإذا كانت كذلك، فلماذا توقفت الرسالات الالهية؟ وهل ذلك لتكامل المسيرة الانسانية؟ فلا حاجة لتطور الرسالات الالهية، او ان قانون وسنة التطور قد توقفت في تأثيرها؟ او ان هناك تفسيراً آخر لهذه الخاتمية؟

ولاشك ان سنة التطور والتكامل، هي من السنن الثابتة في حياة الانسان ومسيرته، وهذه السنّة هي التي فرضت هذه الخاتمية بالارادة الالهية، فلا بد ان نفتش عن هذه العناصر التكاملية، ونؤكد لها في عملنا الثقافي والسياسي والاجتماعي انسجاما مع هذه الخاتمية.

فالخاتمية ذات مضمون تكاملي وتغييري، يرتبط في جانب منه بمضمون العالمية الذي تحدثنا عنه، وفي جانب آخر بمضمون (الخلود) الذي سوف نشير إليه.

ويمكن ان نجد عناصر التكامل في الخاتمية، ونتاجها بالفحص والبحث في الامور التالية:

اولاً: التكامل في الوعي الانساني الاجتماعي من خلال تأثير الرسالات الالهية السابقة والتجارب الانسانية الاجتماعية الطويلة، والمعرفة الانسانية بالحياة والكون، الى غير ذلك مما يرتبط بالانسان ومدركاته النظرية والسلوكية وتجاربه مع الكون والطبيعة، وعلاقاته الانسانية والمحصلة الكلية للوحي الالهي وعمل الانبياء والمرسلين والصالحين.

فهو تكامل في الوعي الانساني العام، يؤهل الانسان لأن يأخذ دوره الكامل المسؤول في الحياة الانسانية، بحيث يشغل حيزاً مهماً يتناسب مع هذا الوعي.^(١) وهذا هو الذي يفسر لنا التحول الكبير الذي حدث في أدلة النبوة التي تمثل اسلوب الخطاب الالهي بالايمان والوحي والمضمون الرسالي، فأن معجزات الانبياء السابقين كانت تعتمد على الآيات التي تُعبر عن القوة والقدرة الالهية المباشرة في التصرف بالكون والحياة والعقوبات الدنيوية المباشرة، للتأثير على إرادة الانسان وسلوكه، واما في الرسالة الاسلامية فقد تمثل اسلوب الخطاب بالقرآن الكريم الذي يتوجه الى مخاطبة العقل للوجدان والمشاعر الانسانية، للسيطرة على ارادته وسلوكه وتوجيهها.

ثانياً: التكامل الذي وصلت إليه حركة التوحيد الالهي والمعرفة بالله تعالى، بدرجة تمكنت فيه هذه الحركة من تحقيق الاستقرار والثبات والانتشار والقوة

(١) وفي نظرية الامامة عند اهل البيت عليهم السلام يتكامل هذا الوعي الانساني من خلال التسديد والاشراف الذي يمارسه الامام، لأنه يقوم بدور النبي في قيادة التجربة والاشراف عليها في المدة الزمنية للأئمة الاثنى عشر الذين نصبهم الله تعالى لهذه المهمة.

والممنعة في الحياة الانسانية، ومن ثم فلا يمكن للانتكاسات الحضارية أن تُهدد وجود هذه الحركة الالهية، كما حدث بالنسبة الى بعض الرسائل الالهية السابقة، كرسالة نوح عليه السلام او ابراهيم عليه السلام، حيث تحوّل المجتمع الانساني بعد نوح الى الوثنية بصورة كاملة على ما يبدو من قصة ابراهيم عليه السلام. وتمكنت الوثنية ان تحاصر حركة التوحيد بعد ابراهيم عليه السلام، وتستبعد الاسرائيليين وتؤثر فيهم بدرجة كبيرة.

وتعرض حركة التوحيد بعد موسى عليه السلام الى العزلة والانكفاء على الذات حتى تحولت الى حرفة ومهنة خاصة بالاسرائيليين. وتعرضت حركة التوحيد بعد عيسى عليه السلام الى التحريف والتشويه والرهينة بالانفصال عن الحياة الانسانية.

وفي الرسالة الخاتمة اصبح التوحيد نقياً خالصاً يقوم على اساس قاعدة بشرية واسعة وراسخة، هي قاعدة الرسائل الالهية الكبيرة، واصبح حقيقة كونية ذات ابعاد عقائدية وعبادية واجتماعية وسلوكية اخلاقية، بدرجة عالية ينسحب فيها على جميع مناحي حياة الانسان والكون والوجود.

وهذا هو الذي يفسر لنا تحول حركة التوحيد في الرسالة الاسلامية، الى حركة هجومية تمكنت - بفترة زمنية قياسية - من ان تزيل الوثنية من الجزيرة العربية، وتزيح الدولة الفارسية الكسروية، وتهدد الدولة الرومانية القيصرية، وتفتح مساحات واسعة في الوجود الوثني في مختلف مناطق العالم، وهو ما لانجده في حركة الرسائل السابقة.

الثالث: التكامل في المجتمع الانساني وتنظيم الحياة الانسانية من خلال الدولة والنظام السياسي الذي اصبح جزءاً رئيساً ومكملاً للرسالة، بحيث ارتقت الرسالة

بالانظمة التي تدار بها شؤون الناس، والتي يصدرها الحاكم الشرعي (الرسول والامام) الى مستوى الحكم الشرعي الالهي، وقرنت طاعة الرسول بطاعة الله تعالى (من يطع الرسول فقد اطاع الله)، واصبحت مخالفة الرسول كفراً ونفاقاً ومصيرها هو مصير مخالفة الله تعالى.

وأصبح الإطار العام للحكم في المجتمع الاسلامي هو الخلافة لرسول الله، وتطبيق الحكم الشرعي.

وهذا التطور التكاملي، هو الذي يفسر لنا مجموعة من الظواهر السياسية والاجتماعية في التاريخ الاسلامي، ومنها ظاهرة المقاومة القوية والدائمة المضمخة بالدماء والتضحيات للاستبداد والظلم في مختلف أدوار التاريخ الاسلامي، والتي فرضت هذه المقاومة حصاراً قوياً على المستبدين او المنحرفين من حكام المسلمين، جعلتهم غير قادرين على تجاوز الاطار العام للحكم، وهو عنوان الحكم بما انزل الله، وفي اطار الشريعة الاسلامية.

وكذلك ظاهرة تطلع المسلمين في كل الاجيال الى الحكم الاسلامي العادل وإستمرار هذا الروح في الوعي حتى بعد سقوط الدولة الاسلامية عسكرياً، واصرار المسلمين على الرجوع الى الحكم الاسلامي، وعدم فصل الدولة عن الرسالة او ما يسمى بفصل الدين عن السياسة والحياة.

ونظرة المسلمين ووعيهم لهذا الجانب، وان كان بدرجات متفاوتة، ولكن يبقى الحد الأدنى منه كافياً للتعبير عن وجود التكامل في المجتمع الانساني.

وبهذا يمكن أن نفهم دور فكرة وجود حكومة الحق والعدل المطلق المتمثلة بفكرة الامام المهدي الذي يملأ الارض قسطاً وعدلاً، كما مثلت ظلماً وجوراً، وارتباطها في احد ابعادها بموضوع (الخاتمية)، كما هي مرتبطة - ايضاً - في

بعدها الآخر بموضوع العالمية.

إن موضوع الخاتمية بهذا التحليل، يفتح أمامنا مجموعة من المشاكل المهمة ذات العلاقة بهذه العناصر التكاملية:

فعلى مستوى العنصر الاول (الوعي الانساني ودور الانسان في تحمل مسؤولية الخلافة)، نجد امامنا مشاكل الحرية والعلاقات الانسانية، بين المرأة والرجل، وعلاقات الانسان مع الكون والحياة، والعلمانية في الحياة الثقافية والاجتماعية واساليب الحياة والمعيشة.

وعلى مستوى العنصر الثاني (التوحيد الصافي والخالص)، نجد أمامنا مشاكل عبادة الذات والشهوات والعلم، والقوة، والبُدع والضلالات، ومحاولات عزل فكرة الله عن الحياة الانسانية، ومحاصرته في المسجد أو الفرد... الى غيرها من المشكلات.

وعلى مستوى العنصر الثالث: نجد امامنا مشكلة الاستكبار العالمي، وهيمنة النظام العالمي الجديد، والانقسامات في العالم الاسلامي، والعلمانية السياسية، والطغيان والاستبداد، والتطرف السياسي، والارهاب... الخ.

الخلود

ويأتي الخلود ليمثل البعد الثالث في تكامل الرسالة الاسلامية، والخلود - الذي يعني الاستمرار والبقاء والهيمنة والوراثة (... ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) التوبة / ٣٣ - هو تعبير آخر عن هذا التكامل في مضمون هذه الرسالة نظريا وتطبيقيا، فأن الارادة الالهية التي تعلقت بخلود الرسالة الاسلامية،

لم تكن ارادة منفصلة عن هذه المسيرة التكاملية، وإنما هي إرادة حكيمة ترتبط بالسنن والنظام الكوني في مسيرة الانسان.

ويمكن ان نرى معالم هذا الخلود في العناصر والأسس التي اعتمدها الرسالة الاسلامية، والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بقانون التكامل والتطور، وهذه العناصر هي:

١- العقل الانساني واعطائه قيمة عالية في الخطاب والمسؤولية والقدرة على الوصول الى الحقيقة وتحمل مسؤوليتها.

٢- تلبية الحاجات الانسانية بصورة متوازنة بين الثابت منها والمتغير، بحيث تبقى فرصة التطور والتكامل قائمة في الجانب المتغير والمتحرك منها.

٣- منح العلم والمعرفة في الكون والحياة واساليب الحياة الاجتماعية، وفي المبدأ والمعاد، قيمة حقيقية تجعله طريقاً الى الله تعالى، والى التكامل في حركة الانسان.

٤- صياغة الامة الواحدة الوسط، والتي تكون شاهدة على الناس والمسؤولية عن حفظ الرسالة وبقيتها، وقد اعتمدت هذه الصياغة على عناصر: العقيدة، والمساواة الانسانية، والعلاقات الاخوية الايمانية (الولاء) والشعائر العبادية، والمسؤولية الاجتماعية في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله.

٥- النظام السياسي الذي يقوم بدور المحافظة على الرسالة، وحراستها والدفاع عنها وابلاغها ودور التزكية والتطهير، والسير في طريق التكامل ودور التعليم والتطوير.


أن هذه العناصر الخمسة مجتمعة، هي التي تُعبّر عن خلود الرسالة الاسلامية، وهي في الوقت نفسه تفتح الطريق امامنا في الوصول بهذا الخلود الى غاياته

واهدافه، حيث تصبح الرسالة هي المهيمنة على الرسالات الالهية الأخرى، وتظهر على الدين كله حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله. أسأله تعالى أن يحقق للمسلمين آمالهم بالنصر على اعدائهم، واقامة حكومة الحق والعدل، ويوقفهم للجهاد في سبيله، والمزيد من مرضاته، ويجمع كلمتهم على الهدى والتقوى.

والحمد لله رب العالمين

١٣ ربيع الاول ١٤١٩هـ

عالمية الإسلام
والآراء التي تتعارض معها...

الدكتور توفيق محمد الشاوي 

مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد:

إن كل ما نقدمه من آراء أو نستنبطه من أحكام لا بد أن يكون له دليل من نصوص القرآن أو السنة المطهرة التي تقرر مبادئ أساسية منها «عالمية الإسلام»...

والنص الذي نبدأ به هو قوله عز وجل (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) وقوله عز وجل (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة)، أي أن أمة الإسلام هي أوسط الأمم، وإذا كان لهذه الوسطية تفسيرات عديدة، فإنها كلها تفترض وجود أمة أخرى في العالم لا بد أن نحدد موقف أمتنا منها، و علاقتها بها على ضوء هذه المبادئ....

معنى ذلك أن أمتنا هي إحدى الأمم في العالم، وصبغة العالمية إذا نسبت إليها فمعنى ذلك أن لها دورا (منفصلاً) او (معتدلاً) او (متوسطاً) في العالم وليس لأنها ستضم العالم كله، أما الإسلام فهو عالمي بمعنى أنه يخاطب العالم كله

بجميع أممه، سواء غير المسلمين او المسلمين أما أمتنا فهي حاملة هذه الرسالة العالمية، ومبلغ لها، وشاهدة على الناس بأنها قد بلغت كما قال رسولنا الكريم في خطبة الوداع (ألا هل بلغت....) والتبليغ يستلزم أن نفتح عليهم ونحاورهم كما حاور القرآن المشركين والكفار، وقدم لهم الحجة تلو الحجة، والدليل بعد الدليل ومازال هذا الحوار محفوظاً مسجلاً في القرآن الى يوم الدين...

وعلى ذلك فان الظن ان ما بيننا وبين غيرنا هو فقط حالة الحرب والقتال، فيه تناقض مع عالمية دورنا كأمة وسط شاهدة على الناس...

صحيح ان فقهاءنا لم يعرضوا كثيراً رأيهم في أحكام العلاقات السلمية بيننا وبين غيرنا وسبب ذلك أن هذه الأحكام تؤسس على موثيق وعهود بيننا وبينهم، أي أن علينا أن نستنبط نحن هذه الأحكام ونضمنها ما بيننا وبين الأمم الأخرى من عهود وموآثيق، نهتدي فيها بأسس شريعتنا ومبادئها...

يظهر لي أننا تجاهلنا ذلك الى حد كبير، واكتفينا بترديد ما يفهم منه ان العلاقة الوحيدة بيننا وبين غيرنا هي علاقة الحرب كما كانت في عصر الفتوح، و تجاهلنا حالة العهد بيننا وبين غيرنا من الأمم، ولم نقدم الأسس التي تقوم عيها العهود والموآثيق التي تحكم صلتنا بهم وعلاقتنا السلمية معهم وكانت النتيجة أن هذا الموضوع اصبح خاضعاً للقانون الوضعي ولما تفرضه الظروف او يفرضه الطرف الاقوى، وهو الآن (بكل أسف) غيرنا، بل هو عدونا... ولم تعد شريعتنا ولا فقهننا مصدراً «اساسياً» من مصادره.

كان علينا ان نفرض على انفسنا وعلى العالم كله ما قدمته شريعتنا من أسس ثابتة خالدة لحقوق الانسان وحرىات الشعوب... لكننا لم نفعل، فأصبح غيرنا هو الذي يتكلم الآن عن حقوق الانسان، من وجهة نظره، ومن أجل مطامعه

ومصالحه، دون التزام بعقيدة سماوية ولا مبادئ ثابتة....

وها نحن الآن نرى (النظام العالمي) ومن يسيطرون عليه يستغلون ما يسمونه حقوق الانسان لتنفيذ خططه في هيمنة القوى الكبرى المعادية لنا التي تعتبر هدفها هو اخضاع شعوبنا واستغلالها بل وابادة بعضها كلما كان ذلك ممكنا...

ونحن مسئولون عن ذلك الى حد كبير؛ لأننا تجاهلنا مبادئ شريعتنا في حقوق الانسان وحرية الشعوب، وقصرنا في استنباط احكام العلاقات السلمية والانسانية بيننا وبين غيرنا واكتفينا بعلاقاتنا بدار الحرب حتى اصبح كثيرون يعتبرون جميع البلاد الاجنبية هي دار حرب وجميع الاجانب (حربيون) ونسينا المعاهدين الذين هم الآن جميع شعوب العالم...

ان عالمية الاسلام وشريعته هي اساس الاحكام التي تنظم العلاقات بين امة الاسلام وباقي امم العالم وبين المسلمين «كأفراد وشعوب» مع غيرهم في حالة السلم... واصبح هذا يدخل حاليا في نطاق العلاقات الدولية التي ينظمها ما يسمى بالقانون الدولي...

وفي دراستنا لكتب الفقه لاحظنا ان بعض الاحكام الفرعية الفقهية تحتاج الى تجديد ومراجعة لكي نواجه بها التطورات العالمية ونمو العلاقات بين الامم والشعوب بسبب سهولة المواصلات وسرعة الاتصالات بين الافراد في مختلف الدول والقارات، وبين الشعوب والأمم كذلك حتى اصبح الان يقال ان العالم اصبح قرية واحدة وكل من فيه افراد متضامنون...

ان هذا الواقع الجيد يحتاج منا الى مواجهته باحكام جديدة، يفرضها علينا مبدأ عالمية الاسلام، وما يفرضه علينا شريعتنا من التعارف والتعاون وتبادل

المنافع...

وسوف اكتفي بعرض نماذج ثلاثة من الاحكام الفرعية التي واجهتني في دراستي للتشريع الجنائي الاسلامي، واعتقد انها تحتاج الى مراجعة لتتفق مع مبدأ عالمية الاسلام وشريعته في عصرنا والعصور القادمة واهمها مايلي:

١ - تقسيم العالم الى دار اسلام، ودار حرب...

٢ - أساس العصمة، والمقصود بالاهدار...

٣ - عدم التوازن في علاقاتنا مع غيرنا، نتيجة الانحياز لأهل الكتاب دون

غيرهم...

اولاً: لقد مضى عصر تقسيم العالم الى دار اسلام و دار حرب:

من أهم اصول شريعتنا مبدأ الوحدة الانسانية والمساواة بين البشر التي عبر عنها رسولنا (ص) في خطابه الدستوري (خطبة الوداع) بقوله:

(يا ايها الناس ان الهكم واحد، وان اباكم واحد، لافضل لعربي على أعجمي،

ولا ابيض على اسود، ولا لأسود على ابيض... الا بالتقوى)....

كما ان تكريم الانسان قرره القرآن الكريم في قوله (ولقد كرّمنا بني آدم....)

والكرامة التي اسبغها الله على عباده شاملة لجميع بني آدم، ولا يجوز ان تختص

بها امة واحدة..

وقد انكر اليهود ذلك المبدأ وابتكروا مبدأ التمييز العنصري لصالحهم

زاعمين انهم ابناء الله واحباؤه...

وانتقلت عدوى هذا الميز الى المسيحيين الذين خصوا به العنصر الابيض

دون باقي البشر...

اما الاسلام فمنذ نشأته الزمنا الرسول الكريم بالمساواة بين البشر جميعا
واعلن ادانته لكل تمييز بسبب النسب او اللون او الجنس، وان يبقى باب التفاضل
بين الافراد فقط على اساس التقوى والعمل الصالح...

وفي موقفنا مع غيرنا قال عز وجل (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في
الدين...) وقوله عز وجل (وان احد من المشركين استجارك)...

رغم ذلك كله قد لاحظت ان كتب الفقه الحديثة والقديمة مازالت تردد القول
بأن العالم ينقسم الى قسمين لا ثالث لهما: (دار اسلام، ودار حرب)، والعلاقة بين
دار الاسلام ودار الحرب هي العداة والقتال وينظمها ما يسمى في العالم الحاضر
بقانون الحرب الذي يطبق فقط في حالة الحرب ولا يتجاوزها، اما العلاقات
الانسانية والسلمية والمدنية والتجارية والثقافية بين الامم والشعوب وهي ضرورة
لنا مع غيرنا بصفة دائمة في غير حالة الحرب وفي ظل السلم، فإن فقهاءنا
لا يستعرضونها وعذرهم في ذلك انها في نظرهم تحكمها العهود والمواثيق التي
تعقد بين الدول والشعوب...

لكن علينا ان نستنبط من مصادر شريعتنا الأسس والمبادئ التي يجب ان
تحكم هذه العهود...

وقد لاحظت في كتاب «التشريع الجنائي» (عبد القادر عوده)، انه استطرد
للقول بأن هذين القسمين: (دار الاسلام ودار الحرب) لا ثالث لهما، وهذه هي
عبارة في البند رقم (٢١٠) تحت عنوان تقسيم العالم: (لقد نظر الفقهاء الى هذا
الاعتبار حين قسموا العالم كله الى قسمين لا ثالث لهما: الاول يشمل كل بلاد
الاسلام، ويسمى دار الاسلام، والثاني يشمل كل البلاد الاخرى ويسمى دار
الحرب، لان القسم الاول يجب فيه تطبيق الشريعة الاسلامية اما القسم الثاني

فلا يجب فيه تطبيقها لعدم امكان هذا التطبيق)...

نتج عن ذلك ان كثيرين اصبحوا يعتقدون ان كل البلاد غير الاسلامية هي دار حرب، وقد عبر عن ذلك فقيهنا الشهيد «عبدالقادر عوده» بقوله في البند رقم ٢١٢ - تحت عنوان دار الحرب:

«تشمّل دار الحرب كل البلاد غير الاسلامية التي لا تدخل تحت سلطان المسلمين، او لا تظهر فيها احكام الاسلام، سواء كانت هذه البلاد تحكمها دولة واحدة او تحكمها دول متعددة، ويستوى ان يكون بين سكانها المقيمين بها اقامة دائمة مسلمين او لا يكون، مادام المسلمون عاجزين عن اظهار احكام الاسلام... ثم اضافوا «اي فقهاؤنا» ان مواطني تلك البلاد غير المسلمين جميعا هم حريون، بل مهدرة دماؤهم واموالهم)...

ثم عاد يقول في البند (٢١٨) مايلي: «تعتبر النظريات الاسلامية كل البلاد الاجنبية دار حرب واحدة مع اختلاف الدول التي تحكمها، فقد كان المسلمون يحاربون الترك والروس والهناد والاسبان والفرنسيين والرومان، وكانوا يعتبرون بلاد كل هؤلاء وغيرهم دار الحرب»...

«فالمقصود اذن من تقسيم العالم الى قسمين: ان احدهما: دار امن وسلام المسلمين، والثاني: دار خوف وعداء للمسلمين، وبيان الاحكام التي تسري على المقيمين في كل دار «على هذا الاساس»، وقد اعتبرت البلاد الاسلامية على اختلاف حكوماتها دارا واحدة؛ لأنها محكومة بقانون واحد هو الشريعة الاسلامية، فهي من هذه الوجهة وحدة قانونية لا تختلف فيها الاحكام باختلاف الجهات، ولا باختلاف الاجناس واعتبرت البلاد غير الاسلامية دارا واحدة؛ لأن الاحكام التي تسري عليها طبقا للشريعة الاسلامية احكام واحدة لا تختلف

باختلاف الجهات واختلاف الاجناس، وهذا هو الاساس الصحيح لتقسيم العالم الى دار حرب ودار اسلام»...

ويفسر ذلك الشهيد (عوده) في البند رقم ٢١٢ - تحت عنوان سكان دار الحرب على نوعين:

«فهم اما «حربيون» واما «مسلمون»: فالحربيون هم سكان دار الحرب الذين لا يدينون بالاسلام، ويقال لاحدهم حربي والحربيون غير معصومين، فدماؤهم واموالهم مباحة ما لم يكن بينهم وبين دار الاسلام عهد او هدنة، لأن العصمة في الشريعة لا تكون كما قلنا الا بأحد شيئين بالايمان او الامان)...

«وليس للحربيين اذا لم يكن بينهم وبين دار الاسلام عهد ان يدخلوا دار الاسلام، فاذا دخلها احدهم فهو مباح الدم والمال، ويجوز قتله ومصادرة امواله، كما يجوز اسره والعفو عنه»...

«واذا دخل الحربي دار الاسلام باذن او امان خاص او بناء على عهد فهو مستأمن، فاذا انتهى امانه عاد حربيا كما كان مهدر النفس والمال اذا ترك دار الاسلام، اما اذا بقي فيها مختارا فيرى البعض انه يصبح حربيا، ويرى البعض انه يصبح ذميا باختياره البقاء في دار الاسلام ويصير معصوما عصمة مؤبدة»...

معنى هذا القول ان غير المسلمين لا يشاركوننا في الانسانية، وليسوا من بني آدم الذين كرمهم القرآن الكريم بقوله عز وجل (ولقد كرمنا بني آدم...) وزاد على ذلك انه تجاهل وجود دار العهد التي اصبحت تشمل بلاد العالم كله الآن...

اما أنا فإنني لا أوافق على القول بأن العالم يشمل قسمين لا ثالث لهما «دار الاسلام» و«دار الحرب» لأن هذا قول يتجاهل القسم الثالث وهو «دار العهد»

الذي يشمل البلاد غير الاسلامية التي يكون بينها وبين المسلمين عهد مسالمة، وهذا القسم اصبح الآن يضم جميع بلاد العالم التي تعاهد معها المسلمون بعهد جماعية مثل ميثاق الأمم المتحدة فضلا عن العهود الثنائية، وخاصة فيما يتعلق بالتمثيل السياسي والاتفاقات الاقليمية والتجارية وما اليها»...

في نظرنا ان القول بأن كل البلاد غير الاسلامية هي دار حرب، قول غير صحيح ولايجوز اطلاقه بهذه الصورة، التي تتجاهل العهود والعقود التي تربط المسلمين بالدول الاخرى، والتي تجعلها دار عهد... والصحيح ان العالم كله اصبح الان دار عهد، ولايجوز ان توصف دولة غير اسلامية بأنها دار حرب الا في حالة وجود حرب بينها وبين المسلمين، وفي فترة الحرب وفي نطاق قانون الحرب الذي يقوم على مبدأ المعاملة بالمثل الذي قرره القرآن الكريم بقوله «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم»...

في نظرنا ان ما يسمى بدار الحرب لم يعد لها وجود في عصرنا الحاضر بمرور وصف كل من يحمل جنسية اجنبية بأنه حربي، في نظرنا ان هذا وصف خاطيء ويجب تفاديه، ولايجوز ان نطبق على اي اجنبي احكام الفقه بشأن الحربيين الا اذا كان ممن يحاربوننا فعلا، يؤكّد ذلك ان القاضي (عوده) اضاف «في موضع آخر» تحفظا حين قال: «ان الحربي يكون غير معصوم اذا لم يكن بين دولته وبين دار الاسلام عهد او هدنة» ثم كرر ذلك حين قال: «ان الحربيين ليس لهم ان يدخلوا دار الاسلام اذا لم يكن بينهم وبين دار الاسلام عهد»...

وتعليقات السيد «الصدر» على هذا البند ليس فيها اي اعتراض على الرأي الذي ننتقده «كأنه لا جدال فيه» او انه لا يحتاج الى دليل او برهان... وهذه هي عبارته في التعليق رقم (٣٣٤) على البند رقم (٢١٢): (ليس الحربي الا من لم يكن

مسلمًا ولا ذميا ولم يدخل في امان المسلمين ومن البديهي كون الحربي الباقي في بلاد المسلمين تجتمع فيه الاوصاف الثلاثة»...

وانا لا ألوم القاضي (عوده) ولا السيد (الصدر)؛ لأن من المرجح ان هذا هو ما قاله اغلب فقهاء السلف من السنة والشيعة، وهو رأي كان له اساس في حينه، لكن ظروف عصرنا تجعله غير ممكن التطبيق، واعتقد ان كثيرين من المعاصرين يؤيدون وجهة نظري، وان كنت لم اسمع او اقرأ شيئاً عنه، فمن كان عنده معلومات في هذا الموضوع فاني اكون شاكرًا لو دلني عليها؛ لأنها تؤيد ما قلته...

ثانياً: عصمة الدماء والاموال واجبة لبني آدم (كلهم)، وليست امتياز الفريق معين من البشر دون غيرهم:

قال فقيهنا القاضي عوده (في البند ٢١٢): «ان العصمة في الشريعة لا تكون الا باحد شيئين: بالايمان او الامان...»

.... وبني على ذلك قوله «كما يعتبر (الحربي) مباح الدم اذا دخل دار الاسلام دون اذن، فكذلك يعتبر المسلم والذمي مباحي الدم للحربيين اذا دخل دار حرب دون اذن» وذلك رأي أبي حنيفة ويضيف لذلك «يرى ابو حنيفة ان المسلم المقيم في دار الحرب ولم يهاجر الى دار الاسلام غير معصوم بمجرد اسلامه؛ لأن العصمة عند ابي حنيفة ليست بالاسلام وحده، وانما يعصم المسلم عنده بعصمة الدار ومنعة الاسلام المستمدة من قوة المسلمين وجماعتهم، والمسلم في دار الحرب لامنعة له ولا قوة فلا عصمة له، ولكن له ان يدخل دار الاسلام في اي وقت، فاذا دخلها استفاد العصمة»...

«وكما يعتبر الحربي مباح الديم إذا دخل دار الاسلام دون اذن، فكذلك يعتبر المسلم والذمي مباحي الدم للحربيين إذا دخل دار الحرب دون اذن او امان، فاذا دخل باذن او امان سمي كلاهما مستأمناً على ان تكون اقامته مؤقتة، وله أن يرجع الى دار الاسلام في اي وقت شاء، فاذا رأى المسلم ان يبقى بصفة دائمة في دار الحرب، فذلك لا يغير من امره شيئاً ما دام باقياً على اسلامه، فان خرج عن اسلامه صار حربياً، واذا اراد الذمي ان يقيم اقامة دائمة في دار الحرب انقلب حربياً»...

ونحن نعارض هذا القول لأن العالم كله اصبح الآن دار عهد، ودار الحرب لا تشمل الا الدول التي تكون في حرب فعلية مع المسلمين، وفي فترة الحرب فقط.... كما ان دار الاسلام لا تشمل الا البلاد التي تعلن السلطات المسيطرة عليها بأنها تطبق شريعتنا وتخضع لها وتلتزم بها، اما البلاد الاسلامية التي يعلن حكامها انهم لا يلتزمون بشريعتنا بل ويضطهدون من يطالبون بتطبيق الشريعة، وكل من يؤيد ونهم فلا يجوز ان نقول انها دار اسلام يلتزم المسلم بالهجرة اليها...

الحقيقة هي ان دار الاسلام معرضة للانكماش مثل دار الحرب في عصرنا

(الحاضر)...

كثيرون يفترضون ان كل البلاد التي يسكنها اغلبية مسلمة تعتبر بلداً اسلامياً او دار اسلام على اساس انها تطبق فيها الشريعة الاسلامية، وبني على ذلك عبد القادر عوده قوله في البند (٢١٨): «... ان تعدد الدول الاسلامية لن يمنع اليوم من تطبيق النظريات الاسلامية كما لم يمنع من تطبيقها قديماً فقط طبقها الاندلسيون في الاندلس، والمغاربة في المغرب، والعلويون في مصر، والعباسيون في بغداد، ونستطيع اليوم ان نطبقها في مصر وفي لبنان وفي سوريا والعراق والحجاز والباكستان وفي المغرب، وفي كل بلد اسلامي له حكومة تحكمه وحدود

تحده»....

«ومن السهل تطبيق النظريات الاسلامية اليوم، ولكن تطبيقها يقتضي من كل دولة اسلامية ان تعتبر نفسها ممثلة للاسلام في جميع بقاع العالم لافي داخل حدودها فقط، فمثلا اذا اردنا ان نطبق نظرية ابي حنيفة في مصر فاننا نعاقب او لا من يرتكب جريمة داخل حدود البلاد المصرية مسلما كان الجاني او ذميا، مصريا او شاميا او عراقيا او فلسطينيا او فارسيا وهكذا؛ لأن كل فرد من رعايا أي دولة اسلامية لايعتبر اجنبيا بالنسبة لاية دولة اسلامية اخرى؛ ولأن بلاد الاسلام كلها دار واحدة تحكمها شريعة واحدة، ونعاقب ثانيا كل هؤلاء على اية جريمة يرتكبونها في اي بلد اسلامي آخر سواء كانوا يقيمون في مصر اقامة دائمة او اقامة مؤقتة، بشرط ان لا يكونوا قد عوقبوا على هذه الجريمة في محل ارتكابها او في اي بلد اسلامي آخر»....

ونحن نرى انه اذا كان تعميم صفة دار الحرب على جميع البلاد غير الاسلامية يؤدي الى نتائج غير مقبولة، فان تعميم صفة دار الاسلام على جميع الاقطار التي تسكنها اغلبية مسلمة هو امر لا يتفق مع واقع عصرنا حيث ان اغلب دولنا لا تلتزم بتطبيق الشريعة... وليس بصحيح قوله ان اقليم كل دولة من دولنا المعاصرة يعتبر جزءا من دار الاسلام وان من يرتكب فعلا تعاقب عليه الشريعة على اي اقليم من اقاليم هذه الدول العصرية التي يعتبرها اسلامية تطبق عليه احكام شريعتنا ولا انه يجب على اي دولة اسلامية اخرى تطبق الشريعة الاسلامية ان تطبق العقوبة المقررة في الشريعة على كل مواطني تلك الدول على الجرائم التي يرتكبونها على اقليم اية واحدة منها، حتى ولو كانوا قد حوكموا في بلادهم او في اي بلد اخرى، لكن طبقت عليهم عقوبات وضعية غير التي تقرها الشريعة

وهذا هو قوله: «إذا كانوا قد عوقبوا على الجريمة في اي بلد اسلامي آخر بغير العقوبة التي توجبها الشريعة، وجب ان يعاقبوا مرة ثانية بالعقوبة المقررة في الشريعة؛ لأن بلاد الاسلام كلها دار واحدة مهما اختلفت حكوماتها؛ وان الاسلام يوجب على كل دولة اسلامية ان تقيم احكامه وان تبادر الى تغيير المنكر والنهي عنه، ومن تغيير المنكر ان تبادر الدولة بتوقيع العقوبة التي توجبها الشريعة على من استحقها» وعلل ذلك بقوله: «ان من واجب كل حكومة اسلامية ان تقيم الحدود ولا تأخرها، فاذا تركتها وجبت على اي حكومة اخرى تستطيعها»...

ثم ان السيد الامام المجتهد (الصدر) في تعليقه رقم (٣٧٠) ايد هذا القول وقال «انه هو القول الراجح في الفقه الجعفري» دون اية مناقشة...

ونحن نعارض هذا الرأي وحجتنا «ان دار الاسلام لم تعد بالصورة التي تحدث عنها الفقهاء من قبل عندما قالوا انها هي البلاد التي تحكم بالشريعة الاسلامية؛ لأن كثيرا من الدول الاسلامية القطرية لا تلتزم الآن بتطبيق الشريعة بل هناك من يعاقبون الذين يدعون الى تطبيقها او يطالبون به ويتهمونهم بالتطرف او الرجعية او التآمر او الارهاب وهناك من يحرضون الدول الاجنبية للقضاء على المطالبين بتطبيق الشريعة اذا لجأوا اليها هربا من اضطهاد بعض السلطات في بلادهم وهناك من يحرمون شعوبهم من الانتخابات الحرة اذا ادت الى نجاح من يدعون للاسلام وشريعته، ويعلمون ذلك بأن القوى الاجنبية ذات النفوذ العالمي تريد ذلك، وان العالم اصبح قرية واحدة يحكمها نظام عالمي غير اسلامي تسيطر عليه قوى اجنبية تمثل اغلبية على المستوى الدولي، انهم يلتزمون بالسير مع الاغلبية غير الاسلامية في هذا النظام الدولي، وهي في نظرهم تكره الاسلام وتعادي الاصوليين الذين يطالبون بتطبيق الشريعة ولهذا فإن بعض الحكام

الواقعيين يفضلون ان يلتزموا بما تفرضه علينا القوى الاجنبية»...

«وناحية اخرى... انهم يصفون دار الاسلام بانها دار امن للمسلمين، وان دار الحرب دار خوف وعداء للمسلمين، ويجب ان يستثنى من ذلك بعض الحالات عندما نرى من يطالبون بتطبيق الشريعة يجدون في بعض الدول الاجنبية امنا لا يتوفر لهم في بلادهم التي ينتمون اليها والتي يعتبرها البعض بلادا اسلامية ولو كانت تضطهد من يطالبون بتطبيق الشريعة»...

ان البحث في تطبيق الشريعة الاسلامية على افعال الافراد في الخارج يستلزم البحث في تطبيقها على الحكام في الداخل اولا، فلا بد اولا من تطبيقها على الدول ذاتها ومن يتولون السلطة فيها، وكثير منهم لا يعترف بالشريعة في الاوضاع الحالية ولا يخضع لاحكامها في حياته الخاصة او في ممارسته لسلطات الدولة...

ان بعض الحكومات التي تفرض سلطتها على شعوبها بالقوة دون شورى حرة يطالبها البعض بأن تطبق العقوبات الشرعية، وخاصة الحدود على الافراد وهؤلاء يجب عليهم ان يفكروا جيدا فيما اقوله وهو:

ان تطبيق العقوبات الشرعية وخاصة الحدود لا يجوز ان يقوم به حكام لا يلزمون انفسهم بأحكام الشريعة او يبيحون لانفسهم مخالفتها والتباهي بعدم الالتزام بها، ثم يطالبها البعض بتطبيق الحدود، وقد يزعمون انهم سوف يطبقونها على الافراد...

ان الشرط الاول لتطبيق الحدود او المطالبة بها هو اقامة السلطة التي تخضع للشريعة والحكومات التي تلتزم بها هي اولا ...

وكثير من بلادنا لم تصل الى هذه المرحلة، ولا نعتقد ان سلطات بعض الدول

تكون مؤهلة لتطبيق الحدود على الافراد قبل ان تطبقها عليهم وعلى اعوانهم، ولا يجوز في نظرنا ان نطالب هذه الحكومات الجائرة بتطبيق الحدود على الافراد، ولا ان نقبل منهم ذلك ونصفهم بأنهم طبقوا الشريعة لمجرد أنهم طبقوا الحدود على غيرهم، وهم اول من يجب ان تطبق عليهم تلك الحدود، فاذا لم يستطع المسلمون اقامة هذه السلطة التي تحترم الشريعة وتلتزم بها، فلا يستطيعون ان يصفوا بلادهم بأنهادار الاسلام، ولا ان يطبقوا عليها ما قرره الفقه لدار الاسلام التي يصفونها بأنها تطبق الشريعة وانهادار امن وامان للمسلمين...

«وعلى ذلك فإن كل ما قاله اسلافنا في هذا الشأن هي احكام مستقبلية يسعى لها من يطالبون بتطبيق الشريعة ويأملون في تحقيق ذلك في المستقبل عندما يقيمون حكومة اسلامية صحيحة في بلادهم، وهم لم يصلوا لذلك في كثير من اقطارنا التي يحكمها الان من يعارضون تطبيق الشريعة ويدعون انها قد مضى زمانها، ومنهم كثيرون يغتصبون السلطة ويحكمون بأهوائهم ويلتزمون بقرارات اعداء الاسلام وسياساتهم، بل ونرى بعضهم يتحالف مع القوى الاجنبية لمنع تطبيق الشريعة والقضاء على من يعملون لهذا بحجة انهم اصوليون او انهم متشدون او متطرفون»...

هذا النوع من المستبدين يزين لهم فقهاء السلاطين انهم مؤهلون لمعاقبة الافراد الذين يعتبرونهم خصوما او معارضين وتطبيق حد الحراة عليهم زاعمين انهم يطبقون الحدود او الاحكام الشرعية التي يرفضون الالتزام بها هم واعوانهم فهؤلاء يصدق عليهم قول الحق تبارك وتعالى بأنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض...

انسانصر على معارضتنا للقول الجزافي بأن «كل البلاد الاجنبية دار حرب

واحدة!!» ونتمسك بأن البلاد الاسلامية انما تعتبر دار اسلام لانها محكومة بالشريعة الاسلامية، وهذا ما نتمناه ونعمل له، ولكننا بكل اسف نرى ان الطريق لذلك طويل، بل ومحفوف بالاحطار والمخاوف...
ونتمنى ان يكون اول ما تطبقة دولنا هو دعوته الى ان كل رعايا الدول الاسلامية وكل المسلمين لايجوز اعتبارهم اجانب بالنسبة لاية دولة اسلامية اخرى، لاناعتبر هذا بداية لها ما بعدها»...

وقد انتقدنا القول بأن الدولة اذا لم تطبق عقوبات الحدود والقصاص فانه يجب على الافراد ان يطبقوها، ولانوافق عليه؛ لأن الاصح في نظرنا ان الافراد ملزمون بالجهد لاقامة الدولة التي تطبق الشريعة، لا ان يطبقوا هم الحدود بدلا من الدولة او يطالبون بذلك الحكومة غير الشرعية التي يستسلمون لجورها وبغيها ويشجعونها على ذلك باستسلامهم...

وابعد من ذلك عن الصواب هو ما نقله عن بعض الفقهاء من قيام الافراد بتنفيذ الحدود والقصاص دون التعازير التي تكون معاصي شرعية، وينسون اهمية العقوبات المقدرة شرعا، وان هذه الاهمية وهذه الخطورة تستوجب ضمانات اكثر لتطبيقها، واول هذه الضمانات في نظرنا هو ان تعرض على القضاء الشرعي المستقل ليتأكد من توفر شروط تطبيقها شرعا وعدم وجود شبهات يترتب عليها سقوطها، بدلا من ان نعطي لكل فرد او يقيم نفسه قاضيا، ونطالبه بالحكم على غيره من الافراد او تنفيذ الحكم عليهم...

رأينا هو ان احكام فقهننا بشأن التفرقة بين دار الاسلام ودار الحرب يجب الا

تؤخذ بهذا الأسلوب السطحي بل يجب تطبيق مبادئ شريعتنا بشأن تعريف دار الإسلام بأنها هي الملتزمة بشريعته ويلتزم حكامها بها، وتعريف دار الحرب بأنها التي لا يكون بينها وبين المسلمين عهد، أو تكون في حالة حرب فعلاً مع دولة إسلامية بالمعنى الصحيح وفي فترة الحرب فقط....

ونحن نعارض القول: بأن معنى «عدم العصمة للحريين (في الحدود السابقة) انه يجوز للأفراد قتل من اهدرت دماؤهم، لأن الاهدار الذي نقول به لا يكون الا بحكم قضائي بعد محاكمة شرعية عادلة...

وإذا قال بعض الفقهاء بأن الحريين غير معصومين فيجب ان يراعي فيه ما قلناه عن ان عدم العصمة لايجوز للأفراد قتل من وصفهم بأنهم قد اهدرت دماؤهم ولا ان يرددوا قول الامام ابي حنيفة بأن «المسلم والذي يكونون مباحي الدم اذا دخلوا دار الحرب دون اذن او امان» اي انه يبيح ايضا للحريين اهدار دم المسلم او الذمي في الحالة التي اشار اليها والصواب ان الاهدار حكم شرعي يطبقه القضاء لا الافراد...

(اننا نتحفظ على هذه الاقوال التي تؤدي الى اباحة الاعتداء على حقوق الانسان التي حصنتها شريعتنا، مثل حق كل انسان في الحياة وسلامة جسمه وبدنه، وهي في نظرنا حقوق قدستها شريعتنا بدليل انها فرضت للعقاب عيها عقوبة القصاص التي قصد بها المشرع في نظرنا حماية حق الانسان في حياته وسلامة بدنه، وهي الحماية التي نعتبرها اساساً للنظرية شرعية عامة في ضمان حقوق الانسان وحمايتها من المساس بها الا بحكم قضائي تنفذه سلطة شرعية، وعلى ذلك فاننا لانبرر قيام فرد بقتل اي انسان سواء كان حربياً او ذمياً او مستأمناً او مسلماً بحجة اقامة الحد عليه، او بحجة انه غير معصوم لان جميع الناس

معصومون بصفتهم بشرا متساوين في الحقوق الانسانية؛ ونرى ان اقامة الحدود من اختصاص القضاء الملتمزم بالشرعية دون غيره...

وفي نظرنا ان الاصل ان «الاهدار في حالة الحرب لايشمل الا المحاربين

فعلا...»

وان الاقوال التي بنيت على افتراض وجود حالة حرب دائمة بين المسلمين وغيرهم قد فات اوانها، والقول بذلك غير صحيح حاليا، ولانقره الا بالنسبة للمحاربين المقاتلين من الاعداء اثناء الحرب، اما مجرد الانتساب الى دولة معادية فلا يحرم الفرد من الحماية التي قررتها شريعتنا لحقوق الانسان، الا اذا ثبت مشاركته في العدوان علينا، ومن باب اولي لا يعتبر الاجنبي محاربا اذا كانت الدولة معاهدة للمسلمين وليست محاربة، وقد بينا ان جميع دول العالم الموقعة على المواثيق الدولية «مثل ميثاق الامم المتحدة وغيرها من المعاهدات الجماعية» هي دول معاهدة ولا يصح وصفها بأنهادار حرب، ولا يجوز بالتالي القول بعدم عصمة رعاياها او حرمانهم من الحقوق الانسانية التي قدستها شريعتنا وتحرم كل عدوان عليها...

ومن باب اولي نقر ما ينسب لابي حنيفة من ان المسلم المقيم في بلد اجنبي ولم يهاجر لدار الاسلام يكون غير معصوم بحجة انها دار حرب، او ان المسلم في اي بلد اجنبي لاعصمة له، بحجة ان كل بلد سكانها غير مسلمين هي دار حرب دون ان تكون بينها وبين المسلمين حرب فعلية...

ورجائي من كل اخواني اذا كان عندهم معرفة بأي قول يؤيد وجهة نظري،

فاني في اشد الحاجة اليه...

نحن نؤكد رأينا بأننا نعارض ما قاله فقيهنا وغيره بأن الاهدار معناه ان كل فرد له الحق في قتل المهدر دمه، والاستيلاء على ماله دون ان يؤخذ على ذلك شرعا ولا فقها، لأن الاهدار لا يكون الا بحكم قضائي شرعي صحيح...
 ويزيد في خطورة هذا القول ان من نسميهم (حريين) في نظر البعض هم كل اهل دار الحرب، حتى اصبح من الشائع ان كلمة حربي ترادف كلمة اجنبي، وان صفة الحربي تنطبق على جميع من ينتسبون لبلد اجنبي...
 والتحفظ الذي اصبغه ذو شقين:

١- ان البلد الاجنبي لا يجوز ان يوصف بأنه دار حرب الا في حالة ما اذا كان في حالة حرب فعلية مع دار الاسلام، وفي غير حالة الحرب اي حالة السلم تكون المعاملة بالمثل، واذا كان هناك اتفاق او عهد فاننا نلتزم به طالما التزمته تلك الدولة...

٢- انه حتى في نطاق من يحملون جنسية بلد في حالة حرب معنا، يجب ان نفرق بين المحاربين فعلا «او من يساندونهم» وبين غيرهم الذين لا تنطبق عليهم صفة المحارب، على تفصيل طويل في هذا المضمار...

ثالثا: تعارض الانحياز لأهل الكتاب دون غيرهم من الملل الاخرى:

إنني أذكر هؤلاء الذين يميزون بين أهل الكتاب وغيرهم من الملل الاخرى وخاصة الاسيويين والافارقة: بأن هناك تحالف بين اليهود والنصارى ضدنا، بل ان اليهود اخترقوا بعض الكنائس النصرانية البروستانتية والارثوذكسية ويستغلونهم لتنفيذ خططهم المعادية للشعوب الاسلامية والاسلام ذاته...

مع ذلك فإن كثيرا من كتب الفقه القديمة والحديثة تصر على اعطاء اهل الكتاب وحدهم الحق في ان يكونوا اهل الذمة او المستأمنين بحجة انهم اصحاب اديان سماوية ويهملون غيرهم، ممن يصرون على وصفهم وحدهم بأئهم مشركين او كفار مع انهم يعرفون ان اديان اليهود والنصارى قد بدلت وحرقت وان هذا الموقف العادي لغيرهم اعطى للمسيحيين وهيئاتهم التبشيرية والصهيونيين الفرصة لكي يستقبطوا بعض الدول الآسيوية وادخالهم ضمن التحالف المضاد للإسلام لاستكمال محاصرة العالم الاسلامي من الشرق والجنوب بعد ان حاصرته اوروبا واميركا من الشمال والغرب...

وقد لاحظنا ان القاضي (عوده) في البند (٢٥) بعنوان «حرية الاعتقاد» اشار الى المبدأ الاساسي بقوله «في اي بلد اسلامي يستطيع غير المسلم ان يعلن عن دينه ومذهبه وعقيدته، وان يباشر طقوسه الدينية، وان يقيم المعابد والمدارس لاقامة دينه ودراسته دون حرج عليه»...

وكمثال لتأكيد هذا المبدأ قال: «فلليهود في البلاد الاسلامية عقائدهم ومعابدهم، وهم يتعبدون علنا وبطريقة رسمية، ولهم مدارسهم التي يعلمون فيها الدين الموسوي، ولهم ان يكتبوا ما يشاءون عن عقيدتهم، وان يقارنوا بينها وبين غيرها من العقائد ويفصلونها عليها في حدود النظام العام والآداب والأخلاق الفاضلة»...

«وكذلك حال المسيحيين مع اختلاف مذاهبهم وتعددتها، فلكل اصحاب مذهب كنائسهم ومدارسهم ويباشرون عباداتهم علنا، ويعلمون عقائدهم في مدارسهم ويكتبون عما يعتقدون وينشرون ما ينشرون في البلاد الاسلامية».

وقد فهمنا من هذا النص ان الاشارة الى اليهود والنصارى هي مجرد ذكر

امثلة لتطبيقات مبدأ حرية العقيدة في شريعتنا وهو مبدأ أساسي لجميع الديانات...

ولكن تعليق المجتهد العالم حجة الاسلام والمسلمين المرحوم (اسماعيل الصدر) لم يقف عند هذا الحد، بل اضاف في تعليقه رقم (٩) على هذا البند قائلاً: «ليس لمن لا يدين لاحد الاديان السماوية (يشير بذلك لليهودية والنصرانية) السكنى في البلاد الاسلامية؛ لأنها اشبه ما تكون بالجرائم السامة، فاما ان يذهب سمها وذلك بتدينها بأحد الاديان السماوية او تزال من الوجود»...

كما عاد لتأكيد ذلك في التعليق رقم (١٠) على نفس (البند)...

ولقد بادرنا بنقد ما قاله السيد الصدر في رأينا على هذا التعليق رقم (٩) وكذلك في رأينا على التعليق رقم (١٠) حيث قلنا ما يلي: (نعارض قوله في تعليق رقم (١٠) ان هذه الحرية العقيدية ميزة لأهل الكتاب دون غيرهم، ونعتقد ان هذا رأى شخصي له، ويؤيد رأينا ما تضمنه دستور جمهورية ايران ذاتها في المادة الثالثة عشر من التسوية بين «الزرادشت» و «اليهود» و «المسيحيين» في الحقوق واعتبارهم من الأقليات الدينية المعترف بها)...

(ان احترام النظام العام والآداب يكفي لمقاومة الانحرافات الشاذة مثل العرى والفسق وعبادة الاوثان، او الاهداف السياسية المعادية او غير ذلك من الانحرافات التي تمارسها بعض الفرق وعادة تمويلها جهات اجنبية لتحطيم اخلاق الشباب او تهديد وحدة المجتمع، وشغل بعض الطوائف ببعض الطقوس الغريبة عن العمل الجدي والانتاج)....

وقد عاد الشهيد القاضي «عوده» في البند (٢١١) تحت عنوان «دار الاسلام» الى تأكيد المبدأ الذي ذكره من قبل في البند (٢٥) الذي اشرنا اليه فقال ان

الذميين (هم غير المسلمين الذين يلتزمون احكام الاسلام و يقيمون اقامة دائمة في دار الاسلام بغض النظر عن معتقداتهم الدينية، فيصح ان يكونوا مسيحيين، ويصح ان يكونوا يهودا، ويصح ان يكونوا مجوسا او صائبة، او عباد ما استحسن او ما لا يستحسن او ممن لا يدينون بدين)...

لكن الامام المجتهد (السيد الصدر) اضاف التعليق رقم (٣٣٠) ليؤكد رأيه السابق، بل ينسبه الى الفقه الجعفري عموما وذلك بقوله: (الرأي السائد بين فقهاء المذهب الجعفري هو اختصاص اخذ الجزية بأهل الكتاب ولا يباح لغيرهم السكنى في بلاد المسلمين ولو مع دفع الجزية)...

واضاف التعليق رقم (٣٣١) قوله (ولكن لا يسمح له بالبقاء الدائم، اذ لا يجوز لغير المسلم السكنى في بلاد المسلمين الا الكتابيون اذا التزموا بشروط الذمة)...

وعاد لذلك في التعليق رقم (٣٣٢) بقوله مايلي (الذميون الذين يؤخذ منهم الجزية هم اهل الكتاب من اليهود والنصارى، وقد اختلفت آراء المذهب الجعفري في المجوس، وهل يصح اخذ الجزية منهم او لا يصح ولا يقرون على دينهم والمشهور كونهم من اهل الذمة، ويستندون في ذلك الى الخبر المروي عن الامام امير المؤمنين علي(ع) انه كان لهم كتاب احرقوه ونبي قتلوه)...

وكذلك في التعليق رقم (٣٣٥) (مر علينا قريبا ان غير الكتابي لا يكون ذميا وان الكتابي انما يكون ذميا اذا التزم بشرائط الذمة، وليس مجرد السكنى في بلاد المسلمين سببا لصيرورة الانسان ذميا كما مرت الاشارة الى ذلك قريبا)...

ان رأينا في البند (٢٥) رأينا هو الاعتراض على ما قاله السيد الصدر في التعليقين رقم (٣٣١+٣٣٠) على البند رقم (٢١١) ونرفض قوله بأن اهل الاديان

الآخري غير اليهود والنصارى لا يجوز اقامتهم في دار الاسلام ونستند الى ما قرره دستور الجمهورية الاسلامية الايرانية بشأن «الزرادشتيين»...

وفي رأينا على التعليق (٣٣٢) على البند (٢١١) قلنا مايلي (نؤيد قوله بشأن المجوس، اما القول بأن غير المسلم (وغير العربي) اي الاجنبي غير المواطن لا يحق له الاقامة في دار الاسلام الابصفة مؤقتة لانوافق عليه؛ لأن مثل هذه المسائل يحكمها مبدأ المعاملة بالمثل وتنظمها المعاهدات الدولية؛ ويجب التمييز بين المعاهد وغيره، فليس كل الاجانب محاربين كما يفهم من قوله)...

فاذا كان هناك بلد اجنبي يسمح لمواطنينا بالاقامة الدائمة، او كانت هناك معاهدات او اعراف دولية تبيح لغير المواطنين الاقامة في دولة ما فلا نرى مانعا شرعيا من ان تسمح الدولة للاجانب غير المسلمين بالاقامة الدائمة، كل ما هنالك ان للدولة في كل وقت ان تطرد الاجنبي من بلادها اذا كان وجوده يسبب لها ضررا، فالامر يرجع لمصلحة الدولة...

في اعتقادي ان ما قرره الفقه بالنسبة لعقد الذمة والامان يسري على علاقاتنا مع جميع الشعوب، وان تخصيص اهل الكتاب باحكام معينة انما كانت؛ لأنهم كانوا يجاوروننا في المدينة، وما زالوا يجاوروننا في كثير من بلادنا بسبب ما يقوم عليه الاسلام من تسامح...

وموقف الرسول (ص) من المشركين كان الحرب لمن يحاربونه، ولكنه كانت له احواف واتفاقات مع كل قبيلة حسب موقفها، لبحسب عقيدتها؛ لأن الكفر ملة واحدة من حيث العقيدة، وكل تمييز بين الامم او بين الدول او الاجانب بمختلف جنسياتهم يرجع لاسباب سياسية فقط...


إننا الآن نواجه عداء معلنا من اهل الكتاب، ومع ذلك مازال بعضنا يميزهم عن غيرهم من اتباع الاديان الاخرى في افريقيا وآسيا، وقيمون بيننا وبينهم حواجز عداء لاساس لها واول ضحية لذلك هم الاقليات او الاغليات المسلمة التي تعيش معهم، فبدلا من ان يكون دورهم الدعوة للاسلام نعرض نحن عليهم العداء لمواطنيهم غير المسلمين، ويستغل ذلك الامبرياليون، فيغذون الحركات الانفصالية ويحركونها لعزل المسلمين من الشرق والجنوب، في الوقت الذي يهاجمونهم من الشمال او الغرب، وبذلك يتم حصارنا بأيدينا وايديهم... فاعتبروا... (يا اولي الانصار)...

ولا حول ولا قوة الا بالله...

دار الاسلام بين الواقعية والمثالية

الجغرافية السياسية للعالم

من منظار الاسلام

الاستاذ عميد الزنجاني 

عميد كلية الحقوق والعلوم السياسية

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد نشأت في الحركة الاسلامية في مسيرتها التاريخية ظاهرتان بارزتان اولاهما انتشار الاسلام وحمل المسلمين لرأية الاسلام الى اقصى المعمورة وكان هذا الانتشار العجيب طوعا بين شعوب العالم قد اوجد مجالا لتكوين وانتشار الثقافة المجددة للحياة والحضارة العلمية والانسانية وكان لانتشار المسلمين وعلاقتهم بالهجرة وصلتهم بالارض (بوحى من السماء) دور كبير في توسيع آفاق تلك الحضارة الرائعة البشرية.

اما الظاهرة الثانية التي نهتم بايضاحها في هذا المقال وهي ظاهرة دار الاسلام وما رافقها من توسيع الحدود الجغرافية السياسية التي كانت تعتبر قلب الحضارة الاسلامية وموطن التطور تلك الحضارة وغناها السياسي بينما رسخت تلك الحضارة البشرية الاسلامية حيث سادت دار الاسلام بنطاقها الواسع.

ان البحث عن دار الاسلام بما لها من المفاهيم السياسية والحضارية يعطي مادة علمية دقيقة عن موضوع هذا المؤتمر ويصف الاسلام بخصيصه تتميز

بالحيوية والاعتدال والعلمية وليس الهدف منه الدعاية لشعب او بلد او تيار خاص او تعصب لطائفة ولكن يغلب على البحث احيانا اعتزاز الامة الاسلامية باسلامها الثوري وبالاسلام كحركة عالمية تحررية لجميع الشعوب في نطاق النظام الدولي.

فبدأ في توضيح بعض جوانب هذا البحث الرائع بذكر مقدمة مختصرة:

ان الخصائص الفكرية والعقيدية تمثل اهم عنصر في تكوين الشعب. ولا تحقق الوحدة الوطنية الا عن طريق الاشتراك في النظرة الكونية، والهدف، والنظام الاجتماعي، ولهذا السبب نجد ان لهذا اللون من الخصائص تأثيراً ملحوظاً في التمييز بين الدول. اذ يعين الحدود فيما بينها.

ان الدول والبلدان المختلفة. قبل ان تتخذ لها اسماً من حيث الظروف الاقليمية والجغرافية، او من حيث السلالة التي تنحدر منها شعوبها، تكتسب سماتها الاصلية من العقيدة والتفكير السياسي لشعوبها. وكذلك الشعوب فانها قبل ان تنتمي الى المزايا الشكلية والصفات العرضية كالعنصر. والتاريخ، والعادات والتقاليد، والحضارة والمدنية، والارض، تنشأ الى عقيدتها ونظامها الفكري، وميزتها الاصلية البارزة تنبثق عن هذا المبدأ.

من هذا المنطق، قسم الفقهاء الدول التي اطلقوا عليها عنوان: «الدار» من وحي موقفها حيال الاسلام عقدياً وسياسياً. وجعلوا المعلم لكل دار ما عليه اهلها من الوجهة العقيدية والسياسية. ومع ان كلمة «دار» في هذا التقسيم تمثل مفهوم الدولة، الا ان طرحها هنا يأتي من الدور الذي تساهم به الارض في تبلور المفهوم للدار او الدولة.

ان دار الاسلام هي الدولة والارض التي تعيش فيها الامة الاسلامية. وتلك

الرقعة من العالم التي تدخل في نطاق الاسلام، وتستظل الحياة فيها بظلال الاحكام الاسلامية.

وقد قدم الفقهاء آراء متنوعة في تعريف دار الاسلام، ومن هذا المنطلق وصفها الكتاب وعلماء القانون بأشكال مختلفة. جاء في دائرة المعارف الاسلامية ان دار الاسلام هي الارض التي اعتنق اهلها الاسلام.^(١) وجاء في الموسوعة العربية الميسرة أن دار الاسلام هي البلاد التي يحكمها مسلم و تؤدي فيها احكام الاسلام دون قيد، وتكون اكثريتها مسلمة.^(٢)

وقدم البعض هذا التعريف بشكل آخر، فقال: دار الاسلام هي البلاد التي تكون في نطاق السيادة الاسلامية، واحكام الاسلام فيها نافذة وشعائر الدين مقامة.^(٣) وقيل ايضاً: ان دار الاسلام هي نطاق الحكومة الاسلامية التي كانوا يعبرون عنها في عصر صدر الاسلام: دار البصرة.^(٤) ومن بين فقهاء الشيعة، يعتبر العلامة الحلبي دار الاسلام تلك البلاد التي تطبق فيها احكام الاسلام، وهي تشمل ثلاثة اقسام:

- ١ - ما انشأه المسلمون وأحدثوه بالبصرة والكوفة.
 - ٢ - ما فتحه المسلمون عنوة.
 - ٣ - ما فتح صلحاً على ان الارض لأصحابها ويؤخذ منهم خراجها.^(٥)
- يقول محمد بن الحسن الشيباني: المعتبر والملاك في صدق (الدار) هو

(١) يرجع الى دائرة المعارف الاسلامية ٧٧/٩ فما بعدها.

(٢) يرجع الى «الموسوعة العربية الميسرة»: ٧٧٤:٢.

(٣) آثار الحرب: ١٦٩.

(٤) «ترمينولژی حقوق» (علم المصطلحات القانونية) ٢٨١، الدكتور جعفري لنكرودي.

(٥) يرجع الى «تذكرة الفقهاء» ١/٤٤٦، ٤٤٥.

الحكومة والقدرة على تنفيذ الاحكام.^(١)

ويعتبر ابن حزم دار الاسلام دار البحرة فيقول: كل البلاد ما عدا المدينة هي حد الجهاد ودار الحرب.^(٢)

ان ايضاح مصطلح دار الاسلام لا يؤثر في تعريف انواع (الدار) الاخرى فحسب، بل وتظهر آثاره الفقهية والقانونية في كثير من المباحث الاخرى كالسياسة الخارجية، والخلافات المالية بين الذين يعيشون في دار الحرب، والذين يعيشون في دار الاسلام، واللقطاء في كلا الدارين. من هذا المنطلق فان اهمية هذا البحث تستدعي ان تطرح الآراء الفقهية الرئيسة وتقوم لكي نحصل على نتيجة صحيحة في الحالات المذكورة.

نناقش فيما يأتي النظريات المختلفة المطروحة حول دار الاسلام، وذلك من اجل توضيح مفهومها.

١ - تعتبر الدولة التي هي في نطاق الحكومة الاسلامية، وتطبق فيها احكام الاسلام وتقام فيها الشعائر والمظاهر الدينية «دار الاسلام». وعندما يتعرض جزء من اجزائها الى اعتداء يقوم به اعداء الاسلام، فعلى المسلمين ان ينهضوا للدفاع بمقدار الحاجة كواجب كفائي عليهم. وعندما تكون هناك حاجة الى قدرة اكثر فان ضرورة الدفاع تكون اشمل. ويكون الدفاع حتماً على جميع المسلمين بوصفه واجباً عينياً، وتقع المسؤولية على الجميع عند التخلف عن القيام بهذه المهمة.

ان البلاد التي تعتبر جزءاً من دار الاسلام وفقاً للنمط المتقدم لاتخرج عن

(١) يرجع الى شرح السير الكبير ٤/٨ فيما بعدها.

(٢) المحلى ٧/٣٥٣.

عنوان بلاد الاسلام ودار الاسلام واحكامها باستيلاء الاعداء والاجانب وسيطرتهم، ومهما تأخر زمنياً فإن مسألة وجوب الدفاع امام الانتهاكات السابقة والحالية تبقى نافذة.^(١)

اذن، سيشمل العالم الاسلامي شبه الجزيرة العربية والبلاد المفتوحة من قبل المسلمين. وكذلك البلاد التي خضعت لسيادة الاسلام وقوانينه، وطبقت فيها النظم الاسلامية.

وفي ضوء هذه النظرية فان (دار الحرب) هي البلاد التي لم تطبق فيها الاحكام الدينية والسياسية للاسلام، وهي خارجة عن نطاق النفوذ الاسلامي.

٢ - وفقاً لهذه النظرية، فان الفارق الجوهرى بين العالمين المذكورين هو وجود الحكومة ونفوذ الاحكام. فعندما تكون الحكومة والاحكام النافذة الاسلامية، فإن العالم المذكور يعرف على انه دار الاسلام، وعندما تكون غير اسلامية، فانه يعتبر (دار الحرب).

وهكذا فان البلد الواحد يمكن ان يكون جزءاً من دار الاسلام في يوم من الايام، ويمكن ان ينضم الى دار الحرب في يوم آخر بسبب سيطرة النظم غير الاسلامية، وزوال الشعائر والاحكام الاسلامية.

يزعم انصار هذه النظرية ان ظهور الاسلام يتحقق بظهور احكامه وشعائره، فاذا ما زالت هذه الاحكام والشعائر في بلد، فلا يعد يعرف بدار الاسلام، وسيفقد عنوانه الاصلي.^(٢)

٣ - ترى هذه النظرية ان اساس الاختلاف بين العالمين (الدارين) في وجود

(١) راجع تفسير المنار ١٠/٣١٦، ومقدمة ابن خلدون ١٦٥.

(٢) آثار الحرب ١٧١.

(الامان) و انعدامه. يعني متى ما كان هناك امان من قبل المسلمين في بلد ما، فان هذا البلد يحسب على الوطن الاسلامي، ومتى فقد هذا الامان فان ذلك البلد يحسب على دار الحرب. وفي ضوء هذه النظرية فان اي بقعة من الوطن الاسلامي (دار الاسلام) سوف لا تتبدل الى دار الحرب الا اذا توفرت الشروط الثلاثة الآتية:

- ١ - احكام الكفر مطبقة و نافذة في تلك البقعة.
 - ٢ - البقعة المذكورة مجاورة^(١) لدار الحرب وملاصقة لها.
 - ٣ - لا يبقى في تلك البقعة ولا ذمي يعيش في امان المسلمين.^(٢)
 - ٤ - بالنظر الى العلاقات التي تنبثق عن عقد معاهدات السلام بين المسلمين وغيرهم، فقد قسم عدد من الفقهاء العالم الى ثلاثة اقسام هي: دار الاسلام، ودار الحرب، ودار العهد. ودار الحرب، في ضوء هذا التقسيم، تخص البلد الذي لم يعقد اهله معاهدة و صلح مع المسلمين.
- والقصد من دار العهد: الدولة التي لم يسيطر عليها المسلمون، وانما اكتفوا بتوقيع معاهدة الذمة والهدنة مع اهلها، وظل اهلها على عقائدهم وآدابهم وقوانينهم واكتفوا في علاقاتهم مع المسلمين بعقد معاهدة الذمة معهم. وتتوكل هذه النظرية على المعاهدات التي كانت تعقد في عصر صدر الاسلام، نحو المعاهدات المعقودة مع اهالي نجران، والنوبة، واربينية. وقد احتفظت تلك المناطق باستقلالها وظل اهلها على عقائدهم وآدابهم على الرغم من العلاقات

(١) القصد من الجوار هنا عدم وجود بلد اسلامي بين ذلك البلد ودار الحرب.

(٢) آثار الحرب ١٧٢.

الخاصة التي كانت تربطهم بالمسلمين في ضوء عقد الذمة.^(١)

بيد ان دار العهد وفقا لنظريات اخرى وطبقا للعقد الرسمي بين الطرفين تعتبر جزءا من دار الاسلام. ومما يدعم هذه النظرية الشروط الواردة في عقد الذمة.^(٢)

٥ - يمكن ان نبين النظرية الخامسة في هذا البحث استضاءة بالشرح الذي قدمه بعض الكتاب الاسلاميين المتأخرين حول نظرية (تقسيم العالم) على النحو الآتي:

«لما كان تقسيم العالم من قبل فقهاء المسلمين الى جبهتين باسم دار الاسلام ودار الحرب قائما على اساس العلاقات الموجودة بين المسلمين وغيرهم، ولا علاقة له بالتشريع الاسلامي والاختلاف الديني، وكانت حالة الحرب او السلم هي الباعث المهم على هذا التقسيم، لذا ينبغي ان نقول: ان دار الحرب هي مجرد منطقة حرب ومسرح معركة. ولما كانت الحرب حالة طارئة في علاقات المسلمين، فان موضوع دار الحرب ينتهي بانطفاء شعلتها، ولن يبقى لها اثر. وفي ضوء ذلك، ينبغي ألاّ نتصور ان في قانون الاسلام دولتين او كتلتين سياسيتين، وان الاسلام يعترف بهذا الاختلاف والتقسيم، بل ان التقسيم المذكور هو بحسب توفر الامن والسلام للمسلمين في دارهم، ووجود الخوف والعداء في غير دارهم. وان دار الحرب اصطلاح يطلق على البلاد التي لاتعيش مع المسلمين في حالة سلام وتوادد».^(٣)

(١) «الشرع الدولي» ٥٠ نقلا عن «آثار الحرب» ١٧٥، ١٧٦. و «العلاقات الدولية في الاسلام»: ٥٣.
 (٢) غلط هنا بين دار الاسلام ودار السلام، اذ من الصحيح ان دار العهد تعتبر جزءا من دار السلام ودار السلم، بيد انها غير مضمولة بدار الاسلام. ومن هذا المنطلق يتعذر علينا ان نجعل التقسيم المذكور اساسا لنظرية مستقلة.
 (٣) السياسة الشرعية: نظام الدولة الاسلامية: ٦٩-٧٦، «آثار الحرب»: ١٩٤-١٩٦.

على الرغم من ان هذه النظرية في مبناها تماثل النظرية الثانية تماماً، الا ان ميزتها لافتة للنظر اكثر من حيث ان انصار هذه النظرية اقروا بقانون الجهاد في الاسلام في بعده الدفاعي فحسب، وهكذا حاولوا التوفيق بين نظرية الفقهاء ونظرية المتخصصين في القانون الدولي المتوكلتة على وحدة العالم، على ان الحرب حالة عرضية ومؤقتة في المجتمع البشري الكبير، وان المجتمع البشري يتوحد بازالة الحرب.

يحلل مؤلف كتاب «آثار الحرب» وهو من انصار هذه النظرية، (دار الاسلام) والوطن الاسلامي كالآتي:

«تضم دار الاسلام جميع الاقاليم الاسلامية الفسيحة والبعيدة. فلا ينطبق الوطن بالحدود الجغرافية والسياسية المتداولة بين دول العالم هذا اليوم على الوطن الاسلامي، اذ ان الوطن الاسلامي يتسع باتساع رقعة العقيدة الاسلامية. ومن هذا المنطلق، فهو يشبه اكثر امرا معنونا كالايمان، والعقيدة. ورعايا دار الاسلام هم المسلمون وغير المسلمين من الذميين والمستأمنين، وهكذا فالمسلمون والذميون كشعب واحد لدار الاسلام، الا ان الذميين لا يعتبرون جزءا من الامة الاسلامية. فالاسلام من حيث كونه عقيدة يعتبر المسلمين جميعاً اخوة في العقيدة، ومن حيث العقد الثنائي يعتبر المسلمين وحلفاءهم شعباً سياسياً واحداً»^(١).

٦ - ثمة نقطة كان الاهتمام بها قليلاً في النظريات المتقدمة وهي اننا ينبغي ان لانعتبر مفهوم دار الاسلام او الوطن الاسلامي في هذه الدراسة مفهوماً ثابتاً

(١) «آثار الحرب»: ١٧٧-١٨٠.

وواحدًا، وتغافل عن التبدلات التي قد تطرأ عليه بسبب تبدل وتنوع الاحكام وآثارها.

حاول اصحاب النظريات السالفة من خلال ابداء الآراء المذكورة ان يجدوا علاجاً للمسائل التي تحوم حول عنوان دار الاسلام، وبينوا الآثار والاحكام القانونية والسياسية للعنوان المذكور جملة. بينما نجد ان عنوان دار الاسلام اذا كان موضوعه الاحكام القانونية، فهو يختلف عن عنوان دار الاسلام الذي استل بسبب الآثار السياسية للموضوع.

نأخذ في حسابنا المسألتين الآتيتين وذلك لكي يستبين الموضوع:

أ - يعتبر الطفل اللقيط الذي يعثر عليه في دار الاسلام لا يعرف دين ابويه، مسلماً من منظار القانون.

ب - يحظر دخول الشخص غير المسلم الى دار الاسلام بدون احراز عنوان (الذمي) او (المستأمن).

لا ريب ان مفهوم دار الاسلام في المسألة الاولى يختلف تماما عن مفهومه في المسألة الثانية، لان الحكم المترتب على العنوان الاول يصدق على المناطق الاسلامية في البلدان غير الاسلامية كالهند، ولبنان: بينما لا يصدق العنوان الثاني باعتبار الحكم السياسي في المناطق المذكورة.

يقول مؤلف كتاب «الفقه - السياسة» في تعيين نطاق بلاد الاسلام وحدوده وبلاد الكفر:

«ما كان الكفار سيطروا عليه وهو في بلاد الاسلام كروسيا المسيطرة على الجمهوريات الاسلامية، وكاليهود المسيطرين على فلسطين، وكذلك المناطق التي سيطر عليها الاستعمار سيطرة سياسية. ولا حدود بين هذه المناطق الاسلامية

وبين بلاد الاسلام، وللمسلم حق التردد فيها.

وما كان الكفار سيطروا عليه من البداية كالقسم الاعظم من اوروبا، فله

حكمان:

١- باعتبار ارض الكفر التي لها احكام خاصة نحو احكام اللقطة واحكام الاموات، واحكام اللحوم.

٢- باعتبار ارض الله الفسيحة التي منحها لعباده، فلهم التمتع بما يشاؤون منها، ولا احترام لقوانين الكفار فيها.

ويستثنى من ذلك ما لو كانت بين الكفار وبين المسلمين معاهدة، فاللازم على المسلمين احترام تلك المعاهدة، والوفاء بالعهد، مع قيد ان تكون المعاهدة من قبل الدولة الاسلامية المشروعة. وتحقق الدولة الاسلامية بشرطين:

١- كون قانون الدولة قانون الاسلام.

٢- وكون رئيس الدولة رجلا يرضاه الاسلام، وترضاه اكثرية الامة.

وبدون هذين الشرطين، فكل اعمال الدولة غير نافذة - وان ادعت انها

اسلامية - والمسلمون احرار فيما يفعلونه، لا يقيدون بمقررات الدولة. واموال

هذه الدولة من قسم مجهول المالك المرتبط بالحاكم الشرعي^(١).

لاتحدد هذه النظرية نطاق دار الاسلام ودار الكفر بشكل واضح، ولا يمكن

قبول ما ذكرته في مجال حياة المسلمين في البلاد الاسلامية التي لاتخضع

لحكومة اسلامية، وكذلك حياة المسلم في بلاد الكفر، والحرية التي سمحت بها

للمسلم بشكلها اللامحدود، لان احترام العهود الفردية وقيمتها القانونية يستدعي

(١) فقه السياسة - ١٥٣-١٥٤.

انه متى ما تقبل المسلم - في هاتين الحالتين - الامتيازات والامكانيات التي اتاحتها الحكومة الكافرة او الحكومة غير الاسلامية بشروط والتزامات خاصة، فلا مناص له من العمل وفقاً لالتزاماته.^(١)

ينبغي دراسة الفرضين الآتيين لكي يستبين هذا الموضوع:

١ - الوطن الاسلامي اودار الاسلام عبارة عن ذلك القسم من بلاد وتوابعها التي تخضع للحكومة الاسلامية وتدار من قبل المسلمين. وتشمل هذه البلاد كل ما وقع في ايدي المسلمين من مناطق رحبت بالدعوة الاسلامية او استجابت لها في اعقاب الجهاد والفتوحات العسكرية.^(٢)

٢ - البلاد التي يسود فيها قانون الاسلام ويكون نافذاً فيها بكل حرية، والمسلمون يعملون وفقاً لما يريده الشرع بكامل حريتهم، والشعائر الدينية تمارس بحرية تامة، والمسلمون يتمتعون بأمن تام.

في ضوء الفرض الاخير فان البلاد الخاضعة لسيطرة الكفار، التي تدار من قبل حكومة غير اسلامية، ممكن ان تاخذ طابع البلاد الاسلامية فيما اذا كانت محلا لسكن جمع من المسلمين، ويتحقق هذا الموضوع عندما يكون المسلمون احرارا في اقامة الشعائر وتطبيق الاحكام الدينية والقوانين الاسلامية. بينما تعتبر هذه البلاد خارجة عن دائرة النفوذ الاسلامي بناء على النظرية الاولى.

وهكذا فان تحقق الوطن الاسلامي (دار الاسلام) وفقاً للنظرية الثانية منوط

(١) يمكن دراسة دار الاسلام من حيث ابعادها المختلفة كالبعد العقيدي، والقانوني، والسياسي. انظر في هذا المجال كتابنا «وطن وسرزمين وآثار حقوقى آن» ١١٦ فما بعدها.

(٢) يعرف محمد ابو زهرة مؤلف كتاب «العلاقات الدولية في الاسلام» دار الاسلام كالاتي: «دار الاسلام هي الدولة التي تحكم سلطان المسلمين، وتكون المنعة والقوة فيها للمسلمين».

بتحقق احد الامرين الآتيين:

- ١- ان تخضع البلاد للحكومة الاسلامية وتدار من قبلها.
 - ٢- الاشخاص الذين يعيشون في تلك البلاد يستطيعون تطبيق القانون الاسلامي بحرية، ويكون الاسلام سائدا وساري المفعول، وبناء على النظرية الثانية ايضا فان وطن الانسان المسلم لا ينحصر في الحدود الجغرافية لنطاق الحكومة الاسلامية وانما يتخذ مفهومها البرز واكثر معنوية.
- وسيشمل الوطن الاسلامي البلاد التي يستطيع الانسان المسلم ان يعيش فيها حر العقيدة، ويكيف منهجه في الحياة مع القانون الاسلامي.
- ان الالاف للنظر اكثر في النظرية الثانية هو تقسيم العالم - في ضوءها - الى جبهتين مفتوحتين ومحددتين وذلك استعاضة عن تقسيمه الى منطقتين مستقلتين من الوجة الجغرافية. والمؤشر البارز لهاتين الجبهتين المفتوحتين هو نفوذ الاسلام وسيادة القانون الاسلامي.
- ولو اردنا ان نكيف هذه النظرية مع الازواح المعاصرة للمسلمين. فلا بد ان نعتبر المناطق التي يقطنها المسلمون في الهند او لبنان مثلا، جزءاً من دار الاسلام، ووسطاً اسلامياً. وكذلك يمكن ان يتحقق الوسط الاسلامي في معظم البلدان نحو: تركيا حيث الحرية الدينية موجودة، ويستطيع المسلمون ان يمارسوا شعائرهم الدينية ويقوموا بواجباتهم الاسلامية بحرية، اللهم الا ان تصادر القوانين الموجودة في الاقطار المذكورة واجهزتها الحكومية من المسلمين امكانية الحياة في ضوء المنهج الاسلامي.
- يقال في دعم النظرية الثانية: ١- لماركز الاسلام على الاشخاص الذين اسلموا وانضوا تحت لواء الامة والمجتمع الاسلامي على انهم مكلفون بتطبيق

التعاليم الإسلامية، ولم يركز على الأرض التي يعيش عليها المسلمون، فلا بد له ان يعترف بكل منطقة، يراعى أهلها قوانين الإسلام، على انهادار الإسلام. وبكلمة بديلة: فان القانون يحدد وضع البيئة بالنسبة الى الامة الإسلامية، لاوضع المسلمين بالنسبة الى البيئة. والوضع القانوني لمنطقة معينة سيتوكأ على رغبة أهلها في الإسلام، ومن ثم فان اطلاق عنوان دار الإسلام او دار الحرب على منطقة معينة منوط بالاعتبار الذي يتمتع به القانون الإسلامي على نحو واسع او محدود. وعندما يراعى القانون الإسلامي في منطقة ما، حتى من قبل ثلة معدودة من المؤمنين، فان تلك المنطقة سوف تعتبر وسطا اسلاميا من الناحية النظرية.

٢- لو صدق عنوان دار الإسلام على البلاد الخاضعة لحكومة إسلامية فحسب. فينبغي ان لايتحقق عنوان دار الإسلام خارجياً في الحالات التي تنحل فيها الحكومة الإسلامية او لا تشكل اساساً لاسباب معينة، او انها لا تملك القدرة على المحافظة على البلاد المذكورة. وما يلاحظ من صدق عنوان دار الإسلام في جميع الظروف والاحوال المشار اليها دليل على ان المعلم الوحيد هو تطبيق الاحكام والتعاليم الإسلامية وليس تشكيل الحكومة الإسلامية.

٣- ان البلاد التي يمارس فيها جماعة من المسلمين شعائرهم الإسلامية بحرية - حتى مع سيادة قانون الكفار فيها - يمكن ان تعتبر من مناطق دار الإسلام، من حيث ان اتساع نطاق الحكومة الإسلامية قد يشملها او ان سكانها المسلمين ربما استطاعوا اقناع الكفار في فرصة مناسبة لكسب استقلالهم وحقهم في السيادة على شؤونهم.

يصدق هذا الموضوع بشكل اوضح على المناطق التي انتزعتها حكومة غير إسلامية من المسلمين قسراً، والحققتها بنطاق نفوذها.

ثمة أدلة في مصادر الفقه الإسلامي وكلام الفقهاء تدعم النظرية الأولى، وفيما يلي عدد من هذه الأدلة:

١ - طرحت القضية المتعلقة بسكن المسلمين في المناطق التي يستطيعون فيها ممارسة الشعائر الإسلامية^(١) في الفقه الإسلامي بشكل اعتبرت فيه تلك المناطق المذكورة دار الحرب، لانه من الواضح عندما يقال في الفقه الإسلامي: «إذا كان المسلمون الذين يعيشون في بلاده الكفر احرارا في ممارسة شعائرهم الدينية فلا ضرورة من هجرتهم الى دار الاسلام، فالقصد من البلاد المشار اليها: دار الحرب. والمناطق المذكورة خارجة عن دار الاسلام».

٢ - يقول الفقه الإسلامي عن الاطفال اللقطاء الذين يحكم عليهم بالتبعية الإسلامية من منظور القانون الإسلامي: (الاطفال الذين يعثر عليهم في دار الاسلام، وكذلك الذين يعثر عليهم في دار الحرب، محكومون بالاسلام اذا كان في المحل المذكور مسلمون، واحتملت ولادته بينهم وانماؤه اليهم). هذا الموضوع يشعر ان سكن المسلمين وحده خارج نطاق الحكومة الإسلامية لا يمكن ان يفضي الى صدق دار الاسلام، بل ان دار الاسلام تصدق على النطاق الذي يحكمه المسلمون فقط.

٣ - ان المجال الآخر الذي استعمل فيه عنوان دار الاسلام في مدارك الفقه الإسلامي وكلام الفقهاء هو السماح لدخول الاجانب الى دار الاسلام، فيما سنتعرض الى تفصيله في البحوث القادمة. ومن الواضح ان دار الاسلام التي تناقش فيها مسألة السماح للاجانب بالدخول عبارة عن نطاق الحكومة الإسلامية

(١) القصد من هذه المناطق هو الاجزاء الخارجة عن نطاق الحكومة الإسلامية.

نفسه، والا فلا جدوى من الخوض في دخول الاجانب الى البلاد التي هي موضع لسكنهم.

ان مناقشة الحالات المشار اليها وكذلك الحالات الاخرى التي استعمل فيها الفقهاء عنوان دار الاسلام يفيد جيداً ان القصد من هذا العنوان هو البلاد التي تدار من قبل حكومة اسلامية فقط.

ولاريب ان عنوان دار الاسلام قد اطلق صريحاً في الحالات المذكورة، بيد اننا ينبغي ان نلتفت الى هذه النقطة وهي: هل ان الحالات التي يطلق عليها ذلك العنوان مقصورة على البلاد الخاضعة للحكومة الاسلامية او يمكن ان نتصور لها مفهومًا اشمل؟

ان الذي يبدو هو ان اطلاق عنوان دار الاسلام يتباين في مجالات البحث المتنوعة، لان المسألة تطرح احياناً بهذا الشكل، وهو: في اي ارض يحق للمسلمين السكن بحرية؟ لامحالة ان البلاد الاسلامية او دار الاسلام في هذه الحالة ستنتطبق على النظرية الثانية،^(١) وكذلك فاننا لو نظرنا الى دار الاسلام من زاوية دراسة العلاقة الموجودة بين الاسلام والبلاد، فلا مناص لنا من دعم النظرية الثانية.

بيد اننا اذا درسنا مسألة دار الاسلام من زاوية العلاقات الخارجية، و اردنا ان نطرح المسألة وتعرف كيف نستنتج عقد الذمة والاستئمان وحقوق الاجانب منها، فلا شك اننا سنضطر الى قبول النظرية الاولى، كما ان اطلاق دار الاسلام في بعض الحالات السالفة الذكر كان ايضا يتوكل على هذا القصد، لانه ما لم يفرض

(١) يرجع الى البحث السابق فيما يخص الموضوع من منظار القانون الداخلي.

الاستقلال في الحكومة وتشكيلها، فلا جدوى للمجتمع الاسلامي من طرح المسائل المشار اليها. ومن الضروري هنا التذكير بهذه النقطة وهي: على الرغم من ان فصل الحكومة عن دار الاسلام يبدو امرًا غير معقول من حيث تحققه الواضح في القضايا السياسية والعلاقات الخارجية في الاسلام، الا ان صدق العنوان المذكور من حيث القضايا المتعلقة بالعلاقات الخارجية في الحالات الثلاث الآتية قابل للمناقشة وليس فيه اشكال:

١ - في المناطق التي يعيش فيها جمع من المسلمين بحرية وليس لهم استقلال سياسي وحكومة قانونية مستقلة، ويعيشون منفصلين خارج النطاق السياسي للحكومة الاسلامية لأسباب معينة، وليس هناك اي حكومة غير اسلامية تسيطر عليها وتمارس نفوذها السياسي بحقهم.

٢ - المناطق التي انفصلت عن الدولة الاسلامية بشكل عدائي، واصبحت خاضعة لحكومة غير اسلامية.

٣ - المناطق التي تدار اجهزتها القضائية والادارية وسائر مؤسساتها تدريجاً وفقاً لمناهج وبرامج اسلامية، وذلك في اعقاب تغلغل الاسلام فيها واعتناق الاغلبية من اهلها الدين الاسلامي. وليس فيها شخص غير مسلم الرئيس الدولة العميل لحكومة الكافر الاجنبي، او السلطة الحاكمة فيها.

في هذه الحالات الثلاث المشار اليها، لاندلج اشكالا في طرح بعض المسائل نحو: عقد الذمة، والاستئمان، وسائر المسائل المرتبطة بالعلاقات الخارجية التي هي من الآثار والاحكام المترتبة على عنوان دار الاسلام. وفي هذه الحالات فان الذي ينبغي ان يطرح اكثر من غيره هو تشكيل قدرة سياسية اسلامية وقوة دفاعية لكي يتسنى تطبيق المسائل المذكورة في ظلها لامحالة.

يمكن تلخيص النتيجة المقتطفة من الكلام المتقدم بما يأتي:
على الرغم من ان مفهوم دار الاسلام والوطن الاسلامي لا يقبل الانفصال
عن مسألة الحكومة من منظار القضايا السياسية، بيد ان اشتراط تحقق الحكومة في
الحالات الثلاث السالفة يواجه اشكالاتاً ايضاً.

ان السبيل الوحيد الذي يبدو ناجعاً لعلاج هذا الاشكال هو ان نعلم بان
الاشكال المذكورة يتأتى من ان الموضوع الذي يحوم حوله البحث هو ان تحقق
الحكومة في صدق دار الاسلام يتم بصورة فعلية من منظار التحقق الخارجي،
بينما نجد ان امكان تحقق ذلك، وان لم يكن عملياً لاسباب ما يفني بالغرض.
وهكذا في الحالة الاولى، وان لم يفرض التحقق الخارجي للحكومة الاسلامية،
عندما يعيش المسلمون على ارض معينة خارج نفوذ حكومة غير اسلامية،
فسوف يطرح امكان تحقق الحكومة والجهة المسؤولة بالنسبة الى المسائل
السياسية، وهذا المقدار يكفي لصدق عنوان دار الاسلام على الارض المعينة.

أما الافتراض الثاني الذي يتعلق بالمناطق الاسلامية السابقة او الحالية لبلدان
مثل: اسبانيا، وروسيا، والهند، والصين، واسرائيل، ولبنان، ينبغي القول ان هذه
المناطق لما كانت خاضعة يوماً للحكومة المسلمين، وكانت تعتبر جزءاً من دار
الاسلام، وما دام المسلمون احراراً في اقامة شعائرهم الدينية، ويتمتعون بأمن
ديني، فان عنوان دار الاسلام يظل ساري المفعول. وبعبارة اخرى، ما دام
المسلمون يحظون بالاعتراف الرسمي من قبل الحكومات غير الاسلامية للبلدان
المذكورة، وما دام الاسلام ديناً رسمياً معترفاً به لهم، فان عنوان دار الاسلام
سيبقى نافذاً.

بيد انه عندما تلغى الحكومات الصفة الاسلامية رسمياً، وتحرم المسلمين من

اقامة شعائرهم الدينية وتصادر حريتهم الدينية، وتسلب الأمن من نفوسهم، فان عنوان دار الاسلام في مثل هذه الظروف سوف يرفع عن المنطقة المعينة، لامحالة.

ويستبين هذا الموضوع من خلال الموازنة بين اوضاع بعض البلدان من قبيل روسيا المعاصرة، واسبانيا الامس، واطراف بلدان اخرى كاليهند ولبنان. واما الحالة الثالثة ايضا فلاريد في صدق عنوان دار الاسلام والوطن الاسلامي عليها. وبالنظر الى ما قيل في الحالة الاولى، فلا حاجة الى التوضيح هنا. وبناء على ما مر بنا من حديث، يستبين جيدا وضع بعض الدول مثل: تركيا التي نكبت عن الصراط بتركها الاسلام، او بعض الاقطار الاسلامية المعاصرة التي لاتتمسك بحكوماتها بالقوانين الاسلامية عملياً.

يشمل نطاق الوطن الاسلامي من حيث النفوذ السياسي ممتلكات الحكومة الاسلامية كلها، والمناطق التي يستقل المسلمون في تملكها وهي خارجة عن هيمنة السياسة الاجنبية. وتتولى الحكومة الاسلامية المحافظة على المناطق المذكورة وحراستها في مقابل التدخلات والاعتداءات الخارجية. ولا بد ان تتحدد الممتلكات سواء بالوسائل الاصطناعية او الطبيعية.

من الضروري ان نستعرض الحقول التالية وذلك لكي يستبين الموضوع اكثر:

١ - طبيعة الممتلكات العائدة للحكومة الاسلامية.

٢ - حدود الممتلكات العائدة للحكومة الاسلامية (الاراضي الاصلية - والمحقة - والاراضي التي تحت الوصاية).

٣ - الحدود والمرابطة من منظور القانون الاسلامي.

لاريد ان الارض تعتبر من الضروريات الاولى لحياة الانسان. وهذا

الموضوع في غاية الوضوح من منظار القرآن والمصادر الإسلامية الأخرى. ويعتبر حرمان الإنسان من الأراض (استثماراً أو سكناً) مداناً ومرفوضاً من منظار العقل والقانون الإسلامي.^(١)

بيد أن هذا الموضوع لا غبار عليه أيضاً، وهو: أن كل إنسان يستطيع أن يضيف إلى مقدار حقه في استثمار الأرض وتملكها عن طريق مشروع، وله أن يستأثر بقسم من الأرض وفوائدها عن هذا الطريق.

يعترف الإسلام بهذا الاستثمار المشروع الذي نعبر عنه بالملكية الفردية، وينظر إليه بأحترام.

ومع أن الكون كله لله^(٢) من منظار الفكر الإسلامي، بيد أن الملكية الفردية حق الهي منح للناس في التشريع الإسلامي، وفقاً لنظام خاص تم تحديده لممارسة هذا الحق. وقد جعل احترام الملكية الفردية من منظار التشريع الإسلامي كاحترام الدم على حد سواء.^(٣)

من هذا المنطق، فإن الأراضي التي يملكها المسلمون أو الذين يعيشون في كنفهم عن طريق مشروع لا تنتزع منهم أبداً، حتى أن الحكومة نفسها لا تستطيع أن تملك الأراضي المملوكة.

والآن يثار هذا السؤال وهو: كيف يتم استيلاء الحكومة الإسلامية على الأرض ويكون لها حق فيها؟ وما هي الطريقة التي يصادق فيها القانون الإسلامي

(١) يمكن أن نستشف هذا الموضوع من الآيات التي نقلناها سلفاً تحت عنوان (الأرض، والسكن ومحل استراحة الإنسان).

(٢) (لله ما في السموات والأرض) - البقرة ٢٨٤ (لله ملك السموات والأرض) - الشورى ٤٩.

(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... لا يحل دم امرئ مسلم ولا ماله إلا بطيبة من نفسه منه» - الوسائل ج ١، باب ٣ من الأبواب الخاصة بمكان المصلى.

على ذلك؟

وللاجابة على هذا السؤال، ينبغي ان نقول: اننا يمكن ان نتصور حقوق الحكومة الاسلامية في الارض من منظار القانون الاسلامي بشكليين هما:

١ - التملك: تتحقق ملكية الحكومة للاراضي في عدد بمن الحقوق، يمكن ان نذكر منها ما يلي:

أ - تنتقل الاراضي الى الحكومة عن طريق تحويلها اليها من قبل اصحابها، او عن طريق الشراء والوسائل القانونية الاخرى التي تفضي الى الملكية وانتقال الملك الى الحكومة.

ب - الاراضي التي استولى عليها المسلمون بلا قتال.

ج - الاراضي البائرة اليباب التي تعتبر للامام (رئيس الحكومة)، بسبب الفتوحات الاسلامية.

د - الاراضي البائرة الموجودة في دار الاسلام، وكذلك الاراضي اليباب في نطاق الحكومة الاسلامية، تعود للامام وتصرف عائداتها في الشؤون الاجتماعية والمصالح العامة.

هـ - المناطق الساحلية للبحار، وقمم الجبال، والغابات، والمعادن، والبحار، هذه كلها تعتبر من الانفال.

٢ - الوقف: الاراضي الموقوفة وقفاً عاماً، وتم تحويل امرها الى الامام ورئيس الحكومة.

٣ - الوكالة العامة: الاراضي العامرة التي تقع في ايدي المسلمين عند الجهاد والدفاع بوصفها من الفتوحات، تعود الى عامة المسلمين. والاجيال القادمة لها حق في الاراضي المشارة اليها. وتستثمر هذه الاراضي تحت اشراف الامام

(رئيس الدولة الاسلامية) وتصرف عائداتها في المصالح العامة للمسلمين.

٤ - الحق السياسي: الاراضي العامرة او البائرة التي تظل في حيازة المسلمين الشخصية تخرج عن مملكات الحكومة. ويمكن ان نتصور حق الحكومة في هذا اللون من الاراضي على انه حق سياسي وحق من حقوق الحاكمية. ينبع هذا الحق من سيادة الحكومة وسلطتها ونفوذها السياسي، وهو يختلف تماماً من حيث طبيعته وانبثاقه عن الملكية الفردية والحقوق الشخصية لاصحاب الاراضي. ولاخلل في اجتماع الحقين المتباينين المذكورين حين لايمكن ان نتصور اجتماع الحقين الملكيين في شيء واحد، ويتعذر ايضاً من منظار القانون الاسلامي.

٥ - المحميات: ان القسم الآخر من الاراضي العائدة الى الحكومة الاسلامية عبارة عن الممتلكات الاجنبية التي اصبحت تحت وصاية الحكومة الاسلامية بسبب عقد الذمة. والمهمة التي تاخذها الحكومة الاسلامية على عاتقها حيال الاقليات الدينية في ضوء عقد الذمة تستدعي ان يكون هناك حق للحكومة بالنسبة الى الممتلكات المشار اليها، ويمكن ان نعبر عن هذا الحق بحق الوصاية. تتألف ممتلكات الحكومة الاسلامية ونطاقها السياسي من الاراضي المشار اليها. وهذه الاراضي وان كانت متباينة من حيث تعلقها بالحكومة، بيد ان الحكومة الاسلامية تحتفظ بحقها السياسي في الاراضي المذكورة جميعها. ان الاراضي التي تعتبر جزءاً من نطاق الحكومة الاسلامية يمكن ان تضم العناوين الآتية:

١ - الاراضي الاصلية: وتشمل الاراضي التي كانت تحت تصرف المسلمين والحكومة الاسلامية، بكلمة بديلة، فان مبدأ (اليد) والتصرف الفعلي يعين

اختصاص الاراضي المذكورة للمسلمين.

٢ - الاراضي المحلقة: وهي الاراضي التي استولى عليها المسلمون بالجهاد والدفاع.

٣ - المحميات: وهي الاراضي العائدة الى اهل الذمة والاقليات الدينية بعد انعقاد عهد الذمة. ويمكن ان تصور الاراضي المذكورة داخل النطاق الاسلامي (دار الاسلام) او خارجه، على شكل بلد مستقل يتمتع بدعم الحكومة الاسلامية وحمايتها.

كما المحنفا في المباحث المتقدمة فان الدين الاسلامي لا يقبل التحديد والتجزئة، وكذلك حدود الدولة الاسلامية فانها من الوجة الفكرية والهدفية لا تقبل ذلك بالموازنة مع الحدود المادية بيد، انه لا بد من التمييز سياسياً بين الاراضي الواقعة في النطاق السياسي للحكومة والاراضي العائدة الى الاجانب والبلدان الاخرى بعلامات معينة.

ان العلامات المذكورة التي تعرف كحدود يمكن ان تتعين بواسطة العادات والتقاليد، كما يمكن تعيين حدود الدولة الاسلامية (دار الاسلام) من خلال العلامات الطبيعية كالجبال والانهار، وكذلك من خلال العلامات المصطنعة كالعلامات المستعملة اليوم في التمييز بين حدود البلدان المختلفة.

لقد وضع قانون المرابطة في الاسلام لحراسة ثغور الدولة الاسلامية، وفسر الفقهاء الثغور بالاشكال الثلاثة الآتية:^(١)

١ - الحد المشترك بين دار الشرك ودار الاسلام.

(١) «جواهر الكلام» ج ١، كتاب الجهاد، بحث المرابطة.

٢ - مواضع في اطراف الاراضي الاسلامية معرضة لخطر الهجوم الاجنبي.

٣ - كل منطقة تهدد من قبل القوى الاجنبية.

ان عنوان المرابطة في الفقه الاسلامي لا يرتبط بقضية الحرب والمناوشات، فالقصد منه هو حراسة الحدود ومراقبة ما يجري عليها^(١) فحسب. وان اهمية المرابطة في القانون الاسلامي وقيمتها لافتة للنظر كثيراً. وقد اثرت احاديث جملة عن النبي الاكرم صلى الله عليه وسلم، حول القيمة المعنوية لها.^(٢) وينظر الاسلام الى المرابطة على انها عبادة مهمة وقيمة، والحد الأدنى لها ثلاثة ايام. ولا تقع مهمة المرابطة على عاتق الحكومة فقط، وانما جعلها الاسلام عملاً عبادياً فردياً، وحثّ المسلمين كافة على القيام بهذه المهمة الوطنية الخطيرة.

ان مبدأ حرية السكن لكل شخص مسلم. كما يعتبر حقاً شرعياً في ارجاء الدولة الاسلامية من منظار القانون الاسلامي، فكذلك هو خارج الدول الاسلامية حق مشروع ومبدأ مقطوع به.

ولم يضع القانون الاسلامي اي حاجز ومانع لسكن اتباعه على ارض الاجانب، وقد منحهم حرية تامة للسكن في اي بقعة يختارونها.

الا انه في حالة واحدة، اعتبر سكن المسلمين على ارض الاجانب غير قانوني، والهجرة الى بلد اسلامي واجبة وضرورية، وتلك الحالة ترتبط بالبلاد التي لا تراعى فيها الحرية الدينية ولا يستطيع الانسان المسلم ان يقيم شعائره الدينية وفقاً لعقيدته.

(١) نفسه.

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الرباط ليلة خير من صيام شهر وقيامه، فان مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل واجرى عليه رزقه وامن الفتان».

ولا يرى الإسلام جو الرعب والارهاب الذي يكمن الافواه صالحاً للسكن والحياة فيه، ويعتبر مصادرة الحرية الدينية - وهي حق طبيعي للانسان - اهانة لاتطاق من منظار القيم والمثل الانسانية، ولا يسمح لاتباعه ابدأً أن يتحملوا مثل هذه الاهانة، وكما يعتبر الحرية الدينية حقاً طبيعياً ومشروعاً لا يقبل الخرق بالنسبة الى الاجانب، فانه يرى ان مراعاة ذلك ضروري بالنسبة الى اتباعه، وان خرقه لا يطاق.

ان على المسلم الذي يعيش في مثل هذا الوسط الارهابي ان يتركه ويهاجر الى بلد اسلامي في اول فرصة متاحة. وكذلك الاشخاص الذين يعتنقون الاسلام في مثل هذا الوسط، فانهم مكلفون بالالتحاق بصفوف المسلمين في البلد الاسلامي. ويبين القرآن الكريم الواجب الشرعي بالنحو الآتي:

(ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا لم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك ماؤاهم جهنم وساءت مصيراً* الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً* فاولئك عسى الله ان يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً.)^(١)

بين الفقهاء قانون الهجرة بالنسبة الى المسلمين الذين يعيشون في البلاد غير الاسلامية في الاشكال الثلاثة الآتية:^(٢)

١ - الذين يعيشون في البلاد غير الاسلامية وليس لهم حق في اظهار عقائدهم واداء فرائضهم واقامة شعائرهم الدينية، فهؤلاء يجب عليهم الهجرة الى

(١) النساء ٩٧-٩٨.

(٢) «جواهر الكلام» ج ٢١، كتاب الجهاد، ص ٣٥-٣٦.

بلد اسلامي.

٢ - الذين يعيشون في بلاد الاجانب ويتمتعون بحرية دينية ولهم حق الجهر بعقائدهم، ولا يصطدمون بعقبة تحول دون اداء فرائضهم الدينية. فهو لاء وان لم يجدوا ضرورة من الهجرة، بيد انهم حقيق بهم ان يلتحقوا بصفوف المسلمين.

٣ - المسلمون الذين لا قبل لهم بالهجرة، او ان هناك عقبات من مرض وغيره تفقددهم القدرة على الهجرة، فهو لاء يستطيعون مواصلة حياتهم في البلد الاجنبي مع وجود الظروف العصيبة.

ينبغي للمسلم الذي يختار السكن في بلد غير اسلامي، بعد استئذانه اهله بدخوله، وتقديم التعهدات القانونية اللازمة، ان يعمل وفقاً للتعهدات المقدمة، وهو غير ماذون ابدا ان يتصرف تصرفاً معاكساً لما تعهده، ويخون اهل البلد الذين آمنوه وآوه، ويتعامل معهم تعاملماً ماکراً وغادراً، كما ليس له اي حق ان يرتكب جرائم القتل والسرقة وغيرها من الجرائم الاخرى، او ينكر ما في ذمته من حقوق الآخرين.^(١)

وما دام يتمتع بالامان في ذلك البلد، فانه يتعهد - مبدئياً - ان لا يقوم بكل ما من شأنه الاضرار بغير المسلمين.

وكما انه مكلف باداء الفرائض والعمل بالاحكام الدينية في البلد غير الاسلامي، فهو مكلف ايضاً ان يحترم موثيقه وتعهداته امام الاجانب حكومة وشعباً الى درجة لا تصطدم فيها مع القانون الاسلامي، وفيه بو عوده. وان لا يبعث انتقاله الى البلد الاسلامي على خرق الموثيق والتعهدات المذكورة ابدا، وينبغي

(١) يرجع الى كتاب الجهاد من جواهر الكلام: ص ٦٤٤ - ٦٤٥ الطبعة الحجرية.

ان يؤدي ما عليه من حقوق بعد عودته الى الوطن الاسلامي، وينفذ كل ما قام به من عقد. (١)

وفي الوقت ذاته ليس لاي مسلم ان يتواطأ مع الاجانب ضد المسلمين من خلال عقد يعقده معهم او تعهدات ياخذها على عاتقه امامهم. وان يتفادى مثل هذه التعهدات المحظورة والملغاة من منظار القانون الاسلامي، وبعمامة، التعهدات التي ليس لها اي اعتبار وشأن، وليس له اي مسوغ لاحترامها وتطبيقها. ان قانون الهجرة من الفساد والاثم لتطهير الوسط الحياتي والمحافظة على الايمان، وضمان الامكانيات للقيام بالواجبات المعهودة لا يقتصر على الهجرة من البلد الاجنبي وغير الاسلامي، بل ينبغي على المسلم ان يراعي هذا المبدأ في ظروفه الحياتية كلها، وان يغادر كل سكن ووطن يرى فيه ضرراً عليه وعلى أسرته يهدد ايمانهم واخلاقهم وواجباتهم، وان يولي وجهه نحو الله من خلال اختيار وسط جديد لحياته يعينه على اداء واجباته. ويسمى القرآن هذا اللون من الهجرة: (مهاجرة في سبيل الله). قال عز من قائل:

(والذين هاجروا في الله من بعدما ظلموا النبؤئتهم في الدنيا حسنة ولاجر الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون). (٢)

ويقول الرسول الاكرم صلى اله عليه وسلم في هؤلاء الاشخاص الذين يبادرون الى الهجرة من الوسط الموبوء حفظاً لدينهم وظفراً بتوفيق لممارسة اعمالهم وشعائهم:

«من فر بدينه من ارض الى ارض وان كان شبراً من الارض، استوجب الجنة

(١) جواهر الكلام ٢١/ ١١٧.

(٢) النحل ١-٤٢.

وكان رفيق ابيه ابراهيم ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم»^(١).

وجاء في حديث عن النبي الاكرم صلى الله عليه وسلم قوله: «لا هجرة بعد الفتح»^(٢).

وفي ضوء هذا الحديث الغنى بعض الفقهاء وجوب الهجرة في الحالات المشار اليها. في حين ان التوكؤ على هذا الحديث يستدعي ان موضوع الآيتين المتقدمتين قد انتفى تماماً وانهما قد نسختا عملياً.

واستدل اغلب الفقهاء بحديث نبوي آخر، ما عدا الادلة المتقدمة، وهذا الحديث ينص على استمرار حكم الهجرة وديمومته، يقول صلى الله عليه وسلم: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٣).

وفي ضوء هذا الحديث الصريح قيل بان الحديث الاول يخص الهجرة من مكة. وبعد فتحها فان الهجرة منها هي ليست هجرة من بلاد الكفر.^(٤)

تستطيع الاقليات الدينية بعد عقد الذمة واكتساب المواطنة في ضوءه أن تعيش كسائر المسلمين في اي بقعة من بقاع الوطن الاسلامي تراها مناسبة لها، وتتخذها سكناً دائماً أو مؤقتاً، وكذلك تستطيع ان تغادر الوطن الاسلامي وتخرج من حدوده. بيد ان عقد الذمة في هذه الحالة يفقد اثره تلقائياً، وتلغى الآثار المترتبة على المواطنة المكتسبة على اساس عقد الذمة.^(٥)

(١) جواهر الكلام ٢١/٣٥.

(٢) وسائل الشيعة ١٣/٢٣٨.

(٣) جواره الكلام ٢١/٣٦.

(٤) جواهر الكلام ٢١/٣٦.

(٥) يمكن ان تطالعوا دراسة للقضايا المتنوعة المتعلقة بالاقليات الدينية في كتابي: «حقوق الاقليات».

ان المبادئ الثلاثة التي اشير اليها في مجال سكن المسلمين واقامتهم في الوطن الاسلامي تنطبق كلها على الاقليات الدينية ايضاً على النحو الآتي:

١- لاضرورة من امتلاك اهل الكتاب والذمة سكناً دائماً بالمعنى المتقدم. وان تعيين السكن تابع لرغبة الاقليات الدينية واختيارها الشخصي، ولاقصر ولا الزام في هذا المجال الا في الحالات الاستثنائية التي يتطلب فيها عقد الذمة او مصالح الطرفين تحديد سكن معين لهم.

٢- يمكن ان تتعدد مساكن اهل الذمة.

٣- ان سكن اهل الذمة ليس دائماً، فهم يستطيعون تغيير مساكنهم باختيارهم ان يشاءوا.

وقصارى القول، انهم عندما ينقلون سكنهم الى خارج الدولة الاسلامية، فان الاثر القانوني لعقد الذمة يفقد مفعوله لامحالة، دون ان يولد هذا النقل خرقاً لعقد الذمة، كما نوهنا بذلك آنفاً. ومن الجدير ذكره ان الحرية المشار اليها في التنقل للاقليات الدينية تعتبر حقاً قانونياً مسلماً فيها اذ لم ترد شروط خاصة للسكن في نص العقد.

ينبغي استثناء المساجد مما قيل في حرية اهل الذمة لاختيار السكن. فلا يحق للاقليات الدينية السكن وحتى العبور من المعابد الاسلامية ولاسيما المسجد الحرام. ولا يمكن ان يكون الاذن من المسلمين ايضاً مسوغاً لدخولهم في المساجد.

والوسط الآخر الذي يعتبر من المناطق المحرمة للاقليات الدينية هو منطقة (الحرم) التي تشمل مكة وقسماً من اطرافها.

يحظر على اهل الذمة السكن في منطقة الحرم والدخول اليها، وليس لهم ان

تطأ أقدامهم حدودها تحت عنوان الاجتياز او الاعمال التجارية.

وحظر كثير من الفقهاء على اهل الذمة السكن في الحجاز. ووردت احاديث كثيرة في هذا المجال يطلب فيها النبي الاكرم صلى الله عليه وسلم بصراحة وفي اللحظات الاخيرة من حياته اخراج المشركين واليهود والنصارى من الجزيرة العربية.^(١)

وقد فسّر الفقهاء الجزيرة العربية على أنها ارض الحجاز، ورأوا انها تشمل مكة والمدينة واليمامة وينبع وخيبر وفدك وضواحيها. وقصرها بعضهم على مكة والمدينة.

كما ان بعض الفقهاء حرم المرور عبر الحجاز للسفر او لاهداف تجارية ايضا، واجاز بعضهم الآخر ذلك على ان يكون الحد الاعلى للاقامة فيه ثلاثة ايام لاهل الذمة.^(٢)

يدعى الاجنبي الذي لايشمله عقد الذمة (حربياً) في الفقه الاسلامي نظرا الى موقفه الخاص حيال المجتمع الاسلامي. ويشمل هذا العنوان شريحتين متميزتين من الاجانب هما:

١ - الاجانب الذين لايدينون باحد الاديان السماوية الثلاثة، وهي: اليهودية والنصرانية والمجوسية. فهؤلاء - كما المحنا سابقاً - لا يستطيعون التمتع بحق

(١) يقول ابن الجراح: كان آخر كلام للنبي الاكرم صلى الله عليه وسلم هو: اخرجوا اليهود من الحجاز، واهل نجران من الجزيرة. وجاء في حديث آخر: لايجتمع ذميان في الحجاز، وقال صلى الله عليه وسلم: ساطرد اليهود والنصارى من الحجاز.

ذكر المرحوم (صاحب الجواهر) هذه الاحاديث في احكام الذمة من كتاب الجهاد، وادعى - وقالها - اجماع الفقهاء على ذلك.

(٢) الشرائع - احكام الذمة من كتاب الجهاد.

الذمة.

٢- الاجانب من اهل الكتاب الذين يدينون باحد الاديان الثلاثة المذكورة، بيد انهم لم يقرؤا بعقد الذمة.

ان الحربي محروم من امتيازات اهل الذمة جميعها، ومن ثم لا يحق له الدخول الى دار الاسلام والاقامة فيها.

انه يستطيع الدخول او العبور او السكن في الدولة الاسلامية بلا تعرض عندما يشمله قانون خاص في الفقه الاسلامي تحت عنوان (الامان) و (الذمام) فحسب.^(١)

ان (الامان) او (الذمام) هو في الحقيقة نوع من العقد بين احد المسلمين وبين الحربي، وفي ضوئه يستطيع الحربي ان يحصل على اذن رسمي لدخول دار الاسلام. ويمكن ان نعتبر العقد المذكور بمنزلة جواز السفر لاحكام السيطرة على الحدود ومراقبتها.

وقد يتحقق عقد الامان بناء على طلب سابق يتقدم به الشخص الاجنبي (الحربي). وقد يتحقق ايضا بلا طلب سابق، بل على شكل تعهد اولي من قبل الشخص المسلم. كما ان انعقاده ايضا بسيط تماما: اذا ان كل مسلم مؤهل، عندما يعتزم منح الامان للحربي، ويعبر عن قصده واعتزاهه بشكل شفوي او خطي او تلميحي، فان امانة متحقق قانونياً وبه يتمتع الحربي بحصانة قانونية، ويعتبر مستأمناً.^(٢)

(١) سنتحدث بالتفصيل في فصل مستقل عن مواصفات قانون الامان وآثاره القانونية. وجا طرحه مجملاً في هذا البحث من زاوية سكن الاجانب.
(٢) جواهر الكلام ٢١/٢١ - كتاب الجهاد، الطرف الثالث.

وجاء التعليم القرآني في هذا الصدد كالآتي:

(وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه ما آمنه).

واثر عن نبينا الاكرم صلى الله عليه وسلم قوله في مواصفات الانسان المسلم وشخصيته الاجتماعية والقانونية: «... يسعى بذمتهم ادناهم»^(١).

ويوضح الامام الصادق عليه السلام هذا الكلام قائلاً: لو ان جيشاً من المسلمين حاصروا قوما من المشركين فاشرف رجل، فقال: اعطوني حتى القى صاحبكم واناظره، فاعطاه ادناهم الامان، وجب على افضلهم الوفاء به.^(٢)

ونقل عن الامام علي عليه السلام في احدى حروبه، عندما حاصر جيشه احدى القلاع، وسمع ان عبدا مملوكا من المسلمين آمن اهل تلك القلعة، اجاز امانه، وفك الحصار عن تلك القلعة.^(٣)

ونقل الامام الصادق عليه السلام عن النبي الاكرم صلى الله عليه وسلم انه قال: ايما رجل من ادنى المسلمين او افضلهم نظر الى رجل من المشركين فهو جار حتى يسمع كلام الله: فان تبعكم، فاخوكم في الدين. وان ابى، فابلغوه مامنه، واستعينوا بالله عليه.^(٤)

وفي ضوء ما ذكرته المصادر المشار اليها، تستبين هذه النقطة ايضا، وهي ان اعطاء الامان لا يقتصر على امام المسلمين او احد امرائهم. بل هو حق محفوظ

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

(٤) «جواهر الكلام» ٢١/٢١ كتاب الجهاد، الطرف الثالث.

لعامة المسلمين بوصفه حقاً قانونياً.

بيد انه لما كان كلام المجنون، والصبي فاقداً للاعتبار من منظور القانون الاسلامي، لذلك يعتبر فيمن يعطي الامان ان يكون عاقلاً وبالغاً. كما ان اعطاء الامان من قبل شخص غير مسلم - حتى لو كان مملوكاً للمسلمين ويقاوم معهم او كان ذمياً - لاعبرة فيه، وهو غير مقبول. ولكن يتساوى الذكر والانثى والحر والمملوك من المسلمين في هذا الحق القانوني.^(١)

يستطيع كل مسلم ان يجير شخصاً واحداً او عدة اشخاص من الاجانب. وبناء على رأى عدد من الفقهاء، فان الامان الصادر عن احد المسلمين يمكن ان يشمل فئة او اهل قرية او قافلة.^(٢) ويمكن ان نستشف هذا الحكم ايضا من المصادر السابقة.

وفي الختام اود ان اضيف نقطة وهي ان كل محاولة للفصل بين قضية دار الاسلام وواقعية العالم الاسلامي اليوم محاولة تعسفية لو لم تكن مؤامرة استعمارية تناقض مع ابسط اسس المنهجية في دراسة المشاكل الحاسمة للعالم الاسلامي وتحصيل اجوبتها السلمية والواقعية لصالح الامة الاسلامية ويبدو في نظري العلاقة بينهما هي اذن علاقة استجابية تشبه علاقة جدلية تكاملية.

(١) جيز ابو الصلاح، وهو من فقهاء الشيعة، لعامة المسلمين الاجازة بدون اذن الامام. ولكن المرحوم صاحب الجواهر يعد راية هذا واضح الفساد. وان فقهاء الحنفية ايضا يجيزون اجازة المملوك والامة استئذان مولاها. ويجيز بعض فقهاء العامة الاجارة حتى للاطفال الذين تبلغ اعمارهم عشر سنين ايضا.

(٢) جواهر الكلام ٢١/٢١ - كتاب الجهاد، الطرف الثالث.

العالمية والخاتمية والخلود

أ.د. وهبة الزحيلي
رئيس قسم الفقه الاسلامي ومذاهبه
بجامعة دمشق - كلية الشريعة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الانبياء والمرسلين،
وعلى آله وصحبه اجمعين، وبعد:

تميّز الاسلام بخصائص ثلاث: هي العالمية، والخاتمية، والخلود، جعلته
فريدا في نوعه، ومهيمننا على كل الاديان والشرائع الاخرى، الالهية منها
والوضعية للبشرية، ليظل نموذجا مستقلا، ومنبرا عاليا يحقق مفهوم الوحي
الالهي المنظم لشؤون الحياة، والمعبر عن حقيقة الاعتقاد الخالص النقي من
جميع الشوائب والاخلاط، والمبين لمنهاج العبادة الصحيحة التي يرتضيها الاله
المشرع، رب الكون والناس اجمعين.

وتبلورت هذه الخصائص منذ ظهور الدعوة الاسلامية، التي جسدها القرآن
الكريم، وابتانها السنة والسيره النبوية المباركة، وتاكدت مصداقية هذه الخواص

مع مرور الزمان وفي عصرنا الحاضر بالذات، حيث اختلطت المفاهيم، وكثرت الفتن والنحل والمذاهب، وانتشرت الأديان، وابتلاها الناس، وعرفوا حقائقها بكل دقة، فاما الخرافة والوثنية والاساطير، واما الحقد والكراهية والعنصرية والتعصب الديني الذي لا حدود له، واما التجاوز والانحسار عن الحياة، ومجراها السياسي والاجتماعي والاقتصادي، والاقْتِصَار على آداب ومواعظ جانبية، لا تروى ظمًا للإنسان، ولا تنسجم مع العقل والفكر الانساني.

وصمد الاسلام بشموخه، ومتانة تشريعاته، وانسجامه مع الحياة، والواقع، والعقل، والحضارة والمدنية، على الرغم من مختلف التحديات والمؤامرات والمخططات الرهيبة ضده، تحقيقاً لقول الله تبارك و تعالي: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم، حتى يتبين لهم انه الحق، او لم يكف بربك انه على كل شيء قدير) (السجدة او فصلت: ٥٣) واطهرت الدراسات العالمية المقارنة بين الأديان والكتب السماوية الحالية اهمية الثقافة والحلول الاسلامية، كما فعل المفكر المنصف موريس بوكاي في كتابه المعروف بعنوان «دراسة في الكتب المقدسة - القرآن والتوراة والانجيل - والعلم الحديث» وكما ذكر المفكر الحر الأستاذ روجيه غارودي في كتابه: «الاسلام دين المستقبل»، وكما اعلن غيرهما من عباقرة الفلاسفة والحكماء عن عظمة وواقعية الاسلام ونبي الاسلام، في شهاداتهم الكثيرة واعترافاتهم المتكررة مثل برنارد شو وغيره، بأن الاسلام يملك الحل، وانه المنهج الذي يملك ان يتقدم لتخليص البشرية من بربرية الحضارة الصناعية، كما يقول الدكتور كاريل، وفيه محور ازالة الخلاف في هذا العالم، تصديقاً لقوله تعالى: (ولتعلمن نبأه بعد حين)(ص: ٨٨).

اما عالمية الاسلام: فيقصد بها نزعه العامة وحرصه على الانتشار في جميع

انحاء العالم، ولمختلف اجناس البشر، لتحقيق السعادة الابدية، والشاملة لعز الدنيا، والنجاة في الآخرة، عملاً بقول الله تعالى: (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) (الفرقان:١).

واما خاتمية الاسلام: فواضحة من النصوص والواقع، ويراد بها انه لن يأتي وحي الهي لاحق بعده، ولا شرع رباني آخر يحل محله، وانه لاني ولا رسول بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تصديقاً لقول الله تعالى: (وانزلنا عليك الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيماً عليه....) (المائدة:٤٨)، وقوله سبحانه: (ما كان محمد اباً احد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين، وكان الله بكل شيء عليماً) (الاحزاب:٤٠).

وقال الله عز وجل: (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) (المائدة:٣).

واخرج البخاري ومسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه: ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ان مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه واجمله، الا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وانا خاتم النبيين).

قال الاستاذ ابو الحسن الندوي: ختم النبوة نتيجة حتمية لوضع هذا الدين الكامل. ولو لم يقم دليل نقلي على اختتام النبوة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لعرفنا بحكم العقل ان النبوة الجديدة التي يمتحن بها البشر بعد النبوة المحمدية ارهاق للبشرية، فيما لا لزوم له، وجهاد في غير جهاد، ومخالف لما

عرفناه من سنن الله في خلقه وفي هذا العالم.^(١)

وأما الخلود لشريعة الاسلام: فيراد به الاستمرار والديمومة والبقاء الى نهاية الدنيا، وقيام القيامة، وانتهاء حياة العالم، اقرارا بقوله تعالى: (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) (البقرة:٢) وقوله سبحانه: (واوحى الي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) (الانعام:١٩).

وإدراكاً لصريح الحديث النبوي المتواتر، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «لاتزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي امر الله، وهم كذلك».^(٢)

ان هذه الخصائص الثلاث يلزم بعضها بعضاً، وتهدف الى تحقيق غرض واحد، وهو بقاء الاسلام وحفظ كتابه الكريم وهو القرآن المجيد، بحفظ الله تعالى، عملاً بالآية الشريفة: (انا نحن نزلنا الذكر، وانا له لحافظون)(الحجر:٩).

خطة البحث:

أ - مظاهرها:

- وحدة الدولة.
- وحدة القانون.
- وحدة العبادات.
- نفي انماط التفرقة (اللغوية، والجغرافية، واللونية، والقومية، والمنهجية،

(١) النبوة والانبياء في ضوء القرآن للندوي: ص ٢٣٤-٢٣٥.

(٢) أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود عن نويان، وأخرجه آخرون عن غيره (جامع الاصول لابن الاثير ١٠/١٣٠، رقم الحديث ٦٧٧٤-٦٧٧٩).

والجنسية... الخ).

- استيعاب الثقافات والتقاليد.

ب - نفي الشبهات والاطحاء:

- اقليمية الاسلام.

- تعدد الولايات والدول.

- الاتجاهات القومية الاسلامية.

- الجمود الثقافي.

أ - مظاهر العالمية والخاتمية والخلود:

لقد هيأ الإسلام لهذه الخواص المناخ المناسب على مستوى الدولة، والفكر، والنظام التشريعي، وكانت نظرتة الى المستقبل وطموحاته للابد نظرة راسخة وحصيفة، لأن عالميته في انحاء العالم، وكونه خاتم الرسالات والنبوات الالهية، وخلود شريعته ونظامه، تتطلب منبتاً خصباً، وبيئة طيبة. ولا تتحقق هذه التطلعات الا بوحدة الدولة، ووحدة القانون او التشريع، ووحدة العبادة، واستئصال كل انماط الفرقة في الجنس والعنصر واللون والقومية والمكان الضيق او الموقع الجغرافي المحدود، واستيعاب مختلف الوان الثقافة وروافد المعرفة، والتقاليد الموروثة، كما يتبين فيما يلي:

- وحدة الدولة:

من المبادئ الاساسية المعروفة في الاسلام: ان المسلمين امة واحدة، وشعب واحد هو قاعدة وجودهم الدولي، تنفيذاً لقول الله تعالى: (ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون) (الانبياء: ٩٢) (وان هذه امتكم امة واحدة وانا

ريكم فاتقون) (المؤمنون: ٥٢) (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عند الله اتقاكم) (الحجرات: ١٣) وجاء حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع: «كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى»^(١).

وقاعدة هذه الامة الواحدة ونسيج رابطتها: الاخوة الایمانية، تحقيقا لقوله تعالى: (انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) (الحجرات: ١٠).

وتم تحقيق نواة الدولة الاولى النموذجية في العهد النبوي وما بعده، واوجب العلماء كون الدولة واحدة، غير متعددة، قال الماوردي وابو يعلى: لا يجوز عقد الامامة لامامين في بلدين في حالة واحدة، فان عقد لاثنين، لم تنعقد امامتهما، لأنه لا يجوز ان يكون للامة امامان في وقت واحد. وشذ قوم فجوزوه، والصحيح الذي عليه الفقهاء المحققون ان الامامة لاسبقهما بيعة وعقدا، قياسا على الوليين في تزويج المرأة اذا زوجها باثنين، كان الزواج لاسبقهما عقدا.^(٢) وكذلك الشيعة الذين يأخذون بمبدأ الامام المنصوص، في مقابل اهل السنة الذين يعتقدون بالامام الواحد الذي يقتدى به.^(٣)

وفي التاريخ الاسلامي بدأ انقسام الدولة في العهد الاموي حيث وجدت الخلافة الاموية في الاندلس، ثم آل الامر في العهد العباسي الى وجود ثلاثة

(١) رواه مسلم والترمذي والبخاري وغيرهم.

(٢) الاحكام السلطانية للماوردي: ص ٧، ولابي يعلى: ص ٩٠٠٠.

(٣) المختصر النافع في فقه الامامية: ص ٢ من تقديم العلامة محمد تقي القمي،...، يوجون وحدة الامامة او الدولة من باب اولي.

خلافات: الخلافة العباسية في المشرق (بغداد) والخلافة الفاطمية في مصر،
والخلافة الاموية في الاندلس.

وفي عصرنا بعد زوال الخلافة الاسلامية على يد أتاتورك مصطفى كمال عام
١٩٢٤، وبعد التخلص من الاستعمار، ظهر على المسرح الدولي الحاضر ٥٥ دولة
اسلامية اقليمية، تأثرابظهور الدول الاقليمية، ومساعي الدول الغربية
الاستعمارية، اتباعا لقاعدة «فرق تسد».

ولكن مع الاسف الشديد، ادركت الدول المعاصرة ان قوتها بالاتحاد،
فأميركا تشمل اكثر من خمسين ولاية، والدول الاوروبية تتجه للوحدة، بدءا من
نظام السوق الاوروبية المشتركة الى نطاق وحدة العملة الاوروبية «اليورو» في
عام ١٩٩٩، حيث قبله الآن احدى عشر دولة، وينتظر انضمام حوالي اكثر من سبع
دول اخرى اليه.

واما المسلمون فيتجهون الى تجسيد التفرقة، وسياسة التباعد، وتعميق
الخلافات، وبدا بصيص امل مشرق ومريح في مؤتمر القمة الاسلامي الذي انعقد
في طهران في نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٩٧، حيث تحقق الحد الادنى من
التضامن الاسلامي، في بداية طريق او منهج الاسلام الوحدوي، المأمور به في
قول الله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعا، ولا تفرقوا... الآيات) آل عمران:
١٠٣-١٠٨).

وآل امر الانقسام الى ضعف المسلمين وتخلفهم، وتباينهم في المواقف،
وتصادمهم في حل المشكلات المصيرية التي تهددهم جميعا، كقضية فلسطين
وغيرها، ووجود ظاهرة الحقد والكراهية، وضعف الثقة او انعدامها، وخدمة
مصالح المستعمرين، ولا سيما الدول الكبرى.

وليس هناك امة مثل الامة الاسلامية لديها من الروابط الوثيقة، كوحدة الدين والعقيدة، ووحدة المبادئ الخلقية، والعبادات، ففي كل يوم يشعر المؤمن بالوحدة الاسلامية ان ادى العبادات اليومية على وجهها، فالرب واحد، والقبلة واحدة، والشعائر واحدة،^(١) بل انه بعد سقوط الشيوعية عام ١٩٨٩، وتتابع تصريحات كبار المسؤولين الغربيين بأنه لم يبق امامهم الا الاسلام، يصبح من الضروري جعل مصير المسلمين واحدا، امام الخطر الواحد، والعاقبة الواحدة، ولكنهم لايشعرون بهذا، ولا يلتفتون لمخاطر المخططات التي تدبر لهم في الخفاء.

كل هذا يدعو المسلمين اكثر من غيرهم، بالحاح شديد، الى ضرورة توحيد الصف والتجمع الواحد، او الجماعة الاسلامية الواحدة، ان لم يعد ممكنا وجود حكم واحد او دولة واحدة او امامة واحدة، عملا بالتوجيه القرآني الكريم: (وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) (المائدة:٢).

ولا يهم شكل التجمع الموحد، سواء اكان على النمط الاول في صدر الاسلام، ام على نمط جديد من اتحاد فيدرالي او كونفدرالي او غيره، لان المهم تحقيق الجوهر والمضمون، لا الشكل والمظهر.

وان المطالبة بتوحيد المسلمين وتحقيق جامعة اسلامية لايراد منه المساس بكراسي ومناصب الحكام القائمين، ولا بأشكال الحكم في البلاد الاسلامية او العربية، فلكل بلد نظام حكمه، وانما المراد تحقيق منهج التجمع الموحد او الاتحاد المجمع في مظلة واحدة: هي احكام الاسلام وشعائره، وعباداته

(١) الوحدة الاسلامية لاستاذنا الشيخ المرحوم محمد ابو زهرة: ص ٢٥.

وعقائده، ومقاصده واهدافه، لايجاد وجود اسلامي قوي ومتميز، له قراره المستقل وشخصيته المستقلة، النابعة من الحفاظ على المصالح الاسلامية الكبرى. ان هذا التجمع الوحدوي بأي شكل من اشكاله القديمة او الحديثة يتطلب امورا ثلاثة: (١)

اولها - احياء مفهوم الاخوة الاسلامية المتعالية عن الجنسية والعنصرية، وان تتحدد مشاعرنا في الاحساس بقوة ومثانة وابعاد هذه الاخوة.

ثانيها - تحقيق الوحدة الثقافية واللغوية والاجتماعية التي تجمع المشاعر والاحاسيس، التي تلتقي وتصب في معين واحد، هو العمل بمبادئ القرآن او الاسلام الصحيح، الذي يحقق اعزاز المسلمين وقهر الاعداء.

ثالثا - وحدة السلم والحرب والاقتصاد والدفاع: فالمسلمون مسالمون فيما بينهم، لا تقوم بينهم حرب مطلقاً، واقتصادهم واحد، سواء في الانتاج والتوزيع، او التصدير والاستيراد، وسوقهم الاقتصادية مشتركة، وعملتهم واحدة، ويعتمدون على مبدأ الاستقلال الاقتصادي، والاكتفاء الذاتي الا في حدود الضرورات، من اجل علاج شيء مؤقت، والانتقال الى ما هو افضل. فاذا حدث نزاع، عولج بالصلح، واذا نكب اقليم عاونه الآخرون، لأن المسلم يكون في حاجة اخيه المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه ولا يكذبه، ويتعاون معه، والله في عون العبد ما كان العبد في عون اخيه.

وامامنا امثلة كثيرة من اتحاد الولايات الواقع فعلا، سواء في اميركا، او اوروبا، او الاتحاد السوفياتي سابقا.

وليكن مطمح كل مسلم وكل دولة اسلامية معاصرة: هو التوصل الى وحدة الدولة الاسلامية، مهما تناءت الديار او الولايات المحلية، او الى اتحاد يجمع المسلمين، وينأى بهم عن التفرق والتباعد، والى محو كل اشكال او اسباب الفرقة الاقليمية او الجغرافية، او العنصرية او المذهبية او العرقية، فان هذه الامراض هي التي فرقتنا في الماضي، والتي يجب تجاوزها وعلاجها في عصرنا، من اجل تحقيق الخير للجميع، وابعاد الشر وشبح الخطر عن الجميع، فنحن في حالة من التردى، والتشتت، والضياغ، والمذلة والهوان، مالا نغبط عليه، بل هو ادعى للسخرية والتهمك.

واذ ظل المسلمون في القرن الحادي والعشرين القادم على هذا النحو من التباعد والتفرق فانهم سيتعرضون لمحن وويلات اشد، وستكون الخسارة والدمار اكثر مما نتصور، وليت ساعة مندم.

ومن الغريب حقاً ان امة تنتمي الى القرآن الكريم عقيدة ودستورا وعبادة ونظاما، تكون على هذا النحو من التشرذم والتفرق.

ولا ينتظر المسلمون من اعدائهم انهم يقدمون لهم الخير على اطلاق من ذهب، ان لم يتحركوا هم بأنفسهم نحو بناء عالم وحدوي جديد، له مفاهيم محددة، واستراتيجية موحدة، ومطالب محددة، رضي الآخرون والاعداء بها أنيا ام غضبوا، فانهم بعد بناء الوحدة الدولية الاسلامية القوية، سيخضع لهم الجميع، فالعيب اذن في تفرقنا، وبعдна عن وحدة الدولة او اتحاد الدولة. واذا تنكرت بعض البلاد الاسلامية في مبدأ الامر لمبدأ الوحدة او الاتحاد بسبب العلمانية ونحوها، فانها في النهاية ستخضع للمنهج الوحدوي الصائب، وستقلع عن مبادئها وانظمتها المتبادعة عن مظلة وحدة حاكمية القرآن، اذا احسن تسويستها

وكسبها بالمفاوضات والتفاهم والاساليب الدبلوماسية، من وساطة حميدة، او تطويق سياسي، او عزل محكم الكماشة او القبضة او القطيعة للمعارضين او المناوئين لهذا الاتجاه.

ان دعوتنا الى وحدة الدولة او اتحاد الدولة الاسلامية ليست ناشئة من فراغ، فتاريخنا استمرت فيه هذه الوحدة الى عام ١٩٢٤، وكانت الدول الاسلامية المتعاقبة، على الرغم مما اصابها من اخطاء ومظالم وهنات (خصلات شر) وعورات ونكسات، تحقق الهدف الاسلامي الاساسي من وجود الدولة القوية المرهوبة الجانب، ويحترمها الاعداء على الدوام.

ونحن اليوم على الرغم من إدراكنا لهذه الحقيقة وغيرها من حقائق ومنافع الوحدة او الاتحاد، ما زلنا في أسوأ حال، لانحقق الحد الأدنى ولا الاوسط ولا الاقصى من الوجود الاسلامي السليم.

واذا حكمنا على تاريخنا بالجنوح احيانا او الرفض النسبي، فيماذا يحكم من يأتي بعدنا على وجودنا او ضاعنا السياسية والثقافية والاقتصادية؟ انه لاشك حكم بالرفض المطلق، وربما بالتبرؤ والتمرد على كل شيء نعايشه الآن.

- وحدة القانون:

ان اهم ما يحقق ويتفاعل مع عالمية الاسلام وخاتميته وخلوده: هو وحدة النظام او القانون، اي وحدة احكام الشريعة الاسلامية، المنزلة من عند الله تعالى رب الكون كله، وهذا كفيل ببقاء مقومات العالمية والخاتمية والخلود، لأنه اذا تعددت الانظمة او القوانين الوضعية المتأثرة باليسار او اليمين، او الاشتراكية والرأسمالية، او الملكية والديمقراطية او الاقطاعية والجماهيرية، فانه يصعب في العادة توحيد المحكومين بهذه الانظمة، لتأثرها بالاهواء والشهوات، والمصالح

الذاتية، والعقول المتفاوتة.

اما شريعة الله تعالى فهي موضوعية محددة، تلتزم معايير الحق والعدل المطلق، ورعاية المصالح العامة للناس جميعا، على اختلاف احوالهم وفئاتهم واعراقهم وتوجهاتهم، وتأخذ بهم الى غد مشرق، ومستقبل زاہ، ووضع افضل، لانها من لدن رب العالمين، الذي يعلم من خلق، ويعلم مصالحهم، وهو الحكم العدل، وهو العليم الخبير، فلا يقصر حكمه لصالح فرد او فئة معينة دون اخرى، ولا ينحاز لجانب على حساب آخر.

لذا وجب تطبيق احكام هذه الشريعة، و لاسيما ثوابتها، في كل زمان ومكان، اما تطبيق غير شرع الله فهو عودة لحكم الطاغوت والشيطان، والجاهلية الوثنية، قال الله تعالى: (افحكم الجاهلية يبغون، ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون) (المائدة: ٥٠) واذا كان الناس يحرصون على تقدمهم وسعادتهم، فعليهم رفض اي بديل عن شرع الله، قال الله سبحانه: (افغير دين الله يبغون، وله اسلم من في السموات والارض، طوعاً وكرهاً، واليه يرجعون)(آل عمران: ٨٣).

هذا الايجاب الدائم الثابت في تطبيق الشريعة يؤدي لو حدة التشريع المطبق في الامة، من غير اي عناء او تعثر، او تجاف مع الواقع، او تباين مع التعددية العرقية، او القومية، او تباعد الديار، واختلاف الطبائع.

ومن المعلوم ان وحدة التشريع: هو ما تسعى اليه الدول الحديثة، ولو مع اختلاف القوميات والاجناس والاعراف المتباينة.

واذا انقسم المسلمون الى دول اقليمية وحكومات متعددة، بسبب بعد المسافة بين البلاد، او لصعوبة حكم تلك البلاد بسلطة واحدة، او لنفور بعض الحكام من حكام آخرين، فان هذا كله لا يسوغ العدول عن تطبيق احكام الشريعة

الالهية، او الاخذ ببعض احكامها بدون بعض، او هجرها برمتها لايدى لوجيات وفلسفات اخرى، لأن شريعة الله واجبة التطبيق في كل حال ومكان وزمان، لقوله تعالى: (يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول) (النساء: ٥٩).

ووحدة الحكم الالهي يستتبع وحدة الدولة، ووحدة الامة، ووحدة النظام، وقد حذر القرآن الكريم من تنازع الامة في القضايا الاساسية العامة، حتى لا تضعف او تتخاذل او تذلل وتهان امام اعدائها، فقال الله تعالى: (واطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم،^(١) واصبروا ان الله مع الصابرين) (الانفال: ٤٦).

وقال سبحانه: (انا انزلنا اليك الكتاب بالحق، لتحكم بين الناس بما اراك الله، ولا تكن للخائنين خصيما)^(٢) (الناس: ١٠٥).

واسباب الدعوة الى وحدة النظام التشريعي او القانوني بين المسلمين كثيرة، اهمها مايلي:

١- المسلمون امة واحدة: لقد حقق المسلمون عزة لا تطل، وهيمنة وتفوقا عظيما بالغ الشأن، حينما ادركوا انهم امة واحدة، واخوة في العقيدة الواحدة، وصف واحد متضامن امام الاعداء، متكافلون فيما بينهم في السراء والضراء، متعاونون على البر والتقوى.

ان وحدتهم في الداخل والخارج جعلتهم خير الامم، وبواتهم ليكونوا كذلك، عملا بقول الله تعالى: (كنتم خیر امة اخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله) (آل عمران: ١١٠). وذلك لانهم ايضا الامة

(١) اي قوتكم ومجدكم.

(٢) اي وكيفا مخلصا عنهم.

الوسط الخيار العدول بين الامم، كما وجههم القرآن الكريم في قوله سبحانه: (وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا)(البقرة ١٤٣).

ومنشأ هذه الوحدة: هي اخوة الايمان والعقيدة التي هي اقوى واخذ وادوم من اخوة النسب، ثم تآزر الاخوة وتعاونهم، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»^(١).

وقال ايضا: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم مثل الجسد، اذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٢).

٢ - وحدة العقيدة: المسلمون امة ذات عقيدة واحدة، وايمانهم واحد معروف، فهم يؤمنون بالله ورسوله وكتبه واليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيره وشره. والايمان بالكتب كلها وبخاتمها القرآن الكريم يستدعي الالتزام بمضمون القرآن، ويوجب تطبيق شرعه واحكامه وحلاله وحرامه واخلاقه وآدابه وكل ما جاء فيه. ووحدة هذا الكتاب الالهي من اقوى الاسباب المؤدية الى وحدة المسلمين، وكونهم صفا واحدا فيما بينهم وفي مواجهة اعدائهم.

٣ - وحدة العبادة: العبادة تصدر عن حب وايمان، ووحدة العبادة الاسلامية من اهم عوامل الوحدة في الانظمة والمعاملات، فاذا ما اتحد المسلمون في المسجد او في الصوم او في الحج او في الزكاة، اتحدوا في المجتمع والسوق والادارة والشركة كل انماط السلوك والحياة الاجتماعية، لأن المسلم الواعي والمخلص: هو الذي لا يصدر عنه ما يناقض عقيدته او عبادته، وتكون ممارساته

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابي موسى الاشعري رضي الله عنه.

(٢) رواه الامام احمد ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

لشؤون المعاملات والتصرفات منسجمة مع مقتضيات العقيدة والعبادة، والالم يكن مسلماً في ميزان احد صادق الاعتقاد والتعبد، والاتجاه نحو رب واحد.

٤ - وحدة اللغة: ان عبادة المسلم لا تصح الا بلغة القرآن العربية، فكل مسلم يعرف اللغة العربية، ويأنس بمدلولاتها، ويتذوق اساليبها. واللغة عامل قوي في توحيد الشعوب والامم، ويتقوى هذا العامل ويتنامى مفعوله اذا ارتبط بالدين والاعتقاد والتشريع، فالعقيدة اساس، واللغة العربية تعبير عن مكنون العقيدة، فتتوحد الطباع، ويتحد الكلام، وتتفق العواطف والمشاعر، وتكون اللغة العربية هي لغة الخطاب والكتابة، ويسهل حينئذ توحيد العمل، وتدوين الاسرار، وبعث المراسلات، وعقد المعاهدات بين المسلمين وغيرهم، ويتجه المسلمون حينئذ الى توحيد جهودهم وطاقاتهم، وتحقيق وحدتهم السياسية والاجتماعية، والاجتهاد في ضوء مفاهيم لغة العرب، واستنباط الاحكام المناسبة، كما نبه اليه القرآن الكريم في قوله سبحانه: (انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) (يوسف: ٢). (كتب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) (فصلت: ٣).

٥ - وحدة الثقافة: الثقافة هي المقومات المتصلة بالسلوك الانساني، وهي تشمل من الناحية النظرية: العقيدة والنفوس والاجتماع، والاخلاق والتربية، والآداب والفن، والتاريخ، وفلسفة الاقتصاد والمال. وهي من الوجهة العملية: ممارسة وسلوك، وهي غاية، والعلم وسيلة.

وبما ان الثقافة الاسلامية هي التي يمكن وصفها بأنها انسانية، لشمولها وتوازنها، ومجيئها موافقة للطبيعة الذاتية، وتجاوزها كل عيوب العنصرية والقومية الضيقة والتعصب الديني، فهي من اقوى دواعي توحيد الفكر والسلوك، وصهر الامة في ممارسة واحدة، والسعي لغايات واحدة، والعيش في

ظل تشريع واحد.

ان وحدة الثقافة تدفع المثقفين بها الى الانضمام تحت لواء راية واحدة، هي راية التشريع الذي يحدد معالم الثقافة الاسلامية الفريدة في منزعتها وغايتها. وغير المسلمين الذين يتعايشون مع المسلمين في ظل دولة واحدة، يلتقون مع المسلمين في اصول الايمان بالله واليوم الآخر والكتاب الالهي، وينضمون اليه في دائرة الانتماء التاريخي والثقافي، فتتوحد الامة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وتشريعيا.

٦ - وحدة المصالح والتاريخ والمصير: ان المسلمين مع من يعيش في بلادهم لهم مصالح متحدة وآمال وآلام واحدة ومصير مشترك، وتاريخ واحد، وهذا يوجب تكوينهم وحدة دولية وقانونية، وما الدولة والقانون الا للأكثرية، ولكن في اطار الحق والعدل والمساواة التي نظمها وفرضها القرآن الكريم واذا اتحدت الامة عز جانبها، وهابها اعداؤها، وتقدمت في مختلف وسائل الحياة، ولاسيما ايجاد نهضة صناعية قوية.

٧ - وحدة المصدر التشريعي: تتعدد القوانين الوضعية وتتغير احكامها، بتعدد وتغاير عقول واضعيتها، وبمقدار تأثرهم بفلسفة معينة، ونظرية محددة. اما التشريع الاسلامي فمصدره واحد، وهو الله تعالى، بما انزل من اوامر ونواه، والاجتهاد كاشف مظهر لحكم الله تعالى، لا منشاء ولا مبدع لاحكام الشرعية.

ووحدة المصدر التشريعي الاسلامي تجعل التشريع واحدا بالنسبة لجميع المسلمين في العالم. وغير المسلمين المقيمين في دار الاسلام ملزمون بأحكام هذا التشريع، بحكم سيادة الشريعة في دار الاسلام، بمقتضى المعاهدة التي تمت بين المسلمين وغيرهم للاقامة في دار الاسلام على الدوام، ومن بنود هذه

المعاهدة الالتزام بأحكام الشريعة.

وإذا تعددت الاجتهادات الفرعية التي مجالها في الفروع لا في الاصول، فإن القانون الموحد الذي يختار بعض الاجتهادات، يؤدي الى وحدة تشريعية ايضا، لأن الاختيار لرأي ما نابع من مراعاة المصلحة العامة، والتجاوب مع مقتضيات العصر والزمان.

والمطلوب من رعايا الدولة الاسلامية الواحدة، مهما تناعت بهم الديار ان يكون دينهم الاخلاص لرب العالمين، ولامام المسلمين الذي لا يأمر الا بالحق والخير والمعروف، فيسهل تقبلهم نظام الوحدة او الاتحاد، من اجل الحفاظ على وجودهم واستقلالهم، والتخلص من اي تبعة لدولة اخرى شرقية او غربية، لا تبغي من تدخلها في شؤون المسلمين الا استنزاف خيراتهم، وابعادهم عن شريعة ربهم، وابقاءهم اذلة تابعين مهانين، يسرون في فلك مصالح المستعمرين ومخططاتهم الرهيبة، وينطبق عليهم حينئذ المثل العربي: (انك لاتجني من الشوك العنب).

والخلاصة: ان الاسلام يتر على اتباعه وجود النظام او القانون الموحد، واختصر عليهم الخوض في تجارب متعددة، ونلاحظ الآن ان العالم يتجه عبر النظام القانوني الوضعي الى تحقيق مطمح وحدة القانون التي تؤدي الى وحدة الشعوب وتقاربها وتفاعلها، وممارسة معاملاتها على منهج واحد، وقاعدة واحدة، ويكون الخير بذلك الاتحاد للجميع.

- وحدة العبادات:

لا تقتصر العبادات على الفروض الاربعة المفروضة وهي الصلاة والصيام والحج والعمرة والزكاة، وانما تشمل مقدماتها وهي الطهارة من النجاسات

والقاذورات، فانها واجبة حفاظا على صحة الانسان، وابعاده عن كل ما يلوث البدن والثياب والمكان، وذلك بالماء المطهر ووسائل التنظيف الاخرى. وتشمل العبادة ايضا كل ما فيه تعظيم الله تعالى من امور الحظر والاباحة والايمان والندور والكفارات، والاضاحي والعقيقة والذبائح والصيد ونحوها.

وبما ان هذه العبادات والشعائر كصلاة الجمعة والجماعة والاذان مرتبطة ارتباطا وثيقا بالله عز وجل، ويقصد بها الاخلاص لوجه الله تعالى، وذكر الله وطاعته وارضائه، فانها واحدة في حقيقتها ومظهرها، ومبناها ومقاصدها، وجعلها وسيلة لتهديب النفس الانسانية، ونقاء المجتمع، والتعويد على فعل الخير وترك الشر والفواحش والمنكرات، واطلاق حرية العبادة لا لاتباع الاسلام وحدهم، وانما لاصحاب الديانات المختلفة، لتظهر مزية الاسلام، وقد اذن الاسلام لاتباعه ان يدافعوا عن هذا الحق للجميع، ومن اجل ضمان حرية العبادة لجميع المتدينين، فيتحقق بهذا نظام عالمي حر، يستطيع الكل ان يعيشوا في ظله آمنين، متمتعين بحريتهم الدينية على قدم المساواة مع المسلمين.^(١)

ويدرك كل انسان هذه الوحدة الاسلامية الكبرى، انى اتجه في المشارق والمغرب، فالمسلم يعرف المسلم بمناسك العبادة ووسائلها او مقدماتها من طهارة واذان واقامة، وكيفية الاداء، والذكر والاستغفار والدعاء باللغة العربية في كل مكان.

- ان الصلاة سواء اديت منفردة او بجماعة تعبير حي واقعي ناطق عن وحدة المسلمين، ايا كان مذهب المصلي من مذاهب اهل السنة او الشيعة او الاباضية او

(١) نحو مجتمع اسلامي للاستاذ الكبير المرحوم سيد قطب: ص ١٠٦.

غيرهم. وتنظيم صفوف الصلاة كالملائكة دليل على مساواة المصلين.
والصوم في غضون شهر كامل مظهر ميداني رائع لو حدة المسلمين في كل
مكان، سواء في النهار او الليل، تملوهم البهجة ويغمرهم الفرح، ويشعرهم
بالاخوة الايمانية تملأ قلوبهم، وتفيض مشاعرهم حمدا لله وشكرا على نعمة
الاسلام.

والحج سبيل التعارف الاسلامي، وذلك المؤتمر الاكبر الذي يلتقي فيه
المسلمون على صعيد واحد، ويطوفون حول بيت الله الحرام ويصلون، لرب
البيت، وتكون الكعبة المشرفة رمز وحدتهم في صلاتهم وحجهم واذكارهم، لا
انهم يعظمون الحجارة او الجدران، وانما يقاومون مختلف اشكال الوثنية، فهل
بعد هذا يأتي تفكير سطحي لبعض الاعداء، يتهمون فيه الاسلام بالوثنية؟ حيث
ينظرون الى الظاهر، ويتعامون عن الحقيقة والايان العميق في نفس كل مسلم،
ولو كان اميا عاميا بأنه يتجه بطوافه وصلاته نحو رب البيت، وانما البيت الحرام
رمز لو حدة الصف، وجمع المسلمين، كما يجتمع المتحدثون حول مركز معين او
نقطة معينة، او طاولة مستديرة او مستطيلة او مربعة مثلا، فهل هؤلاء الجالسون
المتفاوضون يقدسون تلك الطاولة او يعبدونها؟؟

والزكاة سبيل التكافل الاجتماعي، وان تعلقت بعباد الله لاغنائهم، وسد
حاجتهم وانقاذهم من وحدة الفقر، انما يبذلها المسلم بسخاء بقصد ارضاء الله
تعالى وطاعته، ولتطهير ماله من شوائب الشبهات والحرام، بل ولتحقيق التقريب
بين الاغنياء والفقراء او توحيدهم في سبل المعاش.

والخلاصة: ان وحدة الدين والعقيدة والعبادة من اهم الروابط القائمة بين
افراد الامة الاسلامية، لتحقيق الوحدة الاندماجية، فان تعثرت لفترة زمنية ما،

فلا بد على الأقل من توحيد الاتجاهات والقرارات العامة، والوقوف صفا واحدا ضد كل الأعداء، فلا يعتدي عليهم مستكبر متعال، ولا يطمع فيهم أو في ثرواتهم طامع جشع، ولا يخترق جبهتهم أو صفهم ماكر خبيث أو مارد مستميت. في تقويض صرح الإسلام.

- نفي انماط التفرقة:

لقد كان الإسلام حكيماً؛ لأنه من وحي الله وشرعه، وقويا حازماً؛ لأنه يخطط لابعاد المستقبل، حين قضى على أشكال الفرقة، وتخلص من القبلية والعصبية الجاهلية، وحول المسلمين ليكونوا أمة واحدة من مجتمع التنازع والتخاصم القبلي الضيق، إلى المجتمع العالمي الذي يتجاوز الأعراق والعنصريات واللغات والألوان والقوميات الضيقة والمنهجيات أو الأيديولوجيات، والجنسيات المنتمية لقوم معينين أو دولة اقليمية معينة.

ثم صهر الإسلام العداوات والاحقاد السابقة، كعداوة الأوس والخزرج في يشرب، والقحطانية والعدنانية في الجزيرة العربية، وجعلهم جهة واحدة ضد العدو الخارجي من الفرس والرومان، وأخى الإسلام بعد الهجرة إخواناً عقدياً لفترة زمنية محددة بين المهاجرين والأنصار، فصاروا إخواناً في الدين والوطن، ويدا واحدة للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله، فكان المهاجري يرث الأنصاري وعلى العكس، ثم زالت المؤاخاة في الميزان لزوال مقتضياتها، وأصبح الأثر برابطة الرحم أو القرابة النسبية، وصارت الأخوة الإيمانية هي الرابطة بين المسلمين، وزالت رابطة القبيلة والعشيرة والعصبية الجاهلية بالنص التشريعي وفي الواقع العملي، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس منا من دعا إلى

عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»^(١).
واضحت من الناحية الواقعية العناصر المشتركة بين المسلمين في كل انحاء الارض قائمة على وحدة الدين، واللغة، والمشاعر، والاماني والآمال والآلام، ووحدة التاريخ بما فيه من محن ومشكلات او ازومات، ووحدة المستقبل والمصير، وما يبشر به من خير وقوة. وهذه المعاني لم تكن معروفة في العصر الجاهلي بين سكان الجزيرة العربية، لأن النزعة القبلية كانت هي الغالبة عليهم، فكانت معجزة الاسلام في القضاء على تلك النزعة الضيقة، واحلال النزعة الانسانية والعالمية محلها، ليمتد الاسلام وينتشر في كل مكان، وقد تحقق ذلك في الماضي، وامتد الى الحاضر، وسيبقى علما شامخا بمشيئة الله في المستقبل لاحقاق الحق، وابطال الباطل.

وتتابعت احداث التاريخ وامتداد الرقعة الاسلامية من اقصى المغرب الى اقصى المشرق، ووحدت دول غير عربية حمت الاسلام ضد التحديات والتيارات المعادية، فالمماليك مثلا - وهم ليسوا من العرب - حموا بلاد الشام والعراق ومصر من هجمات المغول والتتار على يد الظاهر بيبرس والمظفر سيف الدين قطز، والملك الناصر - والقائد صلاح. وهو من الاكراد لا العرب - حمى فلسطين والعروبة واللغة العربية والمذاهب الاسلامية من الاندثار والضياع بانتصاره على جيوش الفرنجة وصدته غارات الصليبيين. والبربر هم الذين ساعدوا مساعدة كبرى طارق بن زياد في فتح الاندلس، وهم مع العرب كافحوا في الجزائر مئة وخمسين عاما، حتى انتزعوا النصر والاستقلال، وقدموا مليون

(١) حديث حسن اخرجه ابو داود عن جبير بن مطعم رضي الله عنه.

شهيد، وكان انتصارهم بالإسلام، كما انتصر الإسلام في بقية بلدان شمال المغرب في تونس ومراكش، وفي ليبيا، وفي السودان، وفي كل مكان دنسه المستعمرون، فكانت انتفاضة الإسلام قوية عامرة حطمت كل محاولات هيمنة الاستعمار ووسائله الخبيثة ومكائده الشيطانية.^(١)

وكان للإسلام فضل بقاء مبادئه وشعائره وعقائده في إيران وأفغانستان والهند وماليزيا واندونيسيا والباكستان وغيرها من بلاد العالم، لتؤكد عالمية الإسلام وواقعيته وخلوده.

إن إبعاد المجتمع الإسلامي عن كل أسباب التفرقة: اللغوية، والجغرافية، واللونية، والقومية، والمنهجية، والجنسية أو الانتماء لسلطة معينة، يقصد به إزالة كل أسباب التباعد بين الناس، واستئصال بواعث الحقد، والتعصب، والكرهية، والانغلاق، وتحقيق الانفتاح والتسامح والتقارب بين الأمم والشعوب، من أجل إشاعة المحبة، وغرس جذور الأخوة، وتحقيق الأقبال على التعاون والتضامن، وذلك خير عظيم. وكل تلك الأسباب المفرقة هي شر ووبال.

والتزام هذا المنهج يحقق الوحدة الإنسانية، ويوفر مقومات العالمية المنصوص عليها صراحة في مبادئ الإسلام، مثل قوله تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء...) (النساء: ١) وقوله سبحانه: (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم، إن الله

(١) المستقبل لهذا الدين للاستاذ سيد قطب: ص ١١٠-١١٣ بتصرف.

عليم خبير).^(١) (الحجرات: ١٣).

ذكر المفسرون ان هذه الآية في سورة الحجرات مسوقة لنفي التفاخر بالانساب، وعليه فالمراد بقوله: (من ذكر وانثى) آدم وحواء. والمعنى: انا خلقناكم من اب وام تشتركون جميعا فيهما، من غير فرق بين الابيض والاسود، والعربي والعجمي، وجعلناكم شعوبا وقبائل مختلفة، لا لكرامة لبعضكم على بعض، بل لان تتعارفوا فيعرف بعضكم بعضا، ويتم بذلك امر اجتماعكم، فتستقيم مواصلاتكم ومعاملاتكم، فلو فرض ارتفاع المعرفة من بين افراد المجتمع، انفصم عقد الاجتماع، وبادت الانسانية، فهذا هو الغرض من جعل الشعوب والقبائل، لا ان تتفاخروا بالانساب، وتباهوا بالآباء والامهات.

وقيل: المراد بالذكر والانثى: مطلق الرجل والمرأة، والآية مسوقة لالغاء مطلق التفاضل بالطبقات كالابيض والاسود، والعرب والعجم، والغني والفقير، والمولى والعبد، والرجل والمرأة.

والحق: ان قوله: (وجعلناكم شعوبا وقبائل) ان كان ظاهرا في ذم التفاخر بالانساب، فأول الوجهين اوجه، والا فالثاني لكونه اعم واشمل.^(٢)

وأيد الالوسي الوجه الاول: وهو ان المراد من الذكر والانثى: آدم وحواء عليهما السلام، فكل الناس سواء في ذلك، فلا وجه للتفاخر بالانساب. ثم قال الالوسي: وجوز ان يكون المراد هنا انا خلقنا كل واحد منكم من اب وام، ويبيده عدم ظهور ترتب ذم التفاخر بالنسب عليه، والكلام مساق له، كما ينبىء عنه ما

(١) قال الالوسي في تفسيره ٦٢/١٦٢: سميت الشعوب، لأن القبائل تشعبت منها، وهذا هو الذي عليه أكثر اهل النسب واللغة. والشعوب: هم الجمع المنتسبون الى اصل واحد، وهو يجمع القبائل.
(٢) الميزان في تفسير القرآن للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ١٨/٣٢٦.

(١) بعد.

وكذلك الرازي ذكر الوجهين، واتجه في بيانه الى الوجه الاول،^(٢) وهو الذي رجحته في التفسير المنير،^(٣) ويكون المعنى كما ذكرت: ايها البشر، انا خلقناكم جميعا من اصل واحد، من نفس واحدة، من آدم وحواء، فأنتم متساوون، لان نسبكم واحد، ويجمعكم اب واحد وام واحدة، فلا موضع للتفاخر بالانساب، فالكل سواء. واذا كان القصد نفي التفاخر بالانساب، لانه اصل المشكلة، فيكون التفاصيل او التفرقة في المعاني الاخرى كاللون والقوم والمنهج والعرق او العنصر منفيًا من باب اولي.

وانه بالموازنة بين تكوين الامم بالعنصرية ونحوها، وتكوينها بالدين، يتبين ان السير بالانسانية في مدارج الرقي، وقيام العلاقة البشرية على اسس من المودة والفضيلة، انما يكون تحت ظل الدين، لا ظل العنصرية، لأن العنصرية تفرض دائما تفضيل عنصر على عنصر، وهذا امر بغض يؤدي الى التناحر، ولا يتفق مع الواقع، ولا مع الانسانية، ولا مع المصالح العامة. والامم او الدول التي تعامل الشعوب على اساس الوانها، وتفرق بين الاسود والابيض، ماهي الا صورة من صور تحكم العنصرية.^(٤) والاسلام الذي يدعو الى النظرة العالمية يأبى قبول اي شكل من اشكال العنصرية او المفاضلة بين البشر، فهم سواء كأستان المشط.

(١) تفسير الألويسي ٢٦/١٦١-١٦٢.

(٢) تفسير الرازي ٢٨/١٣٧.

(٣) انظر ٢٦/٢٥٩.

(٤) الوحدة الاسلامية للعلامة الشيخ محمد ابو زهرة: ص ٢٦.

- استيعاب الثقافات والتقاليد:

من مزايا الاسلام الحساسة والكريمة: انه بانفتاحه على العالم، وموضوعيته وتجرده، وعالميته وواقعيته، استوعب في محتواه انواع الثقافات المختلفة وانماط التقاليد الموروثة السائدة، كما فعل في المجتمع الجاهلي، حيث أقر ما يتفق مع نظام الاسلام العقدي والاخلاقي والاجتماعي والانساني، كالحنيفية التوحيدية ملة ابراهيم الخليل عليه السلام، والاخلاق الكريمة كالغيرة على العرض، والشجاعة من غير تهور ولا اسراف او طيش، لقوله صلى الله عليه و آله وسلم: «انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق»^(١) وابطل كل انواع الزواج التي تشبه السفاح او الزنا او هي زنا بالفعل، وابقى الزواج الشرعي بالعقد المعروف شرعاً في حديث: «لانكاح الابولي وشاهدي عدل»^(٢) وابطل عادة الاخذ بالثأر التي هي بمثابة شرارة تدمر مجموعة من الناس بسبب قتل، وشرع القصاص بأن يقتل القاتل عمداً نفسه دون احد سواه من اقاربه او عشيرته، وابقى الاسلام نظام العاقلة (العصبة) في تحمل دية القتل الخطأ، اخذاً بمبدأ التعاون الانساني، وان كان الاصل في الاسلام هو المسؤولية الشخصية، المقرر في آية: (ولا تزر وازرة وزر اخرى) (الانعام ١٦٤).

واقر التقاليد والعادات الكريمة او الحميدة، مثل اهازيج العرس والضرب بالدفوف في الشارع ونحوه، ومنع ما يؤدي الى الفساد والضياع كالاختلاط المشبوه الذي لاضرورة ولا حاجة اليه، وابعث الاختلاط الذي لاينم عن خبث او سوء قصد، كالتعامل والشهادة والقضاء والتعليم والعلاج، بمقدار الحاجة. ومنها

(١) أخرجه البخاري في الادب والحاكم والبيهقي عن ابي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني عن ابي موسى رضي الله عنه، وهو حسن.

الضيافة العابرة، وخدمات الجهاد ونحوها، لانه يحقق مصلحة، وتغيب عند حسن النية والمشاكل الجادة نظرات السوء غالباً. وشعار المرأة في هذا الاختلاط العفوي البريء: الحزم والتماسك، والبعد عن مفاتن الانوثة الخاص، تصديقاً لقول الله تعالى: (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول: فيطمع الذي في قلبه مرض، وقلن قولا معروفاً) (الاحزاب: ٣٢).

والخلاصة: ان ما قرره الاسلام من احكام يظل واجب التطبيق، ولا يصح وصفه - كما يحلو لبعض الكتاب المعاصرين او الجهلة - بالتقاليد الاسلامية، لأن التقاليد ناشئة عن اعراف وعادات متوارثة او شائعة، وهذه الاعراف قد تكون صحيحة، اي تتفق مع الشريعة، فهي مقبولة، وقد تكون فاسدة، اي قبيحة تصادم احكام الشرع، فتكون مرفوضة اي محرمة. وعلى هذا، تكون هذه التقاليد خاضعة للحكم الشرعي، فيترك منها الحسن، ويلغى القبيح، باجراء عملية اصطفاء واختيار، ويكون دور الاسلام دور استيعاب للتقاليد والثقافات، اي انماط السلوك والمعارف، لأن الدور الاسلامي دور تصحيح و تنقيح، وابقاء ما هو خير، وانهاء ما هو شر، وهذا معيار عالمي موضوعي، لأن الحكمة او الفلسفة تلتقي في النهاية مع شرع الله، ولا تتعارض مع ما ينسجم مع معطيات العقول السليمة.

والتاريخ الاسلامي يؤكد هذه الحقيقة، فقد انتشر الاسلام بين اقوام وشعوب مختلفة، لهم عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم القديمة، سواء بين العرب، او غير العرب في القارات الثلاث: الآسيوية والافريقية والاوروبية، وتخلي عن التقاليد الموروثة هؤلاء الاقوام كالاكراد والشراكس والأتراك والاييرانيين، والشيشان، والافغان، والبخاريين وما جاورهم، والماليزيين والاندونيسيين، والهنود والباكستانيين والقبائل الافريقية، والاوروبيين والاميركان، ولقد شاهدت

بنفسي نماذج من هؤلاء جميعا، فوجدتهم قد تخلوا فعلا عما يألفون، وانصهروا في بوتقة الاسلام، وبخاصة اذا دخلوا في الاسلام عن طريق التصوف المعتدل الملتزم بشرع الله ودينه.

ب - نفي الشبهات والاختفاء:

ان عالمية الاسلام وخلوده وخاتميته تتجاوز في اتساعها وامتدادها الزمان والمكان، ومن البدهي قد تشور شبهات تتصادم معها، او قد تقع اخطاء تعكر مسيرتها، فهل تتوقف هذه الخواص، او تتعثر او يطرأ عليها التغيير؟ الواقع ان كل نظام قد تعترضه مشكلات، فاذا كان هذا النظام متينا قويا، فلا يتعكر او يتعثر امام المد الذي يتصف بالموضوعية، والعقلية، والانسجام مع دواعى الفطرة، وهكذا الاسلام يقف كالجبل الاشم امام كل التحديات او النكسات، كما قال القائل:

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها واوهى قرنه الوعل

وسأعرض لبعض الشبهات:

- اقليمية الاسلام:

عالج الاستاذ عبد القادر عودة هذه الشبهة، فقال: ^(١)

الاصل في الشريعة الاسلامية - كما تقدم - انها شريعة عالمية او ذات نزعة عالمية، لا مكانية، جاءت للعالم كله، لا لجزء منه، وللناس جميعا لا لبعضهم، كما قال الله تعالى: (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) (الفرقان: ١) وقال سبحانه أما رسوله صلى الله عليه وآله وسلم باعلان

(١) التشريع الجنائي الاسلامي ١/٢٧٤-٢٧٥ بتصرف.

مبدأ العالمية: (قل يا ايها الناس، اني رسول الله اليكم جميعا...) (الاعراف ١٥٨).
 فهي شريعة الكافة لا يختص بها قوم دون قوم، ولا جنس دون جنس، ولا قارة دون قارة، وهي شريعة العالم كله، يخاطب بها المسلم وغير المسلم، وساكن ديار الاسلام وغيره.

لكن لماتعذر ايمان الناس جميعا بالاسلام، لظروف معينة، من التأثر بالمورثات السائدة والعادات الشائعة، والفلسفات او الاديان القائمة، ولا يمكن اكراه الناس على الاسلام، او فرضه عليهم فرضا، فقد قضت ظروف الامكان او الواقع العملي القائم الاتطبق الشريعة الا على البلاد التي تخضع لسلطان المسلمين، دون غيرها من البلاد، فأضحى تطبيق الشريعة الاسلامية مرتبطا بدولة الاسلام وقوة المسلمين، فكلما اتسعت الاقاليم التي تكون تحت ولاية المسلمين وسلطانهم، اتسع نطاق تطبيق الشريعة، وكلما انكمش سلطانهم، انكمشت الحدود التي تطبق فيها الشريعة، اي فيطبق الاسلام مع رقعة انتشاره قبضا وبسطاً.

فالظروف والضرورة هي التي جعلت من الشريعة لاسلامية شريعة اقليمية، اي تطبق على مسلمي دار الاسلام ومنى عايشهم من المعاهدين، وان كانت الشريعة في اساسها شريعة عالمية.

ويمكن القول: ان الشريعة الاسلامية في اساسها شريعة عالمية، اذ نظرنا اليها من الوجهة العلمية، ولكنها في تطبيقها شريعة اقليمية اذ نظرنا اليها من الوجهة العلمية.

والمعول في الاحكام التشريعية علي الاصول العلمية او المبدأ، اما الواقع فقد يتفق مع هذه الاصول او الاسس، وقد يقصر عنها لظروف واوضاع معينة، مؤقتة او دائمة.

وحينئذ لا تكون شبهة الاقليمية الواقعية حائلا دون تقرير العالمية وما يتبعها من الخضوع لاحكام الشريعة وهيمنتها.

- تعدد الولايات والدول:

الواقع الاسلامي المجزأ في عصرنا نكبة من نكبات او محن الاستعمار و آثامه ورزاياه، وتمر السنون وحال المسلمين يزداد تفرقا وتباعدا، ساعد عليه تعدد الاقاليم واستقلال الدول الاسلامية، بعضها عن بعض، حتى صار عددها الآن في منظمة الامم المتحدة ٥٥ دولة.

ومما زاد من التباعد بين الدول الاسلامية: تباينها في الولاء لبعض الدول الكبرى كأمركا واوروبا الآن، والاتحاد السوفياتي في الماضي القريب. وكذلك تفاوتها في الغنى والفقر، وتعرض بعضها لمشكلات اقتصادية، تجعل الآخرين يتخوفون من التقارب معها، وتضعف الثقة او تنعدم بين كل دولة واخرى، فتخشى الدولة الغنية اطماع الدولة الفقيرة.

وتتأزم احيانا العلاقات بين الدول الاسلامية، والعربية، بسبب اختلاف وجهات النظر السياسية، فيتشدد جانب، ويلين آخر، ويبادر بعضهم او يهرول للارتقاء في احضان العدو الغاصب او المحتل الدخيل.

وتبلغ حدة التباعد والكراهية اقصاها حين تتدخل دولة مسلمة او عربية في شؤون دولة اخرى، او تعتدى على حدودها، او تحتل بعض اراضيها، بذرائع واطماع متنوعة.

ومما يزيد الفرقة: تباعد الدول او الاقاليم الاسلامية في المكان، فيكون بعضها في اقصى المشرق كاندونيسيا وماليزيا، وبعضها في اقصى المغرب كدولة المغرب العربية على حدود المحيط الاطلسي.

وعلى الرغم من كل هذه الظواهر، فإنه يمكن تحقيق تقارب أو اتحاد بين الدول الإسلامية أو وحدتها في المسائل الأساسية، والقرارات الدولية، إذا توحدت في السياسة والاقتصاد والاجتماع والقانون أو النظام: بتطبيق احكام الشريعة الإسلامية، وفي مجال الفكر والثقافة بتوحيد مناهج التعليم الاصلية في المدارس والمعاهد والجامعات، على اساس من الوحي الالهي في القرآن والسنة النبوية واجماع الامة الإسلامية، وليس هذا بالامر الصعب، وانما هو سهل، لان الدين واحد، والمسلمون اخوة. اما اختلاف المذاهب السنية او الشيعية فلا يعد عائقا، لان الخلاف في الفروع والجزئيات لا في المعتقدات والاصول، ولانه اذا توافرت النوايا والبواعث الحسنة، وصدق كل جانب في معتقده وايمانه، سهل اللقاء، وضافت شقة الخلاف، وهذا ليس عسيرا ولا ممتنعاً.

مناهج تحقيق العالمية في الفكر والثقافة والواقع:

تتحقق العالمية الإسلامية اولاً بين دول الإسلام وشعوبه وانظمتها وحكامه، ثم مع الدول الاخرى في الدعوة الى الله بالحكمة الموعظة الحسنة، وبالعقل والفكر النير الى حقيقة الإسلام ومبادئه على صعيد من السلم ونشر المحبة، وتحسين العلاقات، والمباراة في بيان اهداف الإسلام ومقاصد الشريعة بلغة العصر واساليبه، وتجنب التطرف ونبد الارهاب، والتعصب، وابداء منهج التسامح الإسلامي بين المسلمين وغيرهم، واعلان مبادئ الحق والعدل والحرية وتقرير المصير، دون اكراه ولا اجبار.

وبنود تحقيق العالمية في الوسط الإسلامي تتجلى اولاً في الفكر

والثقافة والواقع في المجالات الثلاثة الآتية:^(١)

اولا - وصل ماضي الامة بحاضرها، والتخلي عن احقاد التاريخ السابق، وترك استمرار عقدة الخلاف في صفوف الجماعة، واطفاء نيران الخلاف، والبعد عن اشاعتها او تلقينها للناشئة، ولان كل خطوة نحو الوحدة والتقارب، والتقدم، والوقوف صفا واحدا امام تحديات الاعداء والمخاطر المشتركة، انما تبدأ من واقع الحاضر، لا من اخطاء وموروثات الماضي، فكل انسان او فئة يسأل او يحاكم على ما قدم من خير او شر، بل لنكن واقعيين، فانه لا فائدة على الاطلاق من احياء خلافات الماضي.

ثانياً - الاينحاز العالم الاسلامي بجميع شعوبه وحكامه في جانب من جوانب السياسة والاقتصاد والاجتماع ونحو ذلك نحو اتجاه معين يغير اتجاه الاسلام وشرعه ومنطلقاته، ويتنافى مع المصلحة الاسلامية العليا، ويعد خرق هذا الاتجاه اما خيانة لله والرسول، ولمصالح الامة جمعاء، واما عصبية مذهبية او طائفية بغیضة تلتقي مع العصبية الجاهلية في نتائجها وثمراتها، وان خالفتها في دوافعها واسبابها.

ثالثا - ان تتقارب الطوائف الاسلامية، بحيث تدرس بتجرد وموضوعية وانصاف ما لدى الطائفة الاخرى، لأن الاسلام كل لا يتجزأ، ولان ازالة النعرة غير الطبيعية التي خلفتها احداث التاريخ ضرورة حتمية. واذا تعذر الوفاق على بعض الجزئيات، فتترك لكل جانب او طائفة، على ألا تعكر صفو العلاقات الاخوية الاسلامية الصافية، غير المتأثرة بحزازات الماضي وآلامه ومآسيه، اي ان الخطأ

(١) الوحدة الاسلامية للاستاذ الشيخ محمد ابو زهرة: ص 45 بتصرف.

يجب الا يستمر، وألاً يعوق تحقيق اللقاء المشترك او الاتحاد او الوحدة، ولان محو الفروق الطائفية يجب ان يكون غاية مقصودة في ذاتها، لأن اسباب الخلاف قد زالت، ومن الخطأ التمسك بالاختلاف الطائفي مع زوال اسبابه وعدم الجدوى في إثارته.

- الاتجاهات القومية الاسلامية:

ان الامة الاسلامية قد جربت بعد استقلالها وزوال كابوس الاستعمار عن كيانها كل المبادئ الغربية او الشرقية، من اشتراكية، ورأسمالية، وعلمانية، ووطنية، وقومية، اما عربية او كردية، او بربرية، او تركية ونحوها، فلم تحقق منها جدوى او غاية نفعية او صحيحة، وظلت تترنح وتهتز في متاهات التخلف والضعف والتفرق، حتى هانت على الاعداء والدول الكبرى، ولم يعد لها حسابان في موازين السياسة العالمية.

وقد آن الاوان في ظل الصحوة الاسلامية المعتدلة والرشيده الحالية ان تعود هذه الامة لرشدتها والحفاظ على عزتها ووجودها وكيانها، وتتجاوز محن الماضي ومآسيه على مدى نصف قرن من اغتصاب فلسطين، والاعتداء على حقوقها في كشمير وغيرها من البلاد الاسلامية.

ان القومية من مخلفات الغرب في القرن التاسع عشر، وقد تركتها الدول الغربية، واتجهت نحو الوحدة او الاتحاد.

وإذا اقتضت الظروف السياسية الاحتفاظ بشعار القومية العربية اليوم في مواجهة العدو الصهيوني، لتجميع وتضامن المسلمين والعرب، فانه ثبت لدى دعاء هذه القومية انها تلتقي في المصير مع الاتجاه الاسلامي بكل مرامييه وأبعاده وطموحاته.

وكذلك الشأن في كل قضية تهتم المسلمين قاطبة ينبغي تجاوز الافق القومي الضيق، والانصهار في بوتقة العالمية الاسلامية الخيرة، والتي تحقق على المدى القريب والبعيد مصالح جميع المسلمين، لان العدو الغربي تكرر منه الاعلان عن مواجهة العالم الاسلامي بعد سقوط الشيوعية بدون ثمن عام ١٩٨٩م، ولا تفرقة في اذهان هؤلاء الاعداء بين اي واحد من الاقطار الاسلامية، من اهل السنة، او الشيعة او غير ذلك من بواعث التفرقة.

ان العقلاء يقررون ان الاتحاد في مواجهة الخطر المشترك ضرورة حتمية، لا محيص عنها ولا مهرب، وان وجود هذا الاتحاد آت لا بد منه بمشيئة الله تعالى، اذا صدقت النوايا، وشحذت العزائم، وخفت اصوات الاطماع المادية الطاغية، والاغراق في النعم لدى البعض، وحرمان البعض الآخرين من ايسر وادنى الحياة المعاشية او الاقتصادية.

الجمود الثقافي:

الثقافة - كما جاء في معجم العلوم الاجتماعية وقاموس علم الاجتماع -: هي استجابة الانسان لاشباع حاجاته المادية والروحية. او انها تشمل نماذج الحياة الاجتماعية بأسرها: العائلية والاقتصادية والدينية والاخلاقية والتربوية والجمالية والسياسية واللغوية والعلمية.

ومعيار الثقافة: هو الدين، ويرفض القول بأن (الفن للفن) لانه لا بد من ان يكون الفن اخلاقيا، والدين اصل الاخلاق، ويجب احترام القيم الدينية في مجال الفن وغيره. وبايجاز: الثقافة تشمل المعرفة والسلوك.

ويلاحظ ان مجتمعنا المعاصر محدود الثقافة او جامد الثقافة، فالناس الى الآن حريصون على المادة وتوفير سبل المعيشة، والكثيرون او القليلون يمارسون

العبادات في الظاهر، من غير معرفة صحيحة بها وبأهدافها، وتبتعد في الغالب ثقافتهم عن مقاصد العبادة، واخلاق الدين، وتراهم يعنون بالقشور والمظاهر، وربما تعرض لهم اجهزة الاعلام المكتوبة من صحافة وقصص شعبية مثلاً، والمسموعة والمرئية، من اخبار سياسية، ومسلسلات تعالج بعض عيوب المجتمع والافراد، دون ان تعنى بالتوجيه والتثقيف فيما هو حساس وضروري، لحياة الاسرة والافراد والتجار والصناع والزراع، ودون ان تحقق النفع لهم، وتدرأ الشر عنهم، سواء في حاضرهم او في مستقبلهم القريب او البعيد، هذا فضلاً عن عدم وضوح الرؤية المستقبلية والآفاق العالمية، وغياب الاستراتيجية والخطط التنموية والتربوية والاقتصادية وغيرها من ضروريات الحياة الاجتماعية. وهذا يؤدي الى الفقر وضعف الحس العام او انعدامه او جموده.

لقد اصبح التثقيف آلياً في ملء او حشد معلومات معينة، ولكنها غير موجهة، ولا موصولة بالسلوك الرشيد.

واذا ظلت الحال على هذا النحو من الجمود الثقافي: المعرفي والسلوكي، ظل الناس في حيرة ومتاهة، وتخلف وغيوبة عن تحقيق او ادراك مفهوم الذات وتطلعات الامة لغد مشرق، وحاضر كريم.

والحمد لله رب العالمين

وحدة الامة والدولة

في الإسلام

الدكتور عبدالعزيز الخياط

وزير اوقاف المملكة الاردنية الهاشمية سابقاً

بسم الله الرحمن الرحيم

بحث «وحدة الأمة والدولة في الإسلام» مقدم إلى المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية لمؤتمره الحادي عشر في طهران، بتاريخ ربيع الاول ١٤١٩، يوليو ١٩٩٨ تحت عنوان «خصائص الإسلام العامة».

وحدة الأمة الإسلامية

تعريف الامة:

الأمة في اللغة الجماعة التي ارسل لهم رسول، او الجيل من كل حي، او من كان على الحق مخالفًا لسائر الاديان. ^(١) وقد استعملت في القرآن الكريم في معاني عدة، قال تعالى (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير) ^(٢) اي جماعة وقال (ان تكون امة هي اربي من امة) ^(٣) أي جماعة، (ولكل امة رسول فاذا جاء رسولهم قضي

(١) الفيروزآبادي، القاموس المحيط.

(٢) آل عمان ١٠٤.

(٣) آل عمران ١٠٤.

بينهم بالقسط وهم لا يظلمون^(١) أي لكل جيل من كل حي، وقال تعالى (وادكر بعد امة)^(٢) أي طائفة من الزمان^(٣) وقال تعالى (ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا)^(٤) اي عندما كان عند امة وهي الجماعة الكثيرة من الناس^(٥) او مأموما أي الامام الذي يقتدى به.^(٦) وقال (انا وجدنا آباءنا على امة)^(٧) أي على دين ومذهب.^(٨)

والامة في نظر الاسلام: الجماعة من الناس التي تربطها عقيدة واحدة ويسودها نظام واحد، ويلحق بها من يقبل بسيادة النظام الاسلامي فيها، سواء اختلفت اجناسها او اتفقت او تعددت الشعوب التابعة لها او كانت شعبا واحدا فهي امة واحدة، ولذلك نجد القرآن الكريم يؤكد هذا المعنى في كل آياته التي تحدث فيها عن الامة الواحدة، قال تعالى (ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون)^(٩) قال العلماء «القوم هم الذين يجتمعون على دين واحد» قال الالوسي «والامة بمعنى الجماعة أي ان هؤلاء جماعتكم التي لزمكم الاقتداء بهم مجتمعين على الحق غير مختلفين، وقد اطلقت على نفس الدين اي الملة».^(١٠)

وفرق بين الامة والشعب، فالشعب مجموعة من الناس تنحدر من اصل واحد، او من اصول متفرقة الا انها تلاحمت في ارض واحدة نسبا وصهرا، اما

(١) يونس ٤٧.

(٢) يوسف ٤٥ و ٣٠٥.

(٣) تفسير الالوسي ٤/٦٤، حاشية الجمل على الجلالين ١.

(٤) النحل ١٢٠.

(٥) تفسير الالوسي ٤/٤٥٥.

(٦) تفسير الزمخشري ١/٦٩٨، تفسير ابن كثير ٢/٥٩٠ تفسير الالوسي ٤/٤٥٥.

(٧) الزخرف ٢٢.

(٨) حاشية الجمل على الجلالين ٣/١٤٤.

(٩) الانبياء ٢١.

(١٠) تفسير الالوسي ٥/٣٨٨.

الامة فقد تكون من اصل واحد او من اصول متفرقة الا انها ربطتها عقيدة واحدة لها لغة واحدة، ولها نظام تشريعي واخلاقي ينبثق عن عقيدتها.

وقد اشترط القانونيون في الشعب ان يتعارف افراده ويتفاهموا على الخضوع للنظام المشترك، وقد قالوا «اذا كانت مجموعة قد وجدت معالمصادفة والتقت دون سابقة تعارف فان الدولة لا تقوم بهم».

ومن هنا نجد اتفاق الشريعة الاسلامية والقانون على ان الامة ضرورية لقيام الدولة وان القانونيين يرون التعارف على نظام مشترك واحد، غير ان نظرة الشريعة كانت اعمق حين اعتبرت تكوين الامة بعقيدتها ونظامها المنبثق عنها، وهذا معنى تعارف الشعب على نظام واحد، والاتجاه الحديث عند القانونيين عدم اعتبار الجنس وإنما اعتبار الرابطة الاجتماعية كما في اميركا، وليس اسمى من الاسلام رابطة تربط المجموعة من الناس وتكون الامة الواحدة.

وقد حرص الاسلام على ان تكون الامة قوية البنيان موحدة الكلمة، منفية الخبث بين افرادها ومجموعها، واعية حكامها وسياسة دولتها، ولذلك قرر الاسلام نقاء خلقها ومنع المفاسد فيها، وضرورة خلوها من المنكرات والموبقات ومحاربة المجرمين والعابثين فيها ومقاومة الانحراف العقائدي والفكري والسلوكي، وان تكون مناهج تعليمها ونظم حكمها وقوانين دولتها منبثقة عن دستور اسلامي، تؤخذ مواده من كتاب الله الذي لا يضل وسنة نبيه الصحيحة، قال تعالى (وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا).^(١)

وحدة الأمة

حرص الإسلام على تكوين الأمة على الأساس العقائدي، حتى تكون الاعراف والتقاليد واللغة والاخلاق والتشريع منبثقة عن هذه العقيدة، وبذلك يتبلور ذوق الأمة على وجهة واحدة وسياسة موحدة، وتقاليد واعراف واحدة او متقاربة، وهذا ما كنا نشاهده ونشهد آثاره الباقية في وحدة اعراف المسلمين وتقاليدهم ومشاعرهم، تهزم كلمة «الله اكبر» وتجمعهم رابطة الدين، وتشعرهم بأن قضاياهم واحدة كقضية القدس والمسجد الأقصى وفلسطين.

والتجزؤ الظاهر في الأمة الاسلامية في تفريقها الى دول عربية متعددة، ودول اخرى تسمى اسلامية تجزؤ طارئ بفعل السياسة الاستعمارية والانحراف الفكري بالتمسك بآراء وافكار ليست من الاسلام، والدعوة الى الحكم بنظم وتشريعات ليست اسلامية تكرر تفرقة الأمة الى دول على الأساس العرقي او الجغرافي ولو اتحد دينها.

وتعد الأمة الاسلامية وحدة انسانية واحدة، بغض النظر عن الطائفة او العرق او الجنس ولا يشترط في افرادها اذا كانوا غير مسلمين الا المواطنة (الرغوية)، وهي الولاء للدولة الاسلامية التي تحكم الأمة بنظام الاسلام دون اي تعرض لعقائدهم وشعائرتهم وعباداتهم لان حرية العقيدة والعبادة والقيام بالشعائر الدينية مضمونة لجميع افراد الأمة في دولة الاسلام، ولا ينظر لاحد او مجموعة من الأمة على انها (اقلية) او (طائفة) لها حكم خاص وقانون خاص، ولا يجوز ان ينظر اليها بمنظار العزلة واشعارها بأنها منبوذة في المجتمع الاسلامي، ولذلك فليس في امة الاسلام جاليات او اقليات بل امة واحدة على اختلاف اديانهم واجناسهم

مواطنون لكل فرد حق المواطنة^(١) وكل من خرج عن الولاء للدولة والنظام لا يستحق ان يكون مواطناً ولو كان مسلماً وليس له من حقوق المسلمين شيء. قال تعالى (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء).^(٢)

عوامل تكوين الامة الاسلامية

خلق الله البشر من ذكر وانثى، وتفرع منهما نسل كثير توزع قبائل تعتر كل قبيلة بأصلها، وتؤلف بين افرادها عصبية القرابة، ويتولى امرهم اكبرهم سناً واكثرهم حكمة ثم تفرعت من القبيلة الواحدة قبائل متعددة، يجمعها اصل واحد ولغة واحدة، وتكوّن من هذه القبائل شعوبا كثيرة، تفرقت في المنطقة الواحدة فكانت في ارض واحدة ومنطقة واحدة يعملون ويأكلون من خيراتها كما قال الله عز وجل (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا)^(٣) وكما قال (والله جعل لكم من انفسكم ازواجا وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات)^(٤) ثم انزل الله بعد ذلك الرسل يهدون الناس بالحق والى الحق، ويؤلفون قلوب اقوامهم بالدين ليكونوا امة واحدة، تجمعها اللغة والدين والارض، فمنهم من آمن وكثير منهم تمردوا على رسلهم وكفروا بما انزل الله فهلكوا، قال سبحانه (الم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم

(١) (محمد مبارك، نظام الاسلام والحكم / ٩٩).

(٢) التوبة ٧٢.

(٣) الحجرات ١٣.

(٤) النحل ٧٢.

بالبيئات فردوا أيديهم في افواههم وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب... فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين^(١) (ولقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)^(٢) والاقوام الذين آمنوا فقد تكونت منهم الامم اذ بين الله سبحانه ان القبائل والشعوب حين تتعارف تتوحد على دين واحد وعقيدة واحدة فتتكون منهم امة. وقد جاء في كتاب النبي (ص) الذي نظم به العلاقات بين الناس في مدينة يثرب مسلمين وغير مسلمين:

«ومن تبعهم اي (المسلمين) فلحق بهم وجاهد معهم، انهم امة واحدة من دون الناس وان لا يحالف مؤمن من مولى مؤمن دونه، وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم او ابتغى دسيعة (عظيمة) ظلم او اثم او عدوان او فساد بين الناس، وان ايديهم عليه جميعا، ولو كان من ولد احدهم... وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم».^(٣)

والذمي جزء من الامة الاسلامية، مواطن من المسلم يواليه ويؤاخيه، ظلمه حرام، واضطهاده حرام، ونصرتة واجبة، وحرية العبادية مكفولة، يتساوى في الحق والواجب مع المسلم لانهما في وحدة الامة وتماسكها، قال عليه الصلاة والسلام من آذى ذميا فقد آذاني^(٤) وقال من آذى ذميا فأنا خصمه^(٥) وقال «من

(١) ابراهيم ٩-١٣.

(٢) النحل ٣٦.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/٤٣١-١٤٤.

(٤) المجلوني، كشف الخفاء ٢١٨.

(٥) كنز العمال ٣/١٠٩.

ظلم معاهدا او تنقصه حقه او كلفه فوق طاقته، او اخذ منه شيئا بغير طيب من نفسه فأنا خصمه يوم القيامة»^(١).

وتتضح وحدة الامة في قوله تعالى (ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك بعضهم اولياء بعض)^(٢). وقوله سبحانه (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض)^(٣) وقال (إنما المؤمنون اخوة)^(٤) على اختلاف اصولهم العرقية وانتمائهم القومي، اذ تربطهم رابطة العقيدة والدين والفكرة الواحدة والثقافة الواحدة والعادات والاعراف الواحدة، وليست رابطة دم او نسب او ارض، ومن هؤلاء جميعا تتكون الامة الاسلامية^(٥) تتمايز افرادها وجماعاتها بالعمل الصالح من اجلها ولمصلحتها، كما قال عز من قائل (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم)^(٦) قال المفسرون ان التعارف هو التفاهم والالتقاء على طريقة واحدة وغاية واحدة وتكون من الشعوب وحدة متعارفة في الدين والعقيدة، تتفاوت في التقوى افرادها^(٧) ومن هنا نرى ان عوامل تكوين الامة الاسلامية هي:

١ - العقيدة وما ينبثق عنها من قيم ومفاهيم.

٢ - الثقافة المشتركة المنبثقة عن القرآن والسنة.

(١) رواه ابو داود، المنذري الترغيب والترهيب ٤/١١.

(٢) الانفال ١٧.

(٣) التوبة ٧١.

(٤) الحجرات ١٦.

(٥) محمد مبارك، نظام الاسلام ١٠٠.

(٦) الحجرات ١٣.

(٧) تفسير الالوسي ٨/١١٤.

٣ - اللغة العربية باعتبارها لغة المسلمين كافة.

٤ - التشريع الاسلامي المتناول لجميع نواحي الحياة.

٥ - العبادات.

وقد نمت عوامل تكوين الامة الاسلامية فأصبحت تشمل الاعراف الاجتماعية الناشئة عن التزام الاحكام الشرعية والاخلاق الاسلامية، مثل عادات الاعياد والزواج والاكل والشرب والزيارات والاتصال الجغرافي الذي يربط بين اجزاء العالم الاسلامي ووحدة الاهداف والامال والتحديات^(١) ولاعبرة بالانفصال الجغرافي اليوم فهو انفصال طارئ اوجدته العوامل الاستعمارية والسياسية والاحتلالات الغربية. وبهذا نجد ان الاسلام يقيم من اتباعه امة متكاملة موحدة مصداقا لقوله تعالى الذي وصف المسلمين بالامة فقال (كنتم خير امة اخرجت للناس)^(٢) وقوله (وان هذه امة واحدة وانا ربكم فاتقون)^(٣) وقال (وكذلك جعلناكم امة وسطا).^(٤)

مفهوم الدولة الاسلامية

الاصل في المجتمع ان يكون له دولة تدير شؤونه وتهيمن على اموره، وبدونها تكون الامور فوضى، والحياة مضطربة، يأكل فيها القوي الضعيف، ويظلم المتسلط المغلوب، ومن خصيصة البشر العدوان والظلم فاذا لم يكبح

(١) انور الجندي، معلمة الاسلام المجموعة الثانية ٢٦٦.

(٢) آل عمران ١١٠.

(٣) المؤمنون ٥٢.

(٤) البقرة ١٤٣.

السلطان واليد القاهرة، لم يستقم للبشر امر، ولذلك اتفقت المجتمعات البشرية من اول شأنها في الحياة ان يقوم فرد منها يعاونه من المجتمع افراد آخرون على تنظيم الامور وسياسة المجتمع، مهما كان اسم هذا ملكا او اميرا او شيخ قبيلة او خليفة او اماما. (١)

وضرورة ذلك واضحة لجميع الناس، اذ كلما اجتمع الناس وانتظموا ووجب وجود من يمنع الفساد والتعدي بعضهم على بعض، وارتكاب المعاصي ومن يقوم بدفعهم الى الطاعة والعبادة وانصاف الناس والمروءة، وبذلك تنسق امور المواطنين وتنظم احوالهم وتكون اقرب الى الصلاح وابتعد عن الفساد. (٢)

وطبيعة الاسلام توجب اقامة الدولة وتفرضها، لأن الاسلام عقيدة وشريعة وخلق وقيم سامية ذات انظمة متعددة عادلة تحكم الانسان في تصرفاته ومعاملاته وعلاقاته، ولا بد لتنفيذ النظام وضبط امور الناس من دولة اسلامية. ولما كانت مهمة الاسلام وطبيعة حمل الدعوة الاسلامية بعقيدتها وانظمتها الى العالمين كان لا بد ان تكون مهمة دولته كذلك في حراسة الدين ونشره، وتطبيق انظمته لتحقيق العدالة بين الناس، وايجاد المجتمع الفاضل والحياة المثلى ومنع الظلم والعدوان، وقمع شهوات التسلط والبغي وكبح جماح طغيان الاثرة والمصلحة الخاصة، وايقاف الاذلال والاستغلال والاحتكار، ونصرة البائسين وحماية المستضعفين، وتوفير الطمأنينة والامان لكل المواطنين، ومن هنا كانت مهمة الدولة في الاسلام حراسة الدين وسياسة الدنيا وهداية الناس ورحمتهم. (٣)

(١) ابن خلدون المقدمة ٢٧٤، محمد موسى، نظام الحكم في الاسلام ٧.

(٢) محمد باقر المجلسي، حياة القلوب ٣/٢٣.

(٣) الاحكام السلطانية للمواردي ٥.

وإذا كانت الدول الحديثة تتخذ اشكالا متعددة لها، منها الملكي ومنها الجمهوري ومنها ما يكون رئيس الدولة فيها ممارسا للحكم فهو رئيس الدولة ورئيس الوزراء، ومنها ما يكون فيها رئيس للدولة يحكم ويرسم وله رئيس وزراء وجهاز حكم ينفذ، ومنها من لا يملك رئيس الدولة فيها سلطانا، بل هو رمز لوحدة الأمة وانتظام امورها؛ فان الاسلام قد كون من اول امره شكل الدولة في المدينة المنورة (على ساكنها افضل الصلاة والسلام) بوجود رئيس للدولة يعاونه في الحكم جهاز من الولاة والعمال والقضاة والمعلمين والجند والشرطة والجبابة لاموال الزكاة وغيرها والموظفين والحجاب وغيرهم وكل ما يلزم للدولة ورئيسها من اجهزة الدولة لكل شأن من شؤونها.

والمدار في شكل الدولة الاسلامية على تنصيب رئيس اعلى للدولة بكيفية تحقق اختيار من تتوافر فيه اهلية الرئاسة. وقد وضع الفقهاء اهلية الامام استنباطا من الآيات الكريمة وسنة النبي (ص) وما فعله الخلفاء الراشدون واجمعت عليه الائمة، ووضحوا ما يشترط فيه وكيفية تعيينه، وبينوا صلاحيته، ومما يذكر ان النبي (عليه وعلى آله الصلاة والتسليم) لم يحدد شكلا معيناً للدولة بعد تعيين الامام، وانما ترك للامة تحديد الشكل الذي يمكن الامام من حراسة الدين وسياسة الناس.

وقد انعقد اجماع المسلمين على وجوب تنصيب خليفة او امام او سلطان او امير للمسلمين يقول ابن حزم «اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الامامة، وأن الأمة واجب عليها الانقياد للإمام عدل يقيم فيهم أحكام الله ويسوسهم باحكام الشريعة التي

بها رسول الله (ص).^(١)

ويقول الماوردي «الامامة موضوعه لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن يقوم بالامة واجب بالاجماع».^(٢) ويقول ابن تيمية «يجب ان يعرف ان ولاية امر الناس من اعظم واجبات الدين بل لاقامة للدين الا بها فان بني آدم لا تتم مصلحتهم بالاجماع الا بها لحاجة بعضهم الى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رئيس حتى قال النبي (ص) «اذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا احدهم» وجاء في مسند احمد ان النبي (ص) قال «لا يحق لثلاثة يكونون في فلاة من الارض الا امروا عليهم احدهم» فأوجب الرسول تأمير واحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيها بذلك على سائر انواع الاجتماع ثم ان الله اوجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك الا بقوة وامارة»^(٣) ومثل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر سائر ما اوجهه الله من الجهاد والعدل واقامة الحدود لا يتم الا بالقوة والامارة يقول الغزالي «ان الدين والامن على الانفس والاموال لا ينتظم الا بسطان مطاع وهذا ما تشهد له مشاهدة اوقات الفتك بموت السلاطين والائمة، وان ذلك لو دام ولم يتدارك بنصب سلطان آخر مطاع دام الهرج وعم السيف وشمل القحط»^(٤) والادلة على ذلك كثيرة؛ فقد روي عن نافع قال: قال لي عمر: سمعت رسول الله (ص) يقول «من خلع يدا من طاعة الله لقي الله يوم القيامة لاحجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»

(١) الفصل في الملل والاهواء والنحل ٤/٧٢.

(٢) الاحكام السلطانية للماوردي ٥.

(٣) السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية/١٧٢.

(٤) الاقتصاد في الاعتقاد/١٣٥.

وروى مسلم عن ابي هريرة عن النبي (ص) قال «الامام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به» ويقول الدكتور عبدالكريم زيدان «فمن البديهي ان في احكام الشريعة الاسلامية وقواعدها ما يتعلق بالدولة ونظام الحكم فيها، كمبدأ الشورى، ومسئولية الحكام ووجوب طاعتهم في المعروف واحكام الحرب والسلم والمعاهدات الى غير ذلك من الاحكام المتعلقة بالدولة وشؤونها وفي السنة النبوية تتكرر ألفاظ «الامير» و «الامام» و «السلطان»^(١).

وقال الشيخ محمد مهدي الخالصي «الامامة رئاسة عامة لحفظ ما جاء به النبي (ص) فان النبي محتاج اليها من جهتين: الاولى تبليغ الاحكام من الله تعالى والوساطة بينه وبين خلقه في اقبال اوامره اليهم، والثانية حفظ تلك الاحكام من التحريف والذئور واجرائها ورفع الخصومات والتنازع وادارة شؤون الناس في كل ما يحتاجون اليه من امور معاشهم ومعادهم، واذا توفي النبي (ص) انقطع الوحي لان الشريعة والاحكام تكمل في زمنه فيبقى حفظها واجرائها، ادارة امور الناس بحاجة الى من يقوم بها فلا بد من رئيس يقوى على ذلك وهو الامام، واذا لم يكن ذلك الرئيس عطلت الاحكام واختلت امور الناس.^(٢) ولم يشذ عن الاجماع الا من لا يعتد برأيه كأبي بكر بن عبدالرحمن بن كيسان الاصم المعتزلي^(٣) والنجيدات من الخوارج الذين قالوا بأنه لا يلزم امامة بين

(١) الفرد والدولة في الشريعة الاسلامية للدكتور عبدالكريم زيدان /٤.

(٢) احياء الشريعة في مذهب الشيعة لحجة الاسلام محمد مهدي الخالصي /٥٨.

(٣) هو عبدالرحمن بن ابي بكر الاصم صاحب المقالات في الاصول، ذكره عبدالجبار القاضي في طبقاتهم وكان من افصح الناس واورعهم وله تفسير قالوا عنه انه عجيب ولم اطلع عليه، وليس هو حاتم الاصم الزاهد المشهور.

الناس وانما عليهم ان يتعاطوا الحق فيما بينهم^(١) وقد تعرض لهذا الخلاف علماء العقائد كالايجي والجرجاني وذكروا ان الائمة اختلفوا في وجوب نصب الامام ام لا، وهل هو واجب عقلا ام شرعا، فقال اهل السنة والشيعة بالشرع وقال بعض الزيدية والمعتزلة بل عقلا، وقال الجاحظ وابو الحسين الخياط وغيرهما من المعتزلة بل عقلا وشرعا، وقالت بعض الخوارج لا يجب نصب الامام علينا اصلا بل هو من الامور الجائزة.^(٢)

وقد ردّ الاسلام على المخالفين في وجوب نصب الامام اي في وجوب اقامة الدولة او ممانعتهم لاقامة الامام، واثبتوا بالادلة القاطعة وجوب اقامة الدولة وضرورة الطاعة لها شرعا، وعلى الرغم من ذلك فلا يزال اناس يزعمون ان الاسلام لا يرى نصب الامام ولا اقامة الدولة الاسلامية، وهم يرون العالم كله لا يقوم الا بدول وملوك ورؤساء، وان جميع اصحاب نظرية عدم الوجوب تخلوا عنها عمليا، وفي كل حين يطلع علينا واحد منهم يؤلف كتابا في عدم اقامة الامام، كعلي عبدالرزاق في كتابه «الاسلام واصول الحكم»^(٣) او خالد محمد خالد في كتابه (من هنا نبدأ، والديموقراطية ابدا)^(٤) او صادق العظم في كتابه الفكر الديني ويذهب كل ذلك هباء وصيحة في واد من غير صدى (فأما الزيد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكنث في الارض).^(٥) لان الحق واقلام الحق

(١) ابن حزم في كتاب الفصل ٤/ ١٨٧، الماوردي في الاحكام السلطانية، وهذا الرأي قريب من رأي الاشتراكية في فلسفتها الاصلية ولم تطبقها الشيوعية وثبت فشلها نظريا وتطبيقا.

(٢) شرح المواقف للجرجاني / ٦٠٣-٤.

(٣) صدر في رمضان عام ١٣٣٤ هـ ١٩٢٥ م في القاهرة.

(٤) صدر الاول عام ١٩٥٠ م والثاني ١٩٥٢ م.

(٥) الرعد / ١٧.

تقذف الباطل فتدمغه، ونصاعة الاسلام في قرآن الله وسنة محمد (ص) واجتهادات الفقهاء وقيام الدولة عبر التاريخ تؤيد الكاتبون في تنفيذ باطل هؤلاء وامثالهم كما فعل الشيخ محمد خضر الحسين شيخ الازهر سابقا في كتابه «نقض كتاب الاسلام واصول الحكم»^(١) والشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية سابقا في كتابه «حقيقة الاسلام واصول الحكم»^(٢) والشيخ محمد الغزالي في كتابه «من هنا نعلم»^(٣) والشيخ تقي النبهان في كتابه «نظام الحكم في الاسلام»^(٤) والشيخ علي الصافي في كتابه «نقد الفكر الديني»^(٥) واذا كانت الدولة في الاسلام قامت بسيطة في تركيبها اول الامر؛ نظرا لبساطة الامة وقلة عددها فانها قامت مستوفية شروطها مستكملة عناصرها موضحة اجهزتها وكان الرسول عليه السلام نبيا رسولا وحاكما منفذا، وقائدا وقاضيا، يحمل امانة الرسالة واعباء الحكم معا، وكانت العلاقة واضحة بين الحاكم والمحكوم.

واني اخالف ما ذهب اليه الدكتور صبحي الصالح في كتابه النظم الاسلامية من ان النبي (ص) مهد لدولة الاسلام بانشاء الجو الصالح لها جاعلا في تقديره احتياج الحياة الانسانية الى التطور والنماء^(٦) لاني اعتقد ان الرسول (ص) اقام الدولة الاسلامية منذ وطئت قدماه يثرب، ومنذ آخى بين المهاجرين والانصار

(١) صدر عام ١٩٢٥ بالقاهرة.

(٢) صدر عام ١٣٤٤ هـ من المطبعة السلفية بالقاهرة.

(٣) صدر عام ١٣٧٠ هـ، ١٩٥٠ م عن دار الكتاب العربي.

(٤) صدر عام ١٩٥١ ط اولي.

(٥) صدر عام ١٩٧٠.

(٦) النظم الاسلامية / ٣٤.

واذاع العهد (المنشور) لفئات السكان في المدينة المنورة، وقد مهد لقيام الدولة بانشاء الكتلة الاسلامية بالدعوة الصالحة وبيعتي العقبة الصغرى والكبرى وبارسال مصعب بن عمير وعبدالله بن ام مكتوم الى المدينة المنورة قبل هجرته (ص)، وبتقدم الدولة الاسلامية الناشئة واتصالها بالشعوب المختلفة والحضارات المتعددة، وبتاسع رقعتها وصهرها الشعوب المختلفة في امة واحدة اتسع مفهوم الدولة في الاسلام منذ عهد النبي (ص) حتى زوال هذه الدولة بزوال الدولة العثمانية، وأصبح واضحاً كل الوضوح بالاسس والقواعد التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية وظهر بالتطبيق في دولة الرسول (ص) والخلافة الراشدة.

ومن هنا نجد ان مفهوم الدولة في الاسلام يقوم على امرين اثنين:

١- العقيدة الاسلامية بمفهومها الواضح الذي يعطي اهمية ايجابية خاصة لحاجات الانسان على اختلاف نزعاتها واتجاهاتها، والتي تحل مشكلات الانسان المادية واشواقه الروحية؛ بالايمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، والتي تفرض العبادة لتنظيم علاقة الانسان بالله، وتحيط العقيدة بالقيم العليا والاخلاق الفاضلة حتى تظل في جو من الطهر والسمو مستمر بانظمتها التي تنبثق عنها، والتي تضع القواعد الثابتة والاحكام المستنبطة لمعالجة جميع شؤون الحياة وتحقيق مصلحة الفرد والجماعة، فهي تشمل المعاملات والقضاء والاحوال الشخصية والميراث والوصايا والحدود والعقوبات وعلاقات الدولة بغيرها واحكام الجهاد (السير) والسلم وغيرها.

٢- اجهزة الحكم التي تنفذ ما تتطلبه العقيدة من النشر والانظمة من التطبيق، وأجهزة الحكم هذه تشمل السلطة التنفيذية والسلطة القضائية؛ اما السلطة التشريعية في الاسلام فموكول امرها لمجتهدي هذه الامة يستنبطون الاحكام

الشرعية من مصادرها الكتاب والسنة والاجماع والقياس، وتبني الدولة من الاحكام المستنبطة ما ينظم جميع شؤونها من اي مجتهد او مذهب كان يختارها الحاكم بواسطة اهل الحل والعقد او بواسطة مجلس تشريعي او اي هيئة تمثل الدولة.

ومن واقع حياة الرسول (ص) وواقع فعل الصحابة (عليهم الرضوان) وواقع الامة الاسلامية في تاريخها اتخذت الدولة الاسلامية في مسيرتها الطويلة الشكل الذي يمكن ان يتطور في تحديث الدولة، وما يناسب تطور معاش الناس واساليب حياتهم ونمو طرائق تعاملهم واستعمال وسائل التقنية الحديثة في حياتهم ضمن الإطار الاسلامي، وفي نطاق المضمون الذي عيّن الاسلام خطوطه العريضة، ووضح حدود معالمه، فلم تكن الدولة في شكلها امبراطورية لان الشكل الامبراطوري يعني ان تشمل الدولة على ولايات مستقلة في شؤونها الداخلية واحكامها وقوانينها ولكنها ترتبط بدولة يرأسها الامبراطور ارتباطا في السياسة العامة، ويشارك في موازنة الدولة بجزء من اموالها الخاصة، وتساعد الامبراطور بجيشها وقواتها امام خصوم الامبراطورية. وشكل الدولة الاسلامية لم يكن كذلك، ولم تكن الدولة الاسلامية ملكية وراثية بشكل الدول القائمة حاليا في انجلترا وهولندا وامثالها من بلدان العالم، وان اسم الملك على الخليفة والامام في بعض عصور الدولة الإسلامية وان حصرت الخلافة في اسرة معينة في بعض الدول الاسلامية كالاموية والعباسية والفاطمية ولم تكن الدولة في شكلها جمهورية تحدد فيها مدة رئيس الجمهورية بخمس سنوات او اربع وانما تحدد مدة رئيس الدولة بمدى صلاحيته للحكم وتطبيق الاسلام. ولا ينطبق اي شكل من اشكال الدول الحديثة على شكل الدولة الاسلامية من حيث ان الدولة

الاسلامية تكون فيها السيادة للشرع لا للشعب والمشرع فيها هو الله تعالى فالحاكمية له سبحانه، والعلماء المجتهدون هم الذين يستنبطون الاحكام والقوانين من مصادرها الشرعية الكتاب والسنة والاجماع والقياس والدولة تتبنى من اجتهادات العلماء القوانين اللازمة للتطبيق. والسلطان للشعب يختار رئيس الدولة (عند اهل السنة) ولا تتم رئاسته الا بالبيعة له من عامة الناس او من اهل الحل والعقد فيها، ولا تملك الامة عزله ما دام صالحا للحكم مطبقا للاحكام والقوانين الشرعية، فاذا اخل بذلك استحق العزل، ويقرر ذلك محكمة تسمى محكمة المظالم تعين من القضاة ولا تملك الدولة ان تعزل اعضاءها وانما يعزلون انفسهم اذا اصبح العضو غير صالح للنظر في القضاء، وله السلطة الشاملة على الامة ورئيس الدولة والحكومة كما للقضاء بعامة.

وليس فيها مجلس نيابي يشرع وانما يكون فيها مجلس نيابي يمثل الامة في مراقبة رئيس الدولة ومن يعاونه في الحكم. وفيها مجلس شورى يرجع اليه رئيس الدولة مستشيرافي مهمات الامور. والمساواة مقررة لجميع المواطنين. واخوة المؤمنين واجبة لا يميز احد عن احد الا بالعمل والتقوى.^(١)

وقد ترك الاسلام للمسلمين؛ بعد ان وضع قواعد الحكم في سيادة الشرع وسلطان الامة وعدالة القضاء وتساوي المواطنين واخوة المؤمنين؛ وبعد ان قرر تنصيب الامام (رئيس الدولة) وبيعة الامة له؛ ترك للمسلمين امر الشؤون التفصيلية في الدولة الاسلامية وشكلها ليتسع لاولي الامر ان يضعوا انظمتهم ويشكلوا حكومتهم ويعينوا وزراءهم ويكونوا مجالسهم بما يلائم اوضاعهم واحوالهم

(١) نظام الحكم للدكتور محمد موسى / ١٤١.

ويتناسب مع تجديد اساليب الحياة ومعايش الناس.^(١)

وحدة الدولة الإسلامية

عبر الفقهاء عن وحدة الدولة الإسلامية بوحدة الامامة او وحدة الخلافة، ذلك لان الاسلام يهدف الى تجميع المسلمين ووحدة صفهم، ولا يريد لهم الفرقة والضعف باعتبار أنهم امة واحدة، فلا بد ان يكونوا تحت رئاسة واحدة، تجنباً للفوضى والخلافات وضبط الامور الامة وشؤونها وتوحيد الصفوفها قال جل جلاله (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)^(٢) (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)^(٣) وقال (ع) «اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»^(٤) وقال «من اتاكم وامركم جميع على امر واحد يريد ان يفرق جماعتكم فاقتلوه»^(٥) وقال «من بايع اماماً فأعطاه صفقة يده، وثمره قلبه، فليطعه ان استطاع، فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر»^(٦) والامر بقتله محمول على ما اذا اصر على الخلاف فحينئذ يكون باغياً، فاذا لم يندفع الا بالقتل قتل، وروي عنه (ص) انه قال «كانت بنو اسرائيل تسوسهم الانبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وانه لاني بعدي وسيكون خلفاء فتكثر، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوابيعة الاول فالاول، اعطوهم حقهم فان الله سائلهم عما استرعاهم»^(٧).

(١) السياسة الشرعية لعبد الوهاب خلاف / ١٧.

(٢) الانفال / ٤٠.

(٣) آل عمران / ١١٣.

(٤) رواه مسلم من حديث ابي سعيد الخدري.

(٥) رواه مسلم.

(٦) رواه مسلم في كتاب الامارة.

(٧) رواه مسلم، وورد في المسامرة للكامل بن شريف شرح المسامرة للكامل بن الهمام ٢٨٠.

ويؤخذ من هذه النصوص عدم جواز ان يكون ائمة متعددون، يستقل كل منهم بامامته وينفرد بحكمه، لكن لابد ان يكون امام واحد تنضوي تحت لوائه جميع الامة الاسلامية ويرتبط به جميع الاحكام، ضمن تعاليم الاسلام وانظمتها. وقد فهم المسلمون الاولون ذلك يوم اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة حين رفضوا ان يكون اميران لانه لا يصلح سيفان في قراب واحد، يقول صاحب المسامرة» والمعنى في امتناع تعدد الامام انه مناف لمقصود الامامة من اتحاد كلمة اهل الاسلام واندفاع الفتن، وان التعدد يقتضي لزوم امتثال احكام متضادة»^(١).

تعدد الامامة في البلد الواحد

الحكم فيما اذا بويح لامامين في البلد الواحد:

اختلف العلماء على عدة آراء:

١ - ذهب طائفة من العلماء وفي طليعتهم الامام الغزالي الى ان الامامة تنعقد صحيحة لمن انعقدت له من اكثر الخلق، والمخالف للاكثرية يعتبر باغيا يجب رده الى الانقياد للحق.^(٢)

٢ - ذهب اكثر اهل السنة الى اعتبار الاسبقية في عقد الامامة، فاذا بايع الاقل ذاهلية اولاً، ثم بايعت الاكثرية غيره، فالامامة الصحيحة للاول ولو كان المبايعون هم الاقل، ويجب رد امامة الثاني، او ان يتخلى عنها للامام السابق في البيعة.^(٣)

(١) المسامرة شرح المسامرة / ٢٨٠.

(٢) المسامرة / ٢٨٠.

(٣) المسامرة / ٢٨٠.

٣ - ذهبت طائفة الى ان الامامة تنعقد صحيحة للامام الذي يبيع له في نفس البلد الذي مات فيه الامام السابق او في عاصمة الخلافة حيث يكون اهل الحل والعقد فيها، وتعد امامة غيره فاسدة في المصير الواحد.

٤ - وذهبت طائفة رابعة الى يجب على كل من الامامين ان يتخلى عن الامامة لصاحبه ويختار اهل الحل والعقد او جميع الناس اذا امكن واحدا منهما. ويرجح الماوردي ان تكون الامامة لاسبقهما بيعة وعقدا كالوليين في نكاح المرأة اذا زوجها باثنين كان النكاح لاسبقهما عقدا، وقد ذكر ان هذا ما عليه المحققون.^(١)

والذي اميل اليه - استهداء باختيار عثمان وميل الناس له لانه قبل ان يكون على شرط الشيخين ابي بكر وعمر - ان الامامة تنعقد لمن اختاره اكثر الناس (شرح المسامرة/٢٨٠) لان السلطان للامة في اختيار الامام الذي يحكمها بشرع الله ويرجح جانب الاكثرية اذا تساوي الامامان في الشروط المعتبرة، لاسيما وان امكانية اختيار رئيس الدولة في زماننا هذه اسهل منها في الايام الماضية.

ولا يفوتني ان اذكر هنا مؤكدا ان موقف الشيعة يفترق عن موقف اهل السنة، فهم يرون ان الخلافة ثبتت لعلي كرم الله وجهه بالنص على لسان النبي (ص) ثم لمن بعده من آل البيت على لسان علي (ع) ورد في كتاب عقائد الامامية للسيد محمد رضا المظفر «نعتقد ان الامامة كالنبوة، لا تكون الا بالنص من الله تعالى ولسان الامام المنصوب بالنص اذا اراد ان ينص على الامام من بعده وحكمها حكم النبوة بلا فرق» واستدلوا بآيات من القرآن الكريم مثل قوله جل جلاله (انما

(١) الاحكام السلطانية للماوردي/٩.

وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راعون).^(١) واحاديث نبوية مثل حديث غدير خم، ولكل من اهل السنة والشيعة رأيه ولانجعل اختلاف الرأي مدعاة شقاق بين المسلمين ونحن نواجه اعداء الاسلام والمسلمين ونسعى لاقامة حكم الله في الارض فان تم حكمه فيها فان وجد من يصلح للامامة من آل البيت فهو اولى والا فمن المسلمين القادرين على احكام الاسلام. ولا عبرة بالمغالين المتعصبين تعصب جهالة فان ذلك يضر بوحدة الامة ويؤدي الى فرقتها وضعفها.

خاتمة

ولابد ان نفرّق بين وحدة الامة ووحدة الدولة من جهة وبين الوحدة الاسلامية من جهة اخرى، والفرق بين وحدة الامة الاسلامية ووحدة الدولة ظاهر مما تناولناه في الحديث عنهما فالامة غير الدولة وان كان لا تستغني احدهما عن الاخرى فالامة نظام منفرط ينتظمه السلك القوي وهو الدولة ويمنعه من الانفراط. والوحدة الاسلامية اليوم تعني ان نوحّد هذه الشعوب التي تكون الامة الاسلامية والمنضوية تحت دول مختلفة سمي بعضها دولا عربية لها حكومات متعددة تحكم شعبا عربيا واحدا معظمه مسلمون، وسمي البعض الآخر دولا اسلامية لها حكومات تحكم شعوبا متعددة اغلبهم مسلمون، وتوحيدها يكون بتوحيد ثقافتها وانظمتها ومناهج تعليمها وسياستها الخارجية والداخلية وازالة الحواجز الجمركية فيما بينها وحرية التنقل وتوحيد النقد وغير ذلك.

وقد نشأ الخلاف الكبير في مطلع القرن العشرين بين دعاة الوحدة الاسلامية ودعاة الوحدة العربية، ولم يتمكن دعاة الوحدة الاسلامية من الاستمرار في العمل لها لوجود عوامل مما تركه الاستعمار والاحتلال الاجنبي والتخلف الفكري وضبابية الفهم للإسلام ونزعات القبلية والتسلط وتمسك الحكام والامراء والملوك كراسيهم وضعف الايمان والتقوى عند بعضهم وغيرها، فصرفوا النظر عن الدعوة للوحدة الاسلامية. واستمر دعاة الوحدة العربية في دعوتهم وجندوا اقلامهم وافكارهم لها، وحشدوا جموعهم واحزابهم وزعماءهم وتشدقوا بالفاظ الوطنية والقومية والكبرياء القومي والوحدة، ونشأ ابناء العرب في القرن العشرين ينشدون الاناشيد التي تمجد هذه الدعوة الى الوحدة وانشئت مؤسسات ومنظمات وحدوية، ولكن الواقع كان يشهد فرقة وتمزقا وتمسكا بالنزعات القبلية والولاءات الاقليمية كالفلسطينية والسورية والاردنية والمصرية والفرعونية والمغربية والجزائرية وغيرها بحسب الدول او الدويلات او الامارات التي نشأت، ولم تفلح منظمة الجامعة العربية ان توجد اي نوع من انواع الوحدة العربية، وبذلك اصبحت الدعوة الى الوحدة العربية جعجعة في الهواء وطحنا ولاقمح ولاطاحون.

واصبحت الدعوة الى الوحدة الاسلامية الى تلاقي حكومات ومؤتمرات فأنشئت منظمة الدول الاسلامية وكانت كسالفاتها منظمة الجامعة العربية.

جوانب من الابعاد العالمية

في الشريعة الاسلامية

عبدالكريم آل نجف

قم - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

تأخذ الشرائع والنظم أهميتها في حياة الانسان مما يتمتع به من خصيصة مدنية تجعل الحاجة الى تنظيم العلاقات الاجتماعية أمراً مصيرياً تقوم به تلك الحياة .

وقد عرف الانسان في تاريخه نوعين من وسائل التنظيم الاجتماعي هما :

١ - الشرائع السماوية .

٢ - النظم الوضعية ، و تلحق بها الاعراف والتقاليد الاجتماعية التي وضعت من

قبل الانسان و تعارف الناس عليها بعد ذلك .

و تحضى الشرائع السماوية بثلاثة امتيازات أساسية على النظم الوضعية هي :

١ - ان صدور الشرائع السماوية عن مصدر علوي هو مصدر الوجود والكون وله

حق ذاتي في التشريع والتوجيه يجعلها متوفرة على عنصر الالتزام الذي يُعد عنصراً

ضرورياً في عملية التنظيم الاجتماعي بينما تفتقد النظم الوضعية الى هذا العنصر و

يمكن تصوير الفرق بينهما من هذه الجهة من خلال المقارنة بين أسرة يقودها الأب و

يدعن لكلمته كافة الافراد نتيجة لتسليمهم المسبق بحقه الذاتي في التوجيه وما له من

المقام المعنوي لديهم ، و أسرة أخرى فقدت ذلك الأب وأصبح موقعه المركزي فيها شاغراً، و الابناء نظراء متكافؤون بأنف الواحد منهم أن تكون لغيره مزية عليه. و هذا يكون الجو مهيباً للنزاع حول القضايا المشتركة بينهم ولأجل حلّ الازمة يلجأون الى عقد اتفاق بينهم يقوم مقام الدور المركزي الغائب للأب .

و هكذا يتضح أن النظم الوضعية طريق ثانوي يُلجأ اليه عند فقد الشرائع السماوية وأن الشرائع السماوية طريق لاكتشاف الحق و إلزام المجتمع البشري به، بينما النظم الوضعية محاولة لحل الازمة الناشئة عن تغييب الشرائع السماوية فالعقد الاجتماعي الذي نادى به جان جاك روسو عاجز عن اكتشاف الحق وعن إلزام المجتمع به، وبالتالي فهو ليس بديلاً عن الشرائع السماوية، وانما هو خيار يفرض نفسه و يُلجأ اليه اضطراراً عند فقد الطريق الطبيعي والصحيح للتنظيم الاجتماعي، ومع وجود هذا الطريق تصبح النظم الوضعية غير مشروعة .

٢ - والى جانب عنصر الإلزام يتمتع الاب بتأثير روحي على أبنائه مما يساعده على انعاش الروح الاخلاقية في الأسرة، وهكذا الأمر في الشرائع السماوية فان انبثاقها عن مصدر علوي يجعلها تحضى بتأثير روحي فعّال في الاسرة الانسانية بنحو يتيح لها أن تكون شرائع أخلاقية، وهو امتياز تعجز النظم الوضعية عن بلوغه .

٣ - ومن الطبيعي أن تحمل الشرائع السماوية خصائص الكمال التي يحضى بها مشرّعها الخالق الحكيم، بينما تنعكس على النظم الوضعية خصائص الضعف التي تكتنف الانسان الذي وضعها .

وإذا جمعنا هذه الامتيازات الى بعضها و دققنا النظر فيها أمكننا الخروج بفكرة مفادها أن الشريعة السماوية لا يمكنها إلا أن تكون عالمية، و ان النظم الوضعية لا يمكنها إلا أن تكون قومية . طبعاً باستثناء حالات الانحراف في الشرائع السماوية كما

في التوراة الحالية، و حالات الشعار الفارغ في النظم الوضعية كما في الاممية الاشتراكية .

فان صدور الشريعة من جهة سماوية عليا ذات كمال مطلق يجعلها شريعة عالمية بطبعها تنظر للبشرية بعين المساواة على انهم افراد اسرتها الواحدة، كما ان توفر عنصرى الالزام والتأثير الروحي فيها يجعلانها قادرة بكفاءة على كبح جماح الانانية التي قد تؤدي ببعض الافراد والجماعات الى التعالي على الآخرين والاستئثار على حسابهم. كما أن الطبيعة المحليّة المتأصلة في الانسان، و نزوعه العميق نحو الدائرة الانانية الضيقة، يجعل النظم الوضعية الصادرة عنه نظاماً قومية بطبعها، ومن هنا ظهرت القومية في الحياة الدولية المعاصرة كحتمية لا مناص منها في بناء الدولة والمجتمع الدولي الحديث . وهي حتمية صادقة من جهة وكاذبة من جهة ثانية، فهي صادقة لأن الانسان الحديث قطع ارتباطه بالسماء وتحصّ بالولاء لنسبه الارضي، ومن الطبيعي أن يوالي كل انسان البقعة والدائرة القومية التي ينتمي اليها بطريقة انانية، وهو اختيار يفرض نفسه كحتمية على الانسان الذي فقد توازنه بين الارض و السماء و نظر الى الأرض على انها الانتماء الاول والاخير له . وهي كاذبة بالنسبة للانسان المتوازن الذي لا يتنكر لأبوة السماء له عندما يتمتع بدفئ الامومة الارضية مهما كانت لذيذة.

و هكذا يتضح لنا أن عالمية الشريعة الاسلامية تتعالى على الاثبات والبرهنة وانها اتجاه طبيعي ومتأصل فيها، وهو متجذر في عمق عقيدة التوحيد و مستوعب لكل جوانب التشريع الاسلامي، وأبرز مظاهر ذلك أن الاسلام ميّز بين الخصائص المحلية والخصائص الجوهرية في الانسان، وقد جعل موضوعه الدائم والجهة التي يخاطبها في الانسان هي الخصائص الجوهرية كالعقل والعلم والفكر والروح والاخلاق والقيم.

ولم ينظر الى الخصائص المحلية كاللون والوطن واللغة والقومية كأساس في أي من مجالات الحياة، وقد نلمس في بعض المؤشرات العقائدية والتشريعية ما يشير الى نوع من الاعتبار لهذه الخصائص و لكننا إذا ما دققنا النظر فيها وجدنا ان الشارع حتى في مثل هذه الحالات لم يخرج عن نهجه في اعطاء الاصلة دائماً للخصائص الجوهرية . وما أعطاه للخصائص المحلية لا يخرج عن دور التبعية المحكومة بضوابط الخصائص الجوهرية.

وهذا هو قانون التوازن الذي تسير عليه الشريعة و تزداد به واقعية و متانة حيث تعطي لكل شيء حقه و تضعه في موضعه المناسب له دون افراط أو تفريط .
و إذا أمعنا النظر في الجوانب المختلفة للشريعة الاسلامية وجدنا كل واحد منها يشتمل على عدة أبعاد عالمية، فهناك أبعاد عالمية في النظام العبادي، و أخرى في النهج الاخلاقي، و ثالثة في النظام الاجتماعي و رابعة في النظام السياسي و خامسة في الجانب الحقوقي، و سادسة في الجانب الثقافي .
ونحن في هذه الدراسة لا نستطيع تسليط الاضواء على كافة هذه الابعاد والجوانب . ولذا سنتصر على دراسة الابعاد العالمية العبادية والاخلاقية والاجتماعية.

الابعاد العالمية في العبادات الاسلامية

يمكن تقسيم الأبعاد العالمية في العبادات الاسلامية الى قسمين :

١ - الأبعاد العامة التي تدخل في أكثر من فريضة عبادية .

٢ - الأبعاد الخاصة بفريضة دون أخرى .

أولاً - الابعاد العامة

وهي أربعة أبعاد :

١ - تكريس الاعتقاد التوحيدي والتذكير بالخصائص الانسانية الاصلية المشتركة .

فإن جوهر العبادة يتمثل بتحويل التوحيد من اعتقاد نظري الى ممارسة روحية عميقة ذات تأثير جذري في سلوك الانسان بنحو يكرّس في ذاته روحية الانتماء للمحور الكوني المطلق و يعمق حالة التبعية له و يصادر تمحور الانسان حول ذاته، و حينما تقوم العبادة بهذا الدور فانها تجفف منبعاً مهماً من منابع العصبية، ذلك ان العصبية تقوم على أساس شعور متضخم بالذات الى حدّ تصبح معه النفس هي المحور الذي يدور الانسان حوله، وهي الحالة التي يعتبرها القرآن حالة عبوديّة الانسان لذاته، قال تعالى: ﴿أرأيت من اتخذ الهه هواه﴾^(١).

و حينما تقوم العبادات الاسلامية بتذويب هذه المحورية و تعبئة الانسان في المحور الكوني المطلق فانها تقوم بمعالجة أهم أسباب العصبية، و بزرع أهم بذور الروح العالمية الايجابية المتفتحة لدى الانسان .

ان التذكيرات المتكررة في الصلاة هي تذكيرات مؤكدة بالمحور الكوني المطلق وان سجود الانسان لله سبحانه و تعالى يدل على فناء محورية النفس و اندحارها أمام الخالق العظيم.

كما ان سجود الانسان على التراب و أمثاله اشعار دقيق بالمنشأ الانساني الواحد بوصف ان التراب هو المادة الخام التي خلق منها الانسان، و المنشأ الواحد الذي يتآخى البشر عنده و هكذا تتصاغر النفس و تفقد محوريته و تدعن بانحطاط منشأها المادي و تشعر بالمساواة التامة مع باقي افراد العائلة الانسانية و هذه المعطيات العالمية التي تقدمها الصلاة، يقدمها الحج أيضاً، و يقدمها الدعاء كذلك. بكيفيات و أنحاء أخرى.

٢- التقليد :

تتفق المذاهب الاسلامية كافة على ان عبادات المكلف ومعاملاته لا تتم على الوجه الشرعي الصحيح ما لم يُقلد مجتهداً جامعاً لشروط الفتوى والاجتهاد، سوى ان المذاهب الاربعة حصرت الاجتهاد بأربعة فقهاء لأسباب تاريخية معينة، بينما آمن مذهب أهل البيت بانفتاح باب الاجتهاد وان حصر الاجتهاد بزمان دون آخر أمر لا مبرر له.

والذي يهمننا من ذلك ان مبدأ التقليد الذي يقوم عليه السلوك الشرعي للأفراد والمجتمع قد صهر المجتمع الاسلامي في بوتقة واحدة و ساعد على اذابة العصبية و اقرار الروح العالمية، ذلك ان تبعية المسلم العربي لمرجعية فقيه فارسي أو تركي، أو تبعية المسلم الفارسي لمرجعية فقيه عربي أو تركي موقف لا تخفى آثاره الايجابية في مكافحة التعصب الوطني والقومي واللغات المختلفة، فالاحناف من الفرس والترك والعرب يقلدون فقيهاً فارسياً هو النعمان بن ثابت، و المالكية من العرب والبربر و باقي القوميات يقلدون مالك بن أنس وهو عربي من المدينة المنورة أصله من احراء حمير الفحطانيين و يكثر اتباع محمد بن ادريس الشافعي المطلبي القرشي بين العرب والکرد.

وهكذا الامر في الفقهاء الآخرين من القوميات و المذاهب الاسلامية الأخرى مما أوجد تشابكاً رائعاً بين المسلمين ما كان بالامكان تحقيقه لولا مبدأ التقليد الذي يقوم عليه السلوك الشرعي للمكلفين .

٣- اللغة العربية

اللغة العربية هي لغة العبادات والادعية والمناجاة، وبالتالي فهي أحد الابعاد العالمية التي ينطوى عليها نظام العبادات الاسلامية، ولو قدر لأحد الاشراف على كافة

المصلين في العالم عندما يؤدون الصلاة بلغة واحدة هي اللغة العربية، أو يستمع إلى تلبية الحجاج وهم يؤدون مناسك الحج و يرددون الفاظه بلغة واحدة هي اللغة العربية سيدرك سراً من اسرار قدرة الاسلام على انجاز المجتمع العالمي الذي عجزت الايديولوجيات الاخرى عن تحقيقه، ونكتفي بهذا القدر من الاشارة الى اللغة العربية .

٤- القبلة :

وهي بعد عالمي مشترك بين الصلاة والحج، فهي القبلة التي يتجه إليها المسلمون في الصلاة، يومياً خمس مرات، والمحور الذي يطوف حوله الحجيج عند ادائهم للحج، كما انها بعد مستقل بنفسه حيث يستحب الجلوس باتجاه القبلة .

وفي الصلاة تلعب الكعبة دورين شعوريين عالميين، يتمثل الاول بترسيخ الشعور الوحدوي بين المسلمين، فالمسلمون في كل بيت وقرية ومدينة وبلد يتجهون في صلواتهم الخمسة الى جهة واحدة، ولو قدر لنا الاشراف عليهم من أعلى والنظر إليهم عند اداء الصلاة لوجدنا العالم الاسلامي برمته عند شروع الصلاة يتحلق بدوائر متتالية تستوعب الارض حول محور الكعبة في حلقات متداخلة ذات مركز واحد تتجه كافة النقاط نحوه، وهي صورة وحدوية رائعة تتكرر خمس مرات في اليوم الواحد ويتمثل الثاني بانتزاع الشعور الوطني العنصري لدى المسلم وترويضه باتجاه العالمية، لأن المسلم حينما يقدس بقعة ليس من أرضه و يمنحها الولاء والاولوية على مسقط رأسه، انما يتلقى تربية مركزة على المواطنة العالمية وتقليل الاتجاه نحو الوطنية الضيقة، وإذا لاحظنا الى جنب ذلك ان محورية الكعبة ليست محورية أرض و انما هي محورية التوحيد التي تشيع الامن والسلام على بقعة هي الحرم المكي، وزمان هو الاشهر الحرم الاربعة التي يحرم القتال فيها، وبالتالي فهي محورية القيم الروحية والاخلاقية التي جعلها المسلم قبلته في الصلاة و آمن بها كأقدس بقعة بما يصادر لديه

روحية التعصب الوطني، إذا لاحظنا ذلك أدركنا ما ستركه من أثر توجيهي و ثقافي كَلِّي من شأنه ترسيخ محورية القيم الاخلاقية والمعنوية في حياة الانسان و مكافحة القيم الارضية والغريزية .

و تواصل هذه العملية الشعورية طيلة اداء المسلم للصلاة، حتى إذا وجب عليه الحج انتقلت هذه العملية الى مرحلة أرقى و أكثر عطاءً، فبعد أن كانت الكعبة قبلة في الصلاة أصبح محور الطواف في الحج، بما يجسّد أن تقديس المسلم لها قد بلغ الذروة و ان استعداده للتخلي عن تعصباته المحلية قد وصلاً أوجه .

ان الطواف حول مركز التوحيد في الارض من شأنه أن يجعل الخصائص الطارئة على شخصية الانسان تتطير من حوله بفعل القوة الطاردة المركزية للكعبة. والتعصبات المحلية من جملة تلك الخصائص، ومن شأنه أيضاً تعميق الخصائص الاصلية بفعل القوة الجاذبة المركزية للكعبة، والعالمية تأتي في مقدمة تلك الخصائص.

ثانياً - الابعاد الخاصة :

وهي بعدان : -

١ - صلاة الجماعة

تساهم الصلاة بدور كبير في ايجاد المجتمع العالمي الذي ينشده الاسلام فاضافة الى المضمون العبادي والاخلاقي الذي ترفده به هذا المجتمع بما يحتاج اليه من مقومات روحية و معنوية تشكل الاساس الذي يقوم عليه المجتمع العالمي الحقيقي، نجد هذه الفريضة تساهم مساهمة مباشرة من خلال انطلاقتها البتاءة من الساحة الفردية الى الساحة الاجتماعية واهتمامها المؤكد بالحضور الفاعل في الحياة الاجتماعية، و ذلك عبر شعائر صلاة الجماعة والجمعة التي جاءت لتبين ان

العبادة ممارسة تبدأ فردية وتنتهي اجتماعية لتحقيق الهدف المركزي للاديان المتمثل بالترقية النوعية للفرد و المجتمع .

ان الصلاة كتلة عبادة تمثل بمجموعها صورة رمزية للانسان الكامل والمجتمع المثالي في الاسلام. وبفضل عنصر التكرار ترسخ هذه الصورة في ذهنية الفرد المسلم وتعمل على ترقيته بالاتجاه المطلوب، ونجاحها في هذه المهمة يعتمد على درجة وعي الفرد ومدى قدرته التحليلية على فهم واستيعاب عناصر ومدائل تلك الصورة الرمزية . وما تنطوي عليه من قيمة بناءة و ايجابية .

و العنصر الجماعي في الصلاة هو من جملة تلك الرموز التي تكمن فيها أنساق الحضارة الاسلامية وهو عنصر يكشف عن التوازن بين الفرد والمجتمع، و امتزاج النشاط العبادي بالممارسة الاجتماعية اليومية واشتمال الاسلام على الدين و السياسة معاً. و قيام الحضارة الاسلامية على أساس فكرة الجماعة والمحبة بين الافراد، خلافاً للحضارة الغربية التي استولت عليها فكرة الصراع فلسفياً واجتماعياً كما سيأتي بيان ذلك في دراستنا للأبعاد الاجتماعية .

ان العنصر الجماعي في العبادة يلعب دوراً مهماً في محاربة العزلة و يفرس في الفرد شعوراً جماعياً و يذيبه في حس عام، و يجفف من خلال ذلك روح التكبر و التفوق والاستعلاء التي تنبت في العزلة والانغلاق على الذات والطبقة والفئة، و تموت في الجو الاجتماعي المنفتح الذي يلمسه المسلم في الصلاة الجماعية عندما يقف فيها الى جانبه أو أمامه افراد يمثلون طبقات اقتصادية أو قبلية أو قومية مختلفة . فيشعر بوحدة عارمة تهيمن على الجميع و تربطهم برباط الاخوة العقائدية وتزيل عنهم مشاعر الطبقية والعصبية والفتوية وتصهرهم في بوتقة مقدمة هي بوتقة العبودية لله سبحانه وتعالى وكان صلاة الجماعة محاولة تربوية يراد بها تطهير عالم الشعور لدى

المصلي من ادران العصبية واجلاء حالته الانسانية الاصيلة، و يجري التأكيد على هذه المحاولة و تكرارها في اليوم الواحد خمس مرات وعلى مدى العمر للمحافظة على الفطرة الانسانية نقية طاهرة حتى إذا استوفيت عند الممات يكون المؤمن قد أدى الامانة سالمة الى صاحبه الاصيلي وهو الله سبحانه وتعالى، تماماً كحالتها عند استلامه لها في اليوم الاول لولادته .

وكما يسترشد الشعور العالمي لدى المسلم القوة من الجماعة المؤمنة التي ينظم اليها ، كذلك يسترشد هذا الشعور بالقوة من وقوفه خلف امام يختلف عنه في أكثر الاحيان من حيث الطبقة والانتماء القومي والمحلي وقد يُعد الامام في القياسات المتعصبة أدنى درجة من المأموم ومع ذلك يأتي المأموم و يصلي خلفه معبراً بذلك عن تخليه عن تلك القياسات الباطلة والتزامه بالمقياس الاسلامي التليد القائل :

﴿ إِن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾^(١).

الذي يعبر عنه بالفقه الاسلامي بشرط العدالة في امامة الجماعة .

وقد لعبت صلاة الجماعة دورها الفاعل هذا في عملية التغيير الاجتماعي حيث أدت بمن كان يُعد من ذؤابة القوم الى التراجع، و دفعت الى الطليعة افراداً كانوا يعدون في المرفاة المتاخرة من السلم الاجتماعي فالمجتمع الذي كان يأنف من لقاء أفراد كبلال الحبشي صار عليه أن يتقبل و بكل امتنان وصول بلال الى مستوى الصحابي الجليل، أي الطليعة الاجتماعية والسياسية للمجتمع الاسلامي، وهو مؤذن الرسول الذي رقى الكعبة عند فتح مكة، ليؤدي الاذان من على هذا المكان الذي كان يعد عرشاً للسلطة القبلية في مكة. وصار على هذا المجتمع أيضاً أن يتقبل امامة صهيب

الرومي لصلاة كان يحضرها أولي الزعامة القبلية، ولما احتضر عمر بن الخطاب وطلب منه أن يستخلف كان سالم مولى أبي حذيفة قد مات فقال عمر :
(لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لما شككت فيه).

وفي مثل هذه الاحداث قال الشاعر العربي مستنهضا شعوراً قليلاً خاسراً :

هنا صهيب أم كل مهاجر	وعلى جميع قبائل الأنصار
لم يرض منهم واحداً لصلاتنا	وهم الهداة وقادة الاخيار
هذا ولو كان المثرم سالم	حيا لنال خلافة الامصار
ما زال هذه العجم تحيا دوننا	ان الغريب لفي عمى و خسار ^(١)

ان المعاشة الروحية وحدها التي تستطيع ان تعرف الانسان حجم الدور التغييرى الذي تلعبه الصلاة في فكر ونفس الفرد عندما يقف أثناءها خلف فرد قد تخذله كل المقاييس المتعصبة ولا ينصره إلا المقاييس الايماني فيسحق المأمومون تلك المقاييس التي قد تغذي مصالحهم الاجتماعية الخاصة و يقبلون على الصلاة خلف ذلك الفرد. وقد يلاحظ في صلاة الجماعة أحكاماً تبدو في الوهلة الأولى متناقضة مع هذه الرؤية، كالحكم الذي تذكره مصادر الفقه الاسلامي حول مرجحات تقديم امام على آخر بعد احراز شرط العدالة .

لنقرأ النص التالي الوارد في كتاب «شرائع الاسلام»: قال المحقق الحلي :
«من قدمه المأمون فهو أولى، فان اختلفوا قُدم الاقرأ فالأفقه فالأقدم هجرة فالاسن فالاصبح»^(٢).

فان التقديم بصباحة الوجه لا ينسجم مع الرؤية التي تم بيانها عن صلاة الجماعة

(١) الالوسي، محمود شكري، بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ج ١ ص ١٦٨ .

(٢) المحقق الحلي ، جعفر بن سعيد ، شرائع الاسلام، ج ١ ص ١٢٥ ، مطبعة الآداب ، النجف .

لكن التأمل الدقيق يقودنا الى نتيجة تنسجم مع هذه الرؤية، فبعد احراز شرط العدالة تبحث الشريعة عن عناصر من شأنها تأكيد الجماعة و الاكثار من فرادها فتقدم الامام الذي يتوفر على هذه العناصر على من سواه، فالترجيح باختيار المأمومين يساعد على هذا الغرض و يبين احترام الشيعة لشخصية المكلفين، و الترجيح بالاقراءة من شأنه أن يرسخ عنصراً من عناصر عالمية المجتمع الاسلامي وهو اللغة العربية.

كما انه عنصر يتعاطف معه المجتمع الاسلامي و يتلقاه بالقبول بما يؤدي الى تأكيد الجماعة و ترسيخها، والترجيح بالافقهية يتجانس مع الوظيفة الاجتماعية لامام الجماعة، فان امام الجماعة هو المرجع الذي يعود اليه أهل المحلة أو المدينة لحل مشاكلهم، ولا شك ان الاعلمية في الفقه تمنحه أهلية أكثر على الحلول و قدرة أكبر على استقطاب المجتمع وبالتالي نجعله أقدر من غيره على لّم الشمل و توحيد الصف، والترجيح بالأسنية ترجيح بعامل اجتماعي له دوره المعروف في الحياة الاجتماعية، والترجيح بالاقدمية في الهجرة يتجانس تماماً مع مقياس التفاضل بالتقوى، فان الاقدمية بالهجرة تعني الاسبقية الى التقوى والاستعداد الاكبر للخدمة والدرجة الاعلى من الولاء للدولة الاسلامية والمرجح الاخير الذي تدور حوله الشبهة يأتي في هذا السياق، فكأن الشارع يريد أن يجند كل ما بوسعه من العناصر الاجتماعية التي من شأنها تحشيد و تعبئة و تحفيز الحس الاجتماعي العام على الحضور والمشاركة في صلاة الجماعة، ولا يشك أحد في ان جمال الهيئة عنصر مؤثر في الجذب ولذا يحاول الشارع تجنيده لصالح الجماعة، وقد جعله المرجح الاخير لان المرجحات السابقة ترجع بنحو ما الى اعتبار شرعي، أما الاصلحية في الوجه فانها اعتبار اجتماعي من حيث الاساس .

ولاجل ما تقدمه صلاة الجماعة من عطاء روحي و اجتماعي لصالح وحدة

الجماعة المؤمنة وعالميتها فقد ورد الحث الشديد على حضورها و الدعوة اليها ببيان فضلها تارة و عقوبة التارك لها تارة أخرى.

فمن فضلها ما جاء عن النبي (ص):

«ان صفوف أمتي كصفوف الملائكة والركعة في الجماعة أربع و عشرون ركعة كل ركعة أحب الى الله عز وجل من عبادة أربعين سنة»^(١).

وفي العقوبة على تركها ما ورد مكرراً عن النبي (ص):

«انه همّ باحراق منازل تاركي الجماعة»^(٢).

ولأجل ذلك أيضاً أخذت صلاة الجماعة طابعاً تسامحياً في كثير من أحكامها كسقوط وجوب القراءة على المأموم وصحة الالتحاق بالجماعة وان لم يكن مواكباً لها في القراءة وكفاية حسن الظاهر في اثبات عدالة الامام .

٢ - الحج :

ان فريضة الحج مزيج متجانس رائع من العقيدة والعبادة والسياسة والاجتماع يمارسها المجتمع المسلم بشكل سنوي لترقى به في سلم الكمال روحياً وحضارياً ولا يهمننا هنا الحديث عن الابعاد المتكاملة للحج، انما الذي يهمننا دوره في بناء المجتمع العالمي في الاسلام، و موقعه ضمن تشكيلة الأبعاد العالمية في الشريعة الاسلامية، ولأجل ذلك لا بد لنا من أن نخضع هذه الفريضة لنظرة تحليلية فاحصة، ليتبين لنا ان القاعدة الاساسية للحج تتمثل بعقيدة التوحيد، وان هذه الفريضة يسيطر عليها الطابع التوحيدي و بتركيز شديد، يتضح ذلك من النظر الى احكام الحج الدقيقة جداً و شعائره و عباداته، ومن المعلوم ان التوحيد ليس فكرة تجريدية نظرية، بل هو شعور

(١) الحر العاملي ، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ٨ / ٢٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٩١ - ٢٩٣ .

حيوي يشع على الحياة الانسانية بمفاهيم اجتماعية متحركة و فاعلة يأتي في مقدمتها مفهوم العالمية الذي يتجلى أثره في الحج منذ اليوم الأول لممارسة المسلم هذه الفريضة .

فان المسلم يؤدي كل عباداته في محل سكنه سوى الحج فانه يحتاج الى سفر باتجاه أرض أخرى، وهذا يعني الانخلاع عن الروابط المحلية والاتجاه نحو روابط أخرى - أرض، لغة، مجتمع، هي بنظر المسلم الروابط المثالية التي تستحق الدرجة العليا من الولاء والانتماء. فيبدأ الحاج بترك المدينة والاهل والاقارب والعادات والرسوم متجها روحيا وفكريا نحو بقعة و مجتمع و مناسك و علاقات أخرى. وهي بداية توحى بالانسلاخ عن الخواص المحلية والاستعداد للتخلي بالخواص العالمية، حيث سيكون كل شيء هناك عالمياً الارض واللغة والمجتمع والمناسك واللباس. و يتصاعد هذا الشعور حتى يبلغ مستوى مؤثراً عند الميقات حينما يخلع الحاج ثيابه التي هي آخر ما تبقى لديه من خواصه المحلية ليرتدي بدلاً عنها ثياب الاحرام التي تنتسب لأرض التوحيد فقط ولا تنتسب لأي قومية أو وطنية معينة .

ان نقطة الميقات هي نقطة الفصل بين الشخصية القومية المتلاشية التي فقدت أرضها و مجتمعها و ثيابها و اعرافها و تقاليدها، والشخصية العالمية المتولدة في أرض جديدة هي أرض التوحيد والمنتسبة لمجتمع جديد هو مجتمع الموحد من كافة اقطار واجناس الارض والمتكلمة بلسان عالمي هو اللغة العربية لغة الشعائر والعبادات والثقافة الاسلامية وعملية الاستبدال هذه بمفردها كافية لأن تشعر الحاج بأن الشخصية المحلية التي ألفها في حياته ليست مما ينبغي التمسك به، وهذا بحد ذاته شعور معطاء، لأن عنصر الألفة من شأنه أن يضيف على الشخصية المحلية لونا من الثبات الحتمي المتعصب المنغلق في دائرة الانا المحلية الضيقة. وكأنها كل شيء وما

عدها لا شيء. بل ان الحج لا يكفي بهذا القدر بل هو يقول للحاج: ان الشخصية العالمية التي سترديها في البقاع المقدسة هي النموذج الاخير لتكامل الشخصية الانسانية وان الشخصية المحلية لم تحصل على التهذيب المطلوب ولذا وجب الانخلاع عنها والاتجاه نحو الشخصية العالمية التي تستحق الولاء والانتماء، فلا ولاء أعلى من الولاء لمكة ولا انتماء أعلى من الانتماء لمجتمع الحجيج .

و واضح ان عطاءات الشعورية هذه لا تنحصر بمجتمع الحجيج بل هي نعم كافية المسلمين الذين يشاطرون الحجيج بذلك و يشاركونهم روحيا و عاطفيا و فكريا في كل ما يقومون به من اعمال و مناسك .

ثم يمضي الحاج قدماً حتى يصل الكعبة المعظمة ليطوف حولها فيكون قد بلغ الذروة في الانقطاع عن الشخصية المحلية والذوبان في الشخصية العالمية التوحيدية وقد استطاع الحج من خلال أدواره التربوية والروحية هذه من لعب دور مؤثر في تكوين الوحدة الاجتماعية بين المسلمين والتعالي على الفوارق القومية التي بينهم .

يقول د. فيليب حتي :

(... فالحج أتاح للزنج والبربر و الصينيين والفرس والسوريين والترك والعرب، الفقير منهم والغني، والرفيع والوضيع، أن يجتمعوا و يتآخروا على أساس الايمان المشترك ... ولا شك في أن الاجتماع في موسم الحج له الفضل الأكبر في تحقيق هذه الغاية)^(١).

يقصد القضاء على الفوارق القومية بين المسلمين .

و ضمن حديثه عن روافد الشعور بالوحدة في العصور الاسلامية أشار الدكتور

حسين مؤنس الى فريضة الحج بقوله :

(... أما الحجاج فقد كانت قوافلهم تشق أرجاء العالم الاسلامي في مسيرة دائمة لا تتوقف ولا تبالي بالعقبات الطبيعية من جبال و صحاري و بحار، ولا تراخي بسبب أخطار الحروب والقلاقل والفتن، فقد كان حجاج بيت الله الحرام من الاندلس والمغرب والسودان والصين والملايو يخرجون في رحلة الحج قبل مواعده بعام أو أكثر أو أقل، ومعنى هذا انه في كل وقت تقريباً كانت هناك قوافل حجاج تقصد بيت الله الحرام، أو تعود منه الوف بعد الوف من الناس يخرجون من اطراف الارض الاربعة و وجتهم بيت الله ... فكأنما قواف الحج كانت أسلحة محارث قوية تشق الارض الاسلامية وتقلب تربتها و تأذن لشمس العقيدة في أن تتخللها في عمق و تبعث فيها الحياة، وهذا ولا شك كان في تقدير الخالق سبحانه حينما فرض على أمة الاسلام الحج الى بيته الحرام)^(١).

لقد جاء الاسلام والعرب يمارسون الحج لكنه كان حجاً تتخلله الجاهلية و تشوبه مفاهيمها، فكانوا يتخذونه موسماً للتفاخر بالآباء والانساب، وهذا يعني ان الشخصية المحلية كانت مسيطرة على أجواء الحج. فجاء القرآن ليدعو الى ذكر الله بدلاً عن ذكر الآباء. قال تعالى:

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا ذَكَرْتُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾^(٢).

وقد كرس النبي الاعظم (ص) الدور العالمي للحج في حجة الوداع عندما خطب

في المسلمين خطبته الاخيرة التي كان منها قوله :

«أيها الناس إن ربكم واحد و أباكم واحد كلكم لآدم و آدم من تراب ان أكرمكم

(١) مؤنس ، د. حسين ، عالم الاسلام ، ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٢) سورة البقرة - الآية : ٢٠٠ .

عند الله أنفاكم ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»^(١).

الأبعاد العالمية في الاخلاق الاسلامية

تحضى المسألة الاخلاقية باهتمام واسع النطاق في الاسلام، بل الاسلام في جوهره مسألة أخلاقية بالمفهوم الحيوي لا الانغزالي للاخلاق، يظهر ذلك من التأمل في برامج الاسلام السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والقضائية التي تنبع من روح أخلاقية. فإذا كانت الاخلاق تعني رعاية حقوق الآخرين بل ايثار «الآخر» على «الأنا» فان هذا المعنى لا يمكن أن يتحقق إلا في ظل الدين الذي يجعل عالم الغيب محور الوجود و عالم الشهادة تابعاً له فان «الآخر» هو المدلول الاجتماعي والاخلاقي لعالم الغيب، و «الأنا» يمثل المدلول الاجتماعي والاخلاقي لعالم الشهادة، وبالتالي فان محورية الغيب لعالم الشهادة تنعكس على الساحة الاجتماعية بصورة مثل اخلاقية تعطي الاولوية لحقوق «الآخر» و مصالحه على مصالح و حقوق «الأنا» .

و من هنا كان الاسلام قيمة اخلاقية و كانت الاخلاق حقيقة دينية قبل أي شيء آخر، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى فان الاخلاق عالمية بطبيعتها فان الشجاعة فضيلة في كل بلد ومن كل فرد، والجبين رذيلة سواء ظهر في هذه القبيلة أو تلك القومية، ولا معنى لتحديد الفضيلة بحدود جغرافية أو قومية بحيث إذا تعدتها أصبحت رذيلة، وهذه خصيصة جوهرية في الاخلاق بمعنى ان وضع الحدود الجغرافية والقومية على فضيلة معينة من شأنه أن يصادرها و يحولها الى رذيلة وهذا ما يكشف عن الماهية السلبية للقومية .

(١) الحسيني، هاشم معروف، سيرة المطفى ص ٦٩١ ط ١ .

ان الاخلاق تنبعث من الروح، والروح جوهر ثابت لا يختلف من انسان لآخر : فالروح هي الاخرى عالمية بطبيعتها، واذا كان معنى الاخلاق هو قيام «الأنا» برعاية حقوق و مصالح «الآخر» بل واثيره عليها، فهذا جوهر العالمية التي تعني وحدة الانسانية و تعاليتها على الانتماءات المحلية الهادفة الى تمايز القوميات وغلبة بعضها البعض الآخر .

وعندما ثبتت عالمية الاخلاق، فانما ثبت في الوقت نفسه اخلاقية العالمية بمعنى ان العالمية فضيلة كباقي الفضائل الاخلاقية التي لا يمكن للمجتمع الانساني أن يحيا بدونها .

فهي تعني ان تقوم «الانا» القومية برعاية مصالح و حقوق «الآخر» القومي والحيلولة دون تحول الانتماء المحلي لأي تعصب تتمدد فيه «الانا» القومية على حساب «الآخر» القومي، بل هي أكثر من ذلك تطارد التعصب و تعالج المفردات التي يتكون منها .

فلو اننا ألقينا نظرة فاحصة على التعصب بكل دوائره الفردية والقبلية والقومية والوطنية وجدناه يتمحور حول «الأنا» فالذي يرى نفسه و مصالحه ولا يرى غيره أناني، والذي يدافع عن نفسه بالباطل متعصب والذي يباهي بنفسه مغرور، والذي يتبجح بنفسه فخور، والذي يرى نفسه فوق الآخرين متكبر . وقد تكفلت الاخلاق الاسلامية بمكافحة كل هذه العناوين و الحالات لتصل الى مجتمع فاضل خال من العصبية بكل مظاهرها و درجاتها و أبعادها و جذورها فان الانانية و التكبر والغرور والعجب والفخر كلها رذائل تمثل بعضها جذوراً للعصبية كالانانية فيما يمثل الباقي منها مظاهر لها، وقد اهتمت الاخلاق الاسلامية بمكافحة العصبية و جذورها و مظاهرها في آن واحد بما يمكن بيانه في النقاط التالية :

١ - ذم الفخر :

يعد الفخر مظهراً من مظاهر الحياة القبلية المعروفة باستنادها الى العصبية وقد جاء الاسلام والمجتمع الجاهلي كان يمارس الفخر الى أقصى حد، فعمل على مكافحة هذا المظهر، وكان من أهم ما قاله الرسول الاعظم (ص) يوم فتح مكة كلمته المعروفة: «أيها الناس ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، ألا إنكم من آدم و آدم من طين، ألا إن خير عباد الله عبداً اتقاه»^(١).

و روي عن الرسول قوله أيضاً:

«آفة الحب الافتخار والعجب».

وأن رجلاً أتاه قائلاً: يا رسول الله أنا فلان بن فلان حتى عدّ تسعة فقال رسول الله (ص):

«اما انك عاشرهم في النار»^(٢)

وعن الامام السجاد (ع) انه قال:

«عجباً للمتكبر الفخور الذي كان بالامس نطفة ثم هو غداً جيفة»^(٣).

وكان الفخر يجري في صور متعددة منها: المعاقرة وهي التنافس في عقر الابل والاطعام للمباهاة، وقد حصلت حالة منها في عهد أمير المؤمنين (ع) بين غالب واله ، الفرزدق الشاعر المعروف وبين سحيم بين وثيل الرياحي حيث نحر غالب ناقة وأعطى منها لقوم من تميم و أهدى الى سحيم جفنه فأنف سحيم من ذلك فنحر في اليوم الثاني ناقة، فلما علم غالب بذلك نحر في اليوم الثالث ناقتين، وأخذاً يتزايدان

(١) التراقي، محمد مهدي، جامع السعادات ١ / ٣٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٦٣ .

حتى نحر غالب مائة ناقة فعجز سحيم عن ذلك وكان زمن مجاعة فجاء اليه قومه يقولون له جريت علينا عار الدهر هلاً نحررت مثلما نحر غالب فاعتذر أن ابله كانت غائبة و نحر نحو ٣٠٠ ناقة، فجاء الناس يسألون الامام (ع) عن حكم هذه اللحوم التي ملأت الأزقة فقال: «انها مما اهل لغير الله» فأكلتها الحيوانات^(١).

وقرأ أمير المؤمنين (ع) يوم ﴿الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر...﴾^(٢) ثم قال: «يا له مرأماً ما أبعد و زوراً ما أغفله و خطراً ما أفضعه ... أقمصارع آباءهم يفخرون أم بعيد الهلكى يتكاثرون ... ولأن يكونوا عبراً أحق من أن يكونوا مفتخراً ولا يهبطوا بهم جناب ذلة أحجى من أن يقوموا بهم مقام عزة ...»^(٣).

ومن هنا عُرّف الفخر في المصادر الاخلاقية بانه: «المباهاة باللسان بما توهمه كمالاً»^(٤). فالفخر لا يقوم على حقيقة وانما على وهم، فان كان الانسان يفخر بأحساب و أنساب فهو افتخار بوهم لان الانسان يقاس بعمله والنسب أمر قهري تكويني لا اختيار للانسان فيه، وان كان الفخر بفضائل و قيم معنوية فالافتخار لا ينسجم معها بل يبطلها و يتناقض معها، فقد مرّ بنا ان الفضيلة هي رعاية حقوق و مصالح «الآخر» و ايثارها على «الأنا» و الفخر يعني تأكيد «الأنا» و تقويتها و إغفال «الآخر» أو الاقلال من شأنه، وان كان الفخر بمنجزات مادية فهي من عطاء الله سبحانه و منحه و ليست نتائج خالصة لاعمال الانسان و تدبيره .

(١) الآلوسي، محمود شكري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٠.

(٢) سورة التكاثر: ١ - ٢.

(٣) نهج البلاغة ص ٣٣٨. تنظيم: صبحي الصالح.

(٤) النراقي، محمد مهدي، مصدر سابق، ١ / ٣٦٣.

٢ - ذم التكبر و مقدماته من العجب والغرور

عرّف الغرور بأنه «سكون النفس الى ما يوافق الهوى و يميل اليه الطبع عن شبهة و خدعة من الشيطان» .
 و عرّف العجب بأنه : «استعظام النفس لأجل ما يرى لها من صفة كمال سواء كانت واقعاً أم لا» .

و عرّف التكبر بأنه : «الركون الى رؤية النفس فوق الغير»^(١).

وإذا ما نظرنا في هذه التعاريف و قارنا بينها و وجدنا الغرور بمثابة المقدمة للعجب، و العجب بمثابة المقدمة للتكبر، و ان التكبر مرحلة أخيرة ناشئة عن العجب و الغرور. لأن رؤية النفس فوق الغير تبني على استعظام النفس، و استعظام النفس يتطلب موافقة الهوى على رؤية اللاشيء شيئاً، و الشيء الصغير كبيراً .

و قد شنت النصوص الإسلامية حملة شديدة ضد التكبر و أوده القرآن بصيغ مختلفة في أكثر من ٥٧ مورداً، في ٤٨ مورداً منها استعمله بصيغة «استكبار» و في ثمانية موارد بصيغة «تكبر» و في مورد واحد بصيغة «كبر» ، و الصيغتان الأولىتان استعملهما القرآن الكريم في موارد التعبير عن التكبر على الله و أنبياءه و رسالاته السماوية، و الصيغة الثالثة ذات المورد الواحد استعملها للتعبير عن تكبر الانسان على أخيه الانسان و ذلك قوله تعالى: ﴿إن في صدورهم إلا أكبر ما هم ببالغيه﴾^(٢).

و المقصود ان اعداء الرسول(ص) ينطلقون في عدائهم له من التكبر عليه .

ان التكبر يكشف عن ميل مفرط لتأكيد الذات و لو تشبثنا بالمغالطة و الخيالات النفسية المحضة التي لا واقع من ورائها، و بالتالي فهو انانية متضخمة و قد رأينا قبل

(١) النراقي ، محمد مهدي، مصدر سابق، ج ١ ص ٣٢١ ، ٣٤٤ ، و ج ٣ ص ٣ .

(٢) سورة غافر / ٥٦ .

قليل ان الانانية من جملة العناصر المكونة للعصبية، ولذا فان التكبر من خصائص المجتمع المتعصب، والتواضع من خصائص المجتمع العالمي وعندما يشتد التكبر بالمتكبر يرى نفسه فوق الانبياء (ع) وهم نخبة البشر ثم يشتد في المكابرة أكثر فيكابر في خالق الوجود ومدبر الكون ، ومن هنا جاء التعبير القرآني عن هذه الحالة بـ «الاستكبار» وهي صيغة استفعال دالة على تكلف زائد في تحصيل المطلوب، وحيث ان المطلوب مما يخالف الفطرة لذا فان التكلف الزائد ناشيء عن انحراف زائد عن الفطرة .

ان المجتمع المتعصب مجتمع متكبر يرى نفسه أفضل في عنصره وخصائصه المحلية من باقي المجتمعات، كما ان هذا المجتمع المتعصب الذي يرى نفسه محوراً لغيره لا يستطيع أن يقبل بمحور آخر يوازيه حتى لو كان هذا المحور هو الله سبحانه وتعالى، ومن هنا كان الشرك من خصائص المجتمع المتعصب المتكبر الذي بلغ الذروة في التعصب للذات، فالمجتمع المتعصب متكبر على باقي المجتمعات و مشرك بالله سبحانه وتعالى، وقد تجسّد هذا الشرك قديماً بمحاربة المجتمعات القبلية للانباء والرسالات السماوية، وحديثاً بتراوح المجتمعات القومية بين الالحاد والعلمانية التي هي كفر مبطن قائم على أساس اطلاق محورية الانسان في الساحة الاجتماعية وحذف محورية الله سبحانه لها وحيث ان التكبر على الله سبحانه هو حالة أسوأ و أشد انحرافاً من التكبر على الانسان لذا فقد ركّز القرآن الكريم على محاربة الأول أكثر من محاربه للثاني، بينما حفلت سيرة المعصومين باستنكار التكبر على الناس و تحييد التواضع لهم، فالقرآن يحارب التكبر على الله المؤدي الى الشرك والغاء المحورية الالهية في الحياة والوجود، والسنة تحارب التكبر على الناس ، القرآن يحارب الجذور و يهدم الاسس الكبرى، والسنة تحارب الامتدادات

الاجتماعية الناشئة عنها .

فقد ورد عن الامام الكاظم (ع) قوله لهشام :

« يا هشام ما من عبد إلا و ملك آخذ بناصيته فلا يتواضع إلا رفعة الله ولا يتعاضم إلا وضعه الله»^(١).

وعن الامام علي (ع) أيضاً :

« واستعيذوا بالله من سوانح الكبر كما تستعيذوه من طوارق الدهر فلو رخص الله في الكبر لأحد من عباده لرخص فيه لخاصة أنبياءه و رسله . ولكنه سبحانه كره اليهم التكابر و رضي لهم التواضع فألصقوا بالارض خدودهم و عقروا في التراب وجوههم ، و خفضوا أجنحتهم للمؤمنين وكانوا أقواما مستضعفين»^(٢).

وعن الامام الصادق (ع) : « ان في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له سقر»^(٣).

ولخطورة الموقف لم يقف الاسلام عند محاربة التكبر بل حارب بداياته و آثاره فحارب العجب والغرور لأنهما من بداياته وقال النبي (ص) :

« ثلاث مهلكات : شح مطاع و هوى متبع و اعجاب المرء بنفسه» .

و حارب السخرية والاستهزاء و التنايز بالالقاب لأنها من آثاره، قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ﴾^(٤).

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الانوار، ج ١ ص ١٣٧ .

(٢) المصدر نفسه، ج ١٤ ص ٤٦٨ .

(٣) المصدر نفسه، ج ٨ ص ٢٩٤ .

(٤) سورة الحجرات : ١١ .

٣ - ذم الانانية

والانانية هي جذور العصبية، لأن الفرد المتعصب يحاول الاستئثار بكل شيء لنفسه وتجريد غيره عن كل شيء، فجاءت الاخلاق الاسلامية لتحارب الانانية وتدعو المؤمن لأن يحب لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه و يكره له ما يكره لها و طالبت بالاهتمام بأمور المسلمين والسعي لقضاء حوائجهم، ثم ارتقت درجة أخرى حينما طالب بالايثار وأن يعطي المؤمن لأخيه المؤمن أكثر و أفضل مما يأخذه لنفسه، قال تعالى في وصف المؤمنين :

﴿ و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون ﴾^(١).

٤ - ذم العصبية

قال الشيخ النراقي: «العصبية هي السعي في حماية نفسه أو ماله اليه نسبة من الدين والاقارب والعشائر وأهل البلد قولاً أو فعلاً فان كان ما يحميه مما يلزم حفظه و حمايته وكان ذلك بالحق من دون خروج عن الانصاف والوقوع في ما لا يجوز شرعاً فهو الغيرة الممدوحة التي هي من فضائل قوة الغضب. وإلا فهو الغضب المذموم، وهو من رداءة قوة الغضب، والى ذلك يشير كلام سيد الساجدين حيث سئل عن العصبية فقال:

«العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليست العصبية أن يحب الرجل قومه ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم».

وقال الامام السجاد عليه السلام أيضاً:

«لم يدخل الجنة حمية غير حمية حمزة بن عبدالمطلب و ذلك حين أسلم عصباً للنبي (ص)»^(١).

وعن النبي (ص):

«من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربة الاسلام من عنقه».

وقال (ص): «من كان في قلبه حبة خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع اعراب الجاهلية».

وقال (ص): «ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية».

الابعاد العالمية للمجتمع الاسلامي

يطلق عنوان المجتمع ويراد به تارة المعنى العام الشامل للانشطة السياسية والثقافية. و تارة أخرى يراد به المعنى الخاص بالروابط الاجتماعية والاسس الدولية للمجتمع. و واضح ان عنوان «الابعاد العالمية للمجتمع الاسلامي يراد به المعنى الخاص للمجتمع، لأن المعنى العام يشمل الابعاد العبادية والاخلاقية والسياسية والثقافية والقانونية التي أفردنا لكل واحد منها بحثاً خاصاً به .

ان المجتمع الاسلامي بالمعنى العام مجتمع عالمي لأنه يقوم على عقيدة و شريعة عالميتين والمجتمع الاسلامي بالمعنى الخاص مجتمع عالمي لأنه يقوم على خمسة أسس عالمية هي:

١ - مبدأ المساواة

فالمجتمع الاسلامي يقوم على قاعدة المساواة في الاحكام والحقوق والواجبات بين أفرادہ وقد أعلن هذه القاعدة يوم كان المجتمع الجاهلي يهزأ بالمساواة ويقول : «الناس سواسية كأسنان الحمير» .

فقال الرسول الاعظم (ص) : «الناس سواسية كأسنان المشط» .

و طيلة العصر الاسلامي الذي يسميه الغرب بالقرون الوسطى أو العصور المظلمة كان الاسلام يحمل شعار المساواة و يدفع الناس باتجاه التطبيق . حتى جاءت الثورة الفرنسية فجعلت المساواة ركنا من أركانها .

وفي عام ١٩٤٧ أصدرت الامم المتحدة اعلانها العالمي لحقوق الانسان و جعلت المساواة من جملة بنوده .

ان الفرق بين مناداة الاسلام بالمساواة و مناداة النظم الوضعية بها فرق جوهري يعود الى منشأ كل منهما باعتبار ان كل نظام محكوم بخصائص واضعيه .

فالانسان الذي ينادي بالمساواة من خلال النظم الوضعية التي ينشئها انما يقصدها في الدائرة المحلية التي ينتمي اليها كالدائرة القومية أو الوطنية: ولا يجد مبرراً للمناداة بها خارج هذه الدائرة، فالمساواة هي ما يكون بين افراد الجنس أو القومية أو الوطنية الواحدة، والى هذه اللحظة لا زالت المشاعر العنصرية في اوربا و امريكا تجاه الملونين أو الاجانب المقيمين هناك متأججة .

ثم ان المساواة في النظم الوضعية مبدأ مدني صرف و ليس جزءاً من أيديولوجية متكاملة تمنحه زخماً و فاعلية من خلال ما تنطوي عليه من جوانب تربوية و برامج ثقافية .

بينما المساواة في الاسلام، مساواة مطلقة تحرك في الدائرة الانسانية الكبيرة ولا

تعرف الحدود القومية والاقليمية لأنها مساواة رب العالمين الذي خلق الجميع ونسبة الجميع اليه واحدة، ولا تفاوت عنده الاجناس والقوميات والوطنيات والافراد، وليست هي مساواة فرد جعل انتماءه القومي والوطني محوراً لشخصيته فكانت المساواة بالنسبة اليه نسبية خاصة بالمشاركين له في هذا الانتماء .

ثم ان المساواة في الاسلام تستند الى قاعدة ايديولوجية تدعمها بضمانات روحية وثقافية و تربوية بما يجعلها ذات زخم و فاعلية و مصداقية، فهي انعكاس تشريعي طبيعي لوحدة الخالق و وحدة المنشأ الانساني في التصور الاسلامي، فافراد الانسانية متساوون لا لأن المساواة أمر محبذ، و انما لأنهم ينتسبون لخالق واحد خلقهم من منشأ واحد هو التراب، وقد أمرهم بالمساواة و دعاهم الى المحبة و سيعودون اليه و سيحاسبهم في ذلك، وكل ذلك يجعل المساواة محاطة بأجواء روحية و ثقافية و تربوية تؤكدها و تعمقها و تزيدها زخماً و فاعلية .

٢- الاخوة العامة

تنسب البشرية برمتها في التصور الديني المؤكد عبر الرسالات السماوية المتتالية الى أب واحد هو آدم (ع) و أم واحدة هي حواء، وهذا ما ينشأ عنه أخوة عامة بين أفراد البشرية كافة، و صيرورة البشرية كلها أسرة واحدة .

والمجتمع الاسلامي يركز على نوعين من الاخوة :

أ - الاخوة البشرية العامة .

ب - الاخوة الايمانية التي عبّر عنها القرآن الكريم بقول:

﴿انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم﴾^(١).

الاخوة الاولى ترسي قواعد جيدة لمجتمع عالمي متعاطف فيما بينه، ومع ان الاسلام قد أكد هذه الخوة وحفظ للانسان حرمتها ودعا الى صلة الرحم و رغب مكانة القرابة في المجتمع، إلا أنه مع ذلك وانطلاقاً من نظرة متوازنة دقيقة يرفض أن يجعل النسب و الروابط النسبية محوراً في بناء المجتمع، ولذا اختار الاخوة الايمانية محوراً في بناء المجتمع الاسلامي.

ولكي تكتمل الصورة أكثر أضاف الى الاخوة الايمانية الابوة الابراهيمية حيث قال الله تعالى :

﴿ ... ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين ﴾^(١).

فكما ان الاخوة النسبية العامة ترجع الى أب هو آدم (ع) كذلك الاخوة الايمانية ترجع الى أب هو ابراهيم (ع) الذي أطلق تسمية المسلمين على المجتمع الايماني كما هو شأن الآباء الذين يضعون الاسماء لأبنائهم .

وبعد ذلك تضاف الاخوة العامة الى المجتمع الاسلامي لتكون قوة اضافية من شأنها دعم البنية العالمية في هذا المجتمع العقائدي من خلال رابطة النسب الآدمي التي جعلت في امتداد المحور الايماني .

لقد عنى الاسلام عناية خاصة بالنسب حتى جعل قطع صلة الارحام من الكبائر ، قال تعالى:

﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ... ﴾^(٢).

لكنه لا يقبل بطغيان النسب بحيث يكون محوراً في بناء المجتمع، لأن محورية النسب تعني أن يكون المجتمع متعصباً قليلاً أو قومياً على غرار ما كان عليه المجتمع

(١) سورة الحج : ٧٨ .

(٢) سورة النساء : ٤١ .

الجاهلي، الذي جاء الاسلام لازالته واقامة مجتمع ايماني قائم على اساس المحور العقائدي، فالنسب معتبر ما زال منسجماً مع هذا المحور وساقط عن الاعتبار كلما تعارض معه. فرغم ان الابن من أهل الرجل إلا أن القرآن أسسقط هذه الاهلية في ابن نوح (ع) قال تعالى :

﴿ قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح ﴾ (١).

وقال أيضاً في العلاقات النسبية المعارضة للمحور الايماني :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم و اخوانكم أولياء ان استحباوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون ﴾ (٢).

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالموودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ... لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير، فد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ... ﴾ (٣).

(لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله و رسوله ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم الايمان و أيدهم بروح منه ﴾ (٤).

وهكذا يأخذ المجتمع الاسلامي من النسب قوته و يتجنب في الوقت نفسه سلبياته التي تظهر كلما وضع في محلّ أوسع من حجمه و غير مخصص له .

(١) سورة هود : ٤٦ .

(٢) سورة التوبة : ٢٣ .

(٣) سورة الممتحنة : ١ - ٤ .

(٤) سورة المجادلة : ٢٢ .

٣- المقاييس الانسانية للتفضيل

وانسجاماً مع المحور العقائدي الذي يقوم عليه المجتمع الاسلامي اتخذ الاسلام عدداً من المثل والقيم الانسانية كأسس للتفاضل الاجتماعي وكعوامل للتحريك والتحفيز نحو النمو والتطور الكيفي والكمي وهي:

أ - الايمان بالله سبحانه وتعالى .

ب - العمل الصالح .

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ والعصر ان الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... ﴾^(١).

وقال تعالى :

﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل

المتقين كالفجار ﴾^(٢) .

وقال تعالى :

﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات

سواءاً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾^(٣).

ج - العلم ، قال تعالى :

﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾^(٤).

د - الجهاد ، قال تعالى :

(١) سورة الفصr : ١ - ٣ .

(٢) سورة ص : ٢٨ .

(٣) سورة الجاثية : ٢١ .

(٤) سورة الزمر : ٩ .

﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم و أنفسهم ، فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾^(١).

هـ - الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر ﴾^(٢).

و - سبق الى الايمان والانفاق والجهاد، قال تعالى:

﴿ السابقون السابقون اولئك المقربون ﴾^(٣).

وقال سبحانه :

﴿ لا يستوي منكم من أنفق قبل الفتح وقاتل اولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا

من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى ﴾^(٤).

وقال تعالى :

﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾^(٥).

وعندما نتأمل في هذه المقاييس السّنة نجدها تشكل العناصر الاساسية التي تتكون منها الحضارة الاسلامية، فالايمان هو القاعدة الاساسية للحضارة الاسلامية، والعمل الصالح وسيلة البناء فيها، والعلم هو عنصر النمو والتقدم والتطور فيها، والجهاد هو الطريق لتوسيع رقعة التوحيد في الأرض .

(١) سورة النساء : ٩٥-٩٦ .

(٢) آل عمران / ١١٠ .

(٣) سورة الواقعة : ١٠ .

(٤) سورة الحديد : ١٠ .

(٥) سورة المطففين : ٢٦ .

و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اداة تحمي المجتمع من الانحراف و تركز فيه الاستقامة والسبق محفز للتنافس في حيازة تلك العناصر بأسرع وقت و أكبر قدر و أفضل كيفية ممكنة، وهكذا فالمقاييس الاسلامية في التفاضل مقاييس حضارية انسانية اخلاقية وبالتالي فالانسان الافضل في التصورات الاسلامي هو الانسان الاكثر اشتمالاً على عناصر الحضارة والاسبق الى حيازتها. وقد اختصر القرآن الكريم كل تلك المقاييس بمقياس جامع هو التقوى، قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و انثى و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا إنا أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (١).

فالتقوى خلاصة الحضارة الاسلامية التي تركز على ارادة الانسان و عقله و محتواه الروحي و الفكري .

٤ - فكرة الجماعة

تعني فكرة الجماعة أن يمنح الفرد ولاءه للجماعة التي يعيش ضمنها ويؤمن بانضمامه اليها فرداً تهمة مصالح الجماعة كما تهمة مصالح نفسه، وهذا المعنى لا تكاد تجد أحداً ينكره وقد يمكن الادعاء بوجود اجماع انساني عليه. فهي في مستواها النظري لا تواجه مشكلة تذكر، لكن المشكلة في المبدأ الذي تنسجم معها و يثبت قدرة كافية على التجسيد والتطبيق .

ان الفكر المادي بكل مدارسه لا يستطيع أن يثبت مصداقية كافية في هذا المضمار . ذلك أن انكار دور السماء الأبوي في المجتمع الانساني واعطاء الانسان دور الاله المنقطع عما سواه في الارض من شأنه أن يكرس الانانية الفردية التي تجعل الحديث

عن الجماعة كلاً ما نظرياً بحثاً . وما ظهور القومية كأساس في الحياة السياسية والدولية خلال القرنين الاخيرين إلا دليلاً على طغيان الانانية وغلبتها على الجماعة بمستواها البشري الدولي العام . وقد حاولت الماركسية عبثاً الانتصار للجماعة ودحر الانانية بمستواها الفردي والقومي، تحت شعار الاممية وعلى أساس اعطاء الاصلة للمجتمع بدلاً عن الفرد، لكنها كانت محاولة محكومة بالفشل لأن الفكر المادي عاجز بطبيعة الحال عن الانتصار للجماعة ولأنه ينسجم مع الاتجاه الفردي فقط .

ومن هنا أفرز الفكر المادي بمستوييه الاكاديمي والفلسفي فكرة بديلة عن فكرة الجماعة ومعاكسة لها تماماً ألا وهي فكرة الصراع التي تلقى ترحيباً وتمجيهاً متواصلين في الفكر الغربي الحديث بكل مدارس واتجاهاته .

فالصراع بين الازداد هو الفكرة الفلسفية التي أُسست الماركسية عليها وجرى تطبيقها والتنظير لها في مختلف مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية والتي أسقطت الاتجاه الجماعي في الماركسية المعبر عنه سياسياً بالاممية واجتماعياً باصلة المجتمع .

والصراع بين الانواع هو الفكرة التي جاء بها داروين ضمن نظريته عن تطور الكائنات الحية والتي أوجدت اطاراً نفسياً وثقافياً مساعداً لظهورها في الساحة الانسانية فبدا المجتمع الانساني وكأنه مجموعة أنواع متصارعة بحثاً عن التطور وأخيراً جاءت النازية لتقول بأن التاريخ الانساني هو تاريخ الصراع بين العنصر الجرمانى والعناصر المنحطة. كما ظهرت موجة «الهيبيز» لتعبر عن صورة جديدة من صور التحدي للجماعة والاستخفاف بها .

ان الاسرة التي لا رب لها يضمحل لديها الشعور بالجماعة و يطنى لدى أفرادها الشعور الفردي الاناني، و يصبح الجو مهيناً لظهور مشاعر الصراع بينهم ، وهكذا فان

فكرة الجماعة توجدها أجواء الأبوة في الأسرة، فإذا فقد الأب تلاشت فكرة الجماعة وظهرت فكرة الصراع بدلاً عنها. وهكذا الأمر في المجتمع الذي آمن بأبوة السماء و المجتمع الذي أنكر هذه الأبوة، ففكرة الجماعة و فكرة الصراع فكرتان تمثلان مجتمعين متناقضين .

أولهما المجتمع الديني و ثانيهما المجتمع المادي ، و هذا ما عبّر القرآن الكريم عنه بقوله تعالى:

﴿ لو أنفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾^(١).
فالمجتمع المادي عاجز عن الوصول الى حالة جماعية بالمعنى التام لها ،
والمجتمع الديني هو المؤهل لبلوغ هذه الحالة إذا ما اتقن باقي الشروط والاسباب .
هذا هو الاساس الذي يقوم عليه الاتجاه الجماعي في الاسلام والذي يعبر عن
نفسه في الميدان العبادي من خلال صلاة الجماعة والتأكيد المتزايد عليها وفي
الميدان السياسي بالتوصيات النبوية القائلة:

«من خلع جماعة المسلمين قدر شبر خلع ريقه الايمان من عنقه»^(٢).

وفي الميدان الاجتماعي بالدعوة الى الاهتمام بأمور المسلمين والسعي في قضاء
حوائج المؤمنين و حث الفرد على مواصلة المنقطعين عنه والعفو عن المقصرين بحقه

يقول المفكر الاسلامي الكبير السيد الشهيد الصدر (رض):

(ونتيجة لشعور الانسان المسلم بتحديد داخلي يقوم على أساس اخلاقي لصالح
الجماعة التي يعيش ضمنها يحسّ بارتباط عميق بالجماعة التي ينتسب اليها و انسجام

(١) سورة الانفال : ٦٣ .

(٢) المجلسي، محمد باقر، ج ٢ ص ٢٦٦ .

بينه و بينها بدلاً عن فكرة الصراع التي سيطرة على الفكر الاوربي الحديث .
 وقد عزز فكرة الجماعة لدى الانسان المسلم الاطار العالمي لرسالة الاسلام الذي
 ينيط بحملة هذه الرسالة مسؤولية وجودها عالمياً و امتدادها مع الزمان و المكان . فان
 تفاعل انسان العالم الاسلامي على مرّ التاريخ مع رسالة عالمية منفتحة على الجماعة
 البشرية يرسم في نفسه الشعور بالعالمية و الارتباط بالجماعة^(١).

٥ - الولاية بين افراد المجتمع الاسلامي

و البعد الاجتماعي الخامس للعالمية الاسلامية هو الولاية بين أفراد المجتمع
 الاسلامي قال تعالى :

﴿ ان الذين آمنوا و هاجروا و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله و الذين
 آووا و نصرؤا اولئك بعضهم اولياء بعض و الذين آمنوا و لم يهاجروا ما لكم من
 ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ﴾^(٢).

ان الاخوة العامة تتأكد بالاخوة الايمانية، و الاخوة الايمانية تنعزز من خلال فكرة
 الجماعة، و الجماعة تأخذ صورتها التامة من خلال الولاية بين أفرادها، فالمجتمع
 الذي بدأ من الاخوة الأدمية العامة مجتمع ايماني تسوده روح الجماعة و يتولى بعضه
 البعض الآخر ولاية مبدأية خالصة، قال تعالى:

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله و اليوم الآخر يوادون من حاد الله و رسوله ولو كانوا
 آباءهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم الايمان و أيدهم
 بروح منه ﴾^(٣).


(١) الصدر ، محمد باقر ، اقتصادنا ص ٢١ .

(٢) سورة المجادلة : ٣٦ .

(٣) سورة المجادلة : ٣٦ .

وهذه الولاية المبدئية الخالصة من شوائب النسب تكشف عن ان الاخوة الادمية العامة التي وجدناها واحدة من أركان المجتمع العالمي في الاسلام قد أريد بها أن تكون جنبه النسب فيها في خدمة جنبه المبدأ و بالتالي فهي اخوة مبدئية .

التوازن في الانتماء والولاء
في القرآن والسنة

ماجد الخالدي 

قم - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

الخلاصة:

رأى القرآن الكريم ظاهرة التعددية في الانتماء والولاء الثانوي للقبيلة وللوطن وللقومية، فلم يعطلها او يلغيها، وانما اقرها في حدودها المسموح بها، مراعيًا دخائل النفوس والمشاعر الباطنية والشائج المتجذرة، فكانت تعاليمه منسجمة مع فطرة الانسان، فتعامل معها كحقيقة قائمة، ولكنه مع هذا التعامل وازن بينها وبين الانتماء والولاء لله وللرسول وللإسلام؛ فجعله حاكما على غيره من الانتماءات والولاءات، ووضع مقاييس وموازين للتقييم للعلاقات بين المسلمين.

ورأى رسول الله (ص) الانتماءات والولاءات الثانوية وابقاها ضمن الحدود التي لا تصطدم بالمصلحة الاسلامية الكبرى، فأقر الانتماءات القبلية ووزع النقباء في بيعة العقبة الثانية على اساس الانتماء القبلي، وكتب كتابا بين المهاجرين والانصار مقررا بتعدد الانتماء، وكان يتعامل مع جميع الوجودات

والانتماءات تعاملًا واحدًا في تكليفهم بمهام واحدة، واسند المناصب تبعًا لظروف الانتماءات المحدودة، وكان يوجه الانظار نحو الانتماء والولاء المشترك ويتجاوز الازمات التي يخلقها التعامل غير الواعي مع تعدد الانتماء والولاء، ووضع تعاليم قيمة لتكريس حاكمية الانتماء والولاء للإسلام ومنها:
 الحب في الله والبغض في الله، والاهتمام بأمر المسلمين، والنهي عن التعصب، وعن الممارسات السلبية، والدعوة للالتزام بالاخلاق الاسلامية.

التوازن في الانتماء والولاء في القرآن والسنة

بسم الله الرحمن الرحيم

الصلاة والسلام على البشير النذير نبينا محمد وعلى آله الاطهار وصحبه
 الابرار.

من السنن التاريخية التي لا تختلف ولا تتخلف ان الانسان يختلف مع اخيه الانسان في مختلف القضايا وعلى جميع المستويات الفكرية والسلوكية والولاءات العاطفية، وهذه حقيقة موضوعية لا تقبل الجدل، فالانسان بغرائزه وطاقاته العقلية والنفسية، وامكاناته الروحية والمادية يختلف عن غيره من بني الانسان، ومن هنا تعددت الانتماءات الاسلامية في جميع مراحل المسيرة، فرعاة الامة يختلفون في كثير من الامور النظرية والعملية، في تصورهم للاوضاع والاحداث وفي تقييمهم للاشخاص والوجودات، وفي اساليب العمل، وفي المواقف الاصلاحية والتغييرية، والرعية تختلف ايضا في قناعاتها الفكرية والعاطفية والسلوكية وان كانت تنتمي الى عقيدة واحدة او مذهب واحد، فانها

تنتمي ايضا الى محاور ثانوية وتتوزع على ولاءات جانبية يفرضها الواقع، كالانتماء الاسري والقبلي والوطني والقومي، والانتماءات متعددة بتعدد الافراد، وهي حالة صحية ان كان الاسلام بمفاهيمه وقيمه هو الحاكم على السلوك والمواقف والممارسات، ومن العقل والحصافة والمسؤولية الشرعية ان تبقى التعددية في الولاء والانتماء في حدودها الايجابية التي تخلق اجواء المنافسة المشروعة في انجاح الاعمال والممارسات والتحرك ضمن الافق الواسع للوصول الى الاهداف الكبرى.

ومن هنا فالتوازن بين الانتماء للاسلام والانتماءات المتعددة ضرورة ملحة في حركة الامة وتطلعاتها لانجاز الاهداف الكبرى في مرحلة المواجهة مع اعداء الصحوة الاسلامية.

وقد اقر القرآن الكريم تعددية الانتماء والولاء، وتعامل رسول الله (ص) معها كأمر واقع وامر فطري لا يمكن تجاوزه، فأقر التعددية وتوزع المسلمون في عهده والعهود اللاحقة على انتماءات ثانوية وجانبية، وما حدث في مسيرة المسلمين من تشاحن وتباغض في الماضي البعيد والقريب لم يكن من صنع التعددية في الانتماء والولاء وانما هي من صنع الافراد الذين ابتعدوا عن موازين ومقاييس الاسلام الكبرى، وانحرفوا عن منهج رسول الله (ص) الذي جعل الانتماء والولاء للاسلام حاكما على جميع الانتماءات والولاءات، فكان للأنا وحب الذات والهوى والمصالح الشخصية والاستبداد بالرأي دور كبير في اشاعة التشاحن والتباغض خلافا للاسس الثابتة في العقيدة والشريعة الاسلامية.

وفي معترك الصراع القائم بين الاسلام والوجودات غير الاسلامية وفي مرحلة المواجهة مع الاستكبار العالمي، تصبح الحاجة ضرورية لصياغة جديدة

وتربية شاملة للنفوس والمواقف لتتسجم مع أساسيات الإسلام، في التوازن بين الانتماء المطلق للإسلام والانتماء المقيّد بالوطن والقومية والمذهب وسائر الانتماءات القانونية، ونحن بحاجة الى وحدة الموقف إتجاه التحديات التي تستهدف الإسلام دون النظر الى الانتماءات المتعددة، وبحاجة الى الحذر الدائم من العمل الذي يجعل الانتماءات الجانبية حاکمة على الانتماء الاساسي للإسلام، وبحاجة الى الالتقاء في النقاط المشتركة والنظر الى الواقع من خلال الآفاق الواسعة المشتركة واستيعاب الفواصل الجزئية، لكي تبقى الانتماءات والولاءات الجانبية والثانوية في حدودها التي لاتخالف الانتماء والولاء المطلق للإسلام.

فلا بد من توازن واعتدال في تصوراتنا وعواطفنا ومواقفنا لكي لا يطغى اي ولاء وانتماء على غيره، او يلغي غيره، فالانتماء والولاء للإسلام اولاً، وللولاءات الاخرى ثانياً.

اقرار الانتماءات والولاءات الثانوية في القرآن الكريم

القرآن الكريم هو منهج حياة واقعية، ناظر في تشريعاته واحكامه الى الواقع الموضوعي بأوضاعه وتشكيلاته وتنظيم علاقات الافراد والجماعات، ذلك الواقع الذي يعيش فيه الناس مختلفين اختلافاً منبثقا من تعدد اللغات والالوان والاجناس والانتماءات الجغرافية، اضافة الى الاختلافات الناجمة من احوالهم وارتباطات حياتهم، وموروثاتهم البيئية والاجتماعية، ورواسب تاريخهم، ولهذا عاش القرآن الكريم مع الواقع وفي الواقع، فأقر الاختلاف بين الناس وما يستلزمه من تعدد الانتماءات والولاءات، وجعل الاختلاف آية من آيات الله تعالى:

(ومن آياته خلق السماوات والارض واختلاف السنتكم والوانكم).^(١)

وقال تعالى: (... وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا...).^(٢)

فاختلاف الألسن واللغات والالوان حقيقة موضوعية لا يمكن تجاوزها، كذلك انقسام الناس الى شعوب وقبائل، فجميع هذه الاختلافات حالة وظاهرة طبيعية لا يمكن الغاءها، ولا يمكن الغاء وتجاوز ما يترتب عليها من روابط الحب والمودة والميل والانس اتجاه الآخرين المنتمين الى نفس اللغة ونفس اللون، ونفس القومية والقبيلة؛ ولهذا تعامل القرآن الكريم معها تعاملًا موضوعيًا مراعيًا الطبيعة الانسانية في الميل القلبي والروحي الى من يشاكلها في المظاهر والظواهر، ويتحد معها في الصنف والجنس والانتماء الواحد.

فالولاء للانتماء الواحد امر فطري مغروز في الطبيعة الانسانية، والولاء بنفسه ظاهرة ايجابية تدفع الانسان للتآلف والتآزر والتعاون للنهوض بأعباء المسؤولية في الحياة، وتعامل القرآن الكريم مع هذا الولاء تعاملًا متوازنًا، ووضع منهجه لتهدئته في الواقع وفي المواقف السلوكية، وجعل الانتماء للاسلام - عقيدة وكيانا وقيادة ووجود بشري مترابط - حاكمًا على جميع الانتماءات وجعل الولاء للاسلام مقدمًا على سائر الولاءات دون الغاء او تجاوز لها.

فوجه المسلمين بجميع انتماءاتهم وولاءاتهم الى الاقرب الاحب والمدى الأوسع، فوجههم الى الانتساب الى الله الواحد في العقيدة وآثارها التكليفية،

(١) الروم ٢٢.

(٢) الحجرات ١٣.

والى الامة الواحدة: (ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون).^(١)

ومع اقراره للعواطف والمشاعر الفطرية والانسان بالمقربين للانسان قربا نسبيا الا انه جعل الحب لله ورسوله حاكما على جميع اواصر الانس والولاء: (قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم... احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين).^(٢)

والقرآن الكريم يدعو الى تعميق اواصر الحب والولاء للاصناف المذكورة في حدودها الطبيعية التي لا تضطدم بالاواصر الايمانية والمبدئية، لأنه يسعى الى اعلاء كلمة الله تعالى وجعلها الحاكمة على افكار ومواقف الناس ليتحقق السلم والخير والسعادة، فلا بد من استبانة في السلوك والممارسات العملية، ولا بد من مفاصلة في حال دوران الولاء بين وجودين متناقضين، فيقدم الولاء للوجود الاسلامي على الولاء لغيره، مع مراعاة التوازن في الانجذاب والميل، بلا افراط ولا تفريط، قال تعالى: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم الايمان...)^(٣)

وكذا الحال في الولاء للعقيدة والمرتبطين بها مقدم على جميع الولاءات، والولاء المقصود هو الولاء الذي تترتب عليه مواقف عملية، كالتلقي العقائدي والتشريعي، واتباع موازين ومعايير التقييم، اما الولاء بمعنى اواصر العطف

(١) الانبياء ٩٢.

(٢) التوبة ٢٤.

(٣) المجادلة ٢٢.

والحب الغريزي وحسن المعاملة فهو امر غير منهي عنه: (لا يتخذ المؤمنون الكافرون اولياء من دون المؤمنين...)^(١).

وقال تعالى: (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم و اخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون).^(٢)

فالولاية لله ولرسوله وللمؤمنين مقدمة على غيرهم، والولاء داخل الوجود الاسلامي ظاهرة طبيعية غير منهي عنها فولاء المسلم العربي للمسلم العربي امر فطري اقره القرآن الكريم، وكذا ولاء غير العربي لابناء جنسه فطري غريزي لا يمكن الغاؤه وتجاوزه، وخصوصا في العلاقات الاجتماعية، اما في موازين التقييم فإن التقوى هي الحاكمة: (... ان اكرمكم عند الله اتقاكم).^(٣)

الانتماءات والولاءات الثانوية داخل الكيان الإسلامي

الكيان الاسلامي خليط من انتماءات وولاءات ثانوية متعددة فرضها الواقع، ولهذا فقد راعى القرآن الكريم هذا الاختلاف الظاهري واقره بمسمياته تبعا لاختلاف الافراد والوجودات، واذا تتبعنا الآيات القرآنية لوجدناها تسمي الوجودات المختلفة بمسمياتها الطارئة والمتجذرة، وتميزها عن غيرها كأمر واقع، فقد قسم القرآن الكريم المسلمين الى ثلاثة اقسام ووجودات وانتماءات وهم: (المهاجرون، والانصار، والمؤمنون غير المهاجرين)، قال تعالى: (ان الذين

(١) آل عمران ٢٨.

(٢) التوبة ٢٣.

(٣) الحجرات ١٣.

آمنوا وهاجروا.. والذين آووا ونصروا.. والذين آمنوا ولم يهاجروا).^(١)
 فهناك ثلاثة وجودات وانتماءات مشخصة في الواقع كل وجود وانتماء له
 افراده المنتسبين اليه.

وقسمهم ثانياً الى السابقين والى التابعين لهم باحسان قال تعالى: (والسابقون
 الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان...)^(٢)
 وقسمهم الى مسلمين أسلموا قبل الفتح ومسلمين أسلموا بعده، قال تعالى:
 (... لا يستوي منكم من أنفق قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا
 من بعد وقاتلوا...)^(٣)

وهناك تقسيمات اخرى افرزها الواقع، وافرأها القرآن الكريم، فهناك طائفة
 من المسلمين تسمى بأهل بدر، وطائفة تسمى بأهل بيعة الرضوان، وهناك تقسيم
 آخر مشخص في الواقع على اساس الجهاد وعدمه، فهناك مجاهدون وهناك
 قاعدون.

وقسم القرآن الكريم المسلمين على انتماءات نجمت من الموقع الجغرافي،
 فسمّاهم على هذا الاساس، كأهل مكة واهل المدينة، والاعراب من حول
 المدينة.

وهذه الانتماءات وان أدت الى ولاءات متعددة الا ان القرآن وازن بينها
 وبين الولاء الحقيقي للاسلام، ووجه المسلمين للتعامل على اساس الرابطة
 الاعمق، وجعل الانتماء الى عنوان الاسلام مقدما على جميع العناوين الثانوية،

(١) الانفال ٧٢.

(٢) التوبة ١٠.

(٣) الحديد ١٠.

واعتبر الفواصل المتقدمة فواصل جزئية ظاهرية لا يجوز تقديمها على الروابط والمشاركات الكلية، وجعل التقوى وعمل الخير والجهاد في سبيل الله، وطاعة الله ورسوله، والاخلاص هو الميزان الذي توزن على ضوئه جميع الانتماءات والولاءات.

فقد اقرّ التعددية في حدودها الجزئية لكي تكون وسيلة للتنافس المشروع في تطبيق المفاهيم والقيم الاسلامية في واقع الحياة، ويكون عنوان الاسلام هو الجامع للانتماء والولاء، وهو الدافع للعمل والسير وهو الحاكم على العلاقات والارتباطات المختلفة.

وقد اثبت القرآن الكريم ان التعددية في الانتماء والولاء داخل الكيان الاسلامي لم تكن سببا للتناحر والتنافر، فقد اثبت على جميع الوجودات والانتماءات بروء وسها واتباعها، حيث تعاونوا وتآزرروا في طاعة الله ورسوله، وشاركوا في اداء المسؤولية الواحدة ولم تكن التعددية عائقة من العمل والمثابرة لتحقيق الهدف الواحد والغاية الواحدة.

والدرس المستنبط من القرآن الكريم وتعامله الموضوعي مع واقع التعددية، ان الوحدة الاسلامية لاتعني الغاء الانتماءات والولاءات المنضوية تحت راية الاسلام، ولاتعني الانصهار في عنوان واحد، وانما تعني وحدة الموقف اتجاه مختلف القضايا التي تواجه المسلمين داخليا وخارجيا، والانصهار في عنوان واحد، حالة مثالية لاتتحقق في الواقع، فيبقى المسلمون منقسمين الى سنة وشيعة ومتوزعين على مذاهب مختلفة، وان كان الاسلام هو العنوان الجامع بينهما.

السيرة النبوية والتوازن في الانتماء والولاء

واعى رسول الله (ص) الانتماءات والولاءات الثانوية والجانبية، فلم يتم بتجاوزها والغائها، بل اقرها واثبتها كحقيقة موضوعية افرزها واقع المسلمين، وواقع الانسان الذي يميل ويأنس لصفه وجنسه، ويتجانس مع ما افه في سيرته وحركته.

ولكنه (ص) هذّب المواقف العملية وجعلها تصب في المصلحة الاسلامية الكبرى، مصلحة العقيدة والشرعية والوجود والكيان الاسلامي، فوازن بين الانتماء الثانوي والانتماء الاساسي، وبين الولاء الثانوي والولاء الاساسي، وجعل الاساسي حاكما على الثانوي ومقدما عليه، مع بقاء الثانوي على حاله وحدوده المنسجمة مع الروابط والولاءات الاسلامية الكبرى.

أوفيما يلي نستعرض سيرة رسول الله (ص) في هذا الشأن:

اولا: بيعة العقبة الثانية

بايع الانصار من الاوس والخزرج رسول الله (ص) عند العقبة، فقال لهم (ص): (أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيبا؛ ليكونوا على قومهم بما فيهم)، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الاوس.^(١) فأقرهم (ص) على هذا الاختيار، حيث اختاروا العدد متناسبا مع نسبة الافراد وانتماءهم للاوس والخزرج وللبيووات والاسر المنضوية تحت كلا القبيلتين، وأقرّ (ص) هذه التعددية، وأقرّ الانتماء الآخر الخارج عن انتماء الانصار، فقال:

(١) السيرة النبوية ٢: ٨٥، ابن هشام، دار احياء التراث العربي، بيروت.

(انتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وانا كفيل على قومي - يعني المسلمين -).^(١)

ثانياً: كتاب رسول الله (ص) بين المهاجرين والانصار

كتب رسول الله (ص) كتاباً بين المسلمين من المهاجرين والانصار، أقرّ فيه التسميات المختلفة والانتماءات والولاءات المتعددة المنضوية تحت اسم الاسلام وكيانه الموحد. وفيما يلي بعض فقرات هذا الكتاب: (... هذا كتاب من محمد النبي، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، انهم امة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربتهم يتعاقلون بينهم، وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين...

وبنو عوف... وبنو ساعدة... وبنو الحارث... وبنو النجار... وبنو الاوس على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الاولي، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين...

وان لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه....

وان ذمة الله واحدة، يجير عليهم ادناهم، وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس...

وانه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، ان ينصر محدثاً ولا يؤويه).^(٢)

فقد أقرّ (ص) الانتماءات والولاءات المتنوعة، وسمى الوجودات القائمة

(١) م. ٢٠٥، ٨٨.

(٢) السيرة النبوية ٢: ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩.

بأسمائها، كمسلمي يثرب ومسلمي قريش، والمهاجرين والانصار، وبني عوف، وبني ساعدة، وأقرّ الروابط القائمة بينهما فكل انتماء وجود يتحمل عن افراده (المعادل) اي الديات، حسب المنهج المتفق عليه قبل الاسلام، وكل انتماء مسؤول عن افراده في الفداء والقسط، ومع هذه المراعاة شدهم (ص) الى الانتماء الحقيقي والارتباط الاساسي، والولاء الاكبر وهو الاسلام، فهو الحاكم على جميع العلاقات الناجمة من تعدد الانتماء والولاء وهو المقياس في اتخاذ المواقف واجراء الترتيبات اللازمة في الحكم على الاشخاص والوجودات القائمة. ومن خطبة له (ص) مقارنة لهذا الكتاب انه قال: (... ان احسن الحديث كتاب الله تبارك و تعالي، قد افلح من زينته في قلبه، وادخله في الاسلام بعد الكفر... احبوا ما احب الله، واحبوا الله من كل قلوبكم... وتحابوا بروح الله بينكم...)^(١).

ثم اعلن (ص) المؤاخاة بين المهاجرين والانصار مع الحفاظ على انتماء وولاء كل منهما، فقال (ص): (تآخوا في الله اخوين اخوين).^(٢)

فكانت روح الاخوة هي الدعامة الاساسية في العلاقات الاجتماعية، فكان الانصاري يقدم المهاجر على نفسه حتى وصل الحال بمن يملك زوجتين يخير (اخاه المهاجر في احدهما).^(٣)

وكان المهاجرون والانصار في حينها يتوارثون بهذا الاخاء اراثاً مقدماً على القرابة.^(٤)

(١) السيرة النبوية ٢: ١٤٧، ابن هشام.

(٢) م. ن. ٢: ١٥٠.

(٣) تاريخ المدينة المنورة ١: ٤٨، ابن شبة النميري، دار الفكر، قم ١٤١٠هـ.

(٤) الفصول في سيرة الرسول: ١٢٠، ابن كثير، المدينة المنورة، ١٤١٣هـ ط ٦.

وهكذا تجلت الموازنة بين الانتماءات والولاءات الاساسية والثانوية، دون تجاوز او الغاء.

ثالثاً: غزوة بدر

لم يكلف رسول الله (ص) الانصار بأي مهمة عسكرية قبل غزوة بدر، لانهم كأفراد وكجماعة لم يصبهم من قريش اي اذى، وان كان الصراع بين قريش والمسلمين صراعاً عقائدياً، الا انه راعى طبيعة الاوضاع والاحداث ولم يكلف الانصار بمهمة تبعا للعقيدة ومتطلباتها وانما اقتصر المهام على المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً بعدما تعرضوا للاضطهاد والاذى والتعذيب، فكانت البعوث والغزوات مقتصرة عليهم، ففي السنة الاولى من الهجرة والاشهر الاولى من السنة الثانية كلف عمه حمزة ومعه عدد من المهاجرين للتعرض الى قافلة قريش التجارية، وبعث بعده سعد بن ابي وقاص الى ابواء، وبعث عبدالله بن جحش في رهط من المهاجرين لاستطلاع الاوضاع، وجميع هذه الغزوات والبعوث لم يشترك بها أي رجل من الانصار.^(١)

وحينما اراد التوجه الى بدر جمع اصحابه وقال: اشيروا عليّ ايها الناس، وكان يقصد الانصار لانه يخشى من الانصار ان لا يرون نصرته الامن دهمه بالمدينة حسب اتفاق البيعة، وليس عليهم ان يسير بهم خارج المدينة، فقال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال (ص): اجل، قال: قد أمّنا بك وصدّقناك واعطيناك عهدنا، فامض يا رسول الله لما أمرت.^(٢)

(١) الكامل في التاريخ ١١١:٢، ١١٢، ١١٣.

(٢) الكامل في التاريخ ١٢٠:٢ ابن الاثير، دار صادر بيروت ١٩٦٥م.

فقد راعى (ص) خصوصية توجه الانصار التي تفرضها الظروف المحيطة بهم، فلم يكلفهم فوق طاقتهم، مراعيًا طبيعة الانتماء والولاء الثانوي، ولم يسر بهم لقتال قريش الا بعد ان وجدهم متهيئين لذلك متجاوزين خصوصية الانتماء والولاء الثانوي.

وفي غزواته جميعا لم يخصص حمل الراية بأحد الانتماءين وانما وزّعها عليهما فجعل (راية مع المهاجرين وراية مع الانصار).^(١)

رابعاً: غزوة الخندق

قبل غزوة الخندق بعث رسول الله (ص) الى قائدي غطفان واعطاهما ثلث ثمار المدينة على ان لا يشاركا قريش في حربه، ولكن لم تقع شهادة على ذلك ولا عزيمة صلح، فلما أراد (ص) ان يمضي ذلك بعث الى اثنين من قادة الانصار واستشارهما في ذلك، مراعاة منه لظروف الانصار الخاصة بهم وبانتماءهم المحدود، فقال له سعد بن معاذ: (يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك... وهم لا يطمعون ان يأكلوا منها ثمرة الا قرى او بيعاً أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له واعزنا بك وبه، نعطيهم اموالنا... والله لانعطيهم الا السيف)، قال (ص): فأنت وذاك، فتناول الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب.^(٢)

فقد راعى (ص) خصوصية الانتماء واقر ما جاء في قول سعد لان الثمار بالاصل هي ثمارهم وان كان رسول الله (ص) هو القيم عليهم، الا انه استجاب لما اراده سعد باعتباره احد رؤساء الانصار وان الثمار تابعة لهم.

(١) السيرة النبوية ٤٦٤:٢.

(٢) السيرة النبوية ٢٣٤:٣.

وحينما حفر المسلمون الخندق كان (ص) يمدح المهاجرين والانصار على حد سواء، ويقول: (اللهم ارحم المهاجرين والانصار). ولما اشار سلمان عليه (ص) بحفر الخندق قال المهاجرون: سلمان منا، وقالت الانصار: سلمان منا؛ فأجابهم رسول الله (ص) بالقول: (سلمان منا أهل البيت)^(١)، فأضاف انتماءً ثانوياً آخر وهو أهل البيت.

خامساً: مراعاة الانتماء والولاء الثانوي في اسناد المناصب والمهام

راعى رسول الله (ص) الانتماء والولاء الثانوي في اسناد المناصب، فكان ينصب شخصاً من الانصار على المدينة حينما يخرج منها، فقد استخلف سعد بن عبادة وسعد بن معاذ وابطالبابة وسباع بن عرفطة الغفاري وآخرين وجميعهم من الانصار،^(٢) ولم يستخلف احداً من المهاجرين الا في حالات خاصة.

وحينما طلب الاوس منه (ص) القيام بمهمة قتل كعب بن الاشرف سمح لهم، وقاموا بالامر بنجاح، فقالت الخزرج: والله لا يذهبون بها علينا عند رسول الله (ص)، فدفعتهم خصوصيتهم الانتمائية الى ذلك، فسمح لهم (ص) بالقيام بمهمة مشابهة لما قام به الاوس.^(٣)

وحينما فتح مكة عيّن والياً من قريش عليها، ولم يعين والياً من الانصار، وحينما خضعت الجزيرة العربية له ودخل الناس في دين الله افواجا وجاءته وفود القبائل، جعل كل رئيس قبيلة على منصبه ولم يستبدل احدهم بالآخر مراعاة

(١) السيرة النبوية ٣: ٢٣٥.

(٢) الكامل في التاريخ ٢: ١١١، ١١٢، ١٣٨، ٢١٦.

(٣) م. ٢: ١٤٦.

للانتماءات والولاءات المتعددة، ما دامت لا تصطدم بمبادئ الإسلام الأساسية، وما دامت موافقة لمصلحة الإسلام والمسلمين.

وفي جميع الغزوات التي قادها اسند قيادة الجيش في رتبها المختلفة الى الوجوه البارزة، كل على قبيلته او جماعته، زيادة في الانس والتآزر والتكاتف مع توجيه انظارهم الى الروابط الأساسية والولاء الأساسي لله ولرسوله وللمؤمنين.^(١)

خطوات عملية في التوازن

مع مراعاة خصوصية الانتماء والولاء وما يترتب عليها من علاقات وارتباطات ومواقف كان رسول الله (ص) يوجه الانظار والعواطف والمواقف الى الافق الاوسع والمدار الارحب في الانتماء والولاء، ويوازن بين الخاص والعام والمحدود والمطلق، فلا يطغى جانب على آخر، لان الاقتصار على الانتماء والولاء المحدود قد تؤدي الى حدوث اضطراب في العلاقات احياناً بسبب سوء الفهم والادراك، وكذلك الاقتصار على الانتماء والولاء المطلق للإسلام والغاء سائر الانتماءات والولاءات التي يؤدي الى الاضطراب لعدم مراعاة الروابط والعلاقات الخاصة، فالتوازن هو افضل الاساليب في انجاح المسيرة الإسلامية وقربها من تحقيق الاهداف وتنفيذ الاعمال والمشاريع.

وكان (ص) يستثمر الفرص للتوازن بين الأساسي والثانوي في الانتماء والولاء، ويكرّس علاقات الاخاء والتآزر والتعاون بين الافراد والجماعات والكيانات والانتماءات، فحينما سمع ببكاء اهل المدينة على شهدائهم، وجههم

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٥:٤ وما بعدها.

الى العواطف الاوسع، والى الاواصر الاكبر لاشعارهم بوحدة الهدف ووحدة الوسيلة، فقال (ص): (لكن حمزة لا بواكي له).^(١) فسمعها الانصار فانتدبوا بعض النسوة للبكاء عليه، فأشعرهم بأن الشهيد هو شهيد المسلمين جميعا، هو شهيد العقيدة الواحدة والهدف الواحد والمصير الواحد لافرق بين انتمائه الى المهاجرين او الانصار او الى احدى العشائر والقبائل.

ومن خطواته (ص) في اقامة التوازن هي التعامل مع المسلمين تعاملًا موزونًا، لا يفرق بين احد منهم، وكان تكريمه لهم قائما على اساس التقوى والاخلاص وهما مقاييس في المدح والثناء، دون النظر الى انتماء الفرد الخاص، فكانت علاقاته ببلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي كعلاقاته مع باقي الصحابة، وكانت علاقاته مع المهاجرين والانصار على حد سواء دون تمييز او ميل على اساس الانتماء الثانوي، وكان (ص) في تعامله العام والخاص (يعطي كل جلسائه نصيبه... قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم ابا وصاروا في الحق عنده سواء.. مجلسه مجلس حياء وبر وأمانة... يتعاطفون فيه بالتقوى، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير).^(٢)

وكان (ص) يتجاوز الازمات الطارئة بحكمة، ويسارع في علاجها قبل ان تسري وخصوصا الازمات التي تحدث بسبب سوء فهم وقلة ادراك لحدود الانتماء والولاء الثانوي، فحينما قام احد اليهود في اشغال نار الفتنة بين الاوس والخزرج، بتذكيرهم قتلهم في الجاهلية وكاد القتال ان يقع بينهما، خرج اليهم رسول الله (ص) وخاطبهم من خلال انتمائهم وولائهم الاساسي لا الثانوي

(١) السيرة النبوية ٣: ٩٥، ابن كثير، دار احياء التراث، القاهرة ١٣٨٣هـ.

(٢) الوفاء بأحوال المصطفى ٢: ٤٧٠، ابن الجوزي، دار المعرفة، بيروت.

فقال: (يامعشر المسلمين! الله الله، ابدعوى الجاهلية وانا بين اظهركم بعد ان هداكم الله للاسلام... والف بين قلوبكم)،^(١) فشعروا بالخطأ الفادح الذي ارتكبوه، فبكوا وعانق بعضهم بعضا، وعادوا الى الاواصر الواحدة في وحدة الانتماء والولاء للاسلام ولرسوله.

وحينما تشاجر احد المهاجرين مع انصاري وتطور الامر، بصراخ المهاجر (يامعشر المهاجرين) وصراخ الانصاري (يامعشر الانصار)، وتحريض من المنافقين، اذن رسول الله (ص) بالرحيل فسار بالمسلمين نهار ذلك اليوم والليل كله ونهار اليوم الثاني ليشغل المسلمين عن الحدث الذي وقع.^(٢)

ورفض (ص) الاستجابة لطلب احد المهاجرين بقتل رأس الفتنة عبدالله بن ابي سلول، مراعيًا مشاعر المسلمين من عشيرته، وما يكون له من حب باعتباره كان رأسا عليهم في الجاهلية، وترك الامر لعشيرته حيث بدأت - انطلاقاً من الانتماء والولاء الاساسي للاسلام ولرسوله - تؤنبه وتتابع خطواته وتحجم من نشاطه، وقد اثبت رسول الله (ص) لذلك المهاجر صحة رأيه - أي رسول الله (ص) - وقال له: (اما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لارعدت له انف، لو امرتها اليوم بقتله لقتلته).^(٣)

وحينما طلب عبدالله بن ابي سلول من رسول الله (ص) قتل ابيه بنفسه، رفض (ص) ذلك الطلب، وان كان معبراً عن تقديم الولاء الاساسي على الولاء الثانوي، الا انه (ص) بقي مراعيًا لهذا الانتماء ما دام الناس حديثي عهد

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢:٢٠٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣:٣٠٣، ٣٠٤.

(٣) م ن ٣:٣٠٥.

بالجاهلية، وما دام الموقف لا يؤثر سلباً على مجمل الاحداث والمواقف والارتباطات، لمتابعة عشيرته له، ورفض (ص) كشف اسماء الاشخاص الذين ارادوا الفاءه من العقبة^(١) مراعيًا لانتماءاتهم المختلفة ومنعاً من البلبلة.

التعاليم النبوية لتكريس حاكمية الانتماء والولاء للاسلام

جعل رسول الله (ص) اسسا وموازن ومعايير لتقويم الاعمال والاحداث والمواقف، ولتقييم الافراد والجماعات، ووضع برنامجا في العلاقات والروابط ينسجم مع اتساع افق النظر الاسلامي، والتعامل مع الوجود الكبير والانتماء الكبير والولاء الموحد، ليجعل الشخصية الاسلامية اكبر واكثر ثباتا ورزانة في مواجهة الاحداث العابرة والمتجدرة، مع مراعاته للانتماءات والولاءات الثانوية، والتي هي محكومة للاسلام في منهجية الانتماء والولاء الموحد الحاكم عليها، ومن هذه التعاليم الشريفة:

الاول: الحب في الله والبغض في الله

جعل رسول الله (ص) الحب في الله والبغض في الله هو الحاكم على جميع ألوان ومظاهر العواطف والاحاسيس، مع اقراره لها في حدودها المسموح بها، ووجه انظار المسلمين بمختلف انتماءاتهم وولاءاتهم الى هذه العاطفة الاساسية، ليكون الله تعالى والمفاهيم والقيم التي وضعها هي الاساس في العلاقات والاواصر الاجتماعية.

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٤: ٣٥.

فقد جعل الحب والبغض في الله تعالى من اوثق دعائم الايمان، فقال: (اوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله).^(١)

وجعل العامل به من اصفياء الله المؤمنين فقال: (من احب في الله عز وجل وأبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله، فهو من اصفياء المؤمنين).^(٢)

وجعل هذه الرابطة من الفرائض الاسلامية، فقال: (الحب في الله فريضة والبغض في الله فريضة).^(٣)

الثاني: الاهتمام بأمور المسلمين

ان العلاقات الاجتماعية والسياسية يجب ان لا تتحجم ضمن وجود وكيان وانتماء معين بل تمتد بامتداد المسلمين، ولهذا وجه رسول الله (ص) المسلمين الى التعالي والسمو في الاهتمامات الكبيرة، لانهاء الانكماش والتقوقع في محيط ضيق لا ينظر الى الافق الاوسع، فقرر مفهوم الاهتمام بأمور المسلمين: (من اصبح ولا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم).^(٤)

هذا الاهتمام يجعل الامة الاسلامية أمة متماسكة متعاونة على التكليف والمسؤولية، فهي ذات اعضاء متجاوبة المشاعر والاحاسيس الكبرى، وبهذا الاهتمام يصبح المسلم منفتحاً على الجميع، ويتعامل مع الانتماء والولاء الثانوي في حدوده الجزئية وفي حجمه الطبيعي الذي لا بد منه.

(١) مستدرك الوسائل ٢: ٦٨، حسين النوري، المكتبة الاسلامية، طهران، ١٣٨٣هـ

(٢) مستدرك الوسائل ٢: ٦٨، حسين النوري، المكتبة الاسلامية، طهران، ١٣٨٣هـ

(٣) ن.م

(٤) الكافي ٢: ١٦٣، الكليني، دار صادر، بيروت، ١٤٠١هـ ط ٤.

الثالث: النهي عن التعصب

التعصب من اخطر الظواهر التي تصيب الامة، وهو منشأ لكثير من الممارسات السلبية التي تنخر في جسد الامة، وتؤدي الى التفكك والاضمحلال والتدهور والنكوص الحضاري، وهو (اتجاه نفسي جامد مشحون انفعالياً، او عقيدة او حكم مسبق ضد او مع جماعة او شيء او موضوع، ولا يقوم على سنة منطقية او معرفة كافية او حقيقة علمية، ويحاول صاحبه تبريره، ومن الصعب تعديله).^(١)

والتعصب من وجهة نظر الاسلام ورسوله (ص) هو اعانة المتعصب لقومه على الظلم: (العصبية أن تعين قومك على الظلم)^(٢)

وقد نهى رسول الله (ص) عن جميع ألوان ومظاهر التعصب للانتماء والولاء الثانوي، ونهى (ص) عن جميع الممارسات الواقعة في طريقه كالتفاضل الجاهلي الذي لا يقوم على سند مشروع، قال (ص): (يا ايها الناس الا ان ربكم واحد، الا ان اباكم واحد، الا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لاسود على احمر ولا لاحمر على اسود الا بالتقوى، ان اكرمكم عند الله اتقاكم).^(٣)

وقال ايضا: (من قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة، او يدعو الى عصبة، او ينصر عصبة، فقتل فقتلته جاهلية).^(٤)

وبنفي التعصب يتوازن الولاء للانتماء الاساسي وهو الاسلام وللانتماء

(١) مدخل في علم النفس الاجتماعي: ١٠٠.

(٢) كنز العمال ٥٩٠:٣، الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٥م.

(٣) الدر المنثور ٥٧٩:٧، السيوطي، دار الفكر، بيروت ١٤٠٣هـ ط ١.

(٤) صحيح مسلم ٤٧٦:٣، دار الفكر، بيروت ١٣٨٩هـ ط ٢.

الثانوي الى عشيرة او وطن او قومية او طائفة او مذهب اسلامي، ويكون الولاء للاسلام هو الحاكم على الولاء لغيره.

الرابع: النهي عن الممارسات السلبية

الممارسات السلبية تؤدي الى تكريس الولاء للانتماء الثانوي وتقديمه على الولاء الاساسي، وتجعل الانسان المسلم يدور في حلقة مفرغة منطلقا من انتمائه الفئوي في التقييم والتعامل والعلاقات، يسير في آفاق ضيقة واهتمامات جزئية تؤدي الى الانغلاق والتفوق، لذانهي (ص) عن تلك الممارسات، فقال: (لاتباغضوا ولا تحاسدوا ولاتدابروا، وكونوا عبادالله اخوانا، ولا يحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلاث ليال).^(١)

وقال ايضا: (لاتدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله اخوانا، المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يحرمه ولا يخذله، بحسب المرء من الشر ان يحقر اخاه المسلم).^(٢)

الخامس: الالتزام بالاخلاق الاسلامية

حث رسول الله (ص) المسلم على الالتزام بالاخلاق الاسلامية وهي كفيلة بالتوازن بين الانتماء والولاء الاساسي والثانوي، فدعا (ص) الى الايثار: (ما كرهته لنفسك فاكره لغيرك، وما احببته لنفسك فأحبه لاخيك...)^(٣)

(١) سنن ابي داود: ٤: ٢٧٨.

(٢) المحجة البيضاء: ٣: ٣٢٩.

(٣) بحار الانوار ٧٧: ٦٧.

ودعا الى ادخال السرور على قلوب المؤمنين: (احب الاعمال الى الله عز وجل ادخال السرور على المؤمنين).^(١)

ودعا(ص) الى حسن الخلق وعدم المقابلة بالمثل: (ثلاث من مكارم الاخلاق: تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك).^(٢)

وبهذه السيرة والتربية المتواصلة استطاع رسول الله (ص) ان يوازن بين الانتماء والولاء الاساسي وسائر ألوان الانتماءات والولاءات، فلم يهمل جانبا او يلغي خصوصية، فاستطاع ان يجمع المسلمين على اختلاف انتماءاتهم حول انتماء واحد مع مراعاة غيره، وجعل الولاء لله وللقيادة وللمسلمين هو الحاكم على جميع ألوان الولاءات، فانطلق المسلمون نحو تحقيق الاهداف الاسلامية الكبرى واستطاعوا تشييد حضارة انسانية كبرى بتحكيم المنهج الاسلامي والتعالي على الاطر الضيقة وجعلها تدور في الافق المحدود لها.

اننا في المرحلة الراهنة بحاجة الى الانطلاق نحو الهدف المشترك الذي يجمعنا في انتماء واحد وولاء واحد، وأن نتعالى على النظرة الجزئية وضيق الافق، وان نتعامل مع انتمائنا المذهبي تعاملا موضوعياً ضمن الانتماء الكبير للاسلام ولمفاهيمه وقيمه، وان نزيل الحواجز التي خلفتها اخطاء الماضي، وان ننطلق نحو تحقيق الوحدة الاسلامية ابتداء بضمائنا وعقولنا ثم مواقفنا العملية، في مرحلة اتحد فيها اعداء الاسلام - على الرغم من اختلافهم العقائدي والسياسي - لمواجهة الاسلام والصحة الاسلامية.

(١) الكافي ٢: ١٨٩.

(٢) تحف العقول: ٦.

العالمية والخاتمية والخلود
في الفكر الإسلامي

المهندس بيان جبر
العراق

بسم الله الرحمن الرحيم

حين يكون الحديث عن (الخصائص) فأن العالمية والخاتمية والخلود تصبح من اولويات المنهج الفلسفي الذي يركز عليه التصور الاسلامي في علاقته بالحياة والقانون والمدنية والدولة وحركة التاريخ وانماط التنمية والمعارضة والسياسة.

لكن.. ما الجدل الداخلي الذي يدور بين معادلة هذا الثنائي الصارم المنهج الخصائص، حيث يتعلق الامر بماهية تشريع الوحدات الاساسية في مشروع الاسلام او وحدة العبادات وما الذي يثيره الاسلام حيث يتحدث عن المشروعات والتيارات الفكرية الموازية اي التي تطرح نفسها اما رديفا لتشريعه في الحاكمة او تلك التي تقف ضده في تهذيب المجتمع البشري كبديل عقيدي واخلاقي لحركة عقيدته واخلاقه في الحياة؟..

الاسلام قائم على مبدأ التنوع والالما تميزت تشريعاته (بالمرونة) و (الواقعية) في تعاملها مع المسائل المعقدة والقضايا التاريخية الشائكة ولو لا

مرونته وواقعيته في الصدق مع النفس ومحيطها والعالم وبيئاته الفكرية والقومية والاثنية والعرقية لما تسنى لشريعته ان تطرح نفسها بوصفها الشاهد على عالميته.

عبر التنوع اخذ التشريع المقدس بضرورة تحديد الصياغات النهائية لوحدهاته على اختلافها واختلاف بيئاتها وشكل على الاساس ذاته صيرورته في التكوين الذاتي للمجتمعات والافكار بحيث لا يمكن الفصل على ضوء مبدأ التنوع هذا بين وحدة القانون ووحدة الدولة ووحدة السياسة ووحدة الفقه ووحدة التنمية، وحدة القضاء والعلاقات الاقتصادية والاجلاقية والتربوية على ان ذلك تم وفق جدل بين اصل تشريع (الوحدة) وامكان تثويرها في الواقع الانساني وتوظيف استعدادها الداخلي في الارتفاع (بمدنية) المشروع المراد الاشتغال عليه، من دون ان تطرأ على خط وحدة التشريع استثناءات الخروج على السياق.

التشريع ووحدة فكرية متماسكة تحت اي ظرف ومتغير زماني لاياتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها كما يقول الفلاسفة - وحدة يتماهى في داخلها المفعم بالحيوية والقوة نسق العلاقات البشرية في جدل لا يحسم الصراع لطرف دون آخر فلا التشريع يصرع البشرىات كونه لم يأت الا لحسم موضوعة القيمومة المهدبة بأخلاق العرش الالهى المقدس عبر امكانات البشر الالهية ولا البشرية قادرة على التماهي مع مقاييس العدالة الاجتماعية والسياسية والاتساق مع تكوين القيمومة بلغة العرش الابمنهج الشريعة.

لذا عبرت الشريعة عن ارقى حالات تجسيد القيمومة الالهية على البشرية من خلالها ومن خلال فسحها لمجالات تثوير الطاقات والامكانات العقلية خدمة لاغراض العمران البشري، الاقتصادي، الاجتماعي، السياسي، المدني.

اذا اعتبرنا الشريعة الربانية هي الوحدة الفكرية الاولى التي بادرت لتوظيف

امكانات العقل ازاء العمران فأن ما تلاها من وحدات فأن هذه الوحدات هي تعبير فلسفي صادق لمعنى الوحدة التشريعية الاولى، لذا عبرت وحدات الدولة والقانون مثلا عن سر الوحدة التشريعية وهكذا تندرج بقية العناوين في سياق فهم الشريعة وقدرتها في تمثيل الحياة.

ان الشريعة الاسلامية التي اخذت على عاتقها قيادة الحياة والامة معا ادركت وفق لغة القرآن والسنة ومدرسة اهل البيت (ع) وتراث الفقه والمعرفة ان وحداتها لا يمكن ان تكمل الواحدة الاخرى الا وفق نسق يتعايش بممكنااته الفكرية والعلمائية بصورة تبدو فيها الدولة والقانون والقضاء والعمران والتعزيزات ذات طابع توحيدي صارم قادر على الحياة وفق اي ظرف ومتغير سياسي او اجتماعي سواء داخل اقليم الدولة الاسلامية او ما يطرح في البيئات المدنية خارج حدودها.

لنأخذ مثالا حيا على ذلك:

الدولة الاسلامية مشروع لحياء الارض بما يعني الاحياء في لغة الفلاسفة من احياء الارض كأرض عميقا في تثوير امكانات العقل وقدرته على فعل الحضارة بكافة اشكالها وانماطها الاجتماعية، الثقافية، السياسية، الاقتصادية، الاخلاقية، وهذه الدولة لا يمكن اقامة حدودها الا عبر اقامة وحداتها بالشكل الذي تقوم فيه كل وحدة تغذية الاخرى على نحو الافادة والتوظيف خدمة لهدف اعمار الارض وحياتها من هنا يبدو عسيرا اقامة وحدة للنظام الاجتماعي اذا لم يترافق معها وبشكل حيوي وحدة للنظام الاقتصادي، ذلك ان قيام (مجتمع) مدني لا بد من وجود اقتصاد يكفل لهذه المدنية استمرارها وقدرتها على الحياة

والافان قيام (اجتماع) بشري - مدني في دولة تدعوا الى الاسلام من دون مادة اقتصادية ترعى مدنيته وتطوره وتكفل محروميه من اصحاب الدخول المحدودة يستحيل على هذا المجتمع الاستمرار بمشروع الاحياء.

وإذا كان نظام الوحدة الاجتماعية لا يستقيم بناؤه الا بكفالة وحدة للنظام الاقتصادي تعضده في حركته باتجاه العمل النهضوي القادر على اسناد الدولة الاسلامية والدفاع عن ثغورها وتسنده في صيرورة جدله العقلي في المعرفة وبلورة مشروعه الخاص تعبيراً عن الفقر والطبقية والتخلف فأن القضاء كوحدة ثابتة من وحدات الفكر الاسلامي ودولته الاسلامية معني بالوحدتين الاقتصادية والاجتماعية وقد ذكر الشهيد الصدر في كتابه (اقتصادنا) ان الحاكم الشرعي (القيادة) لا يحق له مقاضاة السارق للوهلة الاولى قبل معرفة الدوافع الاقتصادية التي دفعته لارتكاب جريمة (السرقه) فلربما قام بهذه الجريمة كونه (مضطرب) بالشكل الذي لم يستطع فيه من كبح جماح نفسه وهنا على الحاكم الشرعي (القيادة) ان تصون المجتمع الاسلامي (اجتماعيا) و (اقتصاديا) من خلال برنامج اقتصادي لا يدع مجالاً للسرقه ولذلك كان يندر وجود فقير في شوارع الدولة الاسلامية التي كان يقودها الامام علي(ع) ولعل حادثة الرجل (الذمي) الذي كان يتسول في الشارع خير مثال يمكن اعتماده في تقييم تجربة دولة علي(ع) فحين وجد الامام (الرجل الذمي) على هذه الحالة في الشارع او ما الى من كان معه قائلاً: ما هذا و (ما هذا) دلالة للظاهرة اي ان الامام كان يؤشر على ظاهرة اجتماعية اقتصادية جديدة في سياق التجربة السياسية التي كان يقودها واستغرابه من وجود رجل فقير في دولته مما يشير الى ان تجربة الامام علي(ع) كانت اخذت بالاعتبار فهم وحدات الشريعة الاسلامية وعدم انفلات وحدة من هذه

الوحدات عن مدار الوحدة الكلية.

وإذا كانت وحدات القضاء والاقتصاد حالات تؤمن بيئة تكاملية واخلاقية تمنع من تزايد ظواهر الشح الاجتماعي والطبقية والعدوان والارهاب الداخلي وتعزز الرصيد الداخلي في علاقة الامة بقيادتها التي تستمد (شرعيتها) من استقامتها في طريق خدمة اطار الدولة والامة معاً فأن الوحدة السياسية كما اعتقد من بين اهم الوحدات المركزية التي تحظى بأهمية بالغة في مشروع الدولة الاسلامية وفي سياق تطورها وصيانة حدودها وحماية انجازها الالهي وبقائها ممثلة للعدالة الربانية في سياق الحياة الانسانية - فالوحدة السياسية تعنى بقضايا الثغور والاقليات الدينية والقومية وحق الاحزاب السياسية واعداد القوة العسكرية، وصيانة التحالفات الاقتصادية والسياسية مع الدول والمنظمات الدولية وحرية المعارضة المدنية واطلاق حركة الثقافة والرأي الآخر وما يتعلق بالحرريات الاساسية التي كفلها الاسلام وبناء المؤسسات وضح مفاهيم الثورة والنهضة من اجل ابلاغ رسالة الله في الكون كله.

الامام علي(ع) يرسم شواخص لهذا الوحدة من خلال تأكيده على جملة من المعالم الالهية في فهم (سياسة البلاد) عبر رسالة (العهد) لمالك الاشر يقول الامام(ع):

فليكن احب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح، فأملك هواك، وشح بنفسك عما لا يحل لك، فأن الشح بالنفس الانصاف منها فيما احبت او كرهت واشعر قلبك بالرحمة للرعية والمحبة لهم والल्पف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتتم اكلهم فأنهم صنفان اما اخ لك في الدين او نظير لك في الخلق.

ما يمكن الافادة من شذرات هذا العهد فيما يتعلق بالوحدة السياسية ما يلي:

١- ان الحاكمية الاسلامية، هي حاكمية الله سبحانه و تعالى في الحياة الانسانية والشريعة انما جاءت لكي تنظف المجال الانساني من عبادة الاوثان والقفز عليها بالنظرية التوحيدية للوصول الى الهدف النهائي وهو تشكيل مجتمع اسلامي قادر على العبادة الواعية.

٢- ان القيادة الاسلامية وهي تقود اقليم الدولة الاسلامية لاتقوم بمبدأ القيادة الاتادية لوظيفة شرعية الهية مؤاها خدمة الرعية (المجتمع) واحلال النظام الاسلامي في اطار العمل الصالح، اي العمل الذي يؤدي وظيفة القيادة والنهوض ببرنامج التنمية الانسانية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعبادية وتأدية ذلك كله في نطاق القيام بوظيفة التشريع.

٣- اقامة العدالة الاجتماعية الربانية بأبهى نماذجها وصورها عبر نفي الطبقة وفتح منافذ الاقتصاد وتنظيم العلاقات الاجتماعية بالشكل الذي ينفي الظلم والتعسف.

٤- الاسلام القائد ينفي الظلم بجميع مظاهره وظواهره ويستجيب لكافة التنوعات البشرية حتى وان اختلفت توجهاتهم الايديولوجية النقيضة مع طروحات الاسلام وفهمه للحياة فالانسان في قيم الفكر الاسلامي والدولة الاسلامية اما اخ مؤمن بالطرح والقيم الاسلامية ويستجيب لفهم الاسلام او نظير في الخلق واذا كان كذلك فإنه يعيش بأمان وسلام واستقرار في اطار الاسلام.

٥- النهي الشرعي الجازم عن كافة اشكال استغلال الرعية (المجتمع) عبر (الاستئساد) عليهم والبحث عن كل الاساليب والسبل لتطويعهم وارغامهم على قبول ما لاينسجم وتعاليم الاسلام.

٦- من ارقى التعاليم التي خص بها الامام علي(ع) واليه مالك الاشر قوله:

(واعلم يا مالك اني وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور وان الناس ينظرون من امورك في مثل ما كنت تنظر فيه من امور الولاية قبلك) وفي هذا دلالة كبيرة على عدة مجالات منها:

- ان مسؤولية اظهار نموذج العدل الاسلامي الحقيقي مسألة تبقى على الدوام هم القيادة التي تبحث عن المعنى للعدل الاجتماعي لا الضرورة الظاهرية له في اوساط الناس.

من هنا يوصي الامام القائد واليه مالك بالعدل كأنقى نموذج يمكن ان يكرس فيه مالك صورة الدولة التي تقوم على العدل اليس بالعدل قامت السماوات والارض.

- في دعوة الامام للعدل اضاءة لجانب معرفي كان على الدائرة الاسلامية توسيع دائرته وكشف دلالاته بلحاظ، ان الامام اكد لمالك ان مصر جرت عليها مشاريع دول امتازت بالجور تارة والعدل تارة اخرى، ولكي تكون مصر حالة عدل بالاسلام فأمر الامر يقتضي (حكما) من نوع مختلف، حكما يمتاز بالحزم امام حالات النكوص والتهور والفوضى والعفو الاجتماعي لاضاءة المفهوم اكثر.

- الامام علي (ع) لم يول مالك الاشر على اقليم مصر الا بعد شعوره ان مالك دائم الاشتغال بأمر الولاية الذين كانوا يعملون في اطار الدولة الاسلامية، اولئك الذين من حيث يشعرون او لا يشعرون يسيئون لحاكمية الاسلام من هنا كان الامام يحذر الاشر من الوقوع بنفس الملاحظات التي كان يعاني منها الولاية السابقون ولهذا اشارة من ان الامام القائد كان يركز على ماهية الوحدة السياسية وانزلاقات الخروج منها.

المعارضة والوحدة السياسية:

يقول المرجع المفكر الشهيد الصدر: الامة هي صاحبة الحق في الرعاية وحمل الامانة، وافرادها جميعا متساوون في هذا الحق امام القانون ولكل منهم التعبير من خلال ممارسة هذا الحق عن آرائه وافكاره وممارسة العمل السياسي بمختلف اشكاله كما ان لهم جميعا حق ممارسة شعائرهم الدينية والمذهبية فمبقدار ما يقترب الحاكم من فهم هذا الحق للامة ويروضها، اي يدر بها على الرقابة والجرأة - جرأة النقد - يمكن تحديد شرعيته القانونية من عدمها وبمقدار ما يوظف النص لاحتكار السلطة واحتكار القرار السياسي بعيدا عن رقابة الامة، ومشورة رجالها واهل الحل والعقد منها يمكن تحديد هويته الاستبدادية والسلطوية.

ويؤكد الشهيد المطهري (بما ان ثورتنا تطالب في حقيقتها بالعدالة فعلينا جميعا ان نحترم الحريات بكل معنى الكلمة، لانه لو ارادت حكومة الجمهورية الاسلامية ان تخلق جو الكبت والضغط فأنها تتحطم لا محالة، الاسلام دين الحرية، ودين يريد الحرية لجميع ابناء المجتمع ولاشك ان الحرية تختلف عن الفوضى وان غرضنا من الحرية هي الحرية بمعناها المعقول).

لا احد يشك بأنه يستحيل حصول اجماع كامل داخل اي مجتمع من المجتمعات وفي ظل جميع الانظمة السياسية حيال قضية او فكرة ما في جميع مجالات الحياة متعددة المواقف والاراء، وتنوع المشارب والاهواء، حالة طبيعية تنعكس على شكل تعددية فكرية وسياسية وثقافية ومن طبيعة هذه التعددية انها تقود الى تمايز المجتمع السياسي الى تيارات واحزاب ولا يمكن والحال هذه توقع سيادة نظرة اجتماعية اجماعية الى جميع السياسات والبرامج في مجتمع

الدولة الإسلامية بل قد يصل الاختلاف في الرأي في السياستين الداخلية والخارجية الى مستوى التقاطع والتضارب، فريق يرى صحة مواقف النظام السياسية، وفريق يرفضها وثالث يقف موقف الوسط، وهكذا وفيما سبق تاريخيا لم يكن هناك خلاف على هوية النظام السياسي الإسلامي وقاعدته الفكرية الإسلامية، فليس هناك من كان يدعو الى علمنة الدولة والمجتمع كما يحصل هذه الايام، صحيح ان اكثر السياسات والممارسات كان فيها تجاوز للشرع ومبادئ وقيم الاسلام وهي في مضمونها علمانية صريحة الا ان الدعوة الصريحة اي فصل الاسلام عن النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي لم تكن موجودة بل حتى في اشد حالات الانحراف، كانت الشرعية الإسلامية والاصطباغ بصبغة الاسلام هي المعيار.

الا انه في عصر الهيمنة القيمة الغربية، صار قطاع من الامة يدعو الى العلمنة الشاملة والجزئية، ومعنى ذلك ان النظام الذي يستند في سياسته وفكره واحكامه وعلاقاته الدولية الى القاعدة الإسلامية يواجه معارضة ترفض القاعدة الفكرية للدولة، فالى أي مدى يسمح على مستوى الجهات السياسية لهذه المعارضة في ممارسة النشاط العام؟ ومتى تكون مشروعة ام لا؟ وهناك المعارضة التي لا تختلف مع القاعدة الفكرية العامة للدولة ولنظامها السياسي ولا من توجهاتها ومبادئها ولكنها قد تختلف في تفاصيل السياسات العامة على الصعيد الخارجي او المحلي، وفي اساليب التعبئة العامة والادارة وطريقة التغيير الاجتماعي والتنمية، وفي هذه الاطر قد يعارض زعيم سياسي وتكتل اجتماعي، وتيار طبقي وجماعات الاصناف.

فهل ان وضع هذه القوى يعني بالضرورة خضوعها لرأي التيار الغالب في

المجتمع وهل يمكن لجمها عند التعبير عن آرائها والدعوة اليها واستخدام اساليب متعددة وحديثة في استقطاب الرأي العام ثم هل يجوز اسكات هذه القوة بالضرورات الامنية والسياسية وحدها وفي مدى زمني عام غير محدد ام ان حقها في الاعتراض والتجمع والنقد وابداء الرأي يبقى حاكما واصيلا على ادلة المنع المنطلقة من حالات الضرورة؟

ان حق الاعتراض يرتبط بمبحث الحرية والحقوق السياسية والاجتماعية وهو نابع من حق العضوية والمواطنة في المجتمع واصالة حق المشاركة في السلطة وممارستها فعليا وحق التنظيم والمشاركة في التجمعات (الاحزاب). ان اهمية النظر في هذه القضايا تستدعي درجة من الفقهة والاستيعاب للموروث الفقهي وللتجربة التاريخية ولهذا لا يمكن القطع والتثبت في الرأي دون التوفر على الملاكات الآنفة لكن دورنا سيكون الاستعانة بأراء الفقهاء واثارة الاسئلة وهي مهمة جدا في هذا المجال كما ينبغي اثاره المبادئ التالية:

١- مبدأ عدم بطلان حق المسلم.

ففي خبر ابي عبيدة عن ابي جعفر الباقر عليه السلام (لا يبطل حق امرء مسلم) وفي خبر الكناسي عن ابي جعفر (ع) (لا تبطل حقوق المسلمين فيما بينهم).

٢- تساوي الافراد دون تمييز في الحقوق والواجبات.

٣- مبدأ حفظ النظام العام.

٤- مبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لائمة المسلمين.

٥- مبدأ حق الانسان في ممارسة الحرية السياسية والفكرية ضمن حدود

القاعدة الفكرية للمجتمع والدولة.

هنا تثار الاشكالية التالية:

هل تصل حدود الحريات السياسية الى مستوى الدعوة الى تداول السلطة في دولة اسلامية ليتمكن حزب علماني مثلا من ان يستفد من الحرية لوجه ضربة الى القاعدة الفكرية للدولة لانه يريد الانسجام مع وضع دولي ضاغط وايدولوجية الحضارة الغربية يقول الشيخ شمس الدين (لا يعقل ان تشرع عقيدة الغاء نفسها لانها لمجرد ذلك تكون قد عبرت عن عدم صدقيتها وعدم حقانيتها، حتى لو اخذنا مثلا المجتمعات الديمقراطية الغربية هل تسمح فلسفتها التي تصدر عن الليبرالية والمذهب الرأسمالي في الاقتصاد بقوى واتجاهات من شأنها ان تغير جوهر هذه الفلسفة؟ ان السماح بوجود احزاب شيوعية مثلا في بلدان رأسمالية لا يعدو شكلا من اشكال الوان الديمقراطية وهو وجود شكلي يأسس حرية مضبوطة النتائج ولا تهدد اسس النظام وفلسفته).

يبقى ان نشير هنا ان (الوحدة السياسية) في النظام الاسلامي وفي الوقت الذي تجد فيه من حقها الدفاع عن قاعدتها الفكرية ووحدة الامة ومسيرتها باتجاه التشريع وصون منعها تعني اتاحة الفرصة امام الاتجاهات الفكرية والسياسية في اطار الدولة كي تكون هذه الاتجاهات العين الساهرة التي ترعى مصالح الدولة العليا من دون فرض وصاية عليها او حذفها.

الديمقراطية – العالمية – التعارض والاتفاق:

الاشكالية هنا هي ان بعض الاسلاميين يسعون لتوظيف الديمقراطية كأداة للوصول الى السلطة فاذا وصلوا اليها تخلوا عن الديمقراطية بذريعة ان تطبيق الاسلام لا يتحمل ذلك الا يعني هذا استحالة الديمقراطية الى قناع للاستبداد؟

للاجابة نقول: المنطفة العربية والمنطفة الاسلامية تعاني من نظم الاستبداد سواء في المرحلة التي سبقت الانظمة العلمانية التي تحكم مجمل البلاد العربية والاسلامية او في ظل الانظمة العلمانية التي تحكم البلاد الاسلامية اليوم ما عدا ايران - ثمة تشابه وتمائل بين النظام الاسلامي الاستبدادي من حيث الاستبداد الذي ميز مرحلة الحاكم العثماني وبين الانظمة العلمانية الان التي تعتمد النظم الاستبدادية.

الاسلام ان لم يكن وعد بتحرير الانسان المسلم والعربي من النظم الاستبدادية، فيمكن القول انه لاحاجة للمسلمين والعرب به، وان حاجتنا الى الاسلام لاحدود لها، ولكن من اهم اولويات هذه الحاجات حاجتنا الى النظام الشوروي.

ان التيارات الاسلامية التي تعارض اليوم الانظمة في الساحة يجب ان تركز على امر اساسي في النظام الاسلامي وهو امكانية تمثيل القطاعات الشعبية، لذلك فأن اي عملية تحول في عصرنا الحاضر لتنقلنا من النظم التي جلبت لنا التخلف والهزائم يجب ان يكون في اساسها ان السلطة انما ينتجها الناس، أي يختارها الناس.

من هنا يمكن تلخيص رأينا بوحدة الدولة بما يلي:

١ - انها ظاهرة قاعدتها الفكر الاسلامي وساحتها الامة وهي وسيلة للوصول الى الغاية الاساسية منها والتي تتعلق بتعبيد الناس الى الله كما اكده الامام الخميني(رض) في مرات عديدة.

٢ - هي الساحة الفعلية الحقيقية التي يختبر الناس فيها مدى كفاءة الاطروحة السياسية التي تعكس امانيهم وطموحاتهم واهدافهم في الحرية والتكافىء

والكرامة والتعايش الاجتماعي والسياسي مهما تعددت العناصر البشرية وتنوعت مشاربها القومية والاثنية والدينية.

٣ - هي الحد الفاصل بين الهوية الذاتية المستقلة للانسان المسلم من اللاهوية، فما بين ان تكون او لا تكون وتنجز اهداف الاطروحة التي تنتمي لها، ينبغي التماهي بين فهم حدود الشخصية واستقلالها وفهم حدود الدولة كونها وحدة مستقلة تضي على الشخصية اصالة الحرية واصالة الانتماء للمشروع الاجتماعي السياسي الاسلامي.

٤ - الاسلام يعبر عن شمولية افكاره ونمط خطه في الحياة والمجتمع والتنمية والحرية وقيم الجهاد والتغيير والاستقلال والكرامة عبر حاضنة الدولة والايقى الاسلام وعناوين مشروعه في الحياة حلما جميلا يراود نفوس العاملين في سبيله.

٥ - هي مقياس عدالة القيادة الشرعية في تعاطيها مع الامة انطلاقا من اسس الاسلام وعدالته ونمط سلوكه العقائدي.

خلود الدولة - الامة:

عندما جاء الاسلام بالامة، لم يقربها بحتمية نظامية معينة ومن هنا صارت (قيمة عليا) ثابتة لا تحبسها اطر جامدة بل هي القادرة على ايجاد الاشكال والصبغات التنظيمية التي تتلائم ومعطيات العصر وقد جاءت احداث المنطقة الاسلامية في السنوات الاخيرة لفرض منطقتها على الاوساط العلمية المتشككة في حيوية الامة لتدفعها دفعا ان تعيد النظر في حساباتها وتجعل موضوع بحثها وجود هذا الجسد الحي المتناسك، الذي تكون اعضاءه من الشعوب الاسلامية

جمة والتي بدت وكأنها في عزلة وانفصال عن بعضها من خلال الحواجز الاقليمية والسياسية المتباينة بل والمتناقضة والدولة ليست امر مستحدثا وانما المستجد هو شكلها وليست القضية تنوع انماطها في هذه الجماعة البشرية او تلك.

ولان قضية الدولة مرتبطة بتراث الامة فإنه يتوجب قراءة معنى (خلودها) بتطور الشريعة والانماط السلوكية والعقائدية التي كرستها عبر تطور الفكر السياسي الاسلامي وقدرته على بسط انواع الدولة التي طرحها على الجماعة الانسانية - الاسلامية والتفرد عن غيرها الذي لازمها في حركيتها وانفصالها مع هذه الجماعة.

ان الفارق بين الدولة في الاسلام وخلودها عن غيرها من الدول ومفهوماتها يكمن في تصورنا بالفارق العقائدي اي السقف الفكري والقاعدة الايديولوجية والفلسفية التي تحتضنها وتوظف اشكالها وممارساتها في الحياة الاجتماعية في الاسلام ففي حين احدثت التحولات الديمغرافية في الغرب خبرتها وبشرتها في الانماط السياسية للدولة منذ عقد جان جاك روسو الاجتماعي وتغيرت طبائعها وقوانينها ونظرتها للدستور والحريات وهي تحولات مرتبطة بتوق الخبرة البشرية في رؤية الدولة خالية من الوصايا الكنسية بقيت (الدولة) في المفهوم الاسلامي (خالدة) لجوانب تتعلق بفلسفتها وماهية المعرفة التشريعية التي كانت على الدوام تعمق العلاقة بين معرفة التشريع والسلوك السياسي البشري الذي يلازمها، بين واقعية الفكر الاسلامي الذي يشيد دعائم السياسة وممارساته على اسس واقعية ومنطقية تدفع الانسان الى زيادة الممارسة ايمانا به في العقل التطبيقي وبين (بشرية) القيادة التي تلازم التشريع حسب ما يتطلبه موقف المصلحة من تطبيقه.

بمعنى آخر لم تحول (الدولة) في الاسلام وعبر صيرورات تطورها التاريخية منذ تجربة المدينة من ملكية الى جمهورية كما حدث في اوربا ولا من دستورية الى مؤقته كما في بعض نماذج الشرق الادنى بل بقي النموذج المدني دالا على ذاته كاشفا عن عمق ارتباطه الوثيق بتجربة التشريع ونموذجه الذي تأسس في القرن الهجري الاول.

هذا لا يعني ان ارتباط مفهوم الدولة بتجربة القرن الاول الهجري هو ارتباط ميكانيكي لصق بتلازم التجربة في جميع ممارساتها واساليبها من دون اعمال ذهنية التطور على اجتهاداتها ومقاييسها في مجمل العقد المستحصية في الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية والاخلاق والعلاقات الخارجية والعلاقة مع الاخر بل ظلت (الدولة) في الاسلام مفهوما تطبيقيا مشدودا بقوة الى مجال التطور السريع في مجمل الانماط الطارئة والمستحدثة في الحركة الانسانية التاريخية وهذا سر خلودها، على ان (الدولة) في الاسلام يخلدها تطورها ويجعلها مندكة بشكل فاعل في (ميكانزم) المكان والزمان لا تبارحه الا وهو اقدر على تشخيص مصلحته ومصلحة اجياله، والتجربة التاريخية الاسلامية تتحدث ان المجتمع الذي عاصر علي بن ابي طالب (ع) وسنوات قيادته كان يتوق الى ايام علي (ع) حين غزتها تيارات الجاهلية الاموية التي استبدلت مفهوم الدولة في الاسلام الى ملك قبلي جاهلي لركائز النظرية واسسها.

على صعيد الامة يطبق فقهاء العلوم السياسية على تفعيلها الدور النظرية السياسية الحاكمة ب(الافتدار العالي المنبثق من الوجود السياسي لها) ولان الامة آمنت بالامامة مبدأ تطبيقيا لنظريتها السياسية الاجتماعية العقائدية فقد فعلت خلودها على مستوى الدولة عبر عدة مجالات شرعية، فالنظرية السياسية التي

صاغها النائيني تحت عنوان (المشروطة) تنبثق من الامامة وهكذا تجلت (الدولة) في الراهن السياسي الفعلي عبر تراكم هائل من تجارب الاقتدار السياسي المنبثقة من مجالها العقائدي وتعتبر نظرية (ولاية الفقيه) لدى الامام الخميني (رض) من الامامة، ومن النظريات التي كان لها الدور الاساس في احقاق مطالب الشعب الايراني وانتصار ثورته في قرن سياسي تراكمت فيه نظريات سياسية دولية وقفت وتقف باستمرار في وجه أي تحول سياسي اسلامي.

والامام الخميني (رض) الذي قاتل منذ ما يقرب نصف قرن واكثر من اجل تكريس حكومة الاسلام لم يتوصل لهذه النظرية السياسية التي اثبتت مصداقيتها في البقاء والاستمرار والتطور ومراكمة مفاهيم الدولة عبر شاخصها السياسي في ايران الا حين ادرك ان النظرية تنسجم الى حد كبير مع مبررات الثورة، واستعداد الامة، وتوجهها لمشهد الظهور النهائي للدولة الاسلامية في مواجهة النظريات العلمانية في التعبير والتطور وما اصراره العنيد على تطبيقها واقامة الدولة الاسلامية على اساسها الاوعي تاريخي متفرد بدواعي اقامة الامة الاسلامية الجديدة التي تنهض بمسؤوليات الريادة الوسطية في الجغرافيا السياسية والفكر والعلاقات الدولية ومناهضة الكفر العالمي واستئناف الحياة على اساس الاسلام. من هنا ايضا ادركت الامة ان المشروع الخميني في التاريخ والفكر والقفز بالمرورث الفقهي من خانة الجمود الى خانة التطور والنمو والاستمرار هو المشروع القادر على قيادة الحياة واثبات احقية الشارع المقدس كما الشارع الاجتماعي في الاحتجاج والتمكين.

إن الامام الخميني (رض) اراد من تأسيس الدولة القول بأن الامة التي تتحرك بالاسلام لصياغة طروحتها السياسية قادرة على تجاوز النظريات المعادية التي

تقف في طريقها، ومثلما تمكنت الامة في ايران من تجاوز قرون الاستبداد والكفر وسيطرة الغرب وتحدي آليات المشروع الغربي التخريبي بادرت بذات الوقت على اقامة (الدولة) وتنظيف مجالها النظرية والتطبيقي من آفات اللاحق والتبعية، فعلى مستوى القيادة كان الامام يقودها بجدارة الرمز، وكفاءة النظرية واقتدار الشعب، وعلى مستوى النظرية، كان الاسلام بموروثه الفقهي والسياسي والثوري والتاريخي يحرك الشارع ويلهب النفوس ويزكي المعادلة الثورية من مواطن السقوط والانهيال والتبعية وهكذا لبث الامة كشرط تاريخي في الانقلاب السياسي والثوري والقيادة كشرط تاريخي الدفع والتسديد والتوجيه والعمل المتواصل الدور الاساس في اعادة الاسلام لواقع الحياة ومن هنا اختلف مع العنوان في مضمون فلسفة الخلود لان ما يعنيني هو قابلية القيادة في تكريس الاسلام السليم والوصول بالامة الى شاطيء السلامة والامان، وما اريد قوله هو ان (القيادة) كأمتداد للامامة هي التي اعادت مفاهيم الاسلام الى واقع الحياة رغم القدرة الداخلية التي يخزنها الفكر في الواقع التطبيقي للحياة والالم لم تؤسس حكومة اسلامية مثل قيام الحكومة الاسلامية في ايران على يد الامام الخميني ومن هنا يصح القول ان الرمز بفكره واقتداره كما الامة هما اصحاب فكرة التخليد لان المشروع الخميني هو صاحب المبادرة فيما يبقى الاسلام فكرة شرعية قابلة للتطبيق اذا لم تسنح لها فرصة الشرط التاريخي الممثل بالامة المقتدرة والقيادة المتميزة.

الشرعية في مزايا العالمية

هنا سنعالج (عالمية) الشرعية مجوزين هذه المرة لانفسنا الخوض في

(عالمية) الشرعية عبر التطرق للعالمية بوصفها الفريدة في امتياز موقفي الامة والحاكم للوقوف الاجمالي امام مسائل حديثة يفرضها سياق التحدي الذي تعيشه الامة والنظرية السياسية في الراهن الداخلي والدولي ولكون الشرعية هي المدخل الطبيعي في قراءة فلسفة الاسلام ونظرته للوحدات التي يؤمن بها سياقها المدني.

فقد اختلف المسلمون في كيفية نصب الامام واختيار الحاكم - الخليفة - لهذا المنصب الخطير وكانت المشكلة من الخطورة بحيث ما سل سيف في الاسلام الا بسبب الامامة بتعبير صاحب الملل والنحل الشهرستاني لكن الجميع متفق على ان الحاكم مكلف بحراسة الدين وسياسة البلاد بتعبير (ابي الحسن الماوردي) ولا يكون عمل الحاكم شرعيا اذ لم يتقيد بالتكاليف فيكون مقدار عمله تنفيذ احكام الاسلام واقامة العدل ورعاية الامة وبالتالي توفير سبل اداء مسؤولية الاستخلاف.

ان المصدر الاول لشرعية كل حاكم في النظرية السياسية الاسلامية انما يستمد من قبوله الكامل الاحتكام الى شرع الله بلا منازعه ولا رغبة في مشاركة- يقول الراغب في مفرداته (واعظم الكفر جحود الوحدانية او الشريعة او النبوة) وقال بن حزم (لا يحل الحكم الا بما انزل الله تعالى عبر لسان رسول الله (ص) وهو الحق وكل ما عدا ذلك فهو جور وظلم لا يحل الحكم به.

اذن النص الاسلامي كتابا وسنة هو الحاكم الاعلى والسلطة التي لاتعلوها سلطة.

ولاشك ان هناك من وقف الى جانب مطالب الامة ودافع عنها بذهنه وسلوكه الفقهي كأبي حنيفة النعمان، عبر وقوفه كما تقول بعض الروايات الى

جانب ثورة الشهيد زيد بن علي بن الحسين (ع) ومحمد وإبراهيم ابني عبدالله بن الحسن، وذكر ابوبكر الجصاص الحنفي في احكام القرآن عن ابي حنيفة (كان مذهبه مشهورا في قتال الظلمة وائمة الجور) ولذلك قال الاوزاعي: احتملنا ابا حنيفة على كل شيء حتى جاءنا بالسيف).

لكن الذي حصل ان جدار (الشرعية) تم توظيفه على ايد حكام الجور بالشكل الذي تحول الى ثقافة نالت الى درجة كبيرة من قيمة (الشرعية) التي رسمتها يد المشرع الاسلامي بأمانة مثلما ان المسحة المثالية التي اصطبغت بها صورة الحاكم في المقولات السياسية وقراءتها بشكل بعيد عن واقعتها المفترضة جعلت منها مصدراً لتخريب علاقة الامة بعناوين لصيقة (بالشرعية) كالدولة والقانون والعدالة وغيرها.

يشير الدكتور راشد الغنوشي في كتابه (الحريات العامة في الدولة الاسلامية) الى ما يسميه الثغرة الكبيرة التي دخل منها الوهن، فهو يرى ان معظم كتب السياسة الشرعية ذات مسحة مثالية، ذلك لانها حينما اشارت الى مبدأ الخروج (الثورة) على الحاكم لم تاخذ بنظر الاعتبار التناسب بين الوسائل والغايات ولهذا السبب لم تجد لها طريقا الى العمل وتوجيه التاريخ ويرى ان المعاني الكبرى في الجهاز الاسلامي كالبيعة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والشورى واهل الحل والعقد وقوامه الامة المستخلفة، ظلت غالبا معاني مجردة لاحظ لها من التطبيق لا بشكل جزئي ولا شكلي في كثير من الاحيان وينتهي الغنوشي الى تقرير النتيجة التي يريد الوصول اليها، حيث يقول (واحسب ان الفكر السياسي الاسلامي الحديث ولئن استمر تأثره بالمثالية الغالبة على السياسات القديمة فأن تصديه لمعالجة مشكلات الواقع وتقديم صيغ تنظيمه للسياسية الاسلامية في

تنام رغم ان الإنجذاب نحو القديم مازال سائداً وغالباً ما يشبه النكوص احياناً، ولكن تيار التجديد في تنام واستئناف لمسيرته المباركة على خطى المصطفى (ص) وابن الخطاب وابن حزم وابن رشد وابن خلدون والافغاني ومحمد عبدة وخير الدين التونسي وحسن البنا والترابي).

في هذا المقطع لم يصل الدكتور الغنوشي وهو الذي شخص داء السعي للارتفاع بمشكلات الفكر والممارسة في ان يذكر الامام علي بن ابي طالب (ع) الذي كان وضع افجع عوامل الارتفاع والاستئناف بحقوق الامة، ولا ندرى حقا السبب الذي يقف وراء احجام الغنوشي عن ذكر الامام (ع) مع الذين ذكرهم.

الشرعية التي رسمها القرآن والسنة النبوية ومدرسة اهل البيت (ع) بالفكر السياسي - الاجتماعي تارة وبالممارسة التطبيقية و تارة اخرى تعتبر اضافة الى جميع التأكيدات والمقولات الفكرية الحديثة والقديمة من اهم القضايا ذات الصلة بالامة واسباب بقائها وحركة حضارتها وثقافتها السياسية والعقائدية والاجتماعية فبمقدار ما تقترب الامة من شرط وعيها للاسلام وتكون قادرة على تشخيص مصالحها الذاتية بنفسها او عبر نخبها وشرائع طبقاتها الواعية بمقدار ما تكون واعية ايضا لصورة الحاكم ونموذج سلوكه وصورة الحكم وسلوكه السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعقائدي والاخلاقي ولعل هذا الامر (الوعي بالشرعية) كان من اولويات منهج ائمة اهل البيت (ع) في الامة عبر التوجيه والتثقيف تارة والنزول الى الممارسة السياسية تارة اخرى وصولا بالامة الى مستوى حضاري وفقهي وسياسي تستطيع فيه تشخيص مصالحها بأقتدار والسبب في ذلك ان (الشرعية) كانت من اهم اسباب النكوص الذي اصاب الدولة الاسلامية بعد وفاة النبي (ص) وجعل سياق الدولة غير قادر على كفاية المسؤولية

التي القيت على عاتقه وشكلت أزمة ثقافية القت بظلالها القاتمة على السلوك والحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الاسلامية وسببت كذلك الى بروز الثورات والانتفاضات ودوامات الدم والمذابح التي شهدها التاريخ الاسلامي منذ بدايات القرن.

فالاستخدام السلبي لها وتوظيفها لاغراض سلطانية لها صلة بماأرب سياسية جاهلية تقف بالصد من ارادة التشريع والنظام الاسلامي وحقوق الامة جعلها اكدوبة كبيرة طاعنة بالحقوق والارادة والنظام، ولطالما استخدمت لاغراض تصفية ابناء الاسلام من رجال تفسير وفقه وصحابة وقطاعات كبيرة جوّعت ونفيت وقتلت للوصول الى المأرب الكامنة بالاستيلاء على السلطة والتحكم بمقدرات المسلمين.

من هنا خاض الائمة(ع) اشرس المواجهات بمختلف اتجاهاتها واساليبها الفكرية والجهادية من اجل تكريس الشرعية بمواصفاتها الاسلامية التشريعية التي تكرست في القرآن والسنة وخلافة الامام علي(ع) حتى وصل الامر ان يقدم الامام الحسين(ع) حياته الشريفة من اجلها بوصفها الحاكمة التي تستعيد ارادة النظام السياسي وارادة الامة، واستئناف الحياة الاسلامية بجميع صورها واشكالها بها، ولعل حكمة الثورة التي اسسها الامام الحسين(ع) والقاتلة (ما خرجت اشرا ولا بطرا وانما خرجت لطلب الاصلاح في امة جدي) والاصلاح في معناه المعرفي هنا هو اعادة شرعية نظام الحكم بعد ان تلاعبت به الاموية وحولته الى ملك وراثي عضوض تتقاذفه بأهوائها وشهواتها ومزاجها البعيد عن الايمان والصدقية والاخلاص لهذا الدين.

العبادات كشرط للنهضة والاستئناف:

وفرّ التشريع الاسلامي المقدّس مادة عبادة غنية ومتنوعة لها فلسفتها وفهمها الذاتي والاجتماعي الحضاري العام الذي يعكس واقعية الدين وقدرته على تربية ظاهرة اسلامية معتدلة وسطيّة.

وكان هدف العبادات وما زال منذ اليوم الاول من تشريعها تحصين شخصية الفرد والمجتمع الاسلامي من آفات التبعية للآخر والانحراف من سلوك الخط الاسلامي الرشيد واناة عقله لكي لا يشطح في دروب الظلاله والابتعاد عن خطى الهداية الا ان الفلسفة الاسلامية التي قامت عليها (قيمة) العبادات تتمثل بوحداية الله وتوحيد ومعرفة الاستئناس بخطابه وتأسيس مناخ انساني يعرف الله تعالى ويؤدي تكاليفه بناء على موجبات هذه العبادات.

لكن الذي يتأمل بصورة العبادات ودوافعها واشكالها يصل الى تقرير عدة نتائج تتعلق بالعقل والشخصية ومرجعيتها التي تحتمل اليها على ان هذه الاشكال ما تنوعت واتخذت توليناتها كالصلاة والصوم والزكاة والحج الا لغراض لها علاقة بالتنوع والمعرفة التي جلبت عليه الذات واشكالها ازاء بارئها العظيم.

نظام العبادات اذن كيان قائم بالمعرفة وعليها وليس حالة رمادية ليس لها قانون يضبطها او انها حالة سابعة في فضاء كنسي لا يسقط قيمة واخلاقياته وعقديته على شخصية الانسان المسلم والالو كانت كذلك لما اطلق الفقهاء عليها وعلى سياقها في الحياة الاسلامية بـ (نظام العبادات) (ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا).

لو كانت العبادات حالة مجردة من الاسقاط الفلسفي لما اجتهد التشريع وفقهاء الشريعة على افراد حيز واسع من الاهمية والاهتمام بها ذلك ان الحالات

المجردة التي لا تتدخل في القضايا الكبيرة للمجتمع والدولة والحريات والسياسة تبقى حالات ليس لها هامش من المعرفة ولا تتم العناية بها قدر العناية بالمسائل التفصيلية الملحة.

العبادات وحدة عقائدية أساسية والوحدة بلغة التشريع الرباني نظام قائم بذاته له قوانينه وشروطه وانفعالاته في النفس البشرية وقادر بفعل طاقته الحرارية التي يخزنها في داخله اثاره القوة الروحية في الشخصية الاسلامية المتعبدة (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون).

هنا بودنا ان نسرح قليلا في الظلال الروحية التي تثيرها العبادات لكن وقبل ان نذهب في هذا القليل من هامش الظلال يجب القول ان العبادات وسيلة ربانية لتحقيق اهداف العبودية لله تعالى وحين تكون كذلك يتوجب على المجتمع الاسلامي ان يمارسها لا بأعتبارها (واجبات مفروضة) بل واجبات للاقتراب من حقيقة التشريع المطلقة والمعرفة والتزود الواعي من معين الروح المقدس لان لكل مجتمع حضاري هوية يختص بها واطروحة روحية يستهدي بها في دروب العمل في آفاق الحياة وبذلك رسم التشريع الاسلامي ملامح العبادات وظلالها المختلفة لتكون هوية المجتمع والقوة الروحية في الانطلاق لوعي ذاته وكيونته البشرية.

من ظلال العبادات مسألة الصلاة التي اعتبرها الفكر الاسلامي (سنام الدين) و (عمود الدين) ان قبلت قبل ما سواها وان ردت رد ما سواها) وما يهمننا هو ربط هذه العبادات بقبولها فليس المفروض من تشريعها اداءها الميكانيكي بل يتحدث التشريع بلغة يريد من خلالها قيام وحدة شعورية ومعرفية خاصة بين النفس والصلاة والالتفتي الضرورة لقيامها ان هذه التفاعل يحدث من خلال حركة

النفس البشرية التواقة الى المعرفة باتجاه بارئها في خط تتكشف في دائرته كل المكونات العقلية والمعرفية والاستيعاب الشمولي لعناوين الفكر والممارسة والدعوة والشريعة والا اذا كانت فريضة الصلاة هي بهذا الجزء المتعلق بواجبها لما شرعها البارى عز وجل وربطها بقيام الاسلام كدين في الحياة البشرية.

الحج يكاد يكون مشروع طموح بأستعادة نموذج الدولة الاسلامية في العقل وفي التاريخ حيث يلتقي الملايين من ابناء الشعوب الاسلامية في مكة المكرمة ليؤدي مناسك هي في شكلها الخارجي ومضمون فلسفتها الداخلية تعبيرا عن مشروع حضاري رائد في مقاومة التجزئة والتبعية والانحلال في خطوط الحضارات المادية الراهنة وهكذا تدرج جميع العبادات في خط له علاقة بالعقل والوعي وقدرته على الانفتاح كما لديه القدرة على ربط الشخصية الاسلامية بطموحاته وآمالها في الحياة.

ما يمكن قوله في هذا المجال ان تشريع العبادات له طابع نهضوي في مسار الامة وعمق شخصيتها الاسلامية الرسالية يستنهض همة الشخصية ويحفزها للفعل الحقيقي القادر على حمل رسالة الاسلام وايصالها الى اهدافها التي تصب في قلب الحضارة.

الخلاصة:

يتميز الفكر الاسلامي عن غيره من المدارس والاديان بمرونة وواقعية اهلتها الى قيادة الحياة وتشكيل الدولة على لوحة الواقع الاجتماعي - الانساني. وحين يتسع هذا الفكر بما اوتي من تشريع لافاق الحياة، فإنه من البديهي ان يتسع لتحولات التطور الثقافي والفقهي المطلبي، ويكون الصورة. الشرعية التي

تقف وراء المذاهب السياسية والاجتماعية والاخلاقية التي تنتمي للدين، وعلى هذا الاساس شكل الفكر وقراءاته للحياة (المشترك) الذي تلتقي في ساحته جميع هذه المذاهب اذ ما دام التشريع الصورة الكاشفة لمطلق الغيب ورأيه بعوالم الشهادة، فأن اجتهادات المذاهب ستكون حالة تفيد من التشريع ولا تنفيه، يجتهد في اطاره ولا تخرج عليه تبذع في نظره ومعرفته وتحولاته في المجتمع وحركة التاريخ ولا تدعي في فلسفته ورأيه.

نحن امام دين كاشف للنفس والمعرفة، ونظرية قادرة على تمثيل حركة الوحي بأبعادها البشرية في الواقع، وما دام هذا الكشف يصب في خدمة التلاحق والمعرفة والوعي، فأن كل وحدة من وحدات هذا الدين، هي نظام كوني بحد ذاته يعطي للفكر صورته الدقيقة، ويفرد للامة (دورها) المعتدل الوسيط، ويأخذ بسياق تجربتها الى قلب الحضارة، مما يعني ان الكونية هي الرديف الاساس لمعنى وحداته سواء في القضاء والقانون والسياسة او في التحذيرات والتعزيرات الداخلية والخارجية.

ان كل وحدة من وحدات النظام الاسلامي تعبر عن ذات الوحدة التشريعية الداخلية وليست حالة مضغوطة في اطارها او وافدة عليها كما في المدارس الفكرية الاخرى، ومن هنا تعددت اتجاهات النظر لهذه الوحدات حسب مرونة وواقعية المشروع الاسلامي، واختلفت الصياغات النهائية لسقف هذه الوحدات الامر الذي حوّل صورة النظرية الخارجية الى مظهر لعالميتها فيما تكرست صورتها الداخلية عميقا في الواح الخلود الانساني.

ما يعيننا هنا ان التعددية في النظر لهذا الدين راكمت المدرسة الاسلامية وتجربتها في الاجتهاد الانساني بحيث تحول الفقه الجنائي او الاجتماعي او

السياسي او القضائي من اطار سياقه التقليدي الاشتغالي الداخلي الى حركة الحياة الممتلئة بالحوية والقوة والاستمرار، وهذا الامر يندرج على كل الاشكال والتمظهرات الفكرية والفلسفية الاسلامية على ان هذا التعدد ينبغي ان يبقى في اطار اغناء المادة الاجتماعية المرتبطة بهوم الاستئناف ولا ينسحب الى دوائر الخلاف والنكوص والانغلاق، اذا اخذنا بالاعتبار ان مرونة والواقعية هي اهم مزايا حضارية هذا الدين وقيمته على الحياة ومثلما تفرض الضرورة الاجتهاد في الداخل، تفرض بذات الوقت العناية بالعناوين الفكرية التي لها ميسر علاقة بيوميات المجتمع الاسلامي وهو يتطلع لصياغة اهدافه في الحياة من خلال الاسلام ومن هذه العناوين (الشرعية) وتلازمها مع نظام القيادة المسؤولة عن تشريع القوانين وادارة الحياة السياسية يأتي عبر تلازم مسار الدولة الاسلامية مع الآخر في تحولات فكره وثقافته.

نحن بأمس الحاجة لابعاد الامة عن مواطن الشبهة بالاسلام من خلال قراءته من الداخل والكشف عن معدن مفاهيمه وفلسفته وكشف قدرته على محاكاة الآخر في فكره وفلسفته وعناوينه، ومن دون هذا الكشف فأن مرجعية الاسلام التشريعية اضافة الى وحداته ستعرض الى تحديات من نوع جديد خارج سياقات الفعل الاستعماري والمشروع الغربي وتحدياته لاننا سنكون وجها لوجه مع الامة التي تريد ان تعرف رأي المشروع الاسلامي بمجمل المباحثات التي تعترض شخصيتها وهويتها وهي عناوين لدى الاسلام رأيه الخاص بها.

ان الاسلام كدين وكمشروع حضاري في الحياة الاجتماعية لا ينبغي ان يجتهد على اساس تجميد (دوره) في الحياة مقابل الادوار المتحركة في سياقات المذاهب والمدارس السياسية الاخرى التي وظف الاجتهاد وابعاده في مدارسها

على اساس (التوسع) و (الامامة الكونية على العالم).

ينبغي ان تتحرك عملية الاجتهاد على اساس دفع المشروع الى حيز الدوائر الحقيقية في العالم تلك الدوائر التي تمثل اساس وظيفته في الحياة والا اذا تم تجميد المشروع في مواقع استنباط احكام العبادات والمعاملات الاجتماعية التي لا تتعدى براءة الذمة في النظر لاحكام الاسلام، فأن المشروع الاسلامي سيخسر (دوره) في المعركة الراهنة في دورة التاريخ الراهن لفرض (امامة الغرب) قبالة (امامة المشروع الاسلامي) ولا تنتهي هذه المعركة الا بأنتصار احد الطرفين وفق سنن التاريخ.

فهل سنبقى نناقش المشروع الاسلامي بذهنية (احكام الطهارة والنجاسة) ام نقفز على واقع هذه المنهج الى مناقشة تحديات الآخر عبر تطهير المنهج من نجاسة الغلو وطهارة التفريط.

أبعاد العالمية
في الاسلام

السيد مجيب جواد الرفيعي

قم - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

مدلول الاخوة الاسلامية

تقوم الاخوة الاسلامية على مجموعة ركائز:

الاولى: أنه ليس المراد من الاخوة مجرد الانتماء الى اصل واحد برابطة دموية، بل المقصود هو الرابطة النفسية التي تورث الشعور العميق الديني بالاعتبار الانساني للآخرين واعتبار وجودهم على كافة المستويات من انسانية وحقوقية ودينية. وهي بذلك رابطة انسانية ومصدر الالتزام والتكامل ومنبع للاخلاق والحقوق: قال تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»^(١)

الثانية: وهكذا فقد حلت الاخوة الدينية محل العنصرية والجنسية اللتين كانتا في العصر الجاهلي ولقد جعلت هذه الأخوة العرب أمة جديدة وامتدت بأفاق

(١) الحجرات، الآية: ١٠.

الاسلام الى أوسع مدى: صارت آفاقه العالم كله لا الجزيرة العربية وحدها. وأوجدت هذه الاخوة ايضا عند الفرد المسلم الاحساس بالجماعة الاسلامية ومصالحها وخيرها وعند الجماعة الاحساس بالفرد وخيره ومصالحه، ونتج عن هذا الاحساس المتبادل تضامن روحي وتضامن مادي هدفهما تمتين هذه الاخوة وبقاؤها.

ورسم النبي (ص) لهذه الاخوة ما يقويها ويبقيها ويغذيها «مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وتقوم أصول هذه الاخوة على التقوى «الحقيقية القلبية» التي تعني انسان القضية الذي يعي ذاته وعقيدته ومجتمعه.

فالأخوة الاسلامية ليست انفعالا مبهما او رابطة عصبية او دعاية سياسية او ديماغوجية اقليمية او خيال شاعر او حلم فيلسوف. ولكنها روح الحياة الاسلامية في شمولها الانساني ورسالتها الاصلاحية وصياغتها السوية للمجتمع البشري مبرأة من رياح التعصب وظلم العنصرية وجفافها.

وان من اهم مظاهر الاخوة الاسلامية النص على المساواة الانسانية ابي وحدة المجتمع الانساني في الاصل والمنشأ والمساواة بين الناس في الحقوق والواجبات والتكليف والمسؤولية بشروطها وتفصيلها الحقوقية الواسعة والمساواة الاجتماعية من حيث الاعتبار الانساني بغض النظر عن المهن والطبقات والاشكال والألوان: ١ - فلقد ساوى الاسلام بين الافراد والجماعات والامم والشعوب بما لها من حقوق وما عليها من واجبات مساواة انسانية عامة بين جميع الخلق ورفع لواء العدالة وسار بها في طريق الواقع العملي والتطبيق

الفعلي.

قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين ان يكن غنيا او فقيرا فالله اولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً»^(١)
وقال عزّ اسمه: «ان الله يأمر بالعدل والاحسان»^(٢)

عدلاً مطلقاً مبرأ من التأثير بالهوى او العوامل الشخصية كالحب والبغض والقرابة والغنى والفقير والقلة والكثرة، بل مبرأ من العصبية الدينية ايضا.

الثالثة: وقد شرع الاسلام العدالة في القضاء والحكم و ألزم القاضي ان يتحرى الصدق والعدل وان يسوي بين الخصمين من كل وجه وان لا يخضع للمؤثرات الشخصية وان لا يقبل هدية وان لا يقضي وهو غضبان او في حالة نفسية تحول بينه وبين ضم القضية ومعرفة حكمها: قال تعالى: «ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل»^(٣).

الرابعة: واخيرا نص الدين الاسلامي على المساواة والعدالة الاجتماعية فكّرم العمل والمهنة والسعي والكسب وطلب العلم والفضائل الانسانية وأخذ بيد الضعفاء والمحرومين والمضطهدين ورفع شكوى الانسان وفتح امامه المستقبل والحاضر السعيد على مصراعيه: «فلعبيدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف»^(٤).

(١) النساء، الآية ١٣٥.

(٢) النحل، الآية ٩٠.

(٣) النساء، الآية: ٥٨.

(٤) سورة قريش، الآية: ٣-٤.

الايجابية في تعاليم الاسلام

لكي نعرف هدف الرسالة الاسلامية في حياة الانسان علينا ان نفهم معنى الايجابية في تعاليم الاسلام: فالانسان الذي صنعه الاسلام للحياة هو مثالا للتقدم ونموذجاً لفدائية الارادة الانسانية وهو ذلك الفرد الايجابي الذي يربط وجوده بمجتمعه ولا تعزله عنه انانية او ذاتية خاصة تحجب امكانياته او تبعده عن اداء ما يمكن ان يوكل اليه القيام به في خدمة مجتمع يهدف الاسلام دائما الى ترقيه وتقدمه استجابة لسنة التطور وايماناً بأن طريق الحياة منطلق الى كل جديد من اجل خير الانسانية ورخائها واشاعة السلام واستقراره.^(١)

وايجابية انسان الاسلام حين لا يعزل نفسه عن واقع الحياة والانخراط فيها لاتعرف الكينونة المستقلة ولا الانطلاق الفردي الطائش وايضا ولا الموقف الجامد الذي يعبر عن صلف وغباء، او الموقف الهزيل الذي يفصح عن نكوص الفرد وتهربه من تحمّل عبء دور يوكل اليه تجاه ما يجري حوله وانما انسان الاسلام فرد في مجموع كبير هو الحياة كلها. ولا ايمان لانسان الاسلام بما يقدم من جهد او طاقة الا ان يكون في خير هذا المجموع وهذا الاساس السلوكي في عقيدة المسلم وتربية الاسلام لابنائهم مستمد اصلاً من عقيدته الدينية بكل مكوناتها وشمولها حين عرف المسلم ان كل الافعال انما تتجه الى اله واحد يحاسب على الخير والشر وحين آمن المسلم ان الاسلام يربط افراده جميعا في وحدة عالمية بعقيدة واحدة تتجه ومكوناتها الى فاعلها الاول ومبدعها الخلاق

(١) الاسلام والتمييز العنصري، صلاح الدين الايوبي، دار الاندلس، ط ١٤٠١هـ، ص ١٦٠ وما بعدها.

وحده: «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شيء عليم»^(١).

وايجابية المسلم حين وكل اليه أمر العمل والانطلاق به ما وسعته طاقته يختلف عن غيره من الافراد فهو بتصوره الاسلامي يجد في نتاج عمله ثمرتين يياشر احدهما بحسه وجوارحه حين يكون في واقع مادي وبروحه وقلبه حين يناط به معنى من الامور التعبدية، وثمره مختزنة في اعماق نفسه يلقاها عند ربه ليحيا بها الحياة الثانية التي يؤمن بها وتقوم عليها معاني جمّة في عقيدته: «واما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من امرنا يسراً»^(٢).

يؤكد الاسلام للمسلمين موقف الايجابية المبدعة والخلافة حين يتحرر صاحبها من التقليد ويعمل عامل الثقة والايمان عمله بما يكفل ان يكون انسان الاسلام هو تلك الارادة التي تنطلق تعبر عما هي معدة له اصلاً وهو ربط علاقة الانسان بربه «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق»^(٣).

والعمل الصالح كمظهر ايجابي في حياة المسلم هو مبتغاه الوحيد الذي لا يعرف له مبتغى سواه وهو كل ما يرجوه فيما يقدم من جهد او تضحية ومن اثر ذلك ان المسلم مهما عمل فيه التواكل وهو ليس من اساسيات الاسلام فانه ما ان ينخرط في سلك الجماعة فان اساساً عميقاً من مكوناته يدفعه دفعاً الى انكار الذات والتفاني في اداء ما يعمل. ذلك ان اعماق المسلم مستعدة دائماً لأن تعيش

(١) المجادلة، الآية ٧.

(٢) الكهف، الآية: ٨٨.

(٣) فصلت، الآية: ٥٣.

كل تقدم بل وتقوده وتبعث فيه كل عوامل الخلق والابداع من اجل غد يحفظ للانسانية كل مظاهر التكريم الانساني والانطلاق نحو خير الانسان وسعادته.

العالمية في الاسلام

قبل ان نلاحظ مغزى ومصاديق العالمية في رسالة الاسلام نتبين ملامح هذه العالمية: لقد سلخ الاسلام حتى اليوم اربعة عشر قرنا من التاريخ، وليس ثمة احد يستطيع ان ينكر ان التعاليم الاسلامية قد نجحت في تأسيس مجتمع اسلامي بحت.

واذا كان الاسلام قد اثبت جدارته وصلاحيته كعقيدة دينية تزايد معتنقوها - على نحو لم يسبق له نظير - حتى اندرج في عقدها معظم سكان العالم في ذلك الوقت، فانه نجح ايضا كنظام اجتماعي له قوانينه الصالحة ومبادئه الاخلاقية المثالية وبفضل هذه القوانين والمبادئ تحقق للاسلام هذا النجاح.

واذا كانت الدعوة الى الاسلام قد قامت اساساً على مبدأ «لا اكراه في الدين» فإنه من الأسف ان ينسب انتشار الاسلام الى عامل ماغير ذي صلة بعامل الاقناع. وانما كانت عملية الاقناع نفسها مستحيلة اذا لم تتوفر للداعية الاسلامي كافة الظروف والضمانات التي تكفل له القيام بمهمته في حرية وبلا قيد. وفي الحقيقة ان الاسلام ليس فقط كغيره مما سبقه من الاديان، ولكنه شيء أوسع واشمل.

ولأول مرة ايضا اعطى الله الانسان صورة تامة ونهائية عن الطريقة المثلى التي ينبغي ان يكون عليها سلوكه على الارض، فجاءت رسالة الله في الاسلام تامة وشاملة فهي من ناحية مفتوحة على عظمة الله التي لاتحد وهي من ناحية

اخرى ذات صلة باحتياجات وضرورات الانسانية المتشعبة وكان الاسلام ومازال ديننا متميزا عما سواه من الأديان. ومن الخطر كل الخطر ان ننظر الى ما سنه الاسلام من قوانين تنظم حياة البشر من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية دون ان نراعي الناحية الاخلاقية فيه، وهنا ايضا لابد وان نضع في اعتبارنا حقيقة وجود الله وما اعدده لنا من ثواب وعقاب لا على كل ما نعمله فحسب بل ايضا على ما توسوس لنا به انفسنا وما تهجس به ضمائرنا. اذن فالاسلام في حقيقته ليس الا ايماننا خاصا حيا متجددا مع كل لحظة من لحظات الزمن في قلب كل فرد مسلم. ونعود فنقول اربعة عشر قرناً من الزمان كانت فيها التعاليم الاسلامية هي الدافع الأقوى في ديناميكية التطور الحضاري الانساني مادامت هذه التعاليم محل اعتبار من الانسان.

كما ظلت العقيدة الاسلامية من حيث التعريف بذات الله وصفات العظمة والجلال والكمال فيه تريح روح الانسان وتملاً شعوره بالايمان الواثق المطمئن. واذا كان الانسان قد ظل طوال تاريخه في هذا الوجود قلقاً شقيماً يبحث عن راحة الضمير في الايمان، وعن امان النفس في العدل والحرية، فان الاسلام قد اتاح للانسان حلاً لمشاكله وأتاح له على نطاق واسع كل ما كان ينشده ويبحث عنه حيث اعطاه ثلاثة امور جوهرية: أولها: تفسير روحي لحقيقة العالم، وثانياً: تحرير روحي لذات الفرد. وثالثها: نظام من المبادئ العالمية توجه تطور المجتمع الانساني على صعيد روحي ومادي معاً.

وايضاً فقد كان نجاح الاسلام شاملاً ومثيراً معاً، وحيث لم يكن نجاحاً قومياً ولا عنصرياً وانما كان نجاح الاسلام الخلاق المسؤول. والمجتمع الاسلامي والحضارة الاسلامية لم يبنيا على الجهود العربية وحدها - وربما كان المجهود

العربي في عملية البناء هذه ضئيلاً لا يذكر - وإنما ساهمت فيها بالقسط الاوفر عناصر هلينية وعناصر من ثقافات الشرق الادنى القديم السامية واخرى من ايران الساسانية واخرى من الهند وكذلك ساهمت فيه عناصر من مصر وبدو الصحراء الكبرى والبربر والاندلس، وقد صهر كل ذلك في بوتقة واحدة وخرج سبيكة اسلامية جديدة متميزة عن اصولها القديمة تميزاً كلياً وكان الاسلام هو الوقود الذي اتم هذه العملية كما كان الضمان الوحيد لصيانة هذا الشيء الجديد المدهش والمحافظة عليه، كما اعطى الشكل الاسلامي لكل ناحية من نواحي الحياة مهما كان الشيء الذي تنطوي عليه. وقد كان هذا الطابع الاسلامي هو الذي اعطى المجتمع الجديد صلابته وحيويته.

وكذلك فان التجربة الاسلامية قد برهنت على ان هذا الدين لم يلب الحاجة البشرية فحسب، انه فتح امام الانسان ايضا الآفاق التي لاحدود لها، ورسم له الطريق واضحاً لكي يستغل كل ما وهبه الله من عقل وحواس وامكانيات في اقتحام هذه الآفاق. والقرآن الكريم كثيراً ما يحث المسلمين لأن ينتفعوا بما انعم الله به عليهم وأباح لهم الطيبات وامرهم بالسعي وعدم القعود ورسم خطط هذا السعي حركة دائمة الى الامام تجدد نحو الرقي وتقدم في تيار التطور فلا وقوف ولا انتكاس وهذا المسلك السليم الذي وضحه القرآن لم يكن يعتبر إن بذل الجهود في سبيل التبشير بالدعوة الاسلامية واكتساب الاعضاء الجدد للمجتمع الاسلامي جهاد في سبيل الله فحسب بل انه ضاعف لذلك الثواب، فالدين الاسلامي دين البشرية جمعاء ومجتمعه أتاح الانتماء اليه لكل انسان ودعوته عملية ديناميكية دائمة الحركة من طبيعتها إلا تتوقف في أية ناحية بل تسير في كل اتجاه حتى تغطي سطح الكرة الارضية بمجتمع اسلامي بحت، وهذه العقيدة

ليست بالبعيدة او عسيرة التحقيق لو ان كل فرد او جماعة من المسلمين تشبعوا بالمبادئ الاسلامية وعملوا بمقتضى تعاليم هذا الدين وبذلوا الجهود الكافية للدعوة له واستدعوا هذه الدعوة ووفروا لنجاحها الامكانيات.

ان الاسلام جاء لضرورة عالمية ملحة وقد حقق هذه الضرورة، فقد تكفل بهداية الانسانية جمعاء، وارضى ضمير الانسان وروحه، ولبى مطلبه في العقيدة والايمان، ورسم الطريق لبناء مجتمع عالمي يقوم على أسس من العدالة الاجتماعية والكرامة الانسانية، وعالج ما كانت قد تردت فيه الانسانية قبله من اخطاء وقضى على ما كانت تتخبط فيه من شرور.

دلالة معنى العالمية

وبعد ان اتضح لنا ابعاد العالمية نقول: الاسلام منذ تفجرت بنابيع دعوته في الجزيرة العربية وهو دين التوحيد والتنزيه، غير ان في الاسلام خصائص موضوعية واصولا اخرى تضاف الى عقيدة التوحيد والتنزيه. الاسلام في عالميته الانسانية او انسانيته العالمية كان شيئا معجزا لم تعرفه الاديان ولا المذاهب - من قبل -.

كان اول ما في الاسلام حين دعا الى التوحيد أن دعوة التوحيد في الاسلام لم تكن مسائل غيبية ومناهات ميتافيزيقية وانما قامت دعوة التوحيد على توحيد الانسانية كلها في حقوق واحدة، وتوحيدها في هداية واحدة وتوحيدها في ايمان باله واحد لا اله الا هو ولا رب لكل البشر سواه يتساوى الناس جميعاً بين يديه ولا يتمايزون إلا بمقدار ما يقدمون للانسانية من خير وسلام، ولا يتحقق

التمييز بغير الفضل والصلاح والعدل والمساواة «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم»^(١).

«وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»^(٢). ومن خصائص هذا الدين أن مجتمعه أن صدق مع جوهر ما يؤمن به يصبح هذا المجتمع متفتحا بشكل يتحرك فيه على أساس من معنى العالمية، حتى ولو لم تكن قد تحققت له بعد تلك العالمية بالفعل لأن مجتمع الإسلام هو مجتمع الانسانية كلها لافرق لديه بين جنس وجنس ولا بين لون و لون ولا بين لغة ولغة ولا حتى بين دين ودين.

مجتمع ليس لجغرافيته حدود، وليس للعنصرية فيه وجود.

فالإسلام يواجه مجتمعه في اول لقاء ينفي كل تلك النعرات «والله لا يهدي القوم الفاسقين»^(٣).

فباستطاعة كل انسان ان يعيش في حمى الإسلام، وفي ضمن مجتمعه، دون ان يحس بغربة، بل انه - على العكس من ذلك - ليحس أصرة واحدة تربط بينه وبين ذلك المجتمع، وهذا الموقف من الإسلام يحقق السلام العالمي للانسان لأنه يقضي على اهم اسباب الحروب، ويقف في وجه التكالب الاستعماري الذي يقوم على الشعور القومي او العنصري.

ثم والإسلام في حركته لا يجذب فكرة الوطنية الاقليمية في مجتمعه، ولكنه يبقى على المعنى الطيب من تلك الفكرة، وهو معنى التجمع والتآخي والتعاون والنظام والهدف الذي تلتقي من اجله الجماعة من الناس.

(١) الحجرات، الآية ١٣.

(٢) الانبياء، الآية ١٠٧.

(٣) المائدة، الآية ١٠٨.

فالاسلام بدعوته تلك يحرر فكرة الوطنية من مادية الارض ويجعلها فكرة شعورية - لارقعة ارضية فحسب - يجتمع في ظلها الناس على اختلاف الوانهم واجناسهم وموالدهم، فاذا هم جميعاً ابناء وطن واحد.

ومنطلق تلك الفكرة في الاسلام في قوله تعالى: «انما المؤمنون اخوة»،^(١) وبذلك يقضي على نزعة الاستغلال العنصري فكل ما ينشأ عنه هو شعور المسلم بأن كل ارض يظللها الاسلام هي وطنه وبأن كل مسلم يعيش على الارض هو مواطن له.

وبناء على ذلك ايضا فانه لامجال لدى المجتمع الاسلامي لظهور تلك العصبيات لأنه لايعتمد في ترابطه على وشيخة الجنس، او عنصر الدم فالجنس الانساني واحد، والدم البشري لا يختلف الاختلاف الذي يؤثر في تكوين المجتمع او في التلاقي والتعاون. والاسلام في ذلك يحرص على ان يشد المجتمع بسبب قوي متين لا يخشى عليه التمزق السريع اذ ليس اسرع من تمزق رابطة تقوم على الجنس والدم.

اما العقيدة فهي جبل لاتوهيه الاحداث ومهما تكتلت قوى العدوان من الخارج ففي داخل هذا المجتمع المؤمن ما يتحمل عنه الضربات ويدفعها عنه حتى يضمن له السلامة.

ولأنه - الاسلام - لا يمنع من الظلم انسانيه - فحسب - بل من معارك لأنه لم تكن هناك معركة واحدة يرجع سببها الى عصبية أو إكراه أو عدوان، بل كانت كل معارك المسلمين دفعا لظلم او ردا لعدوان ليس غير.

(١) الحجرات الآية ١٠.

ومن ثم تتأكد العالمية في مجتمع الاسلام، فهو لا يقصر القتال على تحقيق مصالح خاصة لافراده موزعين او مجتمعيين ولكنه يجعل نصرة المظلوم وتخليصه من ظلم ظالمه سبباً يدعو للقتال، مع حبه للمسلم ورغبته فيه - ايا كان هذا المظلوم، وايا كان هذا الظالم -، وان عالمية الاسلام - تلك القيمة التي تنبثق عن عقيدته - توجب على مجتمع الاسلام ألا يقطع الصلة بينه وبين الذين لا يدينون بالاسلام ما داموا لا يحاربونه ولا يمنعون دعوته ان تبلغ الناس، ولا يفسدون في الارض ولا يعتدون على ضعيف. يدفعه عن الناس. جميعاً، ويمنع الناس جميعاً **«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»** (١).

كل ما يريده - الاسلام - ان تترك له حرية الدعوة بين اهل الارض جميعاً حتى يصلهم بالخير المطلق الذي جاء به وألّا يقهر اتباعه على ترك عقيدتهم وان تتاح له القوة اللازمة لحمايتهم من العدوان عليهم واللازمة لتنفيذ شريعته بينهم. لم يكن القتال وسيلة من وسائل نشر الاسلام، لأن ذلك يحقق العصبية بمعناها الشرير الحقيق، فليس الامر كما يحلو لدعاة السوء أن يشيعوا عن الاسلام مستغلين ما صادف والصلة بين مجتمع الاسلام وبين هؤلاء يحددها وضعهم انفسهم، فان كانوا خارجين عن سلطان الاسلام - ممن لهم دين آخر او ممن ليس لهم دين - فمجتمع الاسلام لا يحاربهم ولا يقاطعهم ولا يعاديهم ما داموا لا يحاربونه ولا يقاطعونهم ولا يعادونه ولا يعتدون على مستضعف من غير المسلمين.

(١) آل عمران، الآية: ١١٠.

ونظامه - على اساس تلك القيمة من قيمه - لا يقف عند تلك السلبية - يعادي من يعاديه ويسالم من سالمه - بل انه يسمح بالتعاون الايجابي معهم عن طريق المعاهدات التي يحترمها الاسلام كل الاحترام «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون».

والاسلام اذ يعلن عن ذلك المبدأ لا يغفل ما يمكن ان ينال المسلمين من اعدائهم فيحدد موقفهم من ذلك في صراحة ووضوح لاموادبة فيه ولاغش.

والعهدود في الاسلام تلتزم العالمية وتسعى لتحقيقها، فهي ليست عهدوداً «ميكافيلية» تقوم على الغدر وتعتمد على الخديعة، بغية ان تكون امة هي اربي من امة ولكنها عهدود تقوم على الالتزام والوفاء وتعتمد على الصراحة.

الاسلام مباديء عالمية

مباديء العالمية في الاسلام جليلة، فمنذ بدأ رسول الله (ص) بالدعوة الى الاسلام اصر على انه لا يأتي بشيء من عنده وانما يبلغ رسالة الله الى اهل الارض، وايضا فانه (ص) لم يكن مجرد مبعوث يردد رسالة السماء لمحض التبليغ وانما كان بارادة الله معصوما وبأمره مرشدا وهاديا، فكان يعيش حياته ويعمل طبق هداية الله ومن ثم كانت اعماله كلها واقواله كلها ايضا حلا لآيات الله وتفسيرا لمجمل القرآن وبياناً لكيفية تطبيق نصوصه على اعمال الناس وسائر شؤون حياتهم «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم

الآخر وذكر الله كثيراً).^(١) وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب». ^(٢)

لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين». ^(٣)

فالاسلام وهو نهاية الاديان وخاتمها ليس وقفاً على عصر وليس خاصاً بجيل، وإنما هو دين كل عصر و كل جيل ومن شأن هذا الدين أن يكون ذاتية تقدمية تتسع لكل تطور وكل تقدم وتناسب كل تجدد وكل تبدل في الحياة الانسانية عبر العصور والاجيال، فاذا وقفت القواعد والاصول الكلية التي وضحتها وابانها القرآن حائلاً دون تحرك الانسانية نحو التدهور او التخلف كان هذا ضماناً أكيداً لكي يكون سير الانسانية دائماً الى الرقي والى الامام.

ومما امتازت به ايضا شريعة سيد المرسلين (ص) انها جاءت موافقة و متمشية مع الطبيعة البشرية وقصورها فتدرجت مع مقتضيات احوال الناس وظروف البشر.

وفي قواعد الدين كلها اتجه الاسلام منذ البداية اتجاها عالمياً فلم تقتصر الدعوة على قوم دون قوم او جنس من البشر دون جنس آخر وانما هي دعوة الله للانسانية كلها ولسائر اجناس البشر لافرق في ذلك بين ابيضهم او اسودهم بين غنيهم او فقيرهم بين رئيسهم ومرؤسهم، واذا كان هناك تفاضل بين الانسان والانسان فإنما ذلك يعود فقط الى قوة الايمان والتمسك بالشريعة لا الى سبب

(١) الاحزاب، الآية ٢١.

(٢) الحشر، الآية ٧.

(٣) آل عمران، الآية ١٦٤.

آخر.

قال تعالى: «ليس بأمانيتكم ولا أمانتي أهل الكتب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجده له من دون الله ولياً ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً»^(١).

الاسلام عقيدة عالمية

العقيدة في الاسلام عالمية تشمل الانسانية كلها، ورسالة تدعو - اول ما تدعو - الى التعريف بالله وتنبئ عنه باسمه، وتقيم الدليل بيناً مقنعاً على وجوده. «قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا احد»^(٢). و «يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الارض فرشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وانتم تعلمون»^(٣). و «قل اغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والارض وهو يطعم ولا يطعم قل اني امرت أن أكون أول من اسلم ولا تكونن من المشركين»^(٤).

وعلى الجملة فالله كما يتجلى من خلال الاسلام ذات أزلية سرمدية متصفة بكل كمال ومنزهة عن كل نقص هو صانع العالم وخالق الكون، لم يلد ولم يولد،

(١) النساء، الآية ١٢٣-١٢٤.

(٢) الاخلاص الآية ١-٤.

(٣) البقرة الآية ٢١-٢٢.

(٤) الانعام، الآية ١٤.

واحد لا شريك له ولا مثيل.

والاسلام حين يعترف بما سبقه من الرسالات فانه يطلب الايمان بأن محمدا عليه الصلاة والسلام خاتم الانبياء والمرسلين، وبأن رسالته تضمنت خلاصة الرسالات السابقة وزادت عليها ما به كمال الانسانية التي اتاح الله لها هذه المرة - وبشكل نهائي - الطريق الواسع نحو التطور الصحيح ونحو الرقي المادي والروحي. «ما كان محمد أباً احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً»^(١) «اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً»^(٢)

ولهذا كانت هذه الرسالة الالهية النهائية رسالة عامة موجهة الى جميع الناس مهما اختلفت سنتهم والوانهم واجناسهم في كل زمان وفي كل مكان ابتداء من وقت البعثة النبوية حتى يوم القيامة: «قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً»^(٣) «وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً»^(٤).

ولقد اعتنى الاسلام - في محيط الانسانية - بوحدتها وهي الفرد باعتبار ان صلاح الفرد اساس ضروري لتكوين المجتمع الصالح.

فعمل على بناء شخصيته وتقويمها، ورسم لها طريق التصرف في حرية وعزة وكرامة، لأن هذا الفرد كوحدة يمثل نواة لكل مجتمع انساني ابتداء من الاسرة الى الامة الى المجتمع الانساني بأسره.

(١) الاحزاب، الآية ٤٠.

(٢) المائدة الآية ٣.

(٣) الاعراف الآية ١٥٨.

(٤) سبأ، الآية ٢٨ - الاسلام ضرورة عالمية، زاهر عزب الزغبى، الهيئة المصرية العامة، ١٩٧١م،

ص ١٣٤ و١٤٥.

وتقويم شخصية الفرد وتربيتها على العزة والكرامة والحرية امر جوهري للنهوض بالبشرية كلها، والقرآن مليء بالآيات التي تنبئ عن تكريم الله للانسان واعزازه له. «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً»^(١)

والاسلام قدر عنايته بالفرد الانساني اعتنى ايضا بالجماعة الانسانية فارتباط الانسان بجماعته يهيء للحيوانات الفردية وضعاً اجتماعياً هو نوع من الاخوة يشعر معها الفرد بتزايد في القوة والامن، ويخلق عنده مجالاً للوعي الجماعي المشترك، وهذه الاخوة وهذا الوعي ينتج عنهما نوع من الترابط الانساني يتجاوز حدود الوطن المحدد او الجنس المحدود.

ومن هنا كانت الامة او الجماعة التي يريد بها الاسلام ذات طابع متحرك ومن شأن حركتها ان تكون مثابرة لا تكل نحو خلق مجتمع عالمي او حركة نامية لا يقف لها نمو قبل ان تشمل العالم جميعه فينتظم فيها سكانه بأجمعهم ينظم شؤون حياتهم قانون دائم الصلاحية، قانون لا يعرف حدوداً في الزمان او المكان، قانون دولي عام.

الاسلام شريعة عالمية

لابد للمجتمعات البشرية من ضوابط تنظم العلاقات التي تربط على الاقل بين افرادها، ومهما كانت هذه المجتمعات فلا بد من هذه الضوابط والافسدت

(١) الاسراء، الآية ٧٠.

احوال المجتمع وآلت حاله الى انحلال وزوال.

ومن ثم يمكن القول ان القانون بوجه عام في اية امة من الامم ليس إلا صورة صحيحة لحياتها الاجتماعية والاقتصادية، والهدف منه اقامة العدل وحفظ حقوق الفرد والجماعة بقواعد قانونية ملزمة، وهذه القواعد تكون وقتية ومحلية اذا كانت قد سنت لتعمل في مجال له اوضاعه الخاصة ذات الطابع العرفي الاقليمي.

ولكنها تكون صالحة للخلود والتعامل بها على نطاق دولي اذا كانت تُعبر عن مفاهيم وحقائق ثابتة مسلم بها على نطاق انساني عام، او اشتملت على قواعد عدلية عالمية.^(١)

ووظيفة القانون في حياة الامة جليلة وخطيرة، وللقانون في حياة الامة ثلاث وظائف كبرى هي: العلاج، والوقاية، والتوجيه.

وحتى يتمكن القانون من ان يؤدي وظيفته يجب ان يكون ملزماً.

والقانون اما اوامر او نواهي، ولكي تتوفر للقانون الطاعة والالتزام في العمل يحتاج الى نوع اضافي من الاحكام التشريعية يسمى بالمؤيدات وهذه اما زواج مدنية واما عقوبات تأديبية.

ومن ثم يمكن تقسيم احكام التشريع الى نوعين:

١ - احكام محمية وهي القانون الاصلي.

٢ - واحكام حامية، وهي المؤيدات.

والاسلام كدين قد كفل صلاح البشر افرادا وجماعات بالتربية والتنظيم. وقد

اعتنى الاسلام أول ما اعتنى بمخاطبة عقل الانسان وضميره ووجدانه فأتاح

(١) الاسلام والحياة المعاصرة، فرانكلين بالقاهرة، مجموعة ابحاث.

للضمير ان يعتبر المثل الاخلاقية حين يتعامل في نطاق الشريعة.
والشريعة الاسلامة اسم للنظم والاحكام التي شرعها الله أو شرع أصولها،
وكلف المسلمين اياها لياًخذوا انفسهم بها في علاقتهم بالله وعلاقتهم بالناس.
والاسلام في معالجه الاصلاحية للانسان قد استهدف ثلاثة أهداف أساسية
كل منها نتيجة لما قبله و اساس لما بعده.

اولاً: تحرير العقل البشري من رق التقليد والخرافات، وذلك عن طريق
العقيدة والايمان بالله، وتوجيه العقل نحو معنى اللوهمية بالدليل والبرهان
والتفكير العملي الحر.

ثانياً: تربية ضمير الفرد واصلاح نفسيته، وذلك عن طريق تعريفه بالمثل
الاخلاقية واشباع نفسه منها، وتوجيهه نحو الخير والاحسان وكل ما هو واجب
او اصلح.

ثالثاً: تحقيق العدالة والامن والحريات في مجتمع صالح.
والاسلام لم يغفل أبداً عن العالمية في المجتمع الذي خطط مشروع تكوينه.
فالحج فضلاً عن انه عبادة وطاعة يستلهم فيها المؤمن جلال الله وعظمته في
مواطن الوحي ومنبع الرسالة، فهو ايضاً مؤتمر عالمي يلتقي فيه المسلمون على
صعيد واحد من شتى انحاء الارض فيتدارسون ويتشاورون فتمتزج المعارف
وتتوالد التجارب وتتوطد العلاقات وتتدعم الاخوة في الله تحت راية الاسلام
وفي كنف الامان والاطمئنان.

ومما هو جدير بالذكر هنا ان الشريعة الاسلامية في مجال ضبط الاحوال
الشخصية قد كفلت للانسانية عدالة لم تتوفر لها من قبل.
ونستطيع هنا ان نقرر جازمين انه حتى في عصر النهضة والمدنية كانت

محاولات الانسان في الدول المتحضرة غير الاسلامية لانصاف نفسه بوضع التشريعات التي حسبها توفر له اقصى قدر من العدالة والمصلحة، كانت هذه المحاولات شيئاً حقيقياً لا يمكن ان ينافس الشريعة الاسلامية في دقتها وقدرتها على تحقيق العدالة المطلقة.

ان الشريعة الاسلامية ليست الا شريعة متطورة متجددة تنبذ الجمود ولا تقبله، وانها شريعة تتسع لكل ما يمكن ان يعرض للانسانية من امور ومشاكل واحتياجات او بعبارة دقيقة صريحة حاسمة (شريعة انسانية عالمية عامة تصلح لكل زمان ولكل مكان).

والله ولي التوفيق


خصائص الإسلام العامة

٥ - الشمولية

- ١ - الترابط والانسجام بين النظام السياسي وسائر الأنظمة الإسلامية ولاء الحسيني
- ٢ - التعددية اشكاليات ومعالجات السيد مرتضى التونسي
- ٣ - خصائص الإسلام العامة، الشمولية محمد فريجه
- ٤ - النظام الإسلامي، الشمولية وهدف واحد عبدالله مرتضى
- ٥ - النص الثابت والواقع المتغير ... فارس عبدالمجيد
- ٦ - الإسلام لايفصل بين الدين والدنيا والدولة يعقوب إسمي
- ٧ - الرد على شبهة فصل الدين عن السياسة احمد محمد ابوضاهر
- ٨ - العلمانية والاستعمار والفكر القومي، دراسة تحليلية هادي الموسوي
- ٩ - العلمانية بين الأصالة والتعبية وسام الخطاري
- ١٠ - العلمانية، رؤية نقدية عبدالرزاق هادي الصالحي

الترايط والانسجام بين النظام السياسي

وسائر الانظمة الاسلامية

ولاء الحسيني 

قم - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الرسل والانباء، وعلى آله
الاطهار و صحبه الابرار .

إنّ الترباط و الانسجام بين الانظمة الاسلامية قائم على أساس وحدة المصدر، و
وحدة الغاية، و وحدة الطريق، و وحدة المصير؛ فالمصدر هو الله تعالى، و الغاية
مرضاته، و الطريق هو التفيّد بالمفاهيم العقائدية و القيم التشريعية، و المصير هو
المسؤولية أمام الله في الدار الآخرة .

و حلقة الترباط و الانسجام هي شمولية الاسلام، و استيعابها للكون و الحياة و
للمسيرة الانسانية بكل مقوماتها العقلية و الروحية و العاطفية و السلوكية، و لجميع
مراحلها، و أبعادها الفردية و الاجتماعية و التاريخية .

و كل نظام هو جزء من كل، قسيم للاجزاء الاخرى و متداخل معها، فلا فصل ولا

تنافي ومن هنا فإنّ النظام السياسي في الإسلام هو جزء من كل، وهو كبقية الانظمة الاسلامية في أهدافه و غاياته وفي وسائله و أساليبه؛ يهدف الى تحقيق مباديء الاسلام في الواقع، وقد أوكلت له هذه المهمة، ومن هنا فيمكن القول أنّ المحور الثاني بعد النظام العقائدي الذي تتمحور حوله بقية الانظمة الاسلامية، لأنّه الأقدر على اسناد قواعدها وأسسها وجعلها حاكمة على حركة الانسان والمجتمع في الواقع الموضوعي المتجه نحو الله تعالى في كماله و سموّه و ارتقائه .

والمحورية ناشئة من دور النظام السياسي في الإصلاح و التغيير طبقاً لمسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال تعالى: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة و أمروا بالمعروف و نهوا عن المنكر و لله عاقبة الامور﴾^(١).

وهي شاملة لجميع مرافق الحياة، كما قال الامام الحسين بن علي (ع) :
«إنّ الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر دعاء إلى الاسلام، مع رد المظالم و مخالفة الظالم، وقسمة الفياء و الغنائم، و أخذ الصدقات من مواضعها و وضعها في حقّها»^(٢).

و النظام السياسي قائم على أساس الامامة و القيادة وهي مسؤولة عن تطبيق أسس و قواعد بقية الانظمة الاسلامية، قال الامام علي بن موسى الرضا (ع) :

«إنّ الامام زمام الدين و نظام المسلمين و صلاح الدنيا و عز المؤمنين، الامام أس الاسلام النامي و فرعه السامي ، بالامام تمام الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج، و الجهاد و توفير الفياء و الصدقات، و امضاء الحدود و الاحكام، و منع الثغور

١- الحج / ٤١ .

٢- تحف العقول : ١٦٨، ابن شعبة الحرّاني ، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف، ١٣٨٦ هـ . . ط ٥ .

والاطراف ... الامام يقيم حدود الله و يذب عن دين الله، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة و الموعدة الحسنة و الحججة البالغة»^(١).

فالنظام السياسي وان كان جزءاً من كل؛ إلا أنه يمتاز بالمحورية لسائر الانظمة الاسلامية بعد النظام العقائدي .

ولذا فان المحافظة على النظام السياسي تأتي في قائمة الاولويات التكليفية، سواء كانت في خصوص مفاهيمه أو وجوده القائم في واقع الحياة .

وفي بحثنا هذا نسلط الاضواء على الترباط و الانسجام بين النظام السياسي الاسلامي، و سائر الأنظمة و أهمها :

النظام العقائدي، النظام التعليمي والتربوي، النظام الاخلاقي، النظام الاجتماعي، و النظام الاقتصادي .

واعتمدنا على القرآن الكريم، و السنة النبوية، و سيرة الخلفاء، و آراء العلماء، و دستور الجمهورية الاسلامية في ايران و تجربتها العملية؛ في وضع قواعد كلية للبحث المطروح .

المبحث الأول

الترايط و الانسجام بين النظامين: السياسي و العقائدي

النظام السياسي قائم على أساس المبدأ الاسلامي (لا إله إلا الله) الذي يعني: ان الله تعالى هو المصدر الوحيد الذي يستمد منه النظام السياسي جميع أسسه و قواعده الفكرية و التشريعية، و تطبيقاته العملية، و يتجلى هذا الترايط و الانسجام بوحدة المبادئ و المفاهيم .

أولاً: ان الله تعالى هو المصدر و القاعدة الفكرية للنظام السياسي

الله تعالى هو المشرّع الوحيد للأسس و القواعد التي يقوم عليها النظام السياسي، وهو نظام يحمل رسالة فكرية لا تعترف بحدود إلا حدودها، و بذلك يصبح قابلاً للتحقيق في أوسع مدى انساني ممكن، لانه من وضع خالق الانسان، قال تعالى:

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ...)^(١).

وقال تعالى:

(وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربّي عليه توكلت و إليه أنيب)^(٢).

و رئيس الدولة - على ضوء ذلك - ليس مشرّعاً و إنما هو مجرد منفذ للاحكام الالهية، و متقيّد بها .

١- النساء / ١٠٥ .

٢- الشورى / ١٠ .

ثانياً - انّ الله تعالى هو مصدر السلطات

إنّ عقيدة التوحيد تتجسد في الاستسلام لسلطة واحدة وهي سلطة الله تعالى، ولا سلطة لإنسان على آخر إلاّ من خلال تلك السلطة، فهي التي تمنح لمن تشاء صلاحيات الامر و النهي، فالله تعالى هو الذي يمنح السلطة لبعض الناس عن طريق التعيين الخاص، كما في حكومة الانبياء و أوصيائهم، أو التعيين العام كما في حكومة الفقهاء العدول .

قال الشهيد الصدر :

(والمرجع الشهيد معيّن من قبل الله تعالى بالصفات و الخصائص أي بالشروط العامة في كل الشهداء ... و معيّن من قبل الامة بالشخص، إذ تقع على الأمة مسؤولية الاختيار الواعي له)^(١).

فالجعل هو من الله تعالى، قال تعالى:

(و جعلناهم أئمة يهدون بأمرنا)^(٢).

وهو الذي ردّ الأمر إلى من نصّبه مسؤولاً عن النظام السياسي:

﴿ ... فان تنازعتم في شئء فردوه إلى الله و الرسول ان كنتم تؤمنون بالله و اليوم

الآخر ذلك خير و أحسن تأويلاً ﴾^(٣).

وهو تعالى الذي جعل الولاية للبعض دون غيرهم، ولم يجعل الولاية للكافر على

المسلم :

١- الاسلام يقود الحياة : ١٧٠ ، محمد باقر الصدر، وزارة الارشاد، طهران، ١٤٠٣ هـ.

٢- السجدة / ٢٤ .

٣- النساء / ٥٩ .

(ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً) (١).

ومن هنا فإن المتولي و المشرف على النظام السياسي هو نائب عن الله تعالى؛ الذي منحه و أعاره تلك الصلاحية، و ليس له صلاحية مستقلة و لا سلطة مستقلة عنه تعالى، فهي له ما دام منفذاً لأوامر الله تعالى و مطبقاً لأحكامه، و تسلب منه ان لم ينفذ ما عليه، و تسلب منه خاصية الايمان و العدالة التي نصّب على ضوئها.

قال تعالى :

﴿... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ (٢).

وقال تعالى :

﴿... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ (٣).

ثالثاً - ان الله تعالى هو مصدر الطاعة

ان طاعة الامام أو الخليفة أو رئيس النظام السياسي ليست طاعة مستقلة، فلا طاعة لانسان على آخر إلا بما منحه الله تعالى، فهو مصدر الطاعة، و طاعة من نصّبه هي جزء من طاعته تعالى، كما جاء في قوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم ...﴾ (٤).

وقال تعالى :

﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ...﴾ (٥).

١- النساء / ١٤١ .

٢- المائدة / ٤٤ .

٣- المائدة / ٤٧ .

٤- النساء / ٥٩ .

٥- النساء / ٦٤ .

فالطاعة هي لله تعالى، و طاعة من نصّبه هي جزء من طاعته و تبع لها، قال تعالى:
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فإِنَّمَا يَنْكُثُ
عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(١).
و تنخرم هذه الطاعة ان خالف الشخص المأمور بطاعته مفهوماً إسلامياً أو قيمة
سلوكية، أو امر بخلاف ما قيّد به .

قال رسول الله (ص):

«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(٢).

فالطاعة في النظام السياسي مرتبطة بأساس عقائدي، و ليست هي طاعة مطلقة، فلا
طاعة إلاّ لمن جسّد أو امر الله تعالى و نواهيه في سيرته العملية، و ان يكون الأمر
الصادر أمراً مشروعاً .

قال الامام علي (ع):

«يحق على الامام أن يحكم بما أنزل الله و أن يؤدي الامانة، فاذا فعل ذلك فحق
على الناس أن يسمعوا له و يطيعوه و يجيبوه إذا دعا»^(٣).

رابعاً - المساواة بين الحاكم و المحكومين

يقوم النظام السياسي على مفهوم عقائدي وهو المساواة بين الناس بلا فرق بين
الحاكم و المحكومين، فهم جميعاً عباد لله، و هم أحرار كما خلقهم الله تعالى، و
استخلفهم في الأرض لأداء المسؤولية و التكليف الالهي، فلا ميزة لأحد على آخر
حتى صلاحية الحكم، فانها ليست وسيلة للتمييز، فكل انسان مسؤول سواء كان حاكماً

١- الفتح / ١٠ .

٢- مسند احمد بن حنبل : ١ / ١٣١ ، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٣ م ، ط ٢ .

٣- الاموال، ١٣ ، أبو عبيد القاسم بن سلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦ هـ ، ط ١ .

أو محكوماً.

قال رسول الله (ص):

«كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»^(١).

والحرية المناطة بجميع الناس مرتبطة بالمسؤولية أمام الله تعالى، فلكل فرد حدوده و قيوده طبقاً لقواعد الحقوق والواجبات، وهم مكرّمون من قبل الله تعالى بأصل الخلقة والنشأة، لذا نهى الامام علي (ع) الناس عن خلق الفوارق بين الحاكم وبينهم، كما جاء في قوله :

«إنّ من حق من عظمَ الله سبحانه في نفسه، و جَلَّ موضعه من قلبه، أن يصغُرَ عنده - لعظم ذلك - كلُّ ما سواه ... فلا تكلموني بما تُكَلِّمُ به الجابرة، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقلاً في حقّ قيل لي، ولا إلتماس إعظام لنفسي ... فانما أنا وأنتم عبيد مملوكون لربِّ لا ربَّ غيره، يملك منّا ما لا نملك من أنفسنا ...»^(٢).

والعلاقة بين الحاكم و سائر ولاته و عمّاله و بين الناس هي علاقة أخوة في الاعتقاد والايمان، و علاقة توزيع في المسؤولية .

و النظام السياسي الذي وضع قواعده الامام الخميني (رض) في التجربة الاسلامية المعاصرة، و اشترك كثير من الفقهاء في تحديد مواد دستوره، ينص على قيامه على قاعدة الايمان، وهو مترابط و منسجم مع النظام العقائدي، كما نصت عليه المادة الثانية من مواد دستور الجمهورية الاسلامية في ايران : (الجمهورية الاسلامية هي نظام يقوم على قاعدة الايمان :

١- بحار الانوار ٥٧ / ١٣٨ ، محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣ م، ط ٢ .

٢- نهج البلاغة : ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، تحقيق: د. صبحي الصالح، دار الكتاب، بيروت، ١٩٨٢ م، ط ٢ .

- ١- بالله الأحد (لا اله إلا الله) و اختصاص الحاكمية والتشريع به، و التسليم له .
 - ٢- بالوحي الالهي ، و دوره الأساسي في بيان القوانين .
 - ٣- بالمعاد ودوره الخلاق في مسيرة الانسان التكاملية نحو الله .
 - ٤- بعدل الله في التكوين و التشريع .
 - ٥- بالامامة والقيادة المستمرة، ودورها الأساسي في ديمومة الثورة الاسلامية.
 - ٦- بالكرامة والقيمة الرفيعة للانسان، وخرите التوأم مع المسؤولية أمام الله .
- ونصّت المادة الرابعة على وجوب (أن تكون كافة القوانين، و المقررات المدنية، و الجزائية، و المالية، و الاقتصادية، و الادارية، و الثقافية، و العسكرية، و السياسية، و غيرها قائمة على أساس الموازين الاسلامية، و هذه المادة حاكمة على اطلاق كافة مواد الدستور، و القوانين و المقررات الاخرى).
- ومن أهم الواجبات الملقة على عاتق المشرفين على تطبيق النظام السياسي هي نشر العقيدة الاسلامية، و مفاهيمها حول الكون والحياة و الانسان، و ايصالها الى جميع من في الأرض، و تهيئة الارضية المناسبة لاداء هذا الواجب، بتكثير عدد المبلغين و الآمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر، و خصوصاً ما يتعلق بالعقيدة لانها أساس التشريع و القوانين، و ازالة الشبهات العقائدية، فمن الواجبات هي:
- (حفظ الدين على الاصول التي أجمع عليها سلف الأمة، فان زاغ ذو شبهة عنه بين له الحجة و أوضح له الصواب).
- و أول عمل قام به رسول الله (ص) هو نشر العقيدة الاسلامية قبل تأسيسه للدولة أو بعد قيامها، طبقاً لقواعد النظام السياسي، وكان يقول:
- «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» .
- وقد سار أصحابه على سيرته في اعلان التوحيد و نشر مفاهيمه في واقع الحياة

مستثمرين جميع الطاقات و الامكانيات المتاحة .

و خلاصة القول: ان النظام السياسي الاسلامي له ارتباط وثيق بالنظام العقائدي، و انسجام كامل مع أصوله و قواعده، ولا يقوم أحد النظامين بمعزل عن الآخر، بل يشدّ أحدهما الآخر و يسنده نظرياً و عملياً، فالعقيدة تضي على النظام السياسي هالة من القدسية في نفوس اتباعه، وهو بدوره يقوم بنشر مفاهيمها التوحيدية، و يمنع من التشكيك و الطعن في أصولها و متبنياتها الاساسية .

المبحث الثاني

الترابط و الانسجام بين النظام السياسي و النظام التعليمي و التربوي

من أهم مظاهر الترابط و الانسجام بين النظام السياسي و النظام التعليمي و التربوي؛ هو اشتراط الفقهامة في المتصدى لقيادة الدولة و النظام السياسي العملي القائم في الواقع، لأنّ الفقيه هو الاعرف بالتشريعات و القوانين، و الأقدر على استنباط الاحكام السياسية و سائر الاحكام التي تحتاجها الامة يحتاجها النظام السياسي، في مسيرته لهداية الناس و قيادتها نحو المطلق سبحانه و تعالى، و لا يستطيع القيام بوظيفة الهداية إلاّ من يكون عالماً بأسسها و قواعدها الثابتة و المتحركة، و قيادة الفقيه هي القيادة الوحيدة التي تجعل القانون و التوجيهات و الاوامر و التواهي ذات قدسية خاصة في العقول و القلوب .

وقد أكد رسول الله (ص) على دور الفقيه في حركة الامة الاسلامية فقال:

«المتقون سادة، و الفقهاء قادة، و الجلوس اليهم عبادة»^(١).

وقال (ص) :

«اللهم ارحم خلفائي ... الذين يأتون بعدي و يروون حديثي و سنتي»^(٢).

و ربط الامام علي (ع) بين الفقاهاة و القدرة على القيادة فقال:

«إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه، و أعلمهم بأمر الله فيه»^(٣).

وقال أيضاً :

«والواجب في حكم و حكم الاسلام على المسلمين ... أن يختاروا لانفسهم إماماً

عفيفاً عالماً و عارفاً بالقضاء و الستة»^(٤).

ومن عوامل اشتراط الفقاهاة في المتصدي :

(ليقوم بأمر الدين متمكناً من اقامة الحجج و حل الشبه في العقائد الدينية مستقلاً

بالتوى في النوازل و الاحكام و الوقائع نصاً و استنباطاً)^(٥).

وقال الامام الخميني (رض) :

(وقد أصبح من المسلمات لدى المسلمين من أول يوم و حتى يومنا هذا أن

الحاكم أو الخليفة ينبغي أن يتحلى بالعلم بالقانون...)^(٦).

و يشترط في تعيين بقية العاملين في مرافق الدولة أن يكونوا من أهل العلم

١- بحار الانوار ١ / ٢١٦ .

٢- من لا يحضره الفقيه ٤ / ٤٢٠ ، الشيخ الصدوق ، جماعة المدرسين ، قم ، ١٤٠٤ هـ ، ط ٢ .

٣- نهج البلاغة : ٢٤٧ ، الخطبة : ١٧٣ .

٤- كتاب سليم بن قيس الهلالي ٢ / ٧٥٢ ، مطبعة الهادي ، قم ، ١٤١٥ هـ ، ط ١ .

٥- شرح المواقف ٨ / ٣٤٩ ، على بن محمد الجرجاني ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٢٥ هـ ، اوفسيت ، منشورات الرضي ، قم .

٦- الحكومة الاسلامية : ٤٦ ، الامام الخميني ، المكتبة الاسلامية الكبرى ، طهران ، ١٣٨٩ هـ .

والتجربة، فالقاضي يجب أن يكون فقيهاً، والوزراء والامراء يجب أن يكونوا على قدر من العلم والاطلاع والتجربة .

الواجبات التعليمية والتربوية لمؤسسات النظام السياسي

تقع على عاتق مؤسسات النظام السياسي ابتداءً برأس النظام مسؤولية تعليم وتربية الامة؛ بنشر المفاهيم والقيم الاسلامية، و تحصينها من الانحراف العقائدي والسلوكي، وتعليمها مختلف العلوم الضرورية في سير الفرد والمجتمع، مع التركيز على العلوم المرتبطة بالعقيدة والشريعة، ففي رواية : دخل رسول الله (ص) المسجد فاذا جماعة محيطين برجل أعلم الناس بالانساب والاشعار فقال (ص):

«ذاك علم لا يضّر من جهله، ولا ينفع من علمه، انما العلم ثلاثة: آية محكمة أو فريضة عادلة، أو سنة قائمة، وما خلاهنّ فهو فضل»^(١).

وأكد الامام علي(ع) على مسؤولية القائد والحاكم في التعليم والتربية فقال:

«على الامام أن يعلم أهل ولايته حدود الاسلام والايمان»^(٢).

وكان رسول الله (ص) يحث على العلم بمختلف جوانبه، فقد جعل (ص) فداء كل أسير من أسرى بدر ممن يحسنون القراءة والكتابة، أن يعلم عشرة من الصحابة أبنائهم القراءة والكتابة^(٣).

وأمر (ص) أحد الصحابة أن يتعلم اللغات غير العربية ليتولى أعمال الترجمة^(٤).

١- الكافي ١ / ٣٢ .

٢- تصنيف غرر الحكم : ٣٤١ .

٣- الحاوي الكبير ٢٠ / ٨٣ ، الماوردي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٢ هـ .

٤- الحاوي الكبير ٢٠ / ٨٢ .

و أسر المسلمون ثلاثين من أصحاب الصناعات فقال (ص):
«اتركوهم بين المسلمين يتتفعون بصناعتهم»^(١).
وكان (ص) يصدر أوامره لعدد من الصحابة بتعليم غيرهم^(٢).
وكان يبعث المعلمين للامصار لاشاعة العلم و نشره عند الجميع .
و ينبغي على الحاكم و سائر مؤسساته تشجيع الناس على طلب العلم، فقد كان أبو
الدرداء إذا رأى طلبة العلم قال:

(مرحباً بطلبة العلم ... ان رسول الله (ص) أوصى بكم)^(٣).

وكان بعض ولاة الخلفاء يستخدمون القوة في فرض التعليم، فقد بعث الخليفة
الثاني رجلاً يستقرأ أهل البوادي القرآن، فمن لم يقرأ ضربه بالسوط^(٤).
ويجب على الدولة وعلى رئيسها التدخل لمنع انتشار العلم الذي يخلق البلبلة
والتشكيك في عقول الناس و عواطفهم، فقد روي ان عمر بن الخطاب أتى رسول الله
(ص) بنسخة من الكتب الالهية السابقة، و جعل يقرأ و وجه رسول الله يتغير ، فقال أبو
بكر: (ثكلتك الثواكل ماترى بوجه رسول الله ...

فقال عمر : أعوذ بالله من غضب الله و غضب رسوله)^(٥).

فقد كان (ص) يريد تعليم الامة على ضوء المفاهيم الاسلامية، ولا يريد الخلط
والبس بينها و بين غيرها و الناس حديثوا عهد بالاسلام، فمنع من ذلك .

١- الترتيب الادارية ٢ / ٧٥ ، الكتاني، دار الكتاب العربي، بيروت .

٢- النظم الاسلامية: ١٤١ ، ١٤٢، د. محمد كاظم مكّي ، دار الزهراء، بيروت، ١٤١١ هـ ، ط ١ .

٣- سنن الدارمي ١ / ٩٩ ، عبد الله بن بهرام الدارمي، دار الفكر، القاهرة، ١٣٩٨ هـ .

٤- الاصابة في تمييز الصحابة ١ / ١٥١ ، احمد بن علي (ابن حجر)، دار نهضة مصر، القاهرة ، بدون
تاريخ .

٥- سنن الدارمي ١ / ١١٦ .

و ضرب عمر في خلافته رجلاً من عبد القيس ثلاث مرات، فقال الرجل: مالي يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذي نسخت كتب دانيال ... انطلق فامحه ... ثم لا تقرأه أنت ولا تقرأه أحداً من الناس، فلئن بلغني عنك انك تقرأه أو أقرأه أحداً من الناس لانهكتك عقوبة^(١).

و حرّم رسول الله (ص) طلب العلم لغير نفع الناس فقال :
«من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو ليماري به السفهاء أو يريد أن يقبل بوجوه الناس إليه أدخله الله جهنم»^(٢).
ومن واجبات الحكومة في اسناد النظام التعليمي و التربوي كما في المادة الثالثة من دستور الجمهورية الاسلامية :

١ - رفع مستوى الوعي الجماهيري على كافة الاصعدة، بالاستفادة السليمة من الصحافة، و وسائل الاعلام العامة، و الوسائل الاخرى .

٢ - توفير التربية و التعليم... مجاناً للجميع، وفي مختلف الاصعدة، و تسهيل و تعميم التعليم العالي .

٣ - تقوية روح التحقيق، و البحث و الابداع في كافة المجالات العلمية، و الفنية و الثقافية و الاسلامية، عن طريق تأسيس مراكز التحقيق، و تشجيع الباحثين .
و نصت المادة الثلاثون على ان:

(الحكومة مسؤولة عن توفير وسائل التربية و التعليم المجاني لكافة أبناء الشعب حتى نهاية المرحلة الثانوية، و عن توسيع وسائل التعليم العالي، بصورة مجانية، حتى الوصول الى الاكتفاء الذاتي).

١- مجمع الزوائد ١ / ١٨٢ ، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ .

٢- سنن الدارمي ١ / ١٠٤ ، ١٠٥ .

دور النظام التعليمي و التربوي في ارساء أسس النظام السياسي

إن اقرار أسس وقواعد النظام السياسي في مفاهيمه و قيمه بحاجة الى تعليم دائم و ارشاد متواصل، لتشخيص الاحداث والمواقف، و الحكم على الاشخاص و الوجودات السياسية من أجل أن لا تضرب الموازين و لا تختلف المعايير في الاذهان والقلوب والارادات، و من أجل المساهمة في انجاح البرامج والخطط والاعمال، فان ذلك لا يتم إلا بقيام النظام التعليمي و التربوي بدوره الموضوع له . و من أهم الادوار التي يقوم بها في ارساء أسس النظام السياسي هي رفا الاجهزة و المؤسسات السياسية بالعناصر الواعية الكفوءة المخلصة، لتنهض بمسؤوليتها في ادارة البرامج والاعمال والنشاطات، و بعبارة أخرى اعداد الكوادر المختصة في مختلف الحقوق السياسية التي يتألف منها النظام السياسي، اضافة الى توعية الامة على معرفة أسس وقواعد النظام السياسي، و تشخيص صفات كوادره و مصداقيتها في الواقع، و اسلوب التعامل مع اجهزة و مؤسسات النظام السياسي القائم بكيان الدولة الاسلامية، اضافة الى دوره في ارشاد كوادر النظام الى اتخاذ الموقف المناسب اتجاه الاشخاص والاحداث، و يمكن تحديد دور النظام التعليمي و التربوي في ارساء أسس النظام السياسي في النقاط التالية:

أولاً: الارشاد الى معرفة خصائص القائد و الحاكم

إنّ النظام التعليمي و التربوي قد حدّد خصائص من يتصدى لقيادة و حاكمية الناس، وهي الفقاهاة و العدالة و الكفاءة، لكي يختاروا من بينهم من يتصف بها في حال التشاح و التراحم، و قد تندم ذكر بعض الروايات في ذلك، وهنالك روايات تحدّد الخصائص الاخرى، وهي: العدالة و الكفاءة، قال رسول الله (ص):

«لا تصلح الامامة إلا لرجلٍ فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يملك به غضبه، وحسن الولاية على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم»^(١).

ومن خصائص القائد هي الافضلية في الفقاهاة و العدالة و الكفاءة، قال رسول الله (ص): «من تقدم على قوم من المسلمين، يرى أن فيهم من هو أفضل منه، فقد خان الله ورسوله و المسلمين»^(٢).

و القائد هو المتقيد باتّباع السنّة و العمل بطاعة الله، قال الامام الحسن بن علي (ع): «انما الخليفة من سار بسيرة رسول الله (ص) و عمل بطاعة الله»^(٣).

وارشاد و تعليم الامة على معرفة هذه الخصاص، يجعلها قادرة على التشخيص في بداية اختيار القائد و في اثناء ممارساته التطبيقية، لمعرفة مدى مطابقتها للاس و القواعد الثابتة، و معرفة درجة القرب و البعد عنها، و من ارشادات النظام التعليمي و التربوي ما قاله رسول الله (ص):

«لن يفلح قوم أسدوا أمرهم إلى امرأة»^(٤).

ثانياً: الارشاد الى معرفة واجبات الحاكم و مؤسسات الدولة

من مسؤولية النظام التعليمي و التربوي ارشاد الامة لمعرفة واجبات الحاكم و مؤسسات الدولة المرتبطة بالنظام السياسي، و من أهم تلك الواجبات هي اقرار العقيدة و الشريعة في الواقع؛ لتكون هي الحاكمة على تصورات الناس و أخلاقهم و علاقاتهم، و من الواجبات الملقة على عاتق الحاكم و أجهزته هي الشورى:

١- الكافي ١ / ٤٠٧.

٢- تمهيد الاوائل و تلخيص الدلائل : ٤٧٤، الباقلاني، بيروت، ١٤١٤ هـ.

٣- تحف العقول : ١٦٤.

٤- تحف العقول : ٢٥.

﴿ وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله إنّ الله يحب المتوكلين ﴾^(١).

وان يستعين في تعيين المناصب على الاخير قال رسول الله (ص):

«... وأن يستعين على أمورهم بخير من يعلم...»^(٢).

ومن واجباته اعلان الحريات العامة، والقضاء العادل بين الناس، قال تعالى:

﴿ ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا

بالعدل ... ﴾^(٣).

وأن يكون عادلاً في مساواته بين الناس دون تمييز بين قريب أو بعيد، قال الامام

علي (ع):

«ثلاثة من كنّ فيه من الائمة صلح أن يكون اماماً، اضطلع بأمانته: إذا عدل في

حكمه، ولم يتحجب دون رعيته، و اقام كتاب الله تعالى في القريب والبعيد»^(٤).

ومن واجباته النظر في حوائج المسلمين، قال رسول الله (ص):

«من ولي شيئاً من أمر المسلمين لم ينظر الله في حاجته حتى ينظر في حوائجهم»^(٥).

ومن واجباته التي ارشد اليها النظام التعليمي والتربوي هي تحقيق التوازن

الاقتصادي، واشباع حاجات الفقراء، والمنع من الاعتداء على الاموال والممتلكات،

والعدالة في العطاء.

و ارشاد الامة الى معرفة هذه الواجبات يجعلها قادرة على متابعة التطبيقات العملية

١- آل عمران / ١٥٩ .

٢- كنز العمال / ٥ / ٧٦٤ .

٣- النساء / ٥٨ .

٤- كنز العمال / ٥ / ٧٦٤ .

٥- مجمع الزوائد / ٥ / ٢١١ .

للتشريعات النظرية.

ثالثاً: الارشاد إلى معرفة حقوق الحاكم و مؤسسات الدولة

يتبنى النظام التعليمي والتربوي ارشاد الامة لمعرفة حقوق الحاكم، و معرفة واجباتها اتجاهه، لتقوم بادائها على أحسن صورة، ومن أهم هذه الحقوق هي حق الطاعة و تنفيذ الأوامر، والانتهاز عن النواهي، مادامت مشروعة، و تصب في المصلحة العامة، و ارشاد الامة الى وجوب النصيحة والاخلاص للحاكم المتصدي، قال رسول الله (ص):

«ثلاث لا يغفلّ عليهنّ قلب امرئ مسلم: اخلاص العمل لله، و النصيحة لائمة المسلمين، و اللزوم لجماعتهم...»^(١).

و يرشد النظام التعليمي والتربوي الامة الى نصره الحاكم والنظام السياسي، و اسناد المؤسسات الحكومية، و الانخراط في العمل في مرافقها، قال الامام جعفر الصادق(ع) حول هذا الحق:

«... والعمل له في ولايته و ولاية ولاته، و ولاة ولاته بجهة ما أمر الله به الوالي العادل بلا زيادة فيما أنزل الله به، ولا نقصان منه، ولا تحريف لقوله ... فالولاية له، والعمل معه، و معونته في ولايته، و تقويته حلال محلّل؛ و ذلك ان في ولاية والي العدل، و ولاته إحياء كلّ حق، و كل عدل، و إماتة كل ظلم و كل جور و فساد، فلذلك كان الساعي في تقوية سلطانه و المعين له على ولايته ساعياً الى طاعة الله مقوياً لدينه...»^(٢).

و من حقوق الحاكم هي الاستمرار في منصبه ما دام متقيداً بالشريعة، في سلوكه و

١- الكافي ١ / ٤٠٣ .

٢- تحف العقول : ٢٤٦ .

مواقفه، وفي ممارسات مؤسساته المتنوعة، فلا يجوز العمل على ازالته أو انهاء حكمته، قال الامام موسى بن جعفر الكاظم (ع):

«ثلاثة موبقات: نكث الصفقة - أي البيعة - و ترك السنّة، و فراق الجماعة»^(١).

رابعاً: ارشاد الحاكم ومؤسساته

يتبنى النظام التعليمي والتربوي توعية المسلمين و ارشادهم الى اتخاذ الخطط والبرامج والاعمال المنسجمة مع العقيدة والشريعة، بلا تمييز بين الحاكم والمحكومين، والحاكم مكلف بتحسين سياسته بما فيها خدمة للاسلام و المسلمين، ويرشده الى اختيار الكفاء و الامناء و تنصيبهم في المناصب الحساسة، و ان لا تأخذه لومة لائم في تطبيق العدالة والمساواة، و يرشده الى السعي لازالة المعوقات التي تقف أمام تطبيق الخطط و البرامج، و يرشده الى اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب في السلم والحرب، وفي التعامل مع المسلمين وغير المسلمين .

والحاكم مأمور بالسير على ضوء التعليمات المرسومة له من قبل النظام التعليمي والتربوي، كبقية أفراد المجتمع، فهو معهم على حدٍّ سواء، وهو مجرد أمين مكلف بالمسؤولية، و لكل فرد مسؤوليته، في ارساء دعائم العقيدة والشريعة الاسلامية .

المبحث الثالث

الترابط والانسجام بين النظام السياسي والنظام الاخلاقي

جاء الاسلام من أجل اتمام مكارم الاخلاق ، وجعلها الحاكمة على جميع التصورات و العواطف والمواقف، وعلى جميع مرافق حياة الانسان فرداً كان أم مجتمعاً، وتقع مسؤولية اتمام مكارم الاخلاق على جميع طبقات المجتمع، وعلى جميع الانظمة الاسلامية، فلا انفصال بينها في ذلك، فالنظام السياسي هو نظام سياسي و اخلاقي في آن واحد، فجميع أسسه و قواعده و متبنياته هي أسس وقواعد و متبنيات أخلاقية، لأن السياسة سلوك و علاقات و ممارسات عملية، لذا فان صلاح و فساد المجتمع متوقف على صلاح و فساد المؤسسات السياسية وعلى رأسها الحاكم و ولاته و العمّال العاملين معه، قال رسول الله (ص):

«صنّفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي ، و إذا فسدوا فسدت أمتي : الفقهاء والامراء»^(١).

و تؤكد مسيرة المجتمعات على هذه السّنة التاريخية، فان صلاح المجتمعات بصلاح الحاكم والدولة، و فسادها بفسادهما، لانهما يملكان وسائل التأثير على المجتمع، كالاتّام والاموال والمعنويات، والتلاعب بالقوانين، فهما يستطيعان توجيه المجتمع طبقاً لتوجهاتهم التي تؤثر ايجاباً و سلباً على أخلاقه و سيرته العملية ابتداءً بمرحلة الطفولة و انتهاءً بالشيخوخة .

ومن مظاهر الترابط والانسجام بين النظام السياسي والنظام الاخلاقي :

أولاً - اشتراط التقوى والعدالة في الحاكم الاسلامي

التقوى والعدالة من أهم الشروط التي يجب أن تصاف الحاكم بها؛ لأنّ الحكومة أمانة تتطلب السير على ضوء المبادئ الاسلامية، والتقيّد باحكام الشريعة في جميع جوانب شخصية الحاكم و بطانته و مؤسساته، قال تعالى:

﴿... لا ينال عهدي الظالمين﴾^(١).

وقد تقدم الحديث الشريف في توضيح خاصية العدالة: «... ورع يحجزه عن معاصي الله».

ونفى الامام علي (ع) الصفات المذمومة عن الحاكم، وهي تستلزم العدالة، فقال: «وقد علمتم أنّه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والاحكام وإمامة المسلمين البخيل ... ولا الجافي ... ولا الحائف للدول ... ولا المرتشي في الحكم ... ولا المعطلّ للسنة»^(٢).

واشتراط العدالة محل اتفاق جميع المسلمين من السنة و الشيعة^(٣).

ثانياً - حرمة الطاعة للحاكم الجائر و الفاسق

من الاسس والقواعد التي يقوم عليها النظام الاخلاقي في المجال السياسي هي حرمة الطاعة للحاكم الجائر و الفاسق، قال تعالى:

﴿ولا تطيعوا أمر المفسدين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾^(٤).

١- البقرة / ١٢٤ .

٢- شرح نهج البلاغة / ٨ / ٢٦٣، ابن أبي الحديد، القاهرة، ١٣٧٨ هـ، ط ١ .

٣- طرق تولّي القائد: ١٧٨، شهاب الدين الحسيني، منشورات مهرجان الشيخ الطوسي، قم، ١٤١٨ هـ، عن عدة مصادر .

٤- الشعراء / ١٥١، ١٥٢ .

والفاسق لا يصلح أن يكون قائداً و حاكماً كما هو الظاهر من آراء الفقهاء، قال الزمخشري: «ان الفاسق لا يصلح للامامة، وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته، ولا تجب طاعته ولا يقبل خبره، ولا يقدم للصلاة...»^(١).

وقد أطبق جميع المفسرين - للآية الكريمة: ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ على عدم جواز تولي الظالم والفاسق للحكم، وبالتالي لا تجب طاعته، بل تحرم وخصوصاً في الأوامر التي تستبطن المعصية، فمن معاذ قال: يا رسول الله أرأيت ان كان علينا امراء لا يستنون بسنتك، ولا يأخذون بأمرك، فما تأمرني من أمرهم؟ فقال (ص): «لا طاعة لمن لم يطع الله»^(٢).

وقد ذهب كثير من الفقهاء الى وجوب عزل الحاكم الفاسق ان أصرّ على فسقه، وهو محل اتفاق فقهاء الشيعة، وتابع بعض فقهاء السنة هذا الرأي ومنهم: الماوردي، وعبد القاهر البغدادي، واليزدوي وابن حزم الظاهري والجرجاني^(٣).

ثالثاً - وجوب الالتزام بالاخلاق الاسلامية من قبل الحاكم

يجب على الحاكم وولاته و جميع العاملين في مؤسسات الدولة الالتزام بالاخلاق الاسلامية، بل يجب عليه أن يكون قدوة لغيره في ذلك، قال الامام علي (ع): «ينبغي لمن ولي أمر قوم أن يبدأ بتقويم نفسه قبل أن يشرع في تقويم رعيته...»^(٤). وقال (ع):

١- الكشاف ١ / ١٨٤، الزمخشري، نشر البلاغة، قم، ١٤١٥ هـ.

٢- مجمع الزوائد ٥ / ٢٢٥.

٣- طرق تولي القائد ٢٠٢، عن الاحكام السلطانية: ١٧، أصول الدين: ١٩٠، الفصل في الملل والاهواء والنحل ٤ / ١٧٥، شرح المواظف ٨ / ٣٥٣.

٤- شرح نهج البلاغة ٢٠ / ٢٦٩.

«من نصب نفسه للناس اماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، و معلم نفسه و مؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس و مؤدبهم»^(١).

وقال أيضاً:

«أجلُّ الامراء من لم يكن الهوى عليه أميراً».

«استعن على العدل بحسن النية في الرعية، وقلة الطمع، وكثرة الورع».

«أفضل الملوك أعفهم نفساً»^(٢).

رابعاً: وجوب اشاعة الفضيلة و حسن الاخلاق

الحاكم مأمور من قبل الله تعالى باشاعة الفضيلة و حسن الاخلاق، لتكون هي الحاكمة على المواقف و الممارسات السلوكية، فيجب عليه تهيئة جميع المقدمات والوسائل الموصلة لها، باعداد المبلغين والمصلحين ونشرهم في اوساط المجتمع، وان يختار الصالحين في مرافق و مؤسسات الدولة، وان يتابع سلوكهم باستمرار، ويحثهم على الاستقامة والثبات على أسس و قواعد الاخلاق الصالحة، فقد كان رسول الله (ص) يوصي امراءه و عماله بذلك فمن وصيته لمعاذ بن جبل:

«با معاذ علمهم كتاب الله و أحسن أدبهم على الاخلاق الصالحة ... و أظهر أمر

الاسلام كله، صغيره و كبيره و اياك أن تشتم مسلماً أو تطيع آثماً...»^(٣).

ومن عهد الامام علي (ع) الى مالك الاشر:

«... أمره بتقوى الله ، و ايثار طاعته، اتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه و سننه ...

١- نهج البلاغة : ٤٨٠ .

٢- تصنيف غرر الحكم : ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

٣- تحف العقول : ١٩ .

وان يكسر نفسه من الشهوات ... والصق بأهل الورع والصدق ... ثم الصق بذوي المروءات والاحساب، وأهل البيوتات الصالحة، والسوابق الحسنة...^(١). وكان رسول الله (ص) وخلفاؤه يستثمرون الفرص المتاحة لالقاء الخطب التوجيهية في اصلاح أخلاق المجتمع و ممارساته العملية، و يحثون على التقوى، و حسن الخلق، و ينهاون عن الرذيلة و سوء الخلق، حتى تركوا لنا تراثاً ضخماً من الاحاديث و الاقوال التي تتضمن الحث على الاخلاق و الالتزام بحسن السلوك .

خامساً: الالتزام بشروط البيعة من قبل الحاكم والمحكومين

البيعة هي المعاهدة على الالتزام من قبل الطرفين، الحاكم المبايع له، و افراد الامة المبايعين للحاكم، حيث يعاهد الحاكم الامة على الالتزام بالمنهج الاسلامي في سياسته، وان تكون أخلاقه منسجمة مع توجيهات الاسلام، و يعاهد أفراد الامة الحاكم على الطاعة والنصيحة، و يجب على الطرفين الوفاء بشروطها، و الالتزام بما تقرّر بينهما و الالتزام و الوفاء أحد مظاهر الاخلاق الحسنة و الممارسات الفاضلة، و قد أكدّ النظام الاخلاقي في الاسلام على هذا الوفاء و اعتبره من الواجبات الاكيدة في سيرة الحاكم و الامة .

ومن مظاهر الانسجام و الترابط هي استخدام القوة من قبل الحاكم و مؤسساته للقضاء على جميع مظاهر الفساد و الانحراف، و تنفيذ قانون العقوبات بحق المتجاهرين بالانحراف و المتلبسين به، كتنزير شارب الخمر، و اقامة الحدود في حق من يمارس الانحراف الجنسي، و الى غير ذلك من ألوان الفساد و الانحراف .

الترباط و الانسجام بين النظامين في دستور الجمهورية الاسلامية
 نصّت المادة الثالثة في الدستور على مسؤولية الجمهورية في توظيف كافة
 امكانياتها في سبيل تحقيق الاهداف الاسلامية بخلق (المناخ المساعد لنضج الاخلاق
 الفاضلة على أساس الايمان والتقوى، ومكافحة كل مظاهر الفساد والجريمة).
 ونصت المادة السابعة والستون على مسألة القسم الذي يؤديه اعضاء مجلس
 الشورى، حيث جاء في بعض فقراته (وان أراعي في تأدية مسؤوليات النيابة، الامانة
 والتقوى...).

واشترطت المادة التاسعة بعد المائة أن يكون القائد متصفاً بالتقوى والعدالة، وإذا
 أخل القائد بهذه الصفة وصفات أخرى فانه يعزل عن منصبه كما نصت المادة الحادية
 عشرة بعد المائة .

واشترطت المادة الخامسة عشرة بعد المائة أن تتوفر في رئيس الجمهورية بعض
 الصفات ومنها (الامانة والتقوى).

وفي سيرة مسؤولي الجمهورية الاسلامية في ايران كانوا يؤكدون على اشاعة
 الاخلاق الحسنة، والالتزام بالفضيلة وحسن السيرة، وكانوا يتواصون بها، ويوصون
 أبناء الشعب بالالتزام بحسن السلوك، وكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قائماً
 بين مختلف الطبقات، وازافة الى ذلك، هنالك مؤسسات خاصة تقوم بمهام
 الاصلاح الاخلاقي كلجان الناصحين، ولجان الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر .

المبحث الرابع

الترباط والانسجام بين النظام السياسي والنظام الاجتماعي

إن من مسؤولية الحاكم الاسلامي و مؤسساته التنفيذية هي رعاية شؤون الامة، فهو مسؤول عن تنظيم العلاقات الاجتماعية، واقامتها على العدل والاحسان والمودة والتكافل والتراحم والتناصح، وهذه الرعاية هي العامل المشترك بين النظامين السياسي والاجتماعي، وهي الموجبة للترباط والانسجام بينهما، فالحاكم مسؤول أمام الامة، والامة مسؤولة أمام الحاكم، والنظام الاجتماعي يخاطبهما معاً، كما يخاطبهما النظام السياسي، فلا فواصل ولا فوارق في أسس النظرية، وفي مقومات التطبيق، و تتجلى مظاهر الترباط والانسجام في خطوات عديدة أهمها مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي مسؤولية سياسية واجتماعية في آن واحد، وقد جاء القرآن الكريم ليحث على تكوين أمة تدعو الى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر، والأمة تعني الحركة المنظمة التي تضم في صفوفها القيادة والقاعدة، والحاكم والمحكومين، و جميع مقومات تكوين الحركة المنظمة الشاملة للجانبين السياسي والاجتماعي، ومن مظاهر الترباط والانسجام بين النظامين :

أولاً: الحرص على وحدة الامة الاسلامية

من واجبات الحاكم الاسلامي هي الحفاظ على وحدة الامة الاسلامية، ومن واجبات الامة الاسلامية الحفاظ على مركز القوة لاقامة الوحدة وهو الحكومة الاسلامية ونظامها السياسي القائم، ويحرم التفريط بهذا الواجب على الحاكم والامة، وهذا ما يؤكد النظامان السياسي والاجتماعي، فالمسؤولية متبادلة في تحقيق الهدف المشترك، فكان رسول الله (ص) يعمل جاهداً لتحقيق الوحدة السياسية والاجتماعية،

بارشاداته وتوجيهاته وخطواته العملية، وأول كتاب كتبه بعد اعلان قيام الدولة الاسلامية، يؤكد على وحدة الامة بما فيها الطبقات المختلفة و الوجودات المتعددة من مهاجرين و أنصار، حيث جاء فيه :

(... انهم امة واحدة من دون الناس ... وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وانه من تبعنا من يهود فانّ له النصر والاسوة)^(١).

ومن خطواته العملية هي المساواة بين المهاجرين والانصار، والأمر بالتآخي فيما بينهم .

وكان (ص) يحذر من المخططات الهادفة الى تمزيق الكيان السياسي والكيان الاجتماعي في آن واحد، وحينما اشتدت مخططات المنافقين و تحولت الى ممارسات سياسية و اجتماعية، اتخذ خطوات صارمة و حاسمة، فأمر باحراق مسجد ضرار الذي أسس لهذا الغرض، و أحرق منزل سويلم اليهودي لاجتماع المنافقين فيه^(٢).

ومن أجل الحفاظ على أسس النظامين السياسي والاجتماعي، حارب الخلفاء ، المتمردين والمرتدين والبغاة لاعادتهم الى الطاعة، ومنع البلبلة والخلل الواقع في داخل الوجود والكيان الاسلامي، بشقيه السياسي والاجتماعي .

وتنازل الامام الحسن (ع) عن الخلافة للحفاظ على وحدة النظامين، ومن التصدّع والخلل القائم .

وكان الامام الخميني (رض) يوصي بوحدة الجمهورية الاسلامية والمجتمع الايراني، و بوحدة الامة الاسلامية جمعاء، و أصدر فتاويه التي تدعو الشيعة الى

١- السيرة النبوية ٢ / ١٤٨، ابن هشام، مصطفى البابي، مصر، ١٣٥٥ هـ .

٢- السيرة النبوية ٤ / ١٦٠، ١٧٠ .

الصلاة خلف امام الجماعة السنّي في موسم الحج، وان يقوموا بممارسات عملية مطابقة للشعائر الواقعة، منسجمة مع مذهب أهل السنة، وفي عهد الامام الخامنّي (حفظه الله) أقيمت عدة مؤتمرات للوحدة والتقريب، وفي ظل قيادته تأخى المسلمون سنة و شيعة .

ثانياً: المحافظة على الأمن والاستقرار

من واجبات الحاكم الاسلامي و مؤسسات و جميع أبناء الامة هي المحافظة على الامن والاستقرار وازالة عوامل الخطر والاضطراب، الداخلية والخارجية، فهم مسؤولون عن اقامة العلاقات الاجتماعية الصالحة في داخل الامة الاسلامية وداخل البقعة الجغرافية التي تتبع لوجودها السياسي، ومنع وازالة جميع ألوان و مظاهر التفكك والانحلال الاجتماعية التي تؤدي الى الاضطراب وفقدان الأمن والهدوء .

فيحرم الاعتداء على أرواح و أعراض و ممتلكات و حريات المواطنين و يحرم الاعتداء على الامة من قبل الحاكم، وبالعكس .

و يجب على الجميع جهاد العدو الخارجي، و صد العدوان الذي يستهدف فقدان الأمن والاستقرار .

ويجب التعاون لازالة الفتن الداخلية، ومنع المشاحنات وعوامل العداة والبغضاء . و يجب على الدولة أن تقوم باجراء العقوبات بحق كل من يساهم في خلخلة الامن و اشاعة الاضطراب السياسي والاجتماعي، و يجب على المواطنين التعاون مع الدولة و مؤسساتها للحفاظ على سلامة الدولة والامة في آن واحد، وان يكونوا عيوناً ساهرة، لملاحقة مشيري الشغب والاضطراب .

و مراعاة حقوق كل من الحاكم والامة كفيل باشاعة الامن والاستقرار، كما روي

عن الامام علي(ع) انه قال:

«... فليست تصلح الرعيّة إلاّ بصلاح الولاية، ولا تصلح الولاية إلاّ باستقامة الرعيّة، فاذا أدت الرعية إلى الوالي حقّه، وأدى الوالي إليها حقّها عزّ الحقّ بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، و جرت على اذلالها السنن، فصلح بذلك الزمان، وطمع في بقاء الدولة، و يثست مطامع الاعداء، وإذا غلبت الرعية واليهما، أو أجحف الوالي برعيته، اختلفت هنالك الكلمة، و ظهرت معالم الجور، و كثر الأدغال في الدين، و تركت محاجّ السنن، فعمل بالهوى، وعظّلت الأحكام، وكثرت علل النفوس ... فعليكم بالتناصح في ذلك، و حسن التعاون عليه...»^(١).

ثالثاً: مشاركة الامة في السراء والضراء

فرض النظام السياسي على الحاكم الاسلامي أن يشارك الامة في السراء والضراء، و ان يحمل آمالها وآلامها باعتبارها أحد افرادها، سواء كانت معه في بقعته الجغرافية التي يحكمها أو خارجها، فكان رسول الله (ص) باعتباره حاكم المسلمين يشارك الامة الاسلامية في افراحها وأحزانها، و يحمل همومها و آمالها، وكان الامام علي (ع) يقول:

«أ أقنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره

الدهر...»^(٢).

و يجب على الحاكم ازالة الحواجز بينه و بين الرعية، قال الامام علي (ع):

«ثلاث من كنّ فيه من الائمة صلح أن يكون إماماً اضطلع بأمانته، إذا أعدل في

حكمه، ولم يحتجب دون رعيته، و أقام كتاب الله تعالى في القريب و البعيد»^(٣).

١- نهج البلاغة : ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

٢- نهج البلاغة : ٤١٨ .

٣- كنز العمال / ٥ / ٦٤ .

ومن واجباته الاجتماعية النظر في حوائج الرعية، قال رسول الله (ص) :
«من وليّ شيئاً من أمر المسلمين لم ينظر الله في حاجته حتى ينظر في حوائجهم»^(١).
ومن واجباته تخصيص جزء من وقته للنظر في ذلك، ففي عهد الامام علي (ع) إلى
مالك الاشرائه قال:

«واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرّغ لهم فيه شخصك، و تجلس لهم مجلساً
عاماً، فتتواضع فيه لله الذي خلقك، و تقعد عنهم جندك و أعوانك من أحراسك و
شرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متعتع»^(٢).

ومن واجبات الحاكم و ولاته و العاملين في مؤسسات الدولة الاصحار الى الامة
لازالة جميع مظاهر التشكيك و سوء الظن، قال الامام علي (ع):

«... و إن ظنت الرعية بك حيفاً فاصحر لهم بعذرک، و اعدل عنک ظنونهم
باصحارك، فان في ذلك رياضة منك لنفسك، و رفقا برعيتك، و إعداراً تبلغ به حاجتك
من تقويمهم على الحق»^(٣).

رابعاً : حسن التعامل الاجتماعي

إنّ منصب الحاكمية و سائر المناصب الحكومية ما هي إلاّ مظهر من مظاهر
المسؤولية و التكليف؛ للنهوض بالواجب و ايصاله إلى أفضل صور التطبيق و التحقيق،
فهو مسؤول و الامة مسؤولة، و من هنا فيجب على الحاكم أن يتعامل مع الامة تعاملاً
حسناً، فقد أرشد الله تعالى رسول (ص) إلى اتباع الأساليب الحكيمة في التعامل، و هي
ارشاد الى مطلق المتصددين لقيادة الامة:

١- مجمع الزوائد ٥ / ٢١١ .

٢- نهج البلاغة: ٤٣٩ .

٣- نهج البلاغة : ٤٤٢ .

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين ﴾^(١).

و أوصى رسول الله (ص) أحد ولاته بحسن التعامل فقال:

«و أوصيك بتقوى الله، و صدق الحديث، و الوفاء بالمعهد، و اداء الامانة، و ترك الخيانة، و لين الكلام، و بذل السلام، و حفظ الجار، و رحمة اليتيم، و حسن العمل، و كظم الغيظ و خفض الجناح»^(٢).

و رسم الامام علي (ع) منهجاً واقعياً في تعامل الحاكم مع رعيته، و قد ظهر ذلك في أقواله و خطابه و كتبه إلى الولاة و العمّال، و فيما يلي نستعرض الاسس العامة لهذا المنهج^(٣).

(أفضل الملوك من حسن فعله و نيته و عدل في جنده و رعيته).

(أحسن الملوك حالاً من حسن عيش الناس في عيشه و عمّ رعيته بعدله).

(الحلم رأس الرياسة).

(آلة الرياسة سعة الصدر).

(رأس السياسة استعمال الرفق).

(من وثق باحسانك أشفق على سلطانك).

(من استبدَّ برأيه زلّ).

وقال أيضاً - موضحاً التوازن في اسلوب التعامل السياسي والاجتماعي :

١- آل عمران / ١٥٩ .

٢- تحف العقول : ١٩ .

٣- تصنيف غرر الحكم: ٣٤٠ - ٣٤٤ .

(من علامات المأمون على دين الله بعد الاقرار والعمل :

الحزم في أمره .

و الصدق في قوله .

و العدل في حكمه .

والشفقة على رعيته .

لا تخرجه القدرة إلى فرق، ولا اللين إلى ضعف .

ولا تمنعه العزّة من كرم عفو، ولا يدعوه العفو إلى اضاءة حقّ .

ولا يدخله الاعطاء في سرف، ولا يتخطى به القصد إلى بخل .

ولا تأخذه نعم الله بيطر)^(١).

وكتب إلى مالك الاشر أروع وثيقة سياسية اجتماعية في علاقات أجهزة الدولة

مع المجتمع حيث جاء فيها:

«... واشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، و اللطف بهم ... فانهم صنفان: أمّا

أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق ... فاعطهم من عفوك و صفحك مثل الذي

تحبّ و ترضى أن يعطيك الله من عفوه و صفحه ... انصف الله و انصف الناس من

نفسك، و من خاصة أهلك، و من لك فيه هوى من رعيته ... ولا يكوننّ المحسن

والمسيء عندك بمنزلة سواء ... وإياك و المنّ على رعيته باحسانك أو التزيّد فيما كان

من فعلك، أو أن تصدّهم، فتتبع موعدك بخلفك ...»^(٢).

خامساً: مراعاة قوانين الأحوال الشخصية والمدنية

من واجبات الحاكم الاسلامي مراقبة تطبيق قوانين الاحوال الشخصية والمدنية،

١- نهج البلاغة: ٤٢٧ - ٣٤٤.

٢- نهج البلاغة: ٤٢٧ - ٣٤٤.

والتدخل المباشر وغير المباشر في اعطاء كل ذي حقّ حقه، في قوانين الزواج والطلاق، والارث، والوصية، والوقف، والصدقة، والحقوق الفردية، وعلان حرية الاعتقاد والرأي والانتقاد، فقد وردت روايات عديدة تؤكد على تلك المراعاة، فقد روي أنّ رسول الله (ص) أبطل زواج امرأة زوّجها أبوها وهي كارهة، و فرّق بينهما^(١). وكان (ص) لا يستثمر منصبه في اجبار الآخرين على التنازل عن حقوقهم، فحينما أسر المسلمون صهره (أبو العاص) قال لهم (ص):

«ان هذا الرجل منّا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فان تحسنوا و تردوا عليها الذي له، فأتانا نحب ذلك، وإن أبيتتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فأتتم أحقّ به...»^(٢).

وقد أعطى (ص) للمسلمين ولغيرهم حق التمتع بالحرية في الاعتقاد والقول، فقد اعترض عليه الصحابة في صلح الحديبية فاعطاهم الحرية الكاملة في تبيان وجهات نظرهم^(٣).

وكان (ص) يتدخل في ارجاع كل حق الى صاحبه، ويوصي ولاته بذلك واتباع الخلفاء هذا النهج في مراعاة قوانين الاحوال الشخصية والمدنية، و توسعت على مرور الزمن مؤسسات الدولة المعنية بذلك، وقد التزمت العدالة في الحكم بين الناس، و المساواة بينهم في الحقوق والواجبات .

١- سنن الدارقطني ٣ / ٢٣٥، علي بن عمر الدارقطني، دار المعرفة بيروت، ١٣٨٦ هـ.

٢- السيرة النبوية ٢ / ٣١٣، ابن هشام .

٣- السيرة النبوية ٢ / ٣٢٠، ابن كثير، دار احياء التراث، بيروت، ١٣٨٣ هـ.

المبحث الثامن

الترابط والانسجام بين النظام السياسي والنظام الاقتصادي

من الصعب تطبيق أسس وقواعد النظام السياسي في الواقع من دون اسناد و دعم من النظام الاقتصادي في أسسه النظرية وتطبيقاته العملية التي تحدد ملكية النظام القائم المتمثل بالدولة و أجهزتها، والتي تسند النظام ليقوى على النهوض، و يصعب أيضاً تطبيق التوازن الاقتصادي، والعدالة في الانتاج والتوزيع، والرفاه الاقتصادي، و حماية ممتلكات الناس و أموالهم، إلا بالرجوع الى قوة تشرف على سير الاعمال و الموازنات الاقتصادية، فلا يمكن لاحد النظامين أن يحقق أهدافه و خططه المرسومة بمعزل عن النظام الآخر.

فالنظام الاقتصادي يحدّد للحاكم و للدولة ولافراد المجتمع ملكياتهم، و يرجع جميع الممتلكات من الناحية المفهومية الى الله تعالى، فهو المالك الحقيقي لها، و ليست ملكاً شخصياً لاحد، و انما هي ملكه بالاعارة و الاستخلاف، فالحاكم يتصرف بالاموال حسب ما مرسوم له من منهج، فهي أمانة بيده، قال الامام علي (ع):

«والله ما هو بكدّ يدي ولا بتراثي عن والدي ولكنّها أمانة أوعيتها»^(١).

وكان يقول :

«لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وانما المال مال الله»^(٢).

و يجب النظر الى النظام الاقتصادي باعتباره أحد أجزاء الكل وهو النظام الاسلامي العام، وفي هذا الصدد قال الامام محمد باقر الصدر :

١- مناقب آل أبي طالب ٢ / ١٢٧، ابن شهر آشوب، دار الاضواء، ١٤١٢ هـ، ط ٢.

٢- نهج البلاغة: ١٨٣.

(يجب أن نعي الاقتصاد الاسلامي ضمن الصيغة الاسلامية العامة، التي تنظم شتى نواحي الحياة في المجتمع)^(١).

وتتجلى حقائق الترباط والانسجام بين النظامين في المظاهر التالية :

أولاً: دور الدولة في اقامة التوازن الاقتصادي

الدولة الاسلامية استناداً الى اسس وقواعد النظامين السياسي والاقتصادي مسؤولة

عن تحقيق واقامة التوازن الاقتصادي طبقاً للآية الكريمة:

﴿كي لا يكون دُولَةٌ بين الاغنياء منكم﴾^(٢).

ولا يتم ذلك إلا بالقيام باجراءات عملية ابتداءً بالدعوة الاصلاحية، والحث على

الانفاق في وجوه الخير، و اشباع حاجات الفقراء والمساكين الضرورية، والدعوة الى

الفناعة والكفاف، والاقتصاد في الانفاق على النفس وعدم التبذير، والنهي عن الغش

والربا وأكل الأموال بالباطل، وأن لا يكون المال أساساً للتفاضل والتكريم .

واتخاذ اجراءات تمنع من تركيز الثروة بيد جماعة معينة، عن طريق فرض

الضرائب على أموال الاغنياء و انفاقها على الفقراء، كالزكاة والخمس التي تعتبر

عبادات مالية بحاجة الى قصد القربة الى الله تعالى، لكي يتحقق التوازن عن فناعة و

اندفاع ذاتي ليسهل تطبيقه .

وللدولة حق اكراه أصحاب الثروة على اشباع حاجات الآخرين، قال الامام محمد

باقر الصدر :

(للدولة حق اكراههم على القيام بواجباتهم في كفالة العاجزين، ان امتنعوا عن

القيام بها، و بموجب هذا الحق يتاح لها أن تضمن حياة العاجزين وكالة عن

١- اقتصادنا: ٣٠٨، محمد باقر الصدر، دار التعارف، بيروت، ١٣٩٩ هـ، ط ١١ .

المسلمين)^(١).

واضافة على ذلك، فالدولة مسؤولة عن متابعة المعتدين على أموال الناس و ممتلكاتهم تحت قاعدة (لا ضرر ولا ضرار)، فتحاسب المغتصبين للأموال بغش و سرقة أو خيانة .

ثانياً: دور الدولة في ضمان معيشة الناس

فرض النظام الاقتصادي على الدولة الاسلامية ضمان معيشة الناس ضماناً كاملاً، عن طريق القيام بخطوات على مرحلتين:

(ففي المرحلة الأولى تهيء الدولة للفرد وسائل العمل، فاذا كان الفرد عاجزاً عن العمل وكسب معيشته بنفسه كسباً كاملاً، أو كانت الدولة في ظرف استثنائي لا يمكنها منحه فرصة العمل، جاء دور المرحلة الثانية، التي تمارس فيها الدولة تطبيق مبدأ الضمان، عن طريق تهيئة المال الكافي، لسد حاجات الفرد، وتوفير حد خاص من المعيشة له)^(٢)

وفي عهد الرسول (ص) لبعض الصحابة جاء فيه :

(لم نبعث لجمع الأموال، ولكن بعثنا لانفاقه)^(٣).

وفي عهد الامام علي (ع) لولاته أكد على ضمان معيشة الناس، فقال:

«... وان لك في هذه الصدقة نصيباً مفروضاً وحقاً معلوماً، و شركاء أهل مسكنه، و

ضعفاء ذوي فاقة ... فوفهم حقوقهم، و بؤسى لمن خصمه عند الله الفقراء و المساكين

١- اقتصادنا : ٦٩٨ .

٢- اقتصادنا : ٦٩٧ .

٣- مشكاة الانوار : ١٨٣ .

و السائلون و المدفوعون و الغارمون وابن السبيل»^(١).

و كتب إلى عامله على مكة :

«... وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوي العيال و المجاعة مصيباً به مواضع الفاقة و الخلل و ما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا»^(٢).

و الدولة بإمكاناتها قادرة على ضمان معيشة الناس عن طريق ايجاد القطاعات الاقتصادية العامة التي تتكون من موارد الملكية العامة و ملكية الدولة لكي تكون (ضماناً لحق الضعفاء من افراد الجماعة، و حائلاً دون احتكار الاقوياء للثروة كلها، و رصيلاً للدولة يمدّها بالنفقات اللازمة لممارسة الضمان الاجتماعي)^(٣).

ثالثاً : مراقبة الحركة الاقتصادية

الحركة الاقتصادية بحاجة الى قوة ضاغطة تجعلها تتحرك ضمن الموازين الاقتصادية العادلة المنسجمة مع روح الاسلام، و تتكفل الدولة بتحقيق ذلك، عن طريق النصح أولاً و استخدام الصلاحيات القانونية ثانياً، فقد نهى رسول الله (ص) عن الاحتكار^(٤).

وعهد الامام علي (ع) الى واليه على مصر :

«فامنع من الاحتكار ... وليكن البيع بيعاً سمحاً، بموازين عدل، واسعار لا نجحف

١- نهج البلاغة : ٣٨٢ .

٢- نهج البلاغة : ٤٥٧ .

٣- اقتصادنا : ٧٠٣ .

٤- المستدرک علی الصحیحین، ٢/ ٢٢، الحاكم النيسابوري، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨ هـ.

بالفريقين»^(١).

وكان (ص) يتجول في الاسواق مراقباً الحركة الاقتصادية، فقد مرّ على بائع يغش في بضاعته فقال له :

«... من غشّ فليس متّاً»^(٢).

وكان الامام علي (ع) يتجول في أسواق الكوفة ومعه الدرّة لمحاسبة المتلاعبين بالميزان والمكيال، و الذين يغشون الناس^(٣).

وكان رسول الله (ص) و الخلفاء من بعده يحاسبون الولاة و العمّال ان أحدثوا خللاً في سير العمليات الاقتصادية، أو يمنعوننا من الشراء الفاحش على حساب الفقراء و الضعفاء، وكان الخليفة الثاني يشاطر عمّاله في الاموال إن وجد فيها ظلماً لحقوق الآخرين .

و تتطلب مراقبة الحركة الاقتصادية أن يكون الحاكم و ولاته عادلين في العطاء، بمعنى اعطاء كل ذي حقّ حقه حسب القوانين الاسلامية، فقد مرت ابل الصدقة على رسول الله (ص) فأخذ وبرة منها وقال:

«ما أنا بأحقّ بهذه الوبرة من رجل من المسلمين»^(٤).

وقال الامام علي (ع) لاختيه عقيل:

«ما أنا وأنت فيه - بيت المال - إلا بمنزلة رجل من المسلمين»^(٥).

١- نهج البلاغة : ٤٣٨ .

٢- التراتيب الادارية ١ / ٢٨٤ .

٣- سفينة البحار ١ / ٤٥٠ ، عباس القمي، دار الاسوة، قم ، ١٤١٤ هـ .

٤- مجمع الزوائد ٥ / ٢٣١ .

٥- مناقب آل أبي طالب ٢ / ١٢٥ .

وقد نهر الخليفة الثاني أحد أقربائه لانه طلب مالاً زيادة على حقه^(١).

رابعاً: مواساة الحاكم للناس في المستوى المعاشي

من تعاليم النظام الاقتصادي في الاسلام هي بث روح الاخوة بين الطبقات، بالحث على الانفاق والتصدق، ومحاربة البذخ و الثراء الفاحش، و اكتساب المال بطريقة مشروعة، وهذه التعاليم تكون موجهة للحاكم أكثر من غيره، لتصديه للمسؤولية، وان عمله الدؤوب في تطبيق الاسلام لا يتيح له أي فرصة للثراء الفاحش لانّ الأموال التي في حوزة دولته هي امانة بيده، وان ما يخصص له من بيت المال يقتصر على اشباع حاجاته الاساسية و الضرورية وهذا ما يجعله مواسياً للرعية في المستوى المعاشي، و يمنعه من الثراء الفاحش، وعلى سبيل المثال ان رسول الله (ص) كان يشرف على بيت المال بنفسه، ومع ذلك فانه اشترى من أحد اليهود طعاماً إلى أجل و رهنه درعاً له^(٢)، فلو كان يملك ثمن الطعام لدفعه اليه دون أن يعطيه رهناً.

و الحاكم الاسلامي مأمور بمواساة الرعية في المستوى المعاشي ليكون قادراً على التأثير عليها في ارشادها إلى الاستقامة على مبادئ الاسلام و قيمه، وان تعاليمه على الموازين المادية و تنطلق نحو التكامل و السمو، و تصبر على الحرمان و الفقر، ان وجدت في قدوتها زهداً و مواساة لها، قال الامام علي (ع):

«ان الله فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس، كيلا يتبجح بالفقير

فقره»^(٣).

وقال أيضاً:

١- شرح نهج البلاغة ١٢ / ٦٢.

٢- نصب الراية ٣١٩٤ /، عبدالله الزيعلي، دار احياء التراث، بيروت، ١٤٠٧ هـ، ط ٣.

٣- شرح نهج البلاغة ١١ / ٣٢.

«... ألا وإنّ امامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جسعي الى تخيير الاطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثي وأكباد حرّى...»^(١).

وكان الخليفة الاول يأخذ من بيت المال بقدر ما حدّده له المسلمون ولا يأخذ أكثر من ذلك^(٢).

وكان الخليفة الثاني إذا استعمل عاملاً كتب عليه كتاباً، و اشهد عليه رهطاً من المسلمين : (ألا يركب برذوناً ولا يأكل نقياً، ولا يلبس رقيقاً، ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين)^(٣).

وكلم بعض الصحابة ابنته لتحثه على اللين في العيش والتنعم بالخيرات، فأجابها: (يا بنية غششت أباك، و نصحت لقومك)^(٤).

خامساً : ملكية الدولة في النظام الاقتصادي

من أجل تثبيت أركان الدولة الاسلامية، و تقوية هيكلية النظام السياسي، جعل النظام الاقتصادي الملكية على عدة انحاء، ومنها ملكية الدولة، فللدولة حق في بعض الموارد المالية، كالانفال، قال تعالى:

﴿ يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله و الرسول ... ﴾^(٥).

١- نهج البلاغة : ٤١٧ ، ٤١٨ .

٢- الطبقات الكبرى ٣ / ١٨٥ ، ابن سعد ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ .

٣- شرح نهج البلاغة ١٢ / ٢٣ .

٤- شرح نهج البلاغة ١٢ / ٢٣ .

٥- الانفال / ١ .

ولها الحق في خمس الغنائم ، قال تعالى :

﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإنّ لله خمسة و للرسول ولذی القربى والیتامی والمساکین وابن السبیل ... ﴾^(١).

ولها الحق في الاموال الناجمة عن الجزية، وعن الزكاة، ولها حق في الاراضي التي لا مالك لها، اضافة الى ملكيتها للأموال العائدة إليها من المشاريع العمرانية التي تقوم بانشائها، ولها الحق في فرض ضرائب على مال التجارة أو سائر الاموال إن وجدت المصلحة في فرضها .

والنظام الاقتصادي في اسناده لملكية الدولة يساهم في تثبيت وجودها وكيانها، وفي ادامة مسؤولياتها للنهوض باعباء الرسالة، وتطبيق مبادئ الاسلام في الواقع .

ومن هنا فلا فصل بين النظامين : السياسي و الاقتصادي في الاسلام، لارتباطهما و تداخلهما في كثير من مجالات الارتباط والتداخل، ولارتباطهما بالنظام الاسلامي العام، الموضوع من قبل الله تعالى، وكل منها جزء من كلّ يساهم في ارساء دعائم العقيدة و الشريعة الاسلامية .

الترباط والانسجام بين النظامين في دستور الجمهورية الاسلامية

نصت المادة الثامنة والعشرون على أنّ (لكل شخص الحق في اختيار أي عمل يرغب فيه ولا يتعارض مع الاسلام، و المصالح العامة، و حقوق الآخرين، و الحكومة مسؤولة عن توفير فرص العمل للجميع).

و نصّت المادة التاسعة والعشرون على مسؤولية الحكومة عن ضمان معيشة الناس، وان لهم حق التمتع بالضمان الاجتماعي في مجالات التقاعد، والبطالة،

والشيخوخة، والعجز عن العمل، وفقد القيم، والحوادث والطوارئ، والخدمات الصحية والعلاجية .

ونصت المادة الواحدة والثلاثون على مسؤولية الحكومة في تمهيد الارضية لامتلاك كل عائلة على مسكن متناسب مع الحاجة .

و نصت المادة الثالثة والاربعون على مسؤولية الحكومة في اجتثاث جذور الفقر والحرمان، بالقيام باداء دورها في :

- ١- توفير الحاجات الاساسية للجميع .
- ٢- توفير فرص و امكانيات العمل للجميع .
- ٣- منع الاضرار بالغير، والاحتكار، والربا، و بقية المعاملات الباطلة والمحرمة .
- ٤- منع الاسراف والتبذير في كافة الشؤون المرتبطة بالاقتصاد، التي تشمل الاستهلاك، والاستثمار، والانتاج، والتوزيع، والخدمات .
- ٥- منع التسلط الاقتصادي الاجنبي على الاقتصاد الوطني .

٦- التأكيد على مضاعفة الانتاج الزراعي، والحيواني، والصناعي الذي يسد الحاجات العامة، و يوصل الدولة الى حد الاكتفاء الذاتي، و يحررها من التبعية .

و نصت المادة السادسة والاربعون على ان (كل فرد يملك حصيلة كسبه وعمله المشروع، ولا يستطيع أحد أن يسلب الآخرين فرص الاكتساب والعمل) .

و نصت المادة الثانية والاربعون بعد المائة على انه (يتم التحقيق في ملكية القائد، أو اعضاء مجلس القيادة، و رئيس الجمهورية، و رئيس الوزراء، و الوزراء، و زوجاتهم و أولادهم، قبل و بعد حمل المسؤولية بواسطة المحكمة العليا لكي لا تتضاعف بغير حق).

وفي استقرائنا للواقع السياسي والاقتصادي داخل الجمهورية الاسلامية، نجد ان

القيادة العليا قد واست المواطنين في معيشتهم، فالامام الخميني (رض) كانت له بطاقة تموينية كبقية أفراد المجتمع، ف يأخذ حصته المقررة لكل فرد، وكذا الحال في خليفته الامام الخامنئي (حفظه الله).

وقد رحل الامام الخميني (رض) وهو لا يملك إلا بيتاً متواضعاً ملكه عن طريق حصته من الارث، وكان فيه شريكاً لآخيه الاكبر، وكان زاهداً في بيت مال المسلمين، ويعيش حياة الكفاف والتقشف، وقد نقلت لنا إحدى النساء التي كانت تخدم في بيت الامام - في اجتماع نسوي ضمنا وإياها - انها اشترت عدة كيلو غرامات من الفواكه بسعر زهيد، فقال لها الامام انّ للآخرين حقاً في شرائه، فلماذا حرمتهم منه .

و عاش الامام الخامنئي (حفظه الله) حياة الزهد، فكان يقدم لضيوفه الشخصيين، ما يأكله و يشربه في منزله دون تكلف لانه لا يملك غير ذلك .

و يقوم النظام الاسلامي برعاية شؤون الفقراء والضعفاء، فبالاضافة الى كفالة الدولة و أجهزتها لهم، تقوم المكاتب التابعة للقائد و لبعض المسؤولين بمد يد العون لهم، و هنالك مؤسسة خاصة لدعم الفقراء وهي مؤسسة الامام الخميني الخيرية .

و يقوم ما يسمى بجهاد البناء في العمل لتوفير الخدمات الرفاهية للمواطنين، و من خلال متابعتنا لسير الاحداث و من خلال تصريحات المسؤولين وجدنانا أكثر من ثلاثة أرباع الايرانيين يتمتعون بملكية السكن، بل ان كثيراً من العوائل تملك سكناً على عدد افرادها، وانّ المنازل المعروضة للبيع أكثر من المنازل المعروضة للايجار .

فالترباط والانسجام بين النظامين: السياسي والاقتصادي من الضرورات التي لا تنفصل عن سير النظامين في حركتهما نحو بناء نظام سياسي واقتصادي متين لانتهاء التبعية السياسية والاقتصادية للغير .

التعددية الدينية

اشكاليات ومعالجات

السيد مرتضى التونسي

قم - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

البحث في اطاره العام

إنّ الدين يشكل في الدراسات المطروحة اليوم عنصراً و مركزاً ذا أهمية بحيث تدور حوله الرؤى اثباتاً و نفيّاً و تبياناً لوجهات نظره و من بين المواقف التي يراد للدين ابرازها هي رؤيته للمسائل المعنونة تحت اسم التعددية و ما يترتب عليها من آثار معرفية و سياسية و اجتماعية و تشتد اللهفة أكثر لمعرفة موقف الدين حينما نعلم أن التعددية الآن تطرح نفسها كبديل لأزمة التيه الفكري و العملي التي يعيشها الانسان، و يتضاعف الضغط لمعرفة رأي الدين عندما نرى ما ينتج من تفعيل التعددية في ذهن الانسان و واقعه من افراغ للدين من محتواه و هدم اركانه .

فالاعتقاد بأحقية كل الأديان و الأفكار و أنها جميعها توصل للسعادة و تحقق الفلاح و هذا هو تعريف التعددية الدينية و ما يستلزمه من تصحيح و تثبيت كل المعتقدات المختلفة و المتضادة هذا هو قضاء على الدين و تدمير لمقوماته .

و إذ تقارب البحث أكثر من واقعنا و نحاول أن نلج مسائل التعددية الدينية من

خلال القاء نظرة على واقع الأمة لوجدنا أن المسألة تتعدد أكثر، فالتعددية أمر ملاحظ نشهده من خلال تعدد المذاهب الفقهية والنحل العقائدية والمدارس الفطرية وكلاً يدعي وصلاً بلبلى وكل يؤمن بصراطه المستقيم وما يخلفه هذا الواقع التعددي من افرازات سياسية واجتماعية والتاريخ حافل بالأمثلة فمن القتال المذهبي مردوداً بالاقصاء الطائفي للتغير العقائدي وما إلى ذلك من مآسي، ففي هذا الخضم من هذه الممارسات قد نرى في التعددية أفضل نسخة علاجية لأمراض الانسانية عموماً والأمة الاسلامية خصوصاً ولكن سنواجه مآلي التعددية في المعرفة وعلى حساب الدين.

ونحن هنا في تناولنا لموضوع التعددية ودراستها والتحقيق حولها نحاول استنطاق الدين لنظفر بحلّ يعالج المعرفة والسلوك في آن واحد ولعلّ هذا ما تدعيه الدراسة التي بين يديك أيها القارئ الكريم لنعرف كيف يمكن أن نحافظ على الدين وعلى المعرفة الحقّة والصحيحة الغير المتعددة في الوقت الذي لا نشهر السيف على غيرنا ونستعير اصطلاحات التكفير والتضليل، أو بأي نحو يمكن أن نوجه نقاشنا وانتقادنا لفكرة التعددية الدينية في الوقت الذي ننطلق فيه للحفاظ على سلامة تعايش المجتمعات المتخالفة مذهبياً ودينياً؟

ونحن نقوى هنا بطلان قول من يرى ان إلقاء فكرة ونظرية التعددية الدينية سيؤدي الى الاختلافات المذهبية ودق ناقوس الحروب الصليبية، فما هو طريق اثباتنا لذلك؟ وإجابات هذه الأسئلة وغيرها تطرحها الدراسة عبر بيان التعددية الدينية وأقسامها، وعبر امتحان مدى ثبوت مبانيها امام النقد، وما تقدمه الدراسة من معالجات واقتراحات .

فهو بحث بجمع المعرفة والممارسة ويحاول أن يتناول موقف الدين كشخص

معددي للدراسة، والمنهج المتبع هنا موزع في ناحيتين أو لاهما إذا نظرنا للمدين لمجموعة من المفاهيم والأحكام فستعامل معه كجزء من أجزاء المعرفة البشرية بحيث تكون المعرفة الدينية كغيرها من المعارف خاضعة لآليات النقد البستمولوجي المعرفي والابحاث الكلامية والمعرفية تتنافع في جملة من الموارد مع نوع الشبهات والاشكالات المطروحة .

والله المستعان ومنه التوفيق

ظروف نشأة التعددية

كما هو معلوم أن أهم الافكار والاراء التي لها حضور اليوم خصوصاً في العالم الغربي تمثل بشكل أو بآخر موقفا تجاه سلوك ونمط معين تميزت به القرون الوسطى، وحث التعددية الدينية ان كان يحمل شكلاً معاصراً الا ان له جذور في تلك المرحلة . فقد ساد القرون الوسطى صوت الكنيسة وما رافق ذلك من اقصاء وحذف للاطراف الأخرى الموجودة في الساحة . فهذا مما عمق حس المطالبة بالتحزّر فيما بعد حيث تجلّت رغبة التحزّر هذه في وجهين :

أحدهما سياسي : تمثل في طرح افكار مخالفة لحكومة الكنيسة و تخلفها . والوجه الآخر : يحمل صبغة دينية أراد أن يرفع لواء الحرّية من خلال العفائد المسيحية لا من خارجها فكانت حركة الاصلاح الديني في اوروبا والتي تلت عهد النهضة وما أفرزته هذه الحركة من منصب مسيحي جديد هو المذهب البروتستانتي بزعامة مارتين لوتر .

وبما اننا قلنا ان هذه التحزّرات كانت مضادة لسلوك الكنيسة في افكارها فنجد أنّ احتكار الحقيقة التي كانت تمارسها الكنيسة قد وجهت في حركة الاسلام الديني

بتعميم الحقيقة على جميع المذاهب المسيحية ولا تقصرها على الكاثوليكين ومن هنا بدأت تتنامى شيئاً فشيئاً فكرة التعددية في اوروبا ومما ساهم في طرحها أكثر هو وصول البورجوازية للعلم في اوروبا ومحاولتها تتجاوز الخطوط الحمراء المرسومة من قبل رجال الدين في خصوص التعامل مع غير المسيحيين^(١) فأثاروا مسألة التعددية كتوجيه نظري لتصرفاتهم، وازداد لردود الفعل هذه تجاه الكنيسة يمكن أن نرصد المسألة من ناحية تاريخية علمية فكما ينقل ويلفرد كانت اسميت^(٢) ان تاريخ تطور الاديان في العالم يتناسب مع مدى ارتباط بين الانسان مع بعض الى الحد الذي يمكن أن تصل فيه الى مرحلة تتساوى عندها جميع الثقافات والاديان عندما يكون الانسان قد تجاوز كل هذه الاختلافات ويتعامل مع الانسان بما أنه انسان^(٣) وهذا يقتضي جملة من اللوازم والتي من بينها الاقرار بهوية التدين لكل فرد وفوق ذلك ضمان السعادة له في أي دين اختاره .

فمجملة القول حول ظروف وعوامل نشأة التعددية الدينية هو محاولة لتبرير حالة التحمل للغير المخالف دينياً بعد حالة الاقصاء الكاثوليكية فكانت التعددية الدينية، وحتى عندما نراجع الحياة الشخصية لروادها في زماننا مثل جان هيك^(٤) نجد انه آمن بالتعددية لما واجهه طبقاً لعمله كاستاذ جامعي في بيرمنهام البريطانية . العديد من الافراد من ذوي البيانات المختلفة فأحس أن الصفات يراود أغلبهم وليس مخصوصاً بالمسيحيين فتحركت في داخله فكرة التعددية الدينية وهو وان بقى على ديانته

(١) كتاب نقد بلور اليزم ص ٥٦ (فارسي) .

(٢) Wilfred Cant well Smith .

(٣) فلسفة الدين - جان هيك - ترجمة بهرام ص ٢٣٥ (فارسي) .

(٤) John Hick (٤)

المسيحية الا انه يعتبر اليوم أب للتعددية الدينية في العالم .

تعريفها

ذكر والتعريف التعددية تعاريف عدة أهمها ما ذكره الدكتور سروش حيث يقول:
ان التعددية الدينية تعبر عن ذلك التنوع و تلك الكثرة الحاصلة في الافهام الدينية ولا
يمكن بأي نحو التوحيد بينها^(١)، ومن ناحية أخرى يعرف الدكتور نهاوسن التعددية
بأن لها نتيجة و محصول البروتستانية الليبرالية، وان كان التعريف الاول ناظر لماهية
التعددية في حين يحاول التعريف الثاني أن يضع التعددية في موقعها داخل حركة
تاريخ الاديان فانه يمكن لنا أن نذكر عناصر التعددية وملازماتها .

العنصر الأول الذي تقوم عليه التعددية هو تنوع الأديان حيث لم يكن ويعسر
مستقبل أن يتحرك الانسان باتجاه دين دون غيره .

القول بحرية التدين واتباع أي مذهب فلا مرجح غير الوثنية ذاتها ولوازمها
تتمحور حول منح المصادقية لكل الأديان والاعتراف بأحقية كل التجارب الدينية
وهذا هو اللازم الذي سيكون جوهر هذه الدراسة .

تقسيم التعددية الدينية و آثاره

ان أكمل المشاريع ما كان يخاطب المعرفة و بوجه السلوك تماشياً مع الجوانب
التي يحملها الكيان الانساني وتبعاً لذلك سنحاول أن نقوم الانسان في معرفته وتحركه
في سلوكه لذلك رأينا أن نقسم البحث الى جانب معرفي و آخر سلوكي وأطلقنا على
دراسة التعددية في الجانب الاول اصطلاح التعددية الدينية المعرفية وفي الجانب
الثاني احكام التعددية الاجتماعية .

والنقطة الأهم هنا هو أن هذا التقسيم هو الذي سيمكننا من تناول موضوع التعددية في جانبي النقد والبناء فكيف ذلك !

ان التعددية الدينية سواء المعرفية منها أو الاجتماعية لها مقوماتها وابعائها الخاصة ولها نتائجها المعينة بها بحيث تكون غير قابلة لتعميم نتائج البحث المعرفي تبقى في قسم المعرفة ولا يمكن استصعابها في البحث الاجتماعي والعكس صادق أيضاً، وهنا يكون المفصل الذي تخبط عنده الكثير فأطلقوا صحيات عشوائية جرّت الولايات على الأمة عوض أن تداوي أمراضها حين خلطوا بحث التعددية المعرفية بالتعددية الاجتماعية فان مناقشة مسألة التعامل المتبادل أو مفاهيم الوحدة والتعاون والتغاضي عن الاختلافات البسيطة في سبيل الهدف الكبير لهي مناقشة من سنخ الممارسات والمسائل العملية فالوحدة والتعاون وما يستلزمه من عدم تنافر وما إلى ذلك هي من مسائل الممارسة واللوذ فمعالجتها و تناولها لا بد أن يكون داخل قضاء التعددية الاجتماعية لأفضاء التعددية المعرفية إذ بحثها في المجال المعرفي سيكون غريباً من أجواءه العامة يخبط خبط عشواء ومن الطبيعي جداً أن تكون النتائج عكسية، وهناك من أخطأ و سلك الاتجاه المعاكس من الضفة الاخرى فحاول الحكم والحسم في الجانب المعرفي للتعددية من خلال تناول المسائل السلوكية والعملية فوجه هؤلاء ضربات قاسية للمعرفة الصحيحة وللدين، فالتعددية المعرفية لا بد أن تعالج معرفياً اجتماعياً حتى تنسجم النتائج وتتكامل وبعبارة أوضح نقول هناك من حاول أن يعالج الاختلافات الدينية في ممارسات أهلها فقال بالتعددية الدينية المعرفية وبالتالي حفاظاً على أمن التعايش الجماعي قضى على الحقيقة وعلى الدين الحق وهناك من نهج الطريق من آخره فقال بالمعرفة الصحيحة والدين الحق لكنّه سلط ذلك على ممارسات المجتمع وفتاته فتمايز اتباع الحق وعلم أتباع الباطل

وحفاظاً على الحق والواحد والصراط المستقيم لجأوا الى اقصاء من لا ينتمي الى هذا الصراط المستقيم، ونحن هنا نكون قد رفعنا هذا الخلط بتقسيمنا للتعددية الدينية الى معرفية واجتماعية حيث نبحت في الأولى المسائل المتعلقة بها من طريق نظري معرفي في حين نواجه الثانية بأبحاث في الممارسة والسلوك وتحصل عندنا في الأخير نتائج كل بحث ثم بتجميع هذه النتائج نصل لبناء مشروع اناني نهضوي وقد تكون نتائج كل بحث مختلفة فقد ترفض المعرفة القول التعددي ونقرّه في الجانب الاجتماعي أو العكس ولا خير في ذلك ! أن لكل سنخ من الابحاث طريقة معالجته والمهم أن لا نخلط نتائج هذه الابحاث مع بعضها فنكون قد أخرنا نهضة الامة والانسان معاً .

وفيما يلي من فصول سنتناول التعددية الدينية المعرفية ومبانيها ومدى ثباتها امام النقد لنرى نتائجها ثم نأتي للتعددية الدينية الاجتماعية لندرس عناصرها وما تحتاجه من مقوماته .

تحرير محلّ النزاع

ان التعامل مع الرأي الآخر تحكّم كيفية العديد من العناصر والعوامل مثل وجود الدليل وعدمه، انتفاء الامراض النفسية وثباتها، الاجواء العامة لتلاقى الطرفين ونحن هنا في بحث التعددية الدينية المعرفية نعرض الصور المحتملة التي تحدد طبيعة الموقف من الآخر حتى نعرف السياق العام الذي ندرس فيه التعددية الدينية المعرفية وهذه الصور تكون :

- توجه انفرادي
- توجه شمولي
- توجه تعدّدي

و سنحاول أن نمرّ بسرعة على هذه التوجهات الثالث :

النظرة الاحادية:

وهي تعني النقطة المقابلة تماماً للتعددية فهي تنفي امكانية أن تكون الاراء المختلفة والمتقابلة تمثل توجهات صادقة وحقه والاعتماد على القواعد المنطقية يؤكد أن صدق قضية يعني حتماً كذب نقيضها فلا يمكن طبقاً لهذه النظرة أن نصف كل هذه القضايا بالأحقية لا لشيء إلا لأنها كانت نتيجة أعمال ذهنية معين أو علل أخرى والنظرة الاحادية تعمم هذا الرأي على كل المجالات المعرفية بما في ذلك المعرفة الدينية فترى ان الدين الحق واحد والصراط المستقيم واحد ويحاول المتكلم البروتستانتي كارل بارث^(١) أن يؤكد هذا المعنى بتفريقه بين الوحي والدين فيقول:

«ان معرفة الخالق فقط تكون من قبله وابداعه كما في تعريفه نفسه البنا ولا يمكن أن توصل هذه المعرفة بجهدنا وسعينا»^(٢).

ونقطع مقولة هذا المتكلم بأن الخالق في تعريف نفسه البنا لا يمكن أن يسلك طرقاً عدة و ألوأناً مختلفة على خلاف الجهود الانسانية التي تشهد اختلافا في الشدة والضعف وما إلى ذلك فلذلك يؤكد أصحاب هذه النظرة ان المعرفة والدين له طريق واحد حق وهو الوحي ولا يمكن أن يتعدد هذا الوحي .

النظرة الشمولية

وهذه النظرة على خلاف القول الانفرادي تتجاوز الاختلافات بدرجة فمثل في حين اقرارها بأن الطريق الموصل للحقيقة والسعادة هو واحد لا اختلاف فيه الا أنها تنفي تضمّن الآراء الاخرى بعض الحقانية والمصادقية فمثلاً نجد المسيحية تفران الاديان الاخرى لها بعض الصواب والنور غير ان هذا النور في الحقيقة نابع من إشعاع

(١) Karl Barth

(٢) مجلة كيان العدد ٤٠ ص ٢٢ (فارسية).

المسيحية على غيرها من الأديان و أكثر من هذا فقد اطلق في تاريخ المسيحية لقب المسيحي المجهول ليشمل من لم يكن مسيحياً غير أنه يعيش صفاءً في باطنه وهذا الصفاء موده لترسخ الديانة المسيحية في فطرة الانسان فهذه هي المسيحية التي تؤكد في نفس الوقت ان الحق واحد وهو الدين المسيحي فهو الضامن للسعادة ومحقق للفلاح وان الاديان الأخرى تحمل بعض الحقائقية هي نور المسيحية فيها. وهذا ما أعلنته ادارة الكنيسة في سنوات ١٩٦٣ - ١٩٦٥^(١) فالقول الشمولي ان كان يتفق مع القول الانفرادي بوحدة طريق السعادة والفلاح الا انه يختلف عنه و يؤمن لبقية الأديان ببعض الحقائقية .

النظرة التعددية

وهي الرؤية التي نضعها تحت المجهر هنا وهي تعنى حسب ما ذكروا في تعريفها ولوازمه انه باعتبار ان الانسان فاقد لوسائل ومعايير التمييز الذي يجعله يظفر بالدين الحقيقي من غيره - على فرض وجود الدين الحقيقي فان التعددية تتحرك هنا لتفتح جميع الأبواب للانسان الباحث عن السعادة وتقول له من أي باب دخلت فانك سعيد، والتعددية وهي تقف في الطرف المقابل للنظرة الأحادية تجاوزت النظرة الشمولية في تكثيرها لعدد أبواب السعادة ونفيها مقولة الحصر الملاحظ في النظرتين الاولييتين وهذا المنحى الثالث الذي يبرز الموقف النظري في قبال الرأي الآخر معلق نزاعنا وعليه تنصب الجهود هنا .

تنوع التعددية المعرفية : بستمولوجية و كلامية

رفعاً للالتباس الحاصل في بعض المفاهيم والاحكام رأينا أن نبحت التعددية الدينية المعرفية في مجالين نظريين أحدهما يعتمد القواعد الاستمولوجية حيث طرح أدلة أصحاب القول التعددي وترافقها نقاشاتها وكل ذلك داخل أجواء القواعد الاستمولوجية والمجال الثاني هو المجال الكلامي حيث طرحت الاشكالات الكلامية التي تنطلق من داخل المفردات الدينية و رافقتها أيضاً الثقافات الكلامية كذلك .

و توزيع بحث التعددية المعرفية الى مجالين استمولوجي و كلامي له مزاياه العديدة التي من بينها أولاً عدم الخلط بين المفاهيم والانتقادات فلكل مجال مقياسه الخاصة به و ثانياً الى ان الخلط بين هذه المجالين هو من جملة ما التبس على الباحثين هنا . فاذا أردنا إبطال رؤية لابد أن نواجهها بأدواتها لا أن نستعين بذكر قضية كلامية فهذا الخطأ المنهجي عالجناه بهذا التقسيم، وكمثال نقول كأن يدّعي طرف أن المعارف الدينية غير خالدة فيحاول الآخر ابطالها بذكر نص ديني أو العكس أيضاً فيحاول أحدهم ابطال مقولة دينية خاصة مثل كيفية العبادة بمحاولة تطبيق قواعد استمولوجية، فالخلط بين المجالين مجال المعرفة أو ما يعبر عنه بمعارف الدرجة الثانية و المجال الكلامي والذين يطلق عليه معارف الدرجة الأولى .

المباني الاستمولوجية وانتقاداتها

الرؤية الكانتية في المعرفة

الملاحظ في اطروحات المدافعين عن التعددية وعلى رأسهم الامريكى جان هيك^(١) اعتبارهم المبني الاستمولوجي الكانتي مبنى محوري لا يمكن الحياد عنه يقول جان هيك تحت عنوان المبني الفلسفي للتعددية الدينية :

«... ان حوادث الترجمة الدينية مبيّنة لعلومنا بالحقيقة اللامتناهية المتعالية التي تدركها الازهان في صور مختلفة متأثرة بتواريخ ثقافية مختلفة و تؤثر فيها، أما نوغبل كانت (بدون أن يكون له قصد هذا العمل) هيء اطاراً فلسفياً يمكن من خلاله أن تتكامل هذه النظرية فهو قد ميّز بين العالم في نفسه والعالم بما هو معقول لنا»^(٢).

و يقول في موضع آخر :

«العالم حولنا بالشكل الذي ندركه، يكون ادراكنا محصول مشترك لنفس العالم الخارجى من ناحية ونشاط المدرك من ناحية أخرى»^(٣).

فإذا كان رواد التعددية يعتمدون المبني الكانتي لبناء نظريتهم فنحن في حاجة إلى ذكر لوازم هذا المبني في عدة نقاط .

- نحن لا ندرك العالم على ما هو عليه بل نعرفه على النحو الذي ظهر في أذهاننا .
- معرفة العالم تختلف باختلاف المدرك .
- معرفة العالم تختلف باختلاف المدرك .
- عدم امكانية الوصول لمعرفة العالم على ما هو عليه .

(١) John Hick

(٢) جاه هيك - فلسفه دين ص ٤٥ (فارسي).

(٣) نفس المصدر .

و يستخلص جان هيك من هذه اللوازم أنّ ذهن الانسان في تعامله مع الواقع الخارجى لا يصل للحقيقة بل الحقيقة هي ما هو موجود في ذهن كل مدرك فالحق تابع لكل إنسان و يختلف عن غيره وهذا هو انتقال جان هيك من رؤية كانت في المعرفة للقول بالتعددية وهكذا تكون بحاجة عند التحقيق حول التعددية المعرفية للبحث في رأي كانت في المعرفة .

إن كانت يقرّان المعرفة هي حصيلة للخارج والذات المدركة معا في آن واحد فهو يرى ان ما يأتي من خلال الحواس و يشرح في ذهن الانسان تكون من مجموعة من المعلومات الحسية المبعثرة التي لا يمكن فهمها إلا إذا ربطنا بينها في نظام كامل وهنا تلقي هذه المعطيات الحسية مع فطريات حسية عند الانسان يشخصها كانت في الزمان والمكان فتكون صورة حسية كاملة عن الأمر الخارجى ثم إذا أراد العقل أن يضع هذه الصورة الحسية تحت أحد المفاهيم الكلية في الفطرة العقلية للانسان والتي يسميها كانت باسم المقولات فنخرج نتيجة لذلك بادراك شامل ومتكامل ومنظم يتكوّن من مواد خام من الخارج وصور فطرية حسية وعقلية و باعتبار أنّ هذه المعرفة حاوية بجانب ذاتي ساهم في ضيافتها المقولات الفطرية في مرحلتي الاحساس والعقل ومعلوم ان هذا الجانب الذاتي لا علاقة له بالكشف عن الواقع الخارجى و انما يتلخص عمله في ربط المعطيات الموجودة في الذهن، وبفعل هذا الجانب الذاتي تتكون صور علمية ذاتية تحاكي الأمر الخارجى لكن لا تكشف عنه اما هو في الواقع الموضوعي وهكذا تتأتى مفاهيم الشيء لذاتنا والشيء في ذاته كما يطرحها كانت وبالتالي ما تدركه غير ماهو واقعا في الخارج فهو أمر واحد لكن الاذهان التي تحاول أن تتعامل معه تنهج لذلك طرقاً شتى وتأخذ عنه صوراً مختلفة وتتعدد صورة الحقيقة الواحدة في الاذهان المختلفة وهذا ما يثبتاه جان هيك فيما يقدمه الدين من رؤى

فيقول ان كل دين يحاول أن يقدم صورة للعالم والانسان والإلاه غير ان هذه الأديان كلّ يحلى عن رؤيته ولا يمكن أن تصل للخارج حقيقة وهكذا فإن الطرق الدينية كل بمقتضى ما طرحه تلامس الحقيقة وتحاكيها في بعض أنساجها وبالتالي فلا مجال لترجيح دين و اقصاء آخر بل الجميع متساوي النسبة لهذه الحقيقة في نفسها، والآن سنناقش كانت في رؤيته :

الإشكال المفصلي في النظرية المعرفية لكانت هو ما أورده الفيلسوف الالماني شوپنهاور وقد ذكر في عدة كتب فلسفية من بينها كتاب أصول الفلسفة والمذهب الواقعي للعلامة الطباطبائي ونفس هذا الاشكال ذكره السيد الشهيد محمد باقر الصدر في كتابه فلسفتنا ولكن أورده بتقرير آخر .

و جوهر إشكال شوپنهاور هو ان كانت يعتقد ان المقولات الذهنية لا تعكس الواقع الخارجي وانما أقصى ما تعبّر عنه هو امكانية ربطها بين معطيات متناثرة مبعثرة لتصوغ منها صورة معرفية ذات ضوابط ويجعل كانت من بين هذه المقولات قانون العلية والمعلولية حتى يتسنى له أن يربط بعض الصور المعرفية ببعضها وهنا يأتي السؤال إذا كان أمر هذه المقولات هو الغياب عن الواقع الخارجي فكيف استطاع كانت أن يقول ان الأشياء لها ذوات لاتصل اليها محسوساتنا ولها ظواهر تنعكس في حواسنا، فإذا كان قانون العلية والمعلولية أمر خاص بالذهن فكيف استطاع كانت أن يجعل من ارشام الصور الحسية في الاذهان معلولاً لوجود ظواهر الأشياء في الخارج، فهنا يكون كانت قد تعامل مع قانون العلية والمعلولية باعتباره كاشف عن لواقع الموضوعي ويخبر عن علاقات تكوينية في الخارج وليس أمراً مختصاً بالذهن فإذا كان الامر كذلك فنجد ان بعض المقولات التي يعتبرها كانت من نظريات الذهن ويقصر دورها على تنظيم الصور المعرفية داخل الذهن وايجاد الروابط والعلاقات

بينها فبعض هذه المقولات تحكي في الواقع الخارجي وتكشف عن الواقع الموضوعي فهذه المقولات لا يمكن اعتبارها أمراً ذاتياً مختصاً بالذهن حتى تكون المعرفة النهائية معرفة ذاتية لا تطابق الخارج بل تصبح المعرفة الذهنية في ضوء ما توصل إليه معرفة تحكي عن الواقع الخارجي كما هو عليه في الخارج باعتبار ان القوالب الذهنية كاشفة عن الواقع الخارجي وليست ذاتية وهكذا سيضحمل الدور الكانتي في المعرفة.

ويمكن أن ندحض الرأي الكانتي من ناحية أخرى بأدوات ميتافيزيقية التي ترى انه في حالة اختلاف الصورة الذهنية للشيء عن حقيقة في الخارج بحيث يستفي الاتحاد الماهوي بين الوجود الذهني للشيء و وجوده الخارجي فهنا يصبح هذا القول مؤدي الى السفسطة التي نهضت الميتافيزيقا لابطالها، إذ أن كوركياس من الاوائل الذين خطوا طريق السفسطة فقد قال كوركياس - الانسان مقياس كل شيء . وهذا ما عبر عنه كانت بأسلوب آخر غير ان كوركياس واجهته الميتافيزيقا مواجهة عنيفة لان قوله يؤدي الى خلاف ما نراه من أنفسنا بالضرورة من ناحية العلم بالخارج وهكذا فبعد ما ثبت في بداية الحديث هو مدى تمسك أهل التعددية بهذا المبنى سواء صرّحوا بذلك أو استبطنته رؤيتهم فإن ارتباك هذا المعنى المبني و اقرار الايمان بامكانية وصول الذهن للواقع الموضوعي على ما هو عليه من حقيقة و وحدة فتتوفر تبعاً لذلك وجودات الذهنية فلا يبقى مجال للحديث عن الحقيقة الواحدة والمعارف المتعددة وهكذا تضطرّ التعددية لتجاوز المبنى الكانتي والايواء إلى ملجأ آخر قبل أن يحلّ بها الانهيار التام .

هيمنة الذهن البشري على الدين

من جملة ما اعتمد عليه أصحاب التعددية لاثبات مدّعاهم هو جعلهم الذهن الانساني له دور في تصوير الدين وهذا ما استنبطته مؤاخذاتهم على التوجه الانفرادي - الاحادي حيث يذكر جان هيك:

«المشكلة الاساسية للرؤية الانفرادية انهم يفصلون بين الوحي بمعنى التدخل الإلهي المستقيم وتجليه في التاريخ و بين الدين بمعنى الجهد الانساني لمعرفة الرب والاتصال به في حين انه لا يمكن التفكيك بين المعنيين فالوحي يتلقاه ويعرفه الانسان وكل التاريخ هو حاصل لهذه المعرفة»^(١).

فهنا يحاول اصحاب التعددية اقحام الجهد الانساني في الدين لانهم يرونه الجسر الذي يعبرون به للتعددية ان الجهود الانانية مختلفة حتماً وبالتالي تكون الافهام الدينية متعددة ولا يمكن الترحيح بينها وهذا هو مطلوب التعددية .

وأما كيفية اعمال الجهد الانساني في معرفة الدين فاضافة للمبنى المعرفي الذي وقع نقاشه سابقاً قال هؤولاء بأن الانسان يؤثر في الدين وفي ايجاد المعرفة الدينية من خلال الارتباط الوثيق الموجود بين العلوم البشرية والدين من ناحية وارتباط الوضع الثقافي العام بالدين من ناحية أخرى وهذا كله مع وجود زاوية معينة ينظر من خلالها للدين على أنه أمر يتأثر ولا يؤثر بنفسه ولا يفعل فهو صامت ينتظر الجهد الانساني ليخرجه من حالة الصمت والسكون إلى حالة النطق والقاء المعارف والحركة : «ان الالتفات الى الارتباط الوثيق الموجود بين الدين والثقافة يجعلنا نستنتج ان المعرفة الدينية محدودة وتاريخية (تحكمها قوالب وظروف وشرايط) معينة لذلك لا يبقى أي

(١) سيد امير اكرمي كيان ٤٠ ص ٢٤ (فارسية) .

مجال للقول بأحقية أي دين»^(١).

وهكذا يمكن أن نخلص إلى نتيجة مفادها ان الذهن البشري ساهم في صياغة الموقف الديني وهذا من أهم المراكز التي تعتمد عليها التعددية ونحن هنا نحتاج الى بحثين اولاهما يتناول طرح الدين الصامت والخال عن المواقف والثاني يتناول نحو ارتباط وكيفية تفاعل الدين مع الذهن البشري .

و سنبدأ بدراسة البحث الثاني باعتبار ان البحث الأول يمثل أحد مبانيه بطرح أحد رواد التعددية فكرة تأثير الذهن البشري في الدين سالكاً لذلك الطريق الاستقرائي لاثبات مدّعه، إذ يعرض بعض الشواهد التاريخية الجزئية التي تعكس اعتماد بعضه المتحدثين باسم الدين في عرض مسائلهم على بعض المفاهيم العلمية والخارجية عن نطاق الدين ثم يعمم الدكتور سروش هذه الموارد على كل المساحة الدينية ويخرج بنتيجة مضمونها أن الدين بطور كامل يحتاج للذهن البشري ليقوم بدوره^(٢).

و نحن من ناحيتنا نقدح في كل من المدّعي وطريق الاستدلال عليه:

أولاً: نعرف ان نفس الطريقة الاستقرائية في الاستدلال تنقسم إلى قسمين :

- استقراء تام بحيث تتم دراسة كل الجزئيات الموضوعه للدراسة .

- استقراء ناقص وتدرس فيه بعض الجزئيات لأكملها .

وكما هو معلوم و واضح ان الاستقراء التام هو المفيد لليقين حيث تخلو نتيجة من الاشكالات المنطقية فعند دراسة كل الجزئيات نكون مطمئنين لمفاد النتيجة حتماً فلا يساورنا شك في عمومية النتيجة وكلية الحكم الذي نصدره بينما في الاستقراء الناقص بأي حق نتقل من دراسة بعض الجزئيات الى اصدار حكم يعم جميع الجزئيات

(١) الدكتور عبد الكريم سروش - إيران .

(٢) يراجع كتاب - قبض و بسط - صفحات ١٣٤ - ١٤١ للدكتور سروش (فارسي) .

المطروحة للدراسة، قد توجد بعض الافراد التي لم ندرسها ولا تدرج تحت مفاد الحكم فيكون استخلاصنا للنتيجة خاطئاً في كليته فمن أين لنا أن نثبت أن الحكم الكلي تخضع تحته كل الافراد الموجودة لنا والتي وجدت في الماضي والتي ستوجد في المستقبل. فمع كل هذا لا يمكن أن نأمن للدليل الذي يعتمد الاستقراء الناقص كما هو محلّ الحديث .

ثانياً : لنسلم جدلاً أن نحو الاستقراء الناقص الذي اعتمد عليه الدكتور سروش لاثبات تأثير الذهن البشري في الدين، خاضع للشروط والظروف التي تناولها الشهيد الصدر في دراسته الاسس المنطقية الاستقراء ونقول نسلم لأن المسألة تحتاج للتحقيق، فإننا نقول ان الحكم الكلي الذي طرحه سروش يمكن أن يتهاوى من الناحية المنطقية إذا تذكرني مقابله مورداً واحداً جزئياً يبين عدم اعتماد الدين الذين على الذهن البشري فعندها لا تبقى للكليّة محل للبحث .

ولا نجد صعوبة في ذكر المسائل الدينية التي لا يمكن أن تكون ناتجة عن علوم و مفاهيم أخرى خارج عن نطاق الدين .

ثالثاً : علاوة على ما ذكر سابقاً يمكن أن نناقش الموارد الجزئية التي اعتمد عليها الدكتور سروش لاثبات مدّعاها فقد تكون بعض الموارد خاطئة فينتفي مع ذلك الاعتماد عليها فمثلا قد تكون بعض الجزئيات التي طرحت على أساس أنها تمثل الدين فقد تكون مصاديق خاطئة للدين وبالتالي لا يمكن اعتمادها كمورد تمهد حكم كلي على الدين عموماً ونؤكد أن ما ذكره سروش من عيّنات يستدلّ بها لهي من السخافة بحد لا يوصف وإلا فكيف يمكن أن ناعتمد على رأي أحد من يدّعي العلم فيذكر في تفسير ان الشيطان المذكور في المتون الدينية هي الجراثيم بالاصطلاح

العلمي والمس الشيطاني انما هو نفوذ تلك الجراثيم في الاجهزة العصبية^(١).
 فكيف يمكن أن تكون هذه المهزلة استدلالاً موضوعياً يثبت تأثر الدين بانتاجات
 الذهن البشري حتى تصل النوة للحديث عن التعددية ! سبحان الله و بحمده .
 رابعاً : يمكن أن نقرّ في نقطة أخيرة أن بعض انتاجات الذهن البشري لها حضور
 في تبيان بعض المسائل الدينية بشرط أن تكون تتصف باليقين لأننا نبغي من الدين
 ايصالنا للحقائق فإذا ربطناه بالظنّيات فإننا سنضلّ الطريق حتماً .
 وهذه العلوم التي لها حضور في المسائل الدينية وتعبّر عن تأثير الذهن البشري في
 المعرفة الدينية على نحو الموجية الجزئية^(٢). نجد من بينها المنطق، علوم اللغة،
 المسلمات واليقينيات الفلسفية، والمعطيات العلمية في صورة ما إذا ثبت يقينيتها، والى
 هذا الحد نقبل التفاعل بين الدين والذهن البشري بكامله وإنما اعتمدنا على يقينياته و
 قطعياته التي لا يمكن الاختلاف حولها، والتعميم مرفوض كما لوحظ سابقاً .
 وبالإضافة الى كل ما ذكر يمكن أن نقطع الطريق أمام القول بالانفعال الكلّي
 للتدين بما يمليه الذهن البشري عندما نبطل مقولة ان الشريعة أمر صامت تحتاج للذهن
 البشري حتى يستنطقها فالشريعة كالطبيعة لا يمكن فهمها إلا بتدخل الذهن البشري
 واعمال سلطته فملاحظ أن الطبيعة لا تنبيء عن اسرارها وقوانينها وانما الذهن البشري
 بنظرياته وجهوده يسعى لكشف قوانينها والوصول لاسرارها وعلى هذا نقيس الشريعة
 فهي صامته والذهن باعمال نظرياته يكشف على حقائقها . غير اننا نقول انه لا يمكن
 اعتبار الدين صامت حتى نتعامل معه على نفس نحو تعاملنا مع الطبيعة وانما الدين
 مبين لاحكامه موصل لمطالبه عبر مجموعة من المتون في شكل جميل وألفاظ وبناءاً

(١) يراجع كتاب قبض و بسط للدكتور سروش ص ١٣٤ (فارسي) .

(٢) اصطلاح منطقي يذكر في مقابل الحلم الكلّي .

على أن لكل لفظ معنى معيّن ثبت للفظ بواسطة الوضع (سواء كان وضعاً تعينياً أم تعيينياً) فإنه يوجد إذاً لكل لفظ معنى موضوعي حكى عنه وهكذا يمكن أن نقول ان المتون الدينية لها معاني موضوعية تبرها وبهذا نخرج الدين عن صمته ويعبر عمّا يريد به بقطع النظر عما يحويه الذهن البشري من معطيات وما ينبغي رفعه من استفهامات^(١) فيبطل تبعاً لذلك قول من يرى ان الذهن البشري بجهوده ونظرياته يستنطق الدين و يصوغ مواقف الشريعة .

انهيار التعددية امام المنهج العقلي

صحيح ان حالات الخبط التي تعترى القول التعددي ناجمة عن ضعف المباني و تزلزل المرتكزات (المبنى الفلسفي الكانتي، قوة الذهن البشري في مقابل الدين) ولكن نحن نذهب إلى أبعد من ذلك ونقول ان التعددية حتى وان حاولت ترميم كل مبانيها إلا أنها لا تخرج من حالة الخبط الا إذا اختارت المنهج العلمي السليم الذي يستطيع أن يأخذ بيدها لكشف الحقائق، و نسعى هنا لتقديم صورة عامة للمنهج الذي يحتاج سلوكه كل من كان باحثاً موضوعياً للحقيقة ونلاحظ من جانب آخر توابع نظرية التعددية أمام ما يفرضي اليه من حقائق و معطيات هذا المنهج يضعنا أمام معادلة ثلاثية الجوانب: القواعد المنطقية، حقائق عالم التكوين، العلاقة بين التكوين و التشريع .

قد نتساءل ما علاقة كل هذا بالبحث فنجيب بأننا من ناحية في صدد تقديم صورة لمنهج فكري سليم في تكامله مع الدين والخارج والحقائق وأيضاً بصدد ابطال التعددية من ناحية أخرى، بتبيان حقائق التكوين و بناءه المنطقي ثم علاقة هذه

(١) للتوسع أكثر يراجع كتاب معرفت ديني للشيخ صادق لاريجاني ص ١٠٠ - فارسي .

المعطيات بالتشريعات السلوكية للانسان وما تقتضيه وحدة التكوين ومن وحدة في التشريع فإننا بالتالي نكون وجهنا رأس الدمع لقلب التعددية وذلك باعطاء القيمة المعرفية للرأي الواحد التشريعي ومبانيه المنطقية .

لا نتوسع كثيراً في تبيان أهمية المنطق وابتناؤه على البديهيات العقلية والقوانين الذهنية الثابتة والخالدة وما يمثله المنطق من أداة تحفظ الذهن البشري عن الوقوع في الخطأ والمسألة الثانية تخص حقائق عالم التكوين وهنا أيضاً فقط نشير إلى أنه طبقاً لتلك القواعد المنطقية وجد بناء الحكمة النظرية ما احتوته من مطالب ميتافيزيقية تحاول تفسير عالم التكوين وصول الى خالقه و بحثا في حقائقه وعلائقه وقوانينه وهنا يتجلى بحث مفصلي مهم يرتبط مباشرة بموضوع الدراسة ألا وهو اثبات العلاقة بين حقائق عالم التكوين و سطور عالم التشريع فكما ذكر أن الحكمة النظرية مبنية على قواعد منطقية و فلسفية موصلة للحقائق و لنسلم اننا في عالم التكوين وصلنا الى حقائق واحدة و ثابتة مبتنية على أسس منطقية وعقلية مطبوعة فهل يمكن مع ذلك أن توجد تشريعات عدة تعالج الانسان و سلوكه و نقرّ بها جميعها ؟ أم لا بد أن يكون طبقاً للحكمة النظرية توجه عملي و تشريعي واحد يمكن نعتة بالسلامة والاحقية ؟ هذا ما نبحث عنه بين خفايا العلاقة بين الحكمة النظرية والحكمة العملية (مسائل التشريع وسلوكيات الانسان) فعند ثبوت العلاقة هل يبقى مجال للقول بصحة التشريعات المتعددة ؟

وجدت لتفسير العلاقة بين التكوين والتشيع آراء و نظريات متعددة و مختلفة يرجع في مجملها الى ثلاث رؤى رئيسية :

النافون للعلاقة ، القائلون بتطابق التشريع والتكوين، القائلون باقتضاء التكوين لتشريع معين .

وسنقتبس هنا بعض المقتطفات من كلام للعلامة السبحاني لقيمة طرحه في هذه النقطة من كتاب نظرية المعرفة :

أما عرض الآراء:

القول الأول منسوب الى دافيد هيوم الأنكليسي^(١) فهو يرى ان مسائل وقضايا الحكمة النظرية تبحث حول ما هو موجود بينما القضايا المرتبطة بسلوك الانسان تتمحور حول ما يجب فعله و تركه و بالتالي فلا يمكن أن نجتمع بين نوعين من الادراكات المختلفين سنخاً و طبعاً و نجعل بينهما علاقة ترتب و تأثير، ينقل المفكر مهدي الحائري في كتابه تعمقات العقل العملي كلاماً لدافيد هيوم في هذا المجال :

«... انهم يستدلون بالقضايا المخبرة عن وجود الشيء أو عدمه على لزوم شرك الشيء وعدمه ... فأى رابطة منطقية بين النسبتين والاستنتاجين ...».

القول الثاني: وهو منسوب لكارل ماركس الالمانى^(٢) و انجلز حيث يسوون التطابق التام بين عالم التكوين و عالم التشريع وهذا ينطلق من مبنى مختار عندهم وهو ان الانسان جزء من عالم الطبيعة محكوم لا محالة للقوانين التي تحكم الطبيعة على هذا تكون القوانين التي تحكم الانسان في سلوكياته وارتباطه هي نفسها القوانين الطبيعية و يمكن عنونها في :

حركة التطور ، تناقضات التطور، قفزات التطور .

و بالتالي تكون الأنظمة والتشريعات الانسانية قد صيغت وفق هذا الهيكل القانوني

الحاكم في الطبيعة والانسان يقول ماركس :

(١) ١٧١١ م - ١٧٧٦ م .

(٢) ١٨١٧ م - ١٨٨٣ م .

«ليست حركة الفكر ان انعكاسا لحركة الواقع منقولة و معقولة في مخ الانسان»^(١).
 القول الثالث: وهو المنسوب للفلاسفة الاسلاميين حيث يرون ان التشريع معين و
 مشخص من قبل المسائل التكوينية بحيث ان النظام التكويني يقتضي نظاماً سلوكياً و
 تشريعياً معيناً و يفترق هذا الرأي مع الرأي الأول باثبات العلاقة بين التكوين و التشيع
 و يفترق عن الرأي الثاني بنفيه للتطابق بين عالم التكوين و عالم التشريع، و تميز الرأي
 الثالث راجع لخروق لوحظت في كل من الرأي الأول و الثاني و نذكر هنا هذه
 الاشكالات تباعاً:

- رؤية ماركس رؤية مخالفة للواقع فصحيح ان الانسان جزء من الطبيعة الا انه
 يتميز عن بقية الاجزاء بكونه كائناً عاقلاً ذا ارادة و اختيار و بالتالي يمكنه أن يخالف
 قوانين الطبيعة و يتمرد عليها، و لا مجال أن ننفي عن الانسان حريته و ارادته و نصنّفه
 كسائر جمادات و اجسام الطبيعة الأخرى.

- أما رؤية دافيد هيوم فنلاحظ اشتباهاها في موضعين :

لا يمكن أن نقول باستحالة ترتب الجملة الانشائية عن الخبرة لصرف كونهما من
 نسختين مختلفين بل يمكن أن تكون الادراكات مختلفة ولكن يمكن ترتيب احدهما
 عن الأخرى كقول القائل: ان اليوم يوجد عندي ألم فلن أذهب للعمل و لا نرى تحرجاً
 في هذا المثال في ترتيب الادراكات الانشائية عن الخبرة و هكذا في سائر المسائل .
 الموضوع الثاني يتضمن بيان المنهج المتبع لدى الفلاسفة الاسلاميين في استنباط
 أحكام عملية من ادراكات خبرية حيث انهم يوضحون اننا لا نعبر بشكل مستقيم و
 مباشر من نوع ادراك الى نوع آخر بل نوسط في الاثناء أحكام عملية بديهية، و هنا

نحتاج الى بعض التوضيح .

ان المنهج العقلاني في جانب الحكمة النظرية يعتمد في بناء معرفته على وجود البديهيات كخطوة اولى والتي لولاها لما قام للمعرفة بناء لوصلنا للدور أو التسلسل و مثال بديهيات النظرية نجد استحالة اجتماع النقيضين (استحالة ارتفاعهما وعلى نفس النسق تكون الحكمة العملية فإما أن تكون معطياتها معلومة بذاتها أو ترجع لما هو معلوم بالذات و مثاله حسن العدل وقبح الظلم وبديهيات الحكمة العملية هي التي نأخذها كواسطة للانتقال من الادراكات الخيرية الباحثة حول ما هو موجود الى الادراكات الانشائية الباحثة حول الذي يجب أن يفعل أو يترك و مثال ذلك:

- فقد ثبت في الحكمة النظرية ان الخالق تعالى هو الذي أعطى الموجودات كمالها فإله هو المنعم .

- و من بديهيات الحكمة العملية نجد أن شكر المنعم واجب .

فعندما نركب صغرى خبرية مع كبرى بديهية للعقل العملي نحصل على نتيجة توجه سلوك الانسان مباشرة .

الله منعم

وكل منعم يجب شكره

الله يجب شكره

فهكذا و بهذا الطريق نبني نظام سلوكي و تشريعي للانسان انطلاقاً من قواعد ميتافيزيقية .

والآن نرجع لمحل الكلام فقد ثبت مما مرّ نحو ارتباط بين الحكمة النظرية والحكمة العملية وان الحكمة النظرية تبني على أسس منطقية، محكمة فإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يكون لدينا وفق رؤية كونية معينة عدة مناهج سلوكية و

تشريعية و تكون كلُّها محكومة بالصحة. فالمقدمات المعينة لقياس ما عند تأليفها لا تفسح المجال لأكثر من نتيجة و بالتالي من الخطأ المنهجي والمنطقي أن نقول بأحقية كل الطرق التشريعية في الحين الذي تثبت منطقياً انه لا يوجد عندنا إلا نظام فكري واحد مصيب يمكن أن يفسّر عالم التكوين .

وهكذا تفقد التعددية في قبال هذا المنهج العقلاني مناعتها الذاتية و تنهار تماماً. محصل الكلام في هذا القسم من البحث حول التعددية المعرفية اننا هنا ناقشنا المباني المعرفية التي قامت عليها التعددية الدينية المعرفية وذلك بعرض آراء روادها مثل جان هيك و الدكتور عبدالكريم سروش و توجيه النقد اليهم .
ومن ناحية ثالثة بسطنا المنهج العقلي السليم و كيفية نسج معرفة كاملة على هيكله و ما يفضي اليه ذلك من انهيار تام للتعددية الدينية المعرفية .

وبعد كل هذا فلا مندوحة من الايمان بأنه في المسائل الدينية المعرفية لا يمكن أن يكون للقول بصحة جميع الآراء معك أو موطأ قدم في المنظومة المعرفية الكاملة والسليمة هذا كله في ضوء المعالجة الاستمولوجية للمسألة والان سترى المباحث الكلامية و نتائجها .

المبانية الكلامية و انتقاداتها

كان البحث سابقاً حول المباني المعرفية للتعددية الدينية وكانت هناك نقاشات استمولوجية خلصت الى نتيجة ان التعددية ليست بنظرية سليمة، وهنا سنطرح المباني الكلامية للتعددية و نوجه اليها النقد لنرى إلى أي شاطئ ستؤدي بنا، و نوضح في البدء المقصود من المباني الكلامية فإننا هنا سنطرح الأدلة والرؤى التي تتخذ من المفردات والمفاهيم الدينية كأدوات لاثبات مقصودها و بالتالي إذا أردنا التعامل معها فينبغي علينا أن نتعامل و نتواصل بنفس الاسلوب و الأدوات - الدينية - و كما لم يكن

من الممكن أن نتعقد نظراً معرفياً بالاعتماد على مفردات كلامية كذلك لا يمكن هنا أن نعالج المسائل الكلامية والمفاهيم الدينية بالاعتماد على قواعد معرفية ومفردات ابستمولوجية .

والآن سنتناول هذه الاستدلالات الكلامية تباعاً .

الاشتباه في فهم الهداية الالهية .

مفهوم الهداية الالهية يستلزم القول بالتعددية .

عرض بعض القائلين بالتعددية دليلاً مبتنياً على بعض المفاهيم العقائدية وقالوا ان الله خلق العالم والانسان وجعل معاده الجنة ان كان مؤمناً والنار ان كان غير ذلك وفي الاثناء وصف الحق نفسه بأنه الهادي للصراط المستقيم، وبملاحظة تنوع الاديان والمذاهب واختلافها وكثرة السائرين على غير الصراط المستقيم فهذا يعني أنّ الأكثرية لن تنال حظاً من السعادة يوم القيامة وهنا يقف هؤلاء وقفة تأمل و يقولون بأن سقوط الأغلبية في نيران الجحيم أمر يخالف وصف الخالق نفسه بالهداية و حفاظاً على اسم الهادي للخالق لابد أن يدخل أكثر الناس للجنة وطريقة ذلك أن نفتح أكثر ما يمكن من الأبواب للجنة ونوسع مفهوم السعادة فلا بد لنا من طرح التعددية الدينية لأنه في غير هذه الصورة سيكون وصف الهداية لله تعالى ذو صبغة تشريفاتية و افتخارية لا أكثر ولا أقل^(١) ونلاحظ على هذا الكلام ما يلي:

وقع خلط بين مفهوم الهداية ومفهوم الفلاح والنجاة يوم القيامة فقد فهم هؤلاء كون الله هادي الانسان بمعنى منجيه ومدخله الجنة يوم القيامة في حين اننا نعرف ان كل من الهداية والفلاح مفاهيم مختلفة ولكل منهما مقوماته الخاصة و شروطه المعينة

فمثلاً الهداية تعني جعل الانسان حرّاً ومختاراً من ناحية وازالة كل الحواجز والموانع التي تحجزه عن الاختيار الحق وتمكينه من اداة الانتخاب السالمة ألا وهي العقل الخالي عن الأمراض والخارج عن سلطان الهوى وهذه كلها مقومات الهداية الالهية في حين ان الفلاح يوم القيامة يتقوم بأمرين:

أحدهما الانتخاب السالم للانسان في هذه الدنيا فالانسان الذي يعيش حالة التكليف يكون حرّاً مختاراً عاقلاً غير مضطّر ولا مجبور وما إلى ذلك فهكذا انسان اذا انتخب الطريق الأصوب كان مفلحاً وان اختار غير ذلك فلا يلومنّ إلى نفسه .

والأمر الثاني والأهم في مسألة الفلاح هو الرحمة الالهية فالله ينظر بعين الرحمة لمن يشاء تفضلاً منه ومنه فحسب ما ورد في المتون الدينية ان الناجون يوم القيامة برحمة الله و فضله لابعدهم له وأعمالهم فكل الأعمال الحسنة وان اجتمعت لا تؤدي حق أدنى نعمة من نعمه سبحانه وتعالى فالبحث في مسألتين مختلفتين لا يجب الخلط بينهما واحدة الهداية و جوهرها جعل الانسان عاقلاً حرّاً مريداً والثانية مسألة الفلاح يوم القيامة المرتبطة برحمة الله تعالى فكون أكثر الناس يوم القيامة من أهل الجحيم - على فرض - فلا يسخرّ هدايته تعالى في شيء باعتبار انهم هم الذين اختاروا ذلك .

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾^(١).

و أيضاً لا يسخرّ رحمته تعالى في شيء باعتبار ان الحساب يوم القيامة وفق فضله و منّه سبحانه وتعالى لابعدهم له حتى نستدلّ عليه و نحاجج الرحمن الرحيم فان أكرمنا فتفضلاً منه و رحمة و ان اخترنا الجحيم فلا يمكن لنا أن نقدم في عدله سبحانه وتعالى .

من جهة ثانية ان القول بأنه تعالى هاديا يقتضي أن يدخل أكثر من في الأرض الجنة هذا الكلام له لوازم تنامي المباني العقائدية الثابتة أحقيتها .

فهو كلام يناقض حرّية الانسان واختيار فهو بلغة أخرى يقول يجبر الانسان في أفعاله إذ عندما نعني بالهداية ذلك الفعل الالهي ونقصد بها أيضاً الفلاح الذي هو اختيار انساني نكون هنا قد حكّمنا وسلّطنا الفعل والارادة الالهية على الاختيار الانساني وهذا هو الجبر بعينه الذي ثبت بطلانه في محلّه واضافة الى ذلك وبتحقيق تاريخي نجد أن ترويح عقيدة الجبر في التاريخ الاسلامي داخل ابحاث القضاء والقدر والعدل الالهي جرّ على الامة ويلاط على مستوى الطرح وعلى مستوى الممارسة وهنا نرى أن صياغة القول بالجبر في ثوب جديد وتحت عناوين الهداية والنجاة والتعددية كيف يخدش في قيمة الصراط المستقيم فالانسان حرّ ومختار و بارادته و باختياره يصل لكماله و بارادته و اختياره ينغمس في جهنم .

﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ .

والهداية تقف عند جعل الانسان حرّاً ومختاراً و اكمال الطريق وانتخاب المصير يبقى على عهدة المكلف .

من جهة ثالثة يمكن أن نطرح سؤالاً على هؤلاء ونقول من قال ان غاية الحق تعالى هو ادخال أكثر الناس الى الجنة؟ فأولاً الحق تعالى لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه وغاية خلقه العالم ومراده من ذلك مرتبطة بأبحاث عرفانية يطبق مجال الحديث عنها هنا وثانياً الوارد في المتنون الدينية فيما يخص الأثرية حسب ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ ﴿ وان تتبع أكثر من في الأرض ليضلك ... ﴾ .

وان كان الأمر كذلك فلا يبقى مجال للحديث عن أولوية الاغلبية بالجنة وما شاكل هذا الكلام وقد تفتن الدكتور سروش فيما بعد لهذه المسائل فقال بأن هذا الانسان

المختار عند اختياره سيكون خاضعاً لظروف و شرائط قاهرة تؤثر على اختياره حيث يقول ان أكثر المتدينين انما يتوجه للدين بسبب التقليد عن الغير أو بعلّة جبر المحيط^(١).

فلا يمكن لنا الحديث بعد ذلك عن حرّية الانسان في انتخابه فنحتاج لاقرار التعددية التي لا تحصر الصراط المستقيم في خط معين بل تعطي الشرعية للجميع و يفوز من جرّاء ذلك الأغلبية وتحقق الهداية الالهية بالفعل وبتحليل كلام سروش هنا نجد انه يعتمد في رفض الهداية بالمعنى الذي طرحناه على تبيان امتناع حرية الانسان في الاختيار من جهتين التقليد، جبر المحيط بالنسبة للتقليد نقول انه صحيح ينافي الاختيار و لذلك حاربه الدين و ذم الاقوال السابقة التي كانت تعتمد على التقليد و طالب الانسان أن يقوم بوجه التقليد و يعبر عن رفضه له و اضافة لنداءات الدين يمكن أن نتبع حركة الانسان في الواقع فنجد انه قادر على كسر قيود التقليد و ردّه وهذا وذاك له يدلّان بكل وضوح على أن التقليد ليس بالقضاء المحتوم في حياة الانسان و الادارة الحرّة باستطاعتها تجاوز التقليد متى ما أرادت ذلك .

و النسبة لجبر المحيط و يقصد به الدكتور سروش حتماً الجبر الاجتماعي فنقول ان هذه الفكرة ترجع بجذورها الفلسفية للطرح الماركسي و تفسيره لحركة التطور في التاريخ و إقراره بجبرية المراحل التاريخية الخمسة^(٢).

ومن باب الاسترسال في الحديث ان التجربة التي تفرّها الماركسية هي التي بينت ان الانسان لا يمكن ان يكون محكوماً للجبر الاجتماعي و أكبر دليل على ذلك سقوط تنبؤات ماركس المبنية على هذا الجبر الاجتماعي و المخبرة عن مستقبل الثورات

(١) كيان ٤٠ ص ١٦ (فارسية).

(٢) المشاعية، الاقطاعية البرجوازية، الاشتراكية، الشيوعية .

العملية في بريطانيا والمانيا وفرنسا... وبالتالي ومع سقوط هذه النظرية لا يبقى مجال لأي أحد أن يجتري هذه الفكرة البالية التي تجرد الانسان عن كل ارادة حرّة ووعي متحرّك تحت عنوان الجبر الاجتماعي أو جبر المحيط .

فتخلص الى ان الانسان له حرّيته التامة في الاختيار وهذا هو معنى اهتدائه من قبل الحق تعالى فنحن إذا في استغناء تام عن طرح فكرة نجاة أكثر من الانسان وما يلزمها من اقرار التعددية .

و التعددية تعتمد على فكرة ان للدين لب و قشور .

ان من جملة المباني الكلامية التي اعتمد عليها اصحاب التعددية لأثبات مدّعاهم هي فكرة ان للدين لب و قشور أو جوهر وأعراض و أصل هذه الفكرة يرجع الى عالم من علماء الكلام الالمانى شلايومافر والذي حاول انقاذ الديانة المسيحية في زمانه بعد الهجمات العديدة التي تعرضت لها سواء من دعاة الحرية السياسية أو أهل البحث العلمي أو اتباع الديانات الأخرى إلى كثير ذلك وكل منهما حاول النيل من المسيحية من ناحية وحتى يرفع شك يوماخر هذا الضغط جاء بفكرة ان لكل دين لب وقشور ولا يتزلزل الدين إلا إذا ارتبك اللب لكن عند تداعي القشور فهذا لا يضر شيئاً لانها لا تمثل إلا قشوراً و أموراً سطحية وانطلاقاً من هذا الاساس قال شلايوماخر ان روح و جوهر و لب الديانة المسيحية هو وجود الرابطة المعنوية بين الانسان و ربّه وبالتالي فلا داعي لانتقاد الكنيسة في جوانب سياسية أو علمية فهذه كلّها قشور لا تشعر بأصل الدين وبهذا الاسلوب استطاع شلايوماخر التخفيف من أسهم الانتقاد الموجهة للمسيحية .

فكيف اعتمدت التعددية الدينية على هذه الفكرة لاثبات مدّعياتها ؟

فيما ينقله المفكر الامريكى لگنهاوسن نجد أن جان هيك يستفيد من نظرية

شلايوماخر ويجعل محور ولب جميع الاديان واحد وهو الانسلاخ عن الذات والتوبة للحقيقة وما سواه يكون من القشور وأي تشريع يؤمن هذا اللب فهو دين حري أن يكون سبباً للنجاة وبهذا الاعتبار تكون جميع الاديان ضامنة للسعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة باعتبار احتواءها على هذا اللب فكل الاديان حقة وهذا هو عين القول بالعددية الدينية .

و نعلق في البداية على نظرية شلايوماخر ونقول انه قد يكون لها جانب من الصحة من الناحية الصورية حيث ان الاديان عموماً و الدين الاسلامي خصوصاً - وحدثنا هنا داخل المفردات الدينية الكلامية - حاوي للمفاهيم التي تدق على وجود من تباين بعض مسائله بحيث أن تكون لبعضها الاولوية والاهمية على غيرها من ناحية ترتيب آثار الايمان والكفر وهذا ما نشاهده على الصعيد العقائدي فنسمع ان انكار المعلوم من الدين بالضرورة يستلزم الكفر في حين يتنفي وجوب الايمان ببعض الامور الفرعية وعلى الصعيد الفقهي التشريعي حيث تتراوح الأحكام الفقهية بين واجب يتهدم الاسلام بتركه وبين مستحب يجوز تركه، فكل هذه اشارات تشعرنا بمقاربة آراء شلايوماخر لصحة في صورتها مع امكانية مناقشة مضمون ومحتوى آراءه، ونذكر مقدمة مفادها ان تشخيص اللب من القشور لدين معين لا يمكن إلا بالعودة إلى أجواء ذلك الدين ومطالعة متونه والتدقيق في نصوصه ولا يمكن الاكتفاء باستقراء حال الاديان بالجملة لعيوب الاستقراء الناقص وعدم افادته اليقين أولاً وثانياً أي هذه المسألة ليست من المسائل الدرجة الثانية وانما هي مرتبطة بالدين مباشرة ومعرفة من الدرجة الاولى فلا يمكن تناولها ابستمولوجيا وانما لا بد من العودة لاستفسار احكام الدين نفسه حول هذه المسألة وبالرجوع للأديان نجدها تختلف في تحديد لب الدين من قشوره وهذا الاختلاف في التشخيص هنا راجع لاختلاف الأديان بشكل عام

حيث أن لكلّ دين معطياته و مقدّماته الخاصة به وله ركائزه التي ينطلق منها ونحن يمكن أن نميز وندرس المباني والاصول ونقارن بينها حتى ننتخب الأرضية التي من خلالها تتناول هذه المسألة وهكذا نجد أنفسنا خارج بحث التعددية الدينية فلا يمكن لجان هيك أن يعتمد على آراء شلايو ماخر لاثبات التعددية الدينية المعرفية .

وجه ثاني للاستفادة من نظريات شلايو ماخر يطرحه الدكتور سروش بنحو مختلف تماماً عن طريقة جان هيك فالدكتور سروش يبدأ ليقترّ أن لكل فهم ديني جوهره ولبّه المختص به وكل جوهر و لب متناسب مع نوعية الفهم الموجه للدين فهو يرى أن للفهم السطحي المنطلق من تقليد الغير له لب لا يتجاوز أوامر ونواهي صاحب الشريعة في حين ان الفهم الكلامي يجعل من المفردات الاعتقادية هي الاساس فيركز عليها أبحاثه و فوق ذلك نجد ان التوجه العرفاني للدين يعتبر أن الاصل هي تلك التجارب المعنوية والاشراقية إذاً فكل دين له جواهر متعددة ومن ناحية أخرى يرى سروش أن كل دين هو محصول شخصية كل مبني وبالتالي فإن اختلاف الأديان يرجع في الحقيقة للفتاوت للملاحظ بين شخصيات الانبياء، فلحد الآن نجد أن سروش في عرضه لفكرة لب الدين و قشوره وفي تحليله الاختلاف بين الاديان يعتمد على اساس معرفي تناولناه بالدرس سابقاً وهي رؤية هيمنة الذهن البشرى على الدين وهنا نركز على آراء سروش حول جوهر الدين فيضع سروش البحث في مفترق الطرق ويقول أما أن يكون الاختلاف بين الاديان هو في الدرجة أم في النوع فإذا كان الاختلاف في الدرجة فهذا يعود للنظرة الشمولية الخارجة عن اطار البحث أما إذا كان الاختلاف في النوع فنطرح على سروش سؤال بأي وسيلة نرجح لتعرف جوهر الدين و لبه ؟ وبكل بساطة يجيب سروش و ينفي امكانية ترجيح أمد الاديان عن البقية بالاعتماد على الدليل والبرهان ويعلل ذلك سروش بأن الاختلاف بينها نوعي و يسوق سروش مثلاً

لتوضيح كلامه فيقول اننا إذا أخذنا جملة من الشعراء البارزين ونطالع أشعارهم فإنه يصعب علينا ترجيح أحدهما عن الآخر بل آخر ما يحصل هو اننا قد نحس بجذبة نحو هذا أو ذاك لكن لا يتحقق الترجيح^(١) وهنا توجه الى موطن الضعف في كلامه فنعلق عليه .

انه يوجد فرق بين التحقيق حول الاديان وعملية الاستدلال فيها وبين مطالعة الاشعار ونحو الانجذاب الى بعضها فالأول يدخل ضمن قسم المركبات الخبرية التي يصح أن نصفها بالصدق والكذب أما الاشعار فهي مركبات انشائية خارجة عن الصدق والكذب ففيما - يخص الاديان وهي التي تحاول أن نخبرنا على ما نجعله وترشدنا الى ما يجب فعله و تركه فإننا يمكن لنا أن نعالجها بأدوات و طرق معرفية تمكننا من البرهان والاستدلال لبيان صدقها من كذبها فرجح أحدها ونترك الباقي وهذا ما مرّة الاشارة إليه فيما سبق و بما أننا هنا نبحت التعددية بحثاً كلامياً يمكن أن نذكر بعض النصوص التي توجه لكلام أصحاب التعددية في هذا المضمار .

﴿ وبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ .

﴿ ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ .

استفهامات داخل مفردات الدين الاسلامي

والآن سنحاول طرح بعض الاسئلة التي تحاول أن تستفسر الموقف الديني الاسلامي في مجال التعددية الدينية علما ان هذه الاسئلة متضمنة لاشكالات و شبهات لاصحاب القول التعددي طرحناها في شكل سؤال و جواب تسهيلا على القارئ الكريم في تناولها :

نلاحظ في آيات القرآن الكريم رفضاً للرأي الانفرادي المسيحي مثل :
(وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصاراً)^(١).

فلا يمكن القول بأن الاسلام يرفض التعددية إذا بل يقرّها .

صحيح ان الآية القرآنية جاءت لتذم الرأي المسيحي الانفرادي الآحادي الذي يحصر صراط السعادة والنجاة في طريق واحد هو المسيحية أو اليهودية ولكن بالتدقيق في الآية أكثر تتجلى لنا حقائق أخرى مفادها ان اشتباه المسيحية لم يكن في حصر الحقيقة في طريق واحد وانما كان خطأ مهم انهم ضيقوا رحمة الله وخصوها بأنفسهم وهذا لا يرضاه شرع ولا عقل و دخول الجنة برحمة الله وفضله فيهبها لمن يشاء و يحرم منها من يشاء .

حتى نفس المسيحيين والتمسكين بعقائدهم لم يضنوا بالجنة بأعمالهم فكيف تأتي لهم أن يغلقوا بابها على غيرهم إذاً فالمسيحيين لم يتحدثوا عن الحقيقة وطريقها وحصرها في أنفسهم وانما ضيقوا رحمة الله تعالى يوم القيامة وهذا هو الخطأ الذي تعاقبهم لأجله الآية القرآنية ومن ناحية أخرى قد تكون الالهم ان الالهم الموجود في الآية الكريمة معلق على شيء مطلع وهو عدم امتلاك المسيحيين البرهان الذي يثبت أقوالهم إذاً فالذم في الحقيقة راجع لافتقاد البرهان وعدم الاستدلال على المدعي وهذا ان بين شيء فهو يؤكد على أهمية الدليل والبرهان لاثبات المدعى والبرهان يعني بيان الخبر الصادق من غيره ولهذا عين ما تحاول التعددية رفضه فاجمال الآية ومفادها لا يشير ان القول التعددي بل يرفض و يناهض القول التعددي .

إذا كان الدين الاسلامي يعتقد بأن الدين الاسلامي هو الحق وغيره باطل فلماذا يقرّ

في آياته الديانات السابقة حيث يطلب من المسلمين الايمان بكل الكتب السماوية بل ويعتبرها أنوار ويحث المسلمين على احترام أهل الكتاب وعقائدهم وهذه كلها مؤشرات توحى بالتعددية الدينية .

نقول أولاً أن الدعوة لاحترام الغير حتى وان كان ذا عقائد مخالفة هو أمر مطلوب وسيأتي بيانه في بحث التعددية الاجتماعية وانها لا تعني لزوماً اقرار التعددية المعرفية وثانياً ان الدين الاسلامي يقر بالكتب السابقة ويعبر عنها بالانوار غير ان هذا مشروط بعدم تحريف هذه الكتب يعني الكتاب الاساسي الذي يقره الاسلام هو تلك التعاليم التي نزلت حقيقة من لدن حكيم خبير على قلب نبيه ورسوله والاسلام يرفض و يحارب التعريف في الكتب السماوية، ومن ناحية أخرى ان اقرار الكتب السماوية السابقة وكونها حقيقة نازلة من عند رب العالمين هذا أمر غير امكانية العمل بها في زمان يكون الجميع ملزمين باجراء أحكام الاسلام حتى نستخلص فيما بعد القول بالتعددية الدينية فإن هذه الكتب هي حقائق في زمانها ووجب العمل بها في ظروفها ومن هذا الباب أقرها الدين الاسلامي لكن في زماننا اليوم الجميع مطالبون بالتدين بدين الاسلام والعمل بأحكامه ومن يتنغي غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين و يبطل العمل ببقية الاديان رغم الاعتراف بها في تاريخها وفي ظروف زمانية و مكانية معينة فيحصل عندنا هنا ان هذه الاديان يبطل العمل بها الآن وليست كاذبة و واجب الجميع هو العمل بأحكام الدين الاسلامي وهذا خلاف القول التعددي الذي يؤمن بأن العمل بكل الاديان مبرئ للذمة ومقرّب للحق تعالى .

بعض العرفاء وهم أعلى مراتب العلماء في الدين الاسلامي يقولون بصحة

التعددية الدينية وأكثر من هذا بل هم مارسوها في حياتهم و دعوا إليها بسبل شتى^(١). فلا يمكن مع ذلك أن نقول أن الدين الاسلامي ينفي التعددية الدينية بشكل مطلق. وفي الجواب نقول انه من جهة أولى أن قول بعض ممن ينتسب للدين لا يكون بالضرورة الموقف الديني الصميم حتى وان كان هؤلاء أفضل علماء الدين فلا يجب أن نخلط بين أقوالهم والمواقف الدينية الحقة واكبر دليل على ذلك إذا كانت هذه الأقوال معارضة بآراء أخرى لعلماء آخرين فهذا إذاً خطأ منهجي نتجاوزه .

ونقول من جهة ثانية ان هذا الفهم لأقوال العرفاء غير صحيح ان لم نقل ان صاحب الادعاء لم يفهم كلام العرفاء اذ كما هو معلوم ان العرفاء يتعاملون مع الدين في باطنه وظاهره و تارة يكون كلامهم موجه لظاهر الشريعة وتارة موضوع حديثه هو باطن الدين والعرفاء يعتقدون بوجود باطن واحد لكل الاديان يتمحور حول التجربة المعنوية والروحية وعلاقة العاشق بمعشوقه ولكن هذا لا يكفي لاثبات التعددية الدينية لان نفس العرفاء يقرّون ان طريق الوصول للباطن هو الظاهر وظاهر الشريعة في زماننا منحصر في تعاليم الدين الاسلامي الحنيف وكل من أراد الوصل مع باطن الدين والحقيقة التامة فلا طريق له غير اتباع شريعة سيد المرسلين وهكذا نجد ان قول العرفاء عند تحليله يصل الى رفض التعددية .

التعددية الدينية الاجتماعية

وتعني كما عرضناها في ما مضى ذلك الاطار السليم الذي يمكن من تعايش الفئات المختلفة في آرائها فهي لا تتهم بتوجيه الاحكام تجاه الرأي الآخر وانما تحاول أن تصوغ موقفاً يضع الحدود والقواعد لسلوك و ممارسة كل طرف بحيث يصل

المجموع الى هدفه وكماله من دون حالة تراجع و إقصاء والتعددية الاجتماعية يمكن أن تضم مجموعات مختلفة في الدين أو الجنس أو المخطط السياسي أو التوجه الثقافي أو غير ذلك وتختلف تبعاً لذلك ملامح التعددية الاجتماعية فإذا كانت في المجال السياسي فتطل مفاهيم الاحزاب والحرية والتصويت واما في مجالات أخرى مثل المجال الديني فإنما تركز على تبرة الاطراف الأخرى حتى ترفع حساسيات التكفير والعداوة وما إلى ذلك ونحن في تتبعنا لظروف نشأة فكرة التعددية رأينا انها كانت موجهة لسلوك الكنيسة الكاثوليكية الحاكمة حيث كانت تحذف وتفصي الاطراف المقابلة لتفرض انفرادها بالساحة الدينية فطرح التعددية الدينية كحل يكسر هذا الواقع ويرفع الموانع أمام الفرق الأخرى غير ان الاشتباه كما مرّت الاشارة إلى ذلك كان في أنهم طرحوا التعددية الدينية المعرفية كمعالجة لمثل هذا الواقع ولكنه سبق وان أثبتنا بطلان التعددية المعرفية ونقدم مع ذلك البديل والتقدم التعددية الاجتماعية كامل يحافظ على الوحدة العملية بعد اقراره بوحدة الصراط المستقيم وعدم تحدّده .

ونشير مرّة أخرى إلى أننا سنعمد الدين الاسلامي كركيزة عقائدية وتشريعية وقاعدة انطلاقنا لاننا اثبتنا في البحث المعرفي انفراد الحقيقة وفي محله ثبت ان هذه الحقيقة عندنا تعني الدين الاسلامي وعلى أساسه نحاول أن نصوغ النظام الاجتماعي الذي يضمن حق الاختلاف و يضمن الوحدة في الممارسة .

تمهيد الدين الاسلامي المبين في تعامله مع غيره ومع مخالفيه يحاول أن ينطلق من طهارتهم وعدم استحقاقهم للجحيم لأن ايمان المسلم بأن غيره ليس من أهل الجحيم يلغي الذهنية الموجودة القائلة أن علاقة المسلم بغيره هي علاقة الايمان بالكفر حتى يكون لازمها الوقوف على طرفي النقيض وما يتبعه من تناقض وتحارب وغيره لذلك

سعى الدين الاسلامي الحنيف في بادئ الأمر وفي أول خطوة إلى الغاء هذه الذهنية ويجعل من علاقة المسلم بغيره هي علاقة الايمان بالانسان بما يعنيه من قابلية التكامل والرقي فهي علاقة تحمل روحية الرحمة ومسحات التعاطف ونحن نعتبر أن خطوة الاسلام هذه هي الحجر الاساس و الركيزة الكبرى لاقرار التعددية الدينية الاجتماعية فبراعة الاسلام في ايجاد علاقة الايمان بالانسان بدل علاقة الايمان بالكفر هو المفصل الحاسم هنا .

ويسري هذا المبنى أيضاً في علاقة المسلم بالمسلم ان انتميا الى مذاهب مختلفة فهذه الخطوة يكون الدين الاسلامي قد تجاوز الاختلافات الداخلية وعلاقاته مع غيره ويكون قد اختزل مراحل طويلة فصلت الأمة عن التقدم والرقي ويمكن أن نتساءل وفق أي مفاهيم قدم الاسلام طرحه ؟

المستضعفين : يطرح القرآن الكريم مفهوم المستضعفين ولكن بمعاني جدا راقية ويعطيها أبعاد أخرى يقول القرآن الكريم مستثيا هذه الفئات من العذاب .

﴿ إلاّ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً ﴾^(١).

ذكرت هذه الآية فثقتان من الناس أنهم لا تنالهم نار الجحيم وهم الذين لا يستطيعون حيلة والآخرين الذين لا يهتدون سبيلاً .

فأما الفئة الاولى وهم الذين يعيشون في واقعهم ظروفاً قاهرة تمنعهم من الوصول الى الحق وتزاحم الحق في الوصول إليهم وهذه الظروف قد تتمثل في ظلم سياسي يفرض حالة اللاوعي واللامعرفة أو كانت هذه الظروف تتمثل في وضع قاهر يمنع و

يبعد الانسان عن الحق فهؤلاء الناس عند مفارقة الحياة تشملهم هذه الآية و تنالهم الوحدة الالهية بمقتضى العدل الالهي .

والفئة الثانية هم الذين لا يهتدون للحق سبيلا ويمكن أن نحمل هؤلاء على معنى الجاهلين القاصرين فكما هو معلوم ان الجاهل ينقسم للقاصر والمقصر هذا الاخير هو الجاهل الذي نبه الى عدم علمه لكنه يكابر ولا يسعى لرفع جهله في حين ان الجاهل القاصر هو الجاهل الذي لا يعلم أنه جاهل وقد يكون هؤلاء هم المقصودون في هذه الآية فعدم العلم بالأمر يرفع الالتزام به وبالتالي لا يؤاخذ الجاهل على ترك هذا الأمر ولذلك نحن نرى حتى في التكاليف الشرعية ان التكليف معلق على العلم به فاذا فقد العلم به فإن التكليف يرتفع مرة واحدة واشراط العلم كما هو ثابت في التكاليف الشرعية هو جاري أيضاً في اصول الاعتقادات فلا ينعت بالكفر والضلال إلا من عرض عليه الحق و علم به ثم أنكر وجحد من دون دليل أو برهان .

﴿ و جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ .

وأما من لم يكن له علم فتأبى الفطرة السليمة على نعته بالكفر والضلال .

الكلام السابق كان في بيان القواعد العامة للاستضعاف والآن يطرح سؤال مهم هل ان انسان اليوم المنتمي الى مذاهب مختلفة واديان أخرى هل يمكن اعتباره مستضعف أم لا ؟

نقول إذا كانت عندنا رؤية شاملة للمحيط الذي يتحرك فيه الانسان من وضعه السياسي وما نشاهده من مصادرة للحريات واضمحلال لتعميق حالة الجهل وابعاد الانسان عن مصادر المعرفة والعلم أو المستوى المعيشي والاجتماعي وما يفرزه من حالات قاهرة تحاصر اختياره و حرّيته في الانتخاب فبلحاظ كل هذه الظروف في مجملها يمكن الاقرار وبكل اطمئنان أن القدر المتيقن ان أكثر الناس هم

المستضعفون لذلك إذا نرتب آثار هذه النتيجة فسنلتقي مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في بيانه الذي يعني أن كل انسان يجب أن يقدم له الاحترام لأنه أما شريك لنا في الدين أو شريك لنا في الانسانية فكلاهما يستحق الاحترام ويكون هنا معنى ملاك الانسانية كافياً لتحقيق الاحترام المتبادل وصيغ التعايش السلمي .

التعددية في مجتمع المدينة

إنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم أثناء ايجاده لأول دولة اسلامية في تاريخ البشرية واجه تعددية دينية لم يكن هناك مجال للتستر عنها أو تجاوزها وكان لهذه التعددية وجه داخلي حيث التقى المهاجرين والانصار في مجتمع واحد مع ما يمثله كل واحد منهما من انتماءات جغرافية وروحية وثقافية معينة .

والى جانب ذلك واجه المسلمون باعتبارهم أمة أتباع دين آخر في المدينة وهم اليهود فكان لابد لمجتمع الرسالة أن يتضمن اليهود في تلك المرحلة وقراراً للتعددية الاجتماعية صاغ رسول الاسلام نظاماً بحفظ هذه التعددية فيجعل منها حالة قوة في المجتمع وليس بذرة لانحلال المجتمع وتفكّكه . وهذا النظام الذي صاغه الرسول (ص) كان تحت عنوان معاهدة عرفت فيما بعد بمعاهدة المدينة حيث وافقت عليها جميع الاطراف والتزمت بالعمل بمقتضياتها .

وبالنظر الى هذه المعاهدة نجد ان الرسول تجاوز بمعنى الايمان الاختلافات الجغرافية والثقافية بين فئات المسلمين وجعل ان الاشتراك في الايمان هو الاساس والشاخص لأي حركة وممارسة مستقبلية فأول ما نصت عليه المعاهدة «انهم أمة واحدة من دون الناس» وبهذا نفهم ان الاسلام جعلنا نتسامى ونتعالى عن كل اختلاف مذهبي وقومي و جنسي وهذا المعنى يؤكدّه أكثر البند الأول «ان ذمة الله واحدة تشمل جميع المسلمين بلا استثناء» وهذا التأكيد يمهد لفاعلية أمة الاسلام في وجه

المحن الاجتماعية والسياسية كما جاء :

«وان المؤمنين لا يتركون مطرحة (أي المثقل بالدين وكثير العيال) بينهم أن يعطوه في معروف في فداء أو عقل أي دفع دية أو فداء أسير» .
وفي مواجهة الاعداء :

«ان المؤمنين المتقين يد واحدة على من بغى» .

«وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه» .

وغيرها من الفقرات التي تؤكد وحدة الصف الاجتماعي داخل الأمة الواحدة وبالموازاة تطرح المعاهدة العلاقة مع اليهود وتبدأ بأن تعترف بأن بعض الفئات من اليهود هم مؤمنين :

«ان يهود بني عوف امة من المؤمنين لليهود دينهم و للمسلمين دينهم» .

و طبعاً لاحظ القارئ الكريم ان الاقرار بالايمان لفئة من اليهود ليس اقراءً معرفياً وانما هو تصريح بأن واجبات و حقوق المؤمنين الاجتماعية في نفسها لهذه الفئة من اليهود ولعل وصفهم بالايمان يمكن أن نستشف منه أهمية التعددية الاجتماعية في الاسلام وما أولاهها الرسول (ص) من حتمية في بناء المجتمع ونذكر كمثال لتساوي الحقوق والواجبات فيما يخص تفقد الحرب فهي واجبة على المسلمين واليهود في الآن نفسه وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة» .

هذه أوردناها لمححة خاطفة للتعددية الاجتماعية في الاسلام حتى نبين للقارئ الكريم انها ليست شعاراً يستهلكها الدين وانما هو واقع جسده الرسول (ص) ونراه أيضاً اليوم في ممارسات بعض الدول الاسلامية وخاصة في الجمهورية الاسلامية الايرانية وما بقره قانونها و سلوكها من حقوق للديانات الأخرى المتواجدة مثل

المسيحيين والزرادشت (عبدة النار) ... أو تعاملها مع الفرق الاسلامية الاخرى وحرّياتهم حيث تتجلى أكثر معاني التعددية الدينية الاجتماعية ونحن إذا تعمقنا أكثر في بنود العقد الاجتماعي لأول دولة اسلامية لوجدناها تقوم على أساس مهم آخر وهو الوفاء بالعهود.

الوفاء بالعهود

ان من جملة الاسس المتينة لقيام التعددية الدينية الاجتماعية هو الاخلاص الكامل عند التعامل مع الغير يعني تنفيذ الاتفاقيات و اتمام المعاهدات وتحقيق الوعود والبقاء على الكلمة الصادقة حتى آخر لحظة وفي التعامل بين المجموعات الدينية المختلفة نجد الموقف الاسلامي صريحاً بنبذ الخيانات ومخالفة الوعود والخداع والغش بين المسلمين وغيرهم ناهيك عن المسلمين فيما بينهم. و ان الدعوة والتأكيد على احترام العهود بين افراد المجتمع من أي مذهب ودين كانوا لهو توثيق عرى وأواصر التواصل الاجتماعي حيث لا يخاف أبناء الديانات الأخرى من غيرهم لأنهم على غير ملتهم وتندم بذلك الثقة بين الجماعات الدينية المختلفة.

محصل الكلام ان الدين الاسلامي في تعامله مع التعددية الدينية لهو مستفح إلى أبعد الحدود من خلال التساوي أمام القانون و احقاق الحق وغير ذلك وهذا لايعني كما أكدنا ذلك مرارا اعترافاً بقيمة التراث المعرفي للغير وانما هو تعامل فى ظل الاصول الانسانية وهذا هو وجه التعددية الدينية الاجتماعية والأهم من كل ذلك ان الاسلام باقراره بالعقل والحسن والقبح الذاتي تمكن على ضوءه اقرار هذا النظام الحافظ للتعددية .

ختاماً


ان بحث التعددية لهو من الابحاث المطروحة للدراسة والنقاش اليوم حيث تختلف الدراسات نفيًا واثباتاً ايجاباً و سلباً في تناولها للتعددية ومما عقد أجواء التحقيق أكثر في هذه المسألة هو تيه المحقق بين قيمتين أساسيتين لا يمكن أن يتنازل عنها وهما اقرار الصراط المعرفي السوي من ناحية والحفاظ على هدوء تعامل الرؤى المختلفة مع بعض .

و جل من خاض عباب هذا اليم أحس أن هاتين القيمتين تعيشان حالة التنافر والتباعد على نحو يعسر بل يستحيل الاصلاح بينهما. فكل من تعامل ايجابياً مع القيمة المعرفية لفكرة ما إلا وتعامل سلباً مع يفرها في الممارسة .

وكل من يتعامل ايجابياً مع غيره اضطرّ للتنازل عن القيمة المعرفية لفكرته . وقد يكون مردّ هذا الإحساس عند هؤلاء ظنهم ان الطريق الذي من خلاله تعامل مع القيمة المعرفية للذات هو نفسه الذي يحدد الممارسة مع الغير غير اننا كما رأينا هنا. ان تفصيل المسألة و توزيع البحثين ينقل حالة التعارض إلى وضع يتكامل فيه كلا الجانبين فالقيمة المعرفة ناظرة للمعرفة فلا بد أن تناقش كذلك و بحث التعامل مع الغير والوحدة هي من مسائل الممارسة التي يجب أن تبحث داخل نظام سلوكي اجتماعي وقد تكون الدراسة أعطت لكل ذي حق حقه بذلك فلم نفدي المعرفة لأجل الوحدة ولم نقض على الوحدة لأجل المعرفة بل ان المعرفة والوحدة يتكاملان ليصوغان منظومة نظرية وعملية قد تكون شخصنا مثلها الاعلى في الدين الاسلامي الحنيف. اللهم نسألك و ندعوك أن توفقنا لما فيه خير الفكر والعمل و تهدبنا صراطه المستقيم .

خصائص الإسلام العامة

«الشمولية»

محمد فريجه 

قم - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

الشمولية

١- شمول النظام الاسلامي لكل نواحي الحياة:

الاسلام هو الدين العالمي الخالد، الذي انزله الله على نبيه، والنظام الاسلامي ينظم علاقة الانسان بربه - في العقيدة والعبادات - وعلاقته بنفسه بالاخلاق والطعام واللباس وعلاقته بغيره في المعاملات والعقوبات.

وهو نظام عامل شامل لجميع نواحي الحياة نظم غرائز الانسان تنظيماً دقيقاً اشبعها اشباعاً صحيحاً، عالج مشاكله ونظم اموره. فكان الاسلام نسيجاً وحدة في رعاية الانسان وضمان حاجاته الاساسية، وكفالة الحقوق الطبيعية ليكون مرفهاً في الحياة مطمئناً فيها حاصلها على حقوقه وحاجاته بطريقة معينة تميز بها عن غيره.

فان عجز الفرد عن توفير حاجاته الاساسية او حرم الرفاهية والتمتع بحقوقه كان على الدولة الاسلامية، ان توفرها له بالطريقة الاسلامية التي هي احكام شرعية عالجت

هذه الاحكام كل مشكلة تقع للانسان في حياته في كل زمان ومكان، وكانت هذه المعالجة قائمة على ادراك عميق ومستنير لواقع مشاكله، واستنباط صحيح من نصوص الاسلام، وانبثاق دقيق عن عقيدته واتفاق منسجم مع فطرة الانسان التي فطره الله عليها.

وقد تناول نظام الاسلام جميع نواحي الحياة بشكل عام وبأسلوب واحد، ولهذا تجده لا يتناول مشكلة من مشاكل الحياة على حدة في عزلة عن باقي المشاكل بل يتناول جميع المشاكل ويضع لها قواعد كلية وخطوطا عريضة متفقة مع القواعد العامة الكلية، حتى تتمشى المعالجة وفق فلسفة كبرى تنبثق عنها هذه القواعد العامة ولذلك كانت طاقة الاسلام قوية وكانت قواعده ثابتة لا تتغير وصالحة لمختلف العصور والبيئات فتتسع القاعدة الواحدة لكافة الحوادث المنتظمة في سلكها اذا اتفقت في حقيقتها.

ولا تتغير الاحكام بتغير الزمان اي لا يكون الزمن والعرف سببا للحكم، بل يدور الحكم مع علته الشرعية وجودا وعدما. ويطبق الحاكم انظمة الاسلام ويبرز هذا التطبيق في خمسة نواح: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والحكمية. وهذه النواحي الخمس طبقت جميعها من قبل الحاكم في مختلف العصور الاسلامية:

١- اما الناحية الاجتماعية: وهي علاقة الرجل بالمرأة والطلاق والنفقة وجميع ما يتصل بهذه العلاقة التي سميت في عصرنا اسما غربيا: الاحوال الشخصية فانها الوحيدة التي لا تزال قائمة وموجودة في جميع البلاد الاسلامية وان غير بعض الاحكام جزئيات فيها متأثرين بالمفهوم الغربي للمرأة، وابتعاد الحكام عن الاسلام كنظام وعدم تطبيق احكامه في نواحي الحياة.

٢- اما الناحية الاقتصادية: فانها تبرز في مسألتين، الاولى: كيفية اخذ الدول للمال من الامة والثانية: كيفية انفاق هذا المال، اما من حيث اخذه، فكانت الدول الاسلامية تأخذ الزكاة على الاموال والاراضي وعروض التجارة والمواشي والزروع والثمار باعتبار الزكاة عبادة، لتقوم بتوزيعها على الذين لهم حق بها، من الاصناف الثمانية المقررة شرعا كما تأخذ الخراج والجزية والضرائب بحكم اشرافها على التجارة الداخلية والخارجية وكانت تقوم على ادارة ما هو داخل في الملكية العامة، او ملكية الدولة، كالمعادن والقنوات وغيرها من موارد بيت المال، اما من حيث انفاق هذه الاموال فانها كانت توزعها حسب الاحكام الشرعية، وقد طبقت احكام النفقة على العاجز وحجرت على السفية والمبذر، واوجدت اماكن لاحكام الفقراء والمعسرين ونفذت احكام العمل والعمال، ومنعت الاحتكار والغش والاستغلال وكل وسائل الكسب غير المشروع.

ومن الحق ان نقول: ان بعض الحكام كانوا يسيئون تطبيق احكام الشرع في هذه الناحية وكان البعض الآخر يحسن غاية الاحسان في رعاية هذه الناحية تبعا لنفسية الحاكم ومدى التزامه بالاحكام الشرعية، وموقف الامة منه خصوصا العلماء فاذا حصل لبعض الحكام ان يقصّر ويسيء فلا يعني هذا عدم التطبيق.

٣- اما الناحية التعليمية: فان الاساس الذي كان قائما على هذه الناحية هو الاسلام بتركيز العقيدة الاسلامية حين التعليم ونشر الاحكام الشرعية المتعلقة بشؤون الحياة وتعليم الثقافة الاسلامية والعلوم الاخرى. حتى اصبحت البلاد الاسلامية الخاضعة لحكم الاسلام موثلا للعلوم وقعرا لدراسة المعارف. وكانت جامعاتها والمعاهد العلمية سواء أكانت في المساجد او في دور خاصة محط انظار العلماء واهل المعرفة ورواد العلوم وكان لتلك الجامعات والمعاهد الاثر العظيم في توجيه التعليم ونشر

الثقافة في مختلف العلوم ومن هذه المعاهد والجامعات تخرج كبار العلماء والمفكرين الذين لازالت مؤلفاتهم موضع اقبال ومن معينها يستقي المفكرون ويورد الموربون، وكل الذي حصل من تقصير في هذه الناحية هو ما كان قائما في العصور المتأخرة كالعثمانية من قلة المدارس ونضوب العلم والمعرفة.

٤- اما السياسة الداخلية والخارجية، ففي الناحية الداخلية كان يطبق نظام الاسلام على المسلمين وهذا قائم مادامت الدولة الاسلامية قائمة، واذا حصلت اساءة في تطبيق بعض تفصيلات نظام الاسلام فلا يعني هذا عدم وجوده، حيث ان المسلمين لم يرضوا بغير الاسلام نظاما لهم كما لم يستوردوا نظاما ولم يسمحوا بدخول نظام اجنبي بل لم يترجموا اي نظام او قانون في الوقت الذي ترجموا الفلسفات الاجنبية والعلوم والمعارف.

وفي الناحية الخارجية: كانت علاقة الدولة الاسلامية بغيرها من الدول قائمة على اساس الاسلام، وكانت الدول في العالم تنظر الى الدولة القائمة في العالم الاسلامي، دولة اسلامية فاحكام المعاهدات والجهاد وسائر الاعمال كانت تستنبط من ادلة الشرع وقد خلف العلماء ثروة هائلة من الافكار الاسلامية في هذه الناحية وغيرها.

٥- اما نظام الحكم المطبق في العصور الاسلامية، فقد كان نظام حكم اسلامي فكان جهازه اسلاميا حيث قام على سبعة اركان هي: الخليفة: وهو رئيس الدولة والمعاونون للرئيس في الحكم والولاية في الاقاليم والقضاة والجيش والجهاز الاداري ومجلس الشورى، وهذا الجهاز كان قائما. وتفصيل ذلك:

ان الامة الاسلامية من لدن حياتهم في المدينة المنورة، حتى عام ١٩٢٤ كان عليهم خليفة، وان سمي في بعض العصور بالسلطان او الملك. والمعاونون وهم الهيئة التنفيذية فقد كانوا موجودين في جميع العصور وان وصفوا بلقب الوزراء في بعض

العصور كالعصر العباسي اما الولاة والقضاة والجهاز الاداري فقد كانوا موجودين كذلك ولازالت هذه المناصب موجودة في بعض الاقطار في العالم الاسلامي. اما الجيش فوجوده لا يحتاج الى دليل اذ هو صاحب الفتوحات الاسلامية العظيمة وهو القوة الجبارة التي كانت ترهب الكفار في العالم.

اما مجلس الشورى فان من الامانة في البحث ان نقول انه لم يعن به من قبل الحكام عناية حقة الا في زمن الخلفاء الراشدين. فقد كان غير هؤلاء يكتفون بأخذ المشورة من افراد معينين وثقوا بهم وهم الذين سمحوا بأهل الحل والعقد في بعض العصور ومنهم من اتخذ من معاونيه او معاونه السابق سبيلا لتحقيق الشورى، وان كان من الواجب ان يكون هذا المجلس قائما لانه من حق الامة على الخليفة، لذا فالذي حصل في العصور المتأخرة في مسألة الشورى تقصير، ومع ذلك فان الحكم كان اسلاميا، ولان الشورى هي لأخذ الرأي بخلاف المجالس النيابية في النظام الديمقراطي فهي للحكم.

وكل الذي يؤخذ على جمهرة الخلفاء هي مسألة بيعة الخليفة ومسألة استعمال القوة المادية في تولي الحكم. اما البيعة يومئذ فقد كانت تؤخذ لابن او اخ او من اسرة الخليفة القائم في حياته، ثم تجدد لذلك الشخص بعد فقدان ذلك الخليفة وهذه اساءة لتطبيق حكم البيعة، اذ البيعة شرعا تعقد للرجل الذي ترضاه الامة وتختاره بعد فقدان خليفته، واساءة تطبيق حكم البيعة هذه هي الشبهة التي حسبها البعض بأن نظام الحكم الاسلامي كان وراثيا في جل العصور الاسلامية وهو ما يعبر عنه بالنظام الملكي، وهذا يتنافى مع احكام الاسلام في نظام الحكم.

والحقيقة: ان ولاية العهد او الحكم الوراثي لا صلة له بالاسلام وبالتالي لم يطبق في جميع العصور الاسلامية ولم ينصب خليفة دون بيعة تؤخذ في تلك العصور من

اهل الحل والعقد ثم اخذت من شيخ الاسلام وهذا يتناقض مع مفهوم الوراثة او ولاية العهد، لوجود البيعة الثانية وهي الاصل، والاولى مفهوم الوراثة: كانت على سبيل الترشيح الالزامي، ولو اكتفى بالاولى لصح القول وكانت تلك الشبهة حقيقة قائمة لا شبهة، والبيعتان هاتان لا يقرهما الاسلام، وانما بيعة واحدة تعلن فيها الامة عن تريده خليفة عليها بدون اكراه، يبايعها على تطبيق الاسلام وتبايعه هي على السمع والطاعة.

اما استعمال القوة في تولي الحكم وفرض شخص معين على الامة وهي لا تريده ولا ترضاه حاكما عليها فهذا لا يجوز شرعا ولا يقره الاسلام، ولو ان هذا الشخص اعلن انه يطبق الاسلام ويرعى الامة على اساسه اذ الامة هي صاحبة السلطان، ولها الحق، ان تختار شخصا معيننا ليكون نائبا عنها في الحكم وتولي السلطان.

وهناك شبهة اخرى وهي حدوث بعض الاساءات ووقوع بعض المظالم من قبل بعض حكام الدول الاسلامية فحكم البعض على هذه الوقائع التاريخية، بعدم تطبيق الاسلام في ذلك الحين، ومن الجدير بالذكر اننا لا ننكر حدوث اساءات او وقوع مظالم في بعض العصور الاسلامية، وفي ظل بعض الحكام لا تعني ان الحكام كانوا كافرين لا يحكمون بما انزل الله ولا تعني ان المجتمع كافر.

وان معرفة احوال المجتمع تكون بمعرفة نوعية النظام الذي كان مطبقا ومدى تطبيق الحاكم والمحكوم له: معرفة مصادر النظام المطبق في الحياة في العصر وهي: الكتاب والسنة والاجتماع والقياس.

ومعرفة مصادر التاريخ الذي يذكر كيفية تطبيق النظام. وتعرف نوعية وتفهم صحة معالجاته لمشكلات الحياة، ويحكم على صلاحه وسلامته او فساده وخطئه من معرفة مصادر الفقهية المستند عليها. كما قال الامام الخميني: في القرآن والحديث من

الشمول لجميع جوانب الحياة.

٢- الترابط والانسجام بين الانظمة الاسلامية

ان ربط المادة بالروح هو امر واجب بين الانظمة الاسلامية، ليكون لانسجام الروح اثر يظهر في المادة وفي توجيهها نحو غاية سامية.

ولذلك يجب ان يقضى حسب فلسفة هذه الانظمة على كل ما يمثل الناحية الروحية منفصلة عن الناحية المادية. ولذلك فلا رجال دين في الاسلام، وليس فيه ما يسمى سلطة دينية، ولا سلطة زمنية منفصلة عن الدين بل الاسلام دين منه الدولة وهي وسيلة لتنفيذ الانظمة.

ويجب ان يلغى كل ما يشعر بتخصيص الدين بالمعنى الروحي وعزله عن السياسة والحكم فتلغى المؤسسات الروحية المشرفة على النواحي كالمجلس الاسلامي الاعلى وما شابهه من مؤسسات وتلغى ادارة المساجد وتكون تابعة لادارة المعارف. وتلغى المحاكم الشرعية والمدنية، ويجعل القضاء واحدا لا يحكم الا بالانظمة الاسلامية فسلطان الاسلام واحد يشرف على جميع الشؤون. وعقيدة الاسلام تنبتق عنها انظمتها المرتبطة بها بانسجام.

وعلى هذا الاعتبار قامت الانظمة الاسلامية التي عالجت جميع شؤون الحياة للامة.

الخطوط العريضة للانظمة الاسلامية:

النظم هي ضوابط الاعمال الانسانية في الحياة سواء اكانت هذه الاعمال ناتجة عن علاقة الرجل بالمرأة ام عن علاقة الفرد بالفرد من ناحية اقتصادية، ام ناتجة عن ضمان حسن علاقة الفرد بالفرد بوجه عام، ام عن علاقة الفرد بالدولة باعتباره محكوما وبوصفها حاكمة، ام ناتجة عن علاقة الجماعة والدولة بغيرها من الدولة وهذه

الاعمال كلها لا بد لها من انظمة تضبطها.

وبما ان انظمة الاسلام منبثقة عن فكرة واحدة هي عقيدته، فمن البديهي ان يكون لهذه الانظمة على اختلافها قواعد كلية تجمعها بانسجام. حتى يكون علاجها منسقا للاعمال، منتجاً للمجتمع الاسلامي. بالنظم التي تنظم للانسان القيام بتكاليف الحياة بما يرفع شأن الجماعة ويسعدها، ويحفظ بقاءها، والقيام بالاعمال وفق هذه النظم عبادة لانها يجب تسييرها بالمثل الاعلى رضا لله مقصوداً منها تحقيق اجابة لأمر الله ﴿ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون﴾.

اولاً: النظام الاجتماعي:

يطلق كثير من الكتاب لفظ النظام الاجتماعي على كل علاقات المجتمع ولم نر في هذا التوسع ما ينطبق على اصل مدلول كلمة الاجتماع، والصحيح ان علاقة الرجل بالمرأة هي المنتجة لذلك، فهي اصل الاجتماع ولعل علم الاجتماع انما نشأ عنها. فكان جديراً تسمية هذه العلاقة وحدها بالنظام الاجتماعي، وما عدا ذلك من العلاقات فتسمى انظمة مجتمع لا اجتماع.

فالنظام الاجتماعي الاسلامي متميز فريد، ولا يوجد لدى اية امة نظام اجتماعي صحيح مثله. ولذا يجب ان يكون واضحاً ان النظام الاجتماعي الاسلامي، هو الاحكام الشرعية المنظمة علاقة الرجل بالمرأة.

١ - المجتمع وحده مؤلف من وحدات متماسكة، هي الاسر. ولذلك كان من اهم ما في نظام المجتمع، علاقة الرجل بالمرأة ووجوب تعاونهما لصالح الجماعة.

٢ - كل من الرجل والمرأة انسان كالاخر. وما فطر فيهما من غريزة النوع امر طبيعي لبقاء النوع. وتركه بلا نظام يؤدي الى الفوضى والاضطراب.

٣ - تنظيم غريزة النوع يكون بنظام الزواج، وضمان الفضيلة والصالح بتعاون

المرأة والرجل يقضي ان يكون تعاونهما جماعيا وان يمنعا من كل عمل يثير غريزة الجنس.

٤ - تقسيم اعمال الاسرة وفق التقسيم الطبيعي يقضي بجعل المرأة أمّاً وربة بيت، ويجعل الرجل قوَّاماً على المرأة لما يتمتع به من الصفات المؤهلة للقيادة والمسؤولية.

٥ - يضمن في نظام الزواج تساوي الحرية لكل من الرجل والمرأة في اختيار شريكه. كما يضمن لكل منهما ترك الآخر عند تعذر السعادة الزوجية.

٦ - للمرأة الحق فيما لا يتعارض مع نظام الاسرة ومصحة الامة، فلها ان تشتغل بالتجارة والصناعة والزراعة، وان تنتخب وتُنتخب، بشرط المحافظة على بقاء مجتمع النساء منفصلا عن مجتمع الرجال، وشرط منع الخلوة ومنع التبرج وابداء الزينة، ومنع الاختلاط.

٧ - القضية ذات الموضوع في علاقة الرجل بالمرأة هي الخلق، والمرأة عرض يجب ان يسان بالحجاب.

ثانيا: النظام الاقتصادي:

يبني النظام الاقتصادي الاسلامي على ثلاث قواعد هي:

١ - أن المال لله، والجماعة مستخلفة فيه عن الله لقوله تعالى: وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه.

٢ - ان كنز المال ممنوع، ويجب توظيفه في المجتمع. لقوله تعالى: والذين يكنزون الذهب والفضة..

٣ - ان تداول المال بين المجتمع واجب. ويمنع حصر التداول بين فئة من الناس الاغنياء لقوله تعالى: كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم.

أ - سياسة الاقتصاد الاسلامي:

- ١ - الفكرة الاقتصادية العامة مراعاة مصلحة الجماعة حين النظر لمصلحة الفرد، وان تراعى مصلحة الفرد حين النظر لمصلحة الجماعة.
- ٢ - النظرة العامة للاقتصاد هي انه وسيلة لسعادة الحياة، واستعمال هذه الوسيلة ينبغي ان يكون بتوجيه المثل الاعلى. لان الاقتصاد جزء من الانظمة الاسلامية العامة.
- ٣ - حق الملكية العامة للجماعة طبيعي، وحق الملكية الفردية شرعي، ولذلك تعرف الملكية بانها: الانتفاع بالعين المملوكة انتفاعا شرعيا بسلطان من الشارع.
- ٤ - حدد الشارع وسائل التملك الفردي وهي: العمل والحاجة للمال للحياة وحاجة الجماعة للانتفاع بملكية الفرد. والحاجة الى تفتيت الثروة. وصلة الافراد بعضهم ببعض.
- ٥ - حدد الشارع للفرد حق التصرف في العين المملوكة في التنمية والانفاق لضمان مصلحة الجماعة - ففي الانفاق منعه من التقتير حتى لا يعيش عيش الفقراء، واذا قدر كان للدولة منعه واجباره على الانفاق على من يعولهم عن سعة، لان الدولة لا بد ان تمنع الفقر وعيش الفقراء، ومنعه من الاسراف الى حد الترف، وفي تنمية المال منعه من الفسق والاحتكار والربا، واعتبر المال المأخوذ بهذه الوسائل الممنوعة غير مملوك.
- ٦ - كل ما كان من مرافق الجماعة كالمراعي والاحراش والمناجم والبتروك والطرق وغيرها مما شابهها هي ملك للدولة.
- ٧ - كل ما تقتضي المصلحة العامة بتملكه مما للافراد، كوسائل المواصلات وتوليد الكهرباء وتوريد المياه، فللدولة تملكه بثمنه.
- ٨ - كل ما تأخذه الدولة من غنائم وضرائب واموال مصادرة هو ملك الدولة.

٩ - يمنع الاسلام الربا، ويقوم بيت المال باصدار نقد الدولة، واقراض المحتاجين من الزراع والتجار دون ربا، ويكون بانشاء فرع منه يقوم مقام المصرف.

١٠ - رقة الارض في البلاد المفتوحة ملك للدولة، ومنفعتها ملك للفرد، وتوزع هذه المنفعة حسب الحاجة.

١١ - يجوز استخدام العامل بالأجرة في حدود جهده، ومقابل اجر مواز لجهده، ويمنع استغلاله. وللعامل عند مستأجره من الحقوق والواجبات ما لموظف الحكومة سواء بسواء.

١٢ - تحمل الدول مسؤولية نفقة الافراد وايجاد الاعمال لهم.

١٣ - الزكاة: باب من ابواب الاقتصاد في واردات بيت المال، حددت له المصارف والنفقات، ولا تدخل في شؤون الدولة الاقتصادية، وانما تدخل في باب الواردات المجبية من المسلمين، لان الزكاة مع كونها اقتصادية هي عبادة وجبت حقا على المال. ولذلك كانت في احكامها تخالف احكام باقي النواحي المالية من حيث جبايتها، وتوضع في ميزانية بيت المال في باب خاص بها. ولا التصرف الا للاشخاص الثمانية الذين ذكروا في القرآن. ومن عداهم فلا يصرف له منها شيء. ولذلك لا يجوز ان ينفق منها شيء على شؤون الدولة، واذا لم يوجد من الثمانية تنفق في سبيل الله عند الحاجة.

ثالثا: نظام الحكم السياسي:

١ - الاصل في السلطان للجماعة على الافراد وكل شيء في محيطها، ولذلك فالحكم للجماعة، والدولة نائبة عنها في الحكم.

٢ - شكل الحكم في الاسلام ليس ملكيا ولا جمهوريا، ولا ديمقراطيا ولا ديكتاتوريا، انما هو نظام حكم اسلامي متميز فريد ليس له مشابه.

٣ - رئيس الدولة نائب عن الامة، حتى يحقق سيادة الشرع، مصلحة الجماعة،

ويبقى رئيسا ما دام منفذا للشرع، قائما بمصالح الجماعة، وإذا ادخل استحق العزل بمحكم المظالم.

٤ - انتخاب رئيس الدولة والحكومة يعبر عن رأي الأمة، وطريقة انتخابه تعيينها الأمة.

٥ - الأمة تختار رئيس الدولة. وهي التي تملك حق نزع الثقة من الهيئة التنفيذية والولاية بواسطة مجلس الشورى.

٦ - مجلس الشورى ينتخب من قبل الأمة. وله صلاحية الثقة من الهيئة التنفيذية والولاية فيعزلون، وله صلاحية سن القوانين، لقول عمر لشريح: فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به.

٧ - لرئيس الدولة حق تعيين الهيئة التنفيذية والولاية، وامره هو الذي يجعل القوانين نافذة.

٨ - لرئيس الدولة حق منح السلطة القضائية لشخص او جماعة، وللقضاء سلطته الشاملة على الجماعة والحكومة ورئيس الدولة.

٩ - التشريع من حق الدولة وواجبها، فتأمر بتنفيذ ما تراه من الاحكام الشرعية من آراء الائمة المجتهدين. وما يحدث من مشكلات وحوادث ولا يكون فيها نص وتأمر هي بتنفيذ الاحكام المختارة بعد موافقة مجلس الشورى مما يستنبطونه ويلزم الناس باتباع الحكم الذي تأمر بتنفيذه.

١٠ - المركزية: وهي اشراف المركز العام للدولة واجبة في الحكم لوقاية اجزاء الدولة من التجزئة، واللامركزية واجبة في الادارة حتى تعالج المشاكل الجزئية بسرعة من قبل مبشري الادارة.

١١ - الاقاليم والولايات في الدولة واحدة، ولأهلها سائر الحقوق التي لأهل

المركز العام.

١٢- الجماعة التي تحكم حسب النظام الاسلامي واحدة، بغض النظر عن طائفتها وجنسها.

١٣- علاقة الحكام بالمحكومين قائمة على اساسين: احدهما العدل من الحكام، والطاعة من المحكومين والثاني الشورى بين الحاكم والمحكوم.

١٤- وظيفة الدولة الاساسية هي تنفيذ الاسلام في الداخل، وحمل الدعوة الى الخارج:

١- تنفيذ التشريع وتحقيق سيادة الشرع وايجاد التوجيه في الداخل.

٢- حماية الحقوق الطبيعية، ومنها تعميم التعليم ورفع مستواه والضمانات الصحية.

٣- تنفيذ النظام الاقتصادي.

٤- تحقيق النظام: الامن الداخلي وحماية ثغور الدولة الخارجية.

٣- العلاقة بين النظرية الكونية والقيم السلوكية

قال الامام الخميني: من الامور التي لا يشكك فيها اي باحث عن الاسلام. ان العلاقة بين النظرة الكونية والقيم السلوكية تنطوي على تصور كامل للكون والحياة والانسان وعلى منهج شامل لنواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

هذه الحقيقة ادركها المستعمرون جيدا وفهموا انهم لا يستطيعون فرض سيطرتهم ومناهجهم على الامة مع مثل هذا الدين. الذي يربط السلوك بالعقيدة، التي هي افكار الاسلام ومفاهيم، وهي ضوابط لسلوك الانسان في الحياة. بأحكام شرعية لمعالجة اعمال الانسان وتعيينا لكيفية سلوكه.

لذا كان لزاما على المسلم ادراك ان نصوص الشريعة قد جاءت للعمل بها وجاءت

خاضعة بسلوكه في الحياة، اي يجب على المسلم ادراك ان الاسلام جاء بمفاهيمه لضبط سلوكه في الحياة فيأخذ كل فكرة قانونا لضبط سلوكه ضمن هذا القانون فتظهر فيه الناحية العملية لا التعليمية. فيفقد بذلك حرارة الحياة الموجودة فيه ويفقد كونه مبدأ كاملاً شاملاً اي عقيدة ينبثق عنها نظام متكامل شامل.

ومن هنا كانت معرفة الافكار الاسلامية والاحكام الشرعية دون ملاحظة اعتبارها ضوابط للسلوك الانساني هي الآفة التي لم تجعل للافكار والاحكام اثرا في سلوك الكثيرين.

ولقد حرص الاسلام على تكوين الشخصية الاسلامية بالعقيدة فيها تتكون عقليته ونفسيته. فالعقيدة الاسلامية هي التي تفكر على اساس الاسلام، اي تجعل الاسلام وحدة المقياس العام للافكار عن الحياة، والنفسية الاسلامية هي التي تجعل ميولها كلها على اساس الاسلام، اي تجعله وحدة المقياس العام للشباعات جميعها. وكما امر الاسلام بالاستزادة من الثقافة الاسلامية لتنميتها حتى تصبح قادرة على قياس كل فكر من الافكار، فكذلك امر بالواجبات والاكتثار من المندوبات والمستحبات، ونهى عن المحرمات والمكروهات والشبهات لتقوى هذه النفسية وتصبح قادرة على ردع كل ميل يخالف الاسلام، وكل ذلك لترقية هذه الشخصية بالقيم السلوكية، لتنال رضوان الله في الدنيا والآخرة بتسيير ميولها حسب اوامر الله ونواهيه.

وبذلك يحدث ارتباط بين العقلية والنفسية الاسلامية وتصبح الشخصية الاسلامية متميزة، عقليتها ونفسيتها من جنس واحد، تستندان الى قاعدة اساسية واحدة هي العقيدة التي ربط الله بينها وبين العمل فقال تعالى: ﴿الذين امنوا وعملوا الصالحات﴾ وربط النبي بين العقيدة والسلوك فقال: لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به.

أ - نظرة الاسلام للانسان:

رعى الاسلام الانسان رعاية فائقة. باعتباره جزءا من المجتمع لم يسبقه بهذه الرعاية دين، ولن يلحقه مبدأ حتى قيام الساعة فالنبي بين هذه الجزئية بيانا شافيا في حديثه فقال: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو انا خرقتنا في نصيبنا خرقتا ولم نؤذ من فوقنا فان تركوهم وما ارادوا هلكوا جميعا وان اخذوا على ايديهم نجوا جميعا.

ثم اوضح عليه السلام جزئية الفرد من الامة فشبه الامة بالجسد الواحد فكان الفرد جزءا غير منفصل عنها، بل هو جزء منها فالامة تعمل للمحافظة على الفرد، والفرد يعمل لمصلحة الامة لقول النبي: مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

لذلك كان الاسلام يراعى شؤون الافراد والجماعات باعتبارهم امة واحدة رعاية تضمن لهم الاطمئنان والسعادة وتوفر لهم الاستقرار والرفاهية في الحياة.

ب - نظرة الاسلام للحياة:

ان الانسان ارقى عناصر الوجود فحياته ارقى نماذج الحياة. وارقى نماذج الكون من افلاك وكواكب وسماوات وارضين وغيرها.

ولذلك كان بالحس والمنطق ارقى عناصر الوجود. وما يصدق على الانسان يصدق على الانسان يصدق على الانسان يصدق على الحياة والكون بالاولى.

واذا نظرنا الى هذا الانسان نجده محدودا لانه ينمو في كل شيء الى حد معين. فهو بدأها محدودا ودليل على وجود غير المحدود المختلف عن المحدود قطعاً فكان لا بد ان يكون غيره. وبما ان المحدود مادة فغير المحدود غير مادة وغير مدرك

للمحدود وهو الله.

وبما ان المحدود لا ينشأ من نفسه، فلا بد ان يكون المحدود ناشئا عن غير المحدود ومخلوقا له، فكان هذا الوجود مخلوقا لله وحياته محدودة. وعلى ذلك فان وراء الكون والحياة والانسان خالقها، ومنظمها بنظام علاقاتها وقيمها.

ج - نظرة الاسلام للكون:

ان الكون في الاسلام محدود لانه مجموع اجرام وكل جرم منها محدود ومجموع المحدودات محدود بدهاة، فالكون محدود. وعلى ذلك فالانسان والحياة والكون محدودة قطعاً. فالنظر الى اي كوكب في الكون، والتأمل في أي مظهر من مظاهر الحياة وادراك اي ناحية في الانسان، ليدل دلالة قطعية على وجود الله.

ولذلك نجد القرآن يلفت النظر الى الاشياء ويدعو الانسان الى النظر اليها وما حولها وما يتعلق بها، ويستدل بذلك على وجود الله في مئات الآيات كقوله تعالى: ﴿ان في خلق السموات والارض، واختلاف الليل والنهار، آيات لأولى الالباب﴾. وقوله: ﴿افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت، والى الجبال كيف نصبت، والى الارض كيف سطحت﴾.

وقال: ﴿فلينظر الانسان مم خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب﴾. ﴿ان في خلق السموات والارض، واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة﴾.

متى انتهى الانسان من هذه النظرة الكونية ينتقل الى الفكر عن الكون والانسان والحياة وايجاد القيم والمفاهيم المنتجة عنها. وهو الاساس الذي يقوم عليه المبدأ المتخذ وسيلة للنهوض، وهو الاساس الذي تقوم عليه حضارة، وتنبثق عنه انظمة

وتقوم عليه دولة.

٤- العلاقة بين الدين والدنيا والدولة:

للإسلام طريقة جعلت المعتقد له يحيا حياة خاصة. تدفعه هذه الطريقة للربط بين الدين والدنيا فيبذل جهده لينال أكبر قسط ممكن من متع الحياة المشروعة استجابة لأمر الله في قوله: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ والمسلم يدرك ان هذه المتع انما هي وسيلة للآخرة.

وان شريعة الاسلام تأمر بوجود الحكم والسلطان ففي القرآن الكريم كتاب الاسلام المنزل آيات تدل على ذلك منها قوله تعالى ﴿فاحكم بينهم بما انزل الله﴾. ﴿ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون﴾، و﴿ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون﴾، ﴿وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه * ومهيمننا عليه فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهوائهم عما جاءك من الحق﴾، ﴿انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس﴾، ﴿يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم﴾، ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾.

وهناك الآيات الكثيرة الدالة على تفصيلات جوانب الحكم، ومنها التشريع السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وهكذا تجد الخطوط العريضة للانظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واضحة في مئات الآيات وآلاف الاحاديث والكتب الفقهية. كما قال الخميني: ذات علاقة قوية بالسياسة والاقتصاد والاجتماع.

فلو لم يكن في صميم الاسلام بناء دولة فلماذا نزلت هذه الآيات؟ ومن يطبق ما فيها من الاحكام؟ وزيادة على ذلك فان الواقع التاريخي في سيرة الرسول وحياة الصحابة ايام حياته ومن بعده يدل دلالة واضحة على ان الاسلام كان نظاما للدولة

والحياة.

وإذا انكر المنكرون على الإسلام: ان فيه اساسا لبناء دولة تنفذ الاحكام وتسوس الامة فماذا يقولون عن نصوصه التي هي صريحة في الحكم؟ وكيف يغمضون اعينهم عما كان يفعل الرسول من ارسال الولاة والمعلمين الى الاقاليم، ليحكموا بين الناس في امورهم ويعلموهم الاسلام ديننا فيه العبادة والنظام.

ان الاسلام نظام للدولة والحياة والامة ولا تملك الدولة الاسلامية الحكم الا اذا كانت تسير وفق نظام الاسلام، ولا يقوى وجود الاسلام الا اذا كان حيا في دولة تنفذ احكامه، فالاسلام دين عام والدولة جزء منه وهي الوسيلة لتنفيذه والحكم قاعدته.

أ - الخلافة اصطلاحا دين ودنيا

ولقد عرفها الفقهاء في الاصطلاح الخاص تعريفات كثيرة، اختلفت في الالفاظ واتفقت في المعاني وعرفها الماورد^(١) بانها «موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا به» والخلافة في العرف الخاص: «الزعامة العظمى» وفرق الشيعة بين الخلافة والاقامة في العموم والخصوص، فعرف آل ياسين^(٢) الامامة بانها: «رئاسة دينية ودينية والخلافة: رئاسة خاصة بالدنيا والدولة».

ولا داعي لهذه التفرقة لان المقصود بالخلافة عند السنة هي «خلافة في الدين والدنيا عند الماوردي» وهي «الولاية العامة على شؤون المسلمين من دينية ودينية»^(٣).

يتبين لنا من التعاريف الاصطلاحية للخلافة اتفاق الفقهاء على معنى الخلافة.

(١) الماوردي: الاحكام السلطانية ص ٥.

(٢) آل ياسين: الامامة ص ١٧.

(٣) عطية الله: القاموس السياسي ص ٥٠٥.

وهذه التعاريف تقدم الدين وكلها تربط بين الدين والدنيا عنصريين اساسيين من عناصرها وتتفق في العنصر الثالث وهو أنها: خلافة عن النبي في امته لحفظ الدين وسياسة الدنيا به. فهي نيابة عنه في تنفيذ اوامر الله وامضاء احكامه، فالسيادة للدين على الدنيا عند الماوردي وابن خلدون^(١) الذي يرى ان السياسة الدينية هي المثلى العائدة بالخير والمؤدية للسعادة في الدنيا والآخرة.

ولذلك تخضع الدنيا لسياسة الدين وتوافقه كما يرى الشافعي^(٢) انه لا سياسة الا ما وافق الشرع اي سيادة الدين على الدولة والسياسة.

وفي كتابات الفقهاء والمفكرين المسلمين نجد الربط والتلازم بين الدين والدنيا فيرى الماوردي^(٣): «ان الدين محروس بسلطانه، فاذا فصل الدين وزال السلطان بدلت احكام الدين». ويرى الغزالي^(٤) «ان نظام الدين لا يحصل الا بنظام الدنيا. لحديث ابن عباس قال: «الدين والسلطان اخوان توأمان، لا يصلح احدهما الا بالآخر، فالدين أس والسلطان حارس، وما لا أس له فمهذوم وما لا حارس له فضائع».

ان تحليل هذه الآراء يدل على اجماع الفقهاء على ان الاسلام دين ودنيا. وجملة القول: في تعريف الاسلام عند شاخت^(٥) «انه نظام كامل من الحضارة يشمل الدين والدولة معا».

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ١٩٥.

(٢) الصالح: النظم الاسلامية ص ٢٥٤.

(٣) الماوردي: ادب الدنيا والدين ص ١١٥.

(٤) الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٣٥.

(٥) شاخت: تراث الاسلام ص ٩.

ب - الخلافة مفهومها: دين ودولة

تبين لنا من تعريف الخلافة اصطلاحاً مفهوم السنة الخاص للخلافة الذي يختلف عن مفهوم الشيعة العام. الذي يعرفها بانها «امامة دينية ودينية وخلافة عامة عن الله»^(١) كما عرفها مفكروهم بانها هي «الرئاسة العامة الالهية خلافة عن الرسول في امور الدين والدنيا»^(٢) فهي جزء متمم للرسالة عندهم منحته البشرية - ممثلة بآدم - وهي مكلفة رعاية الكون وتدير امر الانسان والسير بالبشرية للخلافة الربانية، هذا هو مفهوم الشيعة الاساسي عن الخلافة وهو يختلف عن مفهوم السنة الذين يرون: أنها منصب ديني وديوي للبشر للحكم بالاسلام وسياسة الدنيا به ينشره، لان الخلافة الشرعية الخاصة عندهم هي التي تقود للخلافة الكونية العامة بعكس مفهوم الشيعة العام الذي يقود الى الخلافة الخاصة. والنتيجة: ان الخلافة بمفهوم الاسلام اصيلة عند ضناوي^(٣) وعلى ضوءها يفسر الاسلام دور الانسان في الوجود «الكون والانسان والحياة». لانه خليفة مستناب مستخلف لاداء الامانة وهي: منهج الله في الحياة في مختلف شؤونها: السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتحقيق غاية وهي: تحقيق عبودية الانسان لله في جميع نواحي الحياة، واداء وظيفة الخلافة الشرعية واهميتها بالنسبة للحياة البشرية، والخلافة بهذا المفهوم تحتاج الى سلطة تشرف على تنفيذ متطلباتها، والقيام بأعبائها. واما الفصل بين الدنيا والآخرة. وبين الدين والدولة فلم يعرفه الاسلام والمسلمون ولم يقل به احد منهم بفكرة فصل الدين عن الدولة التي هي من تقليد الفكر الغربي اقتبسها العرب والمسلمون منه وصاروا يرددون هذه الفكرة الحديثة الغربية التي

(١) آل ياسين: الامامة ص ١٨.

(٢) الصدر: الخلافة ص ٢١.

(٣) ضناوي: الطريق الى حكم اسلامي ص ٢٦.

غزتهم بالدعوة إليها في كتاباتهم ومنهم: المعلوف^(١) «الذي يرى ان فصل الدين عن الدنيا امر واجب لتقدم الشرق ودخول دائرة المدينة والتمتع بالحرية» وهذه رؤية غربية تناقض الحقيقة التاريخية والواقع الذي عرفه المسلمون.

ويرى الشيخ علي عبدالرزاق^(٢) «ان الاسلام دين لا دولة، ويفصل بين الدين والسياسة» وهذه رؤية غير اسلامية ينقصها الاسلام والمسلمون ومنهم شيخ الازهر: الخضر^(٣) حسين الذي يرى «ان فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم حقائق الدين ولا يقدم عليه المسلمون الا بعد ان يكونوا غير مسلمين» ويرى شيخ الاسلام صبري^(٤) «انه بفقدنا الخلافة اضعنا الدين والدنيا». وعقيدة فصل الدين عن الدولة: «هي تعطيل آيات الحكم والسلطان وآيات العقوبات والمعاملات وايمان بآيات العبادات اذ هي فصل الآيات التي هي قوام الدولة والمجتمع عن الدولة والغاؤها لقوله تعالى: ﴿تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾».

والذي يعتبر ان نظام الاسلام غير صالح لقيام دولة عصرية هو اما انسان جاهل واما كافر مرتد عن الاسلام. ولهذا ننبه المسلمين حكاما ومحكومين الى ما هم في غفلة عنه ومما قد عم بلاؤه وغلب افتائه على الاسلام ألا وهو: اعناق آلاف الشباب لهذه العقيدة اما عن جهل بأنها كفر واما عن اعتقاد بها وكفر صريح بالاسلام.

فيجب انقاذ هؤلاء الشباب من حمأة الكفر التي تردوا بها. اما الذين اعتنقوها عن علم كالحكام والعلماء والمتعلمين اعتقاداً بها وكفروا بالاسلام دولة فهؤلاء اعداء

(١) المعلوف: تركيا الجديد ص ٢٤.

(٢) حبيب: فصل الدين عن الدولة ص ٤٩.

(٣) عبدالرزاق: الاسلام واصول الحكم ص ١٣٥.

(٤) صبري: الرد على منكري الخلافة والدين ٨٩.

للإسلام. فواجب المسلمين: الأخذ على أيدي هؤلاء وحفظ الدين وابتنائهم من هذه العقيدة الضالة المضلة فانها أصبحت اخطر عقائد الكفر على المسلمين وصدق الرسول بتحذيره لنا منها بقوله:

«لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة».

ونتيجة تحليل هذه الأقوال الحققة هي حقيقة ان الإسلام دين ودولة باجتماع الفقهاء والمفكرين المسلمين على القول بهذه الفكرة، فجميع كتب الفقه والسياسة تجمع بين الدين والدنيا واقعا مسلما به ليس بموضوع جدل ولا نقاش لان الإسلام يختلف عن سائر الأديان والنظم. فلا يصح قياسه بسائر النظم الموضوعة او نقارنه ونشبهه بها، فلا هو ملكي ولا جمهوري ولا دستوري ولا نيابي ولا شيوعي ولا اشتراكي ولا ديمقراطي رأسمالي، اي انه لا شيء من ذلك، بل هو نظام خاص متميز فريد اسمه الإسلام والخلافة فيجب دراسته على هذا الأساس، والذين حاولوا مقارنته بغيره وتشبيهه بنظام معين معروف قالوا: انه ديمقراطي فكتبوا الديمقراطية في الإسلام، او اشتراكي فكتبوا عن الاشتراكية في الإسلام وما شاكل ذلك، كلهم مخطئون والخلافة لا تشبه الملكية ولا الجمهورية فالخليفة يمثل الدين والدولة معا. ووجه الامام الخميني حديثه للشباب فقال: لا تدعوا الناس يتصورون ان الإسلام كالمسيحية. بتنظيم علاقة الفرد بربه.

الاسلام دين ودولة

اولا: الاسلام الدين والحركة:

أ- نقطة الابتداء:

حين بعث النبي دعا زوجته خديجة فأمنت به، ثم دعا ابن عمه علي فأمن به، ودعا صديقه ابا بكر فأمن به ثم صار يدعو الناس ولما أسلم ابو بكر اظهر اسلامه لمن وثق به ودعا الى الله ورسوله. وكان رجلا مؤلفا لقومه محببا، وكانوا يأتون اليه ويألفون لعمله وحسن مجالسته، فأسلم على يده عثمان، والزبير وابن عوف، وابن ابي وقاص، وطلحة، وجاء بهم الى النبي حين استجابوا له فأسلوا وصلوا، ثم اسلم ابو عبيدة وابو سلمة والارقم وغيرهم ثم دخل الناس في الاسلام ارسالا من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الاسلام بمكة وتحدث الناس به.

وكان النبي يطوف على الناس في اول امره في منازلهم، ويقول: ان الله يأمركم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وكان يتصل بالناس يعرض عليهم دينه وينظمهم حوله على اساس هذا الدين سرا، وكان اصحاب النبي اذا صلوا ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم.

وكان النبي يرسل لمن يدخل في الاسلام جديدا من يعلمه الاسلام والقرآن ممن اسلموا من قبل، فقد ارسل خباب يعلم زينب بنت الخطاب وزوجها سعيدا القرآن، واسلم عمر على يد هذه الحلقة. ولم يكتنف النبي بذلك بل اتخذ له دار الارقم يعلم فيها المسلمين الاسلام ويجعلها مركزا لهذه الكتلة المؤمنة، ومدرسة لهذه الدعوة الجدية فقد كان فيها يجمع المسلمين يقرئهم القرآن، ويبينه لهم ويأمرهم باستظهاره وفهمه ومكث ثلاث سنين يتقف المسلمين ويصلي بهم ويتجهد ليلا، فيبعث فيهم

الروحانية بالصلاة والتلاوة، ويثير فيهم الفكر بالتأمل في آيات الله والتدبر في مخلوقاته، ويثقف عقولهم بمعاني القرآن والفاظه، ومفاهيم الاسلام وافكاره، ويأخذهم بالصبر على الاذى ويروضهم على الطاعة والانقياد، حتى خلصوا لله..

ب - تنظيم الصحابة:

كان النبي في اول امره يدعو من آانس فيه الاستعداد لقبول هذه الدعوة بغض النظر عن جنسه واصله، وكان يدعو جميع الناس ويتحرى استعدادهم للقبول، وقد اسلم كثير منهم وكان يحرص على تثقيف جميع الذين يعتقدون الاسلام باحكام الدين ويحفظهم القرآن فتكتل هؤلاء وحملوا هم الدعوة، وقد بلغ عددهم اربعين شخصا ما بين رجل وامرأة من مختلف البيئات والاعمار اكثرهم من الشباب فيهم الغني والفقير. وقد آمن به ولازمه ودأب على الدعوة معه كل من: علي والزبير وطلحة والارقم وابن مسعود وسعيد بن زيد وسعد ابن ابي وقاص وسعود بن ربيعة وجعفر وصهيب الرومي وزيد بن حارثة وعثمان بن عفان وطليب وخباب وعامر بن فهيرة ومصعب بن عمير والمقداد وعبدالله بن جحش وعمر بن الخطاب وابو عبيدة وعتبة بن غزوان وابو حذيفة وبلال الحبشي وعياش بن ربيعة وعامر بن ربيعة ونعيم بن عبدالله وعثمان بن مظعون وعبدالله وقدامة والسائب ابنا مظعون وابو سلمة وابن عوف وعمار وابو بكر وحزمة وعبيدة بن الحارث. كما آمن عدد من النساء ولما نضح هؤلاء الصحابة في ثقافتهم وتكونت عقليتهم الاسلامية واصبحت نفسياتهم اسلامية في مدة ثلاث سنوات اطمأن النبي عليهم ورأى ادراكهم لصلتهم بالله بارزة آثارهم على اعمالهم اذ صارت كتلة المسلمين قوية قادرة على مجابهة المجتمع كله.

ج - انطلاق الدعوة: التفاعل والكفاح:

كان امر الدعوة الاسلامية ظاهرا من اول يوم بعث به النبي وكان الناس في مكة يعرفون ان محمدا يدعو لدين جديد ويعرفون انه ينظم اصحابه ويعرفون ان المسلمين يستخفون عن الناس في تنظيمهم وفي اعتناقهم الدين الجديد وكانت هذه المعرفة تشعر ان الناس كانوا يحسون بالدعوة الجديدة، ويحسون بوجود مؤمنين بها، وان كانوا لا يعرفون اين يجتمعون ومن هم هؤلاء الذين يجتمعون ولذلك لم يكن اعلان النبي للإسلام شيئا جديدا على كفار مكة وانما كان الشيء الجديد ظهور هذه الكتلة المؤمنة للناس فقد اسلم حمزة ثم اسلم عمر فاشند ساعد المسلمين ونزل على النبي قوله تعالى ﴿فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين﴾ فصدع النبي بأمر الله واطهر امر التنظيم علنا للناس جميعا. وكان اسلوب اظهار النبي لأمر هذا التنظيم انه خرج في اصحابه بصفين كان على رأس احدهما: حمزة وعلى رأس الثاني: عمر، وذهب بهم النبي الى الكعبة في نظام دقيق لم تعهده العرب من قبل فطاف بهم الكعبة، وانتقل النبي بذلك في اصحابه من دور الاستخفاء الى دور الاعلان، ومن دور الاتصال بمن يأنس فيهم الاستعداد الى دور مخاطبة الناس جميعا، فبدأ الاصطدام بين الايمان والكفر في المجتمع وبدأ الاحتكاك بين الافكار الصحيحة والفاصلة، وبدأت المرحلة الثانية وهي مرحلة التفاعل والكفاح.

وبدأ الكفار يقاومون الدعوة ويؤذون النبي واصحابه بجميع انواع الاذى، وهذه الفترة هي اشد ما عرف روعة في العصور جميعها، فلا يزيد النبي ذلك كله الا صبرا وامعانا في الدعوة، وكان المسلمون يهددون ويؤذون، فقد وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، وكان المسلمون بالجملة يضربون وتوجه اليهم اشد صور المهانة فكانوا يصبرون على كل ذلك ابتغاء رضوان الله.

د - مقاومة الدعوة:

حين بعث النبي بالاسلام تحدث الناس عنه وعن دعوته، وكانت قريش اقلهم حديثا، لانهم لم يعنوا به اول امره وظنوا ان حديثه لن يزيد عن حديث الرهبان والحكماء، ولذلك لم ينفروا منه ولم ينكروا عليه واستمر على ذلك الا انهم بعد ان مضت مدة قصيرة على دعوته وبدأوا يحسون بخطورة هذه الدعوة اجتمعوا على خلافة وعداوته ومحاربتة، بالحط من شأنه وبتكذيبه، ثم تقدموا اليه يسألونه عن معجزاته التي يثبت بها رسالته، وهكذا صاروا يهاجمون النبي ودعوته بأسلوب تهكمي لاذع، ولكن ذلك لم يثنه عن دعوته بل استمر يدعو الناس الى الاسلام ويذكر الاصنام ويعيبها ويطن عليها ويسفه عقول عبدها، فعظم الامر عليهم واستعملوا جميع الوسائل لارجاعه عن دعوته فلم يفلحوا وكان من اهم الوسائل التي اتخذوها لمقاومة هذه الدعوة وسائل ثلاثة:

- ١ - التعذيب للرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين.
- ٢ - الدعاية الداخلية والخارجية ضد الاسلام والمسلمين.
- ٣ - المقاطعة.

اما التعذيب فقد كان يقع على النبي وعلى اتباعه المسلمين جميعا، وقد تفننوا في ايقاع الاذى واستعملوا جميع صنوفه، فما زادهم ذلك الا ثباتا وايمانا، وهكذا استمرت قريش في تعذيب النبي واصحابه. ولما رأت قريش ان ذلك لم يفدها لجأت الى سلاح آخر هو: سلاح الدعاية ضد الاسلام والمسلمين في كل مكان، واستعملت الدعاية بكل نواحيها، ضد العقيدة الاسلامية وصاحبها، واتهامه فيها واتهامها لذاتها، واخذوا يكذبون على الرسول ولكن هذه الدعاية لم تنفع ولم تحل بين الناس وبين دعوة الاسلام.

وكانت قريش تشيع الاحاديث بين الناس ان ما يقوله محمد انما يعلمه اياه غلام نصراني، وانه ليس من عند الله، وروجت هذه الشائعة كثيرا حتى رد الله عليهم فقال: ﴿ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾.

وهكذا استمرت دعاية قريش داخل الجزيرة العربية وخارجها في الحبشة، ولكن النجاشي سأل المسلمين ما هذا الدين؟ وهل معكم مما جاء به رسولكم عن الله فقراً عليه جعفر من سورة مريم من أولها فلما سمع البطارقة هذه قالوا: هذه كلمات تصدر من النبع الذي صدرت منه كلمات المسيح، وقال النجاشي ان هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. فقال لجعفر ما تقوله في عيسى؟ فقال جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا، يقول: ليس بين دينكم وديننا اكثر من هذا الخط. وهكذا اخفقت جميع اساليب الدعاية وكانت قوة الحق الذي يدعو اليه الرسول عليه الصلاة والسلام في الصورة الواضحة التي تتجلى على لسانه تعلق على جميع الدعايات وكان نور الاسلام حين يشرق يبدد جميع الاشاعات والدعايات.

فلجأت قريش الى سلاح ثالث وهو سلاح: المقاطعة، وانفقوا جميعهم على مقاطعة الرسول واقاربه من بني هاشم وعبدالمطلب مقاطعة تامة اقتصادية واجتماعية. واعتقدوا ان سياسة المقاطعة ستكون افعال اثر من التعذيب والدعاية. واقاموا على هذا الحصار ثلاث سنين، وكانوا ينتظرون ان يترك المسلمون اسلامهم الا ان ذلك لم يزداهم الا اعتصاما بحبل الله جميعا وتمسكا بدين الله، وحماسة في سبيل الدعوة الى الاسلام، ولم يزد الذين آمنوا الا صلابة وقوة ولم يحل دون انتشار الدعوة الى الاسلام في مكة وخارجها وصار ذكر الاسلام يفسو في الجزيرة.

الا ان المقاطعة استمرت والتجويع ظل سار على المسلمين يعانون من آلام الجوع

والحرمان وألوان الفاقة والعوز النبي واهله ولكنه استمر على دعوته، حتى ازداد عدد المسلمين وهكذا اخفقت وسائل قريش في التعذيب والدعاية والمقاطعة، ولم تستطع ان تفتن المسلمين عن دينهم ولا ان ترجع النبي عن دعوته حتى اظهرها الله رغم الصعاب والعقبات.

هـ- تفاعل الدعوة:

كان اصطدام قريش بالدعوة الاسلامية امرا طبيعيا، لان النبي حمل الدعوة واطهر التنظيم متحديا، وفوق ذلك فقد كانت هذه الدعوة بذاتها تتضمن: كفاح قريش والمجتمع في مكة لانها كانت تدعو لتوحيد الله وعبادته وحده والاقلاع عن النظام الفاسد الذي يعيشون عليه فاصطدمت بقريش اصطداما كليا بتسفيه احلامهم وتحقير آلهتهم والتنديد بحياتهم الرخيصة، والنعي على وسائل عيشهم الظالمة، ينزل القرآن فيهاجمهم ويقول لهم بصراحة:

﴿انكم وما تعبدون من دون الله حطب جهنم﴾ ثم يهاجم الربا الذي يعيشون عليه مهاجمة عنيفة من اصوله فقال: ﴿وذروا ما بقي من الربا فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ وبهذا اخذوا يقفون في وجهه، ويؤذون النبي واصحابه بالتعذيب تارة والمقاطعة تارة اخرى وبالدعاية ضده وضد دينه، غير انه يهاجمهم واستمر على كفاح الآراء الخاطئة وهدم العقائد الفاسدة والمجاهدة في سبيل نشر الدعوة.

وكان يدعو للإسلام بكل صراحة لا يلين ولا يستكين ولا يحابي ولا يدهن رغم ما لاقاه من قريش من صنوف الاذى ومع انه فرد اعزل لا معين له ولا نصير ولا سلاح فانه جاء سافرا متحديا، يدعو لدين الله بقوة وايمان فكان لذلك كله الاثر في التغلب على الصعوبات التي كانت تضعها قريش في وجهه لتحويل بينه وبين الناس. وقد استطاع النبي الوصول الى الناس وتبليغهم، فأقبلوا على دين الله واخذت قوة الحق

تعلو على الباطل واخذ نور الاسلام يزداد كل يوم انتشارا بين العرب، فأسلم الكثير من عباد الاصنام ومن النصارى، وبذلك ازداد امر النبي ظهورا وازداد شوق الناس لسماع القرآن.

وهكذا سرت الدعوة في كل مكان رغم ما تضعه قريش في وجهها من عقبات فزادت من اذى الصحابة والنبي فخرج الى الطائف يلتمس من ثقيف النصره والمنعة ويرجو اسلامهم، لكنهم ردوه بشر جواب، بالسب والضرب حتى ادميت قدماه، ثم عاد الى مكة، فازدادت اذى له، فانصرف عنه اهل مكة، فلم يصرفه ذلك عن الدعوة، وجعل يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم الى الاسلام، وهكذا اعرضت مكة عن الاسلام واعرض اهل الطائف عن النبي وردت القبائل دعوة الاسلام، فازدادت اعراضا عنه وزاد ذلك النبي عزلة عن الناس وصارت الدعوة صعبة في مكة.

و- ادوار الدعوة:

مرت الدعوة بدورين من ادوارها حيث سار النبي في مكة في دورين متتالين هما: اولهما: دور التعليم والتثقيف والاعداد الفكري والروحي. وثانيهما: دور نشر الدعوة والكفاح.

فالدور الاول: دور فهم الافكار وتجسيدها في اشخاص وتنظيمهم حولها. والدور الثاني: دور نقل هذه الافكار الى قوة دافعة في المجتمع تدفعه لأن يطبقها في الحياة. لان الافكار تبقى مجرد معلومات ما دامت لم تطبق فهي مخزونة في مكان في الكتب او في الادمغة، ولذلك لا قيمة للافكار اذا لم تنتقل الى تطبيق لها في الحياة. والافكار لكي تطبق لا بد ان تمر بدور تحويلها من فكر الى قوة دافعة في الناس، فتؤثر بها الجماهير وتفهمها وتحملها، وتكافح في سبيل تطبيقها، وحينئذ يصبح تطبيقها امرا

حتمياً ونتيجة طبيعية. وهكذا سار النبي بالدعوة في مكة في هذين الدورين:
 اما الدور الاول: فهو دور دعوة الناس للإسلام وتثقيفهم بأفكاره وتلقينهم
 احكامه، وتنظيم من يستطيع التنظيم على اساس العقيدة الاسلامية وهذا الدور هو دور
 التنظيم السري في الدعوة وذلك ان النبي كان لا يفتقر عن الدعوة ويدأب على تثقيف
 من يدخلون في الاسلام بالافكار. ويجمعهم في دار الارقم، ويرسل من يتفهم كتلة
 في حلقات فيجتمع المسلمون في بيوتهم سراً، وفي شعاب الجبال، وفي دار الارقم
 سراً ويتكلمون، ويزداد كل يوم ايمانهم وصلاتهم ببعضهم ويزداد كل يوم ادراكهم
 لحقيقة المهمة التي يحملونها فيستعدون للتضحية في سبيلها. حتى غرست الدعوة في
 نفوسهم، وسرى الاسلام فيهم سريان الدم في اجسامهم، فأصبحوا اسلاماً يمشي في
 الطريق، فآخذوا يتحدثون الى من يثقون بهم، والى من يأمنون منهم استعداداً لقبول
 الدعوة وبهذا احس الناس على دعوتهم واحسوا على وجودهم فاجتازت بذلك
 الدعوة نقطة الابتداء ومخاطبة الناس جميعاً بها، وبذلك انتهى الدور الاول وهو: دور
 التنظيم السري والتثقيف الذي يبني هذا التنظيم، وصار لا بد من الانتقال الى الدور
 الثاني: التفاعل والكفاح.

ثانياً: الاسلام الدولة

مقدمة:

لم يع الجيل الحاضر على الدولة الاسلامية المطبقة للإسلام فان من اصعب ما يجد
 المسلم تقريب صورة الحكم الاسلامي الى اذهان يسيطر عليها الواقع، ولا يستطيع
 تصور الحكم الا في مقياس ما نرى من الانظمة الديمقراطية الفاسدة المفروضة على
 البلاد الاسلامية.

والصعوبة في تحويل هذه الاذهان المطبوعة بالثقافة الغربية، كسلاح شهره الغرب في وجه الاسلام، طعن فيه المسلمين وقال لهم مفتخرا: لقد قتلت امكم العجوز العثمانية، ومدوا ايديهم يصفحون القتال، وما يزال سلاحه هذا مخضبا بدماء امهم، كفعل الضبع، فمن لي بأصحاب هذه الاذهان المطبوعة بمعرفة هذا السلاح المسموم الذي قضى على دولتهم وان هذه الافكار التي يحملونها من القومية وفصل الدين عن الدولة ومن آراء تطعن بالاسلام هي بعض السموم التي حملتها لهم الثقافة التبشيرية، بقصد محو الاسلام، مع الغزو التبشيري. لقد غفل المسلمون عن خطر هذه الثقافة، وصاروا يحاربون المستعمر ويتناولون من ثقافتهم، مع أنها هي سبب استعمارهم وبها يتركز الاستعمار في بلادهم ولينظروا بعد هذا كم يكون منظرهم متناقضا ومضحكا معا، وهم يديرون ظهورهم للاجنبي يدعون محاربتة ويمدون اليه ايديهم من خلف ليتناولوا بكلتا ايديهم سموه القاتلة يتجرعونها فيسقطون بين يديه هلكى يحسبهم الجاهل شهداء نزال، وما هم الا صرعى غفلة وضلال.

ماذا يريدون؟ يريدون دولة على غير اساس الاسلام؟ ام يريدون دولا كثيرة ليتم خطته في ابعاد الاسلام عن الحكم، لقد اعطاهم الغرب منذ صار الامر اليه دولا كثيرة، بتقسيم بلاد المسلمين الى ٤٥ دولة وفي تخديرهم بالتافه من السلطان.

ان الامر ليس في قيام دول وانما هو في قيام دولة واحدة عالمية في العالم الاسلامي كله، وان الامر ليس في قيام دولة تسمى اسلامية وتحكم بغير ما انزل الله بل في قيام دولة اسلامية تحكم بالقوانين الاسلامية عن عقيدة وتطبق الاسلام في المجتمع وتحمل الدعوة الاسلامية الى العالم كما حملتها الدولة الاولى.

ليست الدولة الاسلامية خيالا بداعب الاحلام، فهي حقيقة تاريخية في الماضي والحاضر والمستقبل، وهي امنية الامة الاسلامية المتعطشة لمجد الاسلام. بل هي

فرض اوجبه الله على المسلمين، وامرهم القيام به، وحذرهم عذابه اذا هم قصرُوا بأدائه.

لذلك كان لزاما على المسلمين ان يقيموا الدولة الاسلامية، لانه لا وجود للإسلام مؤثرا له الا بالدولة، ولان بلادهم لا تعتبر دار اسلام الا اذا حكمتها دولة الاسلام. وان طريقها مفروشة بالاشواك محفوفة بالمخاطر، مملوءة بالعقبات والمصاعب، وناهيك بالثقافة غير الاسلامية صعوبة، وبالتفكير السطحي عقوبة، وبالحكومات الخاضعة للغرب خطورة.

ان الذين يسلكون طريق الدعوة الاسلامية لا ييجاد الدولة الاسلامية، انما يعملون لحكم الاسلام وطريقة استئناف الحياة الاسلامية في البلاد الاسلامية، وحمل الدعوة الى العالم. وان دراسة الدولة الاسلامية لا يقصد به تأريخ الدولة الاسلامية وانما يقصد به مشاهدة الناس كيف اقام النبي الدولة وكيف هدم المستعمر الدولة الاسلامية وكيف يقيم المسلمين الدولة الاسلامية، ليعود للعالم النور الذي يضيء له طريق الهدى في حالك الظلمات.

مفهوم الدولة بين الاسلام وغيره:

- ١ - تعريف الدولة: هي مجموع الارض والشعب والحكم.
- ٢ - تعريف الدولة الرأسمالية الغربية: ضمان الحريات الاربع: حرية الرأي، حرية الملك، حرية العقيدة، الحرية الشخصية.
- ٣ - تعريف الدولة الاشتراكية الشرقية: هي قوة مطلقة التصرف، وغاية يسعى اليها وهي تتولى عن الجماعة والافراد جميع شؤونهم ووسائلهم.
- ٤ - تعريف الدولة الاسلامية: هي مقيدة التصرف في الشرع، وهي طريقة لتنفيذه وهي تتولى عن الجماعة شؤونها ووسائلها.

مفهوم الدولة الاسلامية: دولة بشرية وليست دولة اهلوية او حكومة دينية كالحكومات الغربية والشرقية التي قامت في اوروبا في القرون الوسطى والتي كانت حائلا بين المجتمع والتقدم المادي. وكانت تستخدم القوة في الحجر على العقول والافكار فكانت محاكم التفتيش وبيوت النيران والقتل والصلب جزاء لكل من يفكر ويستعمل عقله ولكل من يحاول السير بالانسان الى الامام ماديا.

وقد ادى ضغط هذه الحكومات الدينية الى ثورة فكرية انتهت بانتصار العقل من ناحية مادية وانهازم الكهنوتية وتركيز الفلسفة الرأسمالية والاشتراكية التي هي فصل المادة عن الروح والدين عن الدولة.

وسلم رجال الدين والكهنة بهذه الفلسفة واتخذوا من قول «اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله» تفسيرا يرر لهم الرضا بهذه الفلسفة الرأسمالية والاشتراكية والخضوع للمبادئ التي قامت عليها تلك الثورات الرأسمالية والاشتراكية.

وطبيعي ان تكون الدولة الدينية بالمفهوم الروحي حسب المفهوم الغربي رجعية حائلة دون تقدم المجتمع لان الفلسفة التي كانت تقوم عليها هذه الدولة الدينية هي الكهانة وكان مفهوم الروح عندهم أنها مقابل المادة. وبناء على هذه الفلسفة او هذا المفهوم لمعنى الروح تمسك الكهنة بالسلطان والحكم حتى نزع منهم بالقوة والثورة واجبروا على اعطاء تفسيرات دينية تبرر شرعية نزع الحكم منهم وتؤكد وجوبه.

وقد كان لفصل المادة عن الروح وفصل الدين الروحي عن الدولة اثر كبير في تقدم الحياة ماديا عند الغرب لانه جاء نتيجة نزع السلطان من يد الكهنة ورجال الدين. وكانت ثمرات ذلك الثورة الصناعية في اوروبا والتقدم الفكري عند الغربيين والشرقيين مما اوجد الابداع والاختراع وتقدم العلم والمدنية. فتركزت في اذهان الغرب والشرق القيادة الفكرية والرأسمالية والاشتراكية التي هي فصل الدين عن

الدولة واخذوا يحملونها للعالم.

وكان من جراء هذه الثقافة الغربية والشرقية ان تركز في اذهان المسلمين قياس حال مجتمعهم وواقعهم ودينهم على المجتمع الاوروبي الغربي والشعوب الاوروبية الشرقية والغربية والدين النصراني قياسا شموليا مغلوطا لمجرد الاشتراك في الفاظ الاسماء، ولذلك قاموا ينادون بفصل الدين عن الدولة وبأن الدولة الاسلامية رجعية، على اعتبار أنها دولة دينية روحية تتمثل فيها الكهانة التي تحول دون التقدم والعلم.

والحقيقة ان هناك فرقا بين الدولة الدينية الروحية والدولة الاسلامية وانه لا يوجد اي تشابه بينهما مطلقا، بل بينهما التناقض، وذلك لان الدولة الدينية الروحية دولة الالهة مقدسة تستمد سلطتها من الله ولا يجوز لاحد محاسبتها، بخلاف الدولة الاسلامية فانها ليست الالهة ولا مقدسة وتستمد سلطتها من الامة، وسيادتها من الشرع فهي منفذة للشرع وليست حاكما مقدسا. واوامر الدولة الاسلامية احكام شرعية تتبناها من الفقه الاسلامي وهي آراء وافكار واحكام اسلامية تقبل المناقشة.

ومن هنا لم يكن في الاسلام شيء يسمى الدين وشيء يسمى الدنيا ولا حاجة الى ما يسمى رجال دين، بل كانت ضرورة الحياة المادية تقضي بمحاربة وجود الكهانة ورجال الدين بين الناس، لان الروح ادراك عقلي لصلة الانسان بالله، وهو ملك لجميع بني الانسان وليس لاحدهم فضل على الآخر فيه الا بالتقوى.

ومن الطبيعي لم توجد لدى الاسلام دولة دينية روحية بالمفهوم الغربي ولا هي سلطة زمنية، وانما هي دولة للحكم على عقيدة ثابتة وقيادة فكرية تنبثق عنها انظمة الحياة التي تنفذها الدولة.

وهي دولة لها حضارة معينة على طريقها في الحياة. ولها عمل اصلي وجدت من اجله وهو تطبيق الاسلام وحمل دعوته. فهي تقوم على اساس ان الكون والحياة

والانسان لها خالق خلقها من عدم، وان هذه الحياة يوجد ما قبلها وهو الله الذي خلقها ويوجد ما بعدها وهو يوم القيامة، وان هذه الحياة متصلة بما قبلها وبما بعدها. لان صلتها بما قبلها هي اوامر الله ونواهيه التي تعين للانسان طريقته التي يسير عليها في الحياة ويعيش حسبها، وصلتها بما بعدها هي تصور الحساب على كل عمل يقوم به الانسان في هذه الحياة يحاسبه عليه الله يوم القيامة وحياة الانسان في هذا الكون مقيدة بهذه الصلة التي تصل الحياة بما قبلها وبما بعدها.

فالاساس الذي تقوم عليه الدولة الاسلامية هو عقيدتها وهي قيادة فكرية يجب على الدولة حملها للعالم دعوة اسلامية. وعلى ذلك فاساس الدولة الاسلامية الذي تقوم عليها هو تعيين موقف الانسان في الحياة من الحياة نفسها فيقيد اعماله بتلك الصلة التي تربطها بما قبلها وما بعدها.

ومتى تعين الموقف من الحياة للدولة سهل عليها السير لرقى الحياة وتقدمها وازالة جميع الحواجز الواقفة دون هذا الرقى. ولذلك كانت القيادة الفكرية التي تقوم عليها الدولة الاسلامية العامل الفعال الذي يدفع هذه الدولة في الحياة نحو الرقى المادي المسخر المادة لرقى الانسان ورفاهيته وسعادته.

وعن هذه العقيدة تنبثق انظمة الحياة، لانها تلزم الانسان في الحياة التقييد بما هو الصلة الوحيدة لهذه الحياة بما قبلها وهي اوامر الله ونواهيه.

وعليه، فاذا الانسان في الحياة يعالج مشاكله بشريعة لله فقط لان لها السعادة عليه، فاذا عرضت له مشكلة استنبط حكمها من الكتاب والسنة. والدولة هي التي تبني هذا الحكم وتنفذه ومن هنا كان تشريع كامل لمعالجة المشاكل الانسانية كلها في هذه الحياة، وكان هذا التشريع متسعا لاستنباط القواعد الجديدة والمشاكل الجديدة اتساعا يوجد فيه الحل لكل مشكلة مهما تجددت وتعددت على اختلاف الظروف

والامكنة، والازمنة. وعلى ذلك كانت معالجات مشاكل الحياة جميعها لكافة شؤون الانسان موجودة في التشريع الذي تقوم الدولة على تنفيذه وعلى تبني تشريعه لضمان حل مشاكل الانسان كلها في الحياة.

وعلى ذلك تكون العقيدة الاسلامية وسيادة الشريعة الاسلامية على اعمال الانسان وجعل المثل الاعلى هو: رضوان الله غاية الغايات وفوق المادة - يكون ذلك طريقة الحياة في الدولة الاسلامية - وهو حضارتها: التي هي مجموع المفاهيم عن الحياة. واما العمل الاصلي للدولة ووظيفتها التي وجدت من اجلها فانها تنفيذ المبدأ عقيدة ونظاما في داخل حدودها وحمل دعوته الى باقي العالم قيادة فكرية بالدعوة والقوة المادية بالجهاد التي تحمي هذه الدعوة وتزيل الحواجز المادية الواقفة في طريقها بالفتوحات الاسلامية.

هذه هي العناصر الاساسية التي تقوم عليها الدولة الاسلامية وهي المقومات الحقيقية للدولة، وان الطريقة التي تقوم عليها الدولة الاسلامية في الحياة تجعلها سائرة نحو المدنية، لان مفهومها عن الحياة يجعلها تتقدم نحو الاشياء على اسس ثابتة ويدفعها للقبال عليها فهي دافعة للتقدم المادي والابداع فيه.

وهذا مناقض كل المناقضة للدولة الدينية ومفهومها عن الحياة، ولذلك كان من الظلم الفادح قياس الدولة الاسلامية بالدولة الدينية ومقارنتها بالتي كانت قائمة في القرون الوسطى قياسا شموليا مغلوطا، وكان من سوء صنيع المسلمين بانفسهم التأخر عن اقامة الدولة الاسلامية، والوقوف للحيلولة دون قيامها.

ولما كان المجتمع في البلاد الاسلامية ومنها العربية يقوم على اسس تناقض الاسلام، ويحيا حياة غير اسلامية، كان لابد له من قيام دولة اسلامية تستأنف الحياة الاسلامية وتحمل الدعوة الى العالم، بواسطة الدولة العالمية الواحدة التي تطبق

الإسلام وتحمل دعوته للعالم. التي عليها يتكون جسم الدولة الإسلامية تكويناً طبيعياً حسب سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً. وهي السنة التي تكونت حسبها الدولة الإسلامية من نواتها في المدينة ثم في الحجاز ثم الجزيرة ثم صارت دولة عالمية تشمل أكثر أجزاء العالم.

نفي الأخطاء والشبهات

١- التجزئة بين الدين والدولة:

من أخطر المفاهيم الغربية فكرة فصل الدين عن الدولة، التي أدخلها المستعمر في بلاد المسلمين عن طريق غزوه الثقافي والسياسي ومن أخبث التهم وأكذب الحديث التي روجها هذا الكافر اللئيم، تشبيه خليفة المسلمين بالباب، وأن كلمة رجال الدين تحمل مفهوماً خطيراً ومعنى فاسداً سقيماً وقد استطاع المستعمر وعملاؤه أن يركز عند المصوغين بثقافته، فأصبحنا نسمعه منهم في كل مناسبة بل وصل الأمر أن ردها بعض علماء المسلمين اليوم، دون إدراك مفهومها وحقيقتها معناها.

أن كلمة رجال الدين اصطلاح اجنبي، أطلقه الغربيون على القسس والأساقفة، وصفاً لهم وتقريراً لواقعهم، وذلك حينما قامت الثورة الفكرية في أوروبا تطالب بالإصلاح والتحرر من سيطرة الكنيسة ورجالها الأمر الذي أدى إلى بقاء أوروبا قروناً عدة وهي واقعة تحت سيطرة الكنيسة وظلم رجالها، مما أدى إلى التأخر والفساد وشيوع الاضطراب الفكري والمادي.

فرجال الكنيسة كانوا يرون أن الإنسان فيه السمو الروحي والترعة الجسدية، اللذان لا يلتقيان، وأن المادة منفصلة عن الروح، ومن هنا نشأ التناقض، فكان الفصل عندهم بينهما.

ولم يستطع رجال الكنيسة الابقاء على السلطة الزمنية بأيديهم فقد نازعهم فيها الفلاسفة والمفكرون، فانزعوها من ايديهم، وتركوا لهم امور العبادة والطقوس الدينية وقد وافقوا على هذا الواقع، ووجدوا في القول المأثور عندهم «اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

والخلاصة: فقد استقل رجال الكنيسة بالسلطة الروحية واحتفظ السياسيون بالسلطة الزمنية، ونتج عن هذا الاستقلال: فصل الدين عن الحياة، وفصل الدين عن الدولة والحكم والسياسة وعن شؤون المجتمع الاقتصادية والاجتماعية وعلاقات الدولة السياسية.

واصبح من جراء هذا الفصل ان صار للدين مفهوم ضيق هو تدبير شؤون العبادة، داخل دور العبادة، وصار لهذا الدين بهذا المعنى رجاله الخبيرون بشؤونه المتفرغون لخدمته وتنظيم طقوسه ثم اطلق على هؤلاء كلمة رجال دين وصار مفهوما لدى الجميع ان رجال الدين لا شأن لهم في الحكم والسياسة ولا في شؤون الدولة وعلاقاتها ولا في افعال رئيس الدولة وتصرفاته، وانما شأنهم وكل عملهم هو العبادة، وهو كل الدين ومن عمل خلاف ذلك فقد خرج على السلطان واصبح مارقا منبوذا من غيره.

كما كان من اثر هذا كله ان صار للعالم رجال هم رجال السياسة والدولة، عرف عملهم وخصص منهم تفكيرهم بانه لا علاقة له بالدين ورجال الدين، وبهذا يكمن الخطر لهذا المفهوم وقد ركز فصل الدين ورجاله عن الدنيا ورجالها، واصبح لرجال الدين ادارة تابعة للدولة.

وهنا لابد من الاشارة الى ان رجال الثورة والسياسيين في اوربا من حقهم ان يفعلوا ما فعلوا تخلصا من سيطرة الكنيسة وظلم رجالها ففصلوا دينهم عن الحياة

وشؤونهم ومنهم الحكم لان الدين المسيحي كما هو واقعه وكما هي حقيقته دين اخلاق وعبادة فقط، لا دين نظام وتشريع شامل لشؤون الحياة كلها، فليس فيه من انظمة للحكم ولا للاقتصاد ولا للسياسة والاجتماع... الخ كالاسلام، وليس فيه دولة تطبق تعاليم المسيحية وترعى شؤون الناس في الحياة حسب هذا الدين، ولكنهم ليس من حق رجال الثورة منع رجال الدين من رعاية شؤونهم وشؤون الناس، وابعادهم عن الاشتغال بالسياسة والمشاركة في الحكم وماله من صلة بالدولة، لان من حق كل انسان رعاية شؤونه بنفسه.

هذا من الناحية النظرية البحتة المقررة التي يحاولون اشاعتها بين المسلمين وفي ديارهم لابعادهم عن الاسلام بتجزئته وفصله عن الدولة ولكن هذه الناحية لم تكن عملية ومخالفة لفطرة الانسان وغير منسجمة مع حياته فقد خرج عليها الاسقف مكاريوس رئيسا لقبرص.

اما الاسلام فليس فيه رجال دين ولا رجال دنيا فكل مسلم هو رجل من رجال الاسلام ومن يعتقد بالاسلام يسمى مسلما والمسلمون جميعا امام دين الاسلام سواء. وليس في الاسلام سلطة دينية ولا سلطة زمنية منفصلة عن الدين بل السلطة واحدة تقوم على اساس الاسلام وتطبق الاسلام وحده لان الاسلام دين والدولة جزء منه والسياسة وهي رعاية شؤون الناس حكم شرعي من احكامه، ولان الاسلام عقيدة ونظام اما كونه عقيدة فلأن اساسه يقوم على الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقضاء والقدر، وتلك هي عقيدة، وقد انبثقت عن هذه العقيدة انظمة الاسلام في الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع والعقوبات والبيئات والمعاملات... الخ، وهذه الانظمة احكام شرعية استنبطها المجتهدون من الادلة التفصيلية من الكتاب والسنة وما استند عليهما وارشد اليهما.

وقد سمي الإسلام المتخصصين في فهمه بالعلماء والفقهاء والمجتهدين والقضاة، اما الفصل بين المحاكم الشرعية والمحاكم المدنية فلم تكن في الإسلام، ولا يجوز ان تبقى ما دامت تشعر بفصل الدين عن شؤون الدولة. فالمحاكم واحدة تحكم بالإسلام وحده، كما ان الإسلام لا يقر كل دائرة تشعر بهذا الفصل، كدائرة الاوقاف والشؤون الإسلامية.

لذلك كان في الإسلام فقهاء وعلماء ومجتهدون وليس فيه رجال دين بالمعنى المفهوم اليوم. ومنهم من تولى رئاسة الدولة واشترك في تولي المسؤولية في الحكم كإيران وهذا شيء اعتيادي يتفق مع طبيعة الإسلام، لان الدولة تحكم بالإسلام وتولى شؤون الرعية على أساسه، بل من شروط الأفضلية لرئيس الدولة الإسلامية ان يكون عالماً مجتهداً.

وان العالم بالإسلام يقوم بأداء العبادة ويعلمها كما يشتغل بأمور السياسة يفهم الحياة فهما مستتيراً يستولي على الدنيا بحقها وينال الآخرة بالسعي لها، وما ينطبق على العالم ينطبق على كل مسلم لان مسؤولية الإسلام تقع على الجميع لقول النبي: كلكم راع وكلهم مسؤول عن رعيته، ومن أصبح لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

فمثل ذلك الفصل لم يقع في بلاد المسلمين اثناء حكم الإسلام، لانه خلاف طبيعته لانه ليس فيه سلطتان، الا عندما فصلهما اليهودي اتاتورك وتبعه الشاه وبقية البلاد العربية كمصر وغيرها، باسم العلمانية اخطر فكرة ومؤامرة على الإسلام لفصله عن الدولة وابعاد المسلمين عنه. كما قال الامام الخميني: لقد ادرك المستعمرون انهم لا يستطيعون فرض سيطرتهم ومناهجهم الاستعمارية على الامة الإسلامية مع وجود الإسلام ومن هنا بدأت قبل سقوط العثمانية وبعدها الدعوة الى الدولة العلمانية من النصارى واليهود من اجل ابعاد الإسلام عن حياة المسلمين، وحصره في المساجد

الفردية العبادية. وبلغ الامر بهذه الخطة الاستعمارية عزل الدين عن المجتمع. كما قال الخميني: وجد المستعمرون ضالتهن المنشودة، للوصول الى مطامعهم الاستعمارية لايجاد ظروف تنتهي بالاسلام الى العدم.

القضاء على الدولة الاسلامية:

انتهت الحرب العالمية الاولى بالقضاء على الدولة الاسلامية بعد تحطم الدولة العثمانية وتفككها الى اجزاء واستولى الحلفاء على بلاد العرب جميعها وسلخوها عن الدولة ولم يبق في يد العثمانيين سوى تركيا التي دخلها الحلفاء، فقد احتلت الجيوش الانكليزية قسما من العاصمة والقلاع والمواقع الحربية الهامة، واحتلت فرنسا قسما من استانبول، واحتلت الجيوش الايطالية السكك الحديدية واخذوا يسرحون قسما من الجيش التركي، وانحلت جمعية الاتحاد والترقي، وفر جمال باشا وانور باشا خارج البلاد، وتألقت حكومة هزيلة برئاسة توفيق باشا لتقوم بتنفيذ اوامر الاعداء المحتلين. وكان الخليفة وحيد الدين يحل البرلمان، وظل الحلفاء مسيطرين وظلت تركيا في حالة جمود حتى سنة ١٩١٩ ودب الخلاف بين الخلفاء وتنافسوا على الغنيمة وطمع كل منهم في ان ينال حصة الاسد من المراكز العسكرية ومن الامتيازات الاقتصادية وتألقت في استانبول اكثر من عشر جمعيات سرية مهمتها المقاومة السرية للعدو، ونشطت جمعية الاتحاد والترقي وانضم بعض الجيوش النظامية لهذه الحركات ثم تجمعت في حركة واحدة قادها: مصطفى كمال، وقام بحركة لمقاومة الحلفاء، وجيش الخليفة، ونجح في ذلك.

فقام بعقد مؤتمر وطني وقد اتخذ المؤتمر قرارات وانتخب لجنة تنفيذية واختار مصطفى كمال رئيسا لهذه اللجنة وارسل هذا المؤتمر اندارا الى السلطان يطلب منه عزل رئيس الوزراء فريد واجراء انتخابات لبرلمان جديد. فاضطر السلطان تحت هذا

الضغط الخضوع لطلبات المؤتمر.

وعلى اثر هذا الفوز انتقل المؤتمر ورجاله الى انقرة، وصارت مركز العمل وذهب النواب الى العاصمة، واعربوا عن ولائهم للخليفة، ثم عكفوا على عملهم سنة ١٩٢٠. وقد حاول السلطان ومن ورائه الانجليز املاء ارادتهم على النواب فرفضوا ونشروا شروطهم واهمها: ان تكون تركيا حرة مستقلة داخل نطاق حدود مقررة، فسرّ ذلك الحلفاء لان هذا القرار هو الذي يسعون اليه ان يأتي من اهل البلاد انفسهم، وان جميع البلاد التي كانت الدولة العثمانية تحكمها بوصفها دولة اسلامية قد وضعت لها عقب الحرب العالمية الاولى ميثاقا وطنيا يتضمن نسا واحدا هو: استقلال الجزء الذي اراده الحلفاء ان يكونوا بلدا منفصلا كسوريا ومصر والعراق لان خطة الانجليز تقطع اوصال الدولة العثمانية وتقسيمها الى دول حتى لا تعود دولة واحدة قوية، وحتى يقضي على دولة المسلمين.

الدولة العثمانية الواحدة التي تعتبر جميع ولاياتها جزءا منها وهي سائرة على نظام الوحدة الاسلامية، فلم يكن هناك فرق بين الحجاز وتركيا. اذكلها دولة واحدة، وقد طلب العثمانيون انفسهم تقطيع دولتهم اجزاء، طلبه العرب والترك على السواء.

ولهذا اعتبر الحلفاء الميثاق الوطني الانتصار النهائي لهم. وصاروا ينسحبون من كل مكان وقامت في البلاد حركة مقاومة للعدو انقلبت الى ثورة ضد السلطان، ما جعله يجهب جيشا ويرسل لها حملة قوية قاومتها وقضت عليها. وصار الناس كلهم مع السلطان ما عدا انقرة التي كانت مركز الثورة.

وصار مصطفى كمال ومن معه. يشيعون في تركيا انباء عن احتلال الانجليز للعاصمة، ومؤازرتهم السلطان وحكومته لهم، فتغير الموقف فانصر الناس عن السلطان وانحاز الرأي العام الى انقرة، وفر كثيرون من جيش الخليفة وانضموا الى

جيش مصطفى كمال الذي اصبح محط الانظار ومعقد الآمال. وقد قويت جبهته وصارت اكثرية البلاد في قبضته، فأصدر منشورا بالدعوة الى انتخاب جمعية وطنية، يكون مقرها انقره. ثم انتخبوا مصطفى كمال رئيسا للجمعية.

وصارت انقره مركز الحكومة. وانضم اليهم جميع الاتراك، فقام مصطفى كمال وسحق ما تبقى من جيش الخليفة وفي سنة ١٩٢١ قام بهجوم خاطف انتهى بانتصاره على اليونان وارسل لمقابلة هارنجتون للاتفاق على التفصيلات وهناك وافق الحلفاء على طرد اليونانيين وجلائهم.

والظاهر من تتبع خطوات مصطفى كمال ان موافقة الحلفاء هذه كانت مقابل قضاء مصطفى على الحكم الاسلامي بقوله «انا لست مؤمنا بعصبة من الدول الاسلامية. ولكل منا اعتناق الرأي الذي يراه. اما الحكومة فينبغي ان تلتزم سياسة ثابتة مرسومة مبنية على الحقائق لها هدف واحد فقط، ان تحمي حياة الوطن واستقلاله داخل حدوده الطبيعية».

وصار يثير الرأي العام على الخليفة وحيد الدين، وبالغاء السلطنة، والفصل بينهما وبين الخلافة، وخلع وحيد الدين. مخالفا للشرع، لانه لا يوجد في الاسلام سلطة دينية واخرى زمنية، فالسلطنة والخلافة شيء واحد ولا يوجد شيء يسمى الدين، وشي يسمى الدولة، بل هنالك نظام الاسلام، وتعتبر الدولة جزءا منه، وهي التي تقوم على تنفيذه. لان نصوص الاسلام صريحة فيه، لكن مصطفى كمال كان يريد فصل الدين عن الدولة بفصل السلطة عن الخلافة، اجابة لطلب الحلفاء منه، حتى يقضوا على آخر الدولة الاسلامية على يد اهلها، ولان ثقافته الاستعمارية التي يقلد فيها الغربيين في فصل السلطة الزمنية عن السلطة الروحية تحمله على القيام بفصل السلطة عن الخلافة، كما فصلت الكنيسة عن الدولة في الغرب. فقال:

«ان السلطنة يجب ان تفصل عن الخلافة وتلغى» ولما علم بذلك الخليفة وحيد الدين فر هاربا. ونودي بابن اخيه عبدالمجيد خليفة للمسلمين، مجردا من كل سلطان. لان مصطفى كمال كان حريصا على فصل السلطة عن الخلافة، وقام بتأليف حزب الشعب. وكان يقصد من ذلك ان يأخذ الرأي العام بجانبه. واعلان تركيا جمهورية، واعلان نفسه رئيسا لها.

وما فعله مصطفى كمال يخالف الاسلام لذلك سادت البلاد فكرة مؤداها انه يعترم القضاء على الاسلام، وايدت هذه الفكرة تصرفاته فانه كان متنكرا للاسلام في حياته الخاصة مخالفا لكل الاحكام الشرعية، يظهر السخرية من كل الاوضاع المقدسة عند المسلمين. وتيقن الناس ان حكام انقرة الجدد كفرة. وصار الناس يلتفون حول الخليفة عبدالمجيد ليقضي على هؤلاء المرتدين، فأدرك مصطفى كمال الخطر ورأى ان اكثرية الشعب تكرهه. وتتهمه بالزندقة والكفر والالحاد، وفكر في الامر ونشط في الدعاية ضد الخليفة والخلافة، ثم اخذ يتحدث عن اضرار الخلافة في كل مجلس، واخذ يهيه الاجواء لالغاء الخلافة، فقام بعض النواب يتحدثون عن فائدة الخلافة لتركيا، فقاومهم مصطفى كمال، وقال: «أليس من أجل الخلافة والاسلام قاتل الاتراك وماتوا طيلة خمسة قرون؟ لقد آن أن تنظر تركيا الى مصالحتها، وتجاهل الهنود والعرب، وتنقذ نفسها من تزعم المسلمين».

وهكذا سار مصطفى كمال في دعايته ضد الخلافة يبين اضرارها للاتراك، بل اوجد موجة ارهاب ضد من يؤيدون الخلافة فان احد النواب قد صرح بلزوم الخلافة والمحافظه على الدين ما كان من مصطفى كمال الا ان كلف شخصا باغتياله في الليلة التي تكلم فيها. وهكذا نشر الرعب في طول البلاد، ولما لاحظ ذلك بعض المعتدلون، وخافوا من الغاء الخلافة والتمسوا نصب نفسه خليفة للمسلمين. فلم يقبل، ثم جاءه

وفدان من مصر والهند، وطلبوا إليه ان ينصب نفسه خليفة ولكن رفض ذلك وهياً ضربته القاصمة باعلان الغاء الخلافة: واثار في الاجواب عند الشعب والجيش والجمعية ' البغض للأجانب وللاعداء ولحيلفهم الخليفة - على حد زعمه - وسمم الجو بالاشاعات المثيرة ضد الخليفة ولما سيطر هذا الجو على البلاد تقدم مصطفى كمال سنة ١٩٢٤م الى الجمعية الوطنية بمرسوم يقضي بالغاء الخلافة، وطرده الخليفة وفصل الدين عن الدولة، وقال:

«بأي ثمن يجب صون الجمهورية المهددة وجعلها تقوم على اسس علمية؟ فالخليفة ومخلفات آل عثمان يجب ان يذهبوا، والمحاكم الدينية العتيقة يجب ان تستبدل بها محاكم وقوانين عصرية» ثم حمل على الدين. ثم ارسل الى حاكم استانبول امرا يقضي بأن يغادر الخليفة عبدالمجيد تركيا، وهكذا هدم مصطفى كمال الدولة الاسلامية والنظام الاسلامي واقام الدولة الرأسمالية والنظام الرأسمالي وبذلك قضى على الدولة الاسلامية وحقق للكفار حلمهم منذ الحروب الصليبية ألا وهو: القضاء على دولة الاسلام.

الحيلولة دون قيام الدولة الاسلامية:

انتهت الحرب العالمية الاولى واستولى الحلفاء على جميع بلاد الدولة الاسلامية وكان همهم القضاء على هذه الدولة نهائياً، والحيلولة دون قيامها مرة اخرى في اي جزء من اجزاء العالم الاسلامي. وقد وضعوا عدة خطط واستعملوا عدة اساليب لضمان عدم رجوع الدولة الاسلامية للوجود، ولا يزالون يعملون من اجل هذه الغاية. فمنذ ان احتل المستعمر بلاد المسلمين قام بتثبيت حكمه لها على الاسس التي رسمها، فقد احتل البلاد التي كانت تحت حكم الدولة العثمانية سنة ١٩١٨م واقام فيها الحكم العسكري حتى سنة ١٩٩٢م ركز حكمه فيها باسم الانتداب، وباسم الاستقلال الذاتي

حتى سنة ١٩٢٤ حيث قامت اعمال عدة اجهز بها العدو البريطاني على كل ما فيه شبهة تمت الى قيام الدولة الاسلامية، بالغاء مصطفى كمال الخلافة من الدولة العثمانية بتأثير من المستعمر وجعل تركيا جمهورية ديمقراطية، ففضى على شبح الخلافة حتى يقضي على آخر أمل في رجوع الدولة الاسلامية.

وفي تلك السنة تدخل الانجليز بواسطة عملائهم في مؤتمر الخلافة الذي كان معقودا في القاهرة وعملوا على فضه واخفاقه. واخذ الانجليز يعملون لالغاء جمعية الخلافة في الهند ولاحباط مساعيها وتحويل تيارها الى الناحية الوطنية والقومية. وفي تلك السنة صدرت في مصر بتأثير من المستعمر مؤلفات من بعض علماء الازهر كعلي عبدالرزاق يدعو لفصل الدين عن الدولة، وتدعي ان الاسلام ليس فيه اصول للحكم، ونصور الاسلام بأنه دين كهنوتي كالنصرانية، ولم يرد فيه شيء عن الحكم والدولة كمحمد خلف الله..

وقامت في البلاد العربية مجادلات حول موضوعين هما: هل الجامعة العربية اصلح ام الجامعة الاسلامية، واشتغلت الصحف والمجلات مدة في هذا الموضوع. مع انه غير صالح، ووجوده يحول دون قيام الدولة الاسلامية، ولكن المستعمر اوجد هذا الجدل لتحويل الاذهان عن الدولة الاسلامية. وبهذا استطاع ابعادها في البلاد الاسلامية عن فكرة الخلافة، وفكرة الدولة الاسلامية.

وكان الاستعمار قبل احتلاله قد اخذ يشيع بين شباب العرب والترك فكرة القومية العربية والتركية، وان تركيا دولة مستعمرة وان آان الاوان للعرب ان يتخلصوا من نير الاستعمار التركي، وقد الفت الاحزاب السياسية للعمل من اجل الوحدة العربية واستقلال العرب.

وما ان جاء الاحتلال حتى اخذ المحتل يشيع افكار القومية واخذت تحل محل

الإسلام فاستقل الأتراك على أساس قومي وطني، واخذ العرب يعملون للحكم الذاتي على أساس قومي وطني، وشاعت فكرة القومية والوطنية وملأت الأجواء، وصارت هي موضع الفخر والاعتزاز وبانه حكم ديني كهنوتي ووجد بين المسلم عرف عام بأن امر المطالبة بالخلافة تأخر وجمود وظروف استثنائية انتهت ولا يجوز ان يصدر عن مثقف ولا يقول به مفكر.

وفي هذه الأجواء القومية والوطنية قسم البلاد الاسلامية الى دويلات وجعل اهل كل بلد يركزون هذا التقسيم وبثبوتونه وصار المشتغلون بالسياسة فيه من عملاء الدولة التركية والسورية. ثم اقام في فلسطين وطنا قوميا لليهود، ليكون رأس جسره ويشغل بن المسلمين عن المستعمر، وهو الدول الغربية كبريطانيا واميركا وفرنسا، وليكون حاجزا من الحواجز التي تحول دون رجوع الدولة الاسلامية. وبذلك ركز الوضع الجغرافي وثبت الحدود والاجواء العامة تركيزا يحول دون تحرير المسلمين. وقام بتطبيق النظام الرأسمالي في الاقتصاد، والنظام الديمقراطي في الحكم والقوانين الغربية في الادارة والقضاء، وثبت حضارته ومفاهيمه عن الحياة، وصار يحاول تركيز وجهة نظره في الحياة حتى تصبح طريقته في الحياة هي الطريقة التي يعيش عليها المسلمون، وقد نجح في ذلك، باقامة النظام الملكي في مصر والنظام الجمهوري في لبنان وفي فلسطين حكما انتديا انتهى بقيام نظام ديمقراطي وفي تركيا جمهورية وفي ايران امبراطورية وفي الجزيرة العربية ملكية وراثية، وظل مستعمرا الهند، ثم قسمها الى دولتين وبهذا جعل المستعمر نظامه هو الذي يطبق في بلاد المسلمين فاضعف في النفوس فكرة اعادة حكم الاسلام. وجعل من نفس اهل البلاد المحافظة على نظامه الذي اقامه، وهكذا صار حكام كل بلد يحافظون على هذا النظام الرأسمالي الديمقراطي. وصاروا موظفين بوظيفة الحراسة على ما اقام لهم المستعمر من نظام

ودستور، ويعتبرون تغييره حركة غير مشروعة يعاقب عليها قانون المستعمر الذي وضعهم لتنفيذه. وقام بتطبيق القوانين الغربية على بلاد المسلمين مباشرة، وبالواسطة عن طريق العملاء في البلاد الاسلامية، اذ حاول الاستعمار منذ اول النصف الثاني من القرن التاسع عشر ادخال القوانين الغربية الى البلاد الاسلامية.

ففي مصر بدأ الاستعمار يشجع ادخال القانون المدني الفرنسي ليحل محل الاحكام الشرعية، ونجح في ذلك وبدأت مصر منذ سنة ١٨٨٣م تطبق القانون الفرنسي، وفي الدولة العثمانية بدأت منذ ١٨٥٦م حركة لاخذ القوانين الغربية بالحاح الاستعمار واستجابة العملاء مكنهم من ادخال قانون الجزاء وقوانين الحقوق والتجارة بأخذ فتاوى بأنها لا تخالف الاسلام، ودخلت فكرة التقنين، وجعلت المحاكم قسمين: شرعية ونظامية، تحكم حسب القوانين الغربية التي افتى العلماء بأنها لا تخالف الاسلام وحسب القوانين الشرعية التي صيغت تقليدا للقوانين الغربية.

هذا بالنسبة للقوانين، اما بالنسبة للدستور، بجعله يؤخذ من الدستور الفرنسي سنة ١٨٧٨م بملاحظة المستعمر ونجاح عملائه والمصوغين بثقافته مكن حركة الدستور من الظهور والنجاح بوضع الدستور موضع العمل في الدولة سنة ١٩٠٨ وبوضع القوانين موضع العمل في الدولة العثمانية وصارت البلاد الاسلامية في جملتها ما عدا الجزيرة العربية تسيير نحو القوانين الغربية، وما ان احتل المستعمر البلاد حتى قام بتطبيق سائر القوانين الغربية مباشرة باعتبارها قوانين مدنية لا علاقة لها بالاسلام. وتركت الاحكام الشرعية، فثبت ذلك حكم الكفر وابعد حكم الاسلام، وقد ساعده على ذلك انه ثبت اركانه وقام جميع شؤونه على اساس سياسة التعليم التي رسمها، والنظم والمناهج التربوية التي وضعها، والتي ظلت تطبق حتى اليوم في كافة البلاد الاسلامية وانتجت ما انتجته من هذه الجيوش من المعلمين الذين يقوم اكثرهم على

حراسة هذه البرامج وحمايتها والذين يتولى الكثيرون منهم زمام الامور، ويسيرون وفق ما يريد المستعمر.

وقاد قامت سياسة التعليم ووضعت مناهجه على اساسين اثنين:

احدهما: فصل الدين عن الحياة، وينتج عنه طبعيا فصل الدين عن الدولة، وذلك يحتم ان يقوم ابناء المسلمين بمحاربة قيام دولة اسلامية لانها تتناقض مع الاساس الذي تعلموا على سياسته.

الاساس الثاني: هو جعل شخصية الكافر المستعمر المصدر الرئيسي لما تحشى به العقول الناشئة من معارف ومعلومات. وذلك يوجب احترامه وتعظيمه ومحاوله محاكاته وتقليده، ويوجب احتقار المسلم والابتعاد عنه والاستنكاف عن الاخذ منه. وهذا يقضي بمحاربة اقامة دولة اسلامية واعتبارها رجعية. ولم يكتف الاستعمار بمناهج المدارس التي يشرف عليها او تشرف عليها الحكومات التي اقامها مقامه. بل جعل الى جانبها المدارس التبشيرية القائمة على اساس استعماري، والمعاهد الثقافية التي تأخذ على عاتقها التوجيه السياسي الخاطيء والتوجيه الثقافي المغلوط.

وقامت الى جانب ذلك المناهج السياسية في كافة البلاد الاسلامية على اساس فصل الدين عن الحياة، وصار العرف العام عند المثقفين هو فصل الدين عن الدولة وعند عامة الشعب فصل الدين عن السياسة، وكان من جراء ذلك ان وجدت فئات من المثقفين تزعم ان سبب تأخر المسلمين هو تمسكهم بالدين، وان الطريق الوحيد للنهضة هو القومية والعمل لها.

كما وجدت فئات تدعي ان سبب تأخر المسلمين هو الاخلاق فقامت على الاساس القومي تكتلات حزبية سياسية تعمل للقومية والوطنية، وتعتبر العمل على اساس الاسلام دسياسة استعمارية، وتعتبرها رجعية وجمودا يؤدي الى التأخر

والانحطاط.

كما قامت على الاساس الخلفي تكتلات جمعية على اساس الاخلاق والوعظ والارشاد، وصارت تعمل للخلق والدين واشترطت على نفسها ان لا تتدخل في السياسة وبذلك كانت هذه الاحزاب والجمعيات الحائل العملي الذي يحول دون السعي لايجاد الدولة الاسلامية لان الجمعيات انصرفت عن العمل السياسي الواجب شرعا وهو اقامة الدولة الاسلامية الى العمل الخلفي.

٢- العلمانية:

النشأة: العلمانية مفهوم غربي فكري سياسي نشأ حوالي القرن التاسع عشر بابعاد الدين عن السياسة بالثورة الفرنسية حيث حلت مسألة ازدواج السلطة ليس في فرنسا وحدها وانما في كل انحاء اوروبا، واذا كان ظهور العلمانية في بلاد الغرب امرا طبيعيا لانها كانت حلا لمشكلة منبثقة عن طبيعة الديانة النصرانية القائل فيها المسيح «ان مملكتي ليست موجودة في هذا العالم».

لقد ولدت العلمانية نتيجة لمشكلة عانت منها اوروبا فهل تتوفر في الاسلام وعالمه الاسلامي؟ ام انه علينا ان نتحد مع العالم الغربي في مشكلته فنأخذ الدواء ولا نعاني من الدواء. واذا كان من الصعب تحديد الزمن الفعلي والدقيق لنشأة هذا المفهوم الفلسفي، الا انه ليس من الصعب تحديد العوامل التي ساعدت من بعد او قرب على ولادته التي مرت بفترتين هما: فترة اولى وثانية.

الفترة الاولى: العلمانية المعتدلة، اعطت ما لقيصر لقيصر وما لله لله. اي الفصل بين الدين والدولة.

الفترة الثانية: العلمانية المتطرفة، جعلت الدين افيون الشعوب. اي الاشتراكية العلمانية.

تلك كانت صورة العلمانية في الغرب والشرق الاشتراكي. ولما اكتشف مصطلح العلمانية اللادينية كان لابد من طرح البديل، مصطلح العقلانية، وطرح فصل الدين عن الدولة، في العالم الاسلامي.

انتشار العلمانية في العالم الاسلامي واثرها على الاسلام والمسلمين:
ان نابليون اتى بالحضارة الغربية الى البلاد العربية ومنذ ذلك التاريخ بدأ التغريب كواحد من اخطر التحديات التي تواجه الاسلام والمسلمين في العصر الحديث. واذا كان التغريب يمثل تحديا خطيرا للاسلام واهله، فلقد كانت العلمانية القومية واحدة من اخطر الجبهات التي مارسها التغريب ضد الاسلام والمسلمين في الدين والدولة. لما كان الغرب هو الغالب والمغلوب هو العالم الاسلامي، حيث جثا الرجل المريض على ركبتيه، الى ان اسقطه الغرب فاتجه المغلوبون الى الغالب يبحثون لديه عن علاج لداء التخلف الذي ساد ارجاء العالم الاسلامي منذ القرن التاسع عشر وحتى عصرنا، وقاسوا حالة الشرق الاسلامي على حالة الغرب النصراني دون وجود علة، فكان السعي لفصل الدين عن الدولة، وكانت العلمنة هي الدواء الذي تجرعه المسلمون فزادتهم مرضا وضعفا. عبر بوابة التخلف دخلت العلمنة الى العالم الاسلامي، ولكن بأساليب وطرائق كان تحديدها منوطا بالمفكرين الغربيين والنصارى العرب. فخرجت الى حيز الوجود اول دولة اسلامية تعلن أنها تتبنى النظام العلماني القومي بديلا للنظام الاسلامي العالمي على يد اليهودي أتاتورك .

ومن نافلة القول انه ليس مصادفة ابدا ان تكون دولة الخلافة الاسلامية هي اول من تبنى النظام العلماني القومي... الذي شمل مختلف نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

هكذا نرى ان العلمانية ظاهرة اوروية محضة ان من حيث موطنها او من حيث

وسطها الحضاري، او من حيث المعطيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أدت اليها، ومن هنا يتضح انها ليست مشكلة اسلامية، لا على مستوى الدين ولا السياسة. وان البديل المطلوب اليوم هو فصل الدين عن السياسة.

وآية ذلك اننا لا نستطيع الحديث عن العلمانية وبحثها بدون الحديث عن اوروبا، مجتمعا وسياسة، بينما نستطيع ان نتحدث عن العلمانية دون ان يرد للاسلام دنيا وحضارة اي ذكر، بل ان اقحام الاسلام في الحديث عن العلمانية يفسد البحث ويخرجه عن الاطار المنهجي، ذلك ان لا علاقة على الاطلاق للاسلام بالعلمانية، فيكون حديثنا عن موضوع غربي غريب هو العلمانية، وفي محاولة لاستقراء الوقائع التشريعية والتاريخية، كما يقول الخميني: دعوة انفصال الدين عن السياسة انطلقت في اوروبا لاسباب تعود الى ممارسة الكنيسة التعسفية، وانحراف رجال الدين، هذه الدعوة ردها المبهورون والمغرضون في عالمنا الاسلامي، ممهدين الطريق لسيطرة المستعمرين. والذي عملوه في كل هذه المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية هو انهم سخروا اعلامهم ووسائل دعائهم الى ابعاد الدين عن السياسة والحياة والمجتمع.

وقال فضل الله: هناك فرق فكري بين القاعدة التي ينطلق منها الدين والقاعدة التي تنطلق منها العلمانية. ان العلمنة الحاد، لذلك من الصعب الجمع بين العلمنة والدين بمعناهما الفكري، عندما يراد لهما تجريب حظهما في الحياة والانطلاق فيها.

لقد كانت تركيا السباقة من بين الدول التي طبقت النظام العلماني القومي، وقد تجلّى هذا التطبيق في عدة مراحل بلغ وصوله الى نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمسلمين، ومن تركيا بدأت تتسرب العلمانية الى سائر بلاد المسلمين مسوغة بأراء وافكار تهتم الاسلام بالجمود والقصور، ونصور العلمانية الدواء الشافي

من مرض التخلف والانحطاط الفكري الذي يزرع تحت نيره الثقيل العالم الاسلامي. امام هذا الامتداد العلماني كان لابد من وقفة لعلماء المسلمين، ليظهروا باطل دعوة العلمانيين لانها وارد مستورد غريب، بل لانها احدى السموم الساسية التي قضت على وحدة وكيان العالم الاسلامي، وزرعت فيه السرطان اليهودي، سواء اكانت العلمانية هي اللادينية كما هو ثابت في المعاجم اللغوية، او كانت العلمانية لا تتصل بأمر الدين وانما تعني فصل الدين عن الدولة كما يقول المدافعون عنها، فان النتيجة المترتبة على الاخذ بالعلمانية في الحالين هو فصل الدين عن الحياة عامة.

ومن الطبيعي ان هذه الافكار التي نشرها الاستعمار في اوساطها بدءا من مقولة: انه لا حكم في الاسلام، وعلى فرض وجود احكام شرعية فانها تفتقر الى التنفيذ، وبالتالي فالاسلام شريعة.

هذه هي العلمانية كخصوصية غربية احتاج اليها الغرب لظروف خاصة به، والعالم الاسلامي ليس بحاجة اليها لانها كانت حلا لمشكلة الغرب مع السلطات الدينية، وهي في العالم الاسلامي تكون المشكلة ذاتها. فاذا اخذنا العلمانية في مقابل الحياة الغربية نجدها لا تعارض مع عقيدتهم التي تفصل الدين عن الدولة، ولكنها عندنا تعارض عقيدتنا التي من مقتضياتها الايمان بحكم الله وتعارض الشريعة التي انزلها الله منظمة لحياة الناس.

فالعلمانية عندنا تعني تصفية للوجود الاسلامي، ما لم يكن خادما للسلطة السياسية العلمانية التي تفصل الدين عن الدولة.

هذه هي العلمانية كخصوصية غربية، وحل غربي لمشكلة غربية، ولمواقف الاسلام والمسلمين منها، حيث تم رفضها لانها واردا غريبا على امتنا بقدر ما هي سم في دسم حضارة الغرب.

هدم دعوى عدم شمول الاسلام

٣- التصورات الفردية للاسلام:

ان الغرب يبني سياسته ويبرر مؤامراته على الاسلام على اساس قائمة على استقصاء ما يكتبه المسلمون. فلماذا لا نبني دراساتنا السياسية في مقاومة واحباط خططه ومؤامراته على اساس مدروس؟ يقوم على استقصاء ونقد ما كتبه ساسته وعلمائه عن التاريخ الاسلامي عامة والنظم الاسلامية خاصة.

ان كثيرا من الظواهر الغربية تبدو للنظرة السطحية العاجلة قليلة الخطر، ولها نتائج خطيرة تعين مثل هذه الدراسات على كشفها. فهذا جب^(١) على سبيل المثال يبين نتائج تطوير الفنون في مؤتمر برنستون عام ١٩٤٧: بأن اشاعة الفنون سيؤثر في النظم والقيم كلها ويتمخض عنه نتائج تقرب فن التفكير الاوروبي.

ويبين سميث^(٢) نتائج الارتباط بين الدراسات اليونانية واللاتينية والعلمانية في تركيا بانه جزء من تصميمنا على ان تصبح قطعة من اوروبا بلغتها وحضارتها. ونابليون^(٣) يشير الى اثر المسرح واهميته في تطوير المجتمع بارسال فرقة الكوميدي الى مصر لتغيير عوائدها باثارة عواطفها.

ان التطور قد يبدو ضئيلا اذا نظر اليه كل باحث من زاوية خاصة كالأديب من زاوية الادب، والفنان من زاوية الفن، وصاحب القانون من زاوية الفقه المقارن.

والواضح ان ادراك حقيقة الشيء يستلزم النظرة الشاملة اليه، المحيط به من كل نواحيه للتمكن من ادراك خطورته وآثاره وذلك هو ما دعا جب وكرومر وسميث

(١) جب: الشرق الادنى مجتمع وثقافة ص ٣٥٤.

(٢) سميث: الاسلام في التاريخ الحديث ص ٣٠٢.

(٣) سلامة: تيارات ادبية ص ٣٢٥.

وغيرهم الى تصور النتائج الخطيرة المترتبة على التطوير الخطر على الاسلام والمسلمين لانه افساد لهم بادخال الزيف على الصحيح، وتثبت الغريب الدخيل على الاسلام فيصبح المسلمون يعتقدون ان ما يفعلونه هو الاسلام. فاذا جاء من يرددهم الى الاسلام الصحيح انكروا عليه واتهموه بالجمود.

ويبررون افكارهم ويؤصلون تقليدهم ويقحمون على الاسلام ما يفسده فيصبح اخلاطاشنى لا يضمها نظام وينتهي التطوير بالمسلمين الى الفوضى والانقسام الى فرق وجماعات برزت في المرحلة التي بدأت مع الاستعمار والتي برز فيها رجل غريب الاطوار، يحيط سيرته واهدافه غموض كشفت حقيقته بعد تركه اثرا باقيا حتى الآن في كثير من المتصدين لابداء الرأي المحاطين بالدعاية لنشر افكارهم بين المسلمين خدمة لاهداف الغرب المتبني هذه الزعامات في التاريخ الحديث وتفسير احداثه قويا وماديا بانهم دعاة اصلاح وحركاتهم اصلاحية وآراؤهم سليمة لانهم اعلام الفكر والتشهير بأي رأي سليم بنسبته الى ضيق الافق كما يرى جب.^(١)

ولذلك يدعونا محمد حسين^(٢) الى اعادة تقويم الرجال حتى لا تقوم اصنام جديدة معبودة في مجتمعنا معصومة عند المتعصبين المخدوعين بهم، فمصدر الخطر اذن هو: فقدان مقياس الحق وهو معرفة الرجال بالحق وهذا يؤدي الى فقدان التمييز والاحساس بين ما هو اسلامي وما هو غربي وذلك يعني فقدان الشعور بالذات والانصهار بالآخر. ولذلك يجب ان يبقى التمييز بين ما هو اسلامي وما هو طارىء مستورد شرقيا او غربيا حيا في نفوس الاجيال القادمة وهذه امانة في عنق المسلمين يحملها الدعاة الوعاة.

(١) محمد حسين: الاسلام والحضارة ص ٣٢٥.

(٢) محمد حسين: نفس المصدر ٦٧.

ونظرا لغياب الاسلام عمليا عن ميدان الفقه الدستوري، خاصة بعد هدم الدولة الاسلامية، وحلول الانظمة الرأسمالية، غشى على ابصار الباحثين في نظام الحكم الاسلامي تصور نتيجة الغزو الثقافي الاستعماري لبلاد المسلمين، ادى الى القول بأن الاسلام لما يأت بنظام للحكم، وترك المسألة للعقل تدبرها، مما ادى بهم الى القول في الاسلام لا يخرجهم منه. وبثبت حقيقة ان الاسلام شامل وحاو لأحكام الوقائع الماضية كلها، والمشاكل الجارية جميعها، والحوادث التي يمكن ان تحدث بأكملها. اي انه لم تقع واقعة، ولا تطراً مشكلة، ولا تحدث بيان احاطة الاسلام وشموله، لابد من القاء نظرة على بعض التصورات الفردية التي ترمي الاسلام بعدم شمول احكامه لكافة اوجه النشاط الانساني. وخاصة نظام الحكم.

اولا: لم تأت الشريعة بنظام للحكم:

وصاحب هذا التصور هو الشيخ عبدالرزاق الذي يقول في كتابه الاسلام واصول الحكم: الاسلام دين لا دولة، ورسالة لا حكم. فكرة فصل الدين عن الدولة، وفصل الدين عن السياسة والحكم، هما الفكرتان الاساسيتان في الكتاب. ويتفرع عنهما قوله: اذا كان النبي قد اسس دولة، او شرع في تأسيسها، فلماذا خلت دولته اذن من كثير من اركان الدولة ودعائم الحكم؟ ولماذا ترك العلماء في حيرة واضطراب من امر النظام الحكومي في زمنه؟

يريد الشيخ ان يعرف منشأ ذلك الذي يبدو للناظر كأنه ابهام واضطراب او نقص في بناء الحكومة أيام النبي، وكيف كان ذلك، وما سره؟ فيرد عليه الامام جعفر الصادق بقول: او أن قوما عبدوا الله في عباداته الاربع، ثم قالوا لشيء صنعه النبي: ألا صنع خلاف ما صنع أو أوجدوا في ذلك حرجا في انفسهم لكانوا مشركين. لذلك فان كل من اتهم النبي في الحكم فهو كافر عند ابن العربي.

وقد كان استفهام الشيخ انكارا لمجيء الاسلام بنظام للحكم يطبق على المسلمين... او ان الدولة من الاسلام، لانه يرى ان الدين براء من السياسة، فلا علاقة بين الشرع وتنظيم العلاقات بين الناس.. فيقول الشيخ: هيئات هيئات، لم تكن ثمة حكومة، ولا دولة، ولا شيء من نزعات السياسة، ولا اغراض الملوك والامراء. ويا بعد ما بين الدين والسياسة.

فالشيخ ينفي عن قناعة مطلقة ان يكون الاسلام قد جاء بنظام للحكم، او ان يكون النبي قد اقام دولة سياسية. وقد كان الشيخ فاتحة الهجوم على الهجوم على عدم شمول الاسلام للاحكام المتعلقة بنظام الحكم بعد اتاتورك اليهودي ثم تبعه الشيخ علي الازهري وشيخ الازهر المراغي الذي يقرر: ان من ينظر في كتب الشريعة الاصولية بعين البصيرة والحدق يجد ان من غير المعقول ان تصنع قانونا.. او مبدأ في القرن الثاني الهجري، ثم تجي بعد ذلك فتطبق هذا القانون في عام ١٩٣٦.

ثانيا: عدم صلاحية نظام الحكم في الاسلام للتطبيق في العصر الحديث كما يقول المراغي: ان في امكان اي حكومة اسلامية ان تخرج عن دينها فتصبح حكومة لا دينية، اي علمانية، وليس في هذا مانع من ان يبقى الشعب على اسلامه. بعد جعل العقل هو الحاكم وبالتالي تكون السيادة للشعب في الديمقراطية وللشرع في الاسلام لان من الاسس التي تبني الديمقراطية فلسفتها عليها كون العقل هو الحاكم، فكر باطل مردود بنص القرآن بقوله تعالى: ﴿فما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله﴾. لان القوانين المنبثقة عن الديمقراطية التي تفصل الدين عن الحياة قامت اصلا على العقل كافرة منكرة للاسلام كنظام عامل شامل كامل لجميع شؤون الحياة والانسان والكون. فالحاكم هو الشرع، وهو صاحب السيادة المطلقة في الحياة السياسية الاسلامية. لان السياسة ما وافق الشرع.

ثالثا: ان الاسلام لم يتعرض لنظام الحكم الا نادرا: اي ان الاسلام نظم جانبا قليلا من نظام الحكم، وترك بقية النظام دون تنظيم. لان القرآن والحديث لم يتعرضا لنظام الحكم الا في القليل النادر. ولم يبين النبي للناس نظام الحكم من بعده، كما يقول الطماوي المصري.

رابعا: ترك الاسلام تنظيم كافة اوجه الحكم ليتناسب الاسلام مع التطور: لان ما يصلح للدولة في المدينة، لا يتمشى مع حالة الدولة في بغداد ولا كذلك في استانبول، باعتبار ان العصر دوما له طابعه المميز. لذلك، اقتضت الضرورة التطور البشري، واختلاف الظروف باختلاف العصور ألا ينزل الاسلام بصورة مفصلة موحدة لكيفية نظام الحكم.

وان التعميم الذي لا ينزل الى التفصيل الجزئي يقيد الاجيال المقبلة بهذا التفصيل، بل يتركها حرة تقتبس الوضع فيه الملائمة العملية لحاجات كل زمان ومكان. لذلك فان لا شورى من الامور التي تركت نظمها دون تحديد. لتحددها الديمقراطية لان نظام الحكم في الدولة الاسلامية الاولى كان ساذجا يغلب عليه طابع البداوة كما يقول شلتوت وسيد سابق والعربي.

ولم يكن التطبيق الاسلامي الاول قد صادف بيئة محلية او عالمية نضجت فيها الآراء بشأن انظمة سياسية متكاملة، ومن ثم كان الفقه بسيطا في شؤون السياسة والاقتصاد كما يقول فتحي عثمان. وحتى يمكن تطوير نظام الحكم الاسلامي تبعا لمقتضيات ظروف الزمان والمكان والوعي الحضاري عند الجرف.

هذه جملة تصورات فردية تؤكد عدم احاطة الشريعة بكافة جوانب الحياة وان نظام الحكم الاسلامي تركت معظم تفصيلاته بلا معالجة للديمقراطية، اي انهم يقولون بعدم شمول النظام الاسلامي.

ولرد هذه الشبهة المخالفة للإسلام، ونفيها عنه لا نها ترمي الشريعة بالنقص وعدم الكمال، واهمال بعض جوانب الحياة وان هناك مشاكل سياسية واقتصادية لم يعالجها الاسلام فاجعلوا العقل هو الحاكم تأثرا بالديمقراطية الغربية التي تجعل السياسة للشعب مشاركة لله في حكمه، ولا بد من عرض هذه الشبهة على القرآن، لنفيها لانه ينص على احادة الشريعة وشمول الاسلام لجميع جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. لقوله تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾ وقوله:

﴿اليوم اكملت لكم دينكم﴾ فالشريعة لم تهمل شيئا او فعلا العباد مهما كان، فان الزعم بأن هناك شيئا او فعلا لم يبينه الكتاب، وان هذا الدين لم يكمله الله، بدليل وجود فعل لم يذكر حكمه، فهو دين ناقص، وهذا معارض لنص القرآن ولذلك يكون زعما باطلا.

فالقول بأن الصورة التي جاء بها الاسلام لنظام الحكم كانت ساذجة وبدائية، ولا تصلح للتطبيق في العصر الحديث، ينطوي على دعوى خطيرة ومرفوضة من اساسها ايا كان قائلها لان شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن هي شريعة كل زمان، جاءت للانسان في كل زمان وفي كل مكان، لا لجماعة من الناس في جيل من الاجيال، وفي مكان من الامكنة.

فالشريعة شاملة كاملة لجميع نواحي الحياة فلا نقصان فيها ولا زيادة من البشر عليها في جميع الامور السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فكان الاسلام هو ذلك الدين الشامل الكامل القادر على معالجة ما دق وجل من مشاكل الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. والخروج عن هذا المنهج في جزئية منه، كالخروج عليه كله، يعني ان الشرع قد جاء بكل حكم لازم التقيد بما حكم به بوصفه صاحب السيادة. لانه لو ترك للعقل الاهتداء الى وجه الثواب والعقاب لما كان في قدرته في

ذلك.

وبالتالي، فانه يضع القوانين حسب الهوى، فتقصر العقل عن ادراك الامارات التي جاءت بها الادلة الشرعية لدليل على عجز العقل عن سن القوانين. لذا فالاحكام الشرعية المستنبطة من الادلة، كافية في الكشف عن جميع النظم الاسلامية، بواسطة الاجتهاد، وعدم القدرة عليه، لا تعني رمي الشريعة بعدم الشمول والاحاطة. لان هذا يعني عدم الايمان بقوله تعالى: ﴿اليوم اكملت لكم دينكم﴾ وبالتالي اقرار بأن هذا الدين ناقص. ولا يجوز لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ان يقول: بأن هناك فعلا او شيئا ليس له حكم مسابقة لروح التطور وحتى تتناسب الشريعة مع كل زمان ومكان، لانه لا يجوز ان يكون حكم لشيء ما او فعل ما، دون ان يكون له دليل من الشرع لان الحكم هو خطاب الشارع.

ولا يجوز الادعاء من بعض الناس بان هناك شيئا لم يبين الشارع حكمه يعني ان هناك شيئا لم يبينه القرآن ناقص، لمعارضة القرآن الدال على كمال الشريعة وشمول الاسلام. لكل ما يمكن صدوره عن الانسان من افعال ففيه ما ينظم للانسان كل نواحي الحياة في كل زمان ومكان.

فكل قول مهما كان قائله يذهب الى وصف الاسلام بعدم اتيان بنظام ما للانسان، قول ساقط الاعتبار فضلا عن مخالفته لصريح القرآن، والمسألة ليست مسألة بيان اوجه الحكم المترتبة على هذا القول، بقدر ما هي ناسفة للاسلام من جذوره. كقول المراغي شيخ الازهر.

فالاسلام عقيدة انبثقت عنها انظمة تنظم كل ما في الحياة والانسان، شاملة كاملة. وقد احاطت الشريعة بجميع افعال الانسان احاطة تامة للاصول والفروع، للكليات والجزئيات، حاوية لاحكام المشاكل الجارية جميعها، والحوادث التي يمكن

حدوثها بأكملها، فلكل شيء او فعل حكم في الشريعة لقوله تعالى: ﴿اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾ لذلك يقول فضل الله في تصوره للإسلام رداً على التصورات الفردية والحركات السياسية الراضية نظرية الحكم في الإسلام حين يقول: دع الخلق للخالق واهل السياسة للسياسة فهو طرح لا يقرّه الإسلام. لان النظرية السياسية من اركان الإسلام، وانا لا نتصور كيف يمكن ان يكون الإسلام بعيداً عن الحكم، والإسلام يملك فقها، يمثل القانون الشامل لكل نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وبه الامام الخميني الى خطر فصل الدين عن السياسة فقال: ان احد قادة الاحتلال البريطاني للعراق حينما سمع صوت المؤذن سأل عن الضرر الذي يسببه هذا الاذان للسياسة البريطانية، فأجيب بانه لا ضرر من ذلك قال: فليقل ما شاء ما دام لا يتعرض لنا، وانت اذا كنت لا تمس السياسة وكنت في دراستك للاحكام لا تتجاوز النطاق العلمي فلا شأن لهم معك.

فالاسلام دين العاملين المجاهدين... ولكن الاعداء اظهروا الاسلام بغير هذا المظهر فقد رسموا له صورة مشوهة، وغرسوها حتى في المجامع العلمية.

وقال الخضر الحسين: ان فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم حقائق الدين ولا يقدم عليه المسلمون الا بعد ان يكونوا غير مسلمين، لان عقيدة فصل الدين عن الدولة عقيدة كفر لانها تعطيل لآيات الحكم وايمان بآيات العبادات لقوله تعالى: ﴿تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ وقوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾.

وهناك الآيات الكثيرة الدالة على تفصيلات الحكم في الإسلام. فاذا لم يكن للإسلام دولة فلماذا نزلت هذه الآيات؟ ومن الذي يطبق ما فيها من الاحكام؟ وعلاوة

على ذلك فان الواقع التاريخي في حياة النبي والصحابة ومن بعدهم يدل دلالة واضحة على ان الاسلام كان نظاما للدولة والحكم. واذا انكر على الاسلام ان له دولة تنفذ الاحكام، وتسوس الامة، فماذا يفعل في نصوصه الصريحة في الحكم؟ وكيف نغمض اعيننا عما كان يفعله النبي من ارسال الولاة للأقاليم، ليحكموا بين الناس في امورهم؟ حقا ان الاستعمار قد اوغل في ماديته، حين افترى على الاسلام انه دولة دينية وحين افترى عليه ان الدين غير الدولة، وحين افترى عليه انه ليس للاسلام دولة. ومع ان هذه المفتريات متناقضة مع بعضها، ومناقضة للحقيقة التاريخية التي لا ينكرها انسان، مع ذلك فقد خدع ابناء المسلمين بهذه الاباطيل ولسنا بصدد الرد على الاستعمار هذا الافتراء والتضليل، كما اننا لا نتعرض لهؤلاء المفتونين او المأجورين، لان قضية كون الاسلام ديننا منه الدولة ليست قضية ذات موضوع، لانها من البداهة بحيث يعلمها حقا كل انسان، كما يعلم الواحد نصف الاثني، ولكن القضية ذات الموضوع هي اننا نريد استئناف حياة اسلامية في الحكم، لانه امر لازم لنا لزوم الماء للحياة، لنعود الى نظام الاسلام الذي هو اساس سعادتنا.

ولن نستطيع العودة اليه الا اذا عادت دولة الاسلام وحكمه، ولذلك يجب ان يصمم المسلمون اليوم على ايجاد الحكم الاسلامي، ليعودوا الى الاسلام.

٤- من حقوق الانسان: الديمقراطية والتعددية:

تمهيد: نشأة فكرة حقوق الانسان:

نشأت فكرة حقوق الانسان في اوربا في القرن التاسع عشر نتيجة الصراع المحتمل بين الكنيسة ورجالها من جهة وبين المفكرين والفلاسفة من جهة اخرى،

فقد نادى لوك بالحقوق الطبيعية للأفراد المستمدة من فكرة القانون الطبيعي وهو القانون المستمد من طبيعة الانسان والاشياء، حيث يتوصل الانسان بعقله، بعد دراسة خاصيات الانسان الى وضع التشريعات الكفيلة بصيانة حقه الفردي واسعاده في الحياة الدنيا.

بعد الصراع المرير بين الفريقين انتصر رجال الفكر على رجال الكنيسة، فقرروا فصل الدين عن الحياة، ونشأ جراء ذلك المذهب الحر، الذي افرزه فكرة حقوق الانسان. وبالنظر في هذا المبدأ الرأسمالي نجد ان للحقوق الطبيعية للانسان اسسا ثلاثة هي:

اولا: ان الحقوق الطبيعية للأفراد سابقة للوجود السياسي، اي سابقة لقيام الدولة، ولذلك تقع على الدولة مسؤولية احترام الحقوق والحريات الفردية، والامتناع عن المساس بها، بل ورعايتها.

ثانيا: ان وقوع تناقض بين سلطة الدولة وحرية الفرد يحسم لصالح الحرية الفردية، وذلك لان الغاية من قيام الدولة هي حماية الحريات الفردية اي حماية الحقوق الطبيعية للانسان كفرد.

ثالثا: ان جعل الحرية الفردية اساسا للوجود السياسي للدولة يقتضي تقييد سلطة الدولة بما يحفظ الحرية الفردية وتمنعها من التعسف في تقييد حرية الافراد.

وبناء على هذه الاسس عمد مفكرو المبدأ الحر الرأسمالي الى استبعاد القوانين الالهية التي تقيد الحريات الفردية، وتحدد حقوق الانسان الشرعية، والى الاستعاضة عنها بالقانون الطبيعي المستند الى الواقع والعقل، فبرزت فكرة حقوق الفرد مقابل الدولة التي اصبحت تعرف فيما بعد بحقوق الانسان، فنادت بها الثورة الاميركية عام ١٧٧٦، والثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، ثم اكتسبت الفكرة بعد الحرب العالمية الثانية،

على يد هيئة الامم التي انشأتها الدول الكبرى، لحفظ مصالحها، وفرض هيمنتها على العالم كأميركا الآن.

وبعد ذلك توالت المؤتمرات، وصيغت المواثيق الدولية الداعية الى حفظ حقوق الانسان والتي جعلت الفرد محور اهتمامها وركزت على حماية حرياته الاربع: حرية العقيدة وحرية الرأي وحرية الملك والحرية الشخصية. ففي عام ١٩٤٨ صدر عن الامم المتحدة، الاعلان العالمي لحقوق الانسان وفي عام ١٩٦٦ صدر العهد الدولي بشأن الحقوق المدنية والسياسية، وفي عام ١٩٩٣ صدر البيان الختامي لحقوق الانسان المتضمن تعديلات الميثاق.

تهافت فكرة حقوق الانسان:

ان فكرة حقوق الانسان المبنية على الحقوق الطبيعية في الفكر الرأسمالي متهافئة تنظيرا وواقعا. فمن حيث التنظير نجد ان بعض المدارس الفكرية كالداروينية اليهودية قد نادى بقاعدة البقاء للأصلح وهذه تنكر حق بعض الافراد في الحياة، وهي تناقض الحقوق الطبيعية لكل فرد. لقد كان للوثيقة الفرنسية فعلها الكبير في اطار الحركات الاصلاحية في القارة الاوروبية. ثم انتقلت بعض تأثيراتها الى العالم الاسلامي فيما يسمى بعصر النهضة.

وبعض النظريات في علم النفس التي يتبناها الرأسماليون، تدّعي ان بعض البشر عدوانيون بطبعهم، والبعض الآخر أليفون بطبعهم وبذلك لا توجد مساواة طبيعية بين الناس تعطي كل انسان الحق نفسه، ويترتب على توحيد حقوق الانسان فقدان بعض الناس لحقوقهم.

كذلك لا يوجد اتفاق بين المفكرين على وجود حقوق طبيعية اصلية بمعزل عن الوجود المجتمعي، فالعديد منهم يرى ان التشريع المتضمن حماية حقوق الانسان

وليد التطور المجتمعي والمادي معا، ولا يمكن فصله عنهما. اما من حيث الواقع، فان الدساتير والمواثيق الوضعية تناولت حقوق الانسان بأسلوب عاطفي ادبي، مما يعطي المرونة للسلطة الحاكمة في اقرار بعض الحقوق، وفي التنكر لبعض الحقوق الاخرى، وتمكنها هذه الصياغة غير القانونية، من الالتفاف على النصوص ولي اعناقها لما فيه مصلحة هذه السلطة.

كذلك لم تشر المواثيق الدولية لحقوق الانسان، الى آلية تنفيذ تلك الحقوق، فلم تنص على الطرق او الوسائل الكفيلة بضمان تلك الحقوق، ولا على عقوبة محددة لخرقها، واكتفت بالنص على ضرورة الالتزام بها وصيانتها. التزاما ادبيا. لا سلطة تنفيذية لانتهاكها، ولذلك تنتهك في بلاد كثيرة دون صيانتها بالديمقراطية المتهافئة التي يدعون اليها لصيانة حقوق الانسان.

هذه الكلمة كثيرا ما نسمعها اليوم في الاندية السياسية والمحافل العلمية، وهي لا تزال تعاد وتكرر منذ اواخر القرن الماضي. ولكن الذين ينطقون بها، ويلهجون بذكرها، قلما يوجد من درس الاسلام فكريا، وانعم النظر في احكامه، واجتهد ان يتفطن الى اوضاعه السياسية ووقف شيئا من جهده لمعرفة مقام الديمقراطية في الاسلام. وتطبيقها في البلاد الاسلامية لمحاربه.

هل الديمقراطية نظام جاءت به العقيدة الاسلامية، فناًخذ به وننادي بتطبيقه؟ ام نظام لم تأت به العقيدة، فنقف منه موقفنا من كل ما احدث في الاسلام مما هو ليس منه فترده ولا نأخذ به. لكن الذي وقع، ان الغرب عند غزوه الفكري للعرب نشر افكاره بين المسلمين على انها احكام شرعية، ورصد الجوائز لمن يقدم ابحاثا من علماء الامة الاسلامية تدور حول افكاره على انها افكار اسلامية.

وانه لعجيب حقا ان نجد كثيرا من علمائنا ومفكرينا يحاولون ان يدخلوا تحت

رأية الاسلام واسمه نظرية غربية غريبة عليه، في الوقت الذي نجد فيه بعض كبار علماء الفقه الدستوري في الغرب يهاجمون تلك النظرية، ويرون ان الظروف التاريخية التي ادت الى استنباطها قد اصبحت في ذمة التاريخ.

وهذا ما جرى لكثير من العلماء حين عدوا نظرية سيادة الامة والديمقراطية احكاما شرعية. وعلى هذا يمكننا القول: انه من باب التضليل المؤدي الى ابعاد الحدود، ان يحاول الناس تطبيق مصطلحات لا صلة لها بالاسلام على الافكار والانظمة الاسلامية. لقوله تعالى: ﴿ لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ﴾.

فقد وصلت الجرأة ببعض على وصف الافكار الغربية بانها من اسمى ما انزل الله تعالى في القرآن العظيم. ولا ريب في هؤلاء انما هم مهمزومون فكريا، مصبوغون ثقافيا، بحضارة الغرب وافكاره، لانه قد غشى على افكار الباحثين المهزومين ذلك التصور الغربي لطبيعة الدين. كما قال سيد قطب في معالم الطريق ص ٨١ فراحوا يكملون الاسلام بثقافة الغرب الكافر، فعدوا الديمقراطية حكما شرعيا، وسموها الديمقراطية الاسلامية. لانه قد نزل القرآن بها والنهي عنها بقوله: لا تقولوا راعنا وجاء الاسلام فشمّل دعوة صريحة الى نظام حكومي هو الديمقراطية في اسمى اوضاعنا. كما قال العربي في النظم الدستورية الحديثة ص ١٧١. بل رموا بالجهل من لا يعلم ذلك ورأوا ان كثيرا من المسلمين لا يعلمون قاعدة الاسلام في نظام الحكم. لانهم لو تأملوا ما كان عليه الخلفاء الراشدون، وهو اشد صور الحكم الاسلامي انطباقا على الشرع لرأوه ديمقراطيا بحتا.

اي ان الديمقراطية قد قام اجماع الصحابة على انها صورة نظام الحكم الاسلامي، ذلك لان اهم ما تحتوي عليه الديمقراطية من عناصر، وافضل ما تتميز به من صفات، يشتمل عليه الاسلام، كما يقول الريس في النظريات السياسية الاسلامية ص ٣٣٧.

من اجل ذلك قيل عند الشكعة في كتابه: اسلام بلا مذاهب ص ٣٨: لا جرم اذن ان يقال ان الاسلام ابو الديمقراطية. واول ما تقتضيه الديمقراطية السليمة هو تنفيذ قوله تعالى: ﴿وامرهم شورى بينهم﴾.

وبناء على هذا النص فانهم قرروا ان الشورى هي لب الديمقراطية واصلها عند سيد سابق في كتابه: عناصر القوة في الاسلام ص ١١٩. فاذا كان هذا هو رأي العلماء والادباء والمفكرين ورجال القانون في ان الديمقراطية حكم من الاحكام الشرعية، لذا ترى معظم الدساتير في بلاد المسلمين، قد نصت على ان الديمقراطية هي نظام الحكم وان السيادة للشعب.

بينما تحتل الديمقراطية هذه المكانة عند الناس في العالم الاسلامي، وتخلع عليها الاوصاف الشعبية لتحبيب الشعب بها ليقبلوا نظاما للحكم، نجد ان النظام الديمقراطي يتعرض في بلاده الى النقد، وعدوا ارجاع ملكية السيادة للامة عملا مخيفا. لان ذلك المبدأ يقذف بنا للسير في الطريق المخيف للاستبداد البرلماني.

انهم يرون في النظام الديمقراطي القائم على نظرية سيادة الامة... يترع بأصحابه الى اعتبار ارادة الامة ارادة مشروعة بذاتها اي الى اعتبار انها تمثل دائما الحق والعدل..

ان هذا المبدأ ينطوي على الادعاء بأن السلطة تكون مشروعة نظرا لمصدرها، وبناء على ذلك فكل عمل صادر عن ارادة الامة يعد عملا مطابقا لقواعد الحق والعدل، وانه يعد اذا فوق متناول الشك والمناقشة من هذه الناحية، لا لسبب الا لانه صادر عن ارادة الامة، فهذا المبدأ ينسب الى الشعب صفة العصمة من الخطأ، ولذلك فهو يؤدي بالشعب او ممثليه الى الاستئثار بالسلطة المطلقة اي الى الاستبداد اذ انه طالما كانت ارادة الشعب تعد مشروعة، لا لشيء الا لكونها صادرة من الشعب فان الشعب يستطيع ان يفعل كل شيء، وهو يغدو في غير حاجة الى ان يأتي بمبررات لما يعمل ويريد.

ان وجود النظام الديمقراطي من خلال فرض واقع السيادة للامة قد عاد بنتائج عكس ما كان اتباع النظام الرأسمالي يتوقعونه. فهم يرون ان نظرية سيادة الامة رغم انها نظرية مصطنعة، فانها كانت تصبح جدية بالتأييد لو انها كانت مفسرة للحقائق، ولكن الواقع عكس ما كنا نتوقع كما يقول ستوارت في نظم الحكم الحديثة ص ٣٥٩.

ان الشيوعيين يصرون على ان الفقه الديمقراطي القائم على حرية الفنون والعلوم والسلوك الشخصي، انما هو مذهب فاسد، وانهم يحتجون بأن الديمقراطية بافساد الشعب وخاصة شبابها عن طريق الافلام والمسرحيات وبث التفاهة والفحشاء باسم الحريات العامة والخاصة.

اذن فالديمقراطية تعيش في اذهان جماهير المسلمين محلاة بأبهي صورة، وفهمهم لها انما هو قائم على اساس ان الديمقراطية هي الشورى الاسلامية. فهل الديمقراطية حكم شرعي دلت على النصوص؟ ام ان الديمقراطية حكم من احكام الكفر... وبالتالي يحرم تطبيقها، لانه نظام كفر ما انزل الله به من سلطان؟ قائم على اساس ان السيادة للامة.

والسيادة في الاسلام للشرع تنقّص الواقع الصحيح للديمقراطية بمفهومها المشخص في عقلية الرأسماليين، لا بمفهومها المغلوط لدى العلماء والمفكرين، المصبوغين المهزومين من ابناء المسلمين. وتبني الديمقراطية وفرضها على شعوب العالم اجمع وذلك بالقوة والترغيب والترهيب، والاقناع فأن اميركا حامية وحارسة للديمقراطية، ترسل جيوشها للحفاظ عليها، وعلى ما ينبثق عنها من افكار كالحريات العامة وحقوق الانسان.

والديمقراطية كما هو معروف نظام وضعي عقيدتها تناقض عقيدة الاسلام ونظامها

يخالف نظام الاسلام الشوري الحدودي. بتبني التعددية السياسية في البلد الواحد، وهي فكرة مبنية على النظام الديمقراطي بحيث يسمح بتشكيل احزاب مهما كانت الافكار القائمة عليها، من اجل فهم الاسلام فكرة وطنية، لا دين امة واحدة، واحتواء الحركات الاسلامية، وتوجيهها لقبول الديمقراطية والتعددية السياسية، والحريات العامة وقوانين الامم المتحدة، لتميع افكار الاسلام وابعاده عن الحياة.

لان عقيدة الديمقراطية تفصل بين الدين والحياة والسياسة. وعلى تسخير الحكام والعلماء والمفكرين التابعين لها بوضع المنهج التعليمي التي تخدم هدفها لتنشئ جيلا جديدا منكرا لاسلامه وحضارته. داعيا الى نظام شرق اوسطي وتنمية اقتصادية ومعاهدات سلام بين اسرائيل والمسلمين، للقضاء على عقيدتهم.

باسم الوسطية والحل الوسط الذي لم يظهر عند المسلمين الا في العصر الحديث. وقصد به الاعتدال، وهو مصطلح دخيل في لفظه ومعناه، مصدره الغرب والديمقراطية، ذلك المبدأ الذي بنيت عقيدته على الحل الوسط، الذي نشأ نتيجة الصراع الدموي بين الكنيسة والملوك التابعين لها من جهة، وبين المفكرين والفلاسفة الغربيين من جهة اخرى.

وبعد صراع مرير بين الفريقين اتفقوا على حل وسط وهو الاعتراف بالدين كعلاقة بين الانسان والخالق، واتخذت الديمقراطية فكرة فصل الدين عن الحياة، عقيدة لمبدئهم، الذي انبثق عنها النظام الرأسمالي، الذي نهضوا على اساسه ثم حملوه الى غيرهم من الناس بطريقة الاستعمار.

وكان اثر هذا الحل الوسط بارزا في كل تشريع او سلوك عند اصحاب المبدأ الرأسمالي، فاعتمدوا على رأي الاغلبية في اخذ التشريع وهم في سلوكهم تجاه القضايا السياسية يتبنون الحل الوسط ففلسطين مثلا، يطالب بها العرب المسلمون على

انها كلها بلادهم، وفي نفس الوقت يدعي اليهود انها ارض الميعاد، فتتنفق الدول الاجنبية عام ١٩٤٧ على ان حل المشكلة الفلسطينية هو اقامة كيانين في فلسطين، ومبدأ الارض مقابل السلام، ويظهر هذا الحل في كثير من المشكلات الاسلامية. وبدل ان بنقد المسلمون فكرة الوسطية، ويبنوا خطأها وزيفها، اخذوا بها وصاروا يدعون اليها وانها موجودة في الاسلام، بل هو قائم عليها، فهو بين الروحية والمادية وبين الفردية والجماعية، وبين الواقعية والمثالية، وبين الثبات والتغير فلا غلو ولا تقصير، ولا افراط ولا تفريط.

فلا عجب ان تتجلى في كل جوانب الاسلام، فالاسلام وسط في الاعتقاد والتعبد، ووسط في التشريع والاخلاق وهكذا... تكون الدعوات والافكار والمؤتمرات، الداعية الى وحدة الاديان الماسونية، والحوار بينها، ما هي الا هجمة يشنها اعداء الاسلام على هذه الأمة، لتشويه افكار الاسلام وتميعها، ولحرف المسلمين عن دينهم الصحيح، بضرب رابطة العقيدة عندهم، وابدالها بروابط الوطنية والقومية. بقولهم: حب الوطن من الايمان. والدين لله والوطن للجميع.

الخلاصة

الشمولية

أ - مظاهرها:

- * شمول النظام الاسلامي لكل نواحي الحياة.
- * الترابط والانسجام بين الانظمة الاسلامية.
- * العلاقة بين النظرة الكونية والقيمة السلوكية.
- * العلاقة بين الدين والدنيا والدولة.

ب - نفي الشبهات والأخطاء:

* التجزئة بين الدين والدولة.

* العلمانية.

* التصورات الفردية للإسلام.

* التعددية (بلوريسم).

تناول نظام الإسلام جميع شؤون الحياة، بشكل عام، واسلوب واحد ولهذا لا يتناول مشكلة في عزله عن باقي المشاكل بل يتناول جميع المشاكل ويضع لها قواعد كلية عامة وخطوط عريضة متفقة مع القواعد الكلية، حتى تتمشى المعالجة وفق فلسفة كبرى تنبثق عنها هذه القواعد العامة، ولذلك كانت طاقة الإسلام قوية، وكانت فواعده ثابتة، وصالحة لمختلف العصور والبيئات، فتتسع القاعدة العامة الواحدة لكافة الحوادث المنتظمة في سلكها اذا اتفقت في حقيقتها، ولا تتغير الاحكام بتغير الزمان، اي لا يكون الزمان والعرف سببا للحكم، بل يدور مع علته الشرعية وجودا وعدما، وما لا ينص فيه فوظيفة الاجتهاد استنباط حكم من القواعد الثابتة، وعلى هذا كان لزاما على المسلمين ومنهم العرب وضع الدستور اللازم والقوانين والانظمة لمعالجة مشاكلهم من الإسلام وفق المصلحة العامة للامة.

ويسمى هذا دستورا وقانونا اسلاميا اذا استنبطت احكامه باجتهاد صحيح من نصوص الإسلام في اصوله ومصادره: القرآن والسنة والاجماع والقياس.

وبهذا يوجد الحل الحاسم للمشاكل العامة والخاصة في كافة شؤون الحياة للامة سياسة واقتصادا واجتماعا. فهذه الانظمة مترابطة ومنسجمة فيما بينها لان النظم هي ضوابط الاعمال الانسانية في الحياة سواء كانت هذه الاعمال ناتجة عن علاقة الرجل بالمرأة ام عن علاقة الفرد بالفرد من ناحية اقتصادية، ام ناتجة عن ضمان حسن علاقة

الفرد بالفرد بوجه عام، ام عن علاقة الفرد بالدولة باعتباره محكوماً وباعتبارها حاكمة، ام ناتجة عن علاقة الجماعة والدولة بغيرها من الدول، وهذه الاعمال كلها لا بد لها من انظمة تضبطها. لان التعارض بينهما اساسي في طبيعتهما ومن هنا قامت في المسيحية سلطتان، روحية وزمنية، وكان رجال الدين يحاولون ان تكون السلطة الزمنية معهم، حتى يرجحوا عليها السلطة الروحية في الحياة، ومن ثم تنشأ النزاع بين السلطة الزمنية والروحية.

واخيراً تم جعل رجال الدين مستقلين بالسلطة الروحية لا يتدخلون بالسلطة الزمنية، نتيجة صراع الفلسفة العلمانية للمفكرين وفلاسفة الغرب، ونتج عنهم فصل الدين عن الدولة، ويمثل الناحية الروحية القس.

وهذا هو اساس الحضارة الغربية، وهو موضوع القيادة الفكرية التي يحملها الاستعمار الغربي للعالم وينشرها به. ويجعلها عماد ثقافته وتعليمه وسياسته، ويزرع على اساسها عقيدة المسلمين بالاسلام، لانه يقيس الاسلام بالمسيحيين على طريقة القياس الشمولي. فكان من يحمل هذه الدعوة عقيدة فصل الدين عن الدولة او السياسة، انما هو تابع وموجه بتوجيه القيادة الفكرية الغربية، وعامل بحسن نية او سوئها من عملاء الاستعمار، لان الاسلام يرى ان انفصال الناحية الروحية عن الناحية المادية في الحياة يؤدي الى اضطراب نظام الكون واختلال شؤون الانسان، ويرى ان لا تعارض بين الناحيتين: الدين والدولة. اللتان كان اول من دعا لفصلهما الشيخ علي.

١- ففي الكتاب الاول: يهدم عبدالرزاق فكرة الخلافة زاعماً انه لم يجد دليلاً على حكمها من كتاب او سنة او اجماع وليس في اصول الشريعة ما يلزم بفرضها وضرورتها. واثبات ان الخلافة: تخالف الاسلام وما اجمع عليه المسلمون وتناقض الحقائق الثابتة وتشكك في الخلافة ونفاها اصلاً بافكار الادلة القطعية الصريحة عليها

دون تقديم ادلة قوية واضحة على ما يذهب الله.

٢- وفي الكتاب الثاني: يهدم فكرة الحكومة في الاسلام، ويبين انها خارجة عن شريعته بفصل رسالة الاسلام عن الحكم، ويقرر انه رسالة لا حكم. ودين لا دولة.

٣- اما الكتاب الثالث: يعرض فيه الخلافة الاسلامية والحكومة الاسلامية خلال العصور. ويختم كتابه^(١) بانه لا شيء في الدين يمنع المسلمين مسابقة الامم الاخرى في السياسة وهدم ذلك النظام العتيق الذي ذلوا فيه وبناء قواعد ونظام حكمهم على احدث ما انتجت العقول البشرية، واحسن ما دلت تجارب الامم انه خير اصول الحكم والنتيجة التي يريد ان يصل اليها من خاتمة كتابه هي: هدم نظام الاسلام القديم المذل للمسلمين كما يصفه وبناء نظامهم على نظام الغرب العقلي وتجارب امم التي يقول عنها احسن حكم والله يقول عن حكمه:

﴿ومن احسن من الله حكماً﴾ فالدولة والخلافة هي طريق الاسلام والمسلمين الصحيح والوحيد لتطبيق حكمه وشريعته. والفصل بين الدين والدولة هدم للدين والحكم والشريعة وجعله فلسفة ثقافية نظرية كما يقول عنه الحكام والمحكومون.

وبما ان انظمة الاسلام منبثقة عن فكرة واحدة هي عقيدته فمن البديهي ان يكون لهذه الانظمة على اختلافها قواعد كلية تجمعها بانسجام حتى يكون علاجها منسقا للاعمال منتجا المجتمع الاسلامي، بالنظم الاسلامية المترابطة التي تنظم للانسان القيام بتكاليف الحياة. يرفع شأن الجماعة ويسعدها، ويحفظ بقاءها، والقيام بالاعمال وفق هذه النظم عبادة لانها يجب تسييرها بالمثل الاعلى رضا الله ومقصود امنها تحقيق اجابة الله.

وعلى هذا الاعتبار قامت الانظمة الاسلامية التي عالجت جميع شؤون الحياة للامة باكملها، وربطها بها وانسجامها معها لتحقيق الوحدة. في قوله تعالى: ﴿ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون﴾. لتنبثق القيم السلوكية من النظرة الكونية للكون والانسان والحياة وايجاد المفاهيم الصادقة المنتجة عنها. وكان هذا الحل نفسه هو الاساس الذي يقوم عليه النظام الذي يتخذ وسيلة للنهوض، وهو الاساس الذي تقوم عليه حضارة، وهو الذي تنبثق عنه الانظمة، وهو الاساس الذي تقوم عليه دولته. ومن هنا كان الاساس الذي يقوم عليه الاسلام فكرة وطريقة هو الايمان بالله والنظرة الكونية للكون والانسان والحياة. التي هي ارقى نماذج الحياة.

والانسان ارقى نماذج الكون. فهي مسخرة له. ولذلك كان بالحق والمنطق ارقى عناصر الوجود. وما يصدق عليه يصدق على الحياة والكون بالأولى، فالكون محدود، لانه مجموع اجرام وكل جرم منها محدود، ومجموع المحدودات محدود. واذا نظرنا الى الاسلام نجده محدودا لانه ينمو في كل شيء الى حد معين، فهو بدهة محدود. ووجود المحدود دليل على وجود غير المحدود. المختلف قطعاً عن المحدود، وبما ان المحدود مادة فغير المحدود غير مادة. وغير مدرك للمحدود، فكان هذا الوجود لله. وقيمة منبثقة عنه ومرتبطة به. فالانسان يجب ان يكون سائراً في الحياة وفق انظمة الله جميعاً، لان الاسلام ليس ديناً لاهوتياً وانه يقضي على الاستبداد الديني.

فلا يوجد في الاسلام جماعة تسمى رجال دين وجماعة تسمى رجال دنيا، فهو دين ودنيا، بل جميع المعتنقين للاسلام مسلمين. وكلهم امام الدين سواء، وهذا ظاهر من فلسفة الدين العامة في العلاقة بين الدين والدنيا في مزج المادة بالروح في نظامه، وجعله نظاماً عاماً واحداً شاملاً لهما. وسر هذا المزج الذي يمتاز به الاسلام، هو النظرة

العميقة للكون والانسان والحياة، وقد نظرت بعض الاديان والانظمة الى ان المحسوس يتعارض مع الغيب.

ولذلك كان مزج المادة بالروح واجب، ليكون للروح اثر يظهر في المادة، وفي توجيهها نحو غاية سامية. ولهذا يجب ان يقضي حسب فلسفة هذا النظام على كل ما يمثل الناحية الروحية عن الناحية المادية. ولذلك فلا رجال دين في الاسلام، وليس سلطة دينية. ولا سلطة زمنية منفصلة عن الدين، بل الاسلام دين منه الدولة، وهي وسيلة لتنفيذ النظام. فسلطان الاسلام واحد يشرف على الدين والدولة. ويجب الغاء كل ما يشعر بتخصيص الدين بالمعنى الروحي، وعزله عن السياسة والحكم، وفصل المادة عن الروح. كما عند النصرانية، وهكذا سلك الاستعمار الى التغريب كل سبيل. وتغلغل في كل الميادين والفنون والقانون والتربية والتاريخ وغيره. واستعان عليه بالبرامج التعليمية والاعلامية والمؤتمرات التي يتعاون فيها المستغربون والمستشرقون على توجيه الفكر الاسلامي والهيئات الاسلامية ورجال الدولة والعلم والفكر.

وكان اهم ما اعتمد عليه من اساليب نشر الاهتمام بالآثار وتوجيهها لتدعيم العصبية الاقليمية والعناية بالدراسات المقارنة التي تزعمها: السنهوري وتلامذة مدرسته التغريبية الفكرة والمنهج القانوني المقارن امتدادا لمدرسة محمد عبده المقارنة بين الاسلام وغيره في دراسة وتدريس الشريعة الاسلامية والقوانين الغربية وهي عين ما يطلبه الاستعمار، ويعمل له لتبديل الشريعة بالقانون، وهي شر الحلول الغربية التي تأثر بها المسلمون والتي يصف جب^(١) دورها في العالم الاسلامي ومستقبل التغريب وما يصحبه من تعديلات لمعرفة المقياس الصحيح للنفوذ الغربي

وتغلغل الثقافة الغربية في الاسلام بالبحث عن الآراء الجديدة والحركات المستحدثة بدافع من التأثر بالاساليب الغربية لتصبح جزءا من كيان الدول الاسلامية.

ومن هنا بدأت المؤلفات المقارنة بتقديم زعيمها السنهوري رسالة الدكتوراه عن الخلافة^(١) الى جامعة ليون عام ١٩٢٦ بعد سنة من صدور كتاب علي عبدالرزاق.

وقدم السنهوري بحثا الى قسم الدراسات القانونية في معهد الدراسات العليا التابع للجامعة العربية يرسم فيه منهجه المقترح لدراسة الفقه الاسلامي في ضوء القانون المقارن مبينا فيه ان الفقه من وضع الفقهاء^(٢): وتركيزه في تيارات من التفكير القانوني بمقارنة الفقه الغربي الحديث حتى يتضح وجه الشبه.

ويقصد بذلك خرافة تأثر الفقه الاسلامي بالفقه الروماني: الشبهة الغربية لتبرير وضعه القانوني المدني مستمدا من الروماني والغربي واما مصادر الفقه الاسلامي ابتدعها الفقهاء عند السنهوري لتمتد يد التطور اليها متأثرا بمحمد عبده في دعوته الى النظام الديمقراطي الغربي، الذي عقيدته، فصل الدين عن الدولة، المناقضة للعقيدة الاسلامية ومخالفته لنظام الاسلام، لانه يستند الى الشعب، مصدر السلطات الثلاث.

ومن المساوىء البارزة للديمقراطية الغربية مقولة الاكثرية، فاختيار الحاكم، ومجلس النواب، واعطاء الثقة للوزارة، وسن القوانين كلها تتم بأكثرية اصوات الشعب، وهي فكرة مخالفة للحقيقة، ولا تنطبق على الواقع الصحيح، كما هو حاصل في الانتخابات البرلمانية.

وحتى يضمن القائمون على هذا النظام بقائه، واقناع الناس بصلاحيته، وضعوا طريقة لاحتواء المعارضين، باسم حرية الرأي الديمقراطي، سمحوا بتعدد الاحزاب،

(١) الرئيس: النظريات السياسية ص ١٦٦.

(٢) عثمان: المسلم المعاصر ١٤٨-١٩٧٥٢.

فيصل بعضها الى سدة الحكم بالحصول على اغلبيه برلمانية، واحزاب المعارضة، هي التي تتولى قيادة المعارضين لقرارات السلطة التنفيذية، بالاضرابات ضمن الدستور وما ينبثق عنه من قوانين تحت شعارات المصلحة العامة، ومصلحة الوطن ويجاري الظروف والاضاع.

فالمعارض في النظام الديمقراطي، وظيفة تقتضيها اللعبة الديمقراطية المقصود منها احتواء الظروف والاضاع، وظيفه تقتضيها اللعبة الديمقراطية لاحتواء وامتناص التيار المعارض لتسهيل سن القوانين، وتنفيذ القرارات التي تنفذها السلطة الممثلة للاغلبية.

فالتيار المعارض مرسوم له ان لا يصطدم مع السلطة لايقافها، وانما السلطة تنفذ اعمالها باسم الاغلبية، والمعارضة تقود الرأي الآخر وتحتويه لتحمي النظام منه، فالمعارضة صمام الامان تخدم النظام، فتزين وجهه القبيح للاكثرية، وتمتص الساخطين عليه، هذه هي المعارضة في بريطانيا واميركا، اما بالنسبة للعالم الثالث، ومنه العالم الاسلامي التي تدعي الديمقراطية التي اجبرت على ارتدائها، فانها صنعت المعارضة المشروطة بيدها، وشكلتها على هواها، بالشكل الذي تريد كما وكيفا، لتكون خادمة لها في بقائها، وفي ادعائها الديمقراطية وحرية الرأي، من اجل تنفيذ ما تطلبه الدول السيدة منها، هذه حقيقة المعارضة في النظام الديمقراطي الحقيقي، وفي الديمقراطية المزيفة.

النظام الإسلامي

شمولية وهدف واحد

✍️ الاستاذ عبدالله مرتضى

قم - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

لو أردنا ان نعدد مزايا الاسلام، لما استطعنا ان نصل الى حد، الى رقم محدد، ولضاقت الصفحات التي يمكن ان تستوعبها. ولكن نستطيع ان نميز ونفرز بين هذه المزايا الكثيرة، ميزة واحدة تقع في طليعة هذه المزايا وفي قمته، تلك هي ميزة الشمولية، او ميزة التعالي على الزمان والمكان. فالاسلام نظام شامل كل فرد يمكن ان يوجد على سطح هذه الكرة الارضية، اي شامل في الجغرافية، وفي الوقت نفسه شامل للتاريخ، لكل زمان مهما امتد وطال، فهو دين خالد، دين المكان والزمان الى قيام الساعة التي لانعرف متى ستكون.

واذا اردنا ان نعدد النواحي التي شملها الدين الاسلامي، فهي كذلك لاتحصى ولا تعد، فقد جاء هذا الدين ليغطي كل متطلبات الحياة المادية والمعنوية والروحية، وما من صغيرة ولا كبيرة الا واخذها بنظر الاعتبار فهو نظام للدنيا وتنسيق المتطلبات الحياتية الكثيرة جدا، وهو في الوقت نفسه اعداد كامل لما بعد هذه الحياة الدنيا القصيرة قياسا بالآخرة، فقد جمع بين الدنيا والآخرة،

وهذا الجمع هو كل ما يتطلبه الانسان ليكون سعيدا، وليكون مطمئنا في حياته وضامنا آخرته، ذلك العالم المجهول، الذي لانعرف من تفاصيله الا القليل. وحين تقارن الدين الاسلامي بالديانات الاخرى، السماوية والوضعية يقف ديننا الحنيف في مقدمة تلك الديانات، بل يلفها لفا فلا تكون شيئا مهما امامه فاذا سادت الديانة اليهودية في زمن محدد معلوم، وسادت الديانة المسيحية في زمن محدد معلوم آخر، واذا حكمت ديانات اخرى منطقة معينة محددة او قوما معينين، واذا جاءت تلك الاديان الاخرى بامور واحكام ومبادئ محدودة معروفة تناسب وقتها وجغرافيتها ومناطقها، فالدين الاسلامي جاء بمبادئ واحكام ومواد خالدة خلود الزمان والمكان الدنيويين.

هذه الشمولية وهذا العموم وهذا الخلود، هو احلى ما تحلى به الدين الاسلامي الحنيف فبها جميعا يستحق ان يكون تاجا لكل الاديان وبالفعل هو التاج الخالد لكل الاديان، فهو خاتم الاديان ونبية الرسول الكريم محمد بن عبد الله (ص) خاتم الانبياء ولا دين بعده، ولا نبي بعده.

وهذه الشمولية، وهذا التعدد في محتويات الدين، وهذا الخلود في الزمان والمكان وكل ما يتعلق بهذا الدين الحنيف، تتجه نحو هدف واحد، هدف كبير وعظيم، هدف فوق كل الاهداف ذلك هو الله تعالى الواحد الاحد، لا غيره ولا شريك له.

ففي مقابل الشمولية والتعددية في مصاديق الدين الاسلامي هناك هدف عظيم، هو الايمان بالله واحدا لكل افعالنا واعمالنا وحياتنا ودينانا. فهو المصمم المطلق الذي لا شبيه له ولا مثيل له. في قدرته، الذي صمم هذا الدين الكريم العظيم واعطاه هذه الشمولية والعمومية التي قدرها على قدر احتياجات عبده

في الدنيا والآخره.

ولو كانت هناك اهداف اخرى غير ذلك الهدف الواحد الاحد او اتجاهات نحو غير الله سبحانه وتعالى، وبعبارة اخرى لو تعددت الالهة التي يتجه نحوها الدين الاسلامي، لما كان هذا الدين العظيم المتناسق المتعدد الجوانب والواقع ضمن نسيج، النظام الاسلامي الخالد، الذي فاق كل الانظمة الالهية التي كانت قبله، وملاً اي فراغ يمكن لأي نظام ان يفكر الحلول فيه انه الخلود في الزمان والمكان الى قيام الساعة.

شمولية القرآن للزمان والمكان

من نافلة الحديث ان نقول ان القرآن كتاب عظيم، كتاب سماوي شامل و خالد، كتاب كوني على اعلى المستويات، اعترف به القاصي والداني، المؤمن، وحتى غير المؤمن من الملل الاخرى، في ماضي الزمان والحاضر والذي سيأتي مستقبلاً. والآراء والاقوال التي جاءت بحقه لاتعد ولاتحصى، لامجال لذكرها، لان البحث هنا لا عن القرآن نفسه وانما هو عن شمولية النظام الاسلامي للزمان والمكان.

واذا اردنا ان نعرف مدى التأثير والتغيير الذي اداه القرآن الكريم ابان الدعوة الاسلامية الكريمة- فيمكننا مقارنة العصر والواقع الذي كان قبل القرآن، والعصر والواقع ايام نزول القرآن وما بعده.

والكل يعرف كم كانت القيم الاجتماعية ظالمة في العصر الجاهلي مثل الاسلام، و كم كانت الصراعات كبيرة بين القبائل وبين الفئات المختلفة، وكم كانت الافكار منحلة والعقائد فاسدة والتعامل مع الاشياء والطبيعة غير معقول.

ويمكن هنا ان نقل اليكم نصا من «كتاب الاصنام» للكلمي يصدر منه الوضع الفكري للحياة قبل الاسلام كنموذج يمكن مقارنته مع الوضع الفكري الذي استجد بنزول القرآن الكريم ومقدم سيد الكونين محمد الرسول الاعظم (ص) يقول الكلمي: «واستمرت العرب في عبادة الاصنام، فمنهم من اتخذ بيعا ومنهم من اتخذ صنما .. ومن لم يقدر ولا على بناء بيت نصب حجرا امام الحرم وامام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها «الانصاب».. فكان الرجل اذا سافر فنزل منزلا اخذ أربته احجار، فنظر الى احسنها فاتخذه ربا، وجعل ثلاثة اثافي لقدره، واذا ارتحل تركه، فاذا نزل منزلا آخر فعل ذلك، فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون اليها، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة يحجون ويعتصمون اليها، وكان الذين يفعلون من ذلك في اسفارهم انما هو للاقتداء منهم بما يفعلون عندها ولصباة بها»^(١).

اما على المستوى الاجتماعي، فلا تقل الضحالة عن المستوى الفكري ويكفي ان نأخذ فكرة الوأد الشنيعة التي كانت سائدة عند الجاهليين، والتي ذكرها القرآن بانكار شديد بقوله: «واذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت»^(٢) وكيف كان التعامل مع المرأة او الانثى قال تعالى في كتابه: «واذا بشر احدكم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب الاساء ما يحكمون»^(٣) والقيم السيئة كثيرة يطول تعدادها، ويمكن للقارئ الرجوع الى مظانها وهي كثيرة.^(٤)

اما على مستوى العلوم والنظم المعرفية، فكان العصر الجاهلي فقيرا في هذا المجال، وخاصة اذا قارناه بالدول المجاورة من الفرس واليونانيين والروم وغيرهم فلم يكن لديهم نظام اقتصادي واضح، ولم يكونوا يملكون علوما منظمة

في الطب والهندسة والفلك والرياضيات والكيمياء، وانما هي متفرقات واوليات املتها التجربة ، ففي الطب مثلاً عرفوا بعض العقاقير واستعمالاتها من خلال التجربة لا وفق انظمة علمية وقوانين راسخة وقبلها كان الفلك فهي معرفة علمية ترتبط بالحاجة ولا تقع ضمن مفاهيم ونظريات^(٥) يقول صاعد الاندلسي «للعرب مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بانواء الكواكب وامطارها على حسب ما ادركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك في اسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق»^(٦)

ومثل الطب والفلك، معلومات في الحيوانات وطبها والزراعة وبعض الصناعات كصناعات الاسلحة ونحت الآلهة وغيرها مما كانوا يحتاجونه كل ذلك كان على وفق الحاجة والاستعمال اليومي الموقت، دون ان تكون هناك قوانين وانظمة تحكم معلوماتهم وصناعاتهم.

هذه هي صورة مختصرة للوضع الاجتماعي والمعرفي والعلمي في العصر الجاهلي، نقلناها لضرورة مقارنتها بالوضع الذي حدث بعد نزول القرآن الكريم وسيادة الاسلام في اوساط الجزيرة العربية وانتقالها فيما بعد الى المنطقة الاسلامية برمتها العراق ، فارس ، سورية، مصر...

لقد نزل القرآن الكريم في الجزيرة العربية، وعلى صدر محمد بن عبد الله (ص)، ولكن - في الحقيقة لم ينزل للجزيرة وحدها، ولا لزمان محمد وحده، وانما كان منذ البداية مصمما (ان صح التعبير) الى كل العالم، والى كل الزمان زمن محمد الرسول الاعظم وما بعده والى قيام الساعة - كما ذكرنا - والايات التي تدل على هذه الشمولية ليست قليلة، بعضها صريح واضح، وبعضها تستشفه من خلال الايات القرآنية جميعها، فحين نقرأ القرآن لاتجدده يخاطب فئة

محددة من الناس ولا قبيلة معينة ولا طبقة محددة وإنما الكل مخاطبون به جاء خيرهم لديناهم ومستقبلهم. والآيات الصريحة في ذلك خبر شاهد على ما نقول قال تعالى في محكم كتابه الكريم:

«وما ارسلناك الا كافة للناس»^(٧).

«وما ارسلناك الا رحمة للعالمين»^(٨).

فما تعنى «كافة للناس» في الآية الاولى، وما تعنى رحمة للعالمين في الآية الثانية، انهما دون شك تقصدان كل الناس وكل العالم بما فيه عالم الجن والانس. يقول السيد محمد حسين الطباطبائي: «قوله تعالى «وما ارسلناك الا رحمة للعالمين» اي رحمة مرسلة الى الجماعات البشرية كلهم - والدليل عليه الجمع المحلى باللام - وذلك مقتضى عموم الرسالة وهو (ص) رحمة لاهل الدنيا من جهة آتيانه بدين في الاخذ به سعادة اهل الدنيا في دنياهم واخراهم.

وهو (ص) رحمة لاهل الدنيا من حيث الاثار الحسنة التي سرت من قيامه بالدعوة الحققة في مجتمعاتهم مما يظهر ظهورا بالغاً بقياس الحياة العامة البشرية اليوم الى ما قبل بعثته (ص) وتطبيق احدي الحياتين على الاخرى»^(٩).

وحين يتحدث السيد الطباطبائي عن سورة الحمد: «الحمد لله رب العالمين» يقول (واما «العالمين»: فهو جمع العالم بفتح اللام بمعنى ما يعلم به كالقالب والخاتم والطابع بمعنى ما يقبل به وما يختم به وما يطبع به، يطلق على جميع الموجودات وعلى كل نوع مؤلف الافراد والاجزاء منها كعالم الجماد وعالم النبات وعالم الحيوان وعالم الانسان، وعلى كل صنف مجتمع الافراد ايضا كعالم العرب وعالم العجم)^(١٠).

القرآن اذن كامل شامل كل اهل الارض وما يتعلق بهم، وكل زمان الارض

المرتبط بهذه الدنيا، وبالفعل، ما ان نزل القرآن حتى انتشر خارج النقطة التي انطلق منهما ناشرا انواره واحكامه وعلومه في كل اصقاع الارض، فدخل الناس في دين الله تعالى افواجا مقبلين على الاسلام الذي خلصهم من عبودية العبيد، من ظلم الامبراطوريات الكبيرة الروم والفرس وخصهم من عبادة الاوثان والاصنام، مقدا لهم نظام متنوعة اخلاقية اقتصادية، اجتماعية معرفية وكل ما يحتاجه انسان في سبيل تنظيم حياته الدنيوية والاخروية، جامعا بينهم، تحت اطار واحد وشعار واحد الايمان بالله الواحد الاحد والايمان بالنبى الاكرم محمد (ص) وبالاحكام التي انزل الله، فالكل تحت هذا الاطار التي اطلق عليها «الاسلام».

لقد جاء الاسلام رحمة الى كل العالم، وفي فترة وجيزة انتشر وساد مناطق كبيرة من العالم شملت رقاعا شاسعة جدا. وفي هذا الصدد نذكر ما قاله المؤرخ طه باقر: «انه لم يمضي زمن طويل على نجاح الدعوة الاسلامية في الجزيرة العربية في عهد الرسول (ص) وتوطيد دعائمها في عهد الخلفاء الراشدين (٦٣٢-٦٦١م) حتى انتشر الاسلام خارج الجزيرة في فترة زمنية قصيرة مدهشة. وامتدت الفتوح العربية بسرعة خاطفة الى جميع اقطار الشرق الادنى والاقاليم الشرقية وازدادت اتساعا في عهد الدولة الاموية (٦٦١-٧٥٠م، ٤١-١٣٢هـ)، فشملت رقاعا شاسعة دخلت ضمنها شمالي افريقية والاندلس (اسبانية ٧١١) وبلاد ايران واقاليم ما وراء النهر. وتوطدت الاحوال السياسية والتنظيمات الادارية لتلك الامبراطورية الواسعة في عهد الدولة العباسية (٣٢-٦٥٦هـ، ٧٥٠-١٢٥٨م). التي شملت بلدانا كثيرة من اقصى المغرب واسبانية وجزرا مهمة في البحر الابيض مثل صقلية مكريت وقبرص ومالطة وسردينية وجنوبي ايطاليا. والى الشمال من الجزيرة

العربية شملت بلاد الشام واربينية، وفي الشرق والجنوب الشرقي بلاد القوقاز وفي شرق ما بين النهرين بلاد فارس وافغانستان وحوارزم ووادي نهر السند الى تخوم الصين»^(١١)

مسئولية القرآن لكل مطالب الحياة

الشمولية لمطالب الحياة الانسانية، هي العمومية الاخرى للقرآن او الاسلام بشكل عام، فليس القرآن كتابا محددًا في موضوع من الموضوعات كما في الكتب الارضية الكثيرة الاخرى، ابدًا ليس القرآن كذلك، انه كتاب النهي شامل لكل ما يحتاجه الانسان في حاضره ومستقبله في دنياه وآخرته، ولعل من الخطأ الفادح ان يعتبره البعض كتابا فيزيائيا او كيمياويا او رياضيا او تاريخيا متخصصا او اخلاقيا، ولو كان كذلك لكان وقتيا كما في الكتب المتخصصة الاخرى.

القرآن في الحقيقة اعلى واوسع من كل ذلك انه كتاب مفاهيم وكليات ولمحات احيانا ورموز احيانا اخرى، ووقائع عامة، واحيانا محددة، ودستور عام للاخلاق والاعداد الصحيح لخلق انسان متكامل. القرآن جمع كل ذلك.

لكننا اذا اردنا التماس الهدف الحقيقي للقرآن، فالهداية هي الاساس، هداية الانسان واخراجه من ظلمات الجهل الى نور الحياة والمسيرة الصالحة، وكل ما جاء به من امور اخرى و موضوعات متنوعة تصب في هذا الهدف العظيم، وهو الهداية الكبرى الى النور والى الحق وبالتالي الاتجاه نحو الله العلي القدير خالق الانسان ومنزل القرآن والرسول الاكرم من اجل الانسان ومن اجل سعادته في الدارين. وقد اكد القرآن هذا المعنى، الهداية في اكثر من آية شريفة، قال تعالى في محكم كتابه الكريم: «الر كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من

الظلمات الى النور» (١٢)

ومن خلال هذه الهداية الكبيرة واخراج الناس من الظلمات الى النور يضع الانسان يديه على كل منابع الحياة من اجل حياته ومستقبله «وقد ربط القرآن الكريم الهدف الاول (الهداية) وباسلوب اعجازي فريد، بالنظر الى تلك المخلوقات والظواهر، وخاصة الآثار التي تقع في متناول الحس، ليستنتج الانسان كم هو صغير تجاه الكون وقواه الكبيرة من جهة، وكم هو والكون ضئيلان ازاء الخالق المبدع من جهة اخرى، وهو طريق فطري ينتهي الى الاذعان بعظمة الخالق» (١٣)

وهذا الربط بين الحياة و منابع الحياة والآثار التي خلقها الله في العالم والكون، هو الطريق الامثل الى الاتجاه لفهم عظمة الله وقدرته على الابداع. فالكل يصب في طريق الهداية الذي اراده الله تعالى للانسان واكده قرآنه المجيد من اجل حياة آمنة طيبة وآخرة مضمونة فيها رضا الله.

والحقيقة ان القرآن الكريم - بنظرة عامة - لم يغادر صغيرة ولا كبيرة، وكيف يغادر ذلك وهو القرآن الخالد الممتد زمانا ومكانا، وما معنى الخلود والشمول والخاتمية اذا لم يحصي كل ما يحتاجه الانسان المسلم من احتياجات ومطالب؟ وما الفرق بينه وبين الانجيل والتوراة والكتب المقدسة وغير المقدسة الاخرى. انه شامل عام دون تفصيلات - كما قلنا - ومن اراد التفصيلات فعلية اقوال الرسول الكريم واهل بيته الكرام، واجتهادات العلماء في ضوء القرآن والسنة.

لقد حمل القرآن كل الاوليات التي توفر للانسان احتياجاته المادية والمعنوية، وقد نص على هذا المعنى في اكثر من آية.. قال تعالى في قرآنه: «ما فرطنا في الكتاب من شيء» (١٤) وقال ايضا «ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء»

(١٥) لكي لا يبقى عذر لنا، نذهب به يمنه ويسرة ونتجاوز ما انزله القرآن. وفي الوقت نفسه قدم لنا بعض التفصيلات وفي مجالات مختلفة كثيرة جدا. ففي مجال الاحكام الشرعية وردت نصوص قرآنية كثيرة نصت على هذا الحكم بالحلال او الحرام، كفضايا الزواج والطلاق والكذب والسرقات والاعتداء والقتل والنفاق والزنى والربا والبيع والشراء واحكام اخرى كثيرة جدا، اطلق عليها اسم آيات الاحكام، وقد الف فيها المفسرون والفقهاء كتبا كثيرة يمكن الرجوع اليها.

ومن هذه النصوص «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع»^(١٦) ومنها ايضا: «السارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا»^(١٧) ومنها ايضا قوله تعالى «واحل البيع وحرم الربا»^(١٨) وهناك معارف اعتقادية زخر بها القرآن، طابقت العقل السليم والفطرة التي فطر الله بها الانسان، فقد اشار القرآن الى صفات الله: ومن تلك النصوص: «واللهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم»^(١٩) وقوله تعالى: «هو الخالق البارئ المصور له الاسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والارض وهو العزيز الحكيم»^(٢٠) وقدم ادلة على وحدانية الله تعالى بقوله: «ولو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا»^(٢١).

وتحدث عن المعاد بقوله: «قل يبدأ الخلق ثم يعيده فأني توفكون»^(٢٢) وتحدث عن العدل قائلا: «واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل»^(٢٣) وقال ايضا «ان الله يأمر بالعدل»^(٢٤) وحرم الفواحش والفساد: قال تعالى «قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها

وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لاتعلمون» (٢٥)

وان لاتزر وازرة وزر اخرى قال تعالى «ولاتزرز وازرة وزر اخرى» (٢٦)

وجعل المساواة بين البشر، وجعل اساس المفاضلة، التقوى قال تعالى «ان اكرمكم عند الله اتقاكم» (٢٧)

ولافرق بين الرجل والمرأة في الاصل، وانما في الخصوصيات فالحساب والجزاء واحد لكل منهما: قال تعالى: «اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر وانثى بعضهم من بعض» (٢٨)

وتحدث في التاريخ وجعله عبرة لمن يعتبر، قال تعالى: «افلتم يسروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اكثر منهم واشد قوة» (٢٩)

وجعل للانبياء مساحة واسعة - وخاصة كبارهم (اولوا العزم) وجعل حياتهم وصراعهم مع الباطل وافكارهم واعمالهم نماذج للخير والعدل والاعتبار، وفي قصص نوح وموسى وعيسى وابراهيم ويوسف وايوب وسليمان وغيرهم مما كان قبل النبي محمد (ص) خير عبرة وتجارب للمسلمين في حياتهم، وحين يصل القرآن الى محمد (ص) يضعه في مقدمة الانبياء ويجعل له مساحة واسعة، فهو النموذج الامثل للبشر، حين يصفه «وانك لعلى خلق عظيم» (٣٠) وهو المسجد الحقيقي للاسلام.

ويستعرض القرآن الكريم امورا مستقبلية غيبية كقوله تعالى «غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين» (٣١) وهناك من المعلومات الغيبية الجاهزة الكثير الكثير، حيث لاسبيل الى الحصول عليها الا من القرآن، فهو مصدر رائع لم يستطع اي مصدر ان يقدم ولاجزءا مما قدم القرآن في

هذا المجال، وفي مختلف انواع المعرفة.

وفي العصر الحالي يبرز الاعجاز العلمي في القرآن على اعظم صورته فقد تحدث القرآن عن امور علمية لم تكن معروفة في الوقت الذي نزل به القرآن، فهناك مواد علمية لم تكتشف الا في عصر العلم والتكنولوجيا ويكفي هنا ان اذكر اعجاب عالم فرنسي كبير اسلم وآمن بالقرآن ليضعه فوق الانجيل والتوراة ويعجب به اشد اعجاب باعتباره سابقا زمنيا معارف العصر الحالية.

يقول موريس بوكاي: «لقد ادهشني في البداية هذه الصورة العلمية الخاصة بالقرآن الى حد بعيد لاني لم اكن اظن ابدا انه يمكن حتى هذا الزمن ان تكتشف في نص مكتوب منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا، عددا من اليقينيات المتصلة بموضوعات شديدة التنوع ومتفقة تماما مع المعارف العلمية الحديثة»^(٣٢)

ثم يقول: «وقد اعرت انتباها خاصا جدا لما يعطيه من وصف لعدد من الظواهر الطبيعية. لقد ادهشني دقة بعض تفاصيل الكتاب المندرجة في النص الاصيلي بسبب توافقه مع احداث مفاهيمنا اليوم، ولكن التي لا يمكن لانسان في عصر محمد ان تكون له عنها اية فكرة»^(٣٣)

ويقول ايضا: «والذي يدهشني فكر من يواجه مثل هذا النص للمرة الاولى، هو غزارة الموضوعات المطروحة مثل الخلق، والفلك، وعرض بعض الموضوعات الخاصة بالارض وجنس الحيوان والنبات، وتكاثر الانسان، تلك الامور التي نجد عنها في التوراة دون نص القرآن اخطاء علمية كبيرة، تحملني على التساؤل: اذا كان كاتب القرآن بشراً فكيف امكنه في القرن السابع الميلادي كتابة ما يثبت انه اليوم متفق مع المعارف العلمية الحديثة؟»^(٣٤)

ان شمولية القرآن لكل مطالب وموضوعات الحياة تعني في الوقت نفسه

حضوره دائماً وابدأً أفقياً وعمودياً، وحيث ان العصر عصر علمي فسيكون لحضور الجانب العلمي وقع كبير في النفوس والعقول، فالابحاث المتقدمة في الحياة والكون في الوقت الحاضر ستزيد من روعة القرآن وستعطيه عالمية وشمولية اكبر من ذي قبل. وفي هذا الصدد يذكر د. عماد الدين خليل: «ان القرآن يظل في حالة حضور دائم في قلب العالم والكون، يعايش سننهما ونواميسهما ويحدثنا عنهما، وانه لامر بديهي ان تتعاقب معطيات العلم وتتوازي لان تضادا او تقوم بينهما الحواجز والجدران، ذلك ان مصدر العطاء واحد وهو الله جل وعلا صانع السنن والنواميس ومنزل اقرآن.. خالق الكون والعالم وباعث الانسان (قل كل من عند الله).» (٣٥)

وحضور القرآن يعني انه تحدث عن اشياء كثيرة جدا، عن موضوعات قديمة، واخرى مستجدة لم تكن يوم نزل القرآن على الرسول الاكرم (ص) قبل اربعة عشر قرنا. ومن الموضوعات العلمية الكثيرة التي تحدث عنها القرآن: عن الكون والافلاك كقوله تعالى: والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون (٣٦) وتحدث عن الطعام والماء والزراعة بقوله: «فلينظر الانسان الى طعامه انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقصبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وابا» (٣٧)

وتحدث عن خلق الانسان: «فلينظر الانسان مم خلق» (٣٨)

وتحدث عن الجبال وطبقات الارض فقال تعالى: «ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود» (٣٩)

وعن البحار: «وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجور»^(٤١)

وعن الرياح والسحاب وطاقتهما، قال تعالى: «الم تر ان الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء كاد سنا برقه يذهب بالابصار»^(٤٢)

وهناك آيات كونية علمية كثيرة تحدثت عن موضوعات علمية شتى لامجال لذكرها ويمكن الرجوع الى مظانها حيث جمعها الباحثون في كتب خاصة او ضمن كتب التفسير.^(٤٣)

لقد جمع القرآن كل شيء، لكن حديثه فوق كل الاشياء وفوق كل الجزئيات المتغيرة وفوق كل العلوم الضيقة المحدودة في الزمان والمكان، وهنا يكمن معنى الاعجاز والتحدي لكل ما عداه.... وخير ما اختتم به هذا الموضوع قول الامام علي بن ابي طالب في شمولية القرآن وهو: «وفي القرآن نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم»^(٤٣) وهذا اروع معنى للشمولية والخلود القرآني.

شمولية التراث:

بعد الحديث عن شمولية القرآن في الزمان والمكان والعتاء، وكل ما يتوقعه انسان، يكون من المناسب الحديث عن شمولية التراث الاسلامي. فالتراث هو كل ما بقي لنا من بعد القرآن والحديث من انتاجات المفكرين وتسجيلات الاحداث والانجازات التي قام بها المسلمون ومن دخلوا رحاب الاسلام

وساهموا في لبنات الحضارة الاسلامية الشامخة.

وهو غزير وهائل وثمان على الرغم من الخسائر التي لحقته من ضياع وتلف الكثير من المخطوطات وتشويهها وسرقتها وحرقتها وخاصة زمن الغزو المغولي. وهو الآن متفرق في المكتبات العامة والخاصة والمتاحف الدولية وبيوت الاغنياء والخزائن الخاصة والجامعات والمعاهد العلمية والمراكز الثقافية والمؤسسات العلمية، الكثيرة المنتشرة في كل انحاء العالم. ومقدر عددها بين (٣-٥) ملايين مخطوطة^(١١)

واغلبه مخطوط على شكل كتب خطية على الورق او على الرق او البردي، والقليل منه حقق وطبع والبعض من طبع دون تحقيق وهناك نوع آخر من التراث، وهو تلك البقايا الأثرية الموجودة في المتاحف وبعض بيوت الاثرياء، كالأقلام والمحابر وادوات الكتابة الاخرى، والمنابر التي كان يرتقيها الخطباء والاجهزة الطبية كالمشارط والسكاكين والاجهزة الكيميائية كالدوارق والوانبي والادوات الهندسية والادوات الفلكية كالاسطرلابات، اضافة الى غير المنقولات كالمساجد والجوامع والمراصد والبيمارستانات (المستشفيات) وما الى ذلك مما كان لدى المسلمين ايام حضارتهم.

كل هذه الادوات والاجهزة اضافة الى الكتب الخطية، تعد ضمن التراث الذي خلفه لنا المسلمون الاجداد، وهي كما رأينا موجودات متنوعة تدخل ضمن شمولية الاسلام لكل مرافق الحياة.

ولعل في طليعتها تقف الكتب الخطية الموروثة، فهي في الحقيقة خلاصات عقول علمائنا زمن ازدهارهم، ولاشك ان قسماً منها كتب بأيديهم، أي بأيدي العلماء انفسهم، وفي هذه الحالة تكون ثمينة جدا.

وقد غطت كل مرافق الحياة من دينية او دنيوية، حيث التكامل الذي طبع الاسلام بهويته.

فهناك الكتب الفقهية لكبار ائمة الفقه وصلت اليها سالمة بخطوط قديمة، وهناك كتب الاصول المتنوعة والعقائد، وقد احتوت عصارة عقول علمائها لتصل اليها ونبيي فوقها من عصارات علمائنا الجدد.

وهناك كتب الحديث المتنوعة، واصولها وقد وصل منها الكثير مما درس وحقق، وصل على شكل مجموعات منظمة مقسمة.

وهناك كتب النحو والبلاغة والادب والشعر وصلتنا على اشكال مختلفة عامة تجمع الموضوع الواحد بما يحتوي من فروع، وخاصة في موضع واحد. فمن الكتب العامة مثلا كتاب سيبويه (الكتاب) وهو مطبوع، وغيرها من الخاصة مثلا: «كتاب المذكر والمؤنث» لابي حاتم السجستاني ومن الشعر وصلتنا مجاميع مجموعة واخرى مفردة، قصيدة واحدة اضافة الى كتب اللغة والادب والامثال والغرائب...

وهناك كتب التراث العلمي... وهي كثيرة ايضا، وقد جاء الاهتمام بها متأخرا ككتب البيروني في الفلك والجيولوجيا وكتب الرازي وابن سينا في الطب وكتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي وكتب جابر بن حيان في الكيمياء (طبعت على شكل رسائل جمعها بول كرواسي) اضافة الى كتب في الحيوان والنبات والهندسة... وهناك انواع اخرى من التأليفات في الفروع العلمية الاخرى. ومن مجموع هذا التراث ندرك جيدا ان الدين الاسلامي والحضارة الاسلامية، وبوحي من القرآن الكريم، جمع كل ما يمت الى الحياة الدنيوية والاخرية من صلة.

اما مضامين هذا التراث العريض فيمكن ان نلتمسها من خلال العلوم الكثيرة التي افرزها النظام الاسلامي، والتي فاقت كل علوم الحضارات الاخرى.

الشمولية في العلوم:

التكامل اهم صيغة يمكن ان توصف بها الحضارة الاسلامية- فهي حضارة مادية تهتم بالدنيا وعلوم الدنيا التي يحتاجها الانسان ليقوم من خلالها باعباء الحياة، وروحية دينية من جانب آخر، فالعلوم الدنيوية المادية على اهميتها هي في الحقيقة جاءت لتصب في الحياة الآخرة (فالدنيا مزرعة الآخرة) وهذه اشمولية وهذه الصفة الفريدة لاتجدها في كل الحضارات لا الحضارات السابقة على الاسلام ولا الحضارة الحديثة اللاحقة بعد الاسلام. فاغلب الحضارات القديمة كانت قائمة على المادة، اما حياتها الروحية فغالبا ما كانت قائمة على الخرافة والاسطورة والخزعبلات التي ما انزل الله بها من سلطان، وكلنا يعرف انها قامت على تعدد الآلهة وعبادة الاصنام والوثان وحتى التوحيد الذي ظهر في مصر الفرعونية كان توحيدا وثنيا، فاخنتون الفرعون المصري وحد جميع الالهة المعروفة في وقته باله واحد اسمه (أتون) اي الشمس او قرص الشمس، وقد عدّه الاله الواحد للكون باسره فلا يقتصر الايمان به على قطر دون آخر او اقليم دون اقليم^(٤٥) لكنه في كل الاحوال هو الشمس المخلوقة لله سبحانه، فهو توحيد وثني ولا معنى للالهية الحقيقية فيه.

اما الحضارة التي اعقبت الحضارة الاسلامية اي الغربية، فهي كذلك ابتعدت عن الروح والروحية، وهي وان كان اساسها الدين المسيحي الا انها في الحقيقة صارت بعيدة عن روح هذه الديانة، فهي مادية بحتة اضافة الى ايمانها بالخرافات

التي لم ينزل الله بها من سلطان من هنا تأتي قوة الشمولية التي تحلى بها الدين الاسلامي فهو الدين الحقيقي الجامع بين المادة والروح في نسيج رائع متكامل لا ينفصم، واذ انفصم في بعض المناطق فذلك لان المسلمين الذين اعتنقوه لم يكونوا مسلمين حقيقيين، يعرفون الاسلام حق المعرفة.

ومن هنا ايضا أكد الاسلام العلوم المختلفة، وبالطبع النافعة وليس الضارة، وقد ورد النهي عن العلوم الضارة في كثير من المصادر والاحاديث.

وتكامل العلوم يأتي من شمولها للعلوم الدنيوية والعلوم الاخروية، فقد جمع الاسلام انواعا متنوعة ومتكاملة من العلوم وقد قسمها المؤرخون والباحثون الى نوعين اساسيين من العلوم.

ولعل اول من جمع العلوم وصنفها هو جابر بن حيان المتوفى نحو سنة ١٨٠ هـ فقد جمع العلوم في نوعين، يقول: (لما كانت العلوم على ضربين، علم الدين وعلم الدنيا، فكان علم الدين فيهما منقسما قسمين شرعيا وعقليا، وكان العقلي منها منقسما قسمين...»^(٤٦))

وبالطبع يضع كل العلوم المعروفة في عصره تحت هذين الاطارين العامين. ويعد الفارابي الفيلسوف الاسلامي الاول الذي اهتم باحصاء العلوم وقد صنف كتابا شهيرا جمع فيه علم عصره المعروفة واسمه «احصاء العلوم»^(٤٧) وفي هذا الكتاب يذكر العلوم المشهورة في عصره ويقسم محتوياته الى خمسة فصول، يتحدث في الفصل الاول عن علم اللسان واجزائه وفي الفصل الثاني في علم المنطق واجزائه والثالث في علوم التعاليم والمقصود بها العلوم الرياضية والطبيعية ويتحدث في الفصل الرابع عن العلم الطبيعي واجزائه وفي العلم الالهي واجزائه، وفي الفصل الخامس يتحدث عن العلم المدني واجزائه وفي

علم الفقه. (٤٨)

وبتطور العلوم وتراكم المعرفة وتقدم الحضارة وتشعب الاحتياجات ازدادت العلوم. وفي القرن الثامن وتراكم التراث الحضاري امام العلامة ابن خلدون (المتوفي سنة ٨٠٨) اصبح اكثر وضوحا في ذهنه، فقسم جميع العلوم المعروفة في عصره الى نوعين اساسيين كبيرين ينضم تحت كل نوع فروع كثيرة. فالاول العلوم الحكمية وهي: صنف طبيعي للانسان يهتدي اليه بفكره ويهتدي بمداركه البشرية الى موضوعاتها ومسائلها وانحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يفقه نظره ويحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو انسان ذو فكر. (٤٩)

والثاني العلوم النقلية الوضعية وهي كلها مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال للعقل فيها الا في إلحاق الفروع من مسائلها بالاصول لان الجزئيات الحادثة المتعاقبة لاتندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فتحتاج الى الالحاق بوجه قياسي. (٥٠)

ثم يستقرىء ابن خلدون العلوم التي تنظوي تحت هذين الصنفين الاساسيين فيذكر: في فصول متتالية:

- في علوم القرآن من التفسير والقراءات (٥١)
- علوم الحديث
- علم الفقه وما يتبعه من الفرائض
- علم الفرائض
- اصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافات
- علم الكلام

- علم التصوف
- تعبير الرؤيا
- ثم يأتي على العلوم العقلية واصنافها فيذكر: (٥٢)
- العلوم العددية
- ومن فروع علم العدد صناعة الحساب
- ومن فروعه الجبر والمقابلة
- ومن فروعه ايضا المعاملات
- العلوم الهندسية
- ومن فروع الهندسة المساحة
- علم الهيئة
- ومن فروعه علم الازياج
- علم المنطق
- الطبيعيات
- علم الطب
- الفلاحة
- علم الالهيات
- علوم السحر والطلسمات
- علم الكيمياء
- ثم يأتي على علوم اللسان العربي فيذكر: (٥٣)
- علم النحو - و علم اللغة - و علم البيان - و علم الادب
- وكل فرع يتفرع الى فروع وهكذا يحصي ما توافر له من العلوم في عصره.

وحين نأتي على القرون اللاحقة نجد العلوم قد ازدادت بشكل كبير حتى تجدد المؤلف (طاش كبرى زاده) الذي عاش بين سنة ٩٠١هـ - ٩٦٨هـ يؤلف كتابا من ثلاثة مجلدات يجمع فيها كل العلوم التي عرفها عصره، ولنقرأ ما يقول تحت عنوان في بيان حصر العلوم في الاجمال يقول: «وقال بعض الفضلاء: علم التفسير لا يتم الا باربعة وعشرين علما على ما هو المختار عند المفسرين..»^(٥٤) ويقول ايضا «وقال بعض العلماء: العلوم المستخرجة من القرآن ثمانون علماً دون فيها كتابا. وقيل ان العلوم الحكمية تتضمن خمسة عشر فناً الا ان فروعها اكثر من خمسين. كما سنقف عليه، ثم قال نقلا عن بعض العلماء: ان العلوم المدونة ثلاثمائة وستة وستون علما ثم قال والمختار عندي ان عدد العلوم اكثر من ان يضبطه قلم»^(٥٥)

ولاشك ان هذه العلوم وغيرها مما لم نذكر، تشمل كل جوانب الحياة دنيا وآخرة، وهي في الحقيقة لم تنم بهذا الشكل المذهل لولا القرآن الكريم والاسلام نفسه، فقد حث القرآن في كثير من آياته على العلم والعلماء والاهتمام بكل ما يهم الانسان ويكامل حياته، فاذا كانت العلوم النقلية والشرعية قد جاءت مباشرة من القرآن، حث عليها ودعا اليها، فان العلوم العقلية المتنوعة جاء بسبب من حث القرآن على العلم كقوله تعالى «وقل ربي زدني علما»^(٥٦) او قوله تعالى «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون»^(٥٧) او قوله تعالى «انما يخشى الله من عباده العلماء»^(٥٨) وما الى ذلك.

وكذلك حث الرسول الاعظم على العلم وتنظيم الحياة حيث قال «ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وان العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الارض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل

القمر على سائر الكواكب، وان العلماء ورثة الانبياء، ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وانما ورثوا العلم فمن اخذه اخذ بخط وافر» (٥٩)

وقال ايضا ناقلا قول المولى العلي القدير: «يا معشر العلماء اني لم اضع علمي فيكم الا لعلمي بكم، ولم اضع علمي فيكم لا عذبكم، اذهبوا فقد غفرت لكم» (٦٠)

من هنا نعرف ان الشمولية في العلوم لم تأت لو لم يكن النظام الاسلامي نفسه نظاما عالميا شموليا لكل شيء، جاءت الشمولية من صميمه لا من خارجه، بدوافع اخرى...

الهدف الاسمي وراء الشمولية

اما الهدف وراء هذا التنوع والتعدد والكثرة من الاحكام والعلوم والعطاءات والجوانب الكثيرة التي جاء بها الاسلام فهو الله، فهذه وان جاءت لخير البشر وتنظيم الحياة وبناء الحياة الروحية والمادية، الا انها - في التالي - تصب في رضا الله، وفي حضرته السامية، فما خلق الله الجن والانس الا للعبادة، الا لرضا الله الذي خلقهم ولولاه لما كانوا وما خلق الجنة والخلود الابدي قال تعالى «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون» (٦١) ان البشر لم يخلقوا دون معنى، لم يخلقوا ليأكلوا ويناموا ويعملوا ويموتوا كما تموت الحيوانات والبهائم. ابدا لم يكونوا كذلك، وانما اعدهم الله لحياة افضل ومقام اسمي، هو الاتجاه نحو الله العلي القدير الذي وعدهم بالخير والنعيم الدائم قال تعالى في محكم كتابه الكريم: «اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضهم من بعض» (٦٢)

ان هذا الهدف هو الذي اعطى معنى للحياة وقيمة لحياتنا القصيرة ولولاه

لكانت تافهة، وكانت ثورة الانسان على نفسه واوضاعه وقيامه بالانتحار هو الهدف البديل عن الهدف الحقيقي، وهكذا وجدنا كثيرا ممن لاهدف لهم غير الحياة الدنيا، وجدنا الانتحار هو الخلاص الوحيد من مآسي الحياة وصعوباتها... لقد من الله تعالى على المؤمنين ان كامل بين دنياهم وآخرتهم بين الاهداف الدنيوية المحدودة والقصيرة من اجل ان نعيش سعيدا ماديا.. وبين الحياة الاسمي الحياة الخالدة في ظل رحمة رب العالمين والقرب من نعمته الخالدة. فكان هو الهدف ولاغير وكان الاتجاه نحوه ولاغير. فهو هدف الاهداف الذي جعل الحياة ممكنة ورائعة في ظل مرضاته والامل به ونعم الامل.


الهوامش:

- ١- ابن السائب الكلبي، هشام بن محمد، كتاب الاصنام ص ٣٣
- ٢- سورة التكوبر، الآية ٨
- ٣- سورة النمل، الايتان ٥٨ و ٥٩.
- ٤- او في كتاب كتب عن العصر الجاهلي قبل الاسلام كتاب د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٨.
- ٥- المؤمن - عبد الامير - الطاقة المحركة لانتقال العلوم الى الحضارة الاسلامية مجلة الجامعة الاسلامية - العدد الثالث السنة الثانية لندن تموز ١٩٩٥.
- ٦- صاعد الاندلسي، طبقات الامم ص ٥١ طبعة مصر.
- ٧- سورة سبأ، الآية ٢٨.
- ٨- سورة الانبياء، الآية ١٠٧.
- ٩- السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ح ١٤ ص ٣٣٢ - ٣٣٣.
- ١٠- المرجع نفسه، ج ١ ص ٢٤.
- ١١- طه باقر، موجز في تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة والحضارة العربية الاسلامية ص ١٦٣.

- ١٢ - سورة ابراهيم، الآية ١
 ١٣ - مجلة التوحيد العدد ٦٦، تموز ١٩٩٣ ص ١٣٩.
 ١٤ - سورة الانعام الآية ٣٨
 ١٥ - سورة النحل الآية ٨٩
 ١٦ - سورة النساء، الآية ٣
 ١٧ - سورة المائدة، الآية ٣٨
 ١٨ - سورة البقرة، الآية ٢٧٥
 ١٩ - سورة البقرة، الآية ١٦٣
 ٢٠ - سورة الحشر، الآية ٢٤
 ٢١ - سورة الانبياء الآية ٢٢
 ٢٢ - سورة يونس الآية ٣٤
 ٢٣ - سورة النساء الآية ٥٨
 ٢٤ - سورة النحل الآية ٩٠
 ٢٥ - سورة الاعراف، الآية ٣٣
 ٢٦ - سورة الانعام الآية ١٦٤
 ٢٧ - سورة الحجرات الآية ١٣
 ٢٨ - سورة آل عمران الآية ١٩٥
 ٢٩ - سورة غافر الآية ٨٢
 ٣٠ - سورة القلم الآية ٤
 ٣١ - سورة الروم الآيتان ٢-٣
 ٣٢ - موريس بوكاي، التوراة والانجيل والقرآن والعلم ص ١٣٣
 ٣٣ - المرجع نفسه ص ١١٤
 ٣٤ - المرجع نفسه ص ١٤
 ٣٥ - ابراهيم بن علي الوزير - على مشارف القرن الخامس عشر الهجري ص ١١٤
 ٣٦ - سورة يس - الآيات ٣٨، ٣٩، ٤٠
 ٣٧ - سورة عبس الآيات ٢٤ - ٣١
 ٣٨ - سورة الطارق الآية ٥
 ٣٩ - سورة فاطر، الآية ٢٧
 ٤٠ - سورة الفرقان، الآية ٥٣

- ٤١ - سورة النور، الآية ٤٣
- ٤٢ - في كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم، يذكر مؤلفه طنطاوي جوهرى ان هناك ١٧٥٠ آية علمية، ج ٣ ص ٣
- ٤٣ - نهج البلاغة للامام علي (ع) قصار الحكم رقم ٣١٣ ص ٥٣٠
- ٤٤ - في مقابلة مع باحث المخطوطات كوركيس عواد سنة ١٩٨٩ ذكر «ان جميع المؤلفات العربية التي صنف من صدر الاسلام حتى سنة ٩٢٠ - ١٥١٤ - وهي السنة التي طبع فيها اول كتاب عربي في العالم - كانت مخطوطات كتبها المؤلفون والخطاطون والنساخ وتأتي اللغة العربية في طليعة لغات العالم التي عرفت بوفرة مخطوطاتها، التي كتبت في ثلاث قارات هي آسيا وافريقيا واوربا ... والمعنيون بشؤون المخطوطات العربية يقدرون عددها بأكثر من «ثلاثة ملايين» مخطوطة، ومنهم من يوصلها الى (خمسة ملايين) مخطوطة تفرق شملها في انحاء العالم» مجلة كل العرب العدد ٣٥٢ / ٢٢ مايو ١٩٨٩
- ٤٥ - فؤاد محمد شبل، اختاتون رائد الثورة الثقافية ص ٦٤
- ٤٦ - كتاب الحدود من رسائل جابر التي اختارها بول كراوس ص ٩٧
- ٤٧ - الكتاب محقق ومطبوع بتحقيق الدكتور عثمان امين
- ٤٨ - مجلة التوحيد العدد ٦٣ ص ١٣٢
- ٤٩ - ابن خلدون - مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٢
- ٥٠ - المرجع نفسه ص ٤٨٣
- ٥١ - المرجع نفسه ص ٤٨٤
- ٥٢ - المرجع نفسه ص ٥٢٩
- ٥٣ - المرجع نفسه ص ٦٠٣
- ٥٤ - طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة ج ١ ص ٧٥
- ٥٥ - المصدر نفسه ج ١ ص ٨٦
- ٥٦ - سورة طه الآية ١١٤
- ٥٧ - سورة الزمر- الآية ٩
- ٥٨ - سورة فاطر، الآية ٢٨
- ٥٩ - تقلا عن الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه (الرسول والعلم) ص ١٠
- ٦٠ - مفتاح السعادة (مرجع سابق) ص ١٠
- ٦١ - سورة الذاريات، الآية ٥٦
- ٦٢ - سورة آل عمران، الآية ١٩٥

النص الثابت والواقع المتغير
مقاربات في شمولية النظام الاسلامي
واستيعابه للواقع المتطور

فارس عبدالمجيد 

قم - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

يجمع النقاد والمفكرون الاسلاميون على ان الشريعة الاسلامية الخاتمة جاءت شاملة وجامعة ومستوعبة لكل نواحي الحياة، جاءت فوق الحدود والحواجز الزمانية، فهي من خالق الزمان والمكان وتشرف على الزمان والمكان، مما ادت هذه الحقيقة الى التعاطي مع الشريعة الاسلامية بنمط خاص باعتبارها الجسر الوحيد الذي يمدّه الله بينه وبين عباده، بعدما ارتفعت كافة الجسور من مسيحية او يهودية... بين السماء والارض وظهر خواء وضحالة الجسور الارضية البشرية، التي صاغتها وانتجتها العقلية الارضية المتمثلة بالمذاهب الوضعية القديمة والحديثة.

وثمة اختلاف للاسلاميين من بعد ذلك في تقديم تفسير لهذه الشمولية، شمولية نصوص الشريعة الاسلامية وجامعيتها لكل ابعاد الحياة وعلى مر العصور والازمان، الشمولية التي تجعل من الشريعة الاسلامية، فريدة في نوعها بعيدة عن

عقول البشرية ومخيلتهم الارضية.

وهذا الخلاف والاختلاف يرجع - بالتحليل - الى ما يسمى بجدلوية النص الثابت والواقع المتغير المتطور.

فكيف يتسنى للنص الثابت والذي نزل قبل ١٤٠٠ عام في دائرة ظروف وشروط خاصة ان يستوعب الواقع المتغير الذي لا يكاد يستقر على صورة وهيئة واحدة.

في سبيل تقديم تفسير لهذه الظاهرة، ذهب «الدكتور عبد الرحمن بدوي»^(١) الى ان السر في تلك الحيوية المستوعبة للتغيرات والتطورات الزمانية والحضارية، يكمن في تعدد وتنوع ابعاد الدين او الشريعة التي يصلح كل بعد من ابعاده وكل زاوية من زواياه لجيل ولزمان معين حيث يفهم كل جماعة وبمستوى الثقافة والبيئة الاجتماعية والعالم من حولهم، جانباً من جوانبها المتعددة والمتنوعة وقد تفاعل مع هذا القول بمستوى التأييد - الدكتور علي شريعتي في المحاضرة التي القاها في كلية النفط بعبادان.

وثمة نظرية اخرى ترى ان اللغز يكمن في اطار مقولة ان روح الشريعة الاسلامية بسبب النمو والتطور تبقى حية وخالدة ومستوعبة لآفاق الحياة.^(٢)

وبعد التتبع نلاحظ ان ثمة اتفاق نسبي ينصب في القول ان تفسير الظاهرة يعود الى ان الشريعة الاسلامية تتوفر على احكام متغيرة ومتطورة لمواكبة المسيرة البشرية تستمد وجودها من احكام اخرى الى جنبها تسعى احكام ثابتة لاتتغير ولا تتبدل.^(٣)

وهذا الاتفاق بطبيعة الحال لم يسلم عن خلاف واختلاف يسير في تفسير كل من الثابت والمتغير وخلاف عن علاقة منطقة الفراغ بالاحكام الولائية التي

تركت للحاكم الشرعي ان يملئها.

اذن ماهي الخصوصية والميزة التي تجعل من الشريعة الاسلامية وبرغم جدلية النص الثابت والواقع المتغير - شريعة جامعة وشاملة لابعاد التغير الزمني والحضاري والاجتماعي، وعلى كافة المستويات التي تلي طموح البشرية وآمالها.

واذا كان السريعود الى ان جزء - غير قليل - من الشريعة الاسلامية يعبر عنه بالاحكام المتحركة والمتطورة مع تطور الزمن وحركته، فماذا يراد من تلك الحركية الخطابية التي تختص بجانب خطير من الاحكام الشرعية يستوقفنا هذا اللغز لاجابة عليه ابتداء من التوفر على رؤية عن طبيعة الشمولية وآفاقها ومدياتها، ومروراً بدليل الشمولية وانتهاء باستعراض النظريات ونقدها ان كان ثمة ثغرة في جسمها، ثم اختيار ما يتناسب منها مع طبيعة الشمولية و آفاقها.

آفاق الشمولية وطبيعتها:

بعد استذكار كل خصيصة من خصائص الاسلام العامة، تستوقفنا مكونات وروافد الاسلام البنوية لدراستها بالطريقة الربطية ليتلاشى في ضوئه مجمل الاشكاليات التي يصوغها بين الحين والآخر رجال من داخل المنظومة الفكرية الاسلامية المتغربة او من خارجها.

وتأتي اهمية النظرة الربطية لمكونات الاسلام وروافده من خلال ضرورة متابعة كل خصيصة من الخصائص ودراستها في محلها المناسب، حيث تسبقها خصيصة وترافقها اخرى وتلحقها نالته. فدراسة الشمولية. وبالطريقة الربطية، تحتاج الى شيء من دراسة خصيصة الالهية والخاتمية والعالمية ونحو ذلك من

الخصائص التي تلتقي بمجموعها - في المحصلة الأخيرة - لتكون لنا صورة عن خصيصة الشمولية.

فالشمولية، وبناء علي هذه النظرة الربطية، تعبير عن تزواج الخصائص الأساسية للإسلام، وعليه من يرى ان الشمولية جزء لا ينفك عن الشريعة الإسلامية وكمسلمة لا تقبل الشك والترديد لابد ان يكون قد توفر على رؤية ولو اجمالية عن الروافد التي تلتقي لتكون الصورة النهائية عن الإسلام الكامل المتصف بالشمولية والحركة الديناميكية.

هذا من جانب ومن جانب وزاوية اخرى يمكن القول ان خصائص من قبيل الالهية والخاتمية والعالمية والواقعية... لا تنتج، بطبيعة الحال، وبعد التلاقي والتزواج الا شريعة شاملة وجامعة لكل نواحي الحياة.

بعد هذه الرؤية عن طبيعة الشمولية اذن ماهي آفاق الشمولية ودائرتها؟ فهل تعني الشمولية استيعاب الجانب الفردي والاجتماعي من حياة الانسان؟ ام انها تعني استيعاب حالات شخصية الانسان وابعاده من مادية ومعنوية وروحية واخلاقية قيمة ونحو ذلك؟

ام يراد منها انها تمتد افقياً وعمودياً، تمتد افقياً لتغطي آفاق وحقول متنوعة كالمجال الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والسيكولوجي والابستمولوجي والى غيره من المجالات الكثيرة والمتنوعة.

وتمتد ثمة امتداد جذري آخر في عمق كل حقل ومجال من المجالات التي اشرنا اليها لتعطي كل حقل حقه ولتتعمق في كل حقل ومجال.

فعندما تتغلغل في المجال الاقتصادي مثلاً. نلاحظ انها كمذهب اقتصادي متكامل تغطي كل آفاق الاقتصاد واجزائه المتنوعة من عرض وطلب وملكية

وحق و...

وما نراه يتناسب مع الشمولية الشرعية للإسلام - بعد النظرة الربطية التي تقدم الكلام عنها - انها تشمل جميع هذه الآفاق وغيرها كثير. ومن المحاولات التطبيقية الطريفة في هذا المجال، ان بعض الفقهاء حاول ان يؤسس لفقه عبر عنه بفقه الفضاء يتبنى ابحاث طريفة ترتبط بالفضاء من قبيل بحث اتجاه القبلة لمن على ارض القمر او على غيره من الكرات السماوية.

فهل يصلي المكلف هناك كيفما شاء وباتجاه اي جهة شاء؟ ام يستقبل الارض؟ واذا كان المطلوب استقبال الارض كيف يتم ذلك وهل يتولد عن ذلك مشقة على المكلف هناك باعتبار تغير اتجاه القبلة باستمرار بناء على الحركة الوضعية والحركة الانتقالية لكل من الارض والقمر.

وكذلك بحث التربة وجواز الصلاة على تربة القمر او عدم ذلك؟ وهل قول الرسول (ص) جعلت لي الارض مسجداً وطهوراً يختص بتربة الارض التي نسكن عليها ام تشمل تربة القمر مثلاً... والى غير ذلك من الابحاث الطريفة التي ترتبط بالفضاء. (٤)

فهذا التشريع السماوي يمتد مع الانسان في كل حالاته وظروفه من شخصية واجتماعية ويعبر الحدود والحوارج الزمانية والمكانية هذا وقد جاءت الخطوط الكبرى للإسلام نتيجة اشرف... اشرف يطل على الزمان وعلى المكان... اشرف هو فوق زمان الانسان وفوق مكانه... اشرف يرى بداية الشيء ونهايته يراه كله... جاءت هذه الخطوط من صانع الزمان والمكان... من مدرك مطلق هذين البعدين... من الله الذي وسع كل شيء علماً!! (٥)

دليل الشمولية :

الكتاب والسنة والعقل تمثل ثلاث محطات رئيسية يمكن ان نفهم عندها - باختصار - باعتبارها شواخص على صحة مقولة الشمولية التي نحن بصدد الحديث عنها.

في المحطة الاولى تستوقفنا مساحة واسعة من الايات التي لها نحو دلالة لا تقبل الشك والترديد على شمولية النظام الاسلامي لابعاد الحياة وانحائه. يقول تعالى: «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين»^(٦)

وقوله تعالى: «ما فرطنا في الكتاب من شيء»^(٧)

«اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً»^(٨)

وعند انتقالنا الى المحطة الثانية نلاحظ الروايات الكثيرة التي جاءت بصيغ وعبارات مختلفة تصب في نفس الهدف.

في تفسير العياشي عن عبد الله بن وليد قال: قال ابو عبد الله (ع) قال الله لموسى: وكتبنا له في الألواح من كل شيء «فعلنا انه لم يكتب لموسى الشيء كله وقال لعيسى: «لا بين لكم بعض الذي تختلفون فيه» وقال الله لمحمد (ص) «وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء»^(٩)

وفي عيون الاخبار باسناده الى عبد العزيز بن مسلم عن ابي الحسن الرضا (ع) قال يا عبد العزيز جهل القوم وخذعوا عن اديانهم، ان الله تعالى لم يقبض نبيه (ص) حتى اكمل له الدين وانزل عليه القرآن وفيه تفصيل كل شيء بين فيه الحلال والحرام والحدود والاحكام وجميع ما يحتاج اليه كمالاً فقال عز وجل: «ما فرطنا في الكتاب من شيء»^(١٠)

وعن الامام الباقر(ع) قوله:

ان الله لم يدع شيئاً تحتاج اليه الامة الى يوم القيامة الا انزله في كتابه، وبينه لرسوله، وجعل لكل شيء حداً وجعل عليه دليلاً يدل عليه.^(١١)
واما الدليل العقلي فيمكن صياغته بالانحاء التالية:

١ - عبر المساحات الشاسعة التي اتيح للاسلام ان يتحرك خلالها في تاريخه الطويل يتأكد وبكل سهولة على ان الاسلام، وبعد ان تغلغل في الابعاد المختلفة من الحياة، يغطي الافاق والمساحات الانسانية من فردية واجتماعية وروحية او جسدية ونحو ذلك وهذا الدليل الذي يحكي عن اجواء وظروف مورس فيه استنطاق الحكم الشرعي من الممكن ان يعتبر افضل سبيل للتأكد.

الثابت والمتحرك :

لو خرجنا عن المنظومة الفكرية الاسلامية التي تنظر الى اجزاء الاسلام وخصائصه نظرة ربطية متكامل من خلالها الصورة النهائية للاسلام الى المنظومة الفكرية المتغيرة التي تنقل نظريات وافكار الغير الى ارضنا ومنظومتنا من دون مناسبة، نلاحظ انهم اعتادوا ان ينظروا الى الاسلام كما ينظروا الى المسيحية واليهودية، كدين سماوي جاء لمعالجة مشاكل الانسانية قبل ١٤٠٠ سنة وهو لا يصلح حلاً لمشاكله في هذا العصر نظراً لتباعد الفترة بيننا وبين عصر النزول فالاسلام، والقول لبعض المتغربين، تبلور بنمط وشكل خاص لظروف مر وقتها ولانتوقع منه هداية البشرية الى ما فيه الخير والصلاح وحل مشاكلها كأني نظام اخر في هذا العصر، عصر التطور العلمي والتكنولوجي فعليه - والقول لهم - نحن نحتاج الى تأطير جسر اخر - كيفما كان حاله من شمولية النظام الاسلامي

واستيعابه لكل مراحل الحياة.

ثمة مراجعة تاريخية للامم السابقة تؤكد على ان الله تبارك و تعالى لم يدع امة من الامم الا وارسل لها رسولها وتشريعها الخاص سواء تفاعلت معه بالشكل المطلوب او لم تتفاعل... وهذا السير التاريخي يؤكد على ان الشريعة الاخيرة وبمقتضى الحكمة و الرحمة الالهية الجارية في خلقه تقتضي وعلى المنوال نفسه واستكمالاً للمشوار ان تتوفر الشريعة الاسلامية على الميزة والخصوصية التي تجعل فيها القدرة على الاستيعاب الحضاري والزمني الذي يتلشى في ضوئه كل المحددات الزمانية والمكانية وغير ذلك.

واخيراً: اذا كان الاسلام دين اريد له هداية البشرية حتى قيام الساعة فهل يجوز ان يكون كما هو حال من سبقه - مقطعيًا مرحليًا ينتهي امده بانتهاء الفترة التي نزل فيها.

يؤدي دور الوسيط بين الارض والسماء من جهة ويواكب المسيرة البشرية والواقع المتطور من جهة اخرى.

ولو استعرنالهم - من الشريعة - مثلاً لتأييد الفكرة ناخذ قضية الرق واحكامها الخاصة الجزئية التي اجتازتها الحضارة الانسانية في هذا العصر - عصر الاختراعات والاكتشافات عصر الكمبيوتر والانترنت.

هذا وقد اثرنا الى ان الشريعة الاسلامية التي ترفدها السماء بهالة من القدسية الالهية والواقعية والخاتمية والعالمية...

والشمولية ادى الى ان يجمع المفكرين والنقاد الاسلاميين بل وغير الاسلاميين من امثال رونييه دافيد^(١٣) - وغيره كثير - على حركية الشريعة الاسلامية وشموليتها ومواكبتها مع المسيرة والتطور البشري.

وقد اشرنا الى مجمل نظرية الدكتور البدوي التي جاءت كتفسير او حل لاشكالية النص الجامد والواقع المتحول.

وكاستعادة لما ذكرناه نبدأ من قول البدوي حيث يقول: بعدما يستعرض الاثار السلبية للدين الذي يبني جميع حقائقه ومعانيه من كلمات واضحة ومباشرة، وذات بعد واحد وبسيط...

«لابد ان يختار الدين لغة لبيان معاني فلسفته بحيث تكون هذه اللغة متعددة الجوانب ومتعددة الابعاد والزوايا، لكي يصلح كل بعد من تلك الابعاد لجيل معين، ويفهم كل جماعة جانباً من تلك الجوانب فاذا كانت لغة الدين ذات بعد واحد، فانه يكون مفهوماً لجماعة معينة ويكون لسائر الجماعات بلا قيمة...»^(١٣)

ويضيف لذلك كتأييد الدكتور علي شريعتي بقوله فان الدين باعتباره نازلاً لمختلف الفئات ولجميع الاجيال فيجب ان تكون لغته رمزية...^(١٤)

بعد ان اتضحت فكرة رمزية الدين وضبابيته بحسب تعبير علي شريعتي نستدرك ان هذه الفكرة وعلى الرغم من طرافتها لاتنهض بتفسير الاحكام والمفاهيم والقيم غير الضبابية - التي لم يتغير فهمنا عنها منذ نزولها وحتى يومنا هذا وكانها تحمل زاوية وبعد واحد ومن ثم لانظر اليها الا من خلال ذلك البعد الواحد الواضح.

هذا فضلا عما يترتب على مثل هذه المقولة من نتيجة سلبية تتمثل في القول: ان الشريعة الاسلامية غامضة ومبهمة او ضبابية ورمزية ولا تتمتع بثبات في الفهم والمضمون.

ولكن وفي التحليل النهائي لفكرته الرمزية في الدين نختم بالتذكير انها تختص بجزء يسير - من النصوص العلمية او الفلسفية - ان صح التعبير - و ذلك

بعد ما اتضح انها لاتصلح تفسيراً للتشريع او الاخلاق والقيم - غير الضبابية - فهي تختص بجزء يسير من بعض النصوص من نظير قوله تعالى: «والسماء بيناها بأيدينا وإنا لموسعون»^(١٥)

فهذه الآية تصلح لزمان نزولها لتلك العقلية البدائية وعلى الرغم من ذلك تصلح لعصرنا هذا وللحظة هذه تصلح لعقلية وثقافة القرن العشرين التي قد تؤمن بأحدث نظرية في علم الفلك التي ترى: «ان الكون يتسع بالتسلسل الدائم، وان كل مجاميع النجوم والاجرام والاجسام الفلكية تتباعد بسرعة مذهشة، بعضها عن بعض التي قد تفسر نظرية ان الاجزاء التركيبية كانت مركزة ومجمعة بعضها مع بعض، ثم بدأت الحركة والحرارة ويقدر العلماء ان هذا الكون قد وجد نتيجة «الانفجار» فوق العادة وقع منذ ٥٠٠٠٠/٠٠٠/٠٠٠ سنة»^(١٦).

اذن هذه الآية - العلمية - تصلح للماضي والحاضر والمستقبل وهذا هو الاعجاز القرآني حيث يصلح لكل الظروف والبيئات والثقافات وهو فوق الحدود الزمانية والمكانية لانه - وكما اشرنا - من خالق الزمان والمكان والمشرق عليهما. ثاني ما اشرنا اليه كان يتمثل في مقولة ان الشريعة الاسلامية او ان روح الشريعة الاسلامية - بالاحرى، بالتطور والنمو تبقى نابضة بالحياة والديناميكية الحركية.

سنترك هذه المقولة ومناقشتها الى ان ننتهي من نظرية الثابت والمتغير لما تتداخل النظريتين في النتيجة بعض التداخل.

وقد اشرنا الى ان جمع - غير قليل - من مفكرينا يرى ان اللغز يكمن في التفريق بين الاحكام الثابتة غير المرنة والاحكام المتغيرة والمرنة والمتحركة. على انهم اختلفوا ثمة اختلاف نسبي وجزئي في تفسير وتحليل كل من

الثابت والمتغير واختلافاً آخراً في مجال منطقة الفراغ والنسبة بينها وبين الاحكام الولائية التي تركت للحاكم الشرعي ان يملئها.

نبدأ بالقول ان مهدي مهريزي يرى ان هذه الرؤية اقدم اطروحة في مضمار التوفيق بين الشريعة الاسلامية والعالم الانساني المتحول^(١٧) وكأول تعبير عن هذه الصيغة - والقول للمهريزي - انما جاء في كلام ابن القيم (٦٩١-٧٥١هـ) في كتاب «اغاثة اللفهان حيث يقول هناك: «الاحكام نوعان: نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها، لا بحسب الازمنة ولا الامكنة، ولا اجتهاد الائمة كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم ونحو ذلك، فهذا لا يتطرق اليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه.

والنوع الثاني: ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زماناً ومكاناً وحالاً كمقادير التعزيرات واجناسها وصفاتها، فان الشارع ينوع فيها حسب المصلحة..، وهذا باب واسع اشتبه على كثير من الناس الاحكام الثابتة اللازمة التي لا تتغير، بالتعزيرات التابعة للمصالح وجوداً وعدمًا.^(١٨)

في كتابه الاسلام ومتطلبات التغيير الاجتماعي تعرض السيد العلامة محمد حسين الطباطبائي لقضية كيفية تلبية الاسلام لاحتياجات كل عصر ومرحلة وانتهى الى ان الاسلام وبحكم كونه نظاماً عالمياً لا يختص بجماعة ولا بزمان ومكان محددين تنقسم احكامه الى قسمين متميزين هما الاحكام الثابتة والاحكام المتغيرة وفي معرض تفسيره لكل من القسمين عاد يقول: «أن الاحكام الثابتة، هي التي ترتبط بالطبيعة الانسانية وبالتكوين الانساني ولا تختص بزمان او مكان معينين ولا بجنس ولون خاصين».

واما الاحكام المتغيرة في الاسلام - والقول للطباطبائي - «تلك الاحكام

التي تعتبر بمثابة منطقة فراغ في التشريع على الوالي ان يسدها تبعاً لمتطلبات الظروف الزمانية والمكانية. فتغير الزمان والمكان، يفرض تغييراً في القوانين لجعلها مناسبة للظرف الخاص بها. وهذا التغيير، يلبي احتياجات الانسان المتطورة دون ان يطرأ اي تغيير على الاحكام الثابتة في الاسلام»^(١٩).

اذن يذهب العلامة الى ان دائرة المتغيرات هي من صلاحيات الوالي «الحاكم» في حين حدد آخرون المجالات المتغيرة من خلال الابعاد التالية:

١ - التقدم العلمي والتقني الذي تتغير في نطاقه الادوات والوسائل.

٢ - الظواهر الجديدة التي لم يكن لها وجود في السابق.

٣ - صلاحيات الحكومة.

٤ - لزوم رعاية الاهم والمهم.^(٢٠)

ولو انتقلنا الى مفكر آخر من مفكرينا هو السيد الشهيد الصدر فإننا سنجد انه يفسر كل من الاحكام الثابتة والاحكام المرنة بالنحو التالي: الاحكام تشتمل على قسمين من العناصر.

احدهما: العناصر الثابتة وهي الاحكام المنصوصة في الكتاب والسنة.

والاخر: العناصر المرنة والمتحركة وهي تلك العناصر التي تستمد - على ضوء طبيعة المرحلة في كل ظرف - من المؤشرات الاسلامية العامة التي تدخل في نطاق العناصر الثابتة.

وينتهي اخيراً الى القول ان هناك «في العناصر الثابتة ما يقوم بدور مؤشرات عامة تعتمد كاسس لتحديد العناصر المرنة والمتحركة التي تتطلبها طبيعة المرحلة»^(٢١).

اذن ما يضيفه الشهيد الصدر - في هذا المجال - ان الاستنباط والاستكمال

يقتضي اندماج العناصر المتحركة مع العناصر الثابتة في تركيب واحد تسوده روح واحدة واهداف مشتركة.^(٢٢)

اذن نلاحظ في جسم افكار الشهيد وآثاره انه هو الاخر قد ربط منطقة الفراغ - التي تركها التشريع الاسلامي للدولة ان تملؤها - بحسب تحليل الشهيد - في ضوء الظروف المتطورة - بمسألة حل جدلية النص الثابت والواقع المتغير فعندما يتساءل في كتابه - اقتصادنا - لماذا وضعت منطقة فراغ يجيب ان الفكرة لمنطقة الفراغ تقوم على اساس: ان الاسلام لا يقدم مبادئه التشريعية للحياة الاقتصادية بوصفها علاجاً موقوتاً او تنظيمياً مرحلياً.... وانما يقدمها باعتبارها الصورة النظرية الصالحة لجميع العصور فكان لا بد لاعطاء الصورة هذا العموم والاستيعاب - ان ينعكس تطور العصور فيها ضمن عنصر متحرك، يمد الصورة بالقدرة على التكيف وفقاً لظروف مختلفة.^(٢٣)

وثمة رؤية اخرى للدكتور مصطفى البغا^(٢٤) ترى ان الاحكام الثابتة هي التي ثبتت بنصوص شرعية قطعية الدلالة من الكتاب والسنة التي لا تتغير ولا تتبدل لانها - والقول للدكتور - شرعت لهذا الانسان ولحقيقته وذاتيته والانسان لا يتغير - ومن باب المثال يستعرض الدكتور مساحة تحريم الخمر والزنا ونحو ذلك ثم ينتقل الى الاحكام المتغيرة مشيراً الى انها «التي قامت على المصلحة او التي قامت على العرف» وبعد ذلك ومن باب الاستدكار يصرح ان النص الشرعي احد امرين: نص صريح قطعي الدلالة على مضمونه - ثابت لا يتغير ولا يتبدل ونص غير صريح يحتمل التأويل ويحتمل التدقيق ثم يقول: وهذا لانقول يمكن ان يتغير ولكن يمكن ان نفهمه فهماً جديداً بناء على معطيات الزمان وبناء على المستجدات وهذا من مرونة التشريع الاسلامي....^(٢٥)

والى مثل هذا القول يذهب الدكتور وهبة الزحيلي^(٢٦) واما الدكتور البوطي فإنه يلخص القول في ان الثابت هو المرتبط بمصالح ثابتة والمتطور ما ارتبط بمصالح متطورة.^(٢٧) ونخرج من كل ما تقدم الى ان:

التقسيم الثنائي للاحكام الشرعية الى ثابت ومتغير - يجعل من الشريعة الاسلامية مرنة ومتحركة مع التطور الزمني والحضاري. والاحكام الثابتة تقوم بدور مؤشرات عامة تعتمد كأسس لتحديد العناصر المرنة والمتحركة التي تتطلبها طبيعة كل مرحلة وزمن. ويتضح عبر التاكيد على اهمية الاحكام الولائية خطورة وضرورة وجود الحاكم الاسلامي وبالتالي الحكومة الاسلامية والولاية الدينية والسياسية اذا اريد للاحكام ان لاتبقى كلمات في سطور وتأخذ طريقها الى الممارسة والفعل.

بيد ان منطقة الفراغ لاينحصر املائها - بحسب الظاهر - بالحاكم الشرعي لوحده او للامة وحدها، بل لكل منهما سهم في ملئها بناء على اللادلة التي تذكر صلاحيات الحاكم من انها دليل على جواز هذا الحق للحاكم والاية المباركة «وامرهم شورى بينهم» التي خولت الامة هذا الحق.^(٢٨)

وعن مقولة ان روح الشريعة الاسلامية متطور ومتغير تستوقفنا استفهامات من قبيل: ماذا يعني تغير روح الشريعة وتطويرها مع تطور الواقع المتحول فهل يعني ذلك ان الشريعة تتغير بمضمونها وطبيعتها او تتغير شكلها وهيئتها كلما تغير الفهم ونضج. او ان المرادذ كما يعبر علي شريعتي - ضبابية رمزية وذات ابعاد يصلح كل بعد منه لزمن معين.

وعلى اي حال فنستذكر ونؤكد ان ثمة واقعية وحقيقة تحكم الشريعة بسبب

وجود الاحكام الثابتة غير المرنة التي نعتمدها كمؤشرات واسس لتحديد العناصر المرنة والمتحركة التي تتطلبها طبيعة المرحلة.

تلخيص واستنتاج:

١- جسم المقال من اوله والى آخره جاء كمحاولة او مقاربات في شمولية النظام الاسلامي وجامعيته لابعاد الحياة المختلفة على توالي التغير الزمني والحضاري فالشمولية وبهذا المعنى تتداخل مع مقولة خلود الشريعة وقد اشرنا الى ان مكونات الاسلام وروافده بمجموعها تكون لنا صورة عن الاسلام المتصف بالخصائص العامة الاساسية.

٢- وعليه انتهينا الى ان الشريعة تتكون من التقاء الروافد التي تجتمع لابرار الصورة النهائية عن الاسلام واشرنا في جسم المقال ان الدراسة الصحيحة لكل خصيصة تقتضي استيعاب ودراسة الخصائص الاخرى من الاسلام لتتوفر على رؤية ربطية تجعل كل خصيصة في مكانها المناسب حيث تسبقها خصيصة وترافقها اخرى و تلحفها خصيصة ثالثة وهذا هو معنى دراسة الاسلام دراسة ربطية تجعل من الاسلام كلاً واحداً متماسك الاعضاء.

٣- وثمة اتفاق في الشمولية والجامعية وثمة اختلاف نسبي في تقديم تفسير للشمولية اشرنا اليه نستذكره ونستذكر التفاسير المتنوعة التي اتسم بعضها بالجزئية من قبيل فكرة الرمزية واختصاصها بجزء يسير من النصوص الاسلامية العلمية او المفاهيمية واتسم بعضها بالغموض من قبيل مقولة تطور الشريعة الاسلامية ونموها نمواً متحولاً واخيراً اتفاق بعض المفكرين على تبني مقولة ان الاسلام يتوفر على احكام متحركة ومرنة تستمد على ضوء طبيعة المرحلة في كل ظرف

من المؤشرات الاسلامية العامة التي تدخل في نطاق العناصر الثابتة.

٤ - وبعداستذكار منطقة الفراغ وارتباطها بالحاكم الشرعي وغيره ان يملئها بحسب الظروف وطبيعة المرحلة من حوله، تتوفر على رؤية - ولو اجمالية - عن خطورة الحاكم الاسلامي والحكومة الاسلامية التي ترك لها ملء الفراغات الهائلة والذي ارتبط بهامصير التشريع الاسلامي المتحرك التي يستمد معالمه من الاحكام الثابتة في جسم الشريعة الاسلامية. وتعني - بطبيعة الحال - انكار الحكومة الاسلامية كمنظرة وممارسة اهدار للعنصر المتحرك والمرن الذي يجعل من الشريعة الاسلامية شاملة ومستوعبة لكل الظروف والبيئات التي لا تقف عند حداو مانع، وفي التحليل النهائي فانها تعني الوقوف دون نمو نصف من التشريع الحيوي في حياة الامة. وهل تبقى بعد ذلك ثمة اثار في عدم ضرورة وجود حاكم اسلامي ان على مستوى التنظير او على مستوى الممارسة.

٥ - اذن بعد تحليلنا للعناصر التي تكون الشرعية الاسلامية يتضح ان الشريعة الاسلامية يتلاشى في ضوئها ما يسمى بجذلية النص الثابت والواقع المتغير ويتضح ان فاعلية الشريعة وخلودها ديمومتها واستيعابها هو معنى اخر غير خلود وبقاء النصوص الشرعية على حالها، فثمة فرق بين بقاء الشريعة بنصوصها والفاظها وبين بقائها على نفس الدرجة من الحركية والديناميكية التي لا تنتهي بانتهاء امدها وبالتالي تلبى طموح السماء واغراضها الى جنب طموح البشرية وآمالهم في الحياة.

٦ - وما ينبغي استدراكه هو ان اكثر الاقوال لعلها تلتقي في نقطة تربى ان الاحكام المنغيرة تمثل العنصر الحي والحركي من الاحكام الشرعية التي يستمد اطاره من المؤشرات العامة التي نستوحىها من النص الثابت.

ولنختم بالتذكير اخيراً ان قضية شمولية النظام الاسلامي وجامعيته ليست شعاراً يرفع او كلماتاً تُقال من دون دليل عملي ناتج عن الممارسة من حقل التشريع الاسلامي، او كلام ناشيء من خلال التعاطي والتفاعل التشريعي مع متطلبات العصرية والتغيير الاجتماعي.

المصادر والمراجع:

- ١- الانسان والاسلام د. علي شريعتي ص ٦ عن دار سروس للطباعة والنشر.
- ٢- راجع التطور روح الشريعة الاسلامية - الاستاذ محمود الشقاوي - المكتبة العصرية.
- ٣- راجع اقتصادنا، الاسلام يقود الحياة، والاجتهاد والحياة.
- ٤- للمتّمرف على الفرق بين المذهب الاقتصادي وعلم الاقتصاد راجع اقتصادنا.
- ٥- فقه القضاء - السيد محمد الصدر
- ٦- مع القرآن في عالمه الرحيب - د. عماد الدين خليل ص ١٦٣ دار العلم للملايين.
- ٧- النحل ٨٩
- ٨- الانعام ٥٩
- ٩- المائدة ٣
- ١٠- تفسير العياشي ج ٢ ص ٢٦٦
- ١١- تفسير نور الثقلين ج ١ ص ٥٩٢
- ١٢- الحياة ج ٢ ص ١٣٢
- ١٣- مدخل الى فلسفة الفقه - مهدي مهريزي ص ٦٤ - كتاب قضايا اسلامية معاصرة.
- ١٤- الانسان والاسلام ص ٦
- ١٥- ن - م
- ١٦- الذاريات ٤٧
- ١٧- الاسلام يتحدى وحيد الدين خان ص ٥٦ - دار الجيل المسلم.
- ١٨- مدخل الى فلسفة الفقه ص ٥٢
- ١٩- ن - م
- ٢٠- الاسلام ومتطلبات التغيير الاجتماعي ص ٤٣ و ٤٥ - دار القدير بيروت.
- ٢١- مدخل الى فلسفة الفقه ص ٥٥
- ٢٢- الاسلام يقود الحياة ص ٣٩
- ٢٣- ن . م
- ٢٤- اقتصادنا - الشهيد الصدر - مجمع الشهيد الصدر العلمي والثقافي ص ٧٢٢
- ٢٥- الاجتهاد والحياة حوار على الورق ص ٥٩
- ٢٦- ن - م
- ٢٧- ن - م
- ٢٨- ن - م ص ٩٦
- ٢٩- فلسفة الفقه ص ٨٧
- ٣٠- انظر كتاب التطور روح الشريعة الاسلامية للاستاذ محمود الشقاوي.

الإسلام لا يفصل بين الدين والدنيا والدولة

يعقوب إسمي
امام اعظم منطقة A2 في الفيليبين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا محمد
النبي الامين وعلى آله واصحابه اجمعين.

فخامة رئيس الجمهورية الاسلامية الايرانية

اصحاب المعالي الوزراء

اصحاب السمو الامراء

معالي رئيس المؤتمر الدولي الحادي عشر للوحدة الاسلامية

أصحاب السماحة العلماء

حضرات الضيوف الكرام

السلام عليكم ورحمة الله و بركاته

ما اجمل الترحيب بكم، وهنيئا لكم ايها الاخوة المجاهدون. اكرزها مثنى و

ثلاث. مرحبا بهذا الجمع الكريم الذي يضم نخبة من العاملين في سبيل الله في مختلف ارجاء المعمورة. من استراليا الى اميركا ومن الشرق الاوسط الى افريقيا. انهم كما قال تعالى: **«انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى»**... الآية.

ايها الاخوة الكرام. ان العلاقة بين الدين والدنيا والدولة. كعلاقة بين الجسد والعقل والروح. تعتمد على التوحيد والايمان بجميع اركانه وترتكز على قيم سماوية عالية. تهدف الى استخلاف الانسان في الارض وتنظيم مهمة الحياة الانسانية التي حددها القرآن الكريم في الآية المباركة: قال الله تعالى: في سورة آل عمران ١٥٥ - **«كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»**. يجب على الانسان ان يخرج من الجزئية والى الشمول ومن الوفتية الى الاستمرار ومن الارتجال والتخبط والى التخطيط والتنظيم.

ان الاسلام في حقيقته يختلف اختلافاً بعيداً عن النصرانية في ثوبها الكنيسية الكهنوتي كان من الواجب بيان حقيقته كما انزله الله تعالى على نبيه محمد (ص) لا في الصورة المشوهة التي يحاول البعض الصاقها به. خاصة وانه الدين الذي ارتضاه الله عز وجل للبشرية جمعاء. ولا يقبل منها غيره.

قال الله تعالى: في سورة المائدة آية ٣

«اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً»

..الآية.

وقال تعالى في سورة آل عمران آية ٨٥

«ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين».

الآية.

الإسلام لا يفصل بين الدين والدنيا والدولة

مفهوم الدين في الإسلام:

هو النظام العام والقانون الشامل لأمر الحياة كلها ومناهج السلوك للإنسان التي أوحى بها الله عز وجل إلى نبيه محمد (ص) وأمره بتبليغها إلى الناس كافة مع ما يترتب على التعبير بها أو عدمه من ثواب وعقاب.

وعلى هذا كان الإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة فالعقيدة هي التصور الكامل الموحد لأمر الكون. والحياة الذي يعرف به العبد رباً واحداً للعالمين فيتخذها الها يجعل حياته وقفاً على طاعته وعبادته قال الله تعالى في سورة الذاريات آية ٥٦.

«وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون».. الآية.

كما تتعبد له سائر العوالم ويوقن العابد بحق المرجع إلى ربه فيهيء دنياه بحيث يلقاه في الآخرة مرضياً ومسعوداً.

أما الشريعة ومنهج الحياة. فهما طريق العابد الذي يسلكه إلى ربه لا يرتد عنه ولا يخالف إلى طريق غيره وما ذلك إلا لكون الشريعة هي المنهج العملي الذي يصدق العقيدة ويحقق معنى العبادة. لأن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني ولكن وما وقر في القلب وصدق العمل.

لذا جاءت شريعة الإسلام شاملة لجميع شؤون الحياة وسلوك الإنسان محققة ما ينفعهم في حياتهم ويحفظهم من الفساد والفوضى في دنياهم... ومن هنا كان لا يمكن لمسلم عرف دينه أن يقول: إن هذا المجال لي إن أنظم أمور في فيه كما أشاء وعلى هواي بمعزل عن شريعة الله تبارك وتعالى. لأن إيماناً بجانب يتولى به المرء عن شريعة الله تعالى هو نقض لمقتضى التوحيد. ولأن الدين لا يتم إلا

بالاعتصام الكامل بشريعة الله والاحتكام اليها بينهم في كل شيء.

قال الله تعالى في سورة النور آية ٥١.

«انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا

سمعنا واطعنا واولئك هم المفلحون».. الآية.

وكل تعطيل لاحكام الشريعة او احترام منها نكث لعهد الايمان وفسق عن

الدين.

قال الله تعالى في سورة البقرة آية ٨٥

«اقترنمون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا

خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب».

قال الله تعالى في سورة المائدة آية ٤٦:

«وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن

بعض ما انزل الله اليك».. الآية.

والتزيد عليها كاحترامها والانتقاص منها وتعطيلها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من احدث في امرنا هذا ما ليس منه

فهو رد.. رواه البخاري.

ومهما حاد المرء عن شريعة الله، او عن جانب منها فهو انما يتبع الهوى

ويضع من ثم في الضلال والظلم.

قال الله تعالى في سورة القصص آية ٥٥.

«فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم. ومن اضل ممن اتبع هواه

بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين»... الآية.

لذا لا يمكن لمسلم ما دام الامر هكذا ان ينظم اموره بمعزل عن شريعة الله

تبارك وتعالى. لأنه يعلم ان الاسلام يحكمه وينظم حياته من البداية حتى النهاية. ومن يافوخه الى اخمص قدميه بدليل ان المرء لو استقرأ آيات الكتاب الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم لوقف منها على بيان شافٍ وافٍ لكل شأن في الحياة سواء ما كان يخص الفرد في خاصة امره وعلاقاته مع خالقه. وما يعم الجماعة مما يتصل بالسياسة والاقتصاد والاجتماع وتنظيم العلاقات مع سائر البشر..

فالدين الذي ارتضاه الله عز وجل للبشرية لم ينزله للعقيدة او العبادة فقط ولا بياناً للآداب والفضائل فحسب ولا بياناً للشرائع والانظمة فقط. ولكنه يشمل ذلك كله.

انظروا الى قول الله تعالى في سورة الانعام ١٥١-١٥٣:

«قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ان لا تشركوا به شيئاً. وبالوالدين احساناً ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم. ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون. ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده، وارفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفساً الا وسعها. واذا قتلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون. وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون».

جمع الله عز وجل سوراً تتعلق بعقيدة الفرد، محرم عليه الشرك بالله عز وجل واموراً تتعلق بسلوكه الاخلاقي، فأمره بالاحسان الى الوالدين وتجنب قتل اولاده، وتجنب اقرار الفواحش خفيها وظاهرها. واموراً تتعلق بمعاملاته مع الآخرين. فأمره بعدم مساس مال اليتيم إلا بما يعود عليه بالنفع حتى يبلغ اشده.

وبالوفاء في الكيل والميزان. وبالقضاء بالعدل والتمسك به . وبالوفاء بالعهود والالتزام بها.

فهذه الاية الكريمة لم تقف بالدين عند حد العقيدة في الاله ولا عند حد الوصايا الاخلاقية الفردية بل تجاوزت من هذين الجانبين الى جانب المعاملات في دائرة الاموال والتبادل التجاري. وفي دائرة القضاء. وفي دائرة الوفاء بالعهود والالتزام بها.

فالامة اذن فوق انها تحدد العقيدة والوصايا الخلقية الفردية تقرر مبدأ التعامل. مبدأ القضاء ومبدأ الدولة نفسها وصلتها بالافراد فالدولة عهد بين الافراد بعضهم مع البعض. ووجوب الوفاء من بين البعض نحو البعض الآخر.

وفي قوله تعالى في سورة الشورى ٣٦-٣٩.

«فما اوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وابقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، والذين يتجنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغضرون. والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون». الاية.

اخصت هذه الايات صفات المؤمنين. و بين الاوصاف على قاعدة ومن الايمان المؤكد بصفة الواقع القطع للذين آمنوا «ثم ترادفت الاوصاف تحكي حال التوكل الناتج عن ايمان المؤمنين بحق الوجهة التي يتجهون اليها وثقتهم في توفيق الله. تم تبين من خلق المؤمنين ونظام علاقاتهم انهم لا تستخفهم دواعي الشهوة والهوى والغضب. لأنهم بايمانهم يتقون الله ويخافون من حساب في يوم تشخص فيه الابصار حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وتمضي الاوصاف. بعد ان قررت مقتضيات العقيدة المباشرة، لتشهد

المؤمنين بانهم يستجيبون لامر الله ويطيعون شريعته، ورأس الطاعات هي الصلاة. يتلوها الانفاق لثلا تتكسد الثروة ويذهب بها بعض المؤمنين دون اخوانهم. ثم الشورى لثلا تتركز السلطة ويستبد بها الولاة دون الرعية، او الاقوياء دون الضعفاء. وتعطف بعد ذلك الايات وما يليها على موقف الجماعة المؤمنة من سائر الجماعات. فتجعله موقف سلم وقوة. لايتعدى المؤمنون لكنهم ينتصرون اذا بغى عليهم عاد. او يؤثرون العفو الجميل.

فهذه آيات فلائل تضمنت ذكرا من عقيدة الايمان وشعابها العملية ومن معاني الطاعة والعبادة لله ومن مبادئ الحكم والاقتصاد والسياسة الخارجية. من هنا اذن كانت شريعة الاسلام شاملة ومنظمة لمختلف جوانب الحياة. حياة الافراد والجماعات سواء منها ما كان يتعلق بالعقائد او العبادات. او ما كان مرتبطا بالاخلاق او المعاملات.

ويمكن لنا ان نلاحظ ان المعاملات في شريعة الاسلام تشمل ما يمكن ان يطلق عليها بالاصطلاحات الحديثة:

١- قانون الاحوال الشخصية الذي يشمل الاحكام المتعلقة بالاسرة وتنظيمها كالنكاح والطلاق والارث والنفقة والوصية.

٢- القانون المدني الذي يشمل الاحكام المتعلقة بالمعاملات المالية بين الافراد كالبيع والإجارة والرهن والكفالة.

٣- قانون المرافعات الذي يشمل الاحكام المتعلقة بالقضاء والدعوى واصول الحكم والشهادة واليمين والبيانات.

٤- القانون الدولي الخاص الذي يشمل الاحكام المتعلقة بمعاملات الاجانب غير المسلمين عند دخولهم ارض الدولة الاسلامية والحقوق التي

يتمتعون بها والواجبات التي يلتزمون بها.

٥ - القانون الدولي العام الذي يشمل الاحكام المتعلقة بتنظيم علاقات الدولة الاسلامية بالدول الاخرى في السلم والحرب.

٦ - القانون الدستوري الذي يشمل الاحكام المتعلقة بنظام الحكم وقواعده. وكيفية اختيار رئيس الدولة وشكل الحكومة وعلاقة الافراد بها. وحقوقهم ازاءها.

٧ - قانون المرافعات الجزائية ويشمل الاحكام المتعلقة بتحديد علاقة الفرد بالدولة من جهة الافعال المنهى عنها الجرائم وعقوبة كل جريمة والاجراءات التي تتبع في تحقيق الجرائم وانزال العقوبات بالمجرمين.

٨ - القانون المالي بمختلف فروعها او ما يمكن تسميته بالنظام المالي ويشمل الاحكام التي تتعلق بموارد الدولة المالية ومصارفها. وتنظيم العلاقات بين الافراد والدولة في هذا المجال. وبين الاغنياء والفقراء.

وهكذا نستطيع القول بأن تشريع الاسلام تشريع شامل فهو لا يشرع للفرد دون الاسرة. ولا للاسرة دون المجتمع. ولا للمجتمع منعزلاً عن غيره من المجتمعات.

ويبدو شمول التشريع الاسلامي ايضا في بعد آخر وهو النفاذ الى اعماق المشكلات المختلفة. وما يؤثر فيها وما يتأثر بها. والنظر اليها نظرة محيطية مستوعبة مبنية على معرفة النفس الانسانية. وحقيقة دوافعها وتطلعاتها واشراقها ومعرفة الحياة البشرية وتنوع احتياجاتها وتقلباتها، وربط التشريع بالقيم الدينية والاخلاقية بحيث يكون التشريع في خدمتها وحمايتها ولا يكون معولاً لهدمها.

ان عيب البشر الذي هو من لوازم ذواتهم المحدودة انهم ينظرون الى الامور والاشياء من جانب واحد. غافلين عن جانب او اكثر من جوانبها الاخرى

والحقيقية انهم لا ذنب لهم في هذا القصور ولا حيلة. لان النظرة المحيطة الشاملة التي تستوعب الشيء من جميع جوانبه. وتعرف كل احتياجاته وتدرک كل احتمالاته وتوقعاته لا يقدر عليها الا رب البشر وخالق الكون.

قال الله تعالى في سورة الملك آیه «١٤»

الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير

لذا وجدنا ان الاسلام اقام شؤون الدنيا كلها على اساس من الدين. واتخذ من الدين سندا للدولة ووسيلة لضبط شؤون الحكم وتوجيه الحكام والمحكومين. لذلك جاءت مخاطبته للانسان كله بعقله وروحه. مخاطبته الذات الانسانية بكل مقدماتها وخصائصها. يخاطب العقل كما يخاطب الضمير والوجدان. ولا يقصر خطابه على ناحية معينة.

قال الله تعالى في سورة سبأ آیه ٤٦.

«قل انما اعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تفكروا... الاية.

وما دام الامر هكذا كان لابد ان تتعرضه بشيء من التفصيل للجانب المتعلق ببحثنا الا وهو جانب الدولة - السياسة - لئر كيف انها ركن اساس في نظام الاسلام لابد انه لاقامة شرع الله تعالى. وتنفيذه والسهر على احكامه. فلقد كون للمسلمين وحده سياسية. وألف منهم دولة واحدة كان هو رئيسها وامامها الاعظم، وكان له وظيفتان.

١ - التبليغ عن الله عز وجل. وقد انتهى هذا بوفاته عليه الصلاة والسلام

وانقطاع الوحي.

٢ - القيام على اسرته وتنفيذ شرعه وتوجيه سياسة الدولة في حدود

الاسلام. وهذه مهمة الخلفاء من بعده. ولذا عرف هؤلاء الخلافة بقولهم:

- ١ - رئاسة عامة في امور الدين والدنيا خلافة عن النبي صلى الله عليه وسلم.
- ٢ - الامامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا.
- ٣ - هي خلافة عن الرسول صلى الله وسلم في اقامة الدين وحفظ حوزة الملة.

في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا. والخليفة يمثل الذي صلى الله عليه وسلم ولا يتميز عن سائر المسلمين الا من حيث كونه منفذاً للاحكام وحارساً للدين.

فاذا لم يكن بالناس حاجة للتبليغ بعد وفاته عليه الصلاة والسلام لوجود القرآن والسنة. فانهم في اشد الحاجة الى من يقوم على القرآن والسنة. ويسو سهم في حدود الاسلام بعد ان كون الرسول منهم وحدة سياسة واسعة لهم رئاسة الدولة وامامة المسلمين. بل ان التأسي بالرسول (ص) واتباع سنته يقتضي من المسلمين جميعاً ان يقيموا دولة على رأسها من يخلف محمداً صلى الله عليه وسلم في اقامة الدين وتوجيه سياسة الدولة توجيهها اسلامياً خالصاً.

وجود الحكومة الاسلامية ضرورة اجتماعية لان المعشر يستحيل عليهم ان يعيشوا منفردين ولا بد ان يجتمعوا تدفعهم لذلك المصلحة والضرورة فاذا اجتمعوا تزاحموا وتنافسوا وتغالبا و فرقت بينهم المصالح والمنافع وقامت بينهم الخصومات. فلا بد من حاكم يتزعمهم ويفصل في خصوماتهم ويحملهم على سلوك السبيل القديم. واذا كان العقل يقضي بان عدم قيام حكومة بين الناس يؤدي الى الضرر. كانت الخلافة او الامامة واجبة عقلاً.

وجود الحكومة لا بد منه لاقامة شرع الله وتنفيذ احكامه. ان الكثير من الواجبات الشرعية يتوقف على اقامة خليفة او امام. وما لا يتم الواجب الا به فهو

واجب شرعاً. كما إن في نصب الامام دفع ضرر. وازالة الضرر تجب شرعاً. وفيه ايضا جلب منافع للامة وهو واجب ايضا. ذلك ان مقصود الشارع فيما شرع من المعاملات والمناكحات والجهاد والحدود وشعائر الشرع وغيره انما هو مصالح عائدة على الخلق وهذه المصالح لا تتم الا بامام يرجعون اليه فيما يختلفون فيه. وهم مع اختلاف الاهواء وتشتت الاراء فلما ينقاد بعضهم لبعض فيؤدي ذلك الى التنازع والنوائب وربما ادى الى هلاكهم جميعا. والتجربة تشهد بان عدم اقامة خليفة، يؤدي الى تعطيل الدين والخروج على الاسلام و تفرق المسلمين كما هو حادث اليوم.

ثم حددوا الطريق الشرعي لانعقادها وهو اختيار الامة ممثلة بأهل الحل والعقد. فاذا اجتمع اهل العقد والحل للاختيار تصفحوا احوال اهل الامامة الموجودة فيهم شروطها. فقدّموا للبيعة منهم اكثرهم فضلا. واكملهم شروطاً ومن يسرع الناس الى طاعته ولا يتوقفون عن بيعته. وان خلافة ابي بكر الصديق (رض) ثبتت بالاختيار من اهل الحل والعقد. فلا يجوز ان يكون الظالم خليفة ولا إماماً ولا قاضياً ولا يلزم الناس قبول قوله في امور الدين. فثبت هذا بطلان امامة الفاسق وانه لا يكون خليفة. وان من نصب نفسه في هذا المنصب وهو فاسق لم يلزم الناس اتباعه ولا طاعته. لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق..»

وهكذا نجد ان الاسلام يقيم شؤون الدنيا كلها على اساس من الدين. ويتخذ من الدين سنداً للدولة ووسيلة لضبط شؤون الحكم وتوجيه المحكومين. ولذلك جاءت مخاطبته للانسان كله بعقله وروحه. ومن هنا ارتبط الدين بالدولة في الاسلام ارتباطا كبيرا. ارتباط القاعدة بالبناء. فالدين اساس الدولة وموجهها. ولا

يمكن تصور دولة اسلامية بلا دين. كما لا يمكن تصور الدين الاسلامي فارغاً من توجيه المجتمع وسياسة الدولة. لأنه حينئذ لا يكون اسلامياً. وعلى هذا لم يفرق علماءنا وسلفنا الصالح بين الاحكام التي تنظم الامور الدنيوية «للعقيدة والعبادة» والاحكام التي تنظم الامور الدنيوية. بل انهم اطلقوا عليها جميعاً باسم «الاحكام الشرعية الاسلامية».

«النظام السياسي في الاسلام يطبقها صلى الله عليه وسلم»

واذا رجعنا الى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى قبل ان يهاجر الى المدينة المنورة. ستشهد ان الرسول عليه الصلاة والسلام. وهو المبلغ عن ربه رسالة الاسلام والاعرف بها وبدقائقها. مهد خلال اكثر من عقد من السنين بما اوحى الله عز وجل اليه وبسياسته الرشيدة لاقامة الدولة الاسلامية الاولى والتي ستكون مثلاً يحتذى للخلفاء من بعده ليسيروا على منواله.

فهاهو عليه الصلاة والسلام في السنة التالية للرسالة يقول لاشراف قومه امام عمه ابي طالب «كلمة واحدة تعطو فيها تملكون بها لعرب وتدين لكم بها العجم».. وواضح في هذا القول ان التفكير السياسي كان الى جانب الدعوة الى الدين الجديد.

وهاهو عندما يرى العذاب تنزله قريش باتباعه وصحابته ولا يقدر على ان يمنعهم فيأمرهم بالهجرة الى الحبشة وهذا عمل سياسي لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب اصحابه من البلاء وانه لا يقدر على ان يمنعهم مما هم فيه قال لهم: لو خرجتم الى ارض الحبشة، فان فيها ملكا لا يظلم عنده احد. وهي ارض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما انتم فيه ولقد اراد عليه الصلاة

والسلام ان يحفظ اصحابه من الاضطهاد والهوان او القناء بهذه الخطة السياسية حتى اذا وجد ان سبب الهجرة قد زال ارسل يستدعيهم.

وبيعة العقبة الثانية التي عقدها مع الانصار من الاوس والخزرج قبل الهجرة الى المدينة المنورة والتي سميت ببيعة الحرب على ما ذكر ابن هشام والطبري. وما كانت الحرب الا عملا من اعمال السياسة.

قوله صلى الله عليه وسلم للانصار في هذه البيعة.. اخرجوا الي منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم قسموا تسعة من الخزرج وثلاثة من الاوس. صريح في انه كان يهيء اصحابه لحرب خصومه.

وما فعله قبل الهجرة من مؤاخاة بين اصحابه في مكة. هذه المؤاخاة التي هدم فيها النزعة القبلية وازال الفوارق الطبقيّة بدليل المؤاخاة مؤاخاته عمه الحمزة ومولاه زيد وابن عمه عبدة بن الحارث. وبلال. وابن ابي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة وتأخى هو مع ابن عمه سيدنا علي رضوان الله عليهم اجمعين.

هذه مواقف للرسول صلى الله عليه وسلم امتزج فيها الدين بالسياسة لان الدعوة التي جاء بها لم تكن دعوة للتوحيد ليس غير. ولكنها كانت نظاماً سياسياً كاملاً.

ثم كانت الهجرة الى المدينة المنورة. والمؤاخاة بين المهاجرين والانصار والعهد الذي وضعه الرسول صلى الله عليه وسلم. والذي عرف باسم «الصحيفة» وتم فيه تنظيم العلاقات ومختلف شؤون السلم والحرب بين الطوائف المختلفة التي كانت تسكن المدينة المنورة، وحددت الحقوق والواجبات.

وتعتبر الصحيفة بحق دستوراً للدولة التي ارسى قواعدها الرسول (ص) في المدينة المنورة حيث تحدد مفهوم الامة والمواطنة في هذه الدولة انهم اي

المسلمين امة واحدة من دون الناس. وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين.
وارست قواعد المساواة. ان ذمة الله واحدة. وان المسلمين يجير عليهم
ادناهم وان بعضهم موالي بعض دون الناس. وان المؤمنين المساواة بعضهم عن
بعضهم بما نال دماءهم في سبيل الله.

وجاء في الصحيفة ايضا: تحريم المدينة المنورة «ان يثرب حرام جو فيها لاهل
الصحيفة ومنع اجارة قريش» وان لاتجار قريش ولا من نصرها ومنعت البغي
والظلم وجاءت بالقود من القاتل. ومنعت ايواء المجرمين. وان العقوبة شخصية
تلحق مرتكب الجريمة فقط. ومنعت الصلح المنفرد «سلم المؤمنين واحدة،
لايسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم»
وجاءت بفداء الاسرى ورعاية حقوق الجار. ووضعت تدابير امنية لوقاية امن
المجتمع وتحقيق استقراره وبينت ما على اليهود من نفقات للدفاع عن الدولة
الناشئة وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وحددت الصحيفة انه
اذا وقع خلاف على تنفيذ نصوص الصحيفة او تفسيرها فالمرجع في فضه رسول
الله صلى الله عليه و سلم «وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله
وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إماماً في المحراب. وقاضياً يحكم
بين الناس بشرع الله. وقائداً عسكرياً يخوض المعارك ويوجه الجند. وسياسياً
يدير شؤون الامة الداخلية والخارجية. يبرم العهود والمواثيق. ويبين لهم ان
الاسلام نظام شامل يعالج شؤون الحياة كلها.

وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. اختار مجموعة من المسلمون
صاحبه ابا بكر الصديق اميراً عليهم وخليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

فوقف منذ اللحظة الاولى ليعلم للناس جميعا برنامجه السياسي العام مؤكدا فيه على تقيده بنهج محمد صلى الله عليه وسلم.. انما انا متبع ولست بمبتدع. مبنيا انه فرد من المسلمين لامتياز له عليهم سوى قيامه بتنفيذ شرع الله عز وجل وهي المرحلة الاساسية لاي حاكم في الاسلام اني وليت عليكم ولست بخيركم فان احسنت فاعينوني. وان اسأت فقوموني. اطيعوني ما اطعت الله ورسوله فيكم. فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. وان للمسلمين الحق في مناقشته ورده وتقويمه ان اعوج ولم يدع عصمة او حقا مقدسا بل انه رضى الله عنه لم يرتضي ان يقال له: خليفة الله. ويقول للقاتل: بل انا خليفة رسول الله (ص).

ويسوس المسلمين كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه. كان يضع نصب عينيه مصلحتهم العامة دنياً وديناً. يعين الولاة. ويجيش الجيوش. ويرسل الرسل لذا حارب المرتدين واجتهد في حربهم ووقف في وجه محاولات تحريف الدين وهو مايزال طري العود. غض الاهداب. فرفض ان يقبل من مانعي الزكاة اسلامهم والله لاقاتلنهم عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم. حتى يؤدونه.. والله لاقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة. لذا اصر على اعتبارهم مرتدين كانوا او تلك الذين ادعوا النبوة والحدوا في الله عز وجل وكفروا بالاسلام جملة وتفصيلا.. ان هذا الاصرار على قتالهم يؤكد اهمية الترابط الوثيق بين مفاهيم الاسلام واوامره ونواهيه وتشريعاته.. والا فما معنى اصراره رضوان الله عليه؟ ان هذا التشريع الاقتصادي انما هو ركن عبادي كذلك من اركان الدين الاساسية.

الرد على شبهة فصل

الدين عن السياسة

أحمد محمد أبو ظاهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين و الصلاة والسلام على سيدنا محمد و على آله بيته الطيبين
الطاهرين، ورضي الله عن صحابته البررة الكرام و عن تبعهم باحسان إلى يوم الدين و
بعد:

من البدهة أن الصراع بين الحق و أتباعه و الباطل و أعوانه قديم قدم الانسانية. و
أن هذا الصراع وصل ذروته عندما تجسد الحق بالاسلام منذ أربعة عشر قرناً من
الزمان و نيف . قال الله تعالى:

﴿ وقل جاء الحق و زهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾^(١).

وفي كل مرحلة زمنية كان هذا الصراع يأخذ شكلاً معيناً، و تستعمل فيه أسلحة من
نوع ما . وفي كل معركة يخوضها الحق مع الباطل و تكون الغلبة فيه للحق ينكفيء
الباطل على نفسه يفكر في ابتكار اسلحة جديدة علّه من خلالها أن يصل الى مبتغاه .

ولما لم يجد جدوى من استعمال اسلحته المادية لجأ الى ابتكار جديد يتمثل في الدخول على الاسلام من باب ما يعرف بالغزو الثقافي الفكري لاسيما في القرون القليلة الماضية وحتى اليوم أي منذ ما يعرف ببداية النهضة الأوروبية الحديثة والثورة الصناعية . بداية من القرن السادس عشر عن طريق الافكار المسمومة وهي كثيرة و متنوعة، من بينها فكرة أو شبهة فصل الدين عن السياسة أو عن العلم أو غير ذلك مستنداً الى واقع عاشته و مازالت تعيشه اوربا وغيرها. و تخصيص اوربا بالذكر لا يعني أنها صاحبة الامتياز بهذا الشأن، ولكنها الرائدة فيه بسبب علاقتها المباشرة مع المسلمين منذ عدة قرون .

و إشهار هذا السلاح من غير المسلمين على الاسلام ليس بالأمر العجيب ولكن العجاب من بعض من يتسمون بالمسلمين كيف تتكون لديهم القناعة بصحة و عمومية هذه الشبهات، و من ثم الصاقها بالاسلام على الرغم من المناعة الفكرية التي تميز فكر هذه الأمة و المستمدة من القرآن الكريم و من السنة النبوية الشريفة يتمثل ذلك بتكفل الله سبحانه و تعالى بحماية مصدر هذا الفكر و صفاء ينبوعه بقوله عز و جل :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(١).

وما أرى إلا أن أمثال هؤلاء و بسبب ضعف ايمانهم قد أصيبوا بفيروس التقليد فما اضطربت أفكارهم و فقدوا السيطرة على ألسنتهم و أفلامهم وهذا لا يعني أن يدير المسلمون ظهورهم لكل جديد من الحضارة بل على العكس من ذلك فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث يجدها و لكن عليهم قبل كل شيء أن يميزوا بين الحضارة و الثقافة لأن الحضارة مادة و الثقافة فكر .

وإذا كانت الحضارة عامة و شاملة فإن الثقافة خاصة بكل أمة . تستمد جذورها من القيم الدينية و الخلفية و من المفيد التذكير بأن الأمة الاسلامية عندما تأخذ من حضارة الغير فإنها تأخذ من حضارة لها سابقة في بنائها.

و أوروبا ذاتها أخذت من حضارة المسلمين ولكنها لم تأخذ من ثقافتهم بل على العكس سخرت كل أسلحتها ضد ثقافتنا و فكرنا و الدعوى الى الأخذ بثقافة الغير المادية دعوى رفضها و يرفضها الفكر الاسلامي متجسداً بعلمائه و مفكره.

لأنه يقوم على أساس الترابط بين الثقافة الروحية و الثقافة المادية، ولأنه فكر له قاعدته الخاصة به، و القائمة على الاحتفاظ بذاتيته و مقوماته، يأخذ و يعطي و يتفاعل مع الافكار الأخرى بحدود، دون أن يفقد ملامحه الاصلية .

وكل هذه الدعاوى المشبوهة مردها الى المحاولات المتكررة للمستشرقين الذين يصفون الفكر الاسلامي بالفكر الديني جرياً على التقسيم الذي عرفه الفكر الغربي بالفصل بين الدين و السياسة، و بين الاخلاق و الاجتماع و بين العلاقة بين الله و الانسان . وكان هذا أمراً طبيعياً في بيئة الفكر الغربي الذي تشكل من خلال عناصر التراث اليوناني و التشريع الروماني و اللاهوت المسيحي و العتب اليهودي و من ثم الصهيوني . و علماء المسلمين و مفكروهم و أصحاب الشأن في هذه الأمة إستناداً الى مرجعية حفظ الله تعالى لهذا الدين و فكره قد انبروا ماضياً و حاضراً بأقلامهم لمثل هذه الشبهات و الافكار الدخيلة على الاسلام.

وان كتابتي حول شبهة فصل الدين عن السياسة لم تأت بشيء جديد من حيث هي . ولكن الجديد هو إيجاز لعصارة ما كتبه المفكرون الاسلاميون حول الاساس و المنشأ و الهدف من هذه الشبهة كي تكون في متناول أكبر عدد من المسلمين على اختلاف مستوياتهم ذاكراً ما ورد في القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة من أدلة .

والحقيقة لا تبصر بالعين الواحدة، ولا تدرك بجزء من العقل ولا تفقه بأحد شطري القلب. بل لا بد من النظر إليها بالعينين للتمكن من ادراكها بتمام العقل وفهمها بكامل القلب.

والذين ينظرون إليها بعين واحدة ليدركوها بجزء من العقل ويفهمونها بشرط من القلب. إنما يستهدفون الى التضليل عنها لا الى الوقوف عليها. إما عن جهل وقصور أو تعمد بقصد الإساءة أو تقليد أعمى. وقد أنحى الله تعالى باللائمة على أمثال هؤلاء بقوله عز وجل:

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (١).

وتعمد الاساءة أو التضليل عن الحقيقة اتخذ عدة وجوه:

أولاً - من خلال المماثلة بين الاسلام و علمائه والمسيحية و رجال الكنيسة في القرون الوسطى. وهذه المماثلة بعيدة كل البعد و يستحيل تطبيقها على الاسلام أو اثباتها له.

لأن واقع فصل الدين عن السياسة في اوربا بل وعن بقية النشاطات الاجتماعية الأخرى جاء كما هو معروف وكما ذكر معظم المفكرين في اوربا نتيجة ردة فعل على ما كان يصدر عن رجال الكنيسة من تصرفات وعلى تحالفهم مع الملوك والافراد أنذاك انعكس سلباً على بقية أفراد المجتمع و وصل الأمر ذروته باصدارهم ما يعرف بصكوك الغفران مما أدى الى التمرد على الكنيسة و رجالها و تحجيم دورهم و جعل الدين في واد وكل ما يتعلق بشؤون الناس في كافة المجالات في واد آخر و باليت

الأمر وقف عند هذا الحد من التفريط بل حدث ما هو أكثر تفريطاً تمثل في إنكار الدين جملة و تفصيلاً عند فئة منهم وما المقولة المشهورة عن ماركس اليهودي: «الدين أفيون الشعوب» إلا تعبيراً عن وجه من أوجه ردة الفعل المفرطة تلك .

تكون نتيجة لذلك انطباع كامل لدى أفراد المجتمع مفاده أن رجال الدين «وهو تعبير قاصر عليهم» لا يفقهون شيئاً من أمور الدنيا ولا ينبغي بل ولا يصلح لأي منهم اسناد أية مهمة في أي مجال من مجالات الحياة العامة خارج اطار الكنيسة .

ومرد ذلك أن الشرائع السماوية التي سبقت الاسلام ربما لم تكن بنظر اتباعها تعني بشؤون الدنيا، و جل عنايتها كانت مجرد نصائح ساعد على ذلك عدم وضوح دراسة كافية عن النظم السياسية أو عن موقع السياسة في صلب هذه الشرائع. ولا أرى الخلل بهذه الشرائع بقدر ما هو في اتباعها لأنها شرائع سماوية منزهة عن كل شبهة شأنها في ذلك شأن الشريعة الاسلامية السمحاء .

بينما الرؤيا تختلف الى الاسلام فهو في الواقع دين و دولة، و من ينظر في كتاب الله و سنة رسوله (ص) يجد بأن الحديث جاء عن الله و ملائكته و الانبياء و الجنة و النار و كل أنواع العبادات كذلك يجد بأن الحديث جاء بأكثر من آية و حديث عن شؤون الدنيا و عن القوانين و النظم التي ينبغي على المسلمين الالتزام بها. فمثال ما ورد في القرآن الكريم قول تعالى:

﴿ و أحلّ الله البيع و حرّم الربا ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه و

ليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة - آية : ٢٨٥ .

(٢) سورة البقرة - آية : ٢٨٣ .

وهذا غيظ من فيض يؤكد على عدم اقتصار تنظيم العلاقة بين الانسان و ربه فحسب، و لو كان الأمر كما يدعون لكان من الممكن ترك شؤون هذا الدين كله لله تعالى يراقبها ولا علاقة للانسان به، ولكن على العكس من ذلك نجد في الاسلام جانباً كبيراً ينظم علاقة الانسان بالانسان، ويرتب سبل العيش في مختلف شؤون الحياة. اضافة الى ذلك لم يكن الاسلام في يوم من الأيام حكراً لأحد أو على أحد ولا لفئة على حساب أخرى بل هو دين كل متبع له مؤمن بتعاليمه ، دون امتيازات ولا خصوصيات ودون تفریق بين الاجناس والعروق، وبين الالوان واللغات .

قال الله تعالى :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنا أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (١).

ولم يكن الاسلام بما يتضمنه من مقومات استمرارية و عوامل حفظ أن يكون في يوم من الايام موضع استغلال من قبل أي فرد، أو فئة، وإن وجد مثل ذلك عند البعض فانما يكون عند ضعاف النفوس الذين لا يفهمون الاسلام على حقيقته كذلك لم يوجد بين علماء المسلمين على مر العصور و حتى يومنا هذا من يدعي الاستثثار بوضع خاص له في هذا الدين أو الافضلية على الغير وان وجد ذلك في المجتمعات الاسلامية فهؤلاء لا يشكلون حتى ولا أعشار علماء في هذا الدين .

لان علماءه و مفكره قد شهد الله لهم بالمكانة الرفيعة بهم من خلال قوله تعالى:

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو

العزيز الحكيم ﴾ (٢).

(١) سورة الحجرات - آية : ١٣ .

(٢) سورة آل عمران - آية ١٨ .

ثانياً: عن طريق الافتراء على هذا الدين بقولهم ان الاسلام كغيره من الاديان ما هو إلا سلسلة فكرية بدايته كانت بالكهانة والتنجيم . ثم ترقى الى السحر ثم الى الادعاء بالنبوة التي امتصت كثيراً من التقاليد فجعلت لها تلك القداسة الروحية .

و لقد ألف المسلمون في صدر الاسلام مثل هذه الافتراءات من المشركين وغيرهم آنذاك وقد رد الله عليهم أي على المشركين بقوله عز وجل :

﴿ ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ (١).

و غوغائية هؤلاء و أمثالهم لن تفيدهم في شيء مما يهدفون اليه وما على المسلمين إلا أن يسلكوا سبل الهداية التي أرشدهم الله اليها بقوله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ (٢).

وقال تعالى :

﴿ ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (٣).

ثالثاً - عن طريق فئة المقلدين، و هؤلاء ليسوا بأكثر من مجرد صدى لغيرهم يهرهم الغث من النهضة الأوروبية دون الاستفادة والافادة من سمين هذه النهضة في نواحي متعددة .

وعلى المسلمين عدم الجري وراء هؤلاء . و القرآن الكريم حذر من مغبة السير على نهجهم بقوله مخاطباً سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والخطاب من بعده لأمتة :

﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا

(١) سورة النحل - آية ١١٦ .

(٢) سورة المائدة - آية ١٠٥ .

(٣) سورة القلم - آية ٧ .

نصير ﴿^(١)﴾.

وقال أيضاً:

﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعدما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ﴾ ^(٢).

واتباع هؤلاء يترتب عليه فساد السموات والأرض قال تعالى:

﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن بينها ﴾ .

والملاحظ ان اثاره هذه الشبهات بالوجه الثلاثة السابقة تحكم بظروف زمنية و

مكانية تختار بعناية وعن خبث .

فالمعروف ان في هذا الربع الاخير من القرن العشرين الميلادي بدأت تلوح في الافق بواد صحوة اسلامية عامة وشاملة وحدثت متغيرات هامة على الساحة الاسلامية أهمها بروز دور فاعل و مؤثر لعلماء المسلمين على الساحتين الاسلامية والعالمية تجلى في قيام الثورة الاسلامية في ايران واستلام العلماء العاملين المخلصين لامتهم فيها زمام الأمور ومساهماتهم في ادارة سفينة نجاة هذه الأمة الى بر الامان والسلامة . ومنها ادراك المسلمين على اختلاف مستوياتهم ومسؤولياتهم للمخاطر الجمة التي تواجههم في الظروف الصعبة وفي خضم المتغيرات الدولية الكبيرة مما حدا بعلماء المسلمين الى عقد المؤتمرات والندوات وبدعم من سلطان الحكم في بلدانهم بمختلف أنظمتها واتجاهاتها وهذا أمر طبيعي لان تلك السلطات لا يمكن أن تكون بمنأى عما يعترض مسيرة أمنهم من أخطار وهم المؤتمنون على مقدراتها الراعون لشؤون شعوبها الساهرون على أمن وسلامة بلدانهم .

وما هذا اللقاء الاسلامي الذي ترعاه الجمهورية الاسلامية الايرانية إلا تعبيراً عن

(١) سورة البقرة - آية ١٢٠ .

(٢) سورة البقرة - آية ١٤٥ .

أوجه هذه الصحوه و تنشيطاً لفاعلية هذه اللقاءات و التأكيد على استمرارها .
ولهذا ليس بالأمر الغريب أن نقرأ و نسمع و نشاهد مروجي هذه الشبهه يطلون
برؤوسهم في هذه المرحلة. لان مثل هذه اللقاءات و الحوارات بين المسلمين تؤرقهم
مستأنسين بمسيرة التاريخ و ما تحمل اليهم من أخبار و لان هذه المسيرة تشهد بأن
قادة الحركات المناهضة لقوى البغي و العدوان على هذه الامه و رسالتها وفي أي قطر
اسلامي هم رجال الفكر و العلم الذين يجمعون بين فقه أحكام الدين و فقه أمور الدنيا
بسبب صدق توجههم و سلامة نواياهم و الذين يقولون بفصل الاسلام عن السياسة
يتجاهلون مدلول كل منهما و العلاقة بينهما .

و ادراك هذا المدلول و تلك العلاقة من خلال المعاني اللغوية و الاصطلاحية لكل
من الدين و السياسة .

فالدين كماورد في كثير من التعاريف وضع الهي سائد لذوي العقول السليمة
باختيارهم لما فيه صلاحهم في الحال و المال في الدنيا و الآخرة و بشقيه التعبدية
والتعاملي .

و السياسة هي فن و اسلوب تربية و تعليم الانسان و علم سلوك جماعي مرتبط
ارتباطاً وثيقاً بالاخلاق، و هي كذلك طريقة رعاية شؤون الامه بالداخل و الخارج
و ارشاد أفرادها الى طرق تدبر معاشهم على سنن من العدل و الاستقامة بغية تكوين
مجتمع متكامل .

هذان التعريفان المجمعان لكل من الدين و السياسة يبينان بوضوح ان العلاقة بينهما
علاقة عموم و خصوص و علاقة تداخل .

فالدين وضع الهي يتضمن الجانب التعبدية و الجانب التعاملي . و بيان الجانب
التعبدية هو المهمة الاولى لكل رسول . و نحن نعرف ان النبي (ص) كان جهده بادئ

البداية منصباً على تحقيق هذه المهمة في المرحلة الأولى من مراحل الدعوة الإسلامية. وهي مرحلة وجوده في مكة المكرمة .

وعندما هاجر الى المدينة بعد ابرام البيعتين المعروفتين ببيعتي العقبة الأولى والثانية. حيث أصبح للمسلمين حيزاً مكانياً ، و أصبح لهم شوكة وضع مبادئ دستور الدولة الإسلامية مضمناً إياها كل ما يتعلق بالجانب التعاملي وكل ما يتعلق بشؤون المسلمين الخاصة والعامة الداخلية والخارجية في الصحيفة التي كتبها للمسلمين .

وفي مقدمة هذه الصحيفة وفي الفقرة الأولى منها يؤكد فيها النبي (ص) مبدأ وحدة المسلمين الذي ورد ذكره في القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّةُ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾ (١)

و بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون ﴾ (٢)

والنبي (ص) يجسد هذه الوحدة و يؤكد عليها بقوله:

«هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس الى قوله عليه الصلاة والسلام: وان المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى وسيرة ظلم (أي الدفع والعطية) أو اثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم، وأن المؤمنين موالى بعضهم بعضاً دون الناس .

ومع التأكيد على مبدأ وحدة المسلمين زماناً ومكاناً لم يتجاهل عليه الصلاة والسلام حق المواطنة لغير المسلمين بل أكد على هذه الناحية نصاً بقوله :

(١) سورة الانبياء - آية ٩٢ .

(٢) سورة المؤمنين - آية ٥٢ .

«وأنه من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم» ولكن ذلك مرتبط بمدى قيامهم بالواجبات المترتبة عليهم تجاه المسلمين و البلاد التي يقيمون فيها.

فاختلاف الدين بمقتضى أحكام هذه المادة ليس سبباً للحرمان من مبدأ المواطنة كما هو الحال في كثير من دول العالم حاضراً و ماضياً .

هذه الوحدة جعلت أحد المستشرقين الاوربيين يقول عنها: انها وحدة خطيرة، لأنها تحيط بأوروبا احاطة محكمة تعزلها عن العالم، و يتابع قوله ان الاسلام قد انتشر انتشاراً سريعاً في فترة لا تتجاوز قرنين من الزمن .

وقد كان من أبرز هذا الانتشار السريع الذي تكونت خلاله الحضارة الاسلامية انها نشأت حضارة موحدة. ولهذا لم يكن هناك فرصة لتأثير العناصر الاقليمية المختلفة والثقافية المتباينة عليها . ولم يكن الاسلام ديناً ساذجاً، ولكنه نشأ نظاماً كاملاً شاملاً للحياة. هذه الوحدة هي التي أرسى قواعدها الرسول عليه الصلاة والسلام وهي التي يتكلم عنها المستشرق «جب» والتي يحاول المستعمرون التماس الوسائل لتفتيتها ومن هذه الوسائل الصاق الشبهات بها بغية زعزعة ايمان أصحابها بها .

و نجد في الصحيفة اقراراً لمبدأ المساواة بين أفراد هذه الأمة حينما يقول عليه الصلاة والسلام:

«ان ذمة الله واحدة وأن المسلمين يجير عليهم أذانهم وأن بعضهم موالى بعض دون الناس».

دون اغفال لموضوع الأمن الداخلي حيث شدد بالآخذ على أيدي المجرمين، و إنزال العقوبات التي يستحقونها، و أنه لا يحل لمؤمن أقر بما في تلك الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه وأن من ينصره فإن عليه لعنة الله وغضبه

يوم القيامة، ولا يؤخذ منه عدلاً ولا صفح (أي لا يؤخذ منه فداء ولا تقبل منه توبة). وفي إحدى فقرات الصحيفة يُقر الرسول (ص) مبدأ العقوبات الفردية بصيغتين يندر مثلهما في عالم اليوم .

الاولى: شخصية العقوبة، أي حصر العقوبة في شخص من ارتكب الجرم دون أن يتعدى ذلك الى أحد غيره بقوله (ص) ولا يَأْثَمُ امرؤٌ لحليفة. و أين هذه القاعدة مما يطبق تحت مظلة ما أصبح يعرف النظام العالمي الجديد حيث تفرض العقوبات الجماعية على شعوب بأكملها فيموت الآلاف بل الملايين جوعاً و مرضاً و أين ما يطبق من قوانين و صبعة من قوله تعالى:

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾^(١).

وقوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى و اتقوا الله ان الله خير بما تعملون ﴾^(٢). هذا بعض ما يتعلق بالجوانب السياسية الداخلية .

ولم يغفل النبي (ص) الخطوط العريضة لما ينبغي أن تكون عليها السياسة الخارجية سواء في مجال الدفاع عن البلاد والعباد أو في مجال التعامل مع الآخرين أو في مجال المعاهدات والمواثيق .

ففي مجال الدفاع عن البلاد عمقت مفهوم الجهاد الذي حث عليه الله سبحانه تعالى بقوله :

﴿ انفروا خفاً و ثقلاً و جاهدوا بأموالكم و أنفسكم في سبيل الله ذلكم خير

(١) سورة الاسراء - آية ١٥ .

(٢) سورة المائدة - آية ٨ .

لكم ان كنتم تعلمون ﴿١﴾.

لقد ذكرت الآية الجهاد بالمال مقدماً على الجهاد بالنفس مع العلم أن الجهاد بالنفس أسمى ما يوجد به المرء، وتقدم الجهاد بالمال لا لكونه مقدم من حيث الاعتبار على الجهاد بالنفس ولكنه من حيث الواقع يعتبر المقدمة للجهاد بالنفس وهي مرحلة يتم فيها إعداد الجند وتهيئة الجيش و تأمين كل مستلزماته من طعام وكساء و سلاح. لأنه من غير الممكن ولا من المعقول أن يرسل الجندي الى المعركة دون أن تهيأ له السبل المادية لتكون جنباً الى جنب مع النواحي المعنوية كلها مجتمعة تكون عوامل النصر بعد الاعتماد على الله والتوكل عليه ولعل ما بلغت النظر في الصحيفة النبوية والذي يدور الحديث قوله في وقتنا الحاضر بين مؤيد و معارض موضوع ابرام الصلح مع الآخرين فقد نصت الصحيفة على منع الصلح المنفرد بقوله صلى الله عليه وسلم:

«ان سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلاّ على سواء وعدل بينهم» بهدف المحافظة على وحدة الأمة هذه الوحدة التي نوه عنها في المادة الأولى من الصحيفة .

ولا مانع من اجراء الصلح مع الآخرين ولكن صلحاً يحفظ للمسلمين حقوقهم المعنوية والمادية و بغير ذلك لا يجوز بأي شكل من الأشكال وتحت أي ظروف من الظروف وذلك من خلال قوله (ص):

«وإذا دعو الى صلح يصلحونه و يلبونه أي يشركون به فانهم يصلحونه و يلبونه و أنهم إذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم ما على المؤمنين إلاّ من حارب في الدين .

وما تدرع البعض من المسلمين بصلح الحديبية الذي عقده الرسول (ص) مع قريش فهو من دلائل نبوته وليس نوعاً من أنواع السياسة لأن النبي (ص) كان مع أصحابه في وضع لم يكن بحاجة إلى مثل هذا الصلح. تلك هي الأسس الموجزة والخطوط العريضة في مجال السياستين الداخلية والخارجية .

ومن خلال هذه الخطوط العريضة يستطيع المرء أن يستخلص وجهاً آخر من أوجه العلاقة بين الدين والسياسة وهو وجوب أن يوجد رائد للأمة يتمتع بكامل الصفات التي تؤهله لقيادتها و رعاية شؤونها ويكون مسؤولاً عن تنفيذ أحكام الدين التبعية والتعاملية ونجد ذلك واضحاً في كلام الرسول (ص) حيث يقول:

«إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم» .

ففرى بأن الرسول أوجب تأمير واحد في الاجتماع القليل. ونرى أن الله تعالى قد أوجب الكثير على المسلمين ونهاهم عن الكثير وهذا لا يتم إلا بالقوة والامارة ومن هذا المنطلق نجد أن الرسول (ص) في مطلع الإسلام الى جانب تبليغه الرسالة كان هو الحاكم المشرف على تنفيذ أوامر الله وكان يساعده في ذلك مجموعة من الصحابة، ومن هؤلاء كانت تتكون الحكومة الاسلامية .

ولم يقف اهتمام الاسلام بالصفات التي يجب أن يتمتع بها الحاكم بل يجب عليه أن يعمل لخدمة الشعب، وأن يضمن له الأمن في الداخل وفي الخارج وأن يعد العدة لحماية الدولة من أي اعتداء. وكل ذلك نجده ضمن اطار مواد الصحيفة والتي تشكل كما ذكرت سابقاً دستور دولة متكامل يجمع بين السياستين الداخلية والخارجية .

وأي تعطيل لأي وجه من وجود الشريعة أو إهمال منهج من مناهجها هو خروج عن الدين وقد أنحى الله تعالى باللائمة على من يسلك مسلك الفصل بين مناهج هذا

الدين بقوله عز وجل :

﴿ أفْتَوْنُون ببعض الكتاب و تكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ﴾ (١).

ولا ننسى بأن موضوع اختيار الحاكم كان موضع ادعاء من قبل المستشرقين بأن هناك من المسلمين من يحارب رجال الكنيسة في ايمانهم بنظرية الحق الالهي التي يتذرعون بها والتي كانت أيضاً سبباً من أسباب تحجيم دور الكنيسة و رجالها. و الجواب على ذلك أنه صحيح هناك من المسلمين من يقول ذلك ولكن ليس بالصيغة التي تدعونها وليس بذلك المضمون الذي تعنونه. ما تقوله جماعة من المسلمين أنّ هناك تنصيب على وجوب تولي أمور المسلمين أحد من أهل بيت النبوة. وهذا الرأي هو تعبير عن وجهة نظر مذهب من المذاهب الاسلامية الاجتهادية ولا يشكل أي خلاف مع بقية المذاهب الأخرى فيما يتعلق بأصول العقيدة اضافة الى ذلك بأن هناك قاسم مشترك بين جميع المذاهب الاسلامية هو أن على من يتولى شؤون المسلمين يجب أن تتوفر فيه صفات وتكون تصرفاته محكومة بضوابط القول بين الناس والاحسان اليهم وأن يطبق أحكام الله سبحانه وتعالى لا أن يتصرف وفق أهوائه الشخصية و رغباته الذاتية لأنه بقدر ما على الرعية من السمع والطاعة بقدر ما عليه من الحفاظ على ما ائتمن عليه والالتزام بما أمر به من قبل الله تعالى. و الخروج على أوامر الله تعالى هو كفر و ظلم و فسوق من أي مصدر كان هذا الخروج قال الله تعالى:

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ (٢).

وقال تعالى :

(١) سورة البقرة - آية : ٨٥ .

(٢) سورة المائدة - آية : ٤٤ .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾^(١).

وقال تعالى:

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾^(٢).

فخطاب الله تعالى عام وشامل للرعي والرعية سواء كان الراعي من أهل بيت النبوة أو من غير أهل بيت النبوة، ومسألة كون الحاكم من الائمة أو من غيرهم مسألة تهمة المسلمين أنفسهم ولا يحق لغيرهم أن يحشر أنفه بها لأن المسلمين في الظروف الراهنة هم أجدر وأولى بأن يدركوا ما يترتب على إثارة مثل هذه المسائل الفرعية من مخاطر سواء كانت هذه الاثارة منهم أو من غيرهم وما تلحق بهم من أضرار لا سيما وأن شعور المسلمين في شتى بقاع العالم متجه الى توحيد كلمتهم ورأب الصدع فيما بينهم لان المخاطر التي يتعرضون لها أكبر بكثير من تلك الخلافات والتباين في وجهات النظر وفي مجال الربط بين العبادات والمعاملات بشتى أنواعها أقول:

يخطئ من يعتقد بأن ما كلفنا الله به من عبادات مقتصر فقط على مجرد اظهار عبودية الانسان لله بل هناك ما يدل بشكل واضح على وجوب انعكاس أثر هذه العبادات على سلوكية المرء مع الآخرين من حيث التعامل والتخاطب والحوار وإذا لم يكن الأمر كذلك فما معنى قوله تعالى:

﴿ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾.

وما معنى قوله تعالى:

﴿الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في

الحج﴾.

(١) سورة المائدة - آية : ٤٥.

(٢) سورة المائدة - آية : ٤٧.

وما يقال عن الصلاة والحج يقال عن بقية العبادات بل يقال ما هو أكثر من ذلك. إذا ما القيمة التعبدية من اخراج الزكاة غير امتثال أوامر الله تعالى باعطاء أصحاب الحقوق حقوقهم.

وفي ذلك توطيد لعلاقة المحبة والقربى والتواصل بين الغني والفقير من المسلمين، واختبار لآمانة المزكي في إيصال الحق الى أهله . وتعطي الزكاة وكما قال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه أوجز آية في كتاب الله قوله:

﴿ أن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾^(١).

ان أي انسان عاقل لو أمعن النظر فيما تعانیه البشرية اليوم لوجد أن مرد ذلك كله لممارسة الناس الفواحش وإتيانهم المنكرات وإذاقة البعض البعض الآخر الظلم والهوان .

وخلاص البشرية مما تعانیه هو استبدال العدل الالهي مكان الظلم البشري والأمر بالمعروف بدلاً من إتيان المنكرات. والحفاظ على الأخلاق والالتزام بالآداب بدلاً من ممارسة الفواحش .

بعد هذا ألا يحق لكل مسلم أن يقول بأن هذه الآية الكريمة تصلح لأن تكون أساساً لميثاق أممي يغني البشرية في مضمونه عما تبذعه من أنظمة وقوانين في ظاهرها العدل والمساواة وفي باطنها الظلم والتزوير والعدوان. ثم أليست ما تضمنه هذه الآية على إيجازها يعتبر فناً من فنون السياسة .

أخلص الى القول في نهاية هذا البحث المتواضع أن الدين الذي ارتضاه الله عز

وجل للبشرية لم ينزل للعقيدة أو العبادة فحسب ولا بياناً للشرائع والأنظمة، ولكنه يشمل ذلك كله. وما الظن بدين يقول فيه الخليفة الثاني وهو في المدينة المنورة عاصمة الخلافة آنذاك: لو أن سخلة بوادي الفرات أخذها الذئب لخشيت أن يُسأل عنها عمر.

و يقول الخليفة الرابع الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:


«أ أفنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون لهم أسوة في جشوبة العيش» .

يريد بذلك أنه يساوي المساكين في العيش ليكون قدوة الأغنياء في الاحسان، وأسوة الفقراء في الصبر.

هكذا هو الاسلام دين يجمع بين حث المسلمين على حلائل الاعمال من العبادات وبين ارشادهم الى السعي الى ما يقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية وأوجب عليهم أن يحسنوا فيه، وأباح لهم من السياسة و أمرهم بأن يواسوا الناس بالعدل والاحسان، و أباح لهم الملك، و فرض عليهم أن يحسنوا المملكة دراية و تنظيمًا .

وفي الختام ونحن نستظل بظل مناسبة مولد سيّد الأولين والآخريين محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أسأل الله العلي القدير أن يسدد خطا الأمة بالاسلام ويوحد كلمتها .

العلمانية والاستعمار والفكر القومي
دراسة تحليلية

هادي الموسوي 
قم - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل:

كان العالم الاسلامي وحدة لا تتجزأ قبل الغزو الاستعماري، قلما تنوعت حكوماته ودوله، فقد كانت تجمعها وحدة فكر عميق المدى، وشعور دقيق الاثر، وكلاهما عميق الجذور يمتد الى يوم بزوغ ضوء الاسلام في القرن السابع الميلادي، ومنذ ذلك الوقت والى اليوم، لم يقع امر في تاريخ العالم او يحدث حدث في حركة الانسانية، الا وكان وثيق الاتصال بالاسلام والعالم الاسلامي، فقد فرض الاسلام كقوة عقائدية وسياسية واجتماعية، ولذلك فقد كان ذلك الصدام بين العالم الاسلامي والاستعمار امرا خطيرا بعيد المدى في تاريخ الانسانية، وتاريخ الاسلام نفسه يحتاج الى دراسة واسعة عميقة مستوعبة، ربما كتب بعض الباحثين دراسات استعرضوا فيها احوال العالم الاسلامي الجغرافية والتاريخية. فان هذه الدراسات لم تستوف الغرض الذي يحقق ظهور دراسة شاملة عن الاسلام والفكر العلماني الاستعماري.

اما الدراسات الغربية عن الاسلام فانها تقوم سلفاً وكما هو معروف على اساس خطة اساسية تنطوي على اقناع المسلمين انفسهم بأمر هامة ورئيسية تحول دون وحدتهم او قوتهم، لتثير اسباب الخلاف والصراع بينهم دوماً وتجدها كلما هدأت هذه الاسباب، رغبة في ان يظل هذا العالم ممزقا ومفككا، فلا تقوم به وحدة فكرة من شأنها ان تؤدي الى وحدة جامعة يمكنه من تكوين جبهة صامدة في وجه الغزو والعلمنة الاستعمارية.

ومن الحق ان المسلمين والعرب في مواجهة العلمنة الاستعمارية، هم في حاجة الى عناصر الملائمة، والالتقاء، وفي حاجة الى عوامل الترابط والامتزاج، والاغضاء عن الخلافات القديمة التي قامت بين المذاهب الفكرية والسياسية، وهم من ناحية اخرى في حاجة الى النظرة العلمية التي تستمد جوهرها من الايمان بوجودهم وشخصيتهم وكيانهم وقيمهم الاساسية.

فالمعروف اساسا ان الغرب كان يحمل حقد الحروب الصليبية في اعماقه، وكان يخاصم الدولة العثمانية التي مدت نفوذها الى اوربا، وسيطرت عليها خمسة قرون، وان هذه الخصومات قد جرت في دمائهم جيلا بعد جيل، ولذلك فمن غير المعقول انهم ينصفون الاسلام والمسلمين، والعرب والدولة العثمانية، او يصدرون فيها عن رأي مجرد من الهوى، او عقل وضمير متحررين عن الاحساس الذاتي العميق.

ولو نتتبع كتابات الغربيين نلاحظ انهم دائما يحاولون اثاره الشبهات المختلفة رغبة في تمزيق وحدة العالم الاسلامي الفكرية واحلال الثقافة العلمانية والقومية محلها.

كما وخلق الاستعمار المشكلة الطائفية، وغذاها وفرضها لتكون اداة سياسية

له، فقد كان التعايش قائماً و آمناً على شريعة الله بين المسلمين والاقليات المختلفة قبل الاستعمار، غير ان الاستعمار حرص على ان يؤلب ويوقع بين الطوائف، ويأخذ في كنفه الاقليات ليدفعها الى الانقضاض الدائم، وفي اي وقت يريد. وألب الاستعمار وأثار الخلاف بين الدولة العثمانية وايران وعمق خلافاتهما، وألب الخلاف بين العرب والترك، وواقع الثأر بينهما، وألب الخصومات بين الفرق الاسلامية، وفتح الاستعمار باب التبشير للرساليات وساندها وضمن لها حرية الحركة والتمويل، وسهل الاستعمار استيراد اقلية دينية من الارمن والآشوريين والنساطرة، وقدم اجناسا اخرى من مالطيين ويونانيين ويهود.

ثم عمد الاستعمار الى تمزيق الروابط التاريخية والفكرية بين قوميات المسلمين، وعمق هذه الخلافات بينها حرصا على الانفصالية والحيولة دون الوحدة الفكرية، أو الاخوة الروحية، وانبثقت الغزوة الاستعمارية عن الحركة الصهيونية، وتجمعت مطامع اميركا وبريطانيا وفرنسا وايطاليا واسبانيا وهولندا كلها لتجتاح العالم الاسلامي، وكانت الصهيونية من وراء هذه القوى، ثم اسفرت عن هدف واضح، واذا كان للاستعمار اثره البعيد في تمزيق وحدة العالم الاسلامي، واقامة الكيانات الاقليمية والتي تدار بالفكر العلماني والقومية الضيقة. وهذه الدراسة تسلط الضوء على الفكر الاستعماري نشوءه واهدافه، ووسائله وغاياته، وتميط اللثام عن اخطر سلاح وجهه الاستعمار الى الامة الاسلامية ألا وهو العلمانية وما نجم عنها من نزعات قومية وعرقية وقبلية ضيقة، اضافة الى انها تحدد منشأ العلمانية واهدافها الخطيرة.

الاستعمار .. تعريفه

الإستعمار:

ظاهرة سياسية اقتصادية وعسكرية متفرعة ومتصلة بظاهرة (الامبريالية)، وينقسم الى قسمين: الاستعمار التقليدي، والاستعمار الاستيطاني.

الاستعمار التقليدي:^(١)

هذا القسم من الاستعمار لا يعتمد على التدخل العسكري المباشر، بل على السيطرة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ويكون اللجوء الى القوة في الورقة الاخيرة حين تحترق الاوراق الاخرى.

وهذا الاستعمار والذي يطلق عليه (الاستعمار الثقافي) هو الذي مهد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للاستعمار الكلاسيكي في البلاد الاسلامية عن طريق ارسالياته التبشيرية والتعليمية، وعن طريق تغذيته لكل التناقضات الثانوية الكامنة في المجتمع، وتحويلها الى تناقضات رئيسية، لتصبح الارضية الصالحة لتقبله واستبقائه اطول مدة ممكنة.

وان الثقافة التي عرفتها شعوب العالم الثالث عن طريق المدارس والجامعات والارساليات منذ القرن التاسع عشر كانت ثقافة اجنبية، وقد عملت تلك المؤسسات طوال تلك السنين على تربية شباب يحملون ثقافة ليس لها قيمة الا في دورة الحياة المرتبطة بالدول المصدرة لتلك الثقافة.

والصفة الاساسية التي تتمتع بها هذه الثقافة هي غربتها التامة عن واقع هؤلاء

(١) موسوعة السياسة، ج ١ ص ١٧٢ - د. عبدالوهاب الكيالي.

الشباب وعن تراثهم الحضاري والثقافي وعن حاجات بلادهم الملحة.. وهي تشبه من هذا المعنى، الآلة التي يبيعها الاجنبي لشعوب العالم الثالث اذ انها مصنوعة بالدرجة الاولى لتلبي متطلبات الانماء في بلده، وبالتالي فان هذه الشعوب لا تستطيع استعمالها الا بتوجيهات بائعها وبخبراته ويقطع الغيار التي لا يصنعها غيره..

ويمكن تلخيص اهم اهداف هذا الاستعمار بالنقاط التالية:

- تكريس تبعية نظم بلدان العالم الثالث الاقتصادية والسياسية للدولة المستعمرة.

- تغريب المواطن في هذه البلدان عن مشاكل شعبه، وخلق نموذج معين من المثقفين العاجزين عن فهم هذه المشاكل وقيادة الثورة المضادة.

- اعداد قيادات مشبعة بروح المعاداة، وكوادر لخدمة الشركات الاجنبية.

- تكريس الروح الطبقية، مع الحرص على اختيار نماذج من ابناء الطبقات الشعبية مساهمة في اخفاء الدور الحقيقي لمؤسسات الاستعمار واهدافها.

- هجرة الادمغة الى الدولة المستعمرة.

واهم مظاهره تتلخص بالنقطتين التاليتين:

الاولى: تفوق مؤسسات الاستعمار المختلفة على المؤسسات الوطنية، وتشجيع النظام اللاوطني لها، ومحاربة تطوير الجهات الوطنية والتعليم بشكل عام.

الثانية: وجود «مجتمعات خاصة» او «جماعات ثقافية» ضمن المجتمع الوطني، تهدد وحدة هذا المجتمع نفسه ووجوده، وما الدعوات الانعزالية والتقسيمية وادعاءات «تعددية الثقافات» الا دليل على ذلك.

الإستعمار الاستيطاني:^(١)

ظاهرة استعمارية ترجع الى القرن الماضي، وتتلخص في وجود غرباء مزروعين وسط محيط من سكان البلاد الاصليين.

ويشعر هؤلاء بالنقاء والتفوق العرقيين، ويمارسون ازاء السكان الاصليين شتى ضروب التمييز العنصري، وينكرون وجودهم الوطني او الديني.. او.. ويؤدي هذا النوع من الاستعمار اما الى طرد السكان الاصليين كما حدث في (فلسطين)، واما الى استثثار هذه الاقلية (المستعمرة) بالحكم والامتياز كما في (جنوب افريقيا) سابقاً.

ويشكل وجود المستعمرين عبر الدول التي انشؤها تحدياً مصيرياً للشعوب التي يفرضون انفسهم عليها..

وان هؤلاء المستوطنين غير المقبولين حضارياً اقوياء في المحيط الذي يعيشون فيه، الى حد انهم بقوتهم تلك يمارسون التأثير السياسي على مستقبل البلاد التي تحت سيطرتهم.

كما انهم يشكلون قوة رجعية ضاغطة - بما لهم من ارتباطات مصالح مع الدول الكبرى والشركات المتعددة الجنسية - متناقضة مع تطلعات السكان الاصليين.

وان احد اهم جوانب الاستعمار الاستيطاني، بالاضافة الى التواطؤ الخارجي هو الحصول على (ارض) بأية وسيلة كانت، فالارض هي القاعدة المادية للمستوطنة، كما ان «المهاجرين» هم قاعدتها البشرية.

(١) موسوعة السياسة - ج ١ - ص ١٧٢ - د. عبد الوهاب الكيالي.

والحصول على الارض يتم اساسا على حساب السكان الاصليين، ومن اجل تسهيل العملية هذه كانت تقدم مزايم عديدة، منها ان السكان الاصليين لا يملكون الارض المستوطنة، ومنها ايضا ان الارض المستوطنة لم يكن يعتنى بها بشكل مناسب، وان المستوطنين قد جاءوا ليحسنوا استغلالها!!

وكذلك كان يتم الحصول على الارض لدى الحاجة بدون ذرائع سوى عن طريق عقد شراء صوري او حقيقي او عن طريق الحرب والاحتلال العسكري.

والجدير بالاشارة الى ان سياسة تشجيع الكيان الاستيطاني لهجرة المستوطنين، لانتفتح الباب امام جميع من يود الاستيطان، بل هذه السياسة تطلب صنفا معيناً من المستوطنين، هذا الصنف بالنسبة لجنوب افريقيا هو الاوروبي - الابيض البشرة -، اما بالنسبة للكيان الصهيوني فهذا الصنف هو اليهودي الذي يفضل ان يكون اوروبيا ايضا.

وتتم الى جانب عملية استقدام المستوطنين عملية تهجير السكان الاصليين عن طريق الطرد او الحرمان من الجنسية او المواطنة، بالطبع ليست هذه كل خصائص الاستعمار الاستيطاني وان كانت ابرزها.

على كل حال، ان كلا الاستعمارين هو في نهاية المطاف نهب وسلب لشروات البلاد المستعمرة، فضلا عن تحطيم كرامة شعوب هذه البلاد وتدمير تراثها الحضاري والثقافي، وفرض الثقافة الاستعمارية - تحت غطاء - على انها الثقافة الوحيدة القادرة على نقل البلاد المتخلفة الى حضارة العصر!؟

الإستعمار .. منشأه وجذوره

هناك طروحات عديدة تتناول منشأ هذه الظاهرة «الاستعمارية» وجذورها،

خصوصاً شكلها الاستيطاني المعروف بالاستعمار القديم باعتباره الشكل الأبرز تاريخياً..

وتقوم هذه الطروحات على عوامل مختلفة.. سياسية واقتصادية واجتماعية وعقائدية.. وسنستعرض أهمها:

فحسب المنظور المادي، فإن الاستعمار يمثل المرحلة الأخيرة للرأسمالية، وهي النتيجة السياسية لتراكم رأس المال، فمع الثورة الصناعية التي شهدتها أوروبا وأواخر القرن الثامن عشر، اشتدت حاجة الصناعيين إلى التمويل والبنوك، وهذا ما جعلها تصبح شريكاً أساسياً في الحياة الاقتصادية، وادى إلى اندماج الرأسمالين الصناعي والمصرفي لينتج عنهما رأس مال جديد هو «الرأس المالي» وكذلك أدى هذا الاندماج إلى غياب المنافسة الحرة ليحل محلها اتحادات احتكارية عجزت السوق المحلية عن تلبية طموحات أصحابها فاضطرت إلى اللجوء إلى السوق الخارجية لتصريف فائض الإنتاج، وتوظيف رؤوس الأموال في مشاريع خارجية.

يضاف إلى ذلك، الحاجة إلى المواد الأولية، فالاندفاع الصناعي جعل الإنتاج الزراعي عاجزاً عن اللحاق به مما ولد ارتفاعاً في أسعار المواد الأولية، وهذا ما انعكس سلباً على معدلات الربح لدى الصناعات التي تعتمد على تلك المواد، ولمواجهة ذلك اهتمت الاحتكارات الكبرى بتوسيع دوائرها تموينها بالمواد الأولية، وهذا ما أدى إلى اشتداد النزعة الاستعمارية وهي تفرض ضرورة الإشراف السياسي على الأراضي الخارجية المستعمرة.

أما المنظور الغربي فهناك عدة طروحات نذكر بعضها بصورة موجزة

وسريعة:

- الاقتصادي الانجليزي «هوبس» يرى ان السبب هو في سوء توزيع العائدات على الصعيد الوطني، حيث تحرم الطبقات الكادحة من حصتها في الانتاج الاجتماعي، في حين يتكون فائض رؤوس الاموال لدى الفئات الغنية التي تبدأ بالبحث عن استثمارات مربحة في الخارج.

- الاقتصادي النمساوي «جون بيتر» فسّر الاستعمار تفسيراً اجتماعياً نفسياً، فرأى ان النزعة الاستيطانية تكمن قبل كل شيء في استمرار بعض البنى الاجتماعية الموروثة، وبعض العقليات والمفاهيم السياسية والاقتصادية العائدة الى حقبة الملكية المطلقة، وهي نزعات لم تستطع البرجوازية والرأسمالية ان تتخلص منها.

- المفكر الاميركي «مورجنتو» يؤكد ان جذور التوسعات سواء قبل التمدد الرأسمالي او بعده محكومة بعامل اساسي واحد هو هدم علاقات القوى القائمة وتغييرها بالصورة التي يتحقق معها تفوق وسيطرة الدولة الاستعمارية، اما تفسير العلاقة بين نمو الظاهرة الاستعمارية والدوافع الاقتصادية فيبدو في اكثر من سبب كتأثير المناخ الفكري الذي سيطر على العالم الغربي واسهم في تثبيت الاعتقاد بوجود العلاقة العضوية بين الرأسمالية والاستعمار.

- المؤرخ «كوليم لانجر» اعتمد لجذور ظاهرة الاستعمار تفسيراً اجتماعياً مفاده ان التصنيع وبسبب التغييرات التي يحدثها يهدد النظام القائم فيلجأ الى تغذية حركة التوسع الاستيطاني لتحويل الانظار عن الاوضاع الداخلية.

- وبعض المؤرخين الانجليز حاولوا ارجاع منشأ هذه الظاهرة، الى اعطاء دور مهم للتغييرات التي شهدتها التوازن الاوروبي في نهاية القرن التاسع عشر كخطر تصاعد القوة الالمانية سنة ١٨٧٠.

- وبعض الكتاب يرون السبب هو في تنافس القوميات، فالاقتصادي الانجليزي «روبنسن» ربط بين منشأ ظاهرة التوسع وبين الطبيعة الفوضوية للمجتمع الدولي في غياب الضوابط القانونية في العلاقات الدولية، مما يجعل المحافظة على القوة العسكرية هدفا محتملا للدول القوية.

اما التفسير الاسلامي لمنشأ هذه الظاهرة، والذي يعتبر اكثر كمالا، هو بالاضافة الى الطروحات السابقة هناك العامل الفكري الاخلاقي لمن يمارسه، هناك الانسانية التي تعتبر غايتها تحقيق المصلحة الخاصة والربح المادي ولو ادى ذلك الى ارتكاب اشد الفظائع بحق الآخرين، وبتعبير آخر ان منشأه هو (عدم الايمان) الذي يؤدي الى عبادة الهوى والذات لدى الفرد، وعبادة العرق او الحزب لدى الجماعة، وهذا ينطبق على الاستعمار في شكله القديم والجديد. (الهكم اله واحد، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم وهم مستكبرون).

الإستعمار .. دوافعه الفكرية والنظرية

لاشك ان للحركة الاستعمارية باعتبارها حركة نهب واستلاب واستضعاف دوافع خبيثة كامنة في نفوس قادتها.. الا ان تنظيم هذه الدوافع واعطاءها فلسفة مقدسة يحول الحركة من مجرد عملية نهب وسرقة الى عملية مشرقة ومقدسة ايضا.

لقد شهد الغرب من مبدأ انطلاقة الاستعمارية، انتشار افكار فلسفية تدافع عن الاستعمار وتبرر اعماله، باعتباره عملا قانونيا، بل و عملا ضروريا، وهنا يكمن الفرق بين حركة الاستعمار في صورته الحديثة المنظمة، وبين حركات النهب العشوائية التي كانت تقوم بها القبائل البربرية في العهود الماضية، فالقبائل

البربرية كانت تنطلق من مواقعها لنهب المدن دون ان تعتبر فعلتها عملاً قانونياً.. بينما الحركة الاستعمارية تنطلق من مواقعها المحصنة لاستعمار الشعوب المستضعفة الفقيرة معتبرة ذلك حقاً مسلماً من حقوقها الابدية، والشيء اللاقانوني الوحيد هو ان تدافع الدولة المستعمرة عن نفسها، او تنافسها في ذلك دولة اخرى في الميدان..

وبقدر ما كانت نهضة الغرب الصناعية باهرة وعظيمة.. بقدر ذلك كانت حركة الغرب نحو استغلال الفقراء بشعاً.. ولكن الأبعث من ذلك كان هو «الفكر» الذي بارك العمل الاستعماري وحوله من عمل لصوبي وقرصنة الى مهمة بطولية مشروعة.

ان الفكر الاستعماري كان اخطر من العمل الاستعماري نفسه، لأن ضرره لم يقتصر على الشعوب المستضعفة، بل ارتد على المستعمرين انفسهم.. وبذلك تحقق قول الله تعالى: (وكذلك نولي الظالمين بعضهم بعضاً).

واما تلك الافكار التي استخدمت كخلفية للحركة الاستعمارية فهي كالتالي:

اولاً: الافكار العنصرية.

ثانياً: الافكار القومية.

ثالثاً: الافكار المقدسة للقوة.

رابعاً: الافكار الطبقية.

■ الأفكار العنصرية:

اما الافكار العنصرية، فهي تلك الافكار والعقائد التي تعطي لعنصر من اولاد آدم خصائص ذاتية، تجعله فوق سائر العناصر والاجناس، ومع ان للافكار العنصرية درجات الا ان جوهر الفكر العنصري هو الادعاء بأن «الخالق» قد خلق

عنصراً واحداً متفوقاً من جميع الجهات على سائر العناصر البشرية، وان هذا التفوق العنصري الذاتي يؤهل ذلك العنصر ان يستخدم سائر العناصر في سبيل مصالحه، وان شاء ان يستعبدهم ويستغلهم لمآربه المادية كما يشاء، فذلك حق من حقوق التفوق الذاتي بل وواجب من واجباته..

اماماهو الدليل على ذلك، فذلك ما لا يعود الى مقياس بل هو يخضع الى شهية صاحب الفكرة، واول من اعتبر «العنصرية» دليلاً على التفوق هو ابليس الشيطان، فعندما خلق الله آدم ابا البشر وامر الملائكة بالسجود له تمرد ابليس ورفض السجود، ثم برر عصيانه بقوله: (اناخير منه خلقتني من نار وخلقته من طين).

فالعنصر الناري كان في نظر ابليس هو افضل واعظم من الطين.. ولكن لماذا. أليس الامر بالعكس؟ فذلك ما لا دليل عليه، علماً بأن العنصر المادي لا يمكن ان يكون دليلاً على الافضلية لأي من الطرفين..

واشهر من ادعى التفوق العنصري من البشر في التاريخ هم اليهود.. اليهود الذين ادعوا انهم (ابناء الله) وان سائر البشر خلقوا من ماء الحيوانات، وبناء عليه فان من حق اليهودي ان يستخدم سائر البشر في ما يريد من مآربه، وان من حقه ان يكون سيداً مطلقاً على الناس، واما واجب الناس تجاه اليهودي فهو التسليم والطاعة التامة بلا قيد او شرط.

وفي (التلمود) وهو الكتاب المقدس الذي سجل فيه منهج حياة اليهودي، وقد ألقه كبار علمائهم بصرح: بأن من حق اليهودي ان يغش ويسرق غيره، فالرذائل خارج نطاق الشعب اليهودي وضد سائر الناس فضائل ان عادت بالخير والمصلحة على شعب اليهود.. وقد اشار القرآن الكريم الى عقيدتهم هذه بقوله:

(ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل).

وتحت تأثير تلك «الفكرة العنصرية» التي ادعوها لانفسهم.. وافكار التلمود التي بنيت على تلك الفكرة، انطلق اليهود يعيشون في الارض فسادا دون شعور في الاثم والعصيان، ومن قلتهم العديدة الا ان فكرة (الشعب المختار) جمعتهم على التضامن والوحدة ضد سائر الناس، وكم من الجرائم ارتكبتها اليهود ضد الشعوب الاخرى كانت بسبب هذه الفكرة الجهنمية.

ولهذا السبب بالذات ارتكز في الفكر اليهودي حب السيطرة على سائر الشعوب لنهب خيراتهم وثوراتهم، وتدمير ما لديهم من فضائل خلقية وحضارية، واثارة الحروب والفتن ما بين الشعوب كي يسهل على الشعب اليهودي ان يستغل الجميع في سبيل مآربه...

وبالفعل ما حل يهودي في مجتمع الا وكان همه الاول جمع المال وتخزينه، ومحاولة السيطرة على مراكز القدرة الاخرى في المجتمع وبطرق مختلفة وملتوية. ومع ان اليهود لم ينجحوا دائما الا ان ذلك كان هدفهم دائما، وكما ذكرنا لم تتضرر الناس وحدها من تلك المعاملة العنصرية، بل كان اليهود انفسهم ضحايا ذلك على مدار التاريخ، ذلك بسبب رؤيتهم العنصرية جلبوا لانفسهم عداة الشعوب كلها، حيث كان طبيعيا ان ينهض عقلاء كل مجتمع ضدهم حماية لانفسهم من هذا الوباء المدمر، وكانت نتيجة صراع الشعب المختار للسيطرة على المجتمعات والدفاع المعاكس ان اريقت دماء كثيرة من كلا الطرفين على مدى التاريخ، ولاشك ان الشعب اليهودي باعتباره الاقل عددا وعدة قد نال نصيبه الاوفى من العذاب والآلام، والمطاردة المستمرة وايضا من مذابح جماعية مروعة. من المسؤول؟ العنصرية اليهودية بالدرجة الاولى، لقد انقلب السحر

العنصري على ساحره، واصبح الشعب المختار طريد البلدان، ومنبوذ المجتمعات، وكرهه الصورة لدى جميع الشعوب؟!!

وتلك هي نهاية كل من يريد ان يتوفق على الآخرين باسم عنصره وليس بأخلاقه وفضائله.. وهكذا اصبحت العنصرية (التابوت) التاريخي لليهود يحملونه معهم من الميلاد الى المقبرة.

وكما كان الشعب اليهودي كذلك كان الشعب الالمانى، الذي انخدع بالافكار التي بثها العنصريون الالمان امثال (شاخت) تلك الافكار التي ترسبت بقوة في عقل (هتلر) حتى اصبحت مجنوناً بها فأصبح لا يرى احداً في الارض، الا ويرى ان عليه ان يكون خادماً للعنصر الجرمانى العملاق!

وكم كانت ضحايا (العنصرية الجرمانية) لا احد يدري بالضبط.. ولكن التدمير الذي ارتد على الشعب الالمانى نفسه وان كان اقل حجماً وعدداً الا انه لم يكن - بالتأكيد - عذاباً وألماً..

وترتكز العنصرية الآرية التي نادى بها هتلر، وجعلها اساس دولته على دعوى ان العنصر الآري هو العنصر الخلاق الذي صنع الاساس الاول للحضارة البشرية، وان سائر الناس مقلدون لهم، وان سائر الحضارات مجرد تركيب واقتباس من الحضارة الآرية!

يقول هتلر في كتابه (كفاحي) ص ٩٩ تحت عنوان الشعب والعرق: (ان الآريين قد اسسوا في الماضي حضارة بشرية متفوقة، ولذلك فهم يمثلون النموذج لما نسميه الانسان، فكل ما نراه من الحضارات البشرية يعود بأصله الى ثمرة النشاط الآري الخلاق، فقد كان الآري ولم يزل حامل المشعل الالهى الذي ينير الطريق امام البشرية، فشرارة العبقرية الالهية انطلقت من جبينه المشرق، وهو

الذي فتح دروب المعرفة امام الانسان ليجعل منه سيد الكائنات الحية على هذه الارض، فاذا تواري الآري سيسود الظلام، وتنهار الحضارة البشرية في بضعة قرون؟! (١)

ويضيف قائلاً: (ان الشرق الآسيوي يمكن له بعد عشرات السنين ان يدعي لنفسه حضارة وضع اسسها الفكر الاغريقي والتكتيك الالمانى، وليس لها من الوحي الآسيوي الا المظهر الخارجي او الطابع).

وكما نرى في هذا النص، يحاول هتلر ان ينسب الى الله سر التفوق المزعوم لدى العنصر الآري، بل ان يدعي بوجود شيء من العبقرية الالهية في ذات الآريين، ربما لكي يعطي للفلسفة العنصرية بعدا دينيا وعاطفيا كي يكون ابلغ في التأثير على نفوس الناس.

الا انه يعود في نص آخر ليرجع سر تفوق العنصر الآري - حسب زعمه - الى نمو غريزة حب البقاء لدى الشعب الآري، بشكل تبلور في المحافظة على المجموع بدل الفرد (فالشكل الخاص الذي تتجلى به غريزة حب البقاء لدى الآري هي السبب الحقيقي لتفوقه) ويضيف قائلاً: (ان الاجناس الوضعية بقيت في نطاقها الضيق اي القبلية، لأن روح التضحية عند هذه الاجناس لم تنم نموا كاملا وكافيا، ولكن روح التضحية نمت عند الآري الذي لم تقم عظمتة على الفكر والمواهب فحسب بل تعداها الى البذل والتضحية بذاته في سبيل المجموع). (٢)

ويتلاعب هتلر في كتابه هذا بالالفاظ ليثبت تفوق الجنس الآري على سائر

(١) كفاحي - ص ٩٩ - هتلر.

(٢) نفس المصدر ص ١٠٢.

الاجناس، الا ان جوهر الفكرة العنصرية هي ادعاء التفوق الذاتي الكامن في اصل الخلقة، غير ان تذبذب هتلر بين نظريات المؤمنين بالله وبين النظريات المادية يجعله يتمسك بهما جميعا ليثبت دعوة التفوق العنصري للجنس الآري مع كمية ضخمة من الالفاظ الرنانة كالخلاق والمبدع والعلاق.. الخ، فالجنس الآري متفوق تارة لان فيه شرارة العبقرية الالهية، وتارة اخرى لانه تطور ماديا بشكل افضل!

وبهذه الطريقة، بدأ هتلر يسفه الشعب اليهودي، ثم يذكر العنصرين بصفاتهم الشريرة كالانانية وحب المال والمؤامرات السرية ضد الشعوب الاخرى.. الخ. على هذا الاساس وبسبب الجرائم التي ارتكبتها اليهود بحق الدم الآري كان عليهم ان يدفعوا ثمننا باهضا للالمان، ودفعوا الثمن مرغمين.. ولكنهم لم يتخلوا عن عنصريتهم وادعائهم بانهم (شعب الله المختار)، ولم يكفوا عن العمل للسيطرة على المجتمعات البشرية وافسادها.. حتى اذا تم لهم احتلال فلسطين اباحوا لانفسهم ارتكاب ذات الجرائم التي ارتكبتها العنصريون الالمان بحقهم - ضد الشعب العربي المسلم - فاحتلوا وطنه، وقتلوا شبابه، وشردوهم في الارض ومزقوهم كل ممزق، لأن دم الله يجري في عروقهم بينما يجري في عروق الآخرين دم الحيوانات!؟

اما الاستعمار.. وجوهره استغلال الضعيف لمصلحة القوي، فهو في نظر الالمان ليس فقط عملا مشروعاً بل وواجباً قومياً لا بد منه!

والجدير ذكره، ان العنصرية الالمانية ساعدت الى حد كبير الى نمو العنصرية الاوروبية وجعلها اسطورة، اسطورة (تفوق الرجل الابيض على الشعوب الملونة).

وإذا كان الرجل يبرر ظلمه للشعوب الملونة واستعمارها لها بامتيازها عليهم باللون الابيض، فان العنصر الالمانى قد وسع دائرة الظلم لتشمل الشعوب الاوروبية ذاتها، مبررا بتفوق العنصر الجرمانى على الاجناس البشرية كلها بمن فيهم الاوروبيين غير الجرمانيين!

من هنا اصبح استعمار الشعب الفرنسى او الروسى لدى الالمانى مثل استعمار الانجليز للشعب الهندى والمصرى - مثلاً - يقول هتلر: (ان تصفية حساب فرنسا خطوة ضرورية اولى لكل الماني مخلص من اقرارها) ويضيف: (ليس المطلوب اخضاع بعض الشعوب الملونة للسيطرة الالمانية، انما المطلوب الحصول على اراض اوروبية تتسع بهارفة الوطن الام، وطبعاً هذا التوسع سيكون على حساب الشعوب الاخرى، ونحن الالمان اذنفكر ان هذا التوسع على حساب الآخرين عمل غير مشروع نكون قد ابتعدنا عن المنطق وكذبنا التاريخ ان حق الشعب بالاستيلاء على ارض جديدة يصبح حقاً مقدساً عندما يضيق الوطن بمن فيه»^(١).

وهكذا شاء الله ان يسلط على الاوروبيين الاستعماريين الذين مضوا دهوراً طويلاً يستضعفون الامم الاخرى في شرق الارض وغربها.. ويسفكون دماء الابرياء، وينهبون ارزاق الناس بلا حساب وعقاب.. ان يسلط عليهم من جنسهم شعباً يتذرع بذات الحجة الكاذبة التي تمسك بها المستعمرون الآخرون، ويذيقهم اشد انواع العذاب والاضطهاد..

ان العنصرية الاوروبية هي التي ولدت ولا تزال العنصريات المضادة، (بدأت

(١) كفاحي ص ١٠٦ - هتلر.

فكرة تفوق الرجل الاسود تغزو عقول السود المضطهدين في اميركا)، وربما سيأتي يوم يسيطر فيه شعب ملون، وربما السود بالذات على مصير الرجل الابيض، ويدعي لنفسه التفوق ردا على دعوة الابيض!؟

■ الافكار القومية:

كل شعب يحب ذاته، وينسج حول تاريخه اساطير تعتبر الرابط العاطفي بين ابناء الشعب الواحد، ولكن قد يظهر في شعب من الشعوب مفكرون ويحاولون اعطاء صفة الافضلية والتفوق لشعوبهم على حساب الشعوب الاخرى، وقد تبرز تلك الافكار في صورة (فكرة عنصرية) وذلك بادعاء ان الدم الذي يجري في عروق الشعب مرسل من السماء، وقد لا يكون بهذا الشكل وانما ينسج اكاذيب واساطير حول عظمة هذا الشعب وفضائله وبطولاته، بحيث يجعله يستسيغ ظلم الشعوب الاخرى.

تماما كما كان العرب في الجاهلية.. فرغم الانحطاط الخلقي لعرب الجزيرة قبل الاسلام، الا ان شعورهم بالعظمة الفارغة بلغت حدا سجلها القرآن الكريم (ولو نزلنا على بعض الاعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين).

وبلاريب، لا يكون الشعور بالعظمة الا مع احتقار قوميات الاخرى، والا لو كانت الشعوب كلها عظيمة وفي مرتبة واحدة.. فما معنى ادعاء الافضلية..

وكما كان يعشعش في عقول الالمان.. ومن ثم في عقول البريطانيين.. والآن في العقل والعرق الاميركي.. من عنصرية مقبلة وعنصرية زائفة.. قد تؤدي بهم كما ادى بعرب الجاهلية.. من ذهاب هيمنتهم وانتزاع حقوق الشعوب من ايديهم شاءوا أم أبوا.. فهذه سنة الله في الارض..

■ الافكار المقدسة للقوة:

للقوة هبة يحترمها الناس جميعاً، ولكن عندما تقوم دولة او حزب على اساس تقديس القوة، فذلك امر خطير، لأنه يغري الدوافع الشريرة في النفس البشرية كي تقتضي، على كل دافع خير فيه، فتحول الانسان عندها الى وحش كاسر بل واطغر من الوحش، لأنه عندئذ يرتكب الجرائم المروعة بدافع العمل المقدس!

والمجتمع البشري مخلوق بطبعته على نوعين؛ قوي وضعيف، والرحمة المودعة في ذات الانسان هي التي تدفعه للاحسان الى الضعفاء، والتعاطف معهم، ولأن الناس ينتقلون باستمرار من حالة القوة، وبالعكس، فان التعاطف فيما بينهم يشد بعضهم الى بعض، ويعطي للحياة نكهة طيبة، والافان مجتمع الوحوش افضل الف مرة من مجتمع انساني لارحمة فيه.

ان الفلسفة المقدسة للقوة تعني الدعوة الى التحول الى مجتمع يتحكم فيه الاقوى، اي الاكثر خبثا وشرا واقداما على الشر...

وعندما تقوم الدولة على مثل هذه الفلسفة فان ذلك يدعوها الى استغلال الضعفاء واستعمارهم وامتصاص آخر قطرة من دمائهم..

على مثل تلك الفكرة الجهنمية قامت حكومة ايطاليا على يد (موسيليني)، وبتلك الروح الشريرة انطلقت تستعمر الشعوب المستضعفة، وكان من احدي ضحاياها الشعب الليبي الذي ناضل بكل بسالة ضد اعتدائه واستعباده...

وليس الحزب الايطالي وحده سار في هذا الاتجاه، بل هناك اليوم الكثير من البلدان الاوروبية وغير الاوروبية تمجد القوة وتقدها، وليست لها رسالة الا الحصول على القدرة السياسية واستضعاف الشعوب الاخرى واستعمارها.

■ الافكار الطبقيّة:

الافكار الطبقيّة هي الافكار التي تبرز التمايز الطبقي بين الناس، وتعتبر المساواة في المجتمع عملاً مضاداً للطبيعة البشرية، والخلفة والتاريخ والعدالة ايضاً!

ان الاعتراف بالتفاوت بين الناس في الخلفة والمواهب والكفاءات امر لا يستطيع ان ينكره الامكابر، لكن هذا شيء، وتبرير الجشع والاحتكار والسرقة والاجحاف ونهب الفقراء شيء آخر، ان هناك من المفكرين من يريد ان يعطي (المشروعية) المطلقة للذكاء والحيلة، ويقول بصراحة من كان اكثر قدرة على الحيلة فهو الاحق بما يحصل عليه (!) اما العطف والرحمة والاخلاق فهي من اجل ارضاء غضب الساخطين على مجتمع المحتالين لا اكثر!

ان تقسيم الناس الى طبقات بدأ منذ فجر التاريخ، حيث كان الناس مجتمع واحد يعيشون في ظل نوعين وربما ثلاثة انواع حادة من التمييز الطبقي...

ولم يكن المجتمع الايراني الشاهنشاهي القديم اقل من المجتمع الاميركي معاناة للمشكلة الطبقيّة والاستعمار الجهنمي في المجتمع الواحد..

اما في المجتمع الهندي.. فلا زال الطغيان الطبقي مشهوداً كرمز يشير الى ما كانت عليه المجتمعات القديمة..

وعلى المستوى العالمي.. فان المجتمعات الغنية تمارس اشنع انواع الطبقيّة بحق الشعوب الفقيرة، ويتجلى هذا الظلم في الانواع المختلفة للاستعمار، ومن اشنع انواعه واطهرها سياسة التجويع المستمرة للشعوب الفقيرة، واستعبادها في شتى مصالح واغراض المترفين.

ان (الطبقيّة) المحرمة شرعاً وعقلاً.. لا تقتصر على (الطبقيّة المالية)، بل ان

التمييز المخالف للحق هو الذي يتيح لفئة من الناس ان تسيطر على دفة الحكم وتنعم في الحياة ثم تمنع ذلك عن بقية الناس، وتلك هي (الطبقية السياسية). والطبقية ليست دائما وليدة (الطبقية التجارية) بل قد يكون الامر معكوساً، (فالطبقية الحزبية) قد تكون ابشع واطغر من (الطبقية التجارية) كما هي الحالة في الانظمة التي تسيطر فيها فئة من الحزبين على مصير الناس في كل شيء من مهد الحضانة وحتى حضرة القبر..

والطغيان الطبقي ليس مجرد ممارسة شيطانية، بل هي نظرية شيطانية ايضا.. فالفكرة التي تمدده لاقامة نظام الطغيان الطبقي ينبغي ان تكتشف اولاً كي يمكن ادانتها ومن ثم ازالتها من المجتمعات الانسانية.

وان افضل دليل على بشاعة (الطبقية الحزبية) هي ان من يعيش ظلماً ينظرون الى (الطبقة المالية) وكأنها الجنة المفقودة، ويتمنون من صميم انفسهم لا يخرجوا من النظام القائم على (الطبقة الحزبية) الى (الطبقة المالية) لأن الحاجة الى الشعور بالانسانية ليست اقل من الحاجة الى الخبز في نفس الانسان.

ولاشك ان الاديان السماوية، ورسالات الانبياء وجهادهم الطويل كان له ابلغ الاثر في تقليل الفوارق الاجتماعية، واقامة التعاون والتعاطف فيما بين الطبقات.

غير ان (الخرافات) التي كانت تكتسب القدسية عبر الزمن، وربما بدسيسة الحكام المستبدين بعض الاحيان تركز الظلم الطبقي، ولقد كان الانبياء يحاربون الظلم ليس في مظهره الخارجي فحسب، بل وفي جذوره الفكرية ومنها الافكار الخرافية.

الإستعمار .. وسائله وأشكاله

لو ان الاستعمار احتل البلاد الاسلامية عسكرياً فقط لكان من السهل اخراجه، ولكنه وفق خطة - محكمة - دخل الى نفوسها وعقولها فأصبح جزءاً من وجودها الفكري والاجتماعي.. فاستقر المقام وصار من الصعب اخراجه.

لقد استخدم الاستعمار كل وسيلة ممكنة لإلغاء الشخصية الاسلامية كي تتحول الى (امة لا وزن لها) فتدور في فلكه بلا ارادة ولا اختيار، وهو بدوره يستحلبها بلارحمة ولا شفقة، ويستخدمها في مصالحه كالعبيد..

ولولا الغفلة والجمود الطويل لم يكن الاستعمار قادراً على ان يفعل بها ما يريد، ولكنه استطاع بذكاء ان يجرد اسلحتها واحدة بعد اخرى ثم يقودها بهدوء نحو المسلخ.

في البداية سلب منها سلاح الفكر والعقيدة، ثم سلب منها سلاح الاقتصاد.. ثم سيطر سياسياً واغتصب منها حتى قطعة الارض التي يسكن عليها.. وحاول ان يهيمن على المواقع الاستراتيجية كي يسهل عليه ضربها متى اراد، ومتى ما طالبت الامة الاسلامية بالحرية والاستقلال..

ولكي تعرف الامة كيف يجب ان تعمل لطرد الاستعمار لابد ان تعرف بدقة تلك الوسائل الاساسية التي نفذ الاستعمار من خلالها.. ومع القضاء على تلك الوسائل فمن السهل التخلص من هذا الداء (الاستعمار).

فما هي تلك الوسائل الاساسية؟

اولاً - الوسيلة الثقافية:

الثقافة الاستعمارية هي اهم وسيلة يستخدمها الاستعمار لبسط نفوذه على البلاد المستضعفة، فيها يتم تجريد الامم الاخرى من اسلحتهم، واهمها سلاح

الوحدة الفكرية والعقائدية، وبها يتم تجريد الامة من الثقة بنفسها وبكيانها، وعندما تفقد الامة ثقافتها يتم هضمها بسهولة.

لقد استخدم الاعلام الاستعماري سلاح التشكيك ضد عقيدتنا وثقافتنا، ثم سلط علينا اقلامه المسمومة لينسب كل ضعف وانهباء وتخلّف لدينا الى عقيدتنا.. وبعد ان نجح في بلبلة افكار الناس - وخاصة جيل الشباب الذي انبهر بالتقدم الصناعي للغرب، بدأ بنشر الفكر الالحادي (العلماني) والفلسفة المادية، ومركزاً هجومه على الفكر الاسلامي الاصيل، هذا المتراس الذي لا بدليل عنه لمعنويات الامة.. ومع ضعف العقيدة في النفوس اهتز اساس الوحدة السياسية للامة، وهذا ما كان يهدف اليه الاستعمار، فمع التشكيك في العقيدة، بدأ الهجوم على الوحدة الاسلامية، وطرح (الفكرة القومية) كبديل يكفل تمزيق وحدة المسلمين، ويفرّقهم قوميات شتى، أي اتباع العلمانية التي تدعو الى عزل الدين عن الحياة والادارة.

وبالنسبة للامة الاسلامية لم يكن الالحاد (العلمانية) سوى وسيلة لنزع سلاح الايمان منها، كي لا يبقى في وجودها اية ذرة من قوة على المقاومة، لقد كان هو الاقوى صناعياً ومادياً، ولكن الامة - على مدى التاريخ - كانت الاقوى ايماناً، فجردت من هذا السلاح الفعال، ثم كانت الكارثة.. والجراثيم لا تنتقل في الفراغ، ولا بد من وسيط لنقلها.. فمن كان ذلك الوسيط؟؟

الجواب: الاقليات المذهبية..

هؤلاء الجنود المجندون لخدمة الاجنبي دائماً، فالانتماء المسيحي كان خير غطاء تنتشر وراءه المصالح الغربية والاستعمار الذي لا يؤمن بدين ولا مبدأً. مساكين هؤلاء الذين يتحولون الى عربة تنقل الامبرياليين من بلد الى بلد، ثم

لا يكون لهم سوى العار والتعب، لان الاستعمار لا يؤمن بأحد سوى مصالحه،
والا فمبال الافريقيين المسيحيين كالمسلمين سواء بسواء تطحنهم عجلة
الاستعمار؟!!

صحيح انه لولا فساد الحكومات، او على الاصح لولا فساد فلسفة القيادة
والحكم الوراثي.. ما كان للاستعمار ان يعشش بين الاقليات المسيحية
واليهودية.. و.. في بلاد المسلمين.. ولكن الذي قام بالدور الاكبر في القضية هم
الاقليات ذاتها، لقد رضيت لنفسها هذا الدور المشين.

وتلك الحكومات هي التي سمحت للاستعمار ان يؤسس مراكز تبشيرية،
ويرسل بما يسمى بـ(الارساليات التبشيرية) الى بلادنا، ويرسل منها شباب
الاقليات الى الغرب كي تدربهم على الفكر والحياة الغربية.. ثم لتعيدهم
جواسيس وادوات ربط، ورسلا للاستعمار الثقافي في غياب عن الحكومة او
تحت سمعها وبصرها..

فمن عهد الشاه عباس في ايران، وسلاطين آل عثمان بتركيا والاستعمار
يؤسس في بلادنا القلاع والمتاريس التي منها ينطلق العملاء والجواسيس في
المنطقة!!

من لا يدري ان الكنائس، والمدارس التبشيرية والجامعات الاميركية
ومستشفياتها، والمؤسسات الخيرية في بلادنا سوى بؤر لصنع الطبقة المكلفة
بتسهيل مهمة الاستعمار في تنفيذ مخططاته واهدافه؟!!

ولو اراد المسلمون ان يتحرروا من الاستعمار عليهم كخطوة اولى ان يصفوا
(المؤسسات الغربية) من بلادهم، ولا يسمحوا لهم باسم الدفاع عن الاقليات
الدينية وما اشبه ان يفتحوا مثل هذه المؤسسات.. ثم لا تكون للاقليات من

(المراكز) الابدقار عددفا.

وحاجتها ومناطقها فقط لا غير، وهكذا امر الاسلام وهذا هو حكم العقل والمنطق.

ثانياً - الامتيازات الاقتصادية:

الاقتصاد بالنسبة للاستعمار وسيلة وهدف، فهو وسيلة لفتح الطريق امام النفوذ السياسي للاستعمار.. وهو هدف لانه يؤمن في النهاية المصالح الاقتصادية الاستغلالية له..

وتجارب الشعوب المستضعفة مع المستعمرين تكشف عن كيفية استخدام هذه الوسيلة في سبيل توسيع نفوذهم في البلاد، ومن ثم السيطرة على الاوضاع السياسية وتوجيه السلطة هناك..

في الهند وبطريقة ذكية في البداية استطاع الاستعمار البريطاني عبر (شركة الهند الشرقية) ان يثبت لنفسه موطىء قدم في البلاد عبر شبكة تجارية - جاسوسية - ومع توسيع فروع الشركة في بعض انحاء الهند، واحتلال قوة اقتصادية داخل البلاد، وشراء مجموعة من الزعماء والذمم، جاءت الاساطيل لتحمي النفوذ المهدد!! ولتعمق سلطتها وتصفي المعارضين، او الذين يمكن ان يعارضوا سلطة الاجانب، وبهذه الطريقة تم استعمار الهند كله..

وفي ايران حاول الاستعمار البريطاني ان يكرر التجربة ذاتها، فأخذ من الملك (ناصر الدين شاه) القاجاري امتياز (تجارة التبغ) و تحت ستار شركة اقتصادية بدأوا بانشاء مراكز انطلاق وتجمع، كانت اشبه شيء بالقلاع المحصنة. وكادت تتكرر التجربة الهندية مع ايران، ولكن المقاومة الشعبية بقيادة علماء الاسلام ومراجع الدين، وفتوى (تحريم التبغ) التي اصدرها الامام محمد حسن الشيرازي

احبطت المحاولة في انتفاضة جماهيرية شهيرة.. انتهت بسحب الامتياز واخراج عملاء الشركة من البلاد..

وشركة النفط والغاز في الشرق الاوسط تلعب اليوم ذات اللعبة الاستعمارية القديمة، وكأن المنطقة لانزال تعيش عصر شركة الهند الشرقية!!

وكما لا يخفى، ان الاستعمار وفي بداية امره وتغلغله في البلاد، يجزل العطاء للدولة المستضعفة كي يكسب ودها وصادقتها، وذلك عبر القروض والهبات والتسهيلات الاقتصادية.. الخ، وعندما تفتح له الابواب، ويستقر به المقام يكشف عن وجهه الحقيقي، فاذا به ذلك اللص المحترف.. الناهب لخيرات البلاد، ثم يعوض عما قدمه للشعب الفقير من دماء الشعب وقوته ما يرغب ويريد!

ان الشركات الاقتصادية خير ساتر للنفوذ في اوساط المجتمع، كما هو افضل ساتر للتعامل مع الجواسيس والعملاء، وكل موال يخدم حكام الغرب في البلاد. ودور الشركات الاستعمارية لا يقتصر على مجرد فتح الطريق، بل هو ايضا افضل وسيلة لتقديم الخدمات (اللوجستية) اللازمة للجهة السياسية المرتبطة بالاستعمار في كل بلد يرتبطون في شكل اخطبوطي بعملاء البلاد الاخرى، مثل سلسلة متصلة الحلقات يربطهم بالاستعمار خيط واحد، ومصالح واحدة، ومصير مشترك.

وتختلف الخيوط والعملاء باختلاف القوى المستعمرة، وربما تتعارض وتتنافس الدول الاستعمارية فيما بينها على بلد ما، ولكن تبقى الوسائل الثقافية والاقتصادية واحدة في كل مكان.

ثالثاً - الوسيلة السياسية:

وبامتزاج الوسيلة الثقافية بالاقتصادية تتكوّن طبقة سياسية، تعبر عن فكرها

وخطها السياسي في شكل حزب سياسي، او جمعية او ما شبه.. تقوم بعملية التنسيق فيما بين القوى العميلة للاستعمار تعبر عن مبلغ النفوذ والقدرة الاقتصادية والثقافية للاستعمار في البلاد..

فبقدر قوة وانتشار النفوذ السياسي يكون النفوذ السياسي، ولولا النجاح الذي حققه الاستعمار لصنع طبقة من العملاء لهم في داخل المجتمعات الاسلامية ما كان يتيسر له ان يمارس نفوذه في بلادنا.. وعلى يد هؤلاء تلاميذ الاستعمار المخلصين تخرجت الدفعات المتتالية من ابناء المسلمين المغفلين منهم والخائنين، فكانوا مزرعة النفوذ الغربي، منها استنبتوا الجواسيس والعملاء، والدعاة السياسيين، ورؤساء الاحزاب والمنظمات، والشركات الاقتصادية، ورؤساء انظمة ذليلة، وعلى يد هؤلاء تم اذلال الامة وتحطيم قدراتها وكفاءاتها، وتصفية مراكز المقاومة الذاتية فيها.. ليتم للاستعمار في النهاية هضم الامة دون ان يعترض حلقه عظام التحدي والمقاومة.

والآن، إذا أرادت الامة التخلص من الاستعمار فعليها ان تقضي على ركائزه ومراكز انطلاقه، وبكلمة تخريب مزرعته وليس فقط قطع رؤوس الاشجار وذلك بما يلي:

١ - اعطاء الاقليات الدينية المذهبية حجمها الواقعي وسحب الامتيازات التي اعطيت لهم في العهود الاستعمارية، مع اعطائهم كامل الحقوق الانسانية..

٢ - تصفية آثار الاستعمار الثقافي، والتصدي للاعلام الغربي المضاد للاسلام.

٣ - تصفية التبعية الاقتصادية.. وجنوده المحليين كي لا يتيسر لهم حبك المؤامرات من جديد ضد مصالح الامة..

٤ - تصفية احزاب الاستعمار السياسية.. فبدون ذلك لا يمكن قطع اصابع الاستعمار في المنطقة.

تلك كانت ركائز الحركة الاستعمارية بشكل عام، بخصوص ارض الرافدين، فان الاستعمار قد استطاع ان يمد جذوره الفكرية والثقافية الى العراق من مراكزه في عواصم العالم الاسلامي آنذاك - طهران واسطنبول والقاهرة مستظلاً بجناح حركة الدستور الايرانية والتركية، التي استغلها لبث الفكر العلماني الالحادي المادي، ولبذر الفكرة القومية في النفوس..

ان الصحف والمجلات التي انشأها الاستعمار في تلك العواصم كانت تبث بشكل منظم، وفي غياب الصحف الاسلامية كل ما يريد الاستعمار بثه في المجتمع.. وكان التركيز على نقطتين في الجانب الفكري العام: ضرب الاسس الدينية، والتبشيرة بالفلسفة المادية للحياة، وفي الجانب السياسي اثاره (العصبية القومية) والعصبية الجاهلية، بغية تحطيم الوحدة الاسلامية.

وكانت الصحف تلك تصل الى العراق، ثم بعد انتصار حركة الدستور في كل من تركيا وايران، انشئت في بغداد ايضا صحف جديدة من نفس النمط وفي الاتجاه ذاته، وبدأت الثقافة الاستعمارية تغزو العقول وتمهد السبيل للاحتلال العسكري الذي تم فيما بعد.

اما عن وسيلة الاستعمار الاقتصادية في العراق، فقد تمثلت في الامتيازات التي اعطتها تركيا العثمانية لحليفها المانيا بإنشاء خط سكة الحديد بين البصرة وبغداد، وحتى عمق الاراضي التركية، وكان الهدف من انشاء هذا الخط وصل سواحل الخليج بأوروبا، ومن ثم نقل النفوذ الالماني الى سواحل الخليج، وايضا تسهيل وصول قواتها الى هناك حيث يمكن تهديد الوجود البريطاني في الخليج

كله، ومع منح امتياز انشاء خطة سكة الحديد اعطيت لالمانيا امتيازات اخرى منها التنقيب عن منابع النفط.

وعلى العموم لم تدع بريطانيا الاستعمارية اية فرصة للتدخل الاقتصادي بالعراق ان تمر دون استغلال، وكيف لا تفعل ذلك، وهي التي تعلمت واتقنت اساليب السيطرة السياسية منذ نعومة اظفارها الاستعمارية.. وتدرت على اساليب النفوذ الخفي المغلف بمعاهدات الصداقة والتحالف والقروض والتحديث والخدمات قبل ان تصل يدها الى العراق بثلاثمائة سنة، اي منذ وطأت اقدامها على اراضي القارة الهندية الغنية الخصبة.

اما الوسيلة السياسية التي مهدت الطريق لاستعمار العراق فهي واحدة في كل انواع الاستعمار وهي: شراء الاحزاب والقوى السياسية والعسكرية الموالية للغرب وتقويتها في مواجهة القوى الوطنية والاسلامية.

ولانبالغ لو قلنا ان البريطانيين هم اذكى من استخدم هذا السلاح لمصالحهم، ذلك ان عملية التغلغل السياسي عملية دقيقة، فهي تجمع بين العمل الجاسوسي السري وبين العمل الفكري الاعلامي.. ومن ذا اكثر تغلغلاً من البريطانيين في الاعمال الجاسوسية؟! ان النمو التدريجي للتيار الثقافي الاستعماري في البلاد الاسلامية، قسم المجتمع فكريا الى قسمين: ثم افرزت الساحة عن مواقف سياسية متباينة نتيجة الافكار المتباينة..

وهكذا جاء صنع الاحزاب الموالية للاستعمار نتيجة طبيعية لانتشار فلسفة الغرب المادية، وافكاره السياسية في المجتمعات التي تدعو الى العلمنة في ادارة الحياة.

وقد كانت القنصليات والسفارات الاجنبية تتكفل بتقديم المشورة اللازمة،

بل والتخطيط الكامل لمجمل حركة بعض الاحزاب حتى كأنها لاقيادة لها الا في لندن او موسكو وعواصم الغرب الاخرى، وطريقة بريطانيا السياسية في هذا المجال لا تقتصر على تقديم العون المادي للاحزاب، بل انها كانت ولا تزال طريقة اخرى تتسم بالنفس الطويل، والتخطيط البعيد وهو منح الرواتب المنظمة لعدد من العناصر القيادية في معظم الاحزاب وخاصة الاحزاب الموالية، وذلك يعني توظيفهم بشكل طبيعي في جهاز المخابرات البريطانية، وكسب ولائهم تدريجياً الى ان يتم غسل ادمغتهم كلياً، حتى يصبح الواحد منهم انجليزيا اكثر من الانجليز انفسهم..

وليس شرطاً ان تكون تلك المراتب مقابل خدمات آنية، وانجازات فورية، بل ان بريطانيا اشتهرت بشراء السياسيين والوجهاء في المجتمع بالمال المرتب والمنظم ولو لبعده سنين طوال تحصل على ثمرة ذلك الثمن!؟

■ التنافس الاستعماري:

كما تتنافس الحيوانات المفترسة على حمل وديع او قطعة لحم شهية تتنافس الدول الاستعمارية على الشعوب المستضعفة، فالاقوياء بعضهم لبعض عدو والضعفاء هم الضحية، وما ابلغ المروي عن رسول الله (ص) حيث يصف حال المسلمين حين تهاجم عليهم الدول المستعمرة من كل جانب فيقول:

(كيف بكم اذا تداعت عليكم الامم كما تتداعى الاكلة على القصة).

وكم كان صدق هذا الحديث وبالخصوص في مطلع هذا القرن، حيث كانت الدول الاستعمارية وخاصة بريطانيا والمانيا وفرنسا تتنافس بشدة كي يظفر كل منهما بالجزء الاكبر من الضحية.

وعلى العراق تطلعت عيون المانيا اولاً، بينما كان الجشع البريطاني الذي لم يكتف بقارة الهند يراقب التطاول الالمانى على العراق ومياه الخليج بعيون شذرة ولعاب يسيل!

وعندما اقتربت الدولة العثمانية لالمانيا، ومنحتها بعض الامتيازات لكسب امتيازات مماثلة ولو على مستوى اقل.. وتنافس المستعمرين على المستضعفين - احياناً - تكون رحمة ونعمة فهي تفتح طريق الفرار لضحاياها، شرط ان تعي الضحايا ما يدبر لها قبل فوات الاوان.. او يتفق الطرفان على قسمة الغنيمة خوفاً من شريك اقوى!

وايضاً لم تتيسر ظروف مساعدة للانفلات من قبضة المستعمرين، كما توفرت للامبراطورية العثمانية، فالتنافس الاستعماري على تركتها الواسعة الشاسعة كان يمنعهم من تقسيم الغنيمة خوفاً من بعضهم البعض..

وامتد الرعب المتبادل والتنافس الشديد اكثر من نصف قرن، ولكن الضحية لم تدرك مبلغ الخطر، او انها استمرت الوضع القائم فظنت ان المتنافسين لا يمكن ان يتفقوا، او ان يتغلب احدهم على الآخرين.

لهذا السبب عاشت الدولة العثمانية بفضل تناحر اعدائها، فكأن حياتها قد ارتبطت بخيط التنافس الدولي.. والمعادلات الدولية وميزان القوى العالمية، وعندما انقطع هذا الخيط انقطع حبل الحية من وريد الامبراطورية فتهاوت امام المستعمرين كما تتهاوى اوراق الشجر في فصل الخريف.

وهكذا كان التنافس رحمة لم يستغل!؟

وككل ارض اسلامية بعد الاجتياح الاستعماري كان العراق مسرحاً للصراع والتنافس عليه.. وكلما صعدت دولة غربية جديدة على حساب اخرى تغير طرف

الصراع، ولكن الصراع ذاته وبقي الوضع على حالة..
 كما ان ادوات الصراع لم تتغير لان الاستعمار كله ملة واحدة، وجوهر
 الاستعمار طغيان واستعباد، والطغيان ليس له سوى طعم العلقم..
 فأدوات الاستعمار الفرنسي في الجزائر كانت ذاتها ادوات الاستعمار
 الانجليزي في الهند، فالتثقيف الغربي ومحو الثقافة الاسلامية وبشكل تدريجي
 ومنظم كان واحدا في كلا البلدين.. وكذلك الامتداد الاقتصادي في المجتمع،
 وتكوين الاحزاب السياسية الموالية والعملية، ولان الغرب كله قد استنقع في
 الفكر المادي الاغريقي الوثني، فان خليفة الفكر الاستعماري كله واحد
 لا يختلف.

فالصراع الاستعماري على الارض الاسلامية لم يكن يغير من تفاصيل
 المعادلة الاستعمارية في المنطقة، مثلا جنود الاستعمار البريطاني في بلادنا هم
 ذاتهم جنود الاستعمار الاميركي..

الاستعمار والتبشير

ولقد انكشف العنصر السياسي في التبشير انكشافاً ظاهراً لما وقعت الازمة
 المالية في الولايات المتحدة بين عامي ١٩٢٩ - ١٩٣٠، ثم في بريطانيا عام ١٩٣١،
 حيث خفت حركة التبشير بشكل ملحوظ في تلك الفترة.. مما يدل على انخفاض
 المبالغ التي كانت تتدفق على الارساليات التبشيرية من تلك الدولتين!
 على ان اغرب ما في هذه الصورة السياسية التبشيرية ان (هيلاسيلاسي)
 امبراطور الحبشة السابق الارثوذكسي، كان يساعد الارساليات الاجنبية التي هي
 بروتستانتية او كاثوليكية على التبشير في السودان!

ودخل على هذه الصورة الغربية عنصر اشد غرابة هو التمييز العنصري، اي ان الواقع كشف من ان السود الافريقيين الصابئين الى النصارى لم يتمتعوا من المساواة مع اخوانهم البيض الاوروبيين لافي الدولة ولا في الكنيسة! فلو كانت النوايا غير سياسية، ودينية كما يزعمون.. فلماذا هذا التمييز وهذه التفرقة؟!!

ورغم هذه الهوة العميقة بين البيض والسود، فان المبشرين ظنوا ان التبشير سيجعل من الافريقيين غربيين في كل شيء حتى في الشعور السياسي (!)، ولكن الامر كان بالعكس تماماً، حيث ان الافراد الذي تنصروا على يد المبشرين اصبحوا هم انفسهم يمقتون التبشير للصلة السياسية التي يريد المبشرون ينشئونها على حساب الدين..

وفي كل مكان وصل اليه الوعي الاسلامي ظهر الكره للتبشير حتى قال المبشر غروف: «اننا لا نستطيع ان نخفي عن انفسنا ولا عن غيرنا ان نفراً كثيرين يمثلون الجماعات الافريقية اظهروا امتعاضاً شديداً من التبشير واخبرونا ان الصلة بين الكنائس والتبشير وبين التعليم يجب في رأيهم ان تنتهي بسرعة».

وكان هؤلاء اذا تكلموا في التعليم يقولون: «مدارسكم ومدارسنا، يحددون بذلك الفرق بين مدارس الارساليات وبين المدارس التي تديرها السلطات الافريقية المحلية، ومنهم من جعل يقتل المبشرين في الكونغو وغيرها.

ويرى غروف ان السنوات العشر التي تلت الحرب العالمية الاولى قد خلقت نضجاً ووعياً بين الشعوب الافريقية من جراء تعلمهم في المدارس التبشيرية، مما حدى بهم للمطالبة بالاستقلال الكامل والصحيح في السياسة والاقتصاد والاجتماع، بينما كان المبشرون يعتقدون ان التعليم تحت اشراف المبشرين

سيجعل الأفريقيين يطمثون الى الحكم الاجنبي وقتا طويلا على الاقل!

□ اساليب المبشرين:

أولاً - الكذب والإفتراء:

وامعانا في التناول على رسالة الحق والهدى، رسالة الاسلام الخالدة اخذت اجهزة الاستعمار - وفي مقدمتها - المبشرون والمستشرقون يثيرون الشبهات، ويختلفون الافتراءات ويحرفون الكلم عن مواضعه، حتى يتوهم الناس ان الاسلام ليس بحق.. وان القرآن الكريم ليس وحيا من عند الله (!) وان هؤلاء يدينون بالاسلام ويؤمنون بمحمد (ص) نبيا، وبالقرآن وحياً معجزاً وشريعة خالدة، هؤلاء قوم مظلون!؟

ومن الامور التي كثر الكلام حولها، هو انتشار الاسلام بالقوة وتعدد الزوجات وابطاح الطلاق، وان الاسلام نظام طبقي فلا مساواة فيه ولا عدالة (!!)

وان الاحكام التي اشتمل عليها القرآن اجمالا والاحاديث النبوية لا تصلح للحياة لانها انعكاس للبيئة العربية!

فاذا كان الامر هكذا.. فلماذا لا تكون المسيحية - والتي تخفي وراءها نوايا سياسية - هي انعكاسا لوضع البيئة الاوروبية!؟

ومن الامور التي تستحق التفكك بها قول مبشر اسمه «نلسن» يزعم فيه ان الاسلام مقلد، وان احسن ما فيه مأخوذ من النصرانية، وسائر ما فيه اخذ من الوثنية كما هو مع شيء من التبديل.

ويبلغ التدجيل ذروته بمبشر اسمه «جون تاكلي» حيث يقول: «يجب ان نستخدم كتابهم «اي القرآن الكريم» وهو امضى سلاح في الاسلام ضد الاسلام

نفسه لنقضني عليه تماما، يجب ان نرى هؤلاء الناس ان الصحيح في القرآن ليس جديدا والجديد فيه ليس صحيحا!»^(١)

اما المبشر الاميركي «جسب» فيقول: «ان الاسلام مبني على الاحاديث اكثر مما هو مبني على القرآن ولكننا اذا حذفنا الاحاديث لم يبق من الاسلام شيء (!)».

اما المسلمون فيقول عنهم هؤلاء المبشرون انهم لا يفهمون الاديان ولا يقدرونها قدرها، ثم لب وجوهر الاسلام فيما زعموا ما هو الامزيج مشوه من الآراء والمدركات الخاطئة!

وهناك مزعم ثالث، هو ان الاسلام تنقصه الناحية الروحية، وانه دين مادي، ووصلت بهم الدرجة بأنه حتى اليهودية ليست عند هؤلاء دينا ماديا كالاسلام؟! كما كان من وسائل الافتراء وتشويه الاسلام وتعبير الناس فيه، الاهتمام بدراسة الجوانب السلبية في تاريخ المسلمين، والاشادة ببعض الشخصيات التي عرفت بالانحراف الفكري والزيغ العقائدي، وكذلك الطوائف والجماعات التي لاتقدم الصورة الصحيحة النقية للاسلام!

هذه هي الآراء - وما شاكلها - التي ينشرها المبشرون على اقوامهم في اوروبا واميركا، او هكذا يصورون الاسلام لهم، حتى يبرروا دوام التبشير بين المسلمين لتدوم دراهم تدر عليهم من جماعات لا دين لها سوى تحقيق المصالح المادية للمستثمرين.. اضافة الى زعزعة ثقة المسلمين بدينهم، حتى ينتهجوا نهج الحضارة المادية، لا من حيث علومها التقنية بل من حيث مظاهرها الشكلية!

(١) التبشير والاستعمار - عمر فروخ.

ثانياً - استغلال المجاعة:

المجاعة ومسرحها الممتد بين غرب افريقيا وشرقها حافل منذ اكثر من عشر سنوات بصورة رهيبة، يظل فيها شبح الموت يلاحق الملايين من سكانها.. من موريتانيا ومالي، الى الصومال واوغندا.. هذه الملايين الجائعة هي المسرح الذي تستهدفه جمعيات التبشير.. وهم يقولون ذلك علنا، وبمنتهى الوضوح والصراحة، وقد جاء في كتيب احدهم والذي يحمل عنوان «الفرصة العظمى للمسيحية»، وتحت العنوان خارطة للعالم الاسلامي، كتب تحتها اسم الجمعية التي اصدرته وهو: «اخوة الايمان من اجل المسلمين!» وعلى الغلاف الخلفي اشارة الى ان لها فروعا في كندا واورشليم ونيوزلندا، وبداخله مقال عنوان الكتيب لشخص اسمه «ريموند جويس»، يقول في الصفحة السادسة منه ما نصه:

«ان الجمعيات المسيحية التي تعمل في ظروف صعبة وسط مناطق المجاعات ومعسكرات اللاجئين تقدم عطف المسيح وحنانه لاولئك المسلمين التعساء الذين يعيشون في بلدان مثل الصومال واريتيريا وغيرها.. وهي الفرصة الثمينة لبث روح المسيح في اوساطهم!...»^(١)

ثم يقول ريموند جويس بنفس القدرة من الصراحة: «ورغم ان العديد من المؤتمرات الاسلامية العالمية دعت الى وقف نشاطات المبشرين التي تمارس عملها في بلاد المسلمين، الا ان هذه المؤسسات لم تتوقف عن ذلك.. فضلا عن ان تلك النشاطات اصبحت تؤدي الآن بموافقة الحكومات الاسلامية او بدعوة صريحة منها!!!».

(١) التبشير والاستعمار - عمر فروخ.

ان العالم الغربي يشهد في السنوات الاخيرة حملات متتالية تقوم بها جمعيات التبشير، لجمع التبرعات المادية والمساهمات العينية، مستغلة في ذلك الظرف الاقتصادي ومشكلة المجاعة الطاحنة التي تسحق بطون المسلمين في افريقيا وبعض مناطق آسيا..

وفي نشرة صادرة عن «مشروع مواجهة الجوع العالمي» الذي يشرف عليه المجلس الانجيلي في الولايات المتحدة بتاريخ ٢٨ يوليو ١٩٨٠، تضمنت تصويرا لمدير المشروع - واسمه الدكتور لاري وارد - يدعو الاميركان الى التبرع للاجئين الصوماليين ويقول: «ان هناك لاجئين كل اربعة صوماليين، وان ٧٠٪ من هؤلاء اللاجئين من النساء والاطفال».

وفي هذه الحالة، ان اللاجئين وفقراء المسلمين ليسوا مطالبين بالامتناع عن التداوي، او الاكتساء، او الاحتماء بالخيام التي تقدمها اليهم تلك الجمعيات التبشيرية، ويعذرون اذا قبلوا منهم اي شيء.. لكن المطالب حقا بالتحرك هو الحكومات العربية والاسلامية.. وان التحرك المطلوب ليس مجرد ايقاف نشاطات تلك الجمعيات، ولكن ينبغي ان يتمثل - اولا - في المسارعة الى تقديم الخدمة البديلة الى اولئك اللاجئين حتى ولو تلبى الحد الادنى من احتياجاتهم..

فاذا تحركت المشاعر الانسانية لدى اي طرف في اي مكان من العالم، ورغبت هيئة او جمعية في تقديم مساعداتها العينية او النقدية، فينبغي ان تسلم تلك المساعدات الى مؤسسات عملية، لتتولى توجيه المساعدات في مسارها الطبيعي، بحيث تضمن الا تتعرض تلك المساعدات للتبديد والنهب من قبل بعض ادوات البيروقراطية المحلية غائبة الضمير، او ان تستخدم في سبيل تمهيد الارضية للاستعمار الاوروبي في بلادنا..

ثالثاً - اسلوب المساعدات والقروض المحلية:

لقد قرر القوم اخيراً انتهاج اسلوب جديد، والدخول في ميادين مستجدة من النشاط من اجل توسيع مجالات التبشير، وتصعيد مستواه وفعاليتة، فقد قرر مجلس الكنائس العالمي والفايتيكان وهيئات التبشير الاخرى الاسهام في اعمال التنمية ومشاريعها في الاقطار النامية تحت شعار «من الكنيسة الى المجتمعات».

فمجلس الكنائس العالمي اسس هيئة سماها «هيئة مجلس الكنائس للاسهام في اعمال التنمية» وتعمل في حقول التنمية المختلفة، مثل اقامة القرى الزراعية، وعقد الدورات المهنية لمختلف التخصصات التقنية والفنية، وتقديم القروض المباشرة عن طريق مؤسسات «وحدات القروض» وغير ذلك.

واختارت الهيئة المذكورة عدة اقطار في كل من قارة آسيا وافريقيا، كمناطق نموذجية لمشروعات مجلس الكنائس الانمائية للتبشير؟!

رابعاً - اسلوب الحوار المباشر:

يصعب على المبشرين ان يتصلوا بالعلماء والمثقفين وذوي المكانة الاجتماعية، وطرح ما لديهم من افكار خبيثة، لانهم يعرفون مسبقاً انهم في لعبة خاسرة مع هؤلاء، لذلك لجأوا الى اسلوب ماكر، وسياسة جديدة سموها «الحوار» تقوم على جمع نفر من الناس ذوي الكلمة المسموعة في قومهم، وحملهم على مناقشات علنية لاتمت بظاهاها الى التبشير، لكنها تعمل على زعزعة العقائد بجر الناس الى القول والرد، ثم النفوذ من خلال الاخطاء والجمل المتشابهة الى التأثير على ذوي النفوس الضعيفة.

وان المبشرين يطلون في ثياب مختلفة: في ثياب الاطباء، وفي ثياب العلماء

المكتشفين، وفي ثياب رجال الدين ..

والحوار بين المبشرين وبين اتباع الاديان الاخرى امر قديم، فان عدداً كبيراً من المؤسسات الغربية كالمدارس والنوادي، وجمعيات الشباب والشابات، وسائل لحوار مستقر، وغاية هذا الحوار زعزعة العقائد على السنة اشخاص معروفين في قومهم، والحوار كالمعارك والمعادات يظفر بالغنائم فيها من كان اقوى يدا وارفع صوتا واثقل جييا؟!!

وهذه الوسيلة الجديدة التي اتبعها المبشرون انخدع بها الكثير، وخاصة الذين ليس لهم معرفة بأهداف التبشير وخفائاه واطماعه، فقد ظنوا ان هذا الحوار فرصة لتبيين آراء الشعوب ووجهات نظرها؟!!

■ طرق التبشير:

اتبع المبشرون طرق ووسائل مختلفة، حيث لم يخلوا بطريقة او وسيلة عرفوها الا واتبعوها للوصول الى غاياتهم واهدافهم، كما وانهم من الذين يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة، لذلك لم يتورعوا في ان يتبعوا في عملهم هذا كل حيلة ومكر للوصول الى ذلك. ومن هذه الطرق ما يلي:

١ - المستشفيات:

من البديهيات ان المريض المتألم يضحى بما يملك حتى يتخلص من آلامه، واذا رأى احدا ما قريبه مريضاً زاد رضاه بالتضحية من اجله، وتقل قيمة كل شيء في عينيه في سبيل شفاء ابنه او امه او ابيه او زوجته.

ولقد ادرك المبشرون هذا الميل في البشر، فخرجوا عن كل نبل في الطبيعة الانسانية، وسخروا الطب في سبيل غاياتهم، حسبك دليلاً على ذلك قول

المبشرين هم: «حيث تجد بشرا تجد آلاما، وحيث تكون آلام تكون الحاجة الى الطبيب؟ وحيث تكون الحاجة الى الطبيب فهناك فرصة مناسبة للتبشير»^(١). وهكذا اتخذ المبشرون هذه المهنة الانسانية - الطب - ستارا لاهدافهم الاستعمارية.

وقد كان اول من غير سنة ابيقراط الجميلة (في القسم) الاميركيون وذلك عام ١٨٥٩م، وهكذا نظر الاميركيون منذ ذلك الحين الى الطب على انه معين على التنصير، ومنذ ذلك الحين اعتبروا الطب «مشروعا استعماريا».

ولاريب في ان الطبيب يستطيع ان يصل الى جميع طبقات الناس حتى اولئك الذين لا يخالطون غيرهم؛ ولذلك قال المبشرون: «ان بإمكان الطبيب ان يصل بتبشيره الى جميع طبقات المسلمين بواسطة المرضى الذين يعالجههم». والطريق في ذلك ان الاستعمار فرض ان يكون الطبيب «نسخة حية من الانجيل» حتى يستطيع ان يغير الذين حوله، ويجعل منهم نصارى حقيقيين، او يترك في نفوسهم اثرا عميقا على الاقل!

والمبشرون يصرحون بذلك، فالمبشر س.أ. موريسون في مجلة العالم الاسلامي التبشيرية يقول: «نحن متفقون بلا ريب على ان الغاية الاساسية من اعمال التنصير بين المرضى الخارجيين، ان نأتي بهم الى المعرفة المنقذة، معرفة ربنا اليسوع، وان ندخلهم اعضاء عاملين في الكنيسة المسيحية الحية».

ويرى هذا المبشر ان للتبشير الافضل بين هؤلاء هو: ان يزور الطبيب المبشر المريض، حتى يكون هذا المريض واسطة لجمع عدد غفير من المسلمين عنده

(١) غارة تبشيرية جديدة - ابو هلال الاندونيسي.

في انتظار زيارة الطبيب، وحينئذ تكون الفرصة سانحة حتى يشير هذا الطبيب بين اكبر عدد ممكن من المسلمين!

اما اذا كان للطباء المبشرين مستوصف او مستشفى، فان مهمتهم الثانية، تكون اسهل حينئذ، حيث ان الطبيب يستطيع ان يجد فرصا مناسبة لينثر بذور التبشير في قلوب المرضى، في هذه الحال يكون كل من دخل المستشفى او اتى الى المستوصف للمعالجة قد تلقى من طبيبه تلك الوصفة التي توجهه للقبول «بالاستعمار غير المباشر» تحت غطاء التبشير.

واذا انت اردت ان تعرف مبلغ اهتمام هؤلاء الاطباء بالتبشير لا بالتطبيب، فاعلم ان نفرا منهم انشأوا مستوصفا في بلدة (الناصر) في السودان، وكان هؤلاء لا يعالجون المريض ابدا بعد ان يحملوه على الاعتراف بأن الذي يشفيه هو المسيح لا غيره!

اما في الحبشة فكانت المعالجة لاتبدأ قبل ان يركع المرضى ويسألوا المسيح (الرب) ان يشفيهم، ومن الحيل التي استعملها المبشرون في وادي النيل، انهم استخدموا ثلاثة مراكب وجعلوها مستوصفات نقالة على النيل، وكانوا يعلنون عن مجيء الطبيب قبل ان يصل بوقت طويل، فيأتي الناس من كل صوب يحملون مرضاهم، وينتظر الجميع قدوم الطبيب.. في هذه الاثناء يقم فيهم من يشير فرحا بالجموع الغفيرة، من غير ان يتحرك ضميره لهذه الآلام التي يتحملها المرضى في وضح الشمس ومضض الانتظار عمدا وخداعاً؟!!

٢ - المدارس:

كانت العصور الوسطى في التاريخ الانساني تدعى (العصور المظلمة) لانها كانت عصورا خبا فيها نور العلم، فلما بزغ العلم بنوره على اوروبا من العالم

الاسلامي بدأت غياهب تلك الظلمات تختفي عن اوروبا شيئاً فشيئاً، حتى ازدهرت المدنية فيها وعمتها الحضارة..

والحقيقة التي لا غبار عليها، ان اوروبا المتحضرة بنت العلم وحده، ولم تبني الدين.. وفي الحديث الشريف: «كل مولود يولد على الفطرة» ولكنه يولد وفيه استعداد طبيعي يتوجه به نحو الخير والشر، ونحو صناعة دون اخرى، ولا ريب في انه اذا استثنت عوامل الوراثة الطبيعية لوحظ ان الموجه الحقيقي لكل فرد انما هو البيئة الاولى التي احتضنته صغيراً.. على ان عوامل البيئة تظل تعمل في الافراد والجماعات، ولكن تأثيرها يقل كلما تقدم الانسان في السن.

ولقد ادرك المبشرون هذه الميزة في البشر.. هذه الميزة التي ينبغي ان تستغل في سبيل الانسانية.. وفي سبيل جلاء شخصية الفرد، وبناء شخصية المجموع، ولكن المبشرين ضربوا بهذا كله عرض الحائط.. واستخدموا العلم والتعليم والدين في سبيل الهيمنة وامتصاص جهود و ثروات الشعوب.

واول ما استخدم المبشرون التعليم لتنفيذ غاياتهم في افريقيا السوداء، واوغندا.. وظل التعليم في يد المبشرين زهاء نصف قرن (١٨٧٧-١٩٢٥)، ولما تأسس المجلس الاستشاري للتعليم الافريقي تمثلت فيه الحكومة (البريطانية) والارساليات التبشيرية والجماعات الافريقية والاجنبية، وكان المبشرون الانجليز يحملون اعضاء اساسية في ادارة هذه المدارس وفي جميع انحاء افريقيا، ثم اتسع التبشير اتساعاً عظيماً بزيادة عدد المبشرين الذين بلغ عددهم في عام ١٩٢٥ نحو (٦٣٠٠) مبشر في هذه القارة البائسة!^(١)

(١) التبشير والاستعمار - عمر فروخ.

وان التعليم في جميع مدارس الارساليات المسيحية؛ انما هو واسطة الى غاية فقط، هذه الغاية هي توجيه الناس الى النصرانية..

ومما يؤكد هذا المعنى، انه لما بدأ المبشرون عام ١٩٣٤ يفتحون المدارس في البلاد الاسلامية، كان معظمهم يقصر التعليم على التوراة والانجيل فقط (!) بل اجمعوا على ان التعليم الديني شيء اساسي في سبيل تحقيق غاياتهم.. واقترحوا فوق ذلك ان يوحدا ومشروعهم بكل جزئياته في التعليم..

والاكثر تأكيداً من ذلك، ان المدارس الاجنبية تجبر جميع طلابها على دخول كنيسة المدرسة مرة كل يوم، ولاتزال مدارس الارساليات التبشيرية في افريقيا تفعل ذلك حتى يومنا هذا؟!!

اما من ناحية اختيار المعلم، فلما كان التعليم قاصراً على التبشير فقط.. فلذلك اشترطوا ان يكون المعلم في هذه المدارس اجنبياً من غير تلك البلاد التي يبشرون فيها، اما اذا دعت الحاجة الى معلم من تلك البلاد فليكن مسيحياً في الدرجة الاولى!

هكذا يضع المبشرون مناهجهم في المدارس الاسلامية، ثم يزعمون انهم جاءوا للعلم والتهديب فقط، لقد صدق المثل القائل: «ان فاقد الشيء لا يعطيه»، اقبم مثل هذا يعسى سعاة الامم بأن يقرروا السلام في العالم، والاطمئنان بين الشعوب والامم؟! ان الاطمئنان والسلام لن يسودوا ما دام هؤلاء المبشرين ومن وراءهم يزرعون ارض العالم احقاداً وبغضاً..

واخيراً نقول: ان المبشرين واسيادهم يبذلون كل جهد لاستخدام العلم والتعليم في سبيل التبشير، غير ان لتبشيرهم ظاهراً وباطناً.. اما ظاهره فدعوة الى سلوكهم لا يسلكونه (!). واما باطن التبشير فهو تفكيك واصر القربى الروحية في

الامة الاسلامية خاصة، حتى يستطيع الغرب ان يستعمر الشعوب الاسلامية، ويستغل بلادها في مختلف الحقول..

٣ - طريقة الإتصال الشخصي:

يستطيع المبشرون عن طريق المدارس ان يصلوا الى المتعلمين، اما الاميون فلا سبيل الى الوصول اليهم من هذا الطريق، ولقد اعد المبشرون ذلك صعوبة بالغة، ثم تفتحت قريحتهم عن ان يعمد المبشر الى الاتصال الشخصي بالاميين، وان يبدأ الكلام معهم على مقام عيسى (ع) في القرآن الكريم، فيتكلم مثلا عن المسيح بانه روح الله كما جاء في القرآن.. او يقول عنه «حضرة عيسى» كما يقال في الهند.

وعلى المبشر ان يذكر امام الاميين «القرآن الكريم» وان يذكر الشفاعة والجنة وما الى ذلك من الالفاظ الاسلامية، استمالة للسامعين الاميين، فاذا وثق من اصغائهم صب فيها تبشيره!

ولقد وقع (وليس ماسينيون) استاذ جامعة فرنسية في باريس والداعية المبشر في قسم الشؤون الشرقية في وزارة المستعمرات على هذه الطريقة فمضى يقول بها في خطبه ومقالاته واحاديثه..

ومع ان معلوماته هذه تدل على اطلاع واسع، الا انها لاتدل على صفاء في التفكير او على صفاء في الضمير على الاصح، حيث يتمنى ماسينيون في احدي مقالاته ان يعود الاعتقاد الاسلامي في رجوع عيسى بن مريم، فيتفق مع الحادث الثاني للمسيح النصراني الذي يعمل المهدي (عج) على انتصاره (!).

ويقصد ماسينيون بكلمة ثانية اوضح، أن يعود المسلمون عن قولهم: عيسى بن مريم (ع) الى القول: عيسى ابن الله، وفحوى مقاله كله انه ما دام لدى

المسلمين اخبار برجوع المسيح بن مريم ، فلماذا لا يكون هذا المسيح الراجع هو المسيح الذي يعتقد به النصارى اليوم؟!
ولقد ردد ماسينيون هذه الفكرة المأخوذة من غيره والمدخولة في نفسها وجعلها عمدة عبقريته في الدعوة الى ان يحمل المسلمون على ترك دينهم حتى يسهل استعمارهم من قبل الغرب.

٤ - طريقة التبشير الإذاعي:

يعتبر التبشير الاذاعي لدى المبشرين من اسهل وافضل الطرق للاتصال بالناس، ذلك لانه يمكن الاتصال بملايين الآذان بأقل جهد يبذل واقل وقت يصرف.

كما ان الصوت الاذاعي يستطيع ان يفرض نفسه ضيفا وان يدخل في اى بيت ودون ان يستأذن او يطرق الباب!
ومن الاذاعات التبشيرية:

١ - الاذاعة الدولية:

وتعتبر من اقوى الاذاعات التبشيرية واقدمها.. بدأت عملها في عام ١٩٥٤ تحت اسم (صوت طنجيس).. ومقر هذه الاذاعة في (سوزيلاند) في جنوب افريقيا، وتجدر الاشارة الى ان برامجها تناسب مع اذواق المثقفين الافارقة من خلال خطط معدة مسبقا وفق الطلب الذي قدمته الكنيسة الانجيلية.

وتبث هذه خمس ساعات في الاسبوع باللهجات الافريقية، وواحد وخمسين ساعة بالانجليزية لجنوب افريقيا، وعشر ساعات بالانجليزية ايضا لاواسط وشرق افريقيا، كما تبث اثنين واربعين ساعة بأربع عشرة لغة محلية افريقية، وتبث هذه البرامج باللغات الاوروبية حتى تكفي حاجة المثقفين

الحضريين من الافارقة.

٢ - رابطة اذاعات الشرق الاقصى (فييا):

تسعى هذه الاذاعة الى الاهتمام بالثقافة المحلية، غير انها لم تتمكن من ان تلعب دورها المنوط بها في افريقيا لموقعها الذي يعد مئات الاميال في جزر (سيشيل)، وقد كتب مديرها العام الى المسؤول العام عن الاعلام التبشيري «الاسكاري» في جزر «سيشيل» الذي يعد عن مستمعينا ولاندرى اذا كان من الافضل ان نمركز برامجنا في موقعنا الحالي ونعمل بعيدا عن مستمعينا او نعمل على نقلها الى موقع يقرب من المستمعين، هذا اذا فهمنا حقيقة اننا نبث هذه البرامج لاربع مناطق رئيسية اثنتان منها داخل افريقية»^(١).

٣ - اذاعة الحب الابدى لكسب افريقيا (منروفيا - ليبيريا):

تعتبر هذه الاذاعة من اكثر الاذاعات التبشيرية تداخلا مع الافارقة، وذلك للموقع الممتاز الذي تتمتع به في القارة الافريقية بمنروفيا في ليبيريا، وتضم بداخلها ثلاث اذاعات محلية تبث ارسالا بالانجليزية.. وموجة عالمية تبث ارسالا بنفس اللغة الى داخل منروفيا.

ولهذا الاذاعة خمسة مراكز اخرى وهي: استوديوهات (جوس)، (واقاباجا) في نيجيريا، (وابيدجان) في ساحل العاج، (واديس ابابا) في الحبشة، (بيروت) في لبنان.

وقد انشأت هذه الاذاعة بعد الاجتماع الذي عقده المبشرون الاميريكيون في ولاية (البنوي) الاميركية عام ١٩٥٠م، ومن ثم تبثها الهيئة الاذاعية لغرب افريقيا،

(١) مجلة العربي - العدد ١٨٣.

وسرعان ما وجدت الدعم من التبشيريّات السودانية الداخلية، وبدأت تبث برامجها في عام ١٩٥٤م.

٤ - إذاعة صوت البشارة بـ (اديس ابابا في الحبشة):

هذه الاذاعة بدأت تبث برامجها من اديس ابابا تحت رعاية الامبراطور السابق (هيلاتسيلاسي) منذ عام ١٩٦٣م، وذلك بتحويل من اتحاد اللوثرية العالمي وبمساعدة مجلس الكنائس الافريقية، ومجمع الكنائس للشرق الادنى، ومجمع آسيا الكنسي.

وكانت تبث برامجها بست عشرة لغة الى جميع الاقطار الممتدة بين الصين شرقا والمحيط الاطلسي غرباً.

ولاذاعة صوت البشارة اكثر من اثني عشر استوديو لتسجيل البرامج بمعاودة الارساليات المحلية والكنائس الاقليمية في مختلف الاقطار الافريقية، ومن هذه الاستديوهات استديو (قاوندي) في الكاميرون لتسجيل البرامج الكنسية لقبيلة الفولاني التي تعتبر من اكبر القبائل الافريقية التي يذكر ان التنصير قد اجتاحتها في الفترة الاخيرة.

٥ - إذاعة الفاتيكان:

وهي مماثلة لاذاعة الشرق الاقصى الانجليزية في بعد الموقع، ترسل برامجها في اللغة الانجليزية والفرنسية والبرتغالية، بجانب القليل من اللغات المحلية التي يتكلمها موظفو الاذاعة من الافارقة.

وسياسة هذه الاذاعة هي التركيز علي تعليم الانجيل والموضوعات الاجتماعية والثقافية الاوروبية، والاذاعة تعني بكل الناس وخصوصا المسلمين.. لذلك فانها تبث برامجها باللغة السواحلية والايونديّة والحبشية والامهرية والنقدية

بجانب اللغة العربية.

□ نتائج التبشير:

لاشك في ان المبشرين قد اخفقوا في البلاد الاسلامية، في هدفهم الذي كانوا قد اعلنوه منذ مطلع العصور الحديثة:
(نقل الناس الى النصرانية اعتقادا وعملا).

لقد انتقل افراد قليلون، وجماعات قلائل الى النصرانية في عدد من البيئات التي يسودها الجهل والفقر، وتسيطر فيها الدولة الاجنبية المستعمرة وخصوصاً في اواسط افريقيا وغربها، غير ان هؤلاء المرتدين كانت الكثرة الغالبية منهم غير مسلمين.

هؤلاء الذين دخلوا النصرانية حبا بالدينام يهنأوا بالدينام، لأن الدول المستعمرة لم تحمل هؤلاء على النصرانية حتى تمتعهم بما يتمتع به النصراني الاوروبي والنصراني الاميركي الابيضان، يكفي انها جعلت لهم كنائس بدائية ومدارس خاصة، وحرمت عليهم كل نشاط يريد البيض لانفسهم.. ثم انتظرت منهم ان يكونوا دائماً في خدمتها وطوع امرها ضد قومهم وابناء جلدتهم.

وفعلاً نفذ بعض هؤلاء ما امرهم به المستعمر، فأصبحوا عيوناً واياديا في وطنهم، ومن الامثلة على ذلك «دويلة بيافرا» التي انشأها الاستعمار بمساعدتهم في الاقليم الشرقي من نيجيريا، وعلى الرغم من خيانتهم في تجزئة بلادهم فانهم بدأوا يكيّدوا النيجيريا ويفتحوا عليها ابوابا من الازمات والمشاكل..

ومع ان الحاكمين في نيجيريا (الام) كانوا اكثرهم من النصارى، الا انهم لم يرضوا عن اعمال اهلها فبدأوا بالقضاء عليها، ولكن الاستعمار في جميع صوره

الظاهرة والمستترة ساعد اهل بيافرا بالمال والسلاح بغية الحفاظ عليها، الا انها تساقطت ثمار خطتهم كما يتداعى صرح من ورق.

حيث اصدرت الحكومة النيجيرية بعد سقوط بيافرا وضمها الى اراضيها بيانا اعلنت فيه انه سيتم في اقرب فرصة ترحيل القساوسة والرهبان الاجانب الذين ادنسوا بتهمة دخول البلاد بطريق غير قانوني ثم اشتركوا في التآمر الاستعماري ضد وحدة نيجيريا، وقد تم بالفعل نقل عدد كبير من هؤلاء الى خارج البلاد.

وهذه المحاولة التي قام بها الاستعمار في بيافرا من نيجيريا، قام بها في اماكن اخرى ايضا وخاصة في جنوب السودان، الذي لا يزال قائما حتى يومنا هذا، وقد قربت ان تعطي ثمارها الخبيثة الى زارعها اذا لم يسارع الى اجتثاث جذور الفتنة بأقرب فرصة ممكنة.. خاصة وان جنوب السودان اتخذ طابعا عسكريا بعد الانقلاب الذي اطاح بنظام نميري.

ومما لا ريب فيه ان العمل التبشيري في جميع صوره انكشف عن حقيقة مرة - لهم ولمناطق التبشير - حقيقة لاسبيل الى انكارها ولا الى انكار نتائجها، وهي ان التبشير قد جاء الى البلاد التي نجح فيها كثيرا او قليلا بالاستعمار وبالسيطرة الغربية وبالتحريض بين ابناء الوطن الواحد من غير ان يأتي بشيء من القيم الروحية.

ولاشك في ان التمييز العنصري الذي تمارسه الحكومات البيضاء في افريقيا خاصة دليل واضح على ان التبشير قد سلب طوائف الناس اسمى ما تأتي به الاديان كلها؛ قد سلبها المساواة والحرية.

كما ان المبشرين بالنصرانية لا يريدون نصارى من السود يساؤونهم في المنزلة، ولكنهم يريدون اشخاصا يستخدمونهم في استغلال البلاد التي يبشرون

فيها، وهذا امر ظاهر في مقارنة حال الذين يسلمون بحال الذين ينتصرون، وبهذا الخصوص قال الاستاذ (وسترمان): «حينما يعتنق الزنجي الاسلام فإنه يصبح حالاً عضواً في هيئة اجتماعية اعلى (من تلك التي كان فيها من قبل) وهو يبلغ بسرعة الى الشعور بالثقة بنفسه والى الشعور بمقامه، كما يشعر انه قد اصبح عضواً في منظمة منتشرة حول العالم كله، وكذلك تنشأ له صلوات واضحة المعالم بالاوروبيين انفسهم، ان الزنجي الذي كان يعيش في الادغال محتقراً يصبح في الاسلام ذا مقام، ويجدان الاوروبيين انفسهم قد جعلوا - على الرغم منهم - يعاملونه باحترام.

اما اذا انتقل الوثني (والزنجي) الى الجماعة المسيحية، فالذي يحدث هو خلاف ذلك تماماً»^(١).

وفوق ذلك لا يلاحظ الزنجي المتمدن بالمدينة الاوروبية، يبلغ تلك المساواة الاجتماعية التي يبلغه اياها الاسلام بطبيعة الحال.. وبما ان الافريقيين لا يأملون ابداً ان ينالوا (بالنصرانية) مقاما اجتماعيا لمقام اخوانهم في العقيدة من النصارى الاوروبيين، فقد نشأ فيهم من يروا في الاسلام الدين الوحيد للافريقي الحديث.

(١) غارة تبشيرية جديدة - ابو هلال الاندونيسي.

عصر الدولة العلمانية والقومية الحديثة

نظام الحكم

مقدمة وتعريف: (١)

- وهو ان يتولى قيادة الدولة: الحكم اجهزته ومؤسساته وخدماته رجال زمنيون لا يستمدون خططهم واساليبهم في الحكم والادارة والتشريع من الدين، وانما يستمدون ذلك من خبرتهم البشرية في الادارة والقانون واساليب العيش، وتكون الروح العامة التي توجه الدولة والمجتمع روحا غير دينية.
- وتعتبر اللغة والتاريخ رابطة يشد بعضها البعض.

- وهذا المضمون المصطلح (العلمانية) يتصل بالظروف التي نشأ فيها هذا المذهب السياسي وتطور في اوروبا في عصر النهضة الاوروبية.

- واول دولة علمانية في العالم الاسلامي هي تركيا والتي اسسها مصطفى كمال اتاتورك في عام ١٩٢٤م.

الحركة القومية:

القومية من المسائل والقضايا التي اوجدت موطىء قدم في مجتمعاتنا المعاصرة، لذا يستوجب دراستها باسلوب تحليلي وتحقيقي، وبعيدا عن الانحياز والتعصب، وان نضع اصابعنا على نقاط القوة والضعف فيها، ونشير الى عوامل نشأته وانتشاره في الغرب واوروبا ومن ثم في العالم الاسلامي.

(١) شمس الدين - محمد مهدي - العلمانية - الطبعة الاولى ١٩٨٠ بيروت - ص ١٢٥.

تعريف القومية:

ان مرادف كلمتي (القومية) و (تقديس الوطن) في اللاتينية هو (Nationalism) ففي اللاتينية تعني ناسيو و نيتوس مسقط الرأس.^(١)

ولقد قدم المحققون ومفكرو العلوم السياسية تعاريف مختلفة «للقومية»: يقول كارلتون هيس:

«القومية تمثل مجموعة من الناس مستقلة سياسياً ويربط بينها تصور و تراث حضاري مشتركين».^(٢)

ويقول هانس كوهن:

«ان التعايش الجماعي على ارض واحدة يشكل عاملاً لتكوين القومية، وان النشوء في محيط طبيعي وجغرافي واحد يشكل اكبر ترابط قومي بين الافراد وتكون الجماعات التي تفكر بمصالحها المشتركة - على هذا الاساس - قومية واحدة».^(٣)

ويقول بوبغي:

«ان القومية عبارة عن مجموعة من الافراد الذين تربطهم عوامل التراب والدم واللغة او الحضارة والتاريخ».^(٤)

تحليل التعاريف:

لو نضع التعاريف السابقة على المحك نلاحظ ان جميعها تمنح الاصالة

(١) تقوي - الدكتور علي محمد - الاسلام والقومية ١٩٨٣ طهران - ص ٥١.

(٢) تقوي - الدكتور علي محمد - الاسلام والقومية ١٩٨٣ طهران - ص ٥١.

(٣) تقوي - الدكتور علي محمد - الاسلام والقومية ١٩٨٣ طهران - ص ٥٢.

(٤) تقوي - الدكتور علي محمد - الاسلام والقومية ١٩٨٣ - طهران - ص ٥٢.

والالتزام «للارض» و «الوطن» او «الدم» و «الحضارة» واعتبارها اساسا للوحدة بدلا من الوحدة على اساس العقيدة والايمان.

والقوميون يعتقدون ان الوحدة ينبغي ان تقام على هذه الاسس، والمعيار والملاك الاساسي لتقييم وقياس السلوك الفردي والاجتماعي يتلخص في المنافع والمصالح القومية والوطنية.

وفي هذا المذهب «القومية» تكاد تكون الحدود الجغرافية واللغة والعنصر والمؤسسات السياسية من مكونات القومية، وعلى اساس هذه العوامل يشعر مجموعة من الناس بمصير مشترك بينما الارتباط على اساس الدين فيكون فرعا او محذوفا من الحياة، ومع وجوده فاذا تعارضا اي المشاعر الدينية والمشاعر الوطنية فالاسبقية للمشاعر الوطنية عند هؤلاء».

القومية .. والعلمانية:

والقومية على ما ذكر آنفا لها علاقة وطيدة بالعلمانية القائلة بفصل الدين عن الدولة، فالقومية التي تعتبر الوطن والحدود والعرق واللغة هي الاساس في حياة الانسان وهذه هي المعتقدات - في نظرها - التي يجب للانسان ان يعيش ويضحى من اجلها، بلاشك تلتقي مع العلمانية التي تعزل الدين عن السياسة والحياة، وتعتبر الدين قضية شخصية فردية ينبغي ان لا تتدخل في الشؤون السياسية والاجتماعية!

وبهذا فالقومية تؤدي الى العلمانية والفكر العلماني، فاقامة الوحدة القومية على اساس الوطن الواحد يستوجب عزل الدين عن الحياة والشؤون الادارية كما في الفكر العلماني.

القومية .. والنظام القبلي:

لو طالعنا مبادئ وأسس الفكر القومي بدقة، للاحظنا انه خليط من النظام والعادات القبلية، فالغريون وللسيطرة على عقول وافكار المجتمع اسسوا هذه الفكرة على اساس الغريزة الاجتماعية والتعصب القبلي.

فوجه الشبه كبير بين القومية والنظام القبلي، فأساس العلاقة في النظام القبلي مبنية على الاشتراك في وحدة الدم والتراب بغض النظر عن الحق او الباطل، فان من كان من القبيلة فله مصير مشترك، وان لم يكن منها فهو بعيد وغريب وان كان يشترك معهم في وحدة العقيدة والايمان، كما ان في النظام القبلي تقام الحروب ويستتب السلام والامن من اجل القبيلة، والانسان المرتبط بالقبيلة بنسبه القبلي ويستعلي على الآخرين، وهكذا الحال في القومية فانها قائمة على الاسس المذكورة، والمنتمي لهذا المذهب «القومية» يحيا ويعمل ويقاقل من اجلها.

القومية .. والرأسمالية:

بعد انفجار الثورة الصناعية في اوربا في القرن التاسع عشر، وانتشار المعامل والمصانع الكبرى، واجهت اصحابها مشكلة كبيرة كانت تكمن في الفائض الانتاجي الكبير، من هذه النقطة نشأت علاقة بين هؤلاء الرأسماليين والفكرة القومية، وكان هؤلاء يبتغون من وراء هذه العلاقة هدفين:

الاول: السيطرة على اسواق بلدانهم وعدم اعطاء موطىء قدم للبضائع الاجنبية في اسواقهم، وهذا يتحقق عن طريق الهاب المشاعر القومية، واثارة الاحاسيس الوطنية، فهذا التوجه - بلاشك - يؤدي بجموع الشعب الى تفضيل منتجاتها الداخلية على الاجنبية.

الثاني: استحداث اسواق تصريف جديدة لمنتجاتها في مناطق اخرى من

العالم، الامر الذي دفع الى الهيمنة واقامة مستعمرات يصرف الفائض الانتاجي، والراسمالية استطاعت باستخدامها الفكر القومي ان تحقق كلا الهدفين.

القومية .. والهيمنة:

ثم للقومية الوازع الكبير في هيمنة الدول الغربية القوية على الدول الضعيفة، حيث لعب الحس القومي دورا كبيرا في مجال الهيمنة والاستعمار ويمكن ان نجملها بما يلي:

اولا: الاحساس بالتفوق العرقي والتفاخر بالتاريخ، والتطور الحضاري، والتعصب العنصري، التي تعتبر جميعها وليدة القومية هيأت الارضية الملائمة للاطماع السياسية التوسعية، وبالتالي الهيمنة الكاملة على البلدان الضعيفة ونهب ثرواتها.

ثانيا: اعتبرت القومية مبررا قويا للاستعمار، فمع اثاره المشاعر القومية وروح التضحية في سبيل الوطن، ظهر الحس اللازم والقناعة الكافية نحو انشاء مستعمرات جديدة، مما جعل التنافس قويا بين فرنسا وبريطانيا والمانيا من اجل الهيمنة على العالم.

وقول المفكر الغربي (فرانسيس كوكر) يوضح ذلك حيث قال:

«اقتنع الكثير من الغربيين في القرن التاسع عشر اثر المشاعر القومية المتطرفة، بأن الشعوب المتطورة والتي بتاريخ وتراث عظيمين وتحظى بتفوق عنصري وقومي، لا يحق لها حصر قدراتها وامكانياتها داخل حدودها، اذ ان الواجب القومي والوطني لا ينحصر بالدفاع عن سيادة الوطن وحفظ الاستقلال فحسب، وانما توجد هناك رسالة عالمية ويتوجب عليهم بسط نفوذهم السياسي وحضارتهم القومية على جميع الدول المتأخرة حتى وان تم ذلك باستخدام

القوة والعنف»^(١).

ويقول الدكتور برج هات الذي يعد من رواد الفكر القومي في القرن التاسع

عشر:

«ان الاكتفاء بحفظ سيادة الوطن ليس كل شيء، لأن التخلف عن التنافس الاقتصادي - السياسي العالمي، يعني عدم اداء الواجب الكامل في حراسة العظمة والهيبة التاريخية للوطن...»^(٢).

والقومية وسعت نظرية «دارون» حول بقاء الاصلح في الحدود الاجتماعية - السياسية.

وفي المانيا روج «ارنست هيغل» هذا المفهوم بقوة، حيث قال:

«يحق للشعوب القوية والمقتدرة ان تدحر وتفني الشعوب الضعيفة والمتأخرة!»^(٣)

ونتيجة لهذه الافكار اجتاحت اوربا في القرن التاسع عشر موجة واسعة من الزحف والهيمنة والاستعمار، فبريطانيا استطاعت في زمن حكومة «فليدستون» ان تستعمر الهند ومناطق اخرى وتخضعها للتاج البريطاني، واستطاعت المانيا ان تتوسع خارج حدودها، وكانت تفكر في تأسيس (الامبراطورية الآرية) المترامية ابتداء ببرلين وانتهاء ببغداد. وفي افريقيا امتدت يد فرنسا فهيمنت على مناطق كثيرة. اما اميركا - القوة الحديثة آنذاك - فدخلت وبتأثير من الحماس القومي حلبة السباق لانشاء المستعمرات فاحتلت الفيليبين ومناطق اقصى آسيا.

(١) تقوي - الدكتور علي محمد - الاسلام والقومية ١٩٨٣ طهران - ص ٢٢.

(٢) تقوي - الدكتور علي محمد - الاسلام والقومية ١٩٨٣ طهران - ص ٢٣.

(٣) تقوي - الدكتور علي محمد - الاسلام والقومية ١٩٨٣ طهران - ص ٢٣.

الخصائص الاخرى للقومية:

استنادا الى النظرية القومية والفكر القومي في اعتبار «الوطن» و «القومية» هما الملاك والمعيار لتوجيه القوى وتحريكها في الحياة الاجتماعية والفردية، وكذلك في اتخاذ المواقف في مختلف المجالات السياسية والفكرية، فالفكر القومي يعتبر السلطة صيغة امتدادية لحماية الوطن وحفظ الافراد فقط، وليس اسلوبا خاصا لتطبيق نظام خاص، او مبدأ وعقيدة خاصة.

اما الجانب الاقتصادي فيدور فيه حول محور المصالح القومية بغض النظر عن الاساليب المشروعة وغير المشروعة.

ونجمل الخصائص القومية الاخرى بما يلي: (١)

اولا: احترام وتعظيم الشخصيات القومية والابطال التاريخيين للوطن.

ثانيا: احياء السنن القومية.

ثالثاً: كتابة تاريخ مزّيف من اجل اظهار عظمة الشعب ونسج القصص والاساطير والملاحم لاثارة الحماس ومشاعر العظمة والاقترار للشعب.

رابعاً: جعل القدسية «العلم» و «الشعار القومي» و «النشيد الوطني».

خامساً: اعتبار الثقافة والفن والشعر والادب وسائل لتجسيم العظمة القومية وحفظ السيادة واثارة الشعور القومي.

الفراغ الفكري .. والقومية:

انبثقت الفكرة القومية، نتيجة للفراغ الفكري الذي نتج عن ابعاد المسيحية عن الادارة والحياة، حيث ان الاوروبيين وبعد عصر النهضة ابعدوا الدين عن ادارة

الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية، ظانين ان في ذلك خلاصهم، الا ان هذا التحول الخطير احدث فراغا فكريا وعقائديا وعاطفيا كبيرا في المجتمع الغربي، اضافة الى انهم فقدوا مقومات القوة المطلوبة لاثارة مشاعر الناس وحماسهم، الامر الذي حدا بمفكري الغرب الى طرح البديل الذي يسد الفراغ الفكري، ويشد المجتمع ويلهب الحماس فيه، فكانت القومية.

ظهور القومية كعقيدة:

ظهرت القومية كمبدأ وعقيدة سياسية واجتماعية بعد الثورة الفرنسية، فكان «روسو» اول دعاة القومية، حيث اكد على لزوم تعلق الانسان بمسقط رأسه وموطن نشأته، وان الوطن ينبغي ان يكون المحور والمنطلق للالتزام الفرد والجماعة واخلاصها.

ومع نجاح الثورة الفرنسية وتطبيقها بشكل عملي هناك تكونت اغلب المبادئ والاسس لفكرة القومية.

ونتيجة لانتشار النفوذ الفرنسي في المناطق المختلفة، انتقلت فكرة القومية بسرعة فائقة وبوصول نابليون الى سدة الحكم انتشرت هذه العقيدة في مناطق النفوذ واستحكمت اكثر.

وبهذا سمي القرن التاسع عشر بـ(عصر القومية الذهبي)، ففي هذا القرن وضع القومي (جفرسون) (وبين) اسس القومية الاميركية، وفي بريطانيا اضاف القسيس (جريمي بنثام) ابعادا جديدة للقومية، وقد وصلت القومية الى ذروتها بظهور (وليام غلادستون) وانتشرت في جميع انحاء اوربا كعقيدة ونهضة فكرية. واعتبر (مازيتي) الايطالي احد كبار المنظرين للعقيدة القومية في هذا القرن، اما بقية مفكري القومية وحملة رايتها فهم: (غاريبالدي) الايطالي (وفتكوهيجو)

الفرنسي و (بسمارك) الالماني، وهكذا اصبحت القومية المحرك للاحداث والحياة والسبب في التغييرات التي حدثت في القرن التاسع عشر، وما حدث من تفكك وانفصال الدول الاوروبية التي كانت في امبراطورية يجمعها الدين المسيحي.

عوامل نشوء الدولة العلمانية في البلاد الإسلامية:

ساهمت عدة عوامل داخلية وخارجية على انهيار وتفكيك الامبراطورية الاسلامية وتجزئتها الى دول تعتمد الفكر العلماني في ادارة البلاد.
من هذه العوامل:

اولا: الضعف الذي دب في مركز الامبراطورية العثمانية نتيجة الصراع الداخلي على مراكز القوة.

ثانيا: عدم قيام الجيش الانكشاري - الجيش الخاص - بمهامه بالصورة الصحيحة وخاصة في الفترة الاخيرة حيث مال الى الراحة والهروب من اعباء المسؤولية.

ثالثا: وجود تركيا ضعيفة وبلدان اوروبية قوية الى اعتقاد البعض بعدم كفاية الدين الاسلامي لمواكبة الحياة المتطورة وضرورة تقليد الاوروبيين!

رابعا: الحروب القومية ضد الامبراطورية التركية في دول البلقان، ادت الى سريان مفعولها الى الجيش التركي والى عقول الموظفين التي ارسلتهم الدولة العثمانية للعمل هناك.

خامساً: انكسارات تركيا في حروبها ضد الامبراطوريات المجاورة.

سادساً: ظهور جماعات واحزاب عديدة تهدف الى تطبيق المبادئ القومية.

سابعاً: رعاية الغرب لبعض الشخصيات وزرقها بالمفاهيم القومية.
 ثامناً: تسلل يهود (سلانيك) - الذين اسلموا ظاهراً - الى مراكز السلطة ساعد
 كثيراً على تقويض قواعد الدولة الاسلامية.
 جاء في كتاب (اسرائيل الكبرى): ان يهود الباطن الذين عرفوا بطائفة
 الدونمة... لعبوا على ما يبدو دورا بارزا في انقلاب تركيا الفتاة الذي جرى
 التخطيط له في عقر دارهم بمقاطعة سالونيكى (سالونيك)^(١).
 تاسعاً: الهجمة الاستعمارية التي دامت عدة قرون كانت من اهم الاسباب
 التي ادت الى تجزئة العالم الاسلامي وقيام دولة علمانية موالية لها.
 وهذه الهجمة تمثلت في اتجاهين:

أ - الهجوم العسكري:

الذي تمثل بسلسلة الحروب الصليبية، وان لم تحقق هذه الحروب الاهداف
 المرسومة لها الا انها سببت متاعب كثيرة للدولة الاسلامية، خاصة في الجانب
 الاقتصادي.

ب - الغزو الفكري:

هذه الخطوة جاءت بعد فشل الاستعمار في هجومه العسكري، لذلك رأى
 الطريق الامثل للسيطرة هو ان يستل الى جسد ومركز الدولة الاسلامية عن طريق
 بث افكاره ومخططاته، وهذا المحور اتخذ اتجاهين وهما:
 التبشير والاستشراق: والواقع ان هذين الاتجاهين يعتبران دعامة واحدة
 للاستعمار، حيث ان كلاهما دعوة الى توهين القيم الاسلامية، والنيل من اللغة

(١) الطائي - نجاح عطا - الفكر القومي اسلاميا وتاريخيا - ١٩٨٦م طهران - ص ٣٧.

العربية لغة القرآن الكريم، وتقطع عرى الاتصال بين شعوب الدولة الاسلامية. والتبشير والاستشراق كلاهما سواء، والفرق بينهما هو ان الاستشراق اخذ صورة (البحث) وادعى لبحثه الطابع العلمي، فاستخدم الكتاب والمقال، كما انه تسلل الى الجامعات العلمية، وكذلك سجل لنفسه الحضور في المؤتمرات العلمية العامة. بينما اخذت دعوة التبشير مظاهر (العقلية الشعبية) لذلك سلك طريق التعليم المدرسي في مراحلها المختلفة، كما سلك سبل العمل (الخيري) الظاهري في المستشفيات والملاجىء ودور اليتامى وغيرها من الاماكن الاجتماعية.

ومن اشهر المؤسسات التبشيرية في العالم الاسلامي هي: (١)

- جامعة القديس يوسف وتعرف الآن بالجامعة اليسوعية ومركزها لبنان.
- الجامعة الاميركية ببيروت، وكانت تسمى (الكلية السورية الانجيلية).
- كلية بيروت، التي انشئت عام ١٨٦٥م وهي جامعة بروستانتية.
- الكلية الاميركية بالقاهرة، التي اصبحت فيما بعد (الجامعة الاميركية).
- كلية روبرت في اسطنبول، التي اصبحت (الجامعة الاميركية).
- والكلية الفرنسية في لاهور، واسست في لاهور باعتبار ان هذا البلد يكاد يكون البلد الاسلامي الوحيد في تكوينه في شبه القارة الهندية.
- والمبشرون يسيرون في تحقيق اهدافهم وفق خطط معينة ومدروسة يجتمعون من اجلها بين الحين والحين، ولذلك نرى انهم عقدوا عدة مؤتمرات لهذه الغاية، نذكر منها:

(١) البهي - الدكتور محمد - الفكر الاسلامي الحديث - الطبعة السابعة ١٩٩١م - لبنان - ص

- مؤتمر القاهرة في عام ١٩٠٦.

- مؤتمر بيروت في عام ١٩١١.

- مؤتمر القدس في عام ١٩٢٤.

- مؤتمر القدس في عام ١٩٣٥.

وفي كل مؤتمر من هذه المؤتمرات تدرس المشروعات وتوضع الخطط ثم يجري تنفيذها في سرية تامة وبهمة دائبة.^(١)

كل تلك الاسباب واخرى غيرها ادى الى اتساع نشاط الحركة القومية بمعناها الدقيق، والعمل على ارجاع القوميات الى اوضاعها التي كانت عليها، اي قبل نزول الشريعة الاسلامية.

نشوء الحركات القومية في البلاد الإسلامية:

مقدمة:

بعد ارساء الاستعمار لقواعده وخلاياه داخل كيان الدولة العثمانية، عملت وفق ما تشاء على تقويض اركان تلك الدولة، ولما كانت تدرك بأن الوحدة الاسلامية هي القوة الكبيرة التي تستند عليها، لذا فقد استهدفت مؤامراتها تلك الوحدة.

ووجد الاستعمار بأن الطريق الامثل لمحاربة الوحدة الاسلامية هو الوحدة القومية والرابطة القومية والكيانات الحزبية.

(١) البهي - الدكتور محمد - الفكر الاسلامي الحديث - الطبعة السابعة - ١٩٩١م - لبنان - ص

ولتمرير المخطط كان دعاة القومية التركية يتذرعون بالحركات القومية في الدول العربية والاسلامية لاقتناع الشعب التركي بأن القوميات الاسلامية الاخرى هي التي تريد ذلك. وفي الجانب الثاني كان القوميون العرب يتذرعون بأفعال الحكومة العثمانية وانها هي التي تريد ذلك.

والحقيقة، ان القياديين من القومييين الاتراك والقوميين العرب كانوا لايمتون بصلة للاسلام، فالقوميون الاتراك كان اغلبهم من يهود سولانيك (الدونمة) او من طوائف اخرى غير اسلامية، كما ان القياديين من العرب كان اغلبهم من نصارى لبنان.

الحركات القومية التركية:

ان الانقلاب القومي في العالم الاسلامي كله بدأ اولاً في تركيا ومن ثم سرى الى باقي البلدان الاسلامية، ذلك ان الاستعمار كان يعرف ان افكار المسلمين منشدة الى تركيا عاصمة الخلافة ومركز الامبراطورية، لذلك بدأت الحركة والمؤامرة والحكم القومي منها.

والحركات القومية التي كانت آنذاك مايلي: (١)

- تركيا الفتاة.

- الاتحاد والترقي.

- جمعية الوطن.

المرحلة الاولى قادتها جمعية الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة.

(١) الطائي - نجاح عطا - الفكر القومي اسلامياً وتاريخاً - ١٩٨٦م طهران - ص ٥٠.

وبعد تحول جمعية الاتحاد والترقي من التبعية (الانكلو - فرنسية) الى التبعية الالمانية ودخوله الحرب الى جانبها دفعا الغرب للتفتيش عن بديل مؤيد لها فكان مصطفى كمال اتاتورك.

المرحلة الثانية قادتها جمعية الوطن بقيادة كمال اتاتورك.

مصطفى كمال اتاتورك:

ولد اتاتورك في مقاطعة سالونيك (يهود الدونمة) ونشأ فيها ايام نشاط الماسونية والصهيونية. وبحكم قرب سالونيك من اوروبا وتأثرها بالثورة الفرنسية والحركات القومية الاوروبية والعلمانية الغربية نشأ اتاتورك وترى بعيدا عن التعاليم الاسلامية. ومن يوم كانت الماسونية تمد خيوطها في التنظيمات الحزبية انخرط اتاتورك في (جمعية الوطن) السرية لعدائها للسلطان عبدالحميد والقريبة من الافكار العلمانية التي كان ينشرها يهود الدونمة.

واتاتورك الذي كان همه الوحيد الوصول الى السلطة كان لايهمه التعاون مع اليهود او غيرهم. فبعد ان وصل الى سدة الحكم عقد الاستعمار (الانكلو - فرنسي) معاهدة معه تسمى بـ(معاهدة لوزان) اعطيت بموجبها الاراضي المغتصبة لتركيا ولكن بالشروط التالية:^(١)

أولاً: الغاء الخلافة الاسلامية، وطرد الخليفة من تركيا ومصادرة امواله.

ثانياً: ان تتعهد تركيا باخماد كل حركة تقوم بها انصار الخلافة.

ثالثاً: ان تختار دستوراً بدلاً من دستورها المستمد من احكام الشريعة

الاسلامية.

(١) الطائي - نجاح عطا - الفكر القومي اسلامياً وتاريخياً - ١٩٨٦م طهران - ص ٥٦.

رابعاً: ان تقطع تركيا صلتها بالاسلام.
 وفعلاً نفذ اتاتورك شروط معاهدة لوزان فألغى الخلافة الاسلامية واعلن
 الجمهورية في ٢٩/١/١٩٢٣.
 واستناداً الى الشرط الرابع من معاهدة لوزان بقطع صلته بالاسلام، فقد بدأ
 بحملته ضد القيم والمبادئ والتقاليد الاسلامية فقد ألغى الاحرف العربية
 واستبدلها بالاحرف اللاتينية، واغلق المكتبات الاسلامية والمدارس الدينية،
 ونفى رجال الدين، وحارب المساجد واغلق عددا كبيرا منها، وادخل القوانين
 الغربية وفرض دستوراً علمانياً، فبقدر ما ابعد تركيا من البلاد الاسلامية قربها الى
 اوروبا.

العلمانية والحركة القومية العربية مراحل القومية العربية:

بعد ظهور الحركات والاحزاب السياسية في اوروبا في القرن الثاني عشر
 انتقلت هذه الظاهرة الى العالم الاسلامي شأنها شأن بقية العادات والظواهر
 الاوروبية.

وفعلاً انتشرت التنظيمات والاحزاب السياسية في العالم الاسلامي معلنة
 معارضتها للدولة العثمانية ومؤيدة لتوجهات الغرب وافكاره في احياء القومية
 واقامة الدولة العلمانية. ويتأكد ذلك اذا عرفنا ان رؤساء هذه الاحزاب كان
 اكثرهم ممن درس ونشأ في المدارس الاوروبية!

وكانت الفترة الزمنية القصيرة التي سبقت الحرب العالمية الاولى تمثل الصراع
 والمنافسة بين بريطانيا وفرنسا حول العالم الاسلامي وكيفية السيطرة عليه، وزاد

الصراع حدة استقلال الولايات المتحدة عن بريطانيا - عام ١٧٨٧م - وظهورها كقوة منافسة للوجود الاستعماري الاوروبي.

ولم يجد الغرب افضل من القومية كسلاح لتحقيق مآربه، خاصة وانه قبل ذلك قد جربها في تركيا وجنى ثمارها.

اما لماذا وقع الاختيار على العالم الاسلامي!؟

الواقع ان العالم الاسلامي بما تمتلكه من خيارات يسيل لعاب الشركات البرجوازية الاوروبية والغربية، اضافة الى وجود حالة الصراع القديم والطويل بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي، ثم انه لا يمكن للاستعمار نسيان هزيمته في الحروب الصليبية، والاهم من ذلك كان قيام الدولة الاسلامية واستمرارها شبعا يؤرق مضاجع المستعمرين. اضافة للموقع الاستراتيجي الذي تحتله الدولة الاسلامية في العالم.

- الحركات القومية العربية (في هذه المرحلة):

ان الحركات القومية العربية التي تأسست بهذه الفترة كانت مرتبطة بفرنسا وبريطانيا واوروبا بشكل وبآخر، وهذه الحركات هي: (١)

- جمعية العهد.

- جمعية العربية الفتاة.

- جمعية النهضة اللبنانية.

- جمعية الآداب والعلوم، وقد اسست عام ١٨٤٧م علي ايدي الاميركيين.

- الجمعية السورية.

(١) الطائي - نجاح عطا - الفكر القومي اسلاميا وتاريخيا - ١٩٨٦م طهران - ص ٧٠.

- الجمعية السرية (في سورية) وقد أسست عام ١٨٧٥م.
- جمعية حقوق الملة العربية، وقد أسست عام ١٨٨١م.
- جمعية المنتدى الادبي.
- حزب اللامركزية الادارية (في القاهرة).
- الجمعية القحطانية، وقد أسست عام ١٩٠٩م.
- الجمعية الثورية العربية.
- جمعية الاصلاح العام.

وكل هذه الحركات والتنظيمات والاحزاب اتفقت على ان اهم عناصر القومية الاساسية هما اللغة والتاريخ، رغم ان القرآن هو الذي نشر اللغة العربية في معظم الاقطار الاسلامية!

كما ان بالاسلام ازدهر تاريخ العرب رغم ذلك يتنكر القوميون للحضارة الاسلامية.

- دور فرنسا في الحركة القومية:

كان لفرنسا - في هذه المرحلة - الدور الكبير في تأسيس المنظمات والاحزاب السياسية، وكانت كل تلك الحركات ترفع شعار الوحدة القومية وتدعو لتقليد الغرب. ومن هذه الحركات: (١)

(جمعية النهضة اللبنانية) التي كان جميع اعضائها من المسيحيين، وكان هدف هذه الجمعية هو اخراج سورية ولبنان من دائرة الدولة الاسلامية وادخالها الى الدائرة الفرنسية، كذلك تسللت فرنسا الى (جمعية العربية الفتاة) واستطاعت

(١) الطائي - نجاح عطا - الفكر القومي اسلاميا وقوميا - ١٩٨٦م طهران - ص ٧٢.

ان تحركها الخدمة مصالحها.

في كتاب (ايضاحات) نص وثيقة صادرة من القنصلية الفرنسية في بيروت عليها توابع خليل زينية ورزق الله ارتش وهما من اعضاء الجمعية الاصلاحية البيروتية، تقول الوثيقة:

«ولا تتحقق رغبة النصارى الحقيقية في سورية بسبب نوازع التعصب الاسلامي ضد النصارى ولان النصارى مرتبطون بفرنسا بصورة لا تقبل الانفكاك، وان اكبر آمالهم ان تستولي فرنسا على البلاد الشامية»!!

اجل، كانت خطة فرنسا التي تنازلت عن الدين نهائيا بعد الثورة يتمثل في مد سلطانها القومي الى حيث امكن القضاء على العقبة الرئيسية في سلطانها وهي الدولة الاسلامية، ومن خلال اعمال اوروبنا لاحظ انها قد قسمت العالم الاسلامي الى قسمين:

القسم الآسيوي: كان هذا القسم هو المستهدف في حملة القومية بسبب كونه تابعا للدولة العثمانية، وان القومية هي التي ستعزل ذلك الجزء عن الامة. والقسم الافريقي: الاستعمار الاوروبي تمكن من اقتطاع هذا القسم من الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، واخذ يسعى منذ ذلك التاريخ في طريق تحويلها نحو العلمانية.

البذرة الاولى للعلمانية وللحركة القومية:

تكاد المصادر التاريخية تتفق على اعتبار (مؤتمر باريس) البذرة الاولى لنشأة الحركة القومية العربية، والاساس الاول الذي بنت عليه العلمانية.

والمؤتمر المذكور الذي جاء بفضل فرنسا انعقد من ١٧/٦ الى ٢٣/٦/١٩١٣

برئاسة الزهراوي وجمع من الشخصيات العربية التي تؤمن بضرورة تبعية بلدانها لفرنسا بزعم مواكبة التطور التي تحظى بها!

وقامت اجهزة الاعلام الفرنسية بالتغطية اللازمة لوقائع واحداث المؤتمر ، وحاولت بكل ذكاء ان تظهر توجهات القومية وحركتها بأنها هي الكفيلة في خلاص الدول العربية والبلسم الشافي لادوائها.

وتصريح رئيس المؤتمر لصحيفة (الطان) الفرنسية يكشف بوضوح اهداف المؤتمر ويحدد مساره، حيث قال: «ان ليس للمؤتمر علاقة بولايات العرب غير العثمانيين وهي: الجزائر، تونس، مراكش، ليبيا، مصر، السودان، جنوب الجزيرة، الخليج، لأنها تابعة للسلطة الاوروبية»!!^(١)

وتتضح الاهداف لو نلاحظ حديثه عن المصريين، حيث قال: «ان المصريين غير جديرين بعد ان يحكموا انفسهم بأنفسهم فعليهم ان يكونوا شاكرين على تمتعهم بادارة بريطانية صالحة..»!!^(٢)

ونتيجة لارتباط هؤلاء بالافكار الغربية والاوربية فقد اخذ الاعتقاد يسري في عروقهم بضرورة الارتباط بهذه البلدان، قول (اسكندر عمون) احد القوميين والاعضاء البارزين في مؤتمر باريس يكشف عن ذلك، حيث قال: «ان الدول العظمى لا تريد بنا سوء... بل تريد صلاح امورنا».^(٣)

وللتركيز على دور فرنسا في مجال تقسيم العالم الاسلامي نذكر بأن مؤتمر

(١) الدكتور محمد مخزوم - ازمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية - الطبعة الاولى ١٩٨٦م - بيروت ص ١٠٨.

(٢) الدكتور محمد مخزوم - ازمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية - الطبعة الاولى ١٩٨٦م - بيروت ص ١٠٨.

(٣) الطائي - نجاح عطا - الفكر القومي اسلاميا وتاريخيا - ١٩٨٦م طهران - ص ٧٩.

باريس المذكور حول القومية العربية لم يكن الاول بل سبقه مؤتمر باريس عام ١٩٠٧ الذي اختص بالقومية التركية.

والجدير بالذكر ان مؤتمر باريس المختص بالقومية العربية لم يحضره سوى اربعة وعشرين شخصا فقط، اخذ هؤلاء على عاتقهم مناقشة شؤون المسلمين ومصيرهم في الوقت الذي كان معظمهم من غير المسلمين!!

هكذا اصبح المفكرون من (اليهود والمسيحيين) في طليعة التغيير، وكان طبيعيا ان يرغب هؤلاء في تأسيس دولة علمانية لا علاقة لها بالاسلام على غرار النظام السياسي الغربي لتقليص الدين، بل حذفه من الادارة والحياة.

ويحاول (غازوري) رئيس (جمعية عصبة الوطن العربي) من خلال مطالبته بفصل الدين عن الدولة الحاق العالم الاسلامي بالفكار والعقائد والقيم الغربية، ويظهر موقفه ذلك واضحا في كتابه (يقظة الامة العربية) اذ جاء فيه بيان للدول العظمى:

«تركيا على عتبة عهد جديد يتميز بالتغيير الجذري السلمي، فان العرب الذين استطاع ان يخضعوهم لحكمهم الجائر بواسطة تفرقتهم الى شيع تتناحر وتتنابذ... والذين اصبحوا الآن يعون انهم امة واحدة يوحد بينهم التاريخ والشعور والوطن ووحدة العرق يرغبون في الانفصال عن الاتراك الذين اخذ السوس ينخر في دولتهم وتأسيس دولة عربية مستقلة وستمند هذه الامبراطورية العربية الجديدة الى حدودها الطبيعية من وادي دجلة والفرات الى السويس، ومن البحر المتوسط الى بحر عمان - نلاحظ انه يبعد مصر وشمال افريقيا على اعتبار انهم فراغة - وستكون دولة ملكية دستورية حرة على رأسها سلطان عربي، اما ولاية الحجاز الحالية ومعها مقاطعة المدينة فانها ستكون امبراطورية مستقلة على

رأسها حاكم يكون في الوقت ذاته خليفة للمسلمين وبهذا التدبير تكون قد حلت المعضلة الكبرى اعني فصل الدين الاسلامي عن الدولة المدنية، ويكون في هذا الحل لجميع الفرقاء»^(١)

وبلاشك، لم تجد دعوته صداها في البلاد العربية في يسر، لان مقرها ونشاطها كان في باريس، ولأن عازوري كان داعية علنية للدول الغربية والاروروبية، ولأنه نظر للقومية نظرة علمانية بحتة، كما انه لم يربط الوحدة بالاستقلال، بل طالب بمملكتين عربيتين في آسيا احدهما في سورية والاخرى في الجزيرة مع استقلال لبنان الذاتي!

- اوروبا - العلمانية.. القومية.. التجزئة

والسؤال المطروح هو: كيف ايقنت اوروبا بقدرة الروح القومية على تقسيم العالم الاسلامي؟

والجواب ليس باليسير، فان اوروبا قد عاشت تجربة طويلة مع القومية، بدأت من الثورة الفرنسية وطيلة القرن التاسع عشر.

فبعد ان كانت اوروبا في الغالب موحدة تحت سلطة امبراطورية كبيرة تضم قوميات عديدة بفعل الدين المسيحي الجامع لهم.. انقسمت تلك الدول والقوميات عن بعضها البعض، وازدادت شقة الخلاف وظهرت بوادر العداء والبغض ضد بعض بفعل الصراع القومي الذي اوجده الزحف الفرنسي القومي لبقية القوميات الاوروبية، فأخذت كل قومية تحارب من اجل ذاتها مما ادى الى ظهور القومية الالمانية والفرنسية والانجليزية والاطالية وهكذا..

(١) الطائي - نجاح عطا - الفكر القومي اسلاميا وتاريخيا - ١٩٨٦م طهران - ص ٨٧.

وبسبب تلك الحرب القومية التي اجتاحت أوروبا واستمرت حوالي عقدين من الزمن ضعفت الروح الدينية في أوروبا خاصة وانها لم تتمكن منذ تلك الحرب من توحيد صفوفها وجمع كلمتها، بسبب اختفاء الرابطة الدينية واشتداد الروح القومية التي قال عنها فلاسفة أوروبا بأنها من سلبيات الثورة الفرنسية.

لذا ايقنت أوروبا من التجربة الطويلة التي مرت بها، فأن الرابطة الدينية هي الوحيدة القادرة على جمع قوميات عديدة تحت ظلها، وان اثاره العرقية القومية هي الكفيلة بتقسيم الامبراطورات الجامعة لعدة قوميات القائمة على اساس الدين.

لذا نجد أوروبا وبالخصوص بريطانيا وفرنسا تنقل تجربة الصراع القومي التي مروا بها الى الامبراطورية العثمانية، اذ تحمل نفس الصفات التي كانت موجودة في أوروبا من قيامها على رابطة الدين وضمها لقوميات عديدة ومختلفة.

لذا نجد أوروبا بعد تلك الحقائق التي ادركتها اخذت تمضي قدما في تثبيت القومية في العالم الاسلامي واصرت على تنفيذ برنامج ما سمي بـ(الثورة العربية). ومما يكشف عن المخطط الواسع لتقسيم العالم الاسلامي بين الدول الأوروبية، هو انه على الرغم من التنافس الموجود بين فرنسا وبريطانيا على المنطقة ومواردها، نلاحظ ان الوثائق التاريخية تكشف عن تأييد ومساعدة احدهما الآخر، فنجد مثلا فرنسا تؤيد ثورة لورنس وخطة بريطانيا في الجزيرة العربية..

ففي وثيقة رسمية صادرة عن وزارة الخارجية الفرنسية في ١٩١٦ جاء ما يلي: «ان اعلان الثورة العربية في الحجاز هو في مصلحة الحلفاء من عدة وجوه، فاما من الوجهة السياسية فان اتساع حتى تشمل شعوب فلسطين وسورية وارمينيا

الصغرى وتجريد هذه الشعوب من النير التركي يهيء لفرنسا اسباب التدخل في شؤون هذه المقاطعات كما تشغل من الناحية العسكرية الجيش التركي.

واما من الوجهة الادبية فانها تقود الجانب الاكبر من رعايانا المسلمين الى اعتبار الترك كمعتدين على الاماكن المقدسة الاسلامية فيزداد تعلقهم بفرنسا لانها تكافح الترك وحلفاءهم وتزيدهم اخلاصا لها، وبناء على هذه الاعتبارات قد يكون من المفيد العمل على تنمية الثورة العربية وصبغها بصبغة اسلامية^(١).

وهذا يلاحظ من المنشور البريطاني الذي اصدر باسم الجيش البريطاني الزاحف الى غزة، جاء فيه: «الى جميع العرب وغيرهم من الضباط والرجال في الجيش العثماني، لقد سمعنا بكل اسف انكم تحاربوننا نحن الذين نعمل من اجل صيانة الشريعة الاسلامية المقدسة من ان تبدل»!!

- دور بريطانيا في العلمانية والحركة القومية العربية:

اما بريطانيا، فقد لعبت دورا كبيرا في نشأت العلمانية وانتشار القومية العربية، ويتوضح حجم هذا الدور من خلال ما سميت (بالثورة العربية الكبرى) عام ١٩١٦م، اذ يقول لورانس موجه هذه الثورة:

«لقد كنت اؤمن بالفكرة العربية ايمانا عميقا وكنت واثقا قبل ان احضر الى الحجاز انها هي الفكرة التي تمزق تركيا شذر مذر...!!»^(٢).

وتحدث لمجموعة من رجال القلم في اواخر ١٩١٩م اثناء اثاره فضية فلسطين عالميا وتحويلها الى وطن قومي لليهود قائلا:

«اني اؤيد الصهيونية، اني اعتبر اليهود النقلة الطبيعية للخميرة العربية

(١) الطائي - نجاح عطا - الفكر القومي اسلاميا وتاريخيا - ١٩٨٦م طهران - ص ١١.
 (٢) الطائي - نجاح عطا - الفكر القومي اسلاميا وتاريخيا - ١٩٨٦م طهران - ص ٨٩.

الضرورية جدا لدول الشرق الأدنى!». (١)

ثم يقول في مكان آخر:

«لا امل بقيام وحدة عربية لا في الحاضر ولا في المستقبل!». (٢)

فحديث لورنس في عدم امكانية للوحدة العربية في ظل القومية لا الآن ولا في المستقبل، يعني تشخيصه المبكر في عدم قدرة (القومية) الظاهرة الغربية على توحيد المسلمين الذي جمعهم الاسلام قبل ذلك.


(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

المراجع:

- موسوعة السياسة - عبد الوهاب الكيالي.
- الاستعمار والصهيونية العالمية - محمد مصباح حمدان .
- العالم الاسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي - انور الجندي
- من المساعدة الى عودة الاستعمار - تيبورماند.
- مسائل الثورة في العالم الثالث الامبريالية والنموذج التركي - حكمت قفلجملي.
- الاستعمار والتبشير - عمر فروح
- غارة تبشيرية جديدة - ابو الهلال الاندونيسي
- العلمانية - محمد مهدي شمس الدين.
- الاسلام والقومية - الدكتور علي محمد تقوي
- الفكر الاسلامي الحديث - الدكتور محمد البهي
- الفكر القومي اسلاميا وتاريخيا - نجاح عطا الطائي.
- ازمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية - الدكتور محمد مخزوم.

العلمانية بين
الاصالة والتبعية

وسام الخطاوي 
قم - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله
قوله تعالى: «ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال انني
من المسلمين»^(١).

العلمانية واقع مشؤوم مرت بها دول الشرق والغرب وألفت حولها جملة
كبيرة من المؤلفات واستغرقت الطويل من حياة مفكري العالم.
والعلمانية هي الفاصل بين الشرق والغرب وهي المقوم لحضارتي البلدين
(الشرق+الغرب) ومن هذه الجنبه ازدادت اهمية الموضوع ولزم البحث في هذا
المجال الدقيق والواسع ومن ثم ما يترتب عليها من فوارق جوهرية.
وبمرور سريع لنشوء العلمانية يمكن القول: ان كل قطر من اقطار العالم له
تجربة خاصة به وتميز بظروف اجتماعية وثقافية واقتصادية ميزته عن باقي

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٣.

حضارات البلدان الاخرى.

والحضارة الغربية لها شخصيتها وحضارتها المتميزة بها وحملت حضارة خاصة بها اسست من خلالها ثقافتها ومسير رقيها وهذه الشخصية المتميزة بها هي فصل الدين عن الدولة واعتبار الدين له كيانه الخاص به ويقابله تأسيس الدولة فلها كيانها واساليبها.

ومن هذا المنطلق للغرب نراه قطع اشواطاً كبيرة في الماديات وفي مجالات الحياة فقد اتاحت الدولة لمعتقداتها العنان في ان تنطلق الى اين ما تريد وتعمل اي مشاريعها وافكارها من دون ان يحددها الدين والشريعة.

ولكن نشأة دول الشرق منذ انبثاق حضارة الوحي فيها بتمسكها بالدين وكان هو الركن المقدم لحضارتها ووضعت اسس الدولة على التشريع وان اختلفت الدول الاسلامية بتمسكها بالدين الاسلامي.

فكانت الدولتين على طرفي نقيض ابان الحضارة الاسلامية وكان هذا هو الباعث على ازدهار الامة الاسلامية ورفيها واصالتها وثراء معطياتها ونماؤها.

ولكن في مطلع القرن التاسع عشر عندما لاحت في الأفق بواعث اليقظة الفكرية في العالم الاسلامي واصبح العالم الاسلامي يتطلع اكثر الى دول الغرب وحضارته ومشاريعه ومؤسساته انتجت هذه اليقظة التبعية للحضارة الغربية وذيولها وانحطاطها الحضاري.

وهذا ما يجعل الرعيل المفكر من هذا الجيل الى ان يتبع خطى مسيرة الغرب ويقتفي اثرها تماماً مخطئين صالح بلادهم وذلك ماجر الولايات على العالم

الاسلامي جراء العلمانية التي كانت منهج الغرب في التقدم والتحضر.^(١)

تعريف العلمانية لغتاً:

العلمانية مشتقة من العلم (بفتح العين وسكون اللام) بمعنى العالم أو الدنيا. والعلماني هو خلاف الديني أو الكهنوتي.^(٢)

وبما ان العلمانية مبدأ أوجده الغرب فلا بد من الاطلاع عليها بالإنجليزية: وهي مأخوذة من: (Secularism) وجاءت بنفس المعنى اللغوي المتقدم. وهي غير العلمانية أو العلمية المشتقة من العلم والتي هي بالإنجليزية: (Soientism).^(٣)

اذن العلمانية في الانجليزية هي: «الديوية» أو «المذهب الديوي».^(٤) اما تعريفها اصطلاحاً:

فهي فصل الدين أو ابعاده عن الدولة وقيام الدولة على أسس دنيوية لادينية تتمثل هذه الأسس في العلم الوضعي والعقل ومراعاة المصلحة العامة في

(١) د. محمد محمد حسين: «الاسلام والحضارة الغربية».

(٢) مجمع اللغة العربية: «المعجم الوسيط» ج ٢.

(٣) نخبة من الاساتذة المصريين والعرب: «معجم العلوم الاجتماعية».

(٤) منير البعلبكي «قاموس المورد»، وللدكتور يوسف القرضاوي بحث في هذا المجال يستحق القراءة والتدقيق في ابراز نكات اخرى في تعريف العلمانية راجع الاسلام والعلمانية وجهاً لوجه

مختلف شئون الدولة.^(١)

اما تاريخها:

كان بداية ظهور العلمانية في اوروبا في طلوع القرن السابع عشر وتوخت في مبادئها الاولى: (فصل الدين عن الدولة) و بازدياد الوطئة الكبيرة لهذه النظرية نراها تحولت في القرن التاسع عشر الى (إبعاد الدين عن الدولة) ولكن لم يتح لهذه النظرية ان تقاوم واقعها المعاصر فبحلول القرن العشرين وبالضبط في سنة ١٩٢٩ عادت السلطة الزمنية للكنيسة الكاثوليكية، باعادة قيام دولة الفاتيكان كوحدة سياسية بعد ان ادمجت الولايات البابوية في مملكة ايطاليا منذ عام ١٨٧٠ و يتمثل هذا التغيير ايضا في السماح بقيام الاهداف السياسية المسيحية في اكثر من دولة من دول الغرب.^(٢)

وهذه النهضة الفكرية الجارفة استولت على الطبقة المثقفة الشرقية وفتحت غالب الدول الشرقية ذراعها لهذه النهضة منذ طلوع القرن التاسع عشر واستمرت

(١) استخلص هذا التعريف الاستاذ زكريا فايد: العلمانية النشأة والاثر في الشرق والغرب - ١١-١٢ عن الكتب التالية:

الف - الدكتور محمد البهي «العلمانية والاسلام بين الفكر والتطبيق».

ب - الدكتور عماد الدين اسماعيل «تهافت العلمانية».

ج - انور جندي «سقوط العلمانية».

د - جون راندال «تكوين العقل الحديث» ترجمة جورج طعمة.

هـ - الدكتور محمد عمارة: «الاسلام والعروبة والعلمانية».

و - الدكتور علي حرشه ومحمد شريف الزبيق: «اساليب الغزو الفكري للعالم الاسلامي» - ٥٩.

ز - محمد مهدي شمس الدين: «العلمانية».

ح - EncikloPIdyd of Amercana.

(٢) اللجنة الدولية بإشراف اليونسكو: تاريخ البشرية المجلد السادس الجزء ٢، ترجمة عثمان نويه وآخرين بالهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ ص ٢٩٥ وما بعدها وعنه: العلمانية النشأة والاثر في الشرق والغرب - ١٢.

تكتسح هذه النهضة الجيل الواعي حتى القرن العشرين.

وقفه مع العلمانية في الغرب

مجيء كل دين سماوي استتبع متطلبات من معتنقيه والمؤمنين به وكان هذا هو محط المشرع الاصيلي عندما يبعث رسولا ولذلك نجاح كل دين لازم مدى موفيقته لادارة المجتمع وكلما كان اعظم واقدر في ادارته المجتمع كتب له التوفيق اكثر.

وبدون استثناء كانت جميع الاديان والملل السماوية شاملة لواقعها المعاش ولكن ما كتب لها ان تداوم مسيرتها ولذلك كان يبعث الشارع برسول آخر لتكميل المسيرة الالهية.

والدين المسيحي لم يحقق له ان ينشر تعاليمه بالكيفية المطلوبة وان بقت منه بعض التعاليم العبادية التي هي ايضا لعبت بها اليد الخائنة وقضي الدين في مهده منذ اول نشئته.

واذا اخذنا جنبه المسيحية في المعاملات لوجدناها عقيمة في تلبية حاجات الامة مع تقدمها يوماً بعد آخر ولم يستطع قساوسة الدين المسيحي ان يلبوا حاجات الامة فلذلك اصبح من الطبيعي ان ترفض الدولة الغربية البشارة المسيحية وتغلق ابوابها امام هذه الديانة رغم قيام نوع من الحكم سمي بالحكم (الثيوقراطي) الذي بمقتضاه حكم الدولة رجال الدين لعدة قرون هي قرون العصور الوسطى والتي سيطر وخيم الجهل والتخلف عليها وهي من اسوء عصور اوروبا.

ولكن حكم رجال الدين لم يدم طويلا عندما تيقظ العقل الاوروبي في بداية

القرنين الخامس والسادس عشر فوقف العقل الاوروبي بكمال قدراته وطاقاته التي اسيقن بها مقابل النقل الالهي الذي لم يستطع ان يلبي حاجاته ومتطلباته. وعندما اذعن العقل الاوروبي بقوته مقابل الدين حق له ان يفصل الدين عن الدولة والمجتمع وينفرد هو بالميدان ليسن القوانين وفق معايير وذخائره لتعظيم حياة الناس الى ان قويت معطياته وشوكته فلذلك اقتحم القرن التاسع عشر مبعداً ذلك الدين عن الدولة بعد ما اثبت عجز الدين من ادارة المجتمع وبالتالي سوغ لجموع الامة ان تقصي رجال الدين عن ميادين اعمالها وشؤون حياتها. وهنا فكر العقل الاوروبي في هذا الكادر الديني المعاصر له من القساوسة ماذا يفعل بهم فلم ير الا حلا واحداً صحيحاً في الانتفاع بهم والتخلص منهم في آن واحد وهي مشروع التبشير والاستشراق فغزت الامة الاسلامية والعالم جميعاً حملات كبيرة من رجال الدين المسيحي.

اذن بداية حركة العقل الاوروبي من القرون الوسطى عصر الجمود والانغلاق ثم في القرنين الخامس عشر والسادس عشر عصر الاتكاء على قدراته وخصائصه وفي القرنين السابع والثامن عشر معاصرته للقواطع الكبيرة من المجتمع وتوليه دنيا العصر التكنولوجي بعدما فصل الدين عن المجتمع وهكذا نرى الشجة تتسع عند بداية القرن التاسع عشر فقد اقتحم العقل الاوروبي ميدان العمل واخذ يهاجم الدين بصراحة وهكذا يسير بسرعة هائلة الى ان اصطدم بالحربين العالميتين وتم القضاء عليه نسبياً في النصف الثاني من القرن العشرين فاحتاج الى معايير اخرى لتقف بجانبه في قيادة حركة البشر داخل مجتمعاتهم بعدما اقصى الدين عن حياة البشر.

كان هذا باختصار مسيرة العلمانية من القرون الوسطى حتى القرن الحالي

ولتفصيل الاوضاع في هذه القرون نورد خصائص كل قرن لاحقين ذلك باهم
الاقوال:

وسوف نرى ان روح هذه القرون تقوم في أعماقها على اهتمام متزايد
بالحياة الانسانية دون ارتباط ضروري بالعالم الثاني او الآخروي وما استتبعه من
أفول مزاج الرهبانية الانعزالية وحلول مفهوم جديد حيوي لحياة الانسان. الأمر
الذي استتبع انقلاباً على الاخلاق المسيحية حيث حلت الحرية المسؤولية
بتوجيه العقل محل الخضوع لارادة الله وأخذ البحث الفكري الجريء يحل
بالتدريج مكان الايمان.

القرن الخامس عشر والسادس عشر:

كما قلنا امتازا هذين القرنين بخصائص وضعت اساس ودعائم العلمانية فيه
وهذه المميزات هي:

١ - عودة المفكرون الى الثقافة القديمة اليونانية واللاتينية من ادب وفلسفة
ودين.

٢ - كانت هذه الثقافة تنضح في كل جانب بالوثنية خصوصاً ابواب الاخلاق
والافكار.

٣ - ظهور فكرة الدين الطبيعي والاخلاق الطبيعية والتي استغنت عما فوق
الطبيعة وجاء ذلك نتيجة كشوف كثيرة واطلق على هذا النزوع الجديد بالنزعة
الانسانية او المذهب الانساني.

٤ - من آثار النزعة والمذهب الانساني هو سلخ الفلسفة عن الدين واقامتها
كشاخص معادي للدين.

٥ - احتجاج البروتستانتية على منح رجال الدين صكوكاً لغفران الذنوب أولاً ومن ثم دعوى اصلاح في ادارة الكنيسة والعبادة ثانياً ومن ثم زعمهم أن الدين يقوم على الفكر الحر اي الفهم الخاص للكتاب المقدس وعلى التجربة الشخصية ثالثاً.

٦ - بخصوص القرن السادس عشر قد ذكر أنه من اشد القرون اضطراباً وفوضى انحلت فيه الروابط الدينية والعائلية والاجتماعية وازدادت فيه عنفاً الاتجاهات القومية ومآسي اخرى كلها بحجة سلامة الامير او الدولة.^(١)

٧ - الفكرة القائلة بوجوب احترام المعتقدات الدينية للجميع كانت غريبة الى الحد الذي يكفي لجعلها مثيراً للانتباه.

٨ - من نتائج حركة الاصلاح الديني أن اصبح الدين في اوربا مرتبطاً بالسياسة بصورة اوضح حيث استندت حركات الاصلاح الجديدة في انجلترا على الاساس القومي.

٩ - لم يكن الاصلاح البروتستانتي على ايدي «لوثر» واتباعه في حال من الاحوال حركة اخلاقية تسعى لرفع مستوى المجتمع الاخلاقي بل ان اولي نتائجها الاخلاقية بدت في تدهور اخلاقي واضح.

لأن حركة الاصلاح الديني عند «لوثر» تمثل من الناحية الدينية ثلاثة امور:
 اولاً: تبسيط مجموع العقيدة المسيحية مع التشديد على نظرية الاخلاص.
 ثانياً: التشديد الفردي على الاخلاص واعتباره علاقة مباشرة بين النفس وخالقها واعتبار الدين امراً شخصياً داخلياً عميقاً.

(١) يوسف كرم «تاريخ الفلسفة الحديثة» - ٧٦٠.

ثالثاً: ما نتج عن ذلك من اهمال لنظام الطقوس الدينية الذي عرفته كنيسة القرون الوسطى.

١٠ - ظهور فكرة «دين العقل» بين فرقة «السوشيني» التي انكرت لاهوت المسيح والتثليث وبحثت عن دين اخلاقي خالص من الاسرار اللاعقلية ومقدرة الطبيعة البشرية على ان تعيش حياة اخلاقية دون عون سماوي.^(١)

١١ - الاهتمام الواسع في عصر النهضة الاوروبية بالدراسات الانسانية كاللغة والتاريخ والشعر، وهدفها توضيح علاقة الانسان بالانسان وايجاد التفاهم المؤدي لبناء مجتمع افضل، وبذلك نقلت «ارتكاز الحضارة من الله الى الانسان» ومن رواد الحركة الانسانية في ايطاليا (دانتي في القرن الرابع عشر) وقد وضع في قصيدته الطويلة الكوميديا الالهية بعض البابوات في الجحيم وبعض الهرطقة (حسب المفهوم الكاثوليكي) في الجنة.^(٢)

كما ظهر عدد من المفكرين المتحررين الذين رأوا ان الانسان يكمل عمل الاله الخلاق عندما يستخدم عقله وازادته وان الحضارة البشرية لاتعيش الا في مناخ من الحرية السياسية فدعا (ماكيافيلي) الحكام الزميين الى ممارسة حكمهم بمعزل عن الكنيسة ورجال الدين الذين يفرضون هيمنتهم على الأمراء والملوك.^(٣)

ولا بأس بالإشارة الى اهم الآراء في تكوين العلمانية:

١ - كشاف «كولومبوس» و «فاسكوادي جاما» و «ماجلان» التي كانت

بمعزل عن المسيحية.

(١) تكوين العقل الحديث - ٤٣٨.

(٢) انظر الدين والمجتمع، ادب صعب - ٩٤.

(٣) راجع، العلمانية والدولة الدينية - ١٩.

٢ - قيام «لونبر» و «زفنجل» وغيرهما بزعة العقيدة السلفية وبانشاء الكنائس المستقلة.

٣ - وقام «هنري الثامن» بإرغام الانجليز على انكار النزعة الكاثوليكية.

٤ - وفي مجال الفلسفة السياسية هاجم «ميكيافيلي» الكنيسة بسبب أسلوب الحياة غير الفاضل الذي يحياه كثير من قساوستها الامر الذي زعزع الثقة الشعبية في الدين.

٥ - انتقاد «أرازموس» الذي يُعد أعظم شخصيات الحركة الانسانية على الرغم من هجماته المريرة على وضاعة المؤسسات الكنيسية فانه لم يعلن تأييده الصريح لحركة الاصلاح الديني فقد كان يؤمن برأي لها وهو القائل بان الانسان يتصل بالله اتصالا مباشرا وانه لاداعي للاهوت ولكنه رغم ذلك قد اعلن في النهاية تأييده للكاثوليكية.^(١)

٦ - وفي انجلترا ظهر «السير توماس مور» وقد ابان في كتابه «البوتوبيا» عن اهمية النظرة التحررية الجديدة الى مسألة التسامح الديني.

٧ - ونجد هذه الروح الجديدة في أقوال احد مفكري هذه الفترة وهو «كوزيمو مديتش» حينما خاطب الله تعالى قائلاً: «انت تتبع الاشياء اللامتناهية وانا اتبع المتناهية انت تضع سلمك في السماء وانا اضعه على الارض حتى لا اعلو كثيرا او اسقط الى قعر ساق».^(٢)

وكل هؤلاء لا قوا مصائب كبيرة في ابداء نظرياتهم خصوصا محاكمات التفتيش التي قد اصدرت امرا باحراق «برونو» لانكاره الوحي وغيره.

(١) بتراندرسل: حكمة الغرب - ج ٢ - ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ص ١٧.

(٢) تكوين العقل الحديث - ٢١٣.

القرن السابع عشر والثامن عشر:

السمة الغالبة على القرن السابع عشر: هي استمرار المعاهد الدينية على تراث العصر الوسيط بينما اشتدت من حولها الحركية العلمية الفكرية التي بدأت في عصر النهضة فظهر رجال يعملون على تنمية العلم الجديد وآخرون يستحدثون مذاهب فلسفية كانت الاصول التي نسج عليها الفكر الحديث.^(١)

لكن السمة الغالبة على القرن الثامن عشر: فهي التحليل والنقد تحليل المعرفة ونقد العقل والدين والنظم الاجتماعية والسياسية.^(٢)

اما تفصيل السمات لكلا القرنين فهي:

١ - كان من أغراض النزعة التجريبية الانجليزية تفسير المعرفة الانسانية والسلوك الانساني بطرائق لا تحتاج الى ضمان لاهوتي.

٢ - ركز «بيكون» و «هوبز» على تفرغ كل مضمون فلسفي نظري مما قد يكون فيه من لاهوت طبيعي.

٣ - سعى «لوك» الى اختزال الاله الى مجرد اعتقاد نظري في وجوده دون أية معرفة برهانية او تضمينات اخلاقية.^(٣)

٤ - تفاقم ازمة الشك لدى كثير من العقول نتيجة للاحقاق الواضح الذي منيت به جميع محاولات التغلب على مذهب الشك كما ان التقدم النسبي للكشوف العلمية لم يوفر للناس ملجأ امينا في مذهب الشك وذلك لاثارتها شكوكا خاصة حول الله والانسان والكون المحسوس اذ اصبح هذا الكون

(١) راجع: الاستاذ زكريا فايد: العلمانية النشأة والاثر - ٢٤.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة - ١٥٣.

(٣) الله في الفلسفة الحديثة - ١٣٢.

الموصوف بحدود كمية ميكانيكية خاليا تماما من القصد الالهي.^(١)

٥ - عند «هوبز» ان الايمان بالدين على المستوى الشخصي لايقوم على ادراك أية حقائق بل أنه خوف الفرد من القوة المجهولة المتوعدة التي ينطوي عليها الكون، اما على المستوى الاجتماعي فالدين فرع من فروع السياسة وسلاح في يد السلطان في حكمه للمواطنين، وعلى هذا فينبغي عنده ان تكون المسائل المتعلقة بالعقيدة والعبادة وتفسير الكتاب المقدس في يد الحاكم له ان يقول فيها الكلمة النهائية وهكذا ينتهي الى ان الدين ليس الا تبريرا لغايات الدولة والاشخاص.^(٢)

٦ - كانت حركة التنوير في القرن الثامن عشر نتيجة للصراعات الدينية الدموية غير الحاسمة التي شهدتها القرنان السابقان وكانت مرتبطة ايضا بانتشار المعرفة العلمية، فعلى حين كان الناس في الماضي يسلمون بأمر كثير ارتكانا الى سلطة ارسطو الكنسية اصبح الاتجاه الجديد هو الاقتداء بأراء العلماء، فعصر التنوير في جوهره عودة الى تقدير النشاط العقلي المستقل عن الدين.^(٣)

٧ - في هذه الفترة تكاثرت على الدين السهام من كل جانب فقد رفض «التيار الانساني» المفهوم التقليدي في انحطاط الطبيعة البشرية وعجزها وتشدد حركة النهضة في قيمة الانسان الخلقية والفكرية كما دعا «العلم» الى روح ترمي الى اخضاع جميع الاعتقادات والعادات لمقاييس العقل والمنفعة في هذه الحياة

(١) الله في الفلسفة الحديثة - ١٣٢.

(٢) حكمة الغرب - ١٤٣.

(٣) حكمة الغرب - ١٤٣.

ونقد التقليد الديني نقداً عنيفاً.^(١)

٨ - انفصل في هذه الفترة «القرنين» كل معنى ديني عن الحكومة التي أصبحت واسطة لغاية اجتماعية خالصة لتنظيم المصالح الدنيوية وان المجتمع يمكن ان يقوم على اساس عقلي دون الاستعانة بالله وان علم الاخلاق مستقل عن اية اسس دينية او الهية وان العلم والعقل هما المعيار الحقيقي للدين والانسان والمجتمع والحكومة.

وهكذا وصل الغرب الى اخلاق عقلية طرحوا من الاخلاق المسيحية كل ما كان غير عقلي وابقوا على العناصر المقبولة عقلاً فيها.^(٢)
ونشهد في هذين القرنين بعض المفكرين الذين يؤيدون فكرة فصل الدين عن الدولة منهم:

١ - «فرانسيس بيكون» فقد انكر صريحاً الدين وان فرض مكانته حينما رفض أي قضية فكرية ليس لها أساس تجريبي ووصى في التعليم بالفصل بين العلوم الطبيعية والعلوم الدينية حيث قال: ان معرفة الله واحكامه تكون من خلال الايمان ومعرفة الطبيعة تكون من خلال العقل.

٢ - «هوبز» الذي كان مهتماً بالاساس التجريبي للمنهج العلمي مع جانب اهتماماته الأخرى الأخلاقية والسياسية والفلسفية وقال ان العقل الانساني لا يستطيع ان يصدر احكاماً ذات أساس استدلالي تتعلق بطبيعة الاله، وان الصفات التي نخلعها على الاله ليست الا اسماء تعبّر عن عجزنا بمعرفته وعن رغبتنا في وصفه بعبارات تمجيدية من شأنها ارضاء قوة مجهولة وهكذا رد

(١) تكوين العقل الحديث - ٤٣٦.

(٢) تكوين العقل الحديث - ٤٤١.

«هوبز» اللاهوت الديني الى العاطفة.^(١)

٣ - ونادى «جون لوك» بالفصل بين الدولة والكنيسة لان هدف الدولة هي الحياة الدنيوية وهدف الكنيسة الحياة السماوية ولما كان المجتمع المدني قائما على مصالح الكثير فليس للدولة ان تراعي العقيدة الدينية في التشريع ولا محل للقول بدولة دينية ويجب على الدولة ان تجيز جميع انواع العبادة وتدع الكنيسة تحكم نفسها بنفسها فيما يتعلق بالعقيدة والعبادة ووفقا للقوانين العامة.^(٢)

٤ - اتفق «باركلي» مع النزعة البروتستانتية التي كانت تقصر الدين على مجرد العلاقة الوجدانية بين الله والانسان والتي بمقتضاها يكفيك هذا الشعور المتدفق بوجود الله وعبادته لكي تكون مؤمنا ومتدينا بصرف النظر عما اذا كان هذا الشعور واجبا عليك السلوك بمقتضاه في الحياة الدنيا بمقتضى اوامر ونواهي وشرائع هذا الدين.

٥ - سعى «بيربيل» ان يقدم اخلاقا علمانية مستقلة عن الدين وعن مذهب الالهية النظرى.^(٣)

٦ - رأى «مونتسكيو» أهمية الفصل بين الاخلاق المسيحية والاخلاق الوضعية مركزا على النزعة القومية وعلى القوانين الوضعية كتشريع للبلاد.^(٤)

٧ - تحدث «جان جاك روسو» عن دين مدني للمجتمع وانكر على المسيحية لفصلها ما هو روعي عما هو سياسي.^(٥)

(١) الله في الفلسفة الحديثة - ١٣١.

(٢) الله في الفلسفة الحديثة - ١٨١.

(٣) الله في الفلسفة الحديثة - ١٨١.

(٤) تاريخ الفلسفة الحديثة - ١٩٤.

(٥) تاريخ الفلسفة الحديثة - ٢٠٤.

٨ - قول: «يدرو» بعدم جدوى المذاهب الدينية والميتافيزيقية ولهذا فقد وجب عنده تنحية الاله من ميدان البحث العلمي.^(١)

اذن التأمّل في تاريخ الغرب الفكري والتعمق فيه يكشفان لنا ان هذه النظرة العلمانية التي ظهرت بوضوح وجلاء في القرن السابع عشر الميلادي ماهي الا مرحلة عالية من نظرة عامة للحياة متأصلة وعميقة الجذور في نفس الانسان الغربي منذ بدايات وعيه بذاته اي منذ بداية الحضارة اليونانية كما هو واضح لمن تتبع الفن اليوناني المختلط بالاساطير والعقائد اليونانية واستمرت نظرة الصراع هذه في العصور الحديثة حيث نجد «البيركامى» في اسطورته «سيزيف» يبين عبث الاله بالانسان وتعذيبه وتمرد هذا الانسان وسخطه على كل قوى فوقانية واستسلامه اخيراً لقدر الاله.^(٢)

القرن التاسع عشر:

ويعتبر هذا القرن اهم القرون سواء السابقة او اللاحقة التي سوف تأتي فان اهم الاوضاع السياسية والاقتصادية كانت فيه.

واهمية هذا القرن جاءت نتيجة العلمانية المتطرفة فيه وتوضيح ذلك ان العلمانية مرت بمرحلتين في مراحل سيرها:

المرحلة الاولى: مرحلة العلمانية المعتدلة وهي مرحلة القرنين السابع عشر والثامن عشر فقد نشأ المذهب المعروف بأسم (Deism) وهو يعترف بوجود الله كاصل للعالم ولكنه ينكر: الاعجاز، الوحي، وتدخل الله في العالم ومن اتباع

(١) الله في الفلسفة الحديثة - ٢١٣.

(٢) العلمانية النشأة والاثر - ٦١ - ٧٠.

هذا المذهب:

١ - Voltaire (فولتر) في فرنسا.

٢ - Sbaftosbuty (شفتسبرى) في إنجلترا.

٣ - Lessing (ليسنج) في ألمانيا.

٤ - الفيلسوف الانجليزي (لوك) Loke.^(١)

المرحلة الثانية: مرحلة العلمانية المتطرفة وهي مرحلة القرن التاسع عشر وقد بلغت قممها في التطرف في التفكير المادي التاريخي.^(٢)

وهذه المحاولة المتطرفة نشأت منذ الحرب العالمية الثانية، تحاول ان تفرض علينا الغاء الدين عقيدة، بعد ان طمست معالمه عملاً في اوضاع المسلمين... تحاول ان تصل بنا الى ما يسمى «الالحاد العلمي» وهو مرحلة من مراحل العلمانية كي نصل عن طريقه الى مجتمع طبقي.^(٣)

ولهذا نشاهد اهمية هذا القرن ولا بد ان تدرس جميع نوايا رواد النهضة الاسلامية لانه بادنى تسامح سوف يجز الويلات على شعوبنا المسلمة التي تسير خلف كل ثائر من دون النظر الى نواياه.

ولا بأس بالاشارة الى اهم مفكري هذا القرن والذين كانت عندهم نزعات

علمانية:

١ - ما ذهب اليه «هيجل» هو ان تصور الله جاء نتيجة استجابة حاجة الناس

(١) راجع: الاسلام في حل مشاكل المجتمعات الاسلامية المعاصرة «مشكلة العلمانية» - ١٩.

(٢) المصدر السابق - ١٨.

(٣) المصدر السابق - ٩.

الى السيطرة على القوى الطبيعية في عصر لم يعرف التكنولوجيا.^(١)
ونادى بسيطرة الدولة على الكنيسة، باعتبار ان هذا يضمن الطابع القومي لتنظيم الكنيسة، وقد وقف موقف المعارضة من كنيسة روما الكاثوليكية بوصفه بورتستانيا.^(٢)

٢ - وكذلك ما ذهب اليه «فشته» الى المناداة بنظام خلقي يكون فيه الانسان رب نفسه وان ابدى قبوله المشروط لله اذا كان وجوده سيحقق هذا النظام الخلقي للانسان.^(٣)

٣ - دعا «فويرباخ» الى دين انساني يخلو من الله ويركز فيه الانسان على العلاقات الشخصية المتبادلة بين الناس.^(٤)

٤ - اما «نيثشه» فهو الناقل الى عصرنا نتائج التيارات الالحادية في القرن التاسع عشر في صورة ادبية مؤثرة وكان يرى في العقائد الدينية مجرد ادوات يستعين بها العبيد في اخلاقهم وان الانسان الحر يجب ان يعترف بان «الرب قد مات» ومن ثم يجب الا يتجه سعي الانسان الى هذا الرب بل الى نوع اعلى من الانسان.^(٥)

٥ - ذهب «سان سيمون» الى ضرورة اعادة تنظيم المجتمع المتدهور بسلطة قوامها العلم لا الكنيسة.^(٦)

(١) الله في الفلسفة الحديثة - ٢٨٨.

(٢) حكمة الغرب - ١٧٨.

(٣) حكمة الغرب - ١٧٠.

(٤) الله في الفلسفة الحديثة - ٣٣٤.

(٥) تاريخ الفلسفة الحديثة - ٤٠٥.

(٦) تاريخ الفلسفة الحديثة - ٣١٤.

٦ - وذهب «اميل ليتري» الى ان الدين كان المرحلة الاولى من مراحل العنق
لوان هذه المرحلة انقضت ولا ينبغي ان يكون لها رجعة.^(١)

٧ - عارض «بنتام» سلطة الكنيسة في الدولة وعرف عنه العدوانية الشديدة
في انكاره للدين.^(٢)

ونستخلص انه في القرن التاسع عشر فقد استمر الاتجاه نحو النزعة الانسانية
العلمانية وكان أبرزهم (اوغست كونت) الذي قال ان المرحلة اللاهوتية في حياة
البشر تمثل المرحلة البدائية المعتمدة على الخيال وتفسير ظواهر الطبيعة لكائن
فوق الطبيعة.

والمرحلة الثانية هي منهج التفكير الميتافيزيقي اي ما وراء الطبيعة، ويعتمد
على المفاهيم المجردة والمطلقة بينما النهج الوضعي هو المعبر عن المرحلة
الثالثة التي تعتمد اسلوب البحث العلمي.

وهناك (فيورباخ) الالمانى الذي أثر على ماركس في نظره السلبية الى الدين
وكان ملحداً ويقول: «ان محور الدين ليس الله بل الانسان... وان الدين من ابتكار
الانسان ونحن لانجد شيئاً كهذا عند الحيوانات... والصفات المميزة للطبيعة
الانسانية هي العقل والارادة والمحبة، هذه الصفات في كمالها هي المطلق اي
الحقيقة القصوى وما الله سوى وهم خلقه الانسان لنفسه عندما سلط طبيعته على
العالم الخارجى.^(٣)

وعندما أتى (ماركس) اعتبر فيورباخ لوثر الثاني من حيث تحرير الناس من

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة - ٣٧٠.

(٢) الله في الفلسفة الحديثة - ٤٠١.

(٣) انظر الدين والمجتمع - ٩٤.

الوهم ولكنه اعطى للجانب المادي والاقتصادي تفسيره للدين فقال. «الطبقة الشعبية المسحوقة ابتكرت الله والسماء والحياة الثانية، كمحاولة خلاص من وضعها المتخلف وقد عززت الطبقات المستغلة والحاكمة هذا الاعتماد لحماية مصالحها»^(١).

القرن العشرين:

والواقع ان هذا القرن له ارتباط وثيق بالقرن السابق وهناك تداخل كبير بين القرنين فان معظم الحوادث المهمة التاريخية نشأت في القرن التاسع عشر واعطت ثمارها في القرن العشرين ويعتبر القرن العشرين مرحلة تحول كبيرة في حياة البشرية:

وفيما يلي نستعرض بعض الخصائص ليتمكن الاحاطة بها لمعرفة هذا القرن:

١- في بدايات ظهور هذا القرن رأوا تعرض المفكرين الامريكيين انه ما من شيء واقعي يمكن ان يتجاوز عالم الحوادث الحسية وقوانينه وان الواقعية لايمكن ان تقرر الا الموضوعات التي يمكن ان نتحقق من صدقها بالمنهج العلمي وبالتالي فان الحقيقة الوحيدة هي عالمنا المتناهي كما ذهبوا ايضا الى انه لاوجود لشيء فوق الطبيعة وان الله والخلود اسطورتان باعتبار انه لا توجد بينه واقعية لأله متعال ولروح لامادية في الانسان.^(٢)

٢- واستمر الخط الالحادي في كتابات (سيغمو ندفرويد) وبعض فلاسفة الوجودية، مثل جان بول سارتر الذي قال: «ان الانسان يقرر جوهره عن طريق

(١) المصدر السابق - ١١١.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة - ٤١٠.

اختياراته وافعاله... وان الوجود بين يأسفون لعدم وجود الله لانه لو وجد لكن اساساً للقيم.

وهناك البيركامو الذي «يعجب من المؤمنين بالله كيف ان إلههم يسمح بالعذاب ولا سيما عذاب الاطفال»^(١).

وعلى كل حال لقد اقتضى تطبيق العلمانية وامتدادها لشتى الميادين زمنياً طويلاً من الصراع فالكنيسية لم تعلن موافقتها على مبدأ التفريق بين السلطتين الدينية والمدنية واستقلالهما إلا في عام ١٨٨٥ حيث اعترفت بتمييز المجتمع الديني عن المجتمع الزماني.^(٢)

ولا بأس بالإشارة الى بعض المفكرين العلمانيين لنحيط ببعض جزئيات المسألة:

١- أكد «جون ديوى» على الخطر المزدوج الذي يمثله الله بالنسبة للطبيعة وللمنهج، بالنسبة للطبيعة من حيث ان الاقرار بكائن متعال يستتبع الحط من قيمة كل ماهو متناه وعرضي ومتغير، وهدم موضوع العلم الحديث، وخطورته على المنهج تتمثل في ان الاعتقاد بوجود اله خارج عن الطبيعة من شأنه ان يزدري العالم المتناهي وهو أمر يعوق البحث العلمي ويخلق مبرراً للإنسان في هروبه من مسؤولياته في مجال التحكم الايجابي في الطبيعة والمجتمع.

٣- في عام ١٩٢٤ أعلن البابا بيوس الحادي عشر في رسالته «قبوله بفصل الدين عن الدولة الذي اعتمده فرنسا انما لايزال وفيما لموقف بيوس العاشر وادانته للعلمانية (المعادية لله والدين) وانه لن يتصافح مع القوانين المسماة

(١) انظر الدين والمجتمع - ١١٤.

(٢) راجع: العلمانية والدولة الدينية - ٢٢.

علمانية.^(١)

٣ - وبعد حوالي عشرين عاماً تزول بعض التحفظات فيصدر كرادلة واساقفة فرنسا اعلانهم الشهير الذي دعوا فيه ابناء رعاياهم الى التسليم بوجود علمانية الدولة المتفقة كل الاتفاق مع عقيدة الكنيسة ونص الاعلان يوضح مفهوم الكنيسة للعلمانية.^(٢)

وهو استقلالية الدولة المطلقة في النظام الزمني في ادارة التنظيم السياسي والفضائي والاداري والضرائبي والعسكري وكل ما يتعلق بالسياسة والاقتصاد بالاضافة الى اعتبار أي سلطة دينية للسيطرة مخالفة لتعاليم الكنيسة.

وبعد ثلاثة عشر عاماً ينبري الكرادلة أنفسهم للدفاع عن الصيغة العلمانية لفرنسا ضد بعض رجال الدين المستمرين على تعصبهم.^(٣)

وبعد هذا العرض التاريخي يتبين قلق الانسان الغربي العميق من اي سلطة علوية ورغبته الدفينة في ابعادها وهناك اسباب اخرى لظهور العلمانية ارتكبتها رجال الدين المسيحي وليس الدين المسيحي نفسه منها:

- ١ - الحجر على العقول وتكبييل كل ابداع فكري وكل كشف علمي.
- ٢ - الحجر على القلوب المتمثل في صكوك الغفران، وقرارات الحرمان، ومحاكم التفتيش والسجون.
- ٣ - تحالف الكنيسة مع الظالمين للشعب.
- ٤ - تحريف المسيحية.

(١) راجع: العروبة والعلمانية جوزيف مفيزل - ١٢٠.

(٢) المصدر السابق - ١٢٠-١٢١.

(٣) المصدر السابق - ١٢٢.

٥ - اضطهاد الاقليات الطائفية المتمثل في حروب الكاثوليك والبروتستانت والمتمثل ايضا في اضطهاد اليهود من قبل الدولة الاوروبية ككل، ومن يقظة الحركة اليهودية، وذلك لان ابعاد الدين عن المجتمع الغربي يعني ابعاد المسيحية، وقيام الدولة على مفهوم القومية، هذا يعني السماح لكل الاديان بالعيش في وطن واحد، وهذا يعني مشروعية للوجود اليهودي، لهذا فقد زكى اليهود وساعدوا كل حركات البعد عن «دينية الدولة» أو «الطابع الديني للدولة».

ولكل هذه الاسباب وقع الاصطدام بين الكنيسة من جهة ورجال العلم ورجال الحرية من جهة اخرى، وكان الاصطدام قويا بنفس درجة قوة تسلط الكنيسة على المجتمع الغربي في القرون الوسطى.^(١)

وبعد هذه اللوحة التاريخية عن نشأة العلمانية وواقعها في اوروبا انتقل الى اعطاء فكرة موجزة عن نشأتها في الوطن العربي وواقعها الراهن على صعيدي الانظمة والمنظمات الشعبية ومن خلال ذلك كله نستطيع ان نتلمس نوعيتها ومفاهيمها المتعددة ثم نستعرض آراء مؤيديها ومعارضيه باختصار في اطار من الحوار العلمي الهادي.

انتقال العلمانية الى الحضارة الاسلامية:

كان من اللازم على الشرق بكل انفاسه الدينية ان يفتح على الغرب وحضارته ومابناه من صرح كبير بتهر عقول العالم ولا بد على الشرق ان لا يكون بمعزل عن حركة الغرب المادية وما اسداه للعالم من تطور في حياتهم.

(١) أساليب الغزو الفكري للعالم الاسلامي - ٣٧، وراجع ايضا العلمانية النشأة والاثر - ٧١.

لكن رغم كل ذلك لابد ان يعرف الشرق تلك الجرائم التي سوف تدخل في الانفتاح على هذه الحضارة وما استجره من الويلات على مجدها الكبير. فلا بد من وجود معايير في نقل حضارة الغرب الى الشرق والى مجد المسلمين بوجه اخص وان سوغ العقل النقل بين الحضارات. فلا بد من وجود معايير لنقل فكر وحضارة الغرب الى العالم الاسلامي ولولاها لم يصح ذلك وهي:

١ - لابد في حضارة النقل رؤية تشابه واختلاف الظروف الثقافية والحضارية، بشكل عام بين المنقول منه والمنقول اليه.

٢ - مدى تشابه او اختلاف ملامح الشخصية العامة للامة بين البعدين السالفين.

٣ - مدى اتساق او عدم اتساق هذا الفكر المنقول مع شخصية الامة المنقول اليها ومع ظروفها العديدة السالفة الذكر.

٤ - وقبل هؤلاء جميعاً مدى صحة هذا الفكر في حد ذاته.^(١)

ولو حاولنا ان نطبق هذا المعيار على المفهوم الذي نتناوله بالبحث - وهو مفهوم العلمانية - فسوف نخرج من خلال تطبيق هذا المعيار بالتالي:
الف - لم تعرف البلاد الاسلامية الحكومة الثيوقراطية (او الحكومة الدينية) تلك الحكومة التي تدعي الحديث باسم السماء والتي تدعي ان مفاتيح السماء حكر على الحكام ورجال الدين والتي توجب الطاعة المطلقة العمياء على المؤمنين بها.

(١) راجع: زكريا فايد: العلمانية النشأة والاثار في الشرق والغرب - ٧٦.

ب - الخطأ الذي وقع فيه رجال الدين في أوروبا والذي ساعد على قيام العلمانية وهو الحجر على العقول والوقوف ضد كل ابداع فكري وعلمي هذا السبب لم يكن موجوداً في البلاد الاسلامية ابان حضارتها وبعد خفوقها.

ج - وعن السبب الثالث الذي ساهم في ثورة الغربيين على الدين ورجاله وهو الحجر على القلوب الذي اقامه رجال الدين هؤلاء ضد عامة الناس هذا السبب ليس له وجود يذكر في التاريخ الاسلامي.

التيارات الفكرية للحركة العلمانية:

وبأجمال نذكر بداية نشأة تطور العلمانية التاريخي فقد سارت في اتجاهيين.

١ - الاتجاه التنويري العلماني الخالص.

٢ - اتجاه حركة الاصلاح الديني، الموفقة بين التراث الاسلامي (الاصالة)

وبين النزعة التنويرية (المعاصرة).

وانصار الاتجاه الأول كانوا موجودين بشكل اساسي في سوريا ولبنان اما

انصار الاتجاه الثاني فكانوا في مصر بشكل اساسي.

هذا عن القرن التاسع عشر الميلادي، اما في القرن العشرين فقد زادت النزعة

التنويرية من انصار حركة الاصلاح الديني وصارت أميل للعلمانية وان كان هذا

لم يمنع من صحوات دينية في مصر كرد فعل لاشتداد وتطرف انصار النزعة

العلمانية هذا عن الشام ومصر اما عن بقية الدول الاخرى فان تركيا وايران بدأتا

خطوات في اصلاح جيشيهما على النمط الغربي ثم تقدمتا رويدا وبخطوات

وثيدة نحو علمانية كاملة في تركيا وعلمانية محففة في ايران (بعد ان سمح بوجود

الدين ومؤسسته ولكن في حالة فصله عن الدولة).

وبالنسبة للدول العربية الاخرى فقد تولدت حركة تنويرية في العراق في اواخر القرن التاسع عشر ولكنها لم تؤد الى حركة اجتماعية جادة. اما البلاد العربية الاخرى فلم يبد العمل التنويري بها الا في القرن العشرين.^(١)

وعى علماء الدين في مواجهة الفكر العلماني:

العلمانية في صراعها مع الاسلام كانت مخطئة في مبانيها العلمية والعقلية وهي لم تعرف الصرح الاسلامي وتصورت ان التجربة التي عاشتها في الغرب سوف تتكرر في المد الاسلامي الكبير وسوف تستطيع ان تعمل اسسها مرة اخرى.

فخلطت بين قواعد منهجية في الاسلام وبالتالي لم تستطع ان تضع منهجية مبرمجة لمشاريعها وما توخته من اساليب لغزو الامة الاسلامية.

فقد خلطت بين الدين والاسس الاسلامية وبين الدين المسيحي او بين الدين المسيحي المحرّف وبين الدين المسيحي الصحيح.

ولكن مع كل ذلك فقد جرّت العلمانية الويلات الى ابناء الاسلام ولا زالت مخالبتها في بدن الاسلام وبين آونة واخرى نرى تحركاتها لمواجهة الثقافة الاسلامية.

وقد اشار الى هذه المؤامرة المدبرة الكاتب المسلم اليقظ الاستاذ فهمي هويدي في مقالاته التي تنشر في «الاهرام» وفي عدد من الصحف القريبة في الاردن والخليج.. وتبه على ان هناك «تنظيمات متطرفة» للعلمانيين ينبغي ان تدان

(١) يراجع: الاسلام قوة الغد العالمية، والفكر الاجتماعي السياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر.

كما دنت تنظيمات دينية متطرفة مثل التكفير والهجرة وقال: «ان الفرق بين الاثنين هو ان الاولين «الدينيين» شباب مندفع، سلك طريقة على سبيل الخطأ وان الاخرين شيوخ مجربون - بعضهم محترفون - اتخذوا مواقعهم عمدا ومع سبق الاصرار والترصد.

قال: وليس في الامر مبالغة، فنحن نستطيع ان نرصده - خلال العامين الآخريين على سبيل المثال - فريقا من هؤلاء فزيع جهده، ونذر نفسه للنيل من الشريعة وتسفيه التجربة الاسلامية وتحقير التاريخ الاسلامي ورمزه»^(١).

هكذا ربي العلمانية كادراً عرف من اين يأخذ بانفاس الامة الاسلامية حتى في اصغر المسائل فهذا الدكتور فؤاد زكريا يكتب مقالاً تحت عنوان «المسألة الدينية في مصر المعاصرة» فنراه حتى في عنوانه لهذا المقال يتوخى تزريق معظم المفاهيم للاطاحة بصرح الاسلام.

فيعبر بـ«المسألة الدينية» ليوحي للقاريء ان الدين مسألة من مسائل الحياة التي تشغل الناس فترة من الزمن وكذلك يسميها بالمسألة الدينية وليست الاسلامية. حرصاً منه على ابعاد كلمة الاسلام عن قاموس العلمانية واستخدم كلمة «الدين» وذلك لتثبيت المعنى الدخيل المستورد وهو التفريق الجازم بين ما هو دين وما ليس بدين.

بالاضافة الى خطورة عنوانه زعم ان كل ما هو الهي، ينقلب بشريا صرفا بمجرد تفسيره وتطبيقه ومعنى هذا انه لافائدة ولامبرر ان ينزل الله للناس كتابا او يلزمهم بشريعة يبعث بها رسولا.^(٢)

(١) راجع: الاسلام والعلمانية وجهاً لوجه - ١٠، عن جريدة الالهرام ١٩٨٦/٩/٢ م.

(٢) راجع الدكتور يوسف القرضاوي: الاسلام والعلمانية وجهاً لوجه - ٧-٨.

هكذا يغالط الدكتور في نظرياته العلمانية ولا يعرف ان معظم اشكالات العلمانية كانت مناشئها غربية كانت ترد على الدين المسيحي.

ولتوضيح مغالطته نذكر بعض الملاحظات:

فان القانون الالهي كيف ينقلب بشري بمجرد تطبيقه وتفسيره؟

فان مرحلة التفسير والتطبيق ماهي الا بمثابة تفسير وشرح لمتن نازل فلا يمكن

ان ننسب متن ما الى شراحه ومفسريه.

مضافاً ان نزول الكتب والشريعة معناه صيانة القانون من النزعات البشرية

والاهواء الشخصية.

وان سلم ان التفسير والشرح يضيفي على الشريعة الاسلامية طابعا بشريا لكن

لو كان المتن إلهياً سوف يضيفي على القانون المفسر صبغة الهية وان كانت ضئيلة

وناقصة وبتكامل الذهنية البشرية سوف يستوحي شراح الشريعة ذلك النفس

الالهي وتلك المتون الاصلية.

على ان المتون الالهية كانت تتوخي مخاطبة العقل البشري باختلافاته

وراعت في خطابها ان يفهم البشر ويفسرون ما ورد عليهم من الشرع وكان هذا

نوع ارتباط بين المتن الالهي والشرح البشري اعطى الشارع المقدس نوع شرعية

لشارع ومفسر النص.

ولم تقف المشكلة عند هذا الحد وانما برزت مشكلة اخرى وهي:

لو كان الاسلام ليس هو التاريخ ولا الواقع التطبيقي بل هو الاسلام المثالي

كما تصوره النصوص الشرعية فشرح وتفسير البشر سوف يحصل لنا صورة عن

الاسلام غير معينة المفاهيم والحدود.

فصورته عند التقليديين المحافظين غير صورته عند المجددين المجتهدين

غير صورته عند فصائل الصحوة الاسلامية المعاصرة التي هي بدورها ليست تيارا واحدا ابتداءً من الاخوان المسلمين الى جماعة التكفير والهجرة فاي صورة للاسلام تمثل الاسلام الصحيح؟

وعز على العلمانيين ان يقصدوا التيار الواعي المعتدل الملتزم الذي يمثله الجمهور الاكبر للصحوة وللحكرة الاسلامية المجيدة وهو المعبر عنه بـ «تيار الوسطية الاسلامية»^(١).

وايجاد هذا التيار الموجود معالمه في الاواسط الاسلامية بحاجة الى تهيئة المناخ العلمي مستفيدين من معالم الاسلام والثروة الفقهية الكبيرة والمعارف الحققة الالهية على تعداد مدارسهم ومشارب علماء الاسلام.

وعبر هذا الوعي في النخبة الاسلامية انتهز بعض العلمانيين فرصة الترجمة الخاطئة لكلمة العلمانية وجعلوها مرادفة لـ «العلمية» ليدلوا على ان استعمال العلمانية هو في العلم والعقل وبالتالي ليلصقوا بالاسلام ضدته العقلية والعلمية. وهذه مغالطة اخرى منيت بها لاسدال الستار على معتقداتها وقيمها غاضين النظر عن كثرة النصوص الالهية على استعمال العقل والعلم كما هو واضح في صريح جملة كبيرة من الايات القرآنية الشريفة.

«افلم يسيروا في الارض، فتكون لهم قلوب يعقلون بها»- الحج -٤٦.

«هل عندكم من سلطان بهذا، ام تقولون على الله ما لاتعلمون»

- يونس ٦٨.

ونأتي بشاهد في هذا المجال اذا لم يقنعوا باقوالنا فهذا الكاتب الماركسي

(١) وانظر ايضا: الاسلام والعلمانية وجها لوجه - ٣٤-٣٥.

«مسكيم رودنسون» - يقول في حديثه عن «العقيدة القرآنية»: القرآن كتاب مقدس، تحتل فيه العقلانية مكاناً جداً كبيراً، فالله لا ينفك فيه يناقش ويقيم البراهين، بل ان اكثر ما يلفت النظر هو ان الوحي نفسه - هذه الظاهرة الاقل اتساما بالعقلانية في أي دين، الرحي الذي انزله الله على مختلف الرسل عبر العصور ، وعلى خاتمهم محمد - يعتبره القرآن هو نفسه اداة للبرهان، فهو في مناسبات عديدة، يكرر لنا ان الرسل قد جاءوا «بالبينات» وهو لا يألوا يتحدى معارضيه، أن يأتيوا بمثله»^(١).

ومرة اخرى يورد العلمانيون على الطليعة الواعية الاسلامية ان مصدر قوتكم هو انكم نشأتم في بلد اسلامي يطلب جمهوره ان تطبق الشريعة وبهذا اتخذتم حجة لصالحكم.

ولكن هذه الشبهة هي احدى اتهاماتهم على الدعاة في تطبيق الشريعة الغراء فان الدعاة الى تطبيق الشريعة لا يستدلون على صحة اتجاهاهم بكثرة من يناصرهم. وهنا يقول الدكتور يوسف القرضاوي:

«وفي رأيي ان اتساع القاعدة الجماهيرية، التي تنادي بمبدأ معين، لا يمكن ان يكون مقياساً لنجاح هذا المبدأ الا في حالة واحدة فقط ماهي التي يكون فيها وعي هذه الجماهير ناضجاً كل النضج»^(٢).

(١) راجع «الاسلام والرأسمالية» - ٣٤ ترجمة نزيه الحكيم.

(٢) راجع: الاسلام والعلمانية وجهاً لوجه - ٨٩.

شبهات أخرى:

ويتوسل العلمانيون بشبهة اخرى مفادها:

عدم صلاحية الشريعة الاسلامية لكل زمان ومكان فهي عند قادة على مواكبة مستجدات الحياة يوماً بعد يوم رغم ما يحصل من القفزات المادية في جميع الحقول العلمية، فالمجتهد مهما بلغ غير قادر على ملأ الفراغ في كل آن فان مدارك الاحكام معينة ومشخصة وليس لنا مصدر شرعي نستلهم منه المستجدات. ويوضع لنا الدكتور فؤاد زكريا ذلك الامر فقال:

«أن الإنسان جوهره التغير، فلا تصلح له شريعة جوهرها الثبات»^(١)

وتلك مغالطة مني بها الدكتور فان نصوص الشريعة الاسلامية جاءت لتشمل ثلة عصرها من المؤمنين وتشمل الاجيال الانية فان حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة يدل على ان كل جيل يستقي من الشريعة وتكون الشريعة عون له في مستجدات حياته.

مضافاً ان فتح باب الشريعة والاجتهاد على المجتهدين هو الذي يحرز لنا قسم كبير من الاحكام الجديدة فان باتساع افق ذهن الفقيه يستطيع ان يواكب الزمن ويشهد له قول آل البيت (ع) علينا آفاء الاصول وعليكم بالتفريع فهناك اصول يمكن الفرع اليها عند المهمات.


ويمكن اجابة اخرى على هذه المغالطة بالرجوع الى اقوال النبي (ص) حيث قال: اليوم اكملت لكم دينكم - على لسان القرآن الكريم - فدل كلامه (ص)، على ان جميع الدين قد كمل وجميع الشرائع قد جاء بها وبمقدمة اخرى نعرف انه

(١) راجع: الاسلام والعلمانية وجهاً لوجه - ١٤٦.

خاتم الانبياء ولانبي من بعده فالنتيجة ان جميع المستجدات لها اجابة صحيحة وموجودة في شريعته ولو كانت شريعته ناقصة لزم على المولى ان يبعث رسولا لهداية عباده وبما انه (ص)، خاتم الرسل فتحوي شريعته على جميع المستجدات لكن - كما اسلفنا - بحاجة الى كادر علمائي متفتح يستطيع ان يواكب النهضة الفكرية.

هذه بعض شبهاتهم تاركين الباقي الى وقت اكثر انشاء الله تعالى.

العلمانية
رؤية نقدية

عبدالرزاق هادي الصالحي 
قم - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

لقد وصف المؤرخون والباحثون الاوروبيون الفترة الزمنية - بين نهاية القرن الخامس ونهاية القرن العاشر للميلاد - اسم «العصور المظلمة» في حين ان نفس هذه الفترة تمثل عصور النور والازدهار في العالم الاسلامي مشرقه ومغربه، فاذا كان قد انطفأت شعلة الحضارة القديمة بسقوط الامبراطورية الرومانية في غرب اوروبا حيث اندفعت عناصر البرابرة من الجرمان وغيرهم الى داخل اراضي العالم الروماني تدمر وتخرب ففي ذلك الوقت بالذات ظهر الاسلام في اوائل القرن السابع للميلاد ليقترن مولده وانتشاره بأعظم حضارة عرفها العالم اجمع طوال العصور الوسطى^(١) ومعجزته الخالدة هي القرآن الكريم واول آياته هي (اقرأ) فأنشأ أمة قادت الانسانية الى كل ماهو خير وكونت دولة واسعة امتدت من حدود

(١) د. سعيد عبد الفتاح عاشور ورققأؤه، دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية العربية، طبع الكويت، ص ٩-١٠.

الصين شرقاً الى حدود فرنسا غرباً في اقل من قرن من الزمان، وانما تم ذلك بالاسلام اولاً، وبالعلم ثانياً، بالاسلام خلقاً وقيماً وعقيدة وامانة وصدقاً ووفاءً وتوحيداً، فكل هذه القيم جعلت من الامة الاسلامية امة غالبية قوية اشاعت حضارة الاسلام في كل ارجاء المعمورة فكانت امور العلم والتعلم ميسرة الى ابعد الحدود.

كل هذا اشاع الحضارة الاسلامية والمبادئ الاسلامية والخلق الاسلامية في العالم الاسلامي المتسع حتى ان احد المستشرقين قال يصف ذلك:

«كل من اراد ان يطلب العلم من حدود الصين شرقاً الى ساحل العاج في غرب افريقيا يجد مكاناً يتعلم فيه، ومعلماً يعلمه وراتباً يتقاضاه»^(١) وقد ضرب علماء الاسلام مثلاً رائعاً في الامانة العلمية ونسبة الكتب والحقائق والافكار الى اصحابها، مما مكن الاوروبي من الوقوف على بعض كتب ارسطو التي ضاعت اصولها اليونانية والتي تم التعرف عليها من خلال التراجم العربية المنسوبة الى صاحبها»^(٢).

اماً بالنسبة لأهل الذمة فكانت نظرة الاسلام والدولة الاسلامية وفقاً لنظرة كلها تسامح فأعطوا حقوقهم كاملة غير منقوصة ولهم ان يؤدوا شعائهم وطقوسهم وفقاً لدياناتهم دون ضغط او اكراه، فنعموا في كنف الدولة الاسلامية، يسهمون في بناء الحضارة الاسلامية جنباً الى جنب مع المسلمين. في الوقت الذي كان القتل والقتال قائم على قدم وساق بين المذاهب المسيحية، وكان

(١) عبد الملك عبد الرحيم، قضايا وآراء، دار العلوم السعودية / ص ٢٤٨-٢٤٩ يتصرف.

(٢) دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية م.س / ص ٢١.

اليهود يتعرضون الى الاضطهاد والطرده في غرب اوربا.^(١)

ولا غرابة في معاملة الدولة الاسلامية لأهل الذمة وإحترام العلماء وإشاعة العلم والعمران، فمحور الحضارة الاسلامية هو الانسان وسعادته والذي منحه الله سبحانه مهمة الخلافة الالهية في الارض واعمارها، قال تعالى: (واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة...).^(٢)

فلقد سادت امتنا العالم يوم كانت تحت راية الاسلام، ثم كان لعوامل عديدة عملت فيها فحبت جذوة العقيدة فيها ثم تداعت عليها الامم تقسمها او صالاً وتغرس فيها مبادئها ومفاهيمها، وقد تصدى علماء الاسلام الى الهجمات التي قام بها انسان الغرب الى عالمنا الاسلامي، فكانت معارك التحرير بقيادتهم، وكان استقلال بلدان العالم الاسلامي بتضحياتهم وعطائهم الفذ بما حملوا من روح الاسلام.

وان العلمانية احد مظاهر ذلك التداعي وأبرز أوجه الغزو الثقافي والفكري لعالمنا الاسلامي، فكان من نتائج العملية التغييرية التي قادتها النخبة العلمانية بأنها حطمت التكوينات والبنى السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية التقليدية في مجتمعاتها وحطمت معها كل التوازنات الاجتماعية والروحية والمادية القائمة دون ان تستطيع صياغة معايير جديدة مكانها تكتسب ولاء الجماعة وشرعيتها واجماعها، مما اوصلنا الى ما نحن فيه من التناقضات الاجتماعية المتفجرة والضياح الروحي المخيف والازمة الحضارية المفتوحة التي من مظاهرها تدهور المناخ الفكري وتراجع الحوار العقلي البناء بين التيارات الفكرية المختلفة، وبرز

(١) دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية م.س / ص ١٨-١٩ بتصرف.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

الظواهر الطائفية والعشائرية والمذهبية والعرقية وانحطاط الممارسة السياسية بشقيها الرسمي والشعبي الى نوع من الارهاب المتبادل وتحلل علاقات السلطة واحلال الفوضى واليأس والقنوط مكان الكلام عن التقدم والتحرر والتنمية...^(١) فتلك بإيجاز شديد ما حصده الامة منذ سقوط الدولة العثمانية والى يومنا هذا.

وقد تضمن هذا الموضوع جملة من المباحث تناولنا فيها العلمانية من حيث هي مفهوم، واسباب ظهورها وانتشارها في اوربا وبعد ذلك العوامل التي ساعدت على نفوذها الى الوسط الاسلامي وطرائق انتشارها فيه، ومن ثم آثارها في الواقع التطبيقي في العالم الاسلامي، واشكالات العلمانيين واثاراتهم حول الاسلام والفكر الاسلامي، نسأله تعالى ان تكون مساهمتنا هذه ذات اثر في ردد ثقافة الصحوة الاسلامية، وهو ولي التوفيق.

العلمانية ، المفهوم والدلالة:

ان تحديد معنى ودلالة اللفظ والمصطلح في اي خطاب او بحث امر ضروري ومهم لإبعاد حالات اللبس والغموض الناشئة عن تباين الفهم ولا يتم ذلك الا بالرجوع الى جذور ذلك اللفظ والمصطلح والوقوف على مضمونه ودلالته في بيئة استعماله الاولى.

والعلمانية من المصطلحات الكثيرة الواردة والدخيلة على لغتنا وعالمنا، وهي مصطلح غربي لفظاً ودلالةً، غير ان استعماله شاع واتسع انتشاره في مختلف

(١) د. محمد كامل ظاهر، الصراع بين التيارين الديني والعلماني، طبع لبنان، ص ٤٤٤ (وهي انتقادات وجهها خصوم العلمانية كما يقول الكاتب).

الايواساط في العالم الاسلامي، وربما يعود تاريخ استعماله وتداوله في الادبيات السياسية والاجتماعية الى قبل سقوط الدولة العثمانية، وتقسيم العالم الاسلامي وتبعيته للاستكبار الاوروبي، فكان بذلك دويلات واقطار. وقد حملته لنا اقلام دعاة التغريب^(١) والفكر القومي،^(٢) ممن بهرتهم مدنية الرجل الابيض وتأثروا بفكره وحياته وعملوا جاهدين الى نشر آراءه وافكاره في الوسط الاسلامي من اجل توسيع الهوية بين الامة وعقيدتها وفكرها.

ان مصطلح (العلمانية) هو نسبة - غير قياسية - الى العلم، بمعنى العالم، والعلماني هو الذي يتبناها فردا كان او جماعة او مجتمعا.^(٣)

وفي المعجم الوسيط (العلماني: نسبة الى العلم بمعنى العالم وهو خلاف الديني، الكهنوتي).^(٤)

يعود اصل كلمة العلمانية الى اللغة اللاتينية، فهناك عبارة **Secularism** المستقاة من الكلمة اللاتينية **Saeculum** والتي تعني لغويا الجيل من الناس والتي اتخذت بعد ذلك معنى خاصا في اللاتينية الكنسية، يشير الى العالم الزمني في تمييزه عن العالم الروحي، وقد اعتمدت هذه العبارة في البلدان البروتستانتية عموما، اما في البلدان الكاثوليكية، فقد استخدمت عبارة اللاتينية **Laicite** المشتقة من العبارتين اليونانيتين **Laos** أي الناس، و **Laikos** أي عامة الناس

(١) يراجع؛ سلامه موسى، اليوم والغد (القاهرة: المطبعة المصرية ١٩٢٧، ص ١٢.

(٢) ساطع الحصري، الاعمال القومية لساطع الحصري، سلسلة التراث القومي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ١٣٩٠-١٣٩١).

(٣) د. محمد عمارة، الدولة الاسلامية العلمانية والسلطة الدينية، دار الشروق، بيروت ١٩٨٨، ص ١٦٨.

(٤) المعجم الوسيط، ص ٦٢٤ (العلماني).

في تمييزهم عن الاكليروس.^(١)

وعليه فان دعوى من يذهب الى ان العلمانية من العلم غير صحيحة، وانها دعوى هادفة وبقصد التضليل فتلك جذور اللفظ في لغته تشير الى عامة الناس مقابل رجال الكيروس او رجال الكنيسة تميّزاً لهم وبالتالي فهي تمييز بين سلطة روحية وسلطة زمنية، وهذه تفرقة مسيحية لاجود لها في الاسلام، و أساسها وجود سلطة الكنيسة وسلطة مدنية هي سلطة الولاة والامراء.

والعلمانيون يحكّمون بوجه عام العقل ويراعون المصلحة العامة دون تقييد بنصوص او طقوس دينية، ولذا كانوا في خلاف مع الكنيسة ورجال الدين.^(٢)

وان واقع التجربة الاوروبية يعد مظهراً لذلك، كما ان دعاة العلمانية والفكر القومي في العالم الاسلامي مظهراً آخراً للدعوة لفصل الدين عن الدولة والسياسة وانتهاج رؤى الآخر في الدولة والحياة الاجتماعية.

فالعلمانية اذن جاءت وليدة لصراع طويل بين السلطتين الدينية والدينيوية في اوروبا - وفقاً لاصطلاح العلمانيين - واستهدفت فك الارتباط بينهما واعتماد فكرة الفصل بين الدين والدولة.

نشأة العلمانية

احتد الصراع في القرون الوسطى بين الكنيسة ورجالها من جهة وبين القوى

(١) د. عزيز العظمة، العلمانية من منظور مختلف، ص ١٨، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٢.

(٢) معجم العلوم الاجتماعية، وضع مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٧٥، مادة (علماني)، و د. محمد البهي، العلمانية والاسلام، ص ٨.

الزمنية الممثلة بالامراء، والملوك من جهة ثانية، فأسفر هذا الصراع عن ظهور العلمانية وكانت وليدة هذا الصراع الذي امتد حقب زمنية طويلة، وقد اخذت عدة مفاهيم واهداف حسب طبيعة ذلك الصراع وظروفه، كما عبرت عن الانتصار على الكنيسة ورجال الدين المسيحيين، ومن الامثلة المشهورة على طغيان رجال الدين ان هنري الرابع ملك المانيا، اراد ان يستقل بتعيين الاساقفة، فاختلف مع البابا غريغور بورس السابع عام ١٠٧٥ حول هذه المسألة مما دفع البابا الى اصدار الحرمان الديني عليه فقاطعه شعبه، واضطر الى الحضور الى البابا خاشعا راكعا وطالبا منه العفو والغاء الحرمان، وحين ترد اشارة الى المسيحية او المسيحيين انما يقصد بهما الواقع للتجربة المنحرفة وليس المقصود بهما المسيحية التي جاء بها عيسى (ع) ولا المسيحيين الذين التزموا نهجه وخطه وساروا وفقا لهما.

«فالشرائع كلها مستمدة من مصدر واحد وتفسير شامل للكون بما فيه الانسان وانما تختلف فيما بينها باعتبار السعة والضييق وتحديد زمن الشريعة».^(١)

ومن هنا كان اعتراض القرآن الكريم على اهل الكتاب حين دعاهم الى كلمة سواء وان لا يعبدوا الا حبار والرهبان من دون الله الواحد.

(اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله).^(٢)

فكانت ممارسات رجال الدين والعامّة تبعاً لهم بعيدة عن تعاليم المسيح (ع). وقد كرّس رجال الكنيسة قاعدة ومبدأ هام في علاقاتهم فيما سواهم من فئات المجتمع، المبدأ هو «السلطة للقساوسة والطاعة للعامّة» ومن جملة تلك الرموز التي يجب الاطاعة بها والانقياد لسلطة الكنيسة المسائل العلمية و «كل رأي

(١) احمد زكي تفاعلة، الاسلام والحكم - ص ٢١.

(٢) سورة التوبة ٣١.

لم يصدر عن ذلك المصدر - الديني - اي الكنيسة - فهو باطل تجب مقاومته بكل ما استطاع»^(١).

ولذا أعدم غاليلو لانه ذهب الى ان حركة الكواكب هي وفقا لنظام معلوم لا كما تدعي الكنيسة، وقد كان التعليم محصور في الاديرة، ومنعت الكنيسة ان ينشر العلم بين العامة إلا ما كان دعوة الى الصلاح وتقرير الايمان على وجه ظاهر، وبقي غير القسيسين في جهالة حتى بأمر الدين وحقائقه واسراره.^(٢)

فالعبادة كما يصورها الانجيل ايمان وصلاة فحسب وهي الطقوس التي تؤدي يوم الاحد في الكنائس، فهذه الظواهر وغيرها أدت الى الفصام النكد بين الناس عامة والكنيسة، فلا غرو ان تنتشر او تنشأ في مثل هذه الظروف افكار او رؤى تدعو الى الفصل بين الدين والسياسة، وتتمظهر في فكرة العلمانية او الوجودية او الماركسية او سواها من الافكار التي جرت الويل والحروب على الانسان منذ أمد طويل، ويمكن ان نجمل مجموعة من العوامل التي ادت الى ظهور العلمانية:

أولاً: موقف الكنيسة من العلم

ان العامل الأول والأهم في ما حصل من قطيعة بين المجتمع الاوروبي وسلطة الكنيسة يعزى الى موقفها من العلم والعلماء حيث نشأ نزاع حاد ومير من خلال سلسلة الاضطهادات التي ابتلي بها رجال العلم بدوافع دينية سوّغت لها

(١) الشيخ محمد عبده، الاسلام والنصرانية - ص ٤٥.

(٢) الشيخ محمد عبده، الاسلام والنصرانية - ص ٣٣.

الكنيسة مسبقاً^(١) لتمير ما قامت به فيما بعد من تصفيات للعلماء و «ذلك ان كل مصادر الاناجيل حتى سير الرسل لم تتطرق الى ناحية الدعوة الى العلم والتفكير، انما حصرت في المسائل المتعلقة بالسيد المسيح (ع) ولم تهتم بالتشريعات الحياتية التي يمكن لقواعدها ان تصطدم بمفاهيم جديدة يتم اكتشافها، ولكن الجهل والاستمرار على المعارف القديمة اوقع الكنيسة في صراع مع العلم والعلماء ولعل السبب في ذلك يعود لخوف الكنيسة من مزاحمة العلماء لها، خاصة ان ظهورهم على الساحة قد يشكل موجة تثير الانظار، وتستقطب الناس وخاصة العامة منهم فتحرك الفكر النائم، فرفضوا أباطيل رجال الدين المسوغة لهم باسم الدين»^(٢).

ووفقاً لموقف الكنيسة من العلم والعلماء وضعت معظم الكتب العلمية والفكرية والتي ترى انها ضد توجهاتها في قائمة الممنوعات من التداول والبيع الخ...، وفي هذا الاتجاه ومثل ما أحرقت الكنيسة (غاليلو) لانه قال بثبوت الارض كمركز للكون.^(٣) فقد امرت بسجن (هارفي) لبرهنته «ان الدم يجري في الجسم» وضرب العالم (برنبلي) بالعصا لانه قال «ان النجوم لاتقع»^(٤).

الى غير هذا مما حفل به تاريخ الكنيسة من المآسي التي عانى منها كثير من العلماء، فكان اضطهادهم العامل الاول للقيام بالثورات ضد رجال الدين.^(٥) فبهذه الصورة الشوهاء التي حملها رجال الكنيسة وكذا كانت مواقفهم من

(١) انعام احمد قدوح، العلمانية في الاسلام، بيروت، ص ٢٨.

(٢) علي لاغا، مدخل الى العلوم السياسية - ص ١٣٩.

(٣) الاسلام والنصرانية، م.س - ص ٤٤.

(٤) مدخل الى العلوم السياسية، م.س - ص ٣٩.

(٥) قصة الاضطهاد الديني بين المسيحية والاسلام - ص ٤١.

العلماء، حرق، وسجن، وضرب، وتشريد مما لب الرأى العام ضدهم كما فسح المجال لظهور فكرة فصل الدين عن الدولة ورواج فكرة العلمانية في اوروب المسيحية.

وقابل هذا الموقف المتعنت من قبل الكنيسة اهتمام واسع في عصر النهضة الاوروبية بالدراسات الانسانية كاللغة والتاريخ والشعر، وكانت تلك الدراسات تهدف الى توضيح علاقة الانسان بالانسان وايجاد التفاهم المؤدي لبناء مجتمع أفضل، وبذلك نقلت «ارتكاز الحضارة من الله الى الانسان». ومن رواد هذه الحركة في ايطاليا دانتى في القرن الرابع عشر. وقد وضع قصيدته الطويلة (الكوميديا الالهية) ساخرا فيها من رجال الكنيسة حيث صور بعض الباباوات في النار وبعض الهراطقة حسب المفهوم الكاثوليكي في الجنة.^(١)

كما رافق ذلك ظهور عدد من المفكرين الذين رأوا ان الانسان يكمل عمل الاله الخلاق عندما يستخدم عقله و ارادته، وان الحضارة البشرية لاتعيش الا في مناخ من الحرية السياسية فدعا (ميكافيلي) الحكام الزمانيين الى ممارسة حكمهم بمعزل عن الكنيسة ورجال الدين الذين كانوا يفرضون هيمنتهم على ميادين حياة الانسان المختلفة، ونصبوا من انفسهم الوساطة بين (الرب) وخلقته فتلك التصرفات هي «التي جعلت الانسان الاوروبي يتخذ موقف العداء تجاه الدين ورجاله».^(٢)

وانتقلت هذه الصورة الشوهاء الى العالم الاسلامي نتيجة لعوامل كثيرة كما مهدت لظهور مفهوم العلمانية في بداية التاريخ الحديث للغرب وتبعاله في عالمنا

(١) اديب صعب، الدين والمجتمع - ص ٩٤.

(٢) العلمانية في الاسلام، م.س - ص ٢٩.

الاسلامي.

ثانياً: موقف الكنيسة من السلطة

لقد تأسس وفقاً لرؤية الكنيسة فكرة فصل الدين عن الدولة حيث اعترفت الكنيسة بوجود سلطة الله، وسلطة قيصر، وقد طغى سلطانها على جميع ميادين الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية في أوروبا بشكل خاص وفي جميع العالم المسيحي بوجه عام فكانت الكنيسة طيلة فترة العصور الوسطى المسيحية بصورة مباشرة وغير مباشرة، تكاد تكون صاحبة السلطان المطلق على كل شيء، فلها - بما هي مؤسسة دينية - سلطان مطلق على روح الفرد وعقله، من حيث انها تمثل سلطان الله على الارض.

فبذلك تكون لها سلطة على المجتمع ومؤسسته السياسية المتمثلة في الدولة والامارات الاقطاعية.^(١)

وكانت تمارس سلطتها على الفرد بشكل مباشر في حين ان سلطتها على المجتمع والمؤسسة السياسية تمارسها تارة بصورة مباشرة عن طريق الاراضي والاقطاعات الكبيرة التابعة للكرسي البابوي كما تمارس سلطتها بصورة غير مباشرة عن طريق السلطة السياسية.

وكان للكنيسة في حقل المجتمع ومؤسسته السياسية تأثير كبير في اضافة صفة الشرعية على ممثلي السلطة السياسية كما كانت تمارس تدخلا مباشرا في كثير من الحالات في عملية التشريع القانوني للفرد والمجتمع والسلطة السياسية،

(١) العلمانية - الشيخ محمد مهدي شمس الدين - طبع بيروت، ١٩٨٠، ص ١٣٥.

وكانت السلطة السياسية - متمثلة بالاسر الحاكمة - تستمد بقاءها من صلتها بالكنيسة، ولايبالي الشعب بتصرفات الحاكم بعد ذلك «لانهم مقدسون بالصلة النسبية»^(١) التي تمنحها لهم الكنيسة ورجالاتها، ومما يعزز نفوذ وتأثير الكنيسة حتى بعد الثورة الفرنسية وما تتمتع به من سلطات عظيمة الاهمية الدور الذي لعبته الكنيسة والذي اضطرت وبقاله الجمعية التأسيسية الفرنسية الى طلب موافقة البابا على الدستور المدني ليكون شرعيا وساري المفعول في نظر الفرنسيين، وذلك في اول آب ١٧٩٠، ولكن البابا بيوس السادس حكم بالشجب رسميا على الدستور المدني في ١١ آذار و ١٣ نيسان ١٧٩١، مما أدى الى انشقاق في صفوف الاكليروس، ومن ثم الانشقاق في صفوف الامة الفرنسية، وكانت الثورة الاهلية التي قامت فيما بعد تتضمن معنى دينيا بالاضافة الى مضمونها السياسي»^(٢).

وهذا يعكس لنا النفوذ المطلق في العصور الوسطى وعصر النهضة والتي سبقت الثورة الفرنسية بآمد بعيدة. غير ان هذا النفوذ يأخذ بالضمور شيئا فشيئا لعوامل كثيرة وظهور افكار متعددة ادت الى شل حركة الكنيسة وفقدانها تأثيرها السابق في الدولة والمجتمع، فقد تنامت فكرة القومية والدعوة لها، وتحالفت قواها السياسية مع رجال المال، والتجارة والطامحين الى حرية الحركة من خلال انشاء دولة مركزية قوية ذات سلطان مطلق على جميع الارض وجميع السكان ومن ثم الغاء نظام الاقطاع بصيغته السياسية والاقتصادية، فكانت تحالفات رجال الاكليروس مع السلطة الزمنية عاملا مهما في احداث شرح كبير بين المجتمع المسيحي والكنيسة وبالتالي الى حدوث قطيعة فكرية وسياسية معها مما عزز

(١) برتراندراسل، حكمة الغرب، سلسلة عالم المعرفة، ج ٢ ص ٣ العدد ٧٢.

(٢) شمس الدين، العلمانية، م. ص ١٣٦.

التوجه الفكري لرجال القومية وطرح فكرة العلمانية بديلاً لسلطة الكنيسة ومفاهيمها عن الإنسان والكون والمجتمع.

ثالثاً: الكنيسة وتعاليم المسيح (ع)

إن ما أدخله رجال الكنيسة من إضافات أو تحريف في تعاليم المسيح (ع) يعد بحق العامل الأول والمهم بما خلفه من أثر بالغ في تفكير المجتمع الأوروبي وموقفه تجاه الكنيسة ورجالها والذي كان من نتائجه ظهور المذاهب والعقائد البشرية وبالتالي فقدان الكنيسة تأثيرها ودورها في الحياة العامة، مما فتح الطريق للأفكار الأخرى لتأخذ طريقها إلى المجتمع دون ممانعة نفسية أو عقلية بل أصبحت فيما بعد هي المرجعية الفكرية للمجتمع الأوروبي عامة.

فقد أدخلت الوثنية والشرك وابتدع فكرة صكوك الغفران كوسيلة ناجحة إتخذتها لجمع الأموال والثروة على حساب تعاليم المسيح (ع) وما جاء به من قيم نبيلة للارتفاع والسمو بالإنسان نحو الحق سبحانه وكان من أكثر الذين تركوا بصماتهم على تلك التحريفات (قسطنطين الثاني) الذي أعلن نفسه وصياً على الكنيسة وكانت ولادته عام ٣١٥م وقد نازعه على الحكم أخوه قسطنطين الأول. فقتله.^(١)

وان قسطنطين هذا ممن ساهم في إدخال الوثنية والشرك وكان ممن لا يحفل بالدين فقد قضى حياته في الظلم والفجور ولم يتقيد بأوامر النصرانية.^(٢) فان ذلك كلّه أسهم في خلق العداوة وتنامية ضد الكنيسة وفتح الباب على مصراعيه لقبول

(١) العلمانية في الإسلام، م.س ص ٣١.

(٢) أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ / ص ١٦٧ بتصرف.

فكرة العلمانية وغيرها.

رابعاً: الكنيسة والاضطهاد الديني

كان اضطهاد الاقليات الدينية مظهراً للصراع طويل ونزاع مريع بين الكنيسة الكاثوليكية والتي كانت اكثر اتباعاً ومركزية من البروتستانتية والتي لم تكن عقيدة جامعة لكل مسيحيي اوروبا، الامر الذي أدى إلى نشوب حرب اشتعلت في كافة المناطق التي يكثر فيها التواجد الكاثوليكي والبروتستانتية لتشكّل فيما بعد عاملاً هاماً للمناداة بفصل الدين عن الحياة السياسية، وتعزز هذا الفصل بالدور الذي لعبه اليهود والذين كانوا يمثلون أقلية في الاقطار الاوروبية فسعوا اولاً الى تأييد العلماء المضطهدين من قبل الكنيسة، ومن ثم جاء التآلف مع البروتستانت - أقلية ايضا - ضد العدو المشترك الكاثوليك، ونتيجة لذلك سعى اليهود الى محاربة المد المسيحي وفصله عن الحالة السياسية من خلال المناذاة التي لقيت الترحاب من قبل مختلف الفئات وممثلي السلطة للتخلص من سلطة الكنيسة بشعار «اسمحوا لكل الاديان ان تعيش في وطن واحد، وبهذا يعطون اليهود الصفة الشرعية لوجودهم»^(١) مع تقليص نفوذ الكنيسة وابعادها عن التدخل في الشؤون الاجتماعية والسياسية.

ففي قيام دولة دينية ضرب لمصالح اليهود ومشروعهم في السيطرة على العالم، فقد جاء في بروتوكولات حكماء صهيون ما يعزز هذا التوجه لدى اليهود «... وقد بدأت ثمار جهودنا تؤتي اكلها اذا اخذ ذلك النفوذ الديني العظيم على

(١) فؤاد زكريا، العلمانية النشأة والاثرة، طبع بيروت / ص ٣٥.

الناس يتضاءل رويداً رويداً، وحلت حرية الضمير في كل مكان»^(١). فكان لكل هذه القضايا دور بارز في تصوير الكنيسة كعائق أمام التقدم العلمي والتطور الاجتماعي يصعب على الانسان الاوروبي بلوغها دون تحطيم هذا العائق وكسره للتخلص من نفوذ وسيطرة الكنيسة والتحرر من سلطانها واخيراً حجزت وكتلت الكنيسة في الأديرة فليس لها سوى القيام بمراسم الزواج ودفن الموتى والرهبنة ولينطلق الانسان الاوروبي بفكره قاطعاً صلته بالسماء، مخططاً ومنظماً لحياته السياسية والاجتماعية والثقافية مبتدعاً مذاهب وعقائد منحج حياته وفقاً لها وليس للكنيسة ورجالها من دور يذكر في كل ذلك، وهكذا حلت مشكلة الصراع بين الدولة والكنيسة وجعلت سلطة الكنيسة في دائرة خاصة وجعلت سلطة الدولة شاملة لكل ما يتعلق بشؤون المجتمع السياسي، وهكذا ولدت العلمانية في مواجهة الكنيسة، فعدت سمة الدولة في أوروبا.^(٢)

العلمانية ، والعالم الاسلامي

لقد ساهمت جملة من العوامل والاحداث الى تبني فكرة العلمانية في العالم الاسلامي في الفترة قبل وبعد سقوط الدولة العثمانية، وقد تبنتها كثير من الدول الاسلامية وسعت جادة في تطبيقها وابعاد المبادئ الاسلامية عن الحياة السياسية والحياة الاجتماعية ومن ثم تبني برامج لعلمنة التربية والتعليم والقانون ومحاولة اشاعة مفاهيمها في الاطار الاوسع من المجتمع الاسلامي ليشمل قيمه واخلاقيته التي استتأ على وفق التصور الاسلامي للحياة، ويمكن ان نجمل تلك

(١) ترجمة، محمد خليفة التونسي، بروتوكولات حكماء صهيون، بروتوكول ٣ / ص ٢١١.

(٢) شمس الدين، العلمانية، م / ص ١٥١.

العوامل والاحداث تحت عنوانين رئيسيين هما:

اولا - عوامل خارجية:

وهي ما يتعلق بالغزو الثقافي والفكري الذي عبر عن عداة سافر بين الغرب والاسلام بتحريك ودفوع يهودي يضم الى الشعور بالنقص الذي يختزنه انسان الغرب اتجاه الاسلام وتاريخه المشرق منذ الحروب الصليبية والى يومنا هذا... ونجد اشارات كثيرة وصريحة حول نجاح انسان الغرب في النفوذ الى الساحة الاسلامية مؤثراً في اتجاهات مختلفة تمهيداً لقبول وتبني الفكر الغربي بتوجهاته المتعددة، فالمستشرق (هاملتون جب) يقول في كتابه (وجهة الاسلام):

«لقد استطاع نشاطنا التعليمي والثقافي عن طريق المدارس العصرية والصحافة، ان يترك في المسلمين - ولو يوضح من غير وعي منهم - اثرا يجعلهم في مظهرهم لادنيين الى حد بعيد».^(١)

وهكذا حتى يصير المسلم داعياً الى الغرب متحمساً لمثله وعاداته اكثر من تحسسه لاخلاقه الاسلامية، وقد لاحظ ذلك المستشرق (موروييرجر) بقوله:

«اما الآن فقد قبلت التأثيرات الغربية في الشرق الادنى الى درجة تجعل من الصعب التحقق من امرء آقد ذهب او لم يذهب الى اوروبا مثلاً، فقد اصبح العرب متغربين بدون ان يتكلفوا عبأ الذهاب الى اوروبا».^(٢)

وربما تكشف هذه النصوص وسواها الى مدى المام هؤلاء الغربيين بتاريخنا واسلامنا فكانت نفوذيتهم وتأثيرهم في الواقع الاسلامي، ونشر افكارهم الهدامة

(١) ابراهيم نعمة، المسلمون امام تحديات الغزو الفكري، طبع العراق، ١٤٠٦هـ / ص ٥٥.

(٢) د. محمد علي جريشه، ومحمد شريف الزبيق، اساليب الغزو الفكري، ط ١٦، ١٣٩٧هـ، ص ٩٥.

بين ابناء الامة.

فهذا الفيلسوف (جيبون) يقول:

«القرآن مسلم به من حدود الاقيانوس إلى نهر الغانك بأنه الدستور الاساس ليس لاصول الدين فحسب، بل للاحكام الجنائية والمدنية والشرائع التي عليها مدار حياة نظام المجتمع الانساني وترتيب شؤونه»^(١).

وهذا هاملتون جب نفسه الذي سبق أن أشرنا في نص سابق له يوضح به طرق تأثيرهم في أبناء الامة الاسلامية يقول:

«ليس الاسلام ديناً بالمعنى الخالي - اي ليس كالمسيحية - بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على اساس ديني، ويشمل كل مظاهر الحياة الانسانية لأن ظروفه في اول الامر ادت الى ربط السياسة بالدين، وقد أكدت هذه النزعة الاصلية، ما تلا ذلك من صوغ القانون الاسلامي والنظام الاجتماعي. والحق ان الاسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات: انه اعظم من ذلك بكثير، فهو مدينة كاملة»^(٢).

ويقول الاستاذ (ريتشارد هارتمان):

«قلما تجد بين الاديان الكثيرة ديناً ينفذ الى حياة معتنقيه كلها فردية كانت أم جماعية مثل الاسلام، ذلك انه جمع السلطة الدينية في شكل الدولة السياسي، ووقى خطر التفرقة بين امور الدين وامور الدولة»^(٣). وواضح انه يشير الى المأزق الذي اكتنف الكنيسة في الغرب ونجم عنه فصل الدين عن الدولة «فما لله لله وما

(١) اساليب الغزو الفكري، م.س / ص ٩٦.

(٢) انور الجندي، الاسلام والدعوات الهدامة، طبع بيروت - ص ٢٩٠-٢٩١.

(٣) انور الجندي، سقوط العلمانية، طبع بيروت - ص ١٩٥.

لقيصر لقيصر».

ثانياً - عوامل داخلية؛

وهي ما تختص بالظروف الموضوعية المتعلقة بالعالم الاسلامي وسقوط الدولة العثمانية وتجزئة العالم الاسلامي من جهة، ومنها ما يتعلق بالوعي بمبادئ الرسالة الاسلامية وما حمله التاريخ من زيف في واقع التجربة الاسلامية وإبتعاد الخلفاء والسلاطين عن تحكيم الاسلام والتوجه الى حياة الترف واللهو ولم يكن للاسلام في حياتهم دور سوى الاحتماء بغطاءه ولبس عباءته لاضفاء الشرعية على سلطاناتهم وكياناتهم التي شوهدت التاريخ الاسلامي ومبادئ الرسالة السمحاء، ثم كانت الدراسات الاستشراقية والبعثات العلمية الى بلدان اوربا والغرب، فتعلم المسلمون لدراسة تاريخهم على اساتذة اما يهودا او مسيحيين يحملون مختلف التوجهات الفكرية المعادية للاسلام والمسلمين، كل هذه الامور وسواها كان لها الدور في انتقال فكرة العلمانية وغيرها من المذاهب والعقائد كالوجودية والشيوعية والافكار القومية الى بلدان العالم الاسلامي، وظهور فكرة فصل الدين عن السياسة والدولة والتعامل مع الاسلام كتراث انساني اسهم يوم ما في بناء وتشيد حضارة الامة وساهم في الحضارة الانسانية ايضا، وليس له اليوم ان يؤدي ذات الدور في بناء الامة والاسهام في حضارة الانسان المعاصر لما استجد من اكتشافات علمية وتقنية ولتعقد الحياة كما يزعمون.

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا السياق ان سببين رئيسيين ساهما في ما نحن فيه الآن وموقف الغالبية من الرسالة الاسلامية ومقارنتها بظروف الكنيسة واوروبا وما حدث هناك وهما:

١ - الانحراف في واقع التجربة وتولي قيادة الامة الاسلامية اشخاص

لاتربطهم بالاسلام الا الاسم والانتساب الى الموطن، فمنهم من مزق القرآن الكريم وهو ثمل، وآخر رمى بيت الله بالمنجنيق وآخر احرقه، وآخر اعمل السيف في رقاب المسلمين، ونفى وهجر وسجن الاخيار لانه لا يستقيم امره وملكه الا بذلك^(١) وآخر.. وآخر... ثم لم تنته هذه الاحداث والظواهر في عصورها بل امتدت بفضل كتاب تاريخ السلطة ووعاظها ثم اخيرا لتعاد كتابة تاريخنا ولكن ليس بأقلام المبدئين بل بأقلام اماغربية او مأجورة لهم او ربما اعيد كتابة فصول منه بأقلام من بهرته مدينة الغرب وزخارفها^(٢).

٢ - الجهل بالمفاهيم والمبادئ الإسلامية، والذي هو نتيجة للسبب الذي سبق ذكره ولعوامل ومدخلات اخرى ولعدم تمثيل المبادئ وقعا محسوسا يشع للآخر التطبيق الواعي بعد تجربة الرسول الاعظم خلال فترات وجيزة من تاريخنا الاسلامي والتي عملت الاقلام المأجورة في تشويهها وسيكون لتجربة الدولة التي اقامها السيد الامام الخميني (رض) - الجمهورية الاسلامية - الدور الاكبر في عكس الوجه المشرق لمبادئ الرسالة الاسلامية، كما ان الصحوة الاسلامية التي نعيشها اليوم بحالتها الاطرادية سيكون لها دور في ابراز وتعميم مفاهيم الاسلام لتجاوز الركام الذي خلفته عصور الاستبداد والطفغان.

(١) ابن قتيبة الدينوري، الامامة والسياسة، وتاريخ الطبري، ج ٣، ج ٤ احداث السنوات (٤١-٦٤هـ) و (٧٢-٧٩هـ).

(٢) عمر فروخ التبشير والاستعمار، ادوارد سعيد، الاستشراق، د. محمد البهي، الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار.

طرق وأساليب انتشار العلمانية

اختلفت وتنوعت الاساليب التي اتبعها انسان الغرب لنشر العلمانية في العالم الاسلامي، وان هذا التنوع والاختلاف في الاساليب والطرق يشير الى المهمة الصعبة والمواجهة العنيدة من قبل الواعين من ابناء الامة الاسلامية خاصة والغالبية من المسلمين عامة، غير ان ذلك لا يعني احكام نقاط النفوذ والانتشار ومنعه من بلوغ اهدافه فكانت هنالك فئات وحكّام ذليلين اعتلوا دست الحكم بالغلبة وبمعونة الاستكبار كانوا الطريق الاوسع لتقبل افكاره ونشرها خصوصا اذا ما لحظنا ان الصحافة والسلطة كانت هي المتبنية والداعية لهذه الافكار.

أ - المدارس والجامعات التبشيرية؛

كان لنشاط البعثات التبشيرية دور بارز في نشر العلمانية، وكان لمدارسها وجامعاتها التي انشأتها في الوطن الاسلامي في (سوريا ولبنان ومصر وفلسطين والسودان) اهمية خاصة في هذا المنحى حيث تدرّس فيها الثقافة والفكر الغربي، وكان ابناء الاقلية المسيحية طلائع الاتصال بالثقافة والفكر الغربي، ومن ثم كانوا اقلاماً تروّج الافكار العلمانية في الصحف والمجلات، بل ألف البعض في ذلك كتباً ضمنها هذه الافكار والمبادئ، ومن هؤلاء (شيلي الشميل ١٨٥٠-١٩١٧م) وفارس نمر (١٨٥٦-١٩٥١) والذي انشأ مجلة (المقطم والمقتطف) بمساعدة يعقوب حروف (١٨٥٢-١٩٢٧)، وكانت هذه المجموعة معروفة بميلها الشديد للاستعمار والمد الغربي، وكانت تتبنى في الوقت عينه مختلف انواع الدعوات التي ينادي بها ويرفع شعارها الاستعمار الثقافي.^(١)

(١) نفوسه سعيد، تاريخ الدعوة الى العامية في مصر - ص ٤٤.

وكانت احدى وسائلها والتي تبنتها مجلة (المقتطف) الدعوة الى العامية في وجهة اللغة العربية الفصحى فهي لغة القرآن دستور الدولة ومنهج الحياة وبذلك يتم ابعاد المسلمين عن كتابهم واحكامه ومبادئه.

ب - التعدد الديني في العالم الاسلامي

لقد كترس انسان الغرب الاستعماري جملة من المشاكل السياسية والدينية والاجتماعية لاضفاء اهمية خاصة للعلمانية وربطها بتقدمه وتخلف العالم الاسلامي، ومن ثم محاولة اثاره هذه المشاكل في احايين كثيرة في العالم الاسلامي ومن اهمها مسألة التعدد الديني والطائفي «وهو تعدد ناجم عن مسار تاريخي لتلك المنطقة بالذات وللطبيعة السمحة للدعوة الاسلامية: لاسيما فيما يتعلق بالديانتين المسيحية واليهودية، لذلك لعب الاستعمار على اوتار مشاعر الاقليات الدينية والطائفية خلال الحكم العثماني»^(١) وقد توج مساعيه بالدعوة الى اقامة نظام ومجتمع علماني، يساوي بين جميع المواطنين دون النظر الى الدين والجنس حيث تتحول العصبية الدينية الى اطار موحد للامة، تتآلف فيه طبقات الناس تبعا لنموذج يحاكي اعضاء الجسم وحاجاته وتلتئم بفعل قوة حيوية تقوم به.

وقد لعبت تلك الطوائف دورا بارزا في خدمة الاستعمار خصوصا فيما يتعلق بالثرويح للافكار والثقافة الغربية، فكما كان للبعثات التبشيرية دورها في هذا الاتجاه، فقد كان للماسونية ومحافلها المنتشرة في بلدان العالم الاسلامي دورا لا يقل عن دور البعثات إن لم يتجاوزه في مفاصل اخرى ذات اثر كبير في انشاء

(١) العلمانية في الاسلام، م.س - ص ٥٩.

الجمعيات والاحزاب والعمل الدؤوب من اجل انهاء الخلافة الاسلامية وسقوط الدولة العثمانية، ومن ثم تقسيم العالم الاسلامي مما ساهم في تحقيق اهداف وغايات الاطراف الطامعة في العالم الاسلامي.

ج - التشكيك في مبادئ الاسلام وشموليته

ويمكن للدارس في هذا المنحى ان يلحظ ان دراسات المتغربين وتبعاً لاعداء الرسالة الاسلامية قد اثاروا نقطتين لتشويه الاسلام وتحجيم دوره ومن ثم التمهيد لغاياتهم واهدافهم.

(١) محاولة اضعاف صبغة الديانة المسيحية والكنيسة على الاسلام من اجل تعبئة الذهنية الاسلامية وسواها بأن الاسلام ليس بعقيدة ومنهج حياة اشتمل تصوره على الاحكام والمبادئ التي تمثل عالميته وشموليته لحل اشكالات الحياة السياسية والاجتماعية ومن هذاروجوا لثيوقراطية الاسلام.

(٢) محاولة حصر دور الرسول الاعظم (ص) في تبليغ الاحكام وهداية الناس ليس الا وانه بتلك الجهود الجبارة وقيادته المعصومة لم يكن قد أنشأ الدولة الاسلامية الاولى التي نعمت الامة في ظلالها بالعدل والمساواة والاخاء فتمتع الناس بجميع طوائفهم وفتاتهم - بالامن والمساواة والتسامح الديني والذي عرفت به الدولة الاسلامية ابان عهدها الاول بزعامته وقيادة الرسول الكريم (ص) الذي ارسى قواعد العدل ومبادئه وفضل للتصور الاسلامي - حتى اضحى ذلك تقليدا للحكام والسلاطين الذين اعتلوا دست الحكم بالغلبة والقهر فيما بعد العصر الاول.

إشكالات العلمانيين حول الاسلام

لقد أثار العلمانيون جملة من الإشكالات في مواجهة الفكر الاسلامي. وبذل في هذا الاتجاه جهد كبير تآزرت عليه امكانات دول ومؤسسات داخل وخارج العالم الاسلامي مع جهود ملحوظة لعديد من دعاة العلمانية وان هذه الإشكالات لاتعدو كونها اسقاط لسلوك رجال الكنيسة ومواقفهم ازاء الظواهر المختلفة التي عصفت بالمجتمع الاوروبي اولا، وانها ناشئة عن الخلط بين الواقع التطبيقي للتجربة الاسلامية والاسلام كمبدأ وعقيدة ومنهج حياة، وعدم وضع فاصل بينهما ثانيًا، ويضاف الى هاتين النقطتين نقطة اخرى لها اهميتها في هذا المنحى الا وهي عدم التعمق في الاطلاع على الفكر الاسلامي من منابعه الاصلية واتخاذ تجربة الرسول الاعظم(ص) مثالاً يحتذى على مستوى التطبيق او الدراسة، ولعلنا بايراد جملة من النصوص التي تضمنها الخطاب العلماني تتضح لنا اشكالاتهم وما ذهبنا اليه في ارجاع اشكالاتهم الى النقاط الثلاث سابقة الذكر.

فيرى الدكتور فؤاد زكريا وهو ممن يتبنى هذا النوع من التفكير، ففي نظره كانت المسيحية مؤسسة رسمية تتدخل في شؤون الفرد والمجتمع والدولة...، ولم يكتب الاستقرار للمجتمع الاوروبي، ولم يبدأ العلم الاوروبي في تحقيق انجازاته الجبارة الا بعد ان تراجعت هذه النظرة التوسيعية المهيمنة على اساليب الفكر والعقل وترك رجال الدين مهمة تفسير العالم وظواهره الطبيعية للعلماء.

ويقول ايضا: اعتقد ان من المفيد للفكر الديني المعاصر ان يحلل ما حدث في تجربة انتقال اوروبا من العصور الوسطى الى العصر الحديث وهي التجربة التي يبدو ان بعض عناصرها آخذة في الظهور في مجتمعنا المعاصر.^(١)

فالعلمانية أصبحت مطلباً تاريخياً نظراً للتغيرات المستجدة، فالعلم والتكنولوجيا يفرضان في كل مكان اضطرابات تمس الوضع الانساني نفسه وتهدم البنيات النفسية والاجتماعية والسياسية التي كانت خاضعة للخطاب الديني^(١). وأعلن البعض الآخر أن عصر العلم يتجاوز هذه المرحلة بالفعل ولم يعد لها أهمية الا من حيث انها تمثل مرحلة تاريخية عابرة وحسب^(٢).

وفي الوقت نفسه أكد آخرون ان زمن المعارف الدينية قد انقضى واننا لسنا في العهد الديني ولا في العهد الميتافيزيقي، وإنما في العهد الوضعي أي عهد العلم والتجربة^(٣).

إن الخلاصة التي ينتهي اليها الخطاب العلماني في التحليل الاخير هي ضرورة تجاوز الاسلوب الديني في التفكير على غرار ما فعلته الوضعية^(٤).

وقد عبر العلمانيون عن هذا الاقتناع الفكري وتبنوه بالحاح، وكانوا على قدر من الشجاعة حينما اعلن بعضهم ان الدين فكرة بشرية مازالت في الطفولة او على الاقل بصدد التكوين. فكان على العقل ان يتحرر من الدين بدخول العصر الحديث^(٥).

(١) مقال بعنوان الفلسفة والدين في المجتمع العربي المعاصر - مجلة المستقبل العربي - العدد ١٩٨٥/٧٦ ص ١١١.

(١) محمد اركون، منشورات جريدة الاتحاد الاشتراكي رقم ٤، ص ٦.

(٢) فؤاد زكريا، م. س - ص ٩٦.

(٣) د. عبدالعزيز عزت، آراء في طبيعة الظواهر الاجتماعية، القاهرة، ص ٨.

(٤) د. محمد امزيان، منهج البحث الاجتماعي، المعهد الاسلامي العالمي، ص ١٥٨-١٥٩.

(٥) هشام جعيط، الشخصية العربية الاسلامية، والمصير العربي - ص ١٠٠ نقلا عن كتاب منهج

البحث الاجتماعي - ص ١٥٩.

العلمانيون والدولة الإسلامية

تعد اهم الاثارات والاشكالات التي اثيرت من قبل العلمانيين هي المشكلة الخاصة حول علاقة الاسلام بالدولة او بعبارة اخرى علاقة الاسلام بالسياسة، وقد حمل هذه الاشارة كتاب صدر بعد حوالي عام من الغاء الخلافة في تركيا (١٩٢٤) والكتاب هو (الاسلام واصول الحكم) ل(علي عبد الرزاق) والفكرة الاساسية في هذا الكتاب هي ان الرسول (ص) لم يكن «الارسولا لدعوة دينية خالصة وتشوبها نزعة ملك ولا دعوة لدولة» و«ان الاسلام وحدة دينية وان النبي (ص) دعا الى تلك الوحدة، واتمها بالفعل قبل وفاته».

ويرى علي عبد الرزاق «ان الرسالة لذاتها تستلزم للرسول نوعا من الزعامة في قومه والسلطان عليهم ولكن ذلك ليس في شيء من زعامة الملوك وسلطانهم على رعيتهم فلا تخلط بين زعامة الرسالة وزعامة الملك»^(١).

ومن ثم ان هذه الفكرة اخذت تشغل مساحة كبيرة في خطاب العلمانيين بمختلف تياراتهم واتجاهاتهم الفكرية محاولة منهم للتركيز في الذهنية الاسلامية ان الاسلام دين طقوس وعبادة كما هو حال الديانة المسيحية بغية تحقيق ما يصبون اليه من توسيع دائرة نفوذ افكارهم الدخيلة والمأخوذة عن مذاهب مادية غربية كانت او شرقية، غير ان جهود علماء الاسلام وابناءه الغيارى قد حالت دون تلك المحاولات والتي ترمي الى طمس معالم الرسالة الاسلامية ومبادئها السامية، وقد توجت تلك الجهود باتساع المساحة التي شملتها الصحوة الاسلامية داخل العالم الاسلامي وخارجه، ومن ثم قيام الدولة الاسلامية المباركة بالجهود

(١) علي عبد الرزاق، الاسلام واصول الحكم، طبع بيروت ١٩٦٦ / ص ٨٣ وما بعدها.

الجسارة التي بذلها الامام الخميني (قدس سره) وابناء الاسلام في ايران لتكون مثالا يحتذى وتعبيرا واقعيا عن حيوية الاسلام وقيمومته على حياة الانسان في كل عصر وزمان، في حين لم تثمر جهود المتغربين واسيادهم الا الاستبداد والظلم السياسي والاجتماعي والذي تنوء منهما الامة في اغلب بلدانها حيث نمت في ظلال التجزئة والفكرة القومية وجنت ثمارها في الدولة الاقليمية وحكومة الحزب الواحد ودكتاتورية الفرد الصنم، فضلا عن الفساد الاجتماعي والفقر والحروب التي تشنها هذه الدول على بعضها بحجة الحدود او غيرها، والكويت شاهد قريب، وقد عبرت الجمهورية الاسلامية في ايران بمواقفها المبدئية ازاء قضية افغانستان عن روح الاخوة الاسلامية كمبدأ أساسي من مبادئ الرسالة الاسلامية، وكذا في مواقفها تجاه الدول الاسلامية الاخرى.

وعليه فـ«الاسلام كدين، او كشكل من أشكال عبادة خالق هذا العالم الذي لا خالق سواه، لا يمكن ان يترجم الى حقيقة واقعة إلا اذا كان ذلك في اطار سياسي يخضع لهدي الله، ولا يسع المسلمين ان يعبدوا الله وان يقيموا الصلاة إلا حين يغدون رعايا مخلصين لدولة اسلامية»^(١) اقيمت وفقا لمبادئ الاسلام وحكمتها في جميع شعب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وهكذا يتضح لنا ان تلك الاشكالات ماهي إلا ترديد لصدى دعاوى الوضعية الغربية وتقليد لما هو شائع في الغرب، فلا يظهر لنا عمق وعي هؤلاء بالواقع الاسلامي وطبيعة مجتمعه ولا يعكس لنا ادراكهم لقوة الآصرة التي تربط المجتمع الاسلامي برسائله وعقيدته، وان التأمل في واقع التجربة العلمانية في العالم

(١) تليمان ناجل، نظرية الدولة في الاسلام، بحث مقدم الى ندوة منظمة اليونسكو عن الرؤية السياسية والاخلاقية في الاسلام - ١٩٨٢ - ص ٩٠.

الاسلامي وفشل خططها التنموية - المستوردة - يعزى دون شك الى عدم الاخذ بنظر الاعتبار تلك الطبيعة والرابطة بين الامة وعقيدتها الاسلامية، ولا تستشعر بأية صلة ورابطة بتلك الخطط التنموية التي هي نتاج لمرجعية فكرية تباين وتغاير المفاهيم والمبادئ التي آمنت بها الامة وصيغت شخصيتها وفعالها خلال قرون عديدة عاشتها في ظلال الاسلام الوارفة وهي تقود مسيرة الانسانية.

العلمانية والواقع التطبيقي

لما كان انفصال بلدان العالم الاسلامي عن الدولة العثمانية ومن ثم استقلالها شعر الحكام بالحاجة الى وضع دساتير تحدد شكل الحكم فيها وكيفية توزيع السلطات وحقوق المواطنين وواجباتهم، وقد نشأ صراع عنيف بين التيارين الديني والعلماني حول المصادر التي يجب ان تستقي منها هذه الدساتير قوانينها، وكان وضع الدستور المصري عام ١٩٢٣ صورة عن هذا الصراع^(١).

وان الذي صاغ قانون مصر وواضعه هو عبدالرزاق السنهوري ومن ثم قد وضع معظم دساتير الدول العربية في عهد استقلالها، وان المنحى الاساسي الذي ضمنه السنهوري في هذه الدساتير هو العلمنة - اي عدم جعل الشريعة الاسلامية والفقهاء الاسلامي من مصادرها الرئيسية. وقد بدا بذلك واضحا في مسودة الدستور المدني المصري الجديد الذي كلف بوضعها مع القانوني الفرنسي «لامبير» غداة الغاء الامتيازات الاجنبية في مصر بمعاهدة مونتر عام ١٩٣٧^(٢).

(١) د. محمد كامل ضاهر، الصراع بين التيارين الديني والعلماني - ص ٢٩٥.

(٢) م. س - ص ٢٩٦.

وقاوم - السنهوري - كل الاتجاهات التي طالبت باستنباط مبادئ هذا القانون من الشرعية الاسلامية وأصر على اعتماد المصادر العلمانية الغربية بحيث صدر القانون ومعظم بنوده مستمدة من هذه المصادر، وقد أخذت سوريا في عام ١٩٤٩ بهذا القانون، وعندما صد القانون العراقي عام ١٩٥٦ كان السنهوري ممن شاركوا في وضعه وجاء مزيجاً من القانون المصري واحكام الفقه الاسلامي المستخلصة من جملة الاحكام العدلية بناء على اصرار العراقيين على ذلك.^(١)

وتعد تركيا السابقة في هذا المضمار حيث الغيت الخلافة عام ١٩٢٣ وأسست الجمعية الوطنية وتم انتخاب مصطفى كمال اتاتورك رئيساً لها والذي كان يعمل من أجل «ان تتخلص الامة التركية من كل المعتقدات التي اوهنت جسم الدولة العثمانية، وكان كل ماله صلة بالاسلام فهو في قاموس اتاتورك يعني الرجعية والتخلف».^(٢)

وبعد الغاء الخلافة كان استبدال الاحكام الشرعية بالقوانين الوضعية وإلغاء التقويم الهجري، ومحاربة اللغة العربية وما يتصل بها كإلغاء الاحتفال بالأعياد الاسلامية وفرض السفور الى غيرها من الاجراءات التعسفية ضد المبادئ الاسلامية.

آثار الواقع التطبيقي للعلمانية

لقد عانى المسلمون الكثير ولا يزالون يعانون من الآثار السيئة والسلبية الناشئة عن تطبيق العلمانية في مجالات الحياة وميادينها المختلفة، فضلاً عن وضع

(١) الصراع بين التيارين الديني والعلماني، م. س. - ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٢) م. س.، العلمانية في الاسلام - ص ٧٨.

الحواجز بين الامة وعقيدتها الاسلامية، واقصاء الاسلام عن الحياة العامة فكانت التجزئة والتبعية للاستكبار الاوروبي وتحكم انسان الغرب في مقدرات الامة الاسلامية، ومن ثم اقامة الكيان الصهيوني في فلسطين ومن بعده كان العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦، وكان القمع والاستبداد والطغيان، وكانت نكسة حزيران وحرب عام ١٩٧٣ مع العدو الاسرائيلي واقتطاع جزءا من لبنان كحزام اممي للكيان الصهيوني وكانت الحرب ضد الجمهورية الاسلامية عام ١٩٨٠ بدافع من القوى الاستكبارية ومن يدور في فلكنهم في المنطقة لاطفاء نور الاسلام ويأبى الله الا ان يتم نوره...

وهكذا تتابع الكوارث والويلات على العالم الاسلامي، والجزائر شاهد آخر وليس اخيرا من ثمار علمنة الدولة وشارة الى فشل تلك الانظمة وعدم انسجامها مع فكر وثقافة الامة التي نشأت وترعرعت في ظلال رسالات السماء. فان كانت طبيعة المجتمع الاوروبي ساهمت في النجاح النسبي للعلمانية وسواها من الافكار والمبادئ فإنا لم نجد لها في وطننا الاسلامي مثل هذا النجاح، فالحكومات التي اقيمت بوساطة الاستعمار وهي بقية مما خلفه لنا يوم اجبرته الشعوب الاسلامية على الرحيل مكرها من اوطانها لم تأخذ بما اشاعه الغرب من الديمقراطية - التعددية في الحكم - أو المساواة أو حرية الرأي والعقيدة، بل قامت هذه الحكومات على اساس القمع والاضطهاد والدكتاتورية، كما لا بد من الاشارة الى ان انسان الغرب يوم احتل اجزاء كثيرة من العالم الاسلامي لم يتعامل معه بما اشاعه او بما دعت اليه الثورة الفرنسية، ولا المبادئ الوضعية التي حملها كثير من ابناء الامة مقلدا المحتل لبلاده كضريبة تقدير لتفوقه وتقدمه...

فشعارات الخطاب القومي العلماني ومن قبله الغربي شيء والواقع التطبيقي

شيء آخر مخالف بل ومباين في جميع مفاصله، فقد خدع هؤلاء بالشعارات والتقدم المادي والذي اصطلح عليه الغربيون انفسهم بـ«وحش النمو» وعصر «القلق»^(١).

بيد أننا نجد شهادات الغربيين انفسهم حول فضل الاسلام والمسلمين على الحضارة القائمة اليوم، بل ان اسلاف هؤلاء كانوا بهروا بحضارتنا وثقافتنا، فالملك (اوقا) ملك (مرسيه) (٧٥٧-٧٩٦م) قد صك عملة نقدية - وهي محفوظة في المتحف البريطاني الآن - وقد نقل حرفيا كتاباتها وهي تقليد لدينار عربي - اسلامي - وظاهر فيه التاريخ الهجري (١٥٧هـ) فقد وضع اسم الملك في وسط العملة تحيطه الكتابة العربية والتاريخ الهجري ويقول كريستي ان «دين العالم الغربي للاسلام في فن العمارة كبير في مجموعه»^(٢).

ويشير (هاري شاپيرو) الى دور الثقافات التي استولى عليها الغربيون في عصر الاكتشافات والاحتلال في بناء حضارته وازدهارها الحالي. وقد قدر (سيردوك) هذه الثقافة التي نقلت الى الغرب بنحو ثلاثة آلاف ثقافة متميزة بخصائص معينة كل على حدة وهي تعود الى عصر الاكتشافات الذي افتتحه الملاحون البرتغاليون في القرن الخامس الميلادي والاوروبيون ينتشرون في كل نواحي العالم.^(٣)

وقد الفت كتب كثيرة حول تأثير الحضارة الاسلامية على الغرب.^(٤)

(١) رينيه دويو، انسانية الانسان، طبع لبنان - ص ٦٥.

(٢) كريستي ارنولد، تراث الاسلام - ص ١٥٥.

(٣) هاري شاپيرو، نظرات في الثقافة - ص ٢٢.

(٤) يراجع المستشرقة الالمانية زغريد هونكه (شمس العرب تسطع على الغرب) وفريد وجدي (الاسلام في عصر العلم).